سليمان القانوني

سلطان البرين والبحرين

حقائق في ضوء المصادر



أ.د فريدون أمجان

دار النيل

مقدمة

كان السلطان سليمان القانوني يصف نفسه بالتعبيرات الموجودة في الكتابة السابقة؛ بفضل سلسلة انتصاراته التي تمت حتى العام الثامن عشر من سلطنته، وفي الواقع فإن من يلقي نظرة خاطفة على خريطة العالم في القرن السادس عشر الميلادي، يرى دولة عظيمة منتشرة في ثلاث قارات تقع في جغرافية مركز العالم.

كانت هذه الدولة هي الدولة العثمانية التي تأسَّست كدولة تركمانية صغيرة بجانب القسطنطينية / إسطنبول، العاصمة المسيحية الأولى للإمبراطورية الرومانية الشرقية القديمة، ووسّعت أراضيها في فترة وجيزة وهي تخطو إلى أوروبا، وقضت على الإمبراطورية البيزنطية وجعلت مركزها عاصمة لها.

وفي أعقاب تشتُّت شمل الدولة السلجوقية وتمزقها بعد استيلاء المغول / الإيلخانيين مباشرة على الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي. صنع العثمانيون مكانة لهم بين الأسر التركمانية الحاكمة التي ادَّعت أنها تملك ميراثها، وأسسوا دولة باسم جدهم عثمان بَكْ (*Bey*).

وفي خلال فترة وجيزة، كان العثمانيون الذين سيطروا على شبه جزيرة البلقان بسياسة الغزو التي اتبعوها تجاه العالم المسيحي قد أحرزوا في الوقت نفسه تقدمًا سياسيًّا حيث حققوا الوحدة تحت رايتهم في الأناضول.

وقد ازدادت سرعة تقدمهم عقب فتح القسطنطينية / إسطنبول. حيث باتت الدولة العثمانية تتمتع بقوة سياسية مهمة في العالم الإسلامي.

وتبنَّى العثمانيون حماية الإسلام كمهمة أساسية بخدمة الأماكن المقدسة (الحرمين الشريفين) خصوصًا بعد القضاء على السلطنة المملوكية.

وأبعدوا عن هذه المنطقة البرتغاليين الذين استحوذوا على الطريق التجاري التاريخـي باعتبارهم قوة بحرية مهمة آنذاك، وابتدعوا نوعًا من الصراع الصليبي الجديـد ضـد المسـلمين. وبـدؤوا يهـددون حتـى الحرميـن الشـريفين؛ أما في الشمال الإفريقي فقد منع العثمانيون القمع والضغط اللذين يمارسهما الإسبان والبرتغال بالكامل؛ وكذلك حاربوا القوى الخارجة الضالّة في العالم الإسلامي واستهدفوا حماية العالم السني.

وجعـل كل هذا-بمفاهيـم الجهاد / الغزو- الدولة العثمانية تكتسـب موقفًا مختلفًا للغاية.

وقد تمكن العثمانيون في الفترات المشار إليها من الوصول إلى موقـع القوة الأساسية الموجِّهة في سياسة العالم.

وحاولـوا الحفـاظ علـى موقعهـم المتميز هـذا حتى القرن التاسـع عشـر الميـلادي بالرغم من بعض الصدمات التي واجهوها عبر الزمان، لاسـيما وأنها أصبحت تقريبًا القوة السياسـية الكبيرة الوحيدة التي تمثل كل العالم الإسـلامي طوال هذه القرون فى مواجهة الغرب.

إنه السلطان سليمان المعروف جيدًا في الشرق وأيضًا في الغرب، أحد أهم السـلاطين الأقويـاء البارزين في تاريخ هـذه الدولة وفي علو شـأنها وارتقائها، فبينما يُعرف في المصادر الغربية بـ"السلطان المعظم"، فإنه كان يُذكر في الفترات التالية بـ"القانوني" حيث كان-بالنسبة لرعاياه- ناشرًا وحاميًا للقوانين والعدالة.

والسـلطان سـليمان هو السـلطان العثماني العاشـر الذي ظل على العرش أطول مدة بسـلطنته التي اسـتمرت سـتة وأربعين عامًا (١٥٢٠ - ١٥٦٦م)، وقد وُصفـت فترتـه من قِبـل المؤرخيـن العثمانيين بأنهـا: "أزهى عصـر"، و"العصر الذهبي".

فقـد وسّـعت الدولـة العثمانيـة أراضيها في فتـرة سـلطنته وخصوصًا نحو الغرب ووسـط أوروبا. وعلاوة علي ذلك تم للمرة الأولى اتباع سياسـة تسـمي

"ما وراء البحار" حيث أحرز العثمانيون تقدمًا سواءً إلى شمال وغرب إفريقيا أو إلى سهوب شمال روسيا حتي وصلوا إلى المحيط الهندي.

ويُعتبر السلطان سليمان الجد المؤسِّس لمهمة سياسية جديدة ظلت ميراثًا لورثته من بعده وأصبح ممثلا لعصر يُذكر دائما بالشوق والحسرة.

وقد تناول هذا الكتاب الذي بين أيديكم فترة حكم السلطان سليمان التي استمرت مدة طويلة وعالمه الشخصي ورجاله من حوله وبيئته... وكيف أنه كان صاحب توجه سياسي، كما تم تناول ودراسة سلسلة الأحداث التي عاشها هو بنفسه نقلا عن المصادر المكتوبة ووثائق الأرشيف الخاصة بهذه الفترة مباشرة. ولما لم تدرس سيرته الذاتية إلى اليوم كوحدة متكاملة بشكل مفصل سنعرض في هذا الكتاب لحياته، وأحداث عصره بأسلوب ميسرٍ وليس بلغة علمية رسمية. بيد أنه يجب أن أوضح أيضًا أن هذه المعلومات قد تم استخراجها من البداية من تواريخ الوقائع العثمانية ووثائق الأرشيف مباشرة.

ويجب أن أفصح كذلك أن هذا الكتاب هو الثمرة الأولى لدراسةٍ ظللت أعمل فيها منذ سنوات طويلة. وإن شغف القارئ وتطلعه إلى الوصول إلى المعلومات الصحيحة بشأن السلطان سليمان كان هو أهم باعث في كتابة هذا الكتاب، وسوف يلاحظ بوضوح عند قراءة هذا الكتاب أن السلطان سليمان قضى عمره في العمليات العسكرية والحروب.

وإيمانًا بأن هذا العمل -موضوع البحث- الذي سيُنشر للمرة الأولى باللغة العربية سوف يصل إلى هدفه فإني أدين بالشكر للمسؤولين القائمين على طبع الكتاب.

أ. د. فَرِيدُون أَمَجان

إسطنبول - ٢٠١٣م

مولده وطفولته وسنوات شبابه كأمير

وُلـد طفل ذكر في قصـر خاص بالأمراء المنتسـبين لآل عثمان الذين كانوا يديـرون الحكم فـي مدينـة "طِرَابْـزُونْ (*Trabzon*)"[1] السـاحلية المهمة الواقعة في شـرق سـواحل البحر الأسـود في تركيا اليوم في السادس من شهر صفر عام ٩٠٠هـ؛ هو حفيد بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية / إسـطنبول. وكان والده هو السـلطان ياووز سـليم الذي سـيقضي على الدولة المملوكية فيما بعد.

كان السـلطان سـليم يقيم في "طِرَابْزُونْ" كأمير منذ سنة ٨٩٢هـ، وبينما كان يقيـم في هذا المكان إذ تعـرّف على جارية تُدعى حفصة، وبنى بها فأنجب منها ابنًا ذكرًا سـمّاه سـليمان تيمنًا بسـيدنا سليمان عليه السـلام الذي رأى اسمه في صفحة مفتوحة من القرآن الكريم قَدَرًا.

قضى سنوات طفولته بجوار والده في القصر الواقـع في "طِرَابْزُونْ"، وكانت "طرابزون" عاصمة الدولة التي أسسـتها عائلـة "كومنينوس (*Komnenos*)" وهي إحدى عائلات الإمبراطورية البيزنطية عقب احتلال اللاتين للقسطنطينية في سنة ١٢٠٤م أي أن "طِرَابْزُونْ" كانت عاصمة إمارة الروم.

وقـد فتـح هذه المدينة السـلطان محمـد الفاتح في سـنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م. وكانـت مدينـةً متنوعـة الأجنـاس، وتتصف بالنشـاط والحيوية لأنهـا تقـع على الطرق التي تصل إلى القِرْم والقفقاس (القوقاز) وإيران.

وعندما تخطى سن الطفولة وأصبح يافعًا، أثرت في طبيعته بيئة "طِرَابْزُونْ" القاسية، وجوها القارس القاسى.

تلقى تعليمًا وتربية جيدة باعتباره الابن الوحيد لأبيه في الحياة، وكان ذلك

---

(١) محافظة في شمال شرق تركيا اليوم. (المترجم)

في القصر الذي شاهد منه أمواج البحر الأسود المتلاطمة.

وفي تلك الأعوام كان له صديق حميم مخلص مشـهور ومعروف وهو في الوقت نفسه أخوه من الرضاعة يدعى يحيى.

ويحيى هو ابن عمر افندي الذي عمل قاضيًا في "طِرَابْزُونْ"، ثم اسـتقر بعد ذلك في إسطنبول، وكان عالم دينٍ متصوفًا ذا شأن.

وكانت تكيته الموجودة في حي "بشيكطاش" واحدةً من أكثر الأماكن شُهرةً في إسطنبول في القرن السادس عشر الميلادي.



نقش تمثيلي بارز للسـلطان ياووز سـليم. (فرانكفورت) *(Vahre Abbildungen der Türkischen Kayser und Persischen sowohl anderer Helden und Heldinner von dem Osman bis auf den andern Mahomet ((Georg Greblinger) Frankfurt* (١٦٤٨م)

وقد عين الأمير سليم العالم الكبير خير الدين أفندي معلمًا لابنه سليمان.

حيث علّمه إلى جانب القراءة والكتابة المعلومات الدينية الأساسية.

بالإضافـة إلى ذلك فبينما كان سـليمان يلعـب الألعاب المتنوعة في حديقة القصر مـع صديقه الحميم يحيى كان يشتغل أيضًا ببعض الصناعات اليدوية.

كان هـذان الصديقـان قد تعلما مهنـة صياغة الجواهر مـن رجل رومي في "طِرَابْزُونْ".

وواصل سليمان فيما بعد مهنة صياغة الجواهر عندما اعتلى العرش أيضًا.

وكان فـي الأيـام العصيبـة الخانقـة ينكب من وقـت لآخر على الاشـتغال بالأحجار الكريمة بغرض الراحة والابتعاد عن أمور الدنيا.

وعندمـا بلـغ سـن الشـباب شـاهد العمليات العسـكرية فـي المنطقة التي يتواجد فيها والده.

وأدرك للمـرة الأولـى وفـي الوقـت المناسـب الأحـداث الجاريـة حولـه وصراعات والده في هذه الحدود / الثغور.

لأن والده دخل في تلك الأثناء في صراع شـديد مع قوات الشـاه إسماعيل الصفوي الذي تحرك بشكل فعّال على الحدود العثمانية، وحاول تأسيس دولة، جامعًـا حولـه التركمان أصحاب الميول الشـيعية خاصة سـنة ٩٠٦هـ وفي سـنة ٩١٢ – ٩١٤هــ التـى ازدادت فيها سـرعة الصراعات والاشـتباكات على حدود "سَـنْجَقْ (*Sancak*)"[٢] طِرَابْـزُونْ؛ فاضطـر الأميـر سـليم إلى القيام بسلسـلة من العمليات العسـكرية السـريعة في نواحي "أَرْزِينْجَانْ (*Erzincan*)"، وربما شارك سـليمان بجانب والده في بعض هذه العمليات واكتسـب أيضًا تجربته السياسية والحربيـة الأولـى، وربما أنابه والده مكانه في "طِرَابْـزُونْ" عندما يغيب عنها في بعض الأوقات.

وفي الوقت الذي كثّف فيه والده المعارك الواقعة على خط حدود سَـنْجَقْ

(٢) السـنجق هـو التقسـيم الإداري للولايـات فـي الدولة العثمانيـة بحيث تكون الولايـة مكونة من عدة سَـنَاجِق. يشـير هذا المصطلح في اللغة التركية إلى "العلم الراية"، وهو ما يعادل لواء بالعربية. مراد الثالث (١٥٧٤–١٥٩٥م) السـلطان العثماني قرر اسـتخدام هذا المصطلح للإشـارة إلى التقسـيمات الإدارية في إطـار الدولـة العثمانيـة. كان السـنجق الذي يسـمى (لواء) أيضا تقسـيما إدرايا ما بين الولايـة والقضاء من حيث المسـاحة. وكان يُسـمى من يرأسه "متصرفا". وقد ألغيت السـناجق في العصر الجمهوري، وجعلت ولايات. (المترجم)

"طِرَابْزُون"، أقيمت في قصر "طِرَابْزُونْ" مراسم ختان فاخرة للغاية -طبقا للتقاليد الدينية- للأمير سليمان الذي أكمل عامه العاشر وقد أقيمت هذه المراسم في أحد شهور صيف سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م)، وكان هذا الوضع يعني بالنسبة لسليمان أنه تخطى منذ ذلك الحين سن الطفولة وبدأ من هذا التاريخ يتصرف على اعتبار أنه أميرٍ شاب ينتسب إلى آل عثمان.

ومن المحتمل أنه كان يعيش في القصر مع والدته حفصة سلطان وأخواته البنات، ولأنه الابن الذكر الوحيد فمن الواضح أنه لم يحظَ بانتباه واهتمام والده سليم إليه فحسب بل حظي كذلك باهتمام والدته وأخواته البنات؛ حتي إنه كان شاهدًا أيضًا على زواج بعض أخواته البنات ببعض الباشوات من أهل الوجاهة في الدولة العثمانية.

وقد حان من الآن فصاعدًا وقت تعيين سليمان الشاب لقيادة وإدارة أحد السناجق وفقًا لعادة الدولة العثمانية، وإزاء رغبات ومطالب والده الملحة وافق جده بايزيد الثاني على تعيينه في النهاية في منصب إداري، بيد أن هذا القرار أدى إلى معارضة الأمير أحمد الأخ الأكبر للأمير سليم، والذي كان يتولى الإدارة في "أَمَاسْيَا (*Amasya*)" ويرى نفسه أكبر المرشحين للعرش العثماني بعد بايزيد الثاني، وفي تلك الأوقات كان الأمير سليمان -الذي بلغ حوالي الخامسة عشرة من عمره- يتابع بقلق واهتمام كل هذه الأحداث وكان والده الأمير سليم يستعد رويدًا رويدًا لصراع متوقع على العرش ضد أخيه الكبير الأمير أحمد وبالإضافة إلى ذلك يكون قد اختبر ماذا سيفعل أخوه في طلبه السَنْجَقْ لابنه، ولم يخطئ الأمير سليم في تخميناته وظنونه فقد واجه أخاه الكبير أحمد بسبب السَنْجَقْ الذي طلبه من أجل ابنه سليمان.

حيث طلب سليم من أجل ابنه سَنْجَقًا في مكان قريب من منطقته، بيد أن هذا المكان كان يقع في الوقت نفسه بالقرب من منطقة الأمير أحمد الواقعة في أَمَاسْيَا.

عـرض بايزيـد الثانـي على حفيـده الأمير سـليمان سَـنْجَقْ "سُـلْطَانْ أُونُو (*Sultan Önü*)" الواقــع فـي منطقـة "أَسْكِيشَـهِرْ (*Eskişehir*)" الحالية وهو في مـكان أبعـد، ولكـن يمكن الوصـول إليه بسـهولة؛ وذلك من أجـل تهدئة هذه المشـكلة بيـن ابنيه سـليم وأحمد، وإلى جانـب ذلك عرض منطقة "كِيرَسُـونْ (*Giresun*)" - "شِيرَانْ (*Şiran*)" الواقعة بالقرب من سَنْجَقْ سليم كبديل أيضًا، رفض سـليم هذين العرضين لأنه كان يطمح لسـليمان في سَـنْجَقْ "شَـبِينْ قَرَه حِصَارْ (*Şebinkarahisar*)" الموجود في موقـع اسـتراتيجي مهم.

ورغم أنه ألـحّ على والده في هذا الموضوع إلا أن والده رفض لرجحان كفة الأميـر أحمد وأتباعه لديه. وأن الأميـر أحمد وأتباعه لم يقبلوا هذا الطلب على اعتبـار أنها مسـألة صعبة شـديدة الوطأة. حتـى إن الأمير أحمـد اعترض على منح سَـنْجَقْ "بُولُـو (*Bolu*)" الكائن في موقـع أقـرب إلى إسـطنبول لابن أخيه سـليمان مقترحًـا ضـرورة تعيين ابنه مـراد في هذا المكان.



منمنمة ترد في كتاب نقاش عثمان المسمى "شمائل نامة: رسالة الشمائل" عام ١٥٧٩م، وتصور مرحلة شاب سليمان الأول

وفـي النهايـة تـم تقديـم عـرض من البـاب العالـي يمكـن أن يُرضـى كلا الطرفيـن، ويقضـى العرض بمنـح الأمير سـليمان سَـنْجَقْ "كَفَـه (*Kefe*)"(٣) الواقـع في شبه جزيرة "القِرْم (*Kırım*)" في الضفة المقابلـة لـ"طِرَابْزُونْ"، ومنـح الأمير مراد سَنْجَقْ "بُولُو" (٩١٥هـ - ١٥٠٩م).

كان الأمير سليمان متابعًا عن قرب لـكل هـذه المراسـلات والمبـادرات،

(٣) "كَفَه" هي مدينة ساحلية وميناء في شبه جزيرة القِرْم بأوكرانيا، على البحر الأسود. (المترجم)

وتعلّم أيضًا كيف تسير الأمور، وربما أكسبه هذا أيضًا التجربة الأولى من ناحية إدارة الدولة. أما التجربة الكبيرة الثانية في هذا النسق فهي التي سوف يكتسبها في أثناء الصراع الذي سيقوم به والده سليم من أجل اعتلاء عرش السلطنة.

ذهب الأمير سليمان إلى مكان الوظيفة الإدارية الأولى ورافقته والدته ومعلمه ومربيه، حيث غادر "طِرَابْزُونْ" التي ولد فيها وقضى فيها خمسة عشر عامًا، والتي لن يعود إليها مرة أخرى، وصلت السفينة التي ركبها إلى ميناء "كَفَه"بعد أن كانت تسير في محاذاة الساحل الذي يتلاطم بالأمواج في مياه البحر الأسود العاتية.

فهذه المدينة الساحلية المعروفة اليوم باسم "فيودوسا (*Feodosia*)" وهي مستعمرة "جَنُوَة (*Cenova*)" القديمة التي تقع في جنوب شرق شبه جزيرة القِرْم أصبحت سَنْجَقًا عثمانيًّا بعد أن تم الاستيلاء عليها في عهد السلطان محمد الفاتح عام (٨٨٠هـ - ١٤٧٥م) أما أميرها العثماني الذين عُين للمرة الأولى في هذا المكان فهو محمد وهو ابنٌ آخر لبايزيد الثاني غير أن هذا المكان لم يمنح لأي شخص آخر ينتسب إلى آل عثمان بعد وفاة هذا الأمير المفاجئة، ونُصِّب سليمان على "كَفَه" بدلًا من عمه، وأصبح ثاني وآخر منتسب لآل عثمان يعين في هذا المكان.

ولا توجد معلومات لدينا بشأن ما شهده من أحداث محلية في أثناء إمارة السَنْجَقْ والتي استمرت لمدة ثلاث سنوات.

بيد أن صراعات والده سليم على العرش والذي وصل إلى "كَفَه" بعده بعدة أشهر يبدو أنها قد حددت الأحداث التي أثرت في إمارة هذا السَنْجَقْ؛ حيث جمع الأمير سليم الذي قرر قطع علاقاته تمامًا بأبيه وأخيه وكل رجاله وأشيائه المهمة، وغادر "طِرَابْزُون" بستٍ وخمسين سفينة صغيرة، ووصل إلى ابنه في "كَفَه" في شهر شعبان ٩١٦هـ (تشرين الأول/أكتوبر ١٥١٠م).

بـدا قدومـه إلى "كَفَه" وكأنه أحدث مفاجـأة صاعقة في مركز الدولة، حيث بدأت المراسـلات بيـن أخيه أحمد وأبيه بايزيد وبين الـوزراء... في هذه الأثناء استغل سليم وجوده بجانب ابنه وأقام علاقة مـع إمارة القِرْم التي اعترفت رسميًّا بالسيادة العثمانية عليها منذ عهد السلطان محمد الفاتح.

وجمـع مؤيدين له، ورفض بإصرار الاقتراحات والعروض التي قدمها أبوه له من أجل عودته.

لابـد وأن الأمير سـليمان قـد عاش أياما عصيبـة مضطربة في أثنـاء أعماله ونشاطاته هذه، وكان شاهد عيان على الصراع على السلطة الذى نشب بين جده بايزيـد الثاني الـذي يتولى العرش العثماني وأبيه سـليم، ومن الممكن أن يكون "قـد سـاوره القلق من عاقبة هذا الصراع بالنسـبة له حيث كانـت نهايته غامضة. وكانت شـائعات وصلت إلى مسـامع مركز الدولة على شـاكلة أن والده سليما يفكر في إقامة دولة مسـتقلة منفصلة في "كَفَه" والقسـم الشـرقي من "القِرْم" بل وفي القسم الشمالي الغربي.

وفي هذه الحالة لم يكن سليم فحسب بل وابنه سليمان أيضًا قد اعتبرا من الأمراء المتمردين الذين ثاروا وشـقوا عصا الطاعة ضد الإدارة العثمانية، بيد أنه لم يتدخل مباشرة في صراع أبيه من أجل السلطة، وربما فضّل الأمير سليم فكرة عدم مشاركته في صراعه من أجل حمايته، وساور سليمان قلق شديد عندما رأى والده يعود إلى القِرْم مهزومًا في معركة "أُوغْرَاشْ (*Uğraş*)" -الواقعة بين أَدِرْنَه (*Edirne*) وإسطنبول- أمام قوات جده السلطان.

يمكـن أن يلاحـظ بعد هذه الهزيمـة أنه كان يجتمـع من حين لآخر مـع أبيه الـذي انسـحب إلى القِـرْم وفضل متابعة التطـورات في إسـطنبول بدلا من هذا المـكان والراحـة لفترة ما، وأنهمـا تباحثا في موضوع كيف سـتصبح أحوالهما وأمورهمـا فـي المسـتقبل وفـي النهايـة تلقـى الوالـد دعمًا مـن الإنْكِشَـارِيّة[٤]

(٤) الإنْكِشَـارِيّة: طائفـة عسـكرية مـن المشـاة العثمانيين شـكلوا تنظيمًـا خاصًّا لهم ثكناتهم العسـكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذًا. (المترجم)

في إسـطنبول التي ارتحل إليها واعتلى العرش، فمهَّد هذا الوضـع السـبيل لبدء مرحلة جديدة أمام الأمير الشاب.

بدأت فترة جديدة بالنسـبة للأمير سـليمان الذي تصرف من خلال شـعوره بكونـه الابـن الوحيد الوارث للعرش خلفًا لأبيه سـليم الـذي اعتلى العرش في سنة ٩١٧هـ (١٥١٢م).

عندما دخل سليم الأول باعتباره السلطان العثماني الجديد في الصراع مـع أخيه الكبير الأمير أحمد أكبر منافسـيه في هذا الطريق من أجل تأمين وترسـيخ عرشـه لم يكن الأمير سـليمان قد غادر "كَفَه" بعد، إنما غادرها بعدما أبلـغ أبوه خانَ القِرْم-برسالة كتبها إليه- أنه سيقوم بحملة ضد الأمير أحمد، وأنه سيرسل ابنه إلى إسطنبول على الفور، وأنه سيجعله نائبًا له.

حينما دخل سـليمان مضيق إسـطنبول (البوسـفور) بالسفينة اسـتقبله والده بفـرح وسـرور. وكتـب مؤرخ عثماني كان شـاهدًا على هذه الفترة أن السـلطان سـليم الأول عندما سـمـع خبر قدوم الأمير سـليمان -في أثناء اجتماع الديوان الذي تم فيه دراسة تجهيزات الحملة- أمر بسرور بالـغ بإجراء الاستعدادات في الحال من أجل اسـتقبال ابنه بمراسـم احتفال، وعلى الفور أطلقت السـفن التي أقلعت من الميناء قذائف المدافـع تحية للأمير سليمان، ثم نقل إلى سفينة حربية كبيرة وأُنزِلَ إلى الساحل ونقل إلى قصر "طُوبْ قَابِي (*Topkapı*)" باحتفال فخم شارك فيه كل رجال الدولة.

وبعد أن خفف سليمان مشاعر الشوق لأبيه الذي التقى به في القصر أجريت فـي اليـوم الثاني الاحتفالات الرسـمية، وقبّل يد أبيه فـي حضور جميـع الوزراء ورجـال الدولة الآخرين وكبار موظفي الدولة والعلماء. ومـع أنه لا توجد وثيقة رسـمية قاطعة بشـأن تاريخ وصوله إلى إسـطنبول إلا أنه يمكـن القول إنه قبيل شهر ربيـع الآخر سنة ٩١٨هـ (تموز/يوليو ١٥١٢م).

ولما وصل إلى إسطنبول كانت والدته حفصة سلطان أيضًا بجانبه، حيث ظل الأمير سليمان تحت رعاية والدته حفصة سلطان دائمًا وليس في أثناء فترة الإمارة فحسب بل وفي فترة السلطنة أيضًا؛ ربما كان ارتباطه بوالدته وحبه لها يزيد كثيرًا عن الحب الذي أبداه لوالده، فلم يستطع الأمير سليمان أن يتواجد مع والده لفترة طويلة.

لأن السلطان سليم الأول كان قد غادر إسطنبول في آخر جمادى الأولى ٩١٨هـ (آخر تموز/يوليو ١٥١٢م) وسار إلى الأمير أحمد لمهاجمته. وفي أثناء خروجه إلى الحملة ترك ابنه نائبًا عنه في السلطنة.

وفي تلك الأثناء كان الأمير سليمان -الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره- قد أصبح على رأس القصر وهيئة الديوان، مما أكسبه خبرة ليضيفها إلى الخبرة التى اكتسبها بفضل تجربته الأولى ليستفيد بها في حكم السلطنة العثمانية في المستقبل.

بعد أن هزم والده أخويه الأمير أحمد والأمير "قورقود (*Korkud*)" المنافسين له على حكم السلطة وقضى أيضًا على بعض الأمراء المنتسبين إلى آل عثمان الذين يطمعون في السلطنة، عاد إلى العاصمة في شهر صفر سنة ٩١٩هـ (نيسان/أبريل١٥١٣م).

ولم يلبث أسابيع قليلة من عودته حتي أرسل ابنه سليمان إلى "مَانِيسَا (*Manisa*)" لإدارة السَنْجَقْ الجديد.

وعندما تحرك الأمير سليمان إلى "مَانِيسَا" كان الوارثَ الوحيد للعرش.

وقد ورد في السجلات التاريخية بتاريخ رجب ٩١٧هـ (أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر ١٥١١م) أنه كان يوجد في حرم سليمان عندما كان حاكم سَنْجَقْ "كَفَه" عشر جوارٍ، ومعه والدته، وإحدى أخواته البنات أيضًا، أما في الوثائق الرسمية المؤرخة بتاريخ صفر -ربيع الأول سنة ٩١٩هـ (نيسان/أبريل١٥١٣م) التي أعدت في أثناء ذهابه إلى "مَانِيسَا" فلا يوجد ذكر

بشكل واضح عن النساء الموجودات في حرمه، ولكن يُذكر في قائمة أخرى دُونت عقب ذلك -وباحتمال كبير في "مَانِيسَا"- أن عدد النساء في حرمه ثلاث عشرة، وقد ذكرت أسماؤهن أيضًا. وثمة شخصية معروفة بين هذه الأسماء هي "مَاهِي دَوْرَانْ (*Mahidevran*)" (أي: قمر الزمان) والمعروف أنها والدة الأمير مصطفى.

لهذا السبب فمن المؤكد أن الأمير سليمان قد أسس أسرة بعد سنة ١٥١٣م. وكان يوجد معه عند ذهابه إلى "مَانِيسَا" والدته حفصة سلطان وأخته ومعلمه خير الدين أفندي ومربيه قاسم بَكْ فضلا عن أربعمائة وثمان وخمسين من خدمه، أما الشخصية المعروفة الأخرى بين رجاله فكانت شخصية إبراهيم آغا (بَاشَا) أقرب أصدقائه والذي ربما تعرف إليه حينما كان في "مَانِيسَا" والذي سوف يشاركه القدر فيما بعد.

أقام الأمير سليمان في "مَانِيسَا" سبع سنوات تقريبًا حتى سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠م) وهي السنة التي سيعتلي فيها العرش.

كانت "مَانِيسَا" مركز إمارة قديمة قريبة جدًّا من "إِزْمِيرْ (*İzmir*)" في غرب الأناضول، وقد اتخذتها دولة التركمان التي أطلق عليها اسم "صَارُوخَانْ أُوغُلْلَرِي (*Saruhanoğulları*)" (أي: أبناء صَارُوخَانْ) عاصمة لها.

دخلت "مَانِيسَا" بعد ذلك تحت الإدارة العثمانية بشكل قاطع في عهد "يِيلْدِرِيمْ بَايَزِيدْ (*Yıldırım Bayezid*)" وفي عهد محمد شَلَبِي أيضًا من بعده. وقربها من إسطنبول جعل السلطان مراد الثاني (والد السلطان محمد الفاتح) يعيش فيها فترة عندما خُلع عن العرش، ويأمر ببناء قصر فيها، ومن ناحية أخرى اكتسبت موقع ومكانة العاصمة الثانية التي تدير الدولة، لذلك فإن إدارة الأمراء العثمانيين لهذه الولاية كانت لها أهمية وميزة كبيرة؛ حيث تفتح لهم الطريق إلى العرش في المستقبل. وجاء تعيين الأمير سليمان في هذا المكان باعتباره الوارث الوحيد ليعزز ويوطد إلى حد بعيد اتصاف "مَانِيسَا" بالمحطة الأخيرة للأمراء الذين سيعتلون العرش.

وبينما كان الأمير سليمان يُسيّر أموره وأعماله منذ ذلك الحين في هذا المكان كحاكم يتصف بصفة الإداري الرشيد إذ سرعان ما انتقل إلى أدِرْنَه؛ لينوب عن والده وليقوم بحماية الحدود الغربية؛ بسبب قيام والده بحملتين عسكريتين كبيرتين.

وفيما كان والده مشغولًا بالصفويين حيث هزم الشاه إسماعيل في "جَالْدِيرَانْ (*Çaldıran*)"(٥) وتقدم إلى تبريز كان هو أيضًا يرسل الأخبار من حين لآخر إلى والده، ويطلعه على كل شيء، وكان أبوه يتابع بدقة الأحداث الجارية في الغرب. وتصرفَ في أثناء حملة مصر على نفس الشاكلة كذلك. ففي أثناء غيابه جعله مرة أخرى يتابع بدقة التطورات الواقعة على امتداد الحدود الغربية وقد أكسبه كل هذا تجربة مهمة في السياسة التي سوف يتبعها في المستقبل.

فمنذ هذا الحين لم يكن أميرًا بسيطًا عاديًّا يهتم بمشاكل المنطقة التي يعيش فيها، بل كان نائبًا للعرش يدير الدولة بمفهوم حقيقي واقعي في غياب والده.

وفي أثناء هذه المهمة عرف الآلية أو التركيبة الداخلية للدولة، وأحاط بالموقف الحقيقي للعلاقات مع الدول الأجنبية، وأصبحت لديه دراية بالمهمة الأساسية للدولة العثمانية. وقد جعله كل هذا إداريًّا ناضجًا يعرف ماذا سيفعل عندما يعتلي العرش في المستقبل وليس غِرًّا حديث العهد بالإدارة.

أما في أثناء إمارة سَنْجَقْ "مَانِيسَا" فقد حاول أن يعرف المنطقة التي تحت إدارته فخرج في فصل الصيف إلى الهضاب والمصايف الجبلية، وبسبب الصيد الذي كان شغوفًا به للغاية تجول في ساحة نفوذه التي تشمل قسمًا مهمًّا في غرب الأناضول.

وهكذا رأى وضع الشعب عن قرب، فأعد نفسه للعرش بمساندة مربييه (القاسم ثم "سِنَانْ بَاشَا (*Sinan Paşa*)" ومعلمه. وقد وُلد أول أبنائه أيضًا في "مَانِيسَا".

(٥) معركة جَالْدِيرَانْ: وقعت في صيف عام ١٥١٤م بين قوات الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول، ضد قوات الدولة الصفوية بقيادة الشاه "إسماعيل الأول"، وانتهت بانتصار القوات العثمانية واحتلال مدينة "تبريز" عاصمة الدولة الصفوية. (المترجم)

لا ريب أنه حسبما تبين من الوثائق التي أمكن الوصول إليها فإن سليمان أصبح وليًا للعهد ولديه ثلاثة أطفال ذكور، وكان ذلك قبل أن يعتلي مقام السلطنة في سنة ١٥٢٠م، وفي خلال هذه الفترة لم نعثر على أي وثيقة تتحدث عن بناته، أما أكبر أبنائه فلم يكن هو الأمير مصطفى كما يُظن. كذلك هناك معلومة لافتة للنظر بهذا المفهوم في وثيقة في دفتر يومية كتبها المؤرخ حَيْدَرْ شَلَبِي بيوم الحادي عشر من شهر رمضان سنة ٩٢١هـ (١٩ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥١٥م) وردت بالشكل الآتي:

"وصل خبر مع رئيس البوابين بأنه ولد ابن للأمير سعيد الحظ وسمي بالسلطان مراد ليشبه مراد خان".

وتشير هذه المعلومة إلى أن الأمير سليمان أرسل رسالة إلى والده كي يبشره بابنه الأول الذي ولد، والأصح هو اعتبار مراد الابن الذكر الأول للأمير سليمان، ويتبين من هذه الوثيقة أن اسم هذا الطفل مراد قد وضع من قِبل الأمير، ويتضح أيضًا أن السلطان سليم الأول أقر هذا الاسم أثناء انشغاله بالأعمال التي لم تكتمل في الأناضول بعد الانتصار في معركة جَالْدِيرَانْ.

ومن الواضح أن ابني الأمير الآخرين محمود ومصطفى قد ولدا بعد مراد بفترة قصيرة، أما بخصوص تواريخ ولادة كل من محمود ومصطفى فلا نجدها في محرر دفتر اليومية هذا. ولكن ورد في بعض المصادر الأخري أن سنة ولادة مصطفى هي ٩٢١هـ (١٥١٥م).

فإن خَلا هذا التاريخ من التحريف فإنه يمكن ملاحظة أن مصطفى ولد حينئذ عقب ولادة مراد مباشرة، وأن والدة مصطفى ليست هي والدة مراد والعكس، لكن الأرجح أن مصطفى ولد في سنة ١٥١٧م انطلاقًا من تقارير البندقية. وباختصار فالقول الفصل هنا هو أن مرادا هو الطفل الذكر الأول. وانطلاقًا من هذا يمكن أن يقال إن الأمير سليمان قد تزوج سنة ١٥١٥م وهو في العشرين من عمره.

بعد ذلك بخمس سنوات غادر سليمان "مَانِيسَا" وذهب إلى إسطنبول واعتلى مقام السلطنة ولم يكن لديه أي مشكلة من ناحية استمرار أسرة آل عثمان الحاكمة من بعده فى أنجاله الذكور الثلاثة. وإن كان من المؤكد أن مَاهِي دَوْرَانْ هي والدة الأمير مصطفى فإنه لا توجد معلومة بخصوص والدتى ابنيه الآخرين، والاحتمال الأقوى أن مَاهِي دَوْرَانْ ليست هي والدة مراد ابنه الأول إلا أنه يمكن أن تكون مَاهِي دَوْرَانْ هي والدة محمود.

ويحتمل أن يكون قد تعرف على زوجته "خُرَّم سلطان" التي تعلّق بها كثيرًا في السنوات الأخيرة التي قضاها في "مَانِيسَا".

يزعم بعض المؤرخين أن ثمة احتمالا: أن تكون قد أهديت إلى سليمان في أثناء جلوسه على العرش، ويُدّعى أن "خُرم سلطان" من أصل بولندي "رُوتَانْيَا/لَهِسْتَانْ (*Rutenya/Lehistan*)"؛ أما اسمها الحقيقي فهو "الكسندرا ليزوسكا (*Alexandra Lisowska*)" وأنها أخذت أسيرةً في مكان يسمى "روغاتين (*Rogation*)" في "لويف (*Lviv*)".

غير أن كل هذه المعلومات لا يمكن أن يتم إقرارها وتصديقها بصورة مؤكدة.

أما المصادر العثمانية فلا تقدم لنا أي معلومة عنها، وبينما تطلق تقارير بعض السفراء البنادقة شائعات خاصة بها، نجد أن المصادر العثمانية تنقل معلومات سماعية خاصة بأصلها. والأمر المعلوم بصورة مؤكدة هي أنها جارية أخذت أسيرة من إحدى البلاد الشمالية وجلبت إلى حرم السلطان سليمان بشكل ما، أما استحواذها على إعجاب سليمان فكان في السنوات الأولى من سلطنته.

ونتيجة لذلك فإن الأمير سليمان الذي عرف في سنوات الإمارة أماكن مثل "طِرَابْزُونْ" و"كَفَه" وأَدِرْنَه وإسطنبول ومَانِيسَا والمنطقة التي عاش فيها. وربما قد اكتسب خبرة مهمة في كيفية التعرف على الأراضي البعيدة في دولته ورؤيته لما وراء الحدود عن طريق إلفه لهذه الأماكن، وبالحملات التي سيقوم بها شرقًا

وغربًا في المســتقبل. يبدو أن ســليمان -الذي لم ينس أنه تسلم دولة كبيرة عليه تطويرها- قد تحمل عبء وثقل هذه المسؤولية، فقد اهتم اهتمامًا خاصًّا -أثناء الإمارة- باكتساب الخبرة في الأمور الإدارية.

حتـى وإن لـم ترد المعلومات الكافية في المصادر بشـأن كيفية تلقيه تعليمًا إداريًّا، فكونه الابن الوحيد لوالده وأنه وليّ العهد باعتباره حاكم المستقبل فهذا يشير إلى أنه تلقى تعليمًا سياسيًّا بكل ما في الكلمة من معنى.

فـي هذه السـنوات شـاهد عن قرب صراع والـده على العرش لـذا فإنه لن يتجنب في المستقبل الرد بقسوة شديدة على أطماع أبنائه في العرش.



مدينة "طِرَابْزُونْ"

جلوسه على العرش - إنجازاته الأولى - حملته الأولى

انتهت أيام الأمير سليمان في "مَانِيسَا" بتلقيه خبر وفاة والده في ٨-٩ شوال سنة ٩٢٦هـ (٢١-٢٢ أيلول/سبتمبر ١٥٢٠م) من المبلّغ (كَدْخُدَا[٦] سليمان آغا) الذي أرسله الوزير الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا.

وقد مرض والده سليم عندما غادر إسطنبول في طريقه إلى أَدِرْنَه، وتوفي بالقرب من "جُورْلُو (*Çorlu*)" ربما بتسمم دم خُرَّاج ظهر في ظهره أو بسبب وباء الطاعون.

كان والده صاحب شخصية قاسية وقوية للغاية لا يمكن أن يُتنبأ أو يُخمَّن بما سيفعله، ولكنه جعل العثمانيين -بسياسته المتزنة- أكبر قوة في الشرق والعالم الإسلامي.

لا توجد معلومة بخصوص علاقات سليمان مع والده باستثناء بعض الحكايات التي رويت فيما بعد ويصعب تصديقها، فالروايات والحكايات التي لا يمكن تصديقها لا ترتبط بالواقع مثل أن ابنه تأثر بتصرفات سليم القاسية بل وأنه فكر أيضًا في القضاء عليه أو التخلص منه. ومثل هذا النوع من الحكايات ما هو إلا خرافة، ربما تكون اختُلقت انطلاقًا من معاملات سليم تجاه الوزراء الذين حوله، وعلى عكس هذه الحكايات والخرافات كان سليمان يتعايش مع والده دائما بالحسنى والطاعة، ولم يخالفه في شيء وتصرف معه كابن بار مهذب ومحترم وصادق.

وفضلًا عن ذلك... لو لوحظ أنه الوارث الذكر الوحيد لآل عثمان لتبين

(٦) كَدْخُدَا (*Kethüda*): الموظف الثقة المكلف بإدارة مكان ما. ويُطلق عليه بين العامة اسم "كهيا" أيضا. وقد كان هذا القلب يذكر مصحوبا بالعمل الذي يضطلع به بصفة عامة في تاريخ النظم العثمانية. ومن ذلك مثلا: كتخدا الخزانة، وكتخدا السجلّ، وكتخدا الوزارة. (المترجم)

بوضوح كم أن زعم رغبة سليم الأول في الأمر بقتله شيء غير معقول وليس له معنى.

بعد أن تلقى الأمير سليمان خبر وفاة والده تحرك إلى إسطنبول بطريق البر مع رجاله ووصل إلى "أُسْكُودَارْ (*Üsküdar*)"(٧) في ١٧ شوال سنة ٩٢٦هـ (٣٠ أيلول/سبتمبر ١٥٢٠م) ومن هناك ركب القارب ووصل إلى قصر "طُوبْ قَابِي" وجلس على العرش. وقد أخفي خبر وفاة والده عن الجميع حتى وصل هو إلى القصر أولا، وفي اليوم التالي ذهب إلى "أَدِرْنَه قَابِي (*Edirnekapı*)" لاستقبال جثمان والده. وأجريت مراسم الجنازة في جامع الفاتح، بعد أن أدى السلطان الجديد صلاة الجنازة على والده زار أضرحة أجداده وأمر بتوزيع "منحة الجلوس"(٨) على العرش حسبما جرت العادة.

ثم أمر بإحضار حرمه الموجود في "مَانِيسَا" والأمراء (مصطفى ومحمود ومراد)، وترك الوزير الأعظم "بِيرِي (*Piri*) محمد بَاشَا" في منصبه كأول قرار يتخذه، ورقى مربيه السابق قاسم إلى رتبة الوزير وبهذا ارتفع عدد الوزراء في الديوان إلى أربعة مع بِيرِي محمد بَاشَا ومصطفى بَاشَا وفرهاد بَاشَا.

وأبلغ الولايات المختلفة والدول الصديقة بعد ذلك أنه اعتلى العرش، وذلك بخطابات التتويج التي كتبها لهم. كما أصدر أمره الأول بخصوص بناء "عِمَارَتْ خَانَه (*İmarethane*)"(٩) وضريح وجامع من أجل والده.

(٧) أُوسْكُودَارْ: منطقة تقع بالطرف الآسيوي لمدينة إسطنبول. (المترجم)

(٨) يطلق لفظ "جلوس" على الحفل الذي ينظم حين يعتلي السلطان العرش في الدولة العثمانية. كما يُطلق على العطايا التي يوزعها السلطان حين اعتلائه العرش اسم "عطايا الجلوس". وقد كانت أولى عطايا الجلوس في الدولة العثمانية تلك التي أعطاها يِيلْدِرِيمْ بَايَزِيدْ الذي اختير سلطانا في كُوسُوَا عام ١٣٨٩م، واستمر هذا التقليد حتى جلوس السلطان عبد الحميد الأول على العرش. (المترجم)

(٩) العمارة أو دار العمارة: مؤسسات خيرية تشكلت في عهد الدولة العثمانية بهدف مساعدة المعدمين والمعوزين. وعلى حين كانت مأوي الفقراء هذه تقدم المساعدات الغذائية والكسائية والصحية للقادمين من خارج المدينة وعابري السبيل والمعوزين والعجزة في أول أمرها؛ تحولت لاحقا إلى أماكن لتقديم الطعام فحسب. وكانت نفقاتها توفر من دخل الأوقاف التي يؤسسها منشؤوها. (المترجم)



ضريح السلطان سليم

وتُبيـن مصـادر تلك الفترة أن أعماله التي قام بها بعد جلوسـه على العرش كانت عبارة عن نشـر العدل وحماية رعيته، وتذكر هذه المصادر بعض النماذج مـن هـذه الأعمال، مثل: إذنـه للصناع والأمـراء البالـغ عددهم من سـتمائة إلى ثمانمائـة بالعودة إلى بلادهم، وكانوا قـد أحضروا من تَبْرِيزْ والقاهرة فيما مضى مـن قبل والده السـلطان سـليم، ورفـع الحظر على تجـارة الحرير مـع إِيرَان، وعـوّض التجار الذيـن حُجِز على بضائعهم، وعاقب الإداريين والعسـكر الذين يؤذون الشعب، وأمر بإجراء تحقيق عام... فعلى سبيل المثال بوشرتْ الإجراءات القانونية ضد جعفر بَكْ قائد القوات البحرية والذي يعمل أميرا[١٠] على سَـنْجَقْ "غَالِيبُولِي (*Gelibolu*)" والمشـهور بين الأهالي بـ"جعفر الدموي"، والذي كثرت شكاوى الناس منه.

(١٠) أمير (حاكم) السنجق: اسم أُطلق على من يرأس خمسة أو عشرة مراكز في تلك الفترات التي طُبق فيهـا تقليـد الإقطاع (تِيمَـارْ) مـع تنظيم الإيالة في الدولة العثمانية. وقـد كان يُطلق على المناطق الممنوحة خصيصا لأولاد الأمراء أو أولاد الحكام في العصور الأولى لدى العثمانيين اسـم "سـنجق: أي مقاطعة". ويطلـق علـى حاكم كل منها "أُمراء: أي أمير". وكانوا ينظرون فـي الدعاوى التي في مقاطعاتهم، ويقررون وفقـا لأحـكام الشـريعة. وقد أُحدث تغيير في مهامهم وصلاحياتهم بناء علـى تطبيق نظام إدارة الولاية في عهد محمود الثاني. (المترجم)

وعندما ثبتت جرائمه التي اتهم بها أُعدم على الفور في (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٥٢١م). كما أنه تم تأديب بعض حكام السناجق الذين كانوا محلا للشكوى منهم بسبب تصرفاتهم غير اللائقة مثل أمير "بريزرن (*Prizren*)" الذي أمر ببيع أناسٍ أحرار كعبيد، وعُوقب عدد من "سِلَاحْدَارْ (*Silahdar*)"(١١) بشدة حيث إنهم كانوا يتجبرون على الشعب، ويظلمونه ويداهمون المنازل.

علاوة على ذلك فإنه أَذن بعد فترة لآخر الخلفاء العباسيين "المتوكل على الله" الذي أحضره والده من القاهرة إلى إسطنبول بالعودة إلى مصر.

وعلى هذا النحو خطى خطواته الأولى نحو ظهور مفهوم جديد للخلافة في شخصيته. وهكذا سوف تنتشر في المستقبل فكرته أنه السلطان الوحيد لجميع المسلمين وخليفتهم.

واعترف الشعب والإداريون بقيمة هذه الأعمال والتصرفات التي اعتبروها مؤشرًا إلى ما سوف يقدمه السلطان الجديد من أعمال وتصرفات، بيد أنه واجه قبل انتهاء الشهر الثاني من توليه السلطنة عصيان الأمير المملوكي السابق "جَانْبَرْدِي الغزالي (*Canberdi Gazali*)"(١٢) الذي عين حاكمًا على إمارة دمشق في عهد والده.

التمرد الأول: جَانْبَرْدِي الغزالي

كان جَانْبَرْدِي الغزالي–الذي أُطلق سراحه من قبل "قَايِتْبَايْ (*Kayıtbay*)"– في الأصل أسيرًا إسلافيا (صقلبيا) دلماسيا(١٣)، وحظى بنفوذ واسع في عهد

(١١) سِلَاحْدَارْ: مصطلح يستخدم بمعنى حامل السلاح. وقد تأسس في عهد يِيلْدِرِيمْ بَايَزِيدْ. وكان حملة الأسلحة يُنشئون بين الشباب المستقدمين إلى أَدِرْنَه، ويرتقون إلى هذا الموقع مع مرور الزمان. وقد استمرت هذه الوظيفة حتى عصر السلطان محمود الثاني. ويمكن تعريب هذا المصطلح إلى حامل السلاح السلطاني. (المترجم)

(١٢) جَانْبَرْدِي الغزالي: حاكم ولاية دمشق إبّان الفتح العثماني، وقاد حركة تمرد ضد العثمانيين بعد ذلك، إلا أنها باءت بالفشل وأُعدم على إثرها عام ١٥٢١م. (المترجم)

(١٣) "الدلماس" أحد أبناء دلماسيا في الجزء الغربي من يوغسلافيا. (المترجم)

"طُومَانْبَـاي (*Tomanbay*)"، وقـد اسـتجار بسـليم الأول بواسـطة "خَايِرْبَـاي (*Hayırbay*)" أمير حلب التي كانت تابعة للمماليك.

وعندما استولى سليم على مصر عين خَايِرْبَاي على مصر، أما الغزالي فعينه على إمارة دمشق ولما توفى سليم، وحل السلطان سليمان محله، لاحظ الغزالي قلة تجربة سليمان وعدم خبرته، وقال حسبما ورد في المصادر ما يأتي:

> "إنما كان ذلك من السـلطان سـليم وإنما هذا ولد صغير (يقصد سليمان الأول) وليـس لـه قدرة على فعل شـيء من ذلك ولا أظنه يتم سـنته في المملكة".

وعقب مراسـم الجلوس -على العرش- أعلن جَانْبَرْدِي الغزالي على الفور عـن حكمـه واسـتقلاله، وتلقب بـ"الملك الأشـرف" وأمر بقراءة الخطبة وسـك العملـة باسـمه، واعتمد بدرجة كبيرة على أشـراف وأعيـان القبائل الذين حوله، وأرسل في الوقت نفسه خطابات إلى الحاكم الصفوي الشاه إسماعيل عن طريق وَالِي بغداد الصفوي بخصوص تحركاتهما معًا، كما كان يحاول استمالته وضمه إليه عن طريق إرسـال سـفراء وخطابات إلى وَالِي مصر خَايِرْبَاي الذي توسـط من أجله فيما مضى، وبالإضافة إلى ذلك أرسـل رجالا إلى "فابريزيوس كاريتو (*Fabrizio de Caretto*)" السيد الأعظم لفرسان "رودس (*Rodos*)" وتلقى منهم مساعدات كالأسلحة والذخائر.

كان الغزالـي يجـري وراء الآمـال العريضـة مثـل الاسـتيلاء علـى سـوريا وفلسـطين أولا ثـم مصـر، ويطمح إلى الحصـول على الخلافة أيضًـا، وبدأ في تحقيـق تصوراتـه وآماله هـذه بمزيد من الضغـط على خايربـاي وَالِي مصر من أجـل أن يتحـركا معًا. وأرسـل إليه خطابات على سـبيل التهديـد. ثم تحرك في هذه الفترة بعدد كبير من عسـاكره، واسـتولى على بيروت. وحرَّض الدروز في جبل لبنان على العصيان والتمرد. أما خَايِرْبَاي فقد اتبع من ناحية خطة متمهلة؛ بـأن اقتـرح عليه ضرورة الاسـتيلاء على حلب التـي تعد بمثابة مفتـاح العرب، ومـن ناحية أخرى كان يبلّـغ إسـطنبول بكل الأحـداث. وتحرك الغزالي على ما

يبـدو بنـاء على هـذه الاقتراحات زحف إلـى حلب وحاصر المدينة (١ تشـرين الثاني/نوفمبـر ١٥٢٠م) ولكـن نائـب حلـب "قره جـه أحمد بَاشَـا" جمـع أمراء سـناجق حماة وحمص وطرابلس حوله وبـدؤوا الدفاع عن حلب الواقعة تحت الحصار، وفي خلال ذلك تلقى السـلطان سـليمان خبر الحصار فأمر على الفور باجتماع الديوان، وكلف -بناء على القرار الذي اتخذ في هذا الاجتماع- الوزير الثالث "فرهاد بَاشَا"(١٤) -وهو في نفس الوقت متزوج بـ"بَيْخَان سلطان (*Beyhan Sultan*)" شـقيقة سـليمان الأول- بتأديب الغزالي بمسـاعدة شَهْسُـوَارْأُوغْلُو(١٥) علي بَكْ أمير "دُو الْقَادِرِ (*Dulkadir*)".

وتحرك فرهاد بَاشَا بقوات تتشكل من جنود سِبَاهِية(١٦) الإقطاعيات بولايات الأناضـول و"قَارَامَـانْ (*Karaman*)" و"سِـيوَاسْ (*Sivas*)" وأربعـة آلاف جندي إنكشاري ومائتي عربة مدفع (٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٠م).

وبينمـا هـو لا يزال في الطريـق إذ زحف شَهْسُـوَارْأُوغْلُو علي بَكْ بسـرعة إلى حلب، ووصل الغزالي خبر تحرك القوات العثمانية فاضطر إلى الانسـحاب إلى دمشـق، واتبع الغزالي الذي انسـحب إلى دمشـق سياسـة الذبح والقتل في العساكر الإِنْكِشَارِيّة وأناس آخرين ممن خالفوا أمره في هذا المكان.

وفـي تلـك الأثناء عندمـا تعقب حاكم "قَارَامَانْ" "خُسْـرَوْ (*Hüsrev*)" بَاشَـا الموجود في حلب وشَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ والمدافعون عن القلعة -جَانْبَرْدِي

---

(١٤) فرهاد بَاشَا: قائد عسكري عثماني ورجل دولة من أصول بوسنية. (المترجم)

(١٥) أُوغُـولْ (*Oğul*): معنـاه فـي اللغـة التركية ابـن. ("شَهْسُـوَارْ أُوغْلُو علـي" يعني علي بن شَهْسُـوَارْ.) (المترجم)

(١٦) السباهي: أي الفارس: طبقة الفرسان العسكر/الجند الخيالة المدرعين في الجيش العثماني. ويشكل الفرسـان/الخيالة المقطعـون الذيـن يمثلون العمـود الفقري للجيـش العثماني أكثر طبقاته حشـدا وكثافة. الوظيفة الرئيسـة لفرسـان المُقطعين هي المشـاركة في الحرب عند اندلاعها، وتوفير الأمن في فترة السـلم في المنطقة التي يعيشون فيها، وتدبير أمورهم المعيشية؛ إن يجمعون الضرائب من الشعب الموجود داخل حـدود الإقطـاع وفقا لنظام الإقطاع، ويُنشّـئون العسـكر والجند وفقا لحجم إقطاعهـم. وبهذه الطريقة كان يُضمـن اسـتعداد الجيش للحرب في أيةٍ لحظة من حيث توفـر الجند، والعتاد اللازم والتدريب دون حاجة إلى نفقات إضافية أو تحميل الخزانة عبأً إضافيا، وكذلك يتوفر الأمن ويتحقق السـلم في عموم البلاد في غير أوقات الحرب. (المترجم)

الغزالي وصلت قوات فرهاد بَاشَا أيضًا، وانقسمت القوات العثمانية التي تحركت معا إلى مفرزتين اثنتين. ووصلوا بالقرب من دمشق، فكان شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ وحاكم الأناضول "أَيَاسْ بَاشَا (*Ayas Paşa*)" في الجانب الأيمن وحاكم "قَارَامَانْ " خُسْرَوْ بَاشَا في الجانب الأيسر.

وفي النهاية التقى الطرفان بالقرب من دمشق في موقع يسمى مُصْطَبَة (٢٠ صفر ٩٢٧هـ / ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٥٢١م) وانهزمت قوات الغزالي نتيجة المعارك الحربية التي استمرت ست ساعات في هذا المكان.

أما الغزالي فحسب إحدى الروايات، بينما هو ذاهب ليحتمي بعشيرة "آنَزَة (*Aneze*)" إذ قتل بسهم أطلق من خلفه أو قُتل حسب رواية أخرى بعد إبلاغ أحد رجاله عنه (٦ شباط/فبراير ١٥٢١م) أما الشاه إسماعيل الحاكم الصفوي الذي انتظر الظرف المناسب للتعاون معه لما تلقى خبر هزيمته، والقضاء عليه تراجع على الفور، وذهب إلى "قَزْوِينْ (*Kazvin*)" غير أن فرهاد بَاشَا أُمر بالانتظار لفترة على حدود إيران تحسُّبًا لأي احتمال، وعلى سبيل التأمين.

وفي ذلك الحين مُنحت إمارة دمشق لوَالِي الأناضول أَيَاسْ بَاشَا، وأجريت تعيينات جديدة أيضًا في سناجق القدس وغزة وصَفَد.

الحملة السلطانية الأولى: بَلْغِرَاد (*Belgrad*)

شعر السلطان سليمان بسعادة غامرة لإخماد واقعة الغزالي. وعندما وصل خبر النصر إلى القصر وكان يخطط للخروج في حملة كبيرة تقوي سلطنته وفي الوقت نفسه تُحيي تقليد الغزو.

وفى إطار إحياء سياسة الفتوحات تجاه الغرب حدد السلطان سليمان هدفين أساسيين: أولهما، "بَلْغِرَاد" التي تعد أهم موقع في وسط أوروبا، والآخر جزيرة "رودس" المهمة للغاية من حيث السيادة والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط.



فتح "بَلْغِرَاد"

وتحمل عملية بَلْغِرَاد العسكرية -وهي الحملة السلطانية الأولى- أهمية رمزية ليس من الناحية العسكرية فحسب بل من ناحية صورة الدولة أيضًا فهذا المكان كان هو الهدف الأساسي الذي أخفق فيه جده الأعلى السلطان محمد الفاتح فيما مضى، وكان السلطان سليمان يستهدف بفتح بَلْغِرَاد تحقيق انفتاح جديد تجاه الغرب.

وفي تلك الأثناء خاض "كارل الخامس" من "آل هابسبورج (*Habsburg*)"(١٧) الذي تم اختياره إمبراطورًا في سنة ١٥١٩م في أوروبا غمار الحرب ضد منافسه "فرانسوا الأول" ملك فرنسا بسبب مسألة دوقية "ميلانو (*Milano*)".

ولكنه في حقيقة الأمر قد دخل الحرب بتأثير الخلاف والخصومة بين أفراد الأسرة الحاكمة والشعور بأن فرنسا نفسها محاصرة من جميع النواحي.

أما المَجَريون المسيطرون على بَلْغِرَاد فقد كانوا منشغلين بمشاكلهم الخاصة. ولم يكن "لويس (*Louis/Lajos*)" الثاني الذي اعتلى العرش وهو في التاسعة من عمره في سنة ١٥١٦م في وضع يشعره بعد بنفوذه وصلاحياته. وقد استفاد السلطان سليمان من هذا الظرف المناسبوتحرك أثناء الحملة بمزيد من العزم والثبات والانضباط.

(١٧) آل هابسبورج: أسرة عريقة حكمت النمسا مدة جاوزت ستة قرون في العصور الوسطى، ويشار إليهم أحيانًا باسم "آل النمسا"، كانوا أحد أهم العائلات المالكة في أوروبا. وتشتهر كونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسميًا لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي ١٤٣٨ – ١٧٤٠م، وكذلك حكام الامبراطوريات النمساوية والإسبانية والعديد من البلدان الأخرى. (المترجم)

ولم يكن مقتل "بَهْرَامْ جَاوُوشْ (*Behram Çavuş*)" على يد المَجَر إلا ذريعة للقيام بالحملة، حيث إنه قد أرسل إلى المَجَر للإبلاغ عن اعتلاء سليمان عرش السلطنة، وطلب الجزية.

فأرسل أولًا أمرًا إلى فرهاد بَاشَا الذي يتواجد على حدود إيران، وطلب منه أن يأتي إلى منطقة "قَيْصَرِي (*Kayseri*)" من أجل حماية الحدود بجنود الأناضول وقَارَامَانْودُو الْقَادِر و"الرُّومَلِي (*Rumeli*)" وحلب.

ولم يمر فرهاد بَاشَا -مثلما ذكر بعض الكتّاب- بالرُّومَ لِيشارك في حصار بَلْغِرَاد، وبقي في هذه المنطقة، وهكذا فإن إرسال رسالة الفتح والنصر إليه بعد فتح بَلْغِرَاد كان بمثابة دعم وتأييد أيضًا لهذا الادعاء، وفوق ذلك أرسلت الأوامر بخصوص حشد الأمراء مع عساكر أمراء الرُّومَلِي، كما أرسلت كذلك الأحكام والأوامر إلى القضاة في الأناضول بشأن جمع الجِمال التي يحتاجها الجيش بالإضافة إلى العتاد الحربي والذخيرة ونقلها إلى الرُّومَلِي.

وفي هذه الأثناء وبينما كانت تتواصل الاستعدادات إذ تحرك "أمير أمراء الرُّومَلِي"(١٨) أحمد بَاشَا أيضًا من إسطنبول بأمر السلطان، وذهب إلى نواحي "إِيبْصَلَا (*İpsala*)"، وبدأ ينشغل بأعمال حشد الجند.

تم إرسال "دَانِشْمَنْد رَئِيس (*Dânişmend Reis*)" أيضًا إلى هذه النواحي بأسطول مشكَّل من خمسين سفينة حربية شراعية من أجل حماية الأراضي الممتدة إلى سواحل نهر "طُونَة (*Tuna*)" على البحر الأسود، وفوق ذلك أمر بصنع أربعمائة سفينة شحن للجنود والمعدات والدواب.

أما السلطان فقد تحرك في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٩٢٧هـ (١٨ أيار/مايو ١٥٢١م) على رأس جيشه من إسطنبول إلى بَلْغِرَاد. ثم كلف السلطان سليمان

(١٨) قسّم العثمانيون بلدهم إلى إيالات على نحو يشبه نظام الولاية في الوقت الراهن، وعينوا على رأس هذه الولايات موظفا كبيرا ذا صلاحيات عسكرية ومدنية يحمل لقب "بَكْلَرْ بَكِي (*Beyler Beyi*)": أي أمير الأمراء. (المترجم)

القانوني "الصدر الأعظم"[١٩] بِيرِي محمد بَاشَا بأمر بَلْغِرَاد. ووصل هو إلى أَدِرْنَه فـي ٢٨ أيار/مايـو وانضمت إليه قـوات الرُّومَلِي في هذا المكان ووصل الجيش إلى "فِيلِبَة (*Filibe*)" في ٧ حزيران/يونيو، واجتمـع الديوان في هذا المكان، وتـم التشـاور والبحث فـي الاجتماع بصورة عامـة حول كيفية التحـرك أثناء الحملة وسهولة وصعوبة الطريق.

بوصـول الجيـش إلى "صُوفْيَا (*Sofya*)" اجتمــع الديوان على الفور وبُذلت الجهود لاتخاذ القرار بشـأن موضوع: إلى أين سـيتم توجيـه الحملة؟، وظهرت فكرتان أساسـيتان أولاها فكرة أحمد بَاشَـا أمير أمراء الرُّومَلِي وهي: الاسـتيلاء على "سـابامش (*Sabacz*)" أي: "بُوكُرْدَلَنْ (*Böğürdelen*)" ثم السـير إلى "بُودِينْ (*Budin*)" مركز المَجَر.

أمـا الصـدر الأعظـم بِيـرِي محمد بَاشَـا فـكان يدافـع بحماس عـن فكرة الاستيلاء على بَلْغِرَاد التي تعد بمثابة مفتاح المَجَر.

ويتبيـن أن أولـى هذه الأفكار التي طرحت فـي الديوان هي التي أثرت أكثر في السـلطان، فحسـب القرار الذي اتخذ في الديوان، فقد أُمر بِيرِي محمد بَاشَـا مـرة ثانيـة بحصار هـذا المكان فى التـو واللحظة حتى لا تأتي أي مسـاعدة من أماكن أخرى في بَلْغِرَاد. كان السـلطان كذلك قد أرسـل أحمد بَاشَا من قبل إلى بُوكُرْدَلَـنْ ثم تحرك هـو أيضًا من بعده، وبالإضافة إلى ذلك فقد وصلت حمولة عشـرة آلاف عربـة مـن الذخيرة مـن نواحي صُوفْيَـا و"سَـمَنْدِرَه (*Semendire*)" وآلَاجَـه حِصَـار (*Alacahisar*) مـن أجـل حاجـة الجيش وذلـك دون أن يغادر الجيـش صُوفْيَـا، وتم تحميلها علـى الجمال التي نقلت مـن الأناضول ودُفعت أثمانها أيضًا مقدمًا من الخزانة.

---

(١٩) الصدر الأعظم بالعثمانية صدر أعظم أو وزير أعظم وهو أعلى منصب تحت السلطان مع السلطة المطلقـة لـه وهـو الذي يحمل ختم السـلطنة، وسـلطة تعيينه وعزله حق للسـلطان فقط، وتنعقد جلسـات الوزراء بأمره للإطلاع على شؤون الدولة. (المترجم)

أقام السلطان سليمان خيمته على شاطئ نهر "صَاوَه (*Sava*)" وأمر ببناء جسر على النهر وأُرسلت الأوامر إلى أمراء "الآكِنْجي (*Akıncı*)"[٢٠] المتواجدة في هذا المكان، وطلب من القوات التابعة لـ"مِيهَالْ أوغلُو (*Mihaoğlu*)" محمد بَكْ السير إلى المَجَر وعودة عمر بَكْ أُوغْلُو ومن هم تحت إدارة حسن بَكْ إلى المعسكر مقر الجيش.

وهكذا يتضح أن السلطان أخذ بفكرة السير إلى بُودِينْ بناء على رأي أحمد بَاشَا، ولأن الحصول على هذا المكان سوف يسهل الاستيلاء على الأراضي الباقية مثل قلعة بَلْغِرَاد.

وخلال هذه الفترة كانت القوات التي تحت قيادة أحمد بَاشَا أمير أمراء الرُّومَلِي-وهي من الجيش الأصلي للسلطان- قد وصلت إلى مشارف قلعة بُوكُرْدَلَنْ. وقد فُتحت قلعة بُوكُرْدَلَنْفي ٧ تموز/يوليو نتيجة كفاح شديد من قبل القوات العثمانية؛ فهي القلعة التي كتب عنها المؤرخ "بَجُويْلُو (*Peçuylu*)" بأنها بنيت من قبل شعبان بَكْ أمير سَمَنْدِرَه فيما مضى من أجل السيطرة على بَلْغِرَاد وأن المَجَريين أطلقوا على هذه القلعة فيما بعد "شَابَاشْ (*Şabaş*)" وفي تلك الأثناء دخل السلطان الذي كان بالقرب من بُوكُرْدَلَنْ إلى المدينة في اليوم التالي للفتح وأمر بعمارة القلعة وقال:

"يجب أن تكون القلعة التي فتحتها أولا عامرة".

بعد ذلك ذهب السلطان إلى منطقة "سِيرَمْ (*Sirem*)"، أما الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا الذي كان مشغولا في تلك الفترة بحصار بَلْغِرَاد فقد عين خُسْرَوْ بَكْ أمير سَمَنْدِرَه من أجل فتح قلعة "زَمِينْ (*Zemin*)" القريبة من بَلْغِرَاد.

(٢٠) الآكِنْجي (أي: المهاجمون/المحاربون): اسم أطلقه الأتراك العثمانيون على قوات الفرسان/الخيالة الخفيفة نظرا لحركتهم السريعة. وكانوا يتشكلون من الفرسان الذين يحسنون الركوب الخيل من الدرجة الأولى. وكانوا يتواجدون على الحدود أو في المناطق القريبة منها، يهاجمون صيفا وشتاء؛ فيأسرون ويأخذون الأموال، يجمعون معلومات مهمة بحق وضع العدو وقوته، والطرق، وكان المهاجمون يقومون في زمن الحرب بمهمة فرقة الجيش الاستطلاعية. (المترجم)

واستولى خُسْرَوْ بَكْ على القلعة في ١٢ تموز/يوليو بقصف مكثف للمدافع وفي نفس الوقت أرسل الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا الوزير الثاني "جُوبَانْ (*Çoban*)" مصطفى بَاشَا وهو متزوج بهانم سلطان إحدى شقيقات السلطان سليمان الأخريات إلى نواحي "صَلَانْ قَامَنْ (*Salankamen*)" وفي تلك الأثناء قرر السلطان سليمان رفع الحصار عن بَلْغِرَاد متبعًا مشورة أحمد بَاشَا برفع الحصار عن بَلْغِرَاد والذهاب بجميع القوات إلى بُودِينْ.

إذا كان بِيرِي بَاشَا قد بدأ بمقتضى هذا القرار رفع هذا الحصار بعد أن تقطعت به الأسباب وسحبَ المدافع إلا أن السلطان غيَّر قراره عملا برأي مصطفى بَاشَا و"بَالِي (*Bali*) بَكْ" ابن يحيى بَاشَا.

وقد ذكر مصطفى بَاشَا القادم من "صالان قامن" أن السلطان لم يوافق على عرضه الذي قدمه له بمحاصرة بَلْغِرَاد من قبل، إلا أن هذا العرض قد اكتسب أهمية كبيرة الآن. كما يتضح أن كلام بَالِي بَكْ كان مؤثرًا أيضًا على السلطان "في العدول عن قراره. وعلاوة على ذلك كان ثمة ملاحظات مثل اقتراب الخريف، والوقت الذي سوف يستغرقه عبور الجيش بسبب تداعى الجسر الذي بُني فوق النهر مما أدى إلى تغير فكرة السلطان السابقة.

وأخيرًا وفي الأول من آب/أغسطس أصدر السلطان سليمان الذي أقام خيمته في موقع مرتفع بجوار "زَمِينْ" أمر بشكل قاطع بمحاصرة بَلْغِرَاد قائلا:

"لم يُتوقع أن يكون هذا الحصن صعبًا في الحقيقة".

وبدأ الحصار بوضع المدافع في اتجاهات الجزيرة. ووضع بِيرِي بَاشَا قواته في اتجاه الجنوب، والوزير الثاني مصطفى بَاشَا في اتجاه الشمال، وأحمد بَاشَا أمير أمراء الرُّومَلِي في اتجاه الغرب وحفروا الخنادق والمتاريس والحواجز الدفاعية، واشتد الحصار فجأة. ودخلت القوات العثمانية إلى القلعة الخارجية، وبعد أن تم الدخول إلى القلعة الخارجية حُفرت الأنفاق والقنوات تجاه أحد

الأبراج من أجل الاستيلاء على القلعة الداخلية، وتحطم البرج نتيجة "لَغِم"[٢١]، واضطر الجنود المدافعون عن القلعة إلى تسليم المدينة للعثمانيين في (٢٥ رمضان ٩٢٧هـ / ٢٩ آب/أغسطس ١٥٢١م)

وقد شعر السلطان سليمان بسعادة غامرة بفتح بَلْغِرَاد. لأنه أصبح الآن سلطانًا مظفرًا حصل على قلعة مهمة للغاية وصعبة لم يستطع جده الأعلى السلطان محمد الفاتح أن ينجح في الاستيلاء عليها، وفي اليوم التالي دخل السلطان سليمان المدينة، وصلى الجمعة في الكنيسة الكبيرة التي تحولت إلى جامع، ثم أمر بعد ذلك بتوزيع المنح والعطايا على العساكر والأمراء.

وفضلا عن ذلك أَذِن لمن يريد من أهالي بَلْغِرَاد بالذهاب إلى المَجَر، وترك من يريد البقاء في بَلْغِرَاد على أن يدفعوا الجزية، فانتقل بعض أهالي بَلْغِرَاد إلى إسطنبول، وأنشأوا قرية بَلْغِرَاد فوق "بُيُوكْ دَرَه (*Büyükdere*)". وأطلقوا أسماءهم أيضًا على الغابة التي لا تزال موجودة في هذا المكان حتى اليوم.

وتم إرسال كتاب النصر والفتح بشأن فتح بَلْغِرَاد إلى كل من شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ، وفرهاد بَاشَا وحاكم البندقية. كما تم منح بَالِي بَكْ بن يحيى بَاشَا منطقة سَمَنْدِرَه وتسعمائة ألف "أَقْجَه (*Akçe*)"[٢٢] من أجل حماية بَلْغِرَاد. وكان بَالِي بَكْ ينتسب إلى عائلة آقينجي بَكْ المشهورة في منطقة الرُّومَلِي وكان في الوقت نفسه متزوجًا بابنة جَوْدَة أحمد بَكْ حفيد ابنة بايزيد الثاني، غير أنه وجد نفسه في موقف حرج للغاية بسبب تصرفات زوجته غير الملائمة، فقضى أيامًا حزينة للغاية باذلا الجهد من أجل إنقاذ شرف هذا الجندي الشجاع وصاحب الخبرة والتجربة. أما عن البُوسْنَة فقد عُين عليها خُسْرَوْ بَكْ الذي جعل من أولوياته أن تصبح مدينة "سَرَايْ بُوسْنَة (*Saraybosna*)" مركزًا كبيرًا.

(٢١) لَغِم (*Lağım*) أي لَغَمٌ: تعبير يستخدم بحق الأماكن التي تُحفر فتملؤ بالبارود، ثم تفجّر لفتح ثغرة في أسوار قلاع العدو لإسقاطها أو لإلحاق الضرر بمعسكرات جيوش العدو. وكان يُطلق على القائمين بهذا العمل لفظ: "لَغِمْجِي (*Lağımcı*) أي اللّغّام". ويمكن تعريبها على نحو حفرة التفجير. (المترجم)

(٢٢) أَقْجَه: العملة الفضية المستخدمة لدى العثمانيين. (المترجم)

وإلـى جانـب هـذا خصص السـلطان عشـرين ألفًا مـن الذهـب من أجل تعميـر بَلْغِـرَاد، وأمـر بإنشـاء المبانـي مثل الجامــع وعِمَارَتْ خَانَه والمسـجد وأمـر بالإبقـاء على مقـدار كاف من الجند والمؤونة فـي المدينة ثم تحرك إلى إسطنبول في ١٣ أيلول/سبتمبر.

عائلته الجديدة / أفراد أسرته وخُرَّم سلطان

كان السـلطان سـليمان قـد حقـق هدفـه الأول بفتـح بَلْغِرَاد. واسـتطاع أن يطـرح فكرة جديدة لغزو العالم المسـيحي في الغرب جاعلا هذا المكان قاعدة عسكرية. ومن المحتمل أنه في أثناء تحركه من بَلْغِرَاد إلى أَدِرْنَه منتشيًا بانتصاره الأول هذا أصيب بصدمة شديدة ستخيم على كل هذه السعادة التي شعر بها.

فبينمـا هـو فـي طريـق العـودة إذ تلقـى خبر وفـاة ابنـه الأكبر الأميـر مراد فـي ٢١ شـوال ٩٢٧هـ (٢٤ أيلول/سـبتمبر ١٥٢١م) فتأثـر للغاية وحـزن حزنًا شـديدًا ووصـل إلـى أَدِرْنَه فـي ٩ تشـرين الأول/أكتوبر سـنة ١٥٢١م لعله يجد التعزية والسلوى في أبنائه الآخرين.

وعند عودته إلى إسطنبول في أواخر الشهر نفسه أصيب بصدمة أخرى بوفاة ابنـه الآخـر الأمير محمود. وقد انتشـر مرض الجدرى فـي القصر، ووقـع هذان الأميـران الصغيـران ضحية لهذا المرض المعدي. ولسـبب ما لـم يصب الأمير مصطفى بهذا المرض إما لأنه لم يصب به أصلًا، أو أصيب وشفاه الله.

وقـد خفـف عنـه نجـاة ابنـه الأخيـر الـذي بقي علـى قيـد الحيـاة. ولكن في ذلك الحين لم يخطر بباله أنه سـيأمر بنفسـه بقتل ابنه الذي فرح بنجاته بزعم أنه سيتطلع فيما بعد إلى العرش.

والآن أصبحـت الأفضليـة فجأة في القصـر لابنه مصطفـى، ووالدته مَاهِي دَوْرَانْ، ومع ذلك كانت حياة هذا الابن الذكر الوحيد في خطر في كل لحظة.

كان يجـب دوام واسـتمرار الأسـرة الحاكمـة، وكان اسـتمرارها ودوامهـا مرهونًا بأبناء ذكور جدد.

فمـن المحتمـل أن والدته وأخواته البنات اللاتي كـن يفكرن في هذا الأمر وجدن له جواري حديثات العهد بالقصر.

وإن جود الشائعات في تقارير بعض البنادقة فيما يخص أن السلطان سليمان انعـزل فـي الحرم، وأنه عُرض عليه الكثير من الزوجـات كان في الحقيقة نتيجة لمثل هذه الحاجة.

وقد كتب سـفير البندقية "ماركو مينيو (*Marco Minio*)" الذي قرئ تقريره في مجلس شيوخ البندقية في سنة ١٥٢٢هـ فيما يتعلق بهذه الأحداث ما يأتي:

> "فَقَـدَ ثلاثـة أبنـاء ابنين وابنة فـي غضون بضعة أيام ليـس إلا؛ توفي اثنان منهـم قبل عودة السـلطان مـن حملة بَلْغِـرَاد، والثالث بعد العـودة منها، ومـن ثـم تبقـى له ابـن تجاوز عامـا من عمره فـي هذا الوقـت. وقبل أن يغادر إسـطنبول ولد له طفلان آخران. ولو توفي السـلطان لوقعت دولته فـي اضطـراب شـديد ويقـال إنه أسـير شـهوته بإفـراط، فكثيـرًا ما يذهـب إلـى القصر الـذي توجد فيـه النسـاء، حيـث يمضـي حياة مضطربة مختلّة النظام".

وعلي العكس من هذه الشائعات، لم يكن السـلطان سليمان في الحقيقة يجـري وراء المتـع والملـذات الشـخصية في أي وقـت، ولكن يبدو أنه قد اضطر نوعًا ما إلى ذلك، لرغبته فـي أن يكون له أولاد يرثون الأسـرة الحاكمـة، وفي ذلـك الحين لم يرزق بمولـود من مَاهِـي دَوْرَانْ والـدة ابنه الوحيد مصطفى.



نقش تمثيلي بارز رسمه ماثيو باغاني (*Mathio Pagani*) عام ١٥٥٠م لـ"خُرّم سلطان"

بـدأت ولادة أطفالـه الذكور من جارية جديدة هي خُرَّم سـلطان التي ما إن جاءت من "مَانِيسَـا" إليه حتى انضمت إلى الحرم، ولـم تلفت نظره حينئذ، إذ لـم تكن جميلة للغاية إلا أنها تميزت بالسحر والجاذبية.

وهكذا فإن تكوين سـليمان الأول لعائلة جديدة يصادف الفترة التي أعقبت أحـداث الوفـاة ويهدف إلى إكسـاب الأسـرة الحاكمة أعضاء جـددًا. وأما هذه العائلـة الجديدة فتبدأ بإنجاب "خرم سـلطان" الأطفال الواحد تلو الآخر اعتبارًا من سنة ١٥٢٢م.

باختصـار فـإن الأسـرة السـابقة التـي نقلهـا سـليمان أخيرًا مـن "مَانِيسَـا" إلى إسـطنبول والتي تمثلها مَاهِي دَوْرَانْ سـوف تتنحى جانبًا شيئًا فشيئًا. وكانت بداية كل هذه الأحداث وباء الجدري الذي أفقده ابنيه هذين وربما ابنة أو ابنتين من بناته الأخريات أيضًا.

ومـا كان لأحـد حينئذ أن يخمن أن كل هذه الأحداث -التي صنعتها جميعًا يد القدر- سوف تؤثر جذريًّا في الأسرة الحاكمة وهي. فقد أصبحت خرّم سلطان لها الأولوية في القصر، واندلعت الشـرارات الأولى لصراع داخلي على السـلطة مـع الأسرة السابقة، أو مـع مَاهِي دَوْرَانْ التي لم ترغب في تقبل هذا الأمر.

ولا نصـادف هـذه الأحـداث على الإطلاق فـي تواريخ الوقائـع العثمانية المعاصرة لتلك الفترة والمصادر الرسمية. ولا يمكن أن تستخرج إلا من تقارير السفراء الغربيين.

كان تمكُّن خرم سلطان من فرض نفسها في الحرم صعبًا للغاية في الواقـع. وقد ورد في تقرير أحد السفراء البنادقة في سنة ١٥٢٤م أن السلطان كان يقضي الليالي مـع زوجة واحدة فحسـب، وأن خرّم سلطان قد أصبحت بمنزلة الزوجة الوحيـدة للسـلطان بعـد أن أنجبـت الأطفال الذكـور. إلا أن المصـادر لم تقدم معلومات كافية فيما يخص كيفية حدوث هذا.

وفـي الحقيقـة فإن الأحداث التي ذكرت في بعض المصادر الإيطالية والتي تتحدث عن خرم سلطان لايستند كثير منها إلى الوقائع بل إنها مجرد شائعات.

الدبلوماسية الأولى:
المفاوضات التي أجريت مع السفراء الأجانب

صُدم السـلطان سـليمان كثيرًا بوفاة أبنائه، ولكنه كرّس نفسه بعد عودته من حملـة بَلْغِرَاد لشـئون الدولـة، وجمع الديوان بالقصر في إسـطنبول، واسـتقبل السفراء الأجانب، وقام بشئون ومصالح الشعب حتى نسي حزنه إلى حد ما.

واسـتقبل سـفراء "راجوزا (*Ragusa*)" و"دبرونيك (*Dubrovnik*)" والبندقية وروسـيا فـي الدواويـن التي اجتمعت في إسـطنبول، وخاصـة أن كلا منهم كان يقصـد تهنئـة السـلطان الجديـد، وأيضًـا انتـزاع معاهـدة امتياز باسـم حكومته. وكان ممثلـو راجـوزا يريدون شـراء ذخيرة لحاجة بلادهم لهـا ويطلبون الإعفاء من ضريبة الجمرك في الموانئ والمرافئ.

أمـا السـفراء الـروس فهنـأوا السـلطان بجلوسـه علـى العـرش واشـتكوا من الغارات الموجهة إليهم من القِرْم.

وإزاء هذه المطالب تم تحذير خان القِرْم محمد كِيرَايْ بعدم إزعاج الروس ومضايقتهم إلا أنه تم رفض معاهدة الروس، أما ممثلو راجوزا فقد نالوا مطالبهم بخصوص التجارة والإعفاء.

وفضـلا عـن هـذه الامتيـازات القليلـة حـازت المعاهـدة التـي أجريـت مع البنادقة أهمية خاصة، حيث كان البنادقة يبدون إعجابهم بالسلطان ويؤيدونه فـي أعماله، وقد قبل السـلطان سـليمان هذه المعاهـدة التي تصب في صالحهم حتـى لا يُحدث أي مشـكلة مع البندقية في بحـر "إِيجَه (*Ege*)" والبحر الأبيض المتوسط قبيل حملة ردوس التي خطط لها.

فقـد تم بعد المفاوضات التي أجراها سـفير البندقيـة "ماركو مينيو (*Marko Minio*)" مـع الوزراء العثمانيين توقيـع وثيقة المعاهدة بين الطرفين في ١ المحرم ٩٢٨هـ (١١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢١م).

ويذكر سفير البندقية "ماركو مينيو" أنه كثيرًا ما تقابل مـع الوزراء العثمانيين آنذاك بِيرِي بَاشَـا وجُوبَانْ مصطفى بَاشَـا وفرهاد بَاشَـا وقاسـم بَاشَـا، وأنه سُئل أيضًا عن سبب تأخره عن التهنئة بالجلوس على العرش والحصول على معاهدة جديـدة. وقد تم قراءة وثيقة هذه المعاهدة في مجلس شـيوخ جمهورية البندقية فـي ٨ نيسـان/أبريل ١٥٢٢م، وفـي هذه المعاهدة التي احتـوت على ثلاثين بندًا تم الاتفاق على حرية التجارة وإحلال الأمن واستتبابه، وأن يكون للبندقية سفير في إسـطنبول على أن يتم تغييره مرة واحدة كل ثلاث سـنوات. وبموجب البنود الأخـرى للمعاهدة سـيتم إعادة الأسـرى الهاربيـن وألا يُمس أو يتـأذى مصابو ومنكوبو البحر وسـيكون كل قبطان مسـؤولا عن سـفينته وأن يتم إعادة القتلى والمتهميـن بالتبـادل بيـن كل من الطرفيـن وأن يتواجد المترجمـون في القضايا التي بين رعايا الدولتين.

وألا يتم حبس "بَالْيُوسْ (*Balyos*)"[٢٣] من أجل دَيْن أيّ مواطن من البندقية، ولا يحـق للتجار البنادقة التجوال في البلاد العثمانية بدون تصريح رسـمي لهم مـن سـفير البندقية. وسـتنظر قضاياهـم المتعلقـة بالتصريح والميـراث من قبل سـفير البندقية، وألا تُمنـع تجارة السـفن الخاصة بالبنادقة مـع بلاد شمال إفريقيا وأن تفحص السـفن التجارية في إسـطنبول وليس في غَالِيبُولِي وأخيرًا أن تدفـع البندقية جزية من خمسـة إلى عشـرة آلاف "دوقية"[٢٤] ذهبية في السنة مقابل كل من جزيرتي قبرص و"زَنْتَا (*Zenta*)" (غرناطة).

ومـع أن وثيقة المعاهدة هذه لم تأت بشـروط جديـدة من الناحية التجارية إلا إنهـا مهمـة، وذات شـأن خاصة من الجهة الشـرعية أو القانونية، وسـتحتفظ

(٢٣) سفير البندقية لدى الدولة العثمانية. (المترجم)

(٢٤) دُوقة: نوع من أنواع العملة الذهبية في البندقية. (المترجم)

وثيقة العهد بخصائصها هذه وبأهميتها دائمًا لأنها؛ تشكل الأساس لهذا النوع من المعاهدات التي سيعقدها العثمانيون فيما بعد.

ويُلاحظ ظهور بعض الموانع والمشكلات في اللحظات الأولى عند تطبيق المعاهدة وتنفيذها فمثلا لا يخفى أن حكما أرسل إلى قاضي غَالِيبُولِي يفيد: وصول خبر بتفتيش سفن البنادقة في غَالِيبُولِي كما كان من قبل وطُلبت الرسوم والضرائب وأن هذا مخالف لوثيقة المعاهدة.

كان الأسلوب الهادئ في المباحثات التي أجريت مع السفراء وخصوصًا مع السفراء البنادقة يتميز بأنه يغطى على حملة جديدة عزم عليها السلطان سليمان. كما أن "مينيو (*Minio*)" لم ينتبه إلى ما يقوم به العثمانيون من استعداد من أجل رودس. كان السلطان سليمان عازمًا على القيام بحملة ثانية كبيرة إلى إحدى الجزر وهي رودس. لذلك كان في حاجة ماسة إلى القوات البحرية. وكان يريد أن يظهر للعالم المسيحي -وهو لا يزال في بداية سلطنته- أنه سيكون حاكمًا قويًّا في البر والبحر.

حملة السلطان الثانية الكبيرة: فتح رودس

أعد السلطان سليمان -الذي تتبع آثار جده الأعلى الفاتح خطط حملته الجديدة بدقة مع وزرائه الأربعة أركان الحرب، فبينما كان من جانب مشغولا في انتظار ولادة الأمراء الجدد داخل القصر كثف من جانب آخر كل جهوده لهذه الحملة الكبيرة.

ولم تكن الحملة العسكرية البحرية سهلة قط، حيث كانت تتطلب مهارة وكفاءة فنية عالية، وكان الواجب من قبل تحديد خطط جنود المشاة الذين سيحاربون في البر، وكانت أولوية الحصول على رودس مهمة كذلك من حيث السيطرة والسيادة على البحر الأبيض المتوسط. وكانت الجزيرة بمثابة المخفر الأمامي المسيحي الذي يقع على خط الطريق البحري القاهرة -إسطنبول والذي يعد طريقًا فعالًا ونشيطًا للغاية.

مثل هذه العملية العسكرية البحرية لا يمكن أن يتم تحقيقها إلا بأسطول قوي. فالترسانة البحرية التي أمر سليم الأول ببنائها، والأسطول الكبير الذي جهزه في الفترات الأخيرة قد يسرا الأمر فلم يتطلب الأمر تحضيرًا أو استعدادًا إضافيًّا من أجل القيام بهذا.

كانت جزيرة رودس آنذاك تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا الذين يتشكلون من أمم مختلفة وكان منهم في الوقت نفسه فرسان المعبد الذين لهم صفة دينية خاصة بين المسيحيين. فهؤلاء الفرسان يستحوذون على رودس والجزر المجاورة لها منذ سنة ١٣٠٩م، وفضلا عن ذلك كانوا يحاولون فرض سيطرتهم وإقامة حكمهم أيضًا في سواحل غرب الأناضول. وكان هؤلاء الفرسان الذين يرتبطون بطريقة الإسبتاليين (الهوسبتاليين) يتشكلون من زمرة متعصبة أقسمت بالطاعة والفقر والعزوبة، وأعلنوا أن هدفهم الأساسي هو رعاية المسيحيين الجرحى في الأراضي المقدسة ومداواتهم.

ولمـا كانت الأراضي المقدسـة في حوزة المسـلمين آنذك بـدؤوا يعتبرون رعايتهم التي يقومون بها في سفنهم واجبًا مقدسًا. فقد كانوا بمثابة جماعة كاملة من القراصنة.

وكان هؤلاء الفرسان قد سيطروا من قبل على "إِزْمِيرْ" مدة طويلة إلى أن تم طردهم وإخراجهم من قِبَل "تِيمُورْ (*Timur*)" ثم استقروا في "بُودْرُمْ (*Bodrum*)" وأنشأوا فيها قلعة وامتلكوا موقعًا مهمًّا في هذه السواحل.

إلا أن هؤلاء الفرسان الذين دخلوا بعد فترة في اتفاقيات ضد الأتراك وأمنوا قاعـدة الأسـاطيل الصليبية وآووا سـفن القراصنـة التي تهاجم السـفن التجارية التركية وسواحل الأناضول كانوا سيواجهون السلطان محمد الفاتح الذي حاول تشكيل وحدة عسكرية في الأناضول لصدهم.

كان السـلطان محمد الفاتح قد عقد العزم بعد فتح القسطنطينية/إسـطنبول على الزحف إلى فرسان القديس يوحنا الذين أظهروا العداء له في أثناء الحرب بيـن العثمانييـن والبنادقـة، وبمجرد أن وقّـع الفاتح معاهدة مع البندقية أرسـل مسيح بَاشَا في سنة ١٤٨٠م إلى رودس، ولم يتمخض شيء عن المعارك العنيفة التي جرت في هذا المكان، واضطرت القوات العثمانية إلى الانسحاب.

وقد امتلك العثمانيون آنذاك سـواحل شرق البحر الأبيض باستيلائهم على مصر وسوريا وأصبح من الضروري توفير الأمن بين البلاد العثمانية وإسطنبول والأناضول.

كانـت رودس بمثابـة القلعـة الأماميـة الخطيـرة للمسـيحية علـى طريـق المواصلات هذا، بالإضافة إلى ذلك ظل فرسان رودس يواصلون عداءهم أيضًا في أوائل عهد السلطان سليمان مثلما كان في عهد سليم الأول.

فقد قاموا من جانب بتقديم المساعدات إلى جَانْبَرْدِي الغزالي، ومن جانب آخر أخذوا الكثير من الأسـرى بالاعتداء على سـفن التجـارة والحج العثمانية،

وقاموا بتشغيلهم في الأعمال الشاقة. ولهذه الأسباب عقد السلطان سليمان العزم فوراً على الزحف إلى رودس بعد فتح بَلْغِرَاد.

وقد شجعه فتح بَلْغِرَاد في هذا الطريق، وفضلا عن ذلك فربما أن إعلان الفرسان أحدَ الأمراء الموجودين في رودس وارثًا للعرش العثماني أثّر إلى حد ما في الزحف إلى هذه الجزيرة، وكان وريث العرش هذا هو مراد ابن الأمير "جَمْ (*Cem*)" سلطان الذي خاصم، وعادى بايزيد الثاني من أجل العرش. وكان "مراد" قد نقل إلى رودس أثناء انتقال أبيه الأمير "جَمْ" إلى أوروبا، فاستحسن الأمراء وجوده في حوزتهم كورقة رابحة تصب في مصالحهم.

اهتم الشاه إسماعيل أيضًا لفترةٍ بمراد الذي اعتنق المسيحية في رودس، حيث أرسل الحاكم الصفوي الشاه إسماعيل خطابًا إلى السيد الأعظم (*Emeryde Ambois*) طلب فيه إطلاق سراح مراد وأرسل خطابًا آخر بعد هزيمة جَالْدِيرَانْ إلى "فابريزيو دي كاريتو (*Fabrizio de Caretto*)" طلب فيه الاستعداد لحملة أخرى ضد الأتراك وتسليم مراد له.

حتى إن رفض هذه العروض لم يثبط عزم الشاه إسماعيل، فأرسل في ٢ أيار/مايو سنة ١٥٢١م سفيرًا إلى رودس، والتقى هذا السفير الصفوي بمراد ولكنه عاد دون أن يُثمر اللقاء عن شيء. ولم يكن الشاه إسماعيل وحده الذي يهتم بمراد بل كانت البابوية كذلك تهتم به، لذلك اضطر السلطان سليمان استنادًا إلى هذه الأسباب السياسية والاستراتيجية إلى حل مشكلة رودس قبل الخروج إلى حملة جديدة إلى أوروبا.

وهكذا فإن الجو أو الظرف قد أثر كثيرًا جدًّا فى هذا الأمر؛ إذ لم يكن وضع الدول الأوربية في تلك الأثناء جيدًا للغاية؛ فمن جانب استمرت حرب فرنسا والنمسا بين الفرنسيين وآل هابسبورج، كما بدأ من جانب آخر الصراع بين البابوية والإصلاحيين، أي أنه لا توجد أي احتمالية تشير إلى أنهم سوف يستطيعون الاهتمام برودس أو تقديم المساعدة لها.

أمـا البنادقـة مـن جهة أخـرى، فهم الدولـة الوحيدة التي يمكـن أن تكون لها علاقة برودس في البحر الأبيض؛ إذ كانوا يواصلون منذ القدم سياسة حُسن التعايـش مـع العثمانيين حتى لا يلحق الضرر بمصالحهم التجارية، واسـتمال السـلطان سـليمان -الذي يعلم هذا جيـدًا- البنادقة إليه أيضًـا بوثيقة المعاهدة التـي جُـددت بيـن الدولتيـن، وعلـى هذا لم يكـن ثمـة احتمال فـي تقديمهم أية مساعدة.

وقد اجتمع الديوان السلطانى في إسـطنبول، وتم بحث موضوع الحملة، وأخـذ آراء كبـار أركان الدولـة وكبـار رجالهـا. كان بعـض أركان الدولة وكبار رجالهـا فـي تردد وحيرة؛ حيث إن قلعة رودس تم تحصينها بصورة قوية للغاية؛ لذلك فإنها سوف تتحمل الحصار وتقاومه مدة طويلة؛ ويُحتمل في غضون هذه المدة أن تتلقى المسـاعدة من أوروبا، إلا أن الصدر الأعظم "بِيرِي محمد بَاشَـا" والوزيـر الثاني مصطفى بَاشَـا و"قُورْدْ أُوغْلُـو (*Kurdoğlu*)" مصلح الدين رئيس قالـوا: إن اتحـاد الدول الأوروبية في تلك الأثناء ليس بإمكانه مسـاعدتهم. وفي النهايـة نجحـوا في إقنـاع أعضاء الديوان الذيـن ترددوا في بدايـة الأمر، واتخذ القـرار فـي الديوان نتيجة لهذه المناقشـات ببـدء الحملة وإبحارهـا إلى رودس من البحر ومن البر أيضًا.

وسُـدّت حاجة الجيـش من الجنود البحرية ومُجدِّفـي الزوارق من ولايات الأناضـول المختلفـة والرُّومَلِـي، وأرسـلت الأوامـر مـن أجل تجهيـز الذخيرة من قَارَامَانْ.

ورغـم أن أحمـد بَاشَـا رغب خـلال ذلك فـي أن يُعين قائـدا أعلى لحملة رودس، إلا أن هذه الوظيفة كانت قد منحت للوزير الثاني مصطفى بَاشَا بتوصية من بِيرِي بَاشَا.

وعلـى الجانـب الآخـر فإن السـيد الأعظـم لـرودس "فيليب فيليـر دوليل آدم (*Pihilippe Villiers de I'Isle Adam*)" -والـذي بـدا وكأنـه علـم بخبـر

هـذه الاسـتعدادات- قـد بدأ فـي اتخاذ بعـض الإجراءات ضد حصـار محتمل حيـث: حُصّنت القلعة، ورُممت الأسـوار وأصلحت، وخُزّنت الأطعمة والمؤن الضرورية وجُمع الجنود المرتزقة من جزيرة "كِرِيتْ (*Girit*)"، وأُغلق الميناءان الواقعان أمام المدينة بالسلاسل بغية منع اقتراب السفن التركية وعرقلتها.

وبالإضافة إلى ذلك فقد طلبوا المسـاعدة أيضًا من البابا ومن فرنسـا إلا أن هذا الطلب لم يلق الاهتمام اللازم على نحو ما تبين آنفًا.

وفـي ١٠ رجب سـنة ٩٢٨هـ (٥ حزيران/يونيو ١٥٢٢م) تحرك الأسـطول العثمانـي المكـون من ثلاثمائة سـفينة تحـت قيادة القائد الأعلى مصطفى بَاشَـا مـن إسـطنبول وانضمت بعض السـفن التي كانـت تحت إدارة قبطـان غَالِيبُولِي "بَالَاقْ (*Palak*) مصطفى بَكْ" إلى الأسطول في الطريق.

ورغم أن السلطان كان على رأس الجيش بعد تحرك الأسطول إلا أنه ذهب إلى ناحية شـاطئ "أُوسْـكُودَارْ" فـي ١٨ حزيران/يونيو. وفي تلـك الأثناء هاجم الأسـطول العثمانـي جزيرة إِيسْـتَانْكُويْ (*İstanköy*) فـي ١٤ حزيران/يونيو وقد وصل بعد ذلك إلى "كنيدو (*Gnido*)" وهي جزيرة صغيرة بالقرب من رودس.

قدّم أحد السـفراء الأتراك خطاب السـلطان سليمان إلى "دوليل آدم" وجاء فيه أنه في حالة موافقة فرسـان رودس على الاستسـلام فسـوف ينالون حريتهم ولن تتضرر بضائعهم وأملاكهم.

اتخـذ مجلـس الفرسـان الـذي اجتمـع عندئـذ قـراره بعدم إبلاغ الشـعب بهـذا العـرض، وعدم الـرد بأي جواب. وبناء على رفض الفرسـان لهذا العرض بالصمت وصل الأسطول العثماني في ٢٤ حزيران/يونيو أمام موقـع "فيللانواووا (*Villanuova*)" الكائـن علـى بعـد ١٢ ميلًا جنـوب غرب مدينـة رودس وألقى المرسـاة فـي هذا المـكان. وعُقِد اجتماع برئاسـة القائد الأعلى مصطفى بَاشَـا، نوقشت فيه الخطوات اللازمة، واتخذ القرار نتيجة المباحثات التي أجريت: وهو الانشـغال باستعدادات الأسـطول للحصار إلى أن يصل السلطان إلى "مَرْمَرِيسْ

(*Marmaris*)" وفـي تلك الأثناء مرّ أسـطولٌ مكونٌ من السـفن الخفيفة من أمام قلعة رودس، وأُمر بإنزال الجند والعتاد الحربي إلى البر في موقـع مناسب.

وبمقتضـى هـذا القـرار مـر الأسـطول العثماني مـن أمام قلعـة رودس في ٢٥ حزيران/يونيـو، وألقيـت المرسـاة فـي منطقـة تسـمى "سـي. فودخـى (*C. Voudhi*)" [في اللغة التركية (*Öküz Limanı*) أي: ميناء الثور] على بعد أربعة أميال ناحية الشرق، وبدأ إنزال الجند والعتاد الحربي الموجود في السفن، إلا أنه لم يقع أي اشـتباك خلال هذا الشـهر إلى أن جاء السـلطان، ولم يهتم أو ينشغل في هذه المدة إلا بمحاصرة الجزيرة.

وصل السلطان سليمان الذي خرج إلى الحملة الثانية الكبيرة إلى مَرْمَرِيسْ في اليوم الثاني من شهر رمضان ٢٦ تموز/يوليو عن طريق "كُوتَاهْيَا (*Kütahya*)" و"صَنْدِيقْلِي (*Sandıklı*)" و"آيْدِينْ (*Aydın*)" وذهب إلى رودس بعد يومين.

وبينما كان السـلطان في الطريق وصله الخبر بأن شَهْسُـوَارْ أُوغْلُو علي بَكْ أميـر "دُو الْقَـادِر" قـد قُتِل على يد فرهاد بَاشَـا ٢١ تموز/يوليو. وبسـبب موقف دُو الْقَادِرأُوغْلُـو عـلاء الدولة خـلال حرب جَالْدِيرَانْ عيّن علـي بك على إمارة ولاية دُو الْقَادِر التي تحولت إلى شـبه ولاية مسـتقلة تابعة للدولة العثمانية بعد مقتله في سنة ١٥١٥م على يد سليم الأول؛ حفيده من إحدى بناته.

قـدم شَهْسُـوَارْأُوغْلُو علـي بَكْ خدمات مهمـة للعثمانيين في أثنـاء إمارته: حيث اشـترك مع سـليم الأول في حملته على إيران ومصر، و ظهرت شـجاعته في قمع عصيان الغزالي، إلا أن نجاحاته شـكّلت أحد الأسـباب الرئيسـية التي مهّـدت لمصيـره ونهايتـه فـي الوقت نفسـه. ذلك أن عـدم ذهابه إلى إسـطنبول في أثناء جلوس السلطان على العرش، واكتفائه بإرسال هدية فُسِر على أنه سعي منه لأجل نجاحه الشخصي فحسب.

أمـا الآن فـإن شَهْسُـوَارْ أُوغْلُـو علـي بَكْ الـذي انتابه الغرور مـن نجاحاته التي حققها؛ فشق عصا الطاعة، وقام بتصرفات تعزز الاحتمال السابق قد خالف

فـي الوقت نفسـه فرهاد بَاشَـا. فقدم فرهاد بَاشَـا شـكوى بـأن شَهْسُـوَارْ أُوغْلُو في طريقه لشـق عصا الطاعة من أجل الاسـتقلال، ومن ثمّ توجب بشكل قطعي قتل كل من يذهب هذا المذهب، والتخلص من علي بك.

وإزاء هـذا القـرار دُعى علي بَكْ إلى نواحي سِـيوَاسْ لكي ينضم إلى فرهاد بَاشَـا الـذي عُيـن قائدًا أعلـى للحملة التي سـتنطلق إلى إيران. وفـي أثناء مأدبة أعـدت في "آرْتُوقْأُوَا (*Artukova*)" بالقـرب من "تُوقَاتْ (*Tokat*)" قُتِل مـع أبنائه الثلاثة، ومـع ذلك فإن ابنه "إِسْـكَنْدَرْ (*İskender*)" لم يصبه ضرر، وهو ما يتبين من خطاب موجود في أرشيف قصر "طُوبْ قَابِي" أرسله فرهاد بَاشَا.

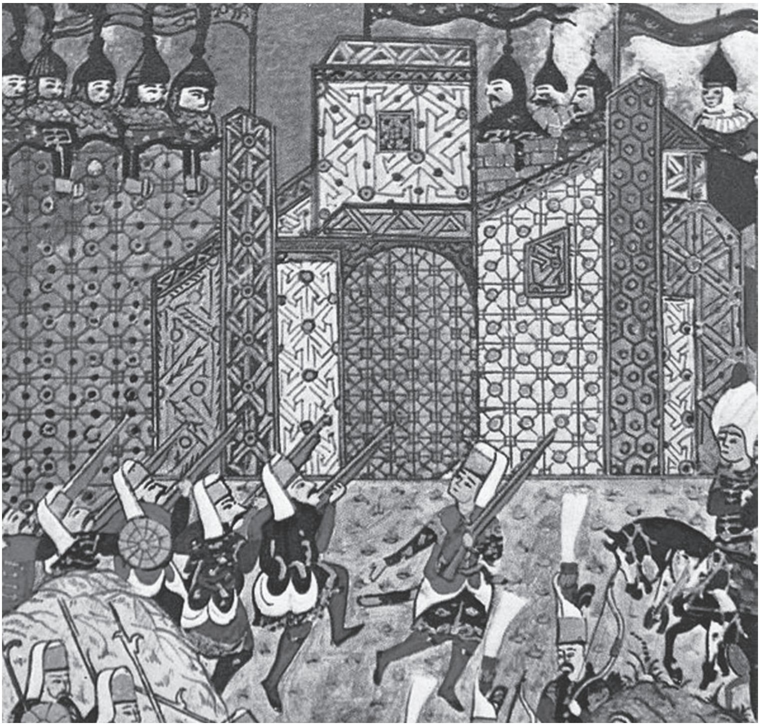
انقسـمت ولاية دُو الْقَادِر بعد قتله إلى خمسـة سـناجق وتم تعيين موظفي السلطان السابقين على إدارة كل واحدة منها.

ومـن ثـمَّ فإن أخذ تِيمَـارَاتْ[٢٥] التركمـان الموجودة في أراضـي دُو الْقَادِر إلـى خزينـة الدولة سـوف يؤدي إلى ظهـور عصيان على نطاق واسـع في هذه الولاية على نحو ما سوف يُذكر لاحقًا.

وسـوف يكون قتل شَهْسُـوَارْأُوغْلُو بداية الأحداث التي سوف تصدّع رأس السلطان سليمان بشدة فيما بعد.

مـن جانـب آخر بينمـا كانت العملية العسـكرية قـد وصلت إلـى مرحلتها الأخيـرة انتقلـت مدافـع الحصـار الكبيـرة التـي يزيـد عددها على مائـة مدفـع والموجودة بحوزة القوات البرية من الجيش إلى رودس في غضون يومين.

(٢٥) تِيمَارْ أو الإقطاع: اسـم يُطلق على الإقطاعات العسـكرية الممنوحة لبعض الموظفين والجنود في الدولـة العثمانيـة، والمخُصّصـة في مناطق معينة، وتفيد المصادر الضريبيـة، والتي تصل عوائدها ودخولها السنوية وفقا للمصادر الضريبية حوالي ٢٠٠٠٠ أقجة أي عملة فضة (أي أنه شكل نظام الإقطاع الموجود في الدولة العثمانية.) ووفقا لسـجلات الأراضي التي أمر بإعداها السـلطان سليمان القانوني في أول عهده فقـد كان إجمالـي عدد الإقطاعات مجتمعة ٥٧,٥٢١ إقطاعا. وكان الدخـل المتوفر منها ٤٠٢,٤٦٨,٩٥٢ أقجة. (المترجم)



منمنمة تظهر حصار "رودوس"

وتمركـزت القوات العثمانية إثر قدوم السـلطان على طول أسـوار المدينة، واندلعت بعض الاشـتباكات في ٢٩ تموز/يوليو. وفي ١ آب/أغسـطس إذ كانت المعـارك قـد بدأت بهجوم أَيَاسْ بَاشَـا حاكـم الرُّومَلِي على القسـم الواقـع بين برج "سـان جورج (*San Giorgio*)" وباب "آمبـوا (*Amboise*)" الذي يدافـع عنه فرسان ألمانيا.

وورد في بعض المصادر أنه في هذه الأثناء وبينما كانت القوات البرية لا تزال في مَرْمَرِيسْ إذ تلقى أحمد بَاشَا -الذي كان يتحرق شوقًا ليكون قائدًا أعلى- أمرًا من السلطان بأن تكون جميع القوات البرية تحت إمرته. علاوة على ذلك يلاحظ: أن أحمد بَاشَـا قد قاد الجيش كقائد أعلى أثناء الحصار الذي اشـتد والاشتباكات التي تزايدت.

أما القائد الأعلى السـابق جُوبَانْ مصطفى بَاشَـا فقد أُرسـل إلى مصر حيث عُين عليها بدلا من خَايِرْبَاي وَالِي مصر بعد أن وافت الأخير المنية.

كانت قلعة رودس ذات تحصينات قوية للغاية حتى إنه كان يتعذر أو يستحيل في نظر المسيحيين الاستيلاء عليها، وكان يُعبر عن هذه الحالة بمقولة:

"لا يستطيع فتح أبواب رودس إلا أهل رودس".

وفضـلا عـن ذلك فإن المهنـدس البندقـي "جابرييل مارتينجـو (*Gabriele Martinengo*)" أمـر عشـية الحصـار بإنشـاء أنفـاق تحت الأرض بين الأسـوار الداخليـة وأماكن تمركزهم، وتم تقوية القلعة. أما أوضاع المدافعين عن رودس فكانـوا يُظهرون تنوعًا من حيث الأعراق، ويتحدثون لغات الأمم التي ينتسـبون إليهـا، وفـي البداية أسـند إلى كل مجموعة من الفرسـان تنتمي إلـى لغة واحدة منطقة من مناطق الأبراج؛ فكانت هناك مجموعة اللغات: الإنجليزية والفرنسـية والإيطالية والإسبانية والألمانية والبرتغالية و"البروفنسية (*Provens*)" و"الأفرونية (*Overniye*)"، وكُلّفـوا بالدفـاع عـن هـذه الأماكـن، وكانت تلـك المجموعات وقادتهـا تدافـع عن أهم خمسـة أبراج فـي القلعة أثناء حصـار رودس؛ وهؤلاء القادة هم:

كان القائـد "جنتيللـي (*Gentili*)" يدافـع عـن البرج الإيطالـي و"نيقولاس هـوزى (*Nicholas Huzy*)" عـن البـرج الإنجليـزي و"برنجـردى ليونسـل (*Berenger de Lionsel*)" عن البرج "البروفنسـى (*Provens*)" و"فرانسيسكو دى كاريرسـى (*Francisko de Carreras*)" عن البرج الإسباني و"جافيكير دومنسيل (*Chavelier du Mesnil*)" عن برج "اوفرنيه (*Overniye*)".

وكان على رأس المناطق التي انقسـمت حسـب اللغات التي يتحدثون بها، كـوم يواكيم "دى سـانت سـيمون (*Com. Joachim de St-Simon*)" في المنطقة الفرنسـية، و"فون فالدينر (*Von Waldner*)" في المنطقة الألمانية، و"فيك ريمون روجـر (*Vic. Raymond Roger*)" فـي منطقـة "اوفرنيه"، و"سـير وليام واتسـون

(*Sir William Whatson*)" في المنطقة الإنجليزية، و"ريمون دى بيكارد (*Raymond de Picard*)" في منطقة بروفنس و"جورج امارا (*Giorgio Emara*)" في المنطقة الإيطاليـة، و"هرنانـدز سـوللر (*Hernandez Soller*)" فـي المنطقـة البرتغاليـة. وفي مقابل هذا كان تنظيم حصار الجيش التركي على النحو الآتي:

أخذ أَيَاسْ بَاشَا حاكم الرُّومَلِي وقواته مكانًا تجاه الأبراج الألمانية والفرنسية الواقعـة فـي الجبهـة الشـمالية لقلعـة رودس، وقوات أحمد بَاشَـا تجاه فرسـان إسبانيا، و"أوفرنياه (*Overniya*)" في جهة باب "آمبو (*Amboise*)" والقوات التي تحـت إدارة جُوبَانْ مصطفى بَاشَـا تجاه البرج الإنجليـزي، والقوات التي تحت إدارة قاسـم بَاشَـا حاكم الأناضول تجاه برج بروفنسـى وأخيرًا فإن المفرزة التي تحت إدارة الصدر الأعظم بِيرِي بَاشَا فكانت تجاه الإيطاليين.

أقيمـت خيمـة السـلطان فـوق تـل "سـانت كوسـمى ايـات سـانت داميان (*St. Cosme et St. Damien*)" الـذي سـماه الأتـراك بـ"قِيزِيلْ تَبَـه (*Kızıl Tepe*)" (أي: التـل الأحمـر)، وكمـا اتضـح آنفًا كان الحصـار قد بدأ بإطـلاق المدافـع على منطقة البرج الألماني في ١ آب/أغسـطس. وقد مضى شـهر آب /أغسطس بإطـلاق الأتـراك المدافــع وحفـر خنادق (قـرب القلعة). ومــع أن إطلاق هذه المدافــع قد هدم أسـوار القلعة إلا أنهـا لـم تحدث تأثيرًا جوهريًّـا، أما القنوات المحفـورة فقـد تم تدعيمها وتقويتهـا بطريقة خاصة من قِبَـل المهندس البندقى "مارتيننجو (*Martinengo*)".

ونظرا لأن إطلاق المدافـع لن يأتي بنتيجة فعالة، فقد اقترح الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَـا ضرورة التوقف عن اسـتخدامها والتفكير في إجراءات أخرى مـن أجل الاسـتيلاء على القلعة. أما أحمد بَاشَـا -الذي عُين فـي منصب القائد الأعلى- فكان يصرُّ على فكرة أن الاستيلاء على القلعة سيكون بإطلاق المدافـع. في البداية أخذت فكرة أحمد بَاشَـا بعين الاعتبار، وبالرغم من اسـتمرار إطلاق المدافع مدة أخرى إلا أنه اتضح أنها لن تُحدِث أي نتيجة، ولن يتمخض الأمر عن شيء. ورأى بِيرِي محمد بَاشَا -مصرًّا على فكرته السابقة- أن تُملأ الجوالق

(الأكيـاس الكبيرة) بالتراب، وتبنى الأبراج، ويوضـع الجنود ذوو البنادق عليها، وهكـذا... وبعـد إجبار جنود العدو الموجودين عند الأسـوار على الهروب يتم إنـزال الجنـود إلى الخنادق؛ وسـوف يتيسـر فتـح ثغور في الحصن الأساسـي. وفـي الحقيقة نفذ بِيرِي محمد بَاشَـا هذه الطريقـة في جبهته وحصل على بعض النجاحات.

ولـم يتـوان أحمد بَاشَـا -كما جرت العادة- في الاعتـراض حتى على هذه الفكـرة، بـل إن المؤرخ العثمانـي "مَطْرَقْجِي نَصُـوحْ (*Matrakçı Nasuh*)" يرى أن أحمد بَاشَا حمّل أَيَاسْ بَاشَا مسئولية مدّ عمل المدافع قائلا له:

> "لـم يكـن أَيَـاسْ بَاشَـا يتفـق معنـا فـي أردلـة الحـرب، ولـذا أخفـق في المعركة".

ومــع أن السـلطان بادر غاضبًا إلـى الأمر بحبس أَيَاسْ بَاشَـا إلا أنه صرف النظر عن هذا الأمر عملا برأي إبراهيم آغا (بَاشَا) الصدر الأعظم القادم وصديقه الحميم وأعاده إلى وظيفته السابقة.

صـرف الجيـش العثمانـي النظر عـن إطـلاق المدافـع وقـام بهجوم على البـرج الإنجليـزي، وأحرز بعـض النجاحـات والانتصارات. إلا أنـه تم إمداد هـذا البرج ونجدته على الفور، وعلى حسـب إحدى الروايات تم الانسـحاب مـع تكبد خسـائر في الأرواح تُقدر بألفي جنـدي، ومع أنه تم بعد ذلك القيام بهجوميـن آخريـن على هذا الموقـع إلا أنه لم يتحقق النجـاح. وأخيرًا حدث فـي ٢٤ أيلول/سـبتمبر الهجوم الأول الذي تم من جميـع الجهات، ولكنه باء بالفشـل أيضا بسـبب مقاومة المدافعين الشـديدة للغاية. ورغم هذا فإن القائد الأعلـى أحمد بَاشَـا قد ضيَّق الخنـاق على البرج الإنجليـزي وحاصره؛ ولهذا فإن الغارات الثلاث التي شُنّت جعلت المدافعين عن القلعة في وضـع صعب، وبـدأت الخنـادق تمتلـئ ومـن ثـم فإنه لـم يكن مـن الممكن أن يتـم إصلاح الأسـوار في وقته وأوانه. ولهذا في ٣٠ تشـرين الثاني/نوفمبر وفي فترة وجيزة تم الاستيلاء على البرج الإيطالي والبرج الإسباني.

وأخيرًا ضعفت قدرة المدافعين عن رودس وخارت قواهم تمامًا حيث كانوا فـي أزمـة لنقص الغذاء والعتاد الحربي واعتمدوا على المسـاعدة التي سـتأتيهم من أوروبا، بل إن السيد الأعظم أمر بتضييق دائرة الدفاع.

أمر السـلطان سليمان الذي يعلم جيدًا أوضاع المدافعين بإلقاء المنشورات علـى المدينـة مـن أجـل تسـليم رودس وبالإضافـة إلـى ذلك أرسـل رسـولين إلى رئيس الفرسان.

جمـع السـيد الأعظـم آدم -الذي أدرك أن أوضاعهـم قد أصبحت صعبة- وبضغط من الشعب والأرثوذكسيين مجلس الطريقة في ٩ كانون الأول/ديسمبر، واتضح في هذا المجلس الميل إلى الدخول في المفاوضات مع الأتراك، وعلى هذا تم إرسـال كل من "فرانطونيو (*Fra Antonio*)" و"روبرتوبروسـيو (*Roberto Perusio*)" في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٢م إلى المعسكر العثماني من أجل التفاوض على شروط تسليم القلعة

وأرسـل الأتـراك "زَغَارْجِـي بَاشِـي (*Zağarcıbaşı*)" وناظـر أعمـال القائد الأعلى أحمد بَاشَا إلى المدينة وعرض الوفد القادم من رودس عقد هدنة أربعة أيام إلى أن تحدد شروط التسليم.

وبالرغـم مـن أن السـلطان وافق بشـأن قبول مهلـة الأربعة أيـام إلا أن وفد الفرسـان قدّمـوا معلومات بشـأن الجيش التركي جـاء فيها: أن خسـائر الأتراك فادحة، وأن سفينةً بندقية تحت قيادة "ألفانسو سباجنولو (*Alfanso Spagnuolo*)" مـرت مـن بين الأسـطول التركي ودخلـت المدينة، وجـاءت بمائة مـن الجنود اللاتين، ومواد غذائية مما قوى معنويات المدافعين عن رودس، وزادت آمالهم في مجيء المسـاعدة عاجلا أو آجلا من أوروبا، وفعلا أرسـل مجلس الطريقة ممثـلا آخـر إلـى المعسـكر العثماني بهدف كسـب الوقـت، وطلبوا مـد المهلة إلَّا أنَّ السلطان سليمان أدرك سياسة الفرسان المماطِلة هذه، وأمر بالهجوم على القلعة وبدأت الاشتباكات والمعارك.

لجأ الفرسان إلى حيلة إزاء الغارات العثمانية التي شنت بقوة: حيث أرسلوا إلى السلطان خطابًا مع المعاهدة التي قدمها بايزيد الثاني فيما مضى إلى السيد الأعظم لرودس "بيردى اوبوسون (*Pierre d›Aubusson*)" تتضمن عبارة تلعن أحفاده الذين سيحاربون الفرسان.

بيد أنه بسبب تمزيق أحمد بَاشَا لهذا الخطاب، والتخلص منه حيث وجد أنه لا داعي لعرضه على السلطان، اضطر الفرسان الذين أعيتهم الحيلة إلى قبول عرض العثمانيين وطلبوا مهلةً عشرة أيام من أجل تسليم المدينة.

وقد طلب السلطان منهم رهينةً حتى يمنعهم من نهج أسلوب المماطلة، وبناء على هذا الشرط أرسلوا ثلاثة وخمسين شخصًا بمن فيهم الخمسة والعشرون فارسًا الذين تحت إمرة "جيوفاني (*Giovanni*)" حاكم "إِيسْتَانْكُويْ (*İstanköy*)" إلى المعسكر التركي، واحتُجزوا كرهائن.

وعقب ذلك وفي يوم السبت ١ صفر سنة ٩٢٨هـ (٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٢م) كُلِف "فيلير دى دوليك آدم" أحد الفرسان من هيئة "الأوسبتاليين (*Ospitalie*)" مع أحد وجهاء القوم من الشعب بمفاوضات التسليم.

وقد تم نتيجة المفاوضات التي أجريت عقد وثيقة معاهدة مؤرخة بـ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٢م؛ وسمح للمحتجزين بالعودة إلى بلادهم، وكانت الشروط الأساسية لهذه المعاهدة هي على النحو الآتي:

١- أن ينسحب الفرسان الموجودون في رودس بأمتعتهم وأسلحتهم من رودس والجزر التابعة لها في غضون اثني عشر يومًا.

٢- أن يتم نقل من يغادر رودس بالسفن التركية حتى ميناء "قَانْدِيَا (*Kandiya*)".

٣- أن يدخل جيش إنكشاري مكون من أربعة آلاف فرد إلى قلعة رودس في مدة اثني عشر يومًا وأن تنتشر الفصائل الأخرى للجيش في المدينة.

٤- أن يكـون المسـيحيون الموجـودون فـي المدينـة أحرارًا في طقوسـهم وشعائرهم الدينية.

٥- على من يرغب في ترك رودس أن يتركها في خلال ثلاث سنوات.

٦- أن يعفى أهل الجزيرة الذين يبقون في أماكن إقامتهم من الضريبة حتى خمس سنوات.

٧- ألا يتـم اختيـار أطفال "الدَّوْشِـيرْمَه"(٢٦) -للقوى الإنْكِشَـارِيّة- من أهل الجزيرة.

وهكذا تكون رودس قد دخلت نتيجة الحصار الدامي الذي اسـتمر خمسـة أشهر تقريبًا تحت الإدارة العثمانية بشروط مناسبة جدًّا لصالح الفرسان.

كان قبول السـلطان سـليمان هذه الشروط لصالح الفرسان قد نتج إلى حد مـا عـن الوضـع السـيء الـذي وقـع فيـه الجيش والأسـطول العثماني بسـبب الحصار الطويل.

وقـد تكبـد الجيش العثماني خسـائر فادحة في أثناء الحصار، ولم يسـتطع الأسطول العثماني مع اقتراب الشتاء أن يكسر السلاسل التي امتدت إلى مدخل الميـنـاء مـن قبـل الفرسـان، ولا أن يجد ميناءً مناسـبًا للانسـحاب إليـه، فذهب إلى "مَرْمَرِيسْ"، وخلال ذلك غرقت بعض السـفن التي تقوم بدورية الحراسـة، وتحطمـت مـن العاصفة، بالإضافة إلى ذلك فقد اسـتحوذ الفرسـان على بعض السفن التي أحضرت ذخيرة للجنود.

(٢٦) الدَّوْشِـيرْمَه (*Devşirme*): نظـام جمــع وتربية الأطفال المسـيحيين الذين يُجمعون للاسـتخدام في خدمات القصر والجيش. وقد أسـس هذا النظام من قبل شَـلَبِي محمد وقُنّن في عهد السـلطان مراد الثاني، وكان في بداية الأمر بسـيطا في أسـلوب عمله بحيث كان يؤخذ طفل واحد من الأسـر المسـيحية الكثيرة عـدد الأطفـال. ونتيجـة للفوائد والنتائج المتحققة طُوّرت هذه المؤسسـة أكثر في عصر السـلطان الفاتح. وحُددت تحديدا واضحا الفترة الزمنية والأماكن والشـروط والعدد والكيفية التي سـيتم وفقا لها تطبيق هذا النظام. (المترجم)

وبالإضافـة إلـى ذلك لـم تكن العلاقات بيـن رودس وأوروبـا قد انقطعت بشـكل كامل، ولهذا لم يمتنـع السـلطان سـليمان- الذي تصرف بناء على هذه الأسباب أو بشعور الرحمة والرأفة- عن تأييد مثل هذه المعاهدة.

وفي خلال ذلك كان قد تم الاستيلاء على جزر "هَرْكَة (*Herke*)" و"إِيلْيَاكِي (*İlyaki*)" و"إِينْجِيرْلِـي (*İncirli*)" التابعـة لفرسـان القديـس يوحنـا في الشـهور الأولى لحصار رودس.

وعـدا ذلـك انتقلت إلـى الإدارة العثمانية أثناء تسـليم رودس جزر "لروس (*Leros*)" و"سُـومْبَكِي (*Sömbeki*)" و"قاليمنـوس (*Kalimnos*)" و"ليمونسـا (*Limonsa*)" مـع "بُـودْرُمْ (*Bodrum*)" و"آيـدوس (*Aydos*)" والقـلاع "تَحْتَالِـي (*Tahtalı*)" التي توجد على سواحل الأناضول.

وهكذا تم بسط الحكم والسيادة العثمانية على أقاليم فرسان رودس الإدارية الأخيرة.

وقد وافق السلطان سليمان في ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٢م على مثول السـيد الأعظم "فيلير دوليل آدم" بين يديه حيث جاء لكي يسـلمه مفاتيح مدينة رودس، وإذا كان لا بـد من تصديق ما كتبه "لاكوبو فونتانا (*LacopoFontana*)" الـذي عمـل في خدمة السـيد الأعظـم، واطلـع علـى كنه الأحـداث وحقيقتها، فـإن السـلطان سـليمان دعـا السـيد الأعظم للعمـل فـي خدمـة العثمانيين بعد أن أخبـره بخـداع الأوروبييـن المسـيحيين لـه بوعد المسـاعدة وتركـه بمفرده. وحسب ما يرويه فونتانا أن السيد الأعظم قال ردا على ذلك: إنه يفضل التضحية بحياتـه علـى الحرمان مـن دولته، ويفضل العيش منهزمًا على العيش بلا شـرف ورفـض عـرض السـلطان بشـكل وقور قائـلا: الهزيمة مـن قبلكم ليسـت حالة مخزية أو شائنة، ويروي فونتانا أن سليمان أعاد عرضه بعد عدة أيام من جديد. ومـن الصعوبة بمكان قول شـيء قاطع عما إذا كان هـذا يعكس أو ينقل حقيقة ما كتب أم لا.

ذهب السلطان سليمان حسبما كتب فونتانا أيضًا في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر فجأة لإعادة زيارة قصر السيادة العظمى فاستقبله السيد الأعظم الذي كان مشغولا باستعدادات السفر جاثيا على ركبتيه.

يذكر فونتانا أن السلطان سليمان أنهض السيد الأعظم العجوز وهو يخاطبه قائلا:بابا، وحياه واضعًا يده على رأسه.

ويروي أيضًا أن السيد الأعظم "فيلير دوليل آدم" زار الصدر الأعظم والوزراء في الديوان الذي اجتمع في اليوم الأول من سنة ١٥٢٣م وودعهم، ثم قبّل يد السلطان، وفي المقابل قُدمت له العطايا وبعد هذه المقابلة ركب السفينة العثمانية وغادر رودس كي يذهب إلى "قَانْدِيَا".

قبل ترك الفرسان لرودس بثمانية أيام دخل إلى المدينة مائة وخمسون جنديًّا إنكشاريًّا بجانب جنود الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا وجنود القائد الأعلى أحمد بَاشَا للقبض على مراد ابن الأمير "جَمْ". كان مراد الذي ربما اعتنق المسيحية يعيش في قصر "فونتا (*Fonta*)" الذي خصصه الفرسان له مع ابنيه وابنتيه.

وبينما كان مراد -بعد تسليم رودس- على وشك التحرك للخروج من الجزيرة متخفيا بين الفرسان لم يستطع أن يجد هذه الفرصة بسبب الإجراءات التي اتخذها السلطان سليمان الذي اهتم اهتمامًا شديدًا بالقبض عليه.

ومنع السلطان سليمان مغادرة السفن التي ستنقل الفرسان من الجزيرة إلى أن يتم العثور عليه وخصص أيضًا عشر دوقيات ذهبية لمن يدل أو يرشد على مكانه، وتم القبض على مراد نتيجة اتفاق مع السيد الأعظم لرودس في هذا الموضوع وتم قتله مع ابنيه وإرسال ابنتيه وزوجته إلى إسطنبول.

بعد أن غادر الفرسان رودس صلى السلطان صلاة الجمعة في كنيسة "سان جيوفاني (*San Giovanni*)" التي تحولت إلى جامع في ١٤ صفر ٩٢٩هـ (٢ كانون الثاني/يناير ١٥٢٣م)، وعقب ذلك ركب السفينة الشراعية

محمـود رئيس ذات المجاديـف، وتحرك إلى مَرْمَرِيسْ للعودة إلى إسـطنبول، وقد وصلها في ٢٩ كانون الثاني/يناير.

انضمت جزيرة رودس بعد الفتح إلى سَنْجَقْ "مِيدِيلْلِي (*Midilli*)" وأحيلت إدارتها إلى ديزدار زاده محمد جلبى حاكم سَنْجَقْ ميديللى، وتم ترك خمسمائة حارس قلاع وخمسمائة جندي إنكشاري من أجل حماية القلعة.

وبالإضافة إلى ذلك تم تكليف قاسـم بَاشَـا حاكم الأناضول بترميم أسـوار قلعـة رودس التـي تهدمت وتنظيف الخنادق وتطهيرها وتم إرسـال بعض البدو والقروييـن مـن مشـاة الجيـش الموجوديـن فـي سـناجق "مَنْتَشَـه (*Menteşe*)" وصَارُوخَانْ و"قَارَسِي (*Karesi*)" وآيْدِينْ إلى الجزيرة من أجل العمل في ترميم أسوار القلعة.

كان السـلطان سـليمان فـي أثنـاء الحصـار يراقـب الاشـتباكات والمعارك ويتجـول فـي الجهات المحيطة به حيث تجول على وجه الخصوص في حديقة "سَـانْطُورْلُو أُوغْلُـو (*Santurluoğlu*)" وحديقة "جَمْ سـلطان" ورودس القديمة. وكان يتشـاور دائما مع الوزير الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا في الدواوين المنعقدة. وأنهـى وظيفـة خمسـة وعشـرين قاضيـا في ولايـة الأناضـول بحجة فسـادهم واستغلالهم وظائفهم.

وفـي تلك الأثناء عاش السـلطان فرحة غامرة بخبـر مولد ابنه الأول محمد من خرم سلطان إذًا كان بيته يكبر وأسرته تزداد أكثر فأكثر.

كان وهـو فـي طريق عودته إلى إسـطنبول منشـرحًا وفي حالـة جيدة للغاية فأمـر فـي أثناء الطريق بترتيب الصيد الجماعي وتجهيزه وإقامة مصارعة الجمال التي كان يشاهدها.

أما "دوليل آدم" الذي خرج من رودس فقد وصل إلى ميناء "سـويتا فيشـيا (*Civitavecchia*)" الخـاص بالبابويـة عقـب الرحلـة التـي اسـتغرقت أسـبوعًا. وقـد حيـرت قامتـه الطويلة وشـعره الأبيـض وطريقة وقفتـه الجذابـة الناظرين

إليـه كثيـرا إلا أنه بالرغم من هذه الشـهرة التي اكتسـبها لم يلتق لسـاعته بالبابا. فقـد أجّـل البابا اللقاء نظرًا لكونه من أصل فرنسـي حيث كان التوتر بين فرنسـا والبابوية في بدايته في صيف سنة ١٥٢٣م.

وأخيرًا اسـتقبل البابا العجوز المريض رئيس الفرسـان الكبير في ١ أيلول/سـبتمبر ١٥٢٣م قبـل وفاتـه بعـدة أسـابيع ومنحه لقـب المدافع عـن العقيدة مثل فرانسوا الأول وكارل الخامس وهنري الثامن وتم توطين الفرسان فيما بعد في جزيرة مالطة.

وقد اعتبر السلطان سليمان فتح رودس ثاني أكبر فتوحاته، وأصبح بمقدوره أن يقدّم نفسـه بعد ذلك سـلطانًا علـى البحر. وعندما وصل إلى إسـطنبول أراد أن يزيل تعب هاتين الحملتين الكبيرتين اللتين قام بهما خلال عام واحد، إلا أن الأحـداث الداخليـة التي وقعت والتطورات الجديدة فـي القصر منعته لفترة من الخـروج إلـى حملة جديدة، وربما فضَّل هو هذا الأمر لأنه منذ هذا الحين أثبت بهاتين الحملتين الكبيرتين أنه سـلطان قويٌّ متين في عرشـه، فهو الآن يسـتطيع أن يتصرف في الديوان كما يريد بالقوة التي منحتها له هذه الأمور، وقد أصبحت في يده فرصة العمل مـع رجال الدولة الأكفاء المناسبين لأهدافه أخيرا.

وهكـذا لـم يتردد في اتخـاذ الإجراء الأول لهـذا الأمر بتعييـن إبراهيم آغا الـذي كان بمثابـة صديقه الحميـم في منصب الصدارة العظمـى في فترة وجيزة غير مكترث بالتقاليد.

تعيين إبراهيم بَاشَا[٢٧] وزيرًا أعظم ومسألة مصر

في أيام إمارة السـلطان سـليمان في "مَانِيسَا" استطاع إبراهيم الذي ارتبط به أن يكتسب صداقة وثقة هذا الأمير الشاب في زمن قصير، وعندما اعتلى سليمان

(٢٧) إبراهيـم بَاشَـا الفرنجـي (١٤٩٣ أو ١٤٩٤ - ١٥٣٦م) هـو أول صدر أعظم (رئيـس الوزراء) يعينه السلطان سليمان القانوني بعد ارتقائه عرش الدولة العثمانية. اكتسب شهرته من صعوده السريع في الدولة، ودوره إبان ذروة توسعها في عصر القانوني، وظروف إعدامه الغامضة. وكان إبراهيم بَاشَا قد تزوج شقيقة السلطان القانوني "السلطانة خديجة". (المترجم)

العرش لم يفارق صديقه الذكي الماهر ذا الطبع المرح هذا، ووظفه في القصر.

رافق إبراهيم السلطان الشاب في حملاته الأولى، وفي تلك الأثناء ارتقى إلى منصب رئيس الخدم العاملين في القصر، وهكذا كان إبراهيم الذي أخذ أسيرًا من قبل القراصنة الأتراك، وانتقل إلى الأناضول وأعطي كمملوك (عبد) إلى امرأة أرملة في "مَانِيسَا"، وتلقى تربية إسلامية، كان في طريقه ليكون الرجل الثاني في الدولة.

تذكر مصادر البنادقة أنه كان من "بارغا (*Parga*)" وهي مدينة تقع على الساحل اليوناني وكان متوسط الطول ووجهه دقيق شاحب اللون، وأنه شخص لطيف ودود عذب الكلام.

وبالإضافة إلى ذلك تؤكد تلك المصادر أنه كان يحب مجالس الأنس (التسلية والترويح عن النفس) ويحب قراءة الكتب وأن مستواه الثقافي مرتفع للغاية ومعلوماته السياسية غزيرة جدًّا.

ومن المحتمل أن هذه الصفات المتميزة هي التي دعت السلطان سليمان الذي عرفه منذ فترة شبابه ووظفه عنده، إلى أن يجده مساعدًا جيدًا له في سبيل إعادة تطوير الدولة.

كان أحمد بَاشَا الذي ارتقى إلى منصب الوزير الثاني بعد عزل الوزير الثاني جُوبَانْ مصطفى بَاشَا من قيادة رودس العليا وتعيينه في منصب وَالِي مصر بعد وفاة خَايِرْبَاي، ولم يستطع أحمد بَاشَا الانسجام مع الصدر الأعظم بِيرِي بَاشَا، وكان يبذل قصارى جهده من أجل الاستيلاء على منصبه لأنه كان على يقين من أنه لن يتم تعيين شخص آخر غيره بدلا من الصدر الأعظم العجوز بسبب تعيينه في منصب الوزير الثاني. كما أن جُوبَانْ مصطفى بَاشَا الذي يراه -أحمد بَاشَا- أقرب المنافسين له فقد الحظوة حيث أُرسل إلى مصر، إلا أن تحقق رغبته هذه لا يكون إلا بإقالة بِيرِي بَاشَا من وظيفته.

وقد ادعى أحمد بَاشَا الذي عمل في هذا السبيل أن بِيرِي بَاشَا أخذ في عهد سليم الأول رشوة من أشخاص تم نفيهم من بلادهم إلى إسطنبول وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم.

قام أحمد بَاشَا الذي أثر في السلطان بادعائه هذا بتكليف قاضي العسكر "فَنَارِي زَادَه (*Fenârîzâde*)" محيي الدين شَلَبِي الذي كان مؤيدًا لأحمد بَاشَا بالتحقيق في الأمر، وقد رأى فناري زاده نتيجة التحقيقات التي قام بها أن بِيرِي بَاشَا مذنب وتم عقب ذلك عزل الصدر الأعظم العجوز من وظيفته، إلا أن الأحداث التالية لم تتطور كما يأمل أحمد بَاشَا؛ إذ عين السلطان رئيس خدم القصر إبراهيم آغا في منصب الصدارة العظمى بتشجيع الصدر الأعظم المعزول بِيرِي بَاشَا على الأرجح بدلا من هذا الوزير الطماع على أن يتحمل مسؤولية إقليم الرُّومَلِي أولا ثم وظيفته هذه، وذلك على نقيض التقليد المتبع حينذاك (٢١ حزيران/يونيو١٥٢٣م) أما أحمد بَاشَا الذي لم يستطع أن يبلغ غايته، وخاب مسعاه فقد حزن وتأثر كثيرًا من هذا الأمر.

زد على ذلك أن ألمه أو حزنه هذا سيجعله يسعى إلى إقامة دولة مستقلة في إحدى نواحي المملكة التى تم الاستيلاء عليها حديثًا، ولم تتأسس فيها الإدارة بعد تماما، وهذا سيؤدي إلى أن يذكر بلقب الخائن.

كان السلطان ياووز سليم قد رأى عندما استولى على مصر أنه من المناسب أن يسند ولايتها إلى خَايِرْبَاي أحد الأمراء المماليك الذين انضموا إلى العثمانيين. فأدى هذا التعيين إلى جدال ونزاع بين الأمراء العثمانيين، غير أنه يشكل نموذجًا جميلًا لبعد نظر سليم وحصافته؛ لأنه لم يكن من الصواب تطبيق الإدارة العثمانية في مصر التي يصعب إمكانية مراقبتها والسيطرة عليها بسبب كونها فتحت حديثًا وبعدها عن المركز العثماني.

عندما عين خَايِرْبَاي في منصب الوالي على الولاية بدأ في إدارة مصر بالقوانين والقواعد القديمة التي كانت في زمن المماليك، وفضلا عن ذلك ظل

خَايِرْبَاي وفيًّا مخلصًا للعثمانيين دائمًا طوال فترة ولايته، وأثبت إخلاصه هذا في حادثة جَانْبَرْدِي الغزالي.

علاوة على ذلك فإنه أرسل في الأيام الأخيرة من حياته أسطولا مشكلًا من عشرين سفينة تحمل راية النبي محمد ﷺ السوداء التي تسمى "العُقاب" من أجل حملة رودس، وفي الوقت الذي احتدمت فيه معارك رودس تلقى السلطان سليمان خبر وفاته فأرسل جُوبَانْ مصطفى بَاشَا الذي عزله من منصب القائد الأعلى إلى مصر واليًا عليها.

وما إن وصل مصطفى بَاشَا إلى القاهرة حتى بدأ العمل، إلا أن الجراكسة الذين لم يألفوا الإدارة العثمانية بأية حال أرادوا إقامة دولة مملوكية جديدة بادروا إلى العصيان والتمرد بوفاة خَايِرْبَاي، وكان زعماء هذا التمرد هم قانصوه أمير اصطبلات خَايِرْبَاي، و"مِصِرْبَايْ (*Mısırbay*)" نائب أمين الخزانة، و"بُودَاقْ (*Budak*)" رئيس حرس القصر وحاملي البنادق.

ولكن تم في حينه تلقى خبر مخططاتهم باقتحام ديوان مصر، والقبض على مصطفى بَاشَا والاستيلاء على مصر كلها، ولذا تم القبض عليهم على الفور وإعدامهم.

غير أنه اندلع عصيان أوسع انتشارًا عقب هذه الحادثة، وكانت أسماء الذين قاموا بالعصيان هي: "جانم (*Canım*)" و"كاشف"[٢٨] سَنْجَقْ الشرقية "خُدَاوَيرْدِي (*Hüdâverdi*)" كاشف "أَتْفِيحِية (*Etfihiyye*)" و"إِينَالْ (*İnal*)" كاشف الغربية وعلى حد قول أحد المؤرخين العثمانيين:

> جميع هؤلاء العصاة الذين رفعوا راية العصيان جمعوا حولهم قوة قوامها عشرين ألف فرد قائلين: "إن تخليص سلطنة مصر من العثمانيين يحتاج من الآن فصاعدًا قليلًا من العزم والإدارة والتوفيق".

كما أرسلوا خطابات إلى الأمراء المماليك المحيطين بهم وأعلنوا أن الضرائب التي جُمعت إنما جُمعت ظلمًا وجورًا، وأنهم إذا انضموا إليهم،

(٢٨) كاشف: أي الموظف الذي يرأس السنجقات، وظيفة في مصر بدرجة المتصرف. (المترجم)

سيعفى عنهم وتخفّض قيمة الضريبة إلى النصف، وقد جمعوا بهذه الوعود الكثير من المؤيدين لهم، ورشحوا الأمير إينال كاشف الغربية سلطانًا عليهم، ولم يوافق جُوبَانْ مصطفى بَاشَا وَالِي مصر على اتخاذ الإجراءات الصارمة تجاه زيادة حدة العصيان فأرسل خطابات إلى الأمراء الجراكسة.

وفضلًا عن ذلك فإنه أردل أن يمنع الشعب من الانضمام إلى العصيان من خلال تخفيض الضرائب الباهظة لهم. وانتهت هذه التدابير التي اتخذها مصطفى بَاشَا بنتيجة إيجابية وتخلى الشعب عن الكشفة العصاة المتمردين، وإلى جانب هذا فقد تم استقطاب بعض الشخصيات المهمة.

فقبل الهجوم على العصاة قال شخص يدعى القاضي بركات لمصطفى بَاشَا:

"رويدك! دعني أذهب إليهم وأتحدث معهم عسي أن يدعوا الحرب أو يستسلموا والأمر لك بعد ذلك".

إلا أن العصاة المتمردين قتلوه، وهكذا فإن هذه المبادرة لم تسفر عن شيء. وما إن أدرك مصطفى بَاشَا أنّ قوى العصاة قد ضعفت حتى أرسل "خضر آغا" الذي ترأس القوات التي تتألف من ثلاثة إلى أربعة آلاف من جنود "القَابِي قُولو (*Kapıkulu*)"[٢٩] والمتطوعين إلى "إينال" الذي أعلن سلطنته.

وكان "إينال" قد حدّد اليوم الذي سيدخل فيه إلى القاهرة، وأبلغ أتباعه المؤيدين له في القاهرة بهذا، غير أن خطته قد فسدت بسبب العملية العسكرية للقوات العثمانية، ولحقت الهزيمة بالعصاة المتمردين بالقرب من الريدانية. وقتل "إينال" الذي قبض عليه في أثناء المعركة. وتم بعد ذلك القبض على العصاة الآخرين، وشنق بعض الزعماء المتمردين على باب زويلة الشهير في القاهرة (١٥حزيران/يونيو ١٥٢٣م).

(٢٩) قَابِي قُولُو: اسم يُطلق على هيئة الإفراد المجتمعة التي تشكل فرقة الإنْكِشَارِيّة. وكما أن مشاة جنود الدولة هؤلاء المسمون "قَابِي قُولُو" إنْكِشَارِيّة فإن فرسانهم عسكر خيالة (سِبَاهِيّة) أيضا. وقد أُلغيت عام (١٨٢٥م) في عهد السلطان محمود الثاني. ويمكن تعريب هذا المصطلح على نحو الجيش النظامي في العصر الحديث. (المترجم)

سُـرّ السـلطان سـليمان عندما سـمع الأخبار الواردة من مصر، لأن حركة عصيـان جَانْبَـرْدِي الغزالـي كانـت قد اندلعت فـي مصر وهو لا يـزال في بداية سـلطنته، وشـغلت مسـألة داخلية جديدة جدول أعماله فجأة بعد حرب رودس الصعبـة شـديدة البـأس. والآن أراحـه كثيرًا قمـع العصيان الـذي ظهر في هذه المنطقـة الحساسـة للغايـة، حتى إنه أمر بإعـادة مصطفى بَاشَـا زوج أخته "هانم سـلطان" إلـى إسـطنبول. وكان لأختـه دور فـي هـذا أيضًا، فذات يوم اشـتكت أخته من سـوء حظها وتعاسـتها، وقالت له: إن زوجها الأول إِسْـكَنْدَرْ بَاشَا قتل مـن قبـل والدها سـليم الأول، أما زوجها الحالي فإنـه موجود في مصر وطلبت منه استدعاءه.

وهكذا تتضح لنا أن هناك رغبة في استقرار الأمور، ووضع توازنات جديدة داخل القصر في مكانها الصحيح. حيث إن السـلطان سـعى إلى وضع علاقاته بإخوته وعائلته في إطار نظام جديد.

وبالرغـم مـن أن السـلطان سـليمان الـذي اسـتدعى صهره إلى إسـطنبول قـد أسـند ولاية مصر إلى "كُوزَلْجَه (*Güzelce*) قاسـم بَاشَـا"، إلا أنـه وافق بعد مدة قصيرة على رغبة أحمد بَاشَـا الذي طمع مؤخرًا في أن يكون صدرًا أعظم وعندمـا لم يسـتطع الحصـول على هذا المنصب طلب ولاية مصر؛ واسـتدعى السلطان قاسم بَاشَا إلى إسطنبول.

كان السـلطان سـليمان قد فضّل إرسال وزرائه المقربين إلى مصر كإداريين بسـبب موقعها الحسـاس. ومما يلفت النظر في إطار هـذا المعنى هو التعيينات الثلاثة التي قام بها بعد "خَايِرْبَاي".

إن تعييـن مباشـر (مراقـب) لقسـم إداري جديـد فـي مصـر والـذي أراد أن يسـتهلّه بإبراهيـم بَاشَـا لفتـرة قصيرة يرجـع فـي الغالب إلى رغبتـه في إقامة فريق جديد في مصر. كانت رغبة أحمد بَاشَـا في ولاية مصر تصب في مصلحة السـلطان سـليمان؛ حيث كان من الواضـح أن البَاشَا سيحدث مشكلة في الباب العالـي. وهكـذا تخلـص إبراهيـم بَاشَـا من منافـس مهـم، إلا إنهم ربمـا كانوا

لا يتوقعون قط أن أحمد بَاشَا سوف يشق عصا الطاعة في مصر التي سيذهب إليها، كان أحمد بَاشَا الذي عين على ولاية مصر وزيرًا عثمانيًّا احتفظ به سليمان الأول من عهد والده.

و أحمد بَاشَا الذي علمنا أن اسم والده "أويس بَكْ (*Uveys Bey*)" حسبما ورد في وقفية خاصة بوالدة القانوني "حفصة سلطان" كان رجل دولة اعتمد عليه سليم الأول ووثق به.

فقد انحاز إلى جانب سليم الأول في أثناء الاشتباكات التي وقعت بالقرب من "جُورْلُو (*Çorlu*)" مع بايزيد الثاني. وهكذا عينه سليم الأول في مقابل خدمته هذه أولًا في منصب "إِمْرَخُورْ (*imrahor*)" (أي: أمير الاصطبلات) ثم في منصب أمير أمراء الرُّومَلِي.

وقد شارك في حملة بَلْغِرَاد بصفته أمير أمراء الرُّومَلِي مع السلطان سليمان، وقد أثّر تأثيرًا بالغًا في السلطان بنجاحاته التي حققها. أما في حصار رودس فإن تعيين أحمد بَاشَا في منصب الوزير الثاني والقائد الأعلى بدلًا من جُوبَانْ مصطفى بَاشَا قد زاد من طمعه نوعًا ما في منصب الصدارة العظمى.

غير أنّ أحمد بَاشَا الذي عمل ضد بِيرِي بَاشَا وأبعده عن العمل في وظيفته لم يستطع أن يتحمل تعيين إبراهيم بَاشَا في منصب الصدارة العظمى بدلًا منه. ووقع في يأسٍ عميق، وطلب إلى السلطان ولاية مصر.

رحب السلطان سليمان برغبة أحمد بَاشَا بسبب شكاوى أعضاء الديوان من مضايقتهم وإزعاجهم باستمرار من قبل أحمد بَاشَا الذي لم يستطع الحصول على منصب الصدارة العظمى، وطلبهم إبعاده. ورأى السلطان أنه من المستحسن إبعاده عن مركز الدولة من ناحية، ومن أجل أمن وسلامة الصدر الأعظم الجديد من ناحية أخرى.

غادر أحمد بَاشَا إسطنبول في آب/أغسطس سنة ١٥٢٣م وتحرك إلى مصر. وبمجرد أن وصل إليها سعى وراء آمال أكبر من منصب الصدارة العظمى وصوّب نظره نحو سلطنة مصر.

وتحرك أول الأمر من أجل هذا العمل باستقطاب أكابر وأعيان مصر الذين لايرضون عن الإدارة العثمانية، إلا أنه لم يستطع استقطاب الجنود الإنْكِشَارِيّة الموجودين في القاهرة.

ومع أن الجنود الإنْكِشَارِيّة لم يساندوا أحمد بَاشَا إلا أنهم لم يتمكنوا من القيام بأي فعل يناهض محاولاته لكثرة قواته. وأخيرًا كشف أحمد بَاشَا عن أعماله ونشاطاته التي ظل يعملها خفية قائلا:

"رغم أن الصدارة كانت من حقي إلا أنها منحت لمن هو أقل مني شأنًا"

وأعلن رسميًّا سلطنته حيث أمر بقراءة الخطبة وسك العملة باسم "الملك المنصور السلطان أحمد" (ربيع الأول ٩٣٠هـ/كانون الثاني/يناير ١٥٢٤م) ولجأ إلى البابا وفرسان مالطة ووعدهم بأنه سوف يعيد إليهم رودس إذا تمت مساعدته، وكتب كذلك خطابات تحمل هذا المعنى لبعض الأمراء المسيحيين. ومن خلال ذلك استولى على مواقع مهمة في مصر. وتمكن أحمد بَاشَا من العلم بأي خبر أو مساعدة قادمة من إسطنبول في حينه، لأنه سيطر على الإسكندرية وجميع سواحل مصر. فضلا عن أنه قد علم بالفرمان الذي أرسله السلطان سليمان لـ"قَرَه موسى (*Kara Musa*)"، -وهو من أمراء مصر، والذي أظهر شجاعة في العصيان الذي اندلع في مصر فيما مضى- مبينًا فيه أنه قد منحه إمارة الأمراء، وأنه مكلف بتأديب أحمد بَاشَا. فأمر -أحمد بَاشَا- بقتل الجندي الذي أحضر الفرمان، كما أمر بقتل قَرَه موسى، وبعض الأمراء المطيعين للعثمانيين من حوله. بدأ أحمد بَاشَا بعد ذلك بالضغط على الجنود الإنْكِشَارِيّة الذين لم يتعاطفوا معه ولما احتموا في قلعة القاهرة، ضرب الحصار عليها. إلا أن الجنود الإنْكِشَارِيّة كافحوا كفاحًا شديدًا وأزاحوا أربعة آلاف رجل وأسقطوهم. وكان قد انتاب أحمد بَاشَا التشاؤم تمامًا بشأن الاستيلاء على القلعة، ولكنه لما علم بخبر وجود طريق مائي قديم تحت القلعة عاوده الأمل، فأدخل الجنود إلى الداخل من هذا المكان وباغت الجنود الإنْكِشَارِيّة وأخذهم على حين غرة.

وتعـرض الجنـود الإنْكِشَـارِيّة لمذبحـة كبيرة. فأمـا الذين نجوا منهـم من القتل فتفرق شـملهم يمينا ويسـارا. وهكذا بدأ أحمدبَاشَـا الذي اسـتولى على القاهرة يشعر براحة واطمئنان. وعندما أتم السيطرة على الوضـع في مصر بادر إلى القيام بعـدد من التنظيمات والتدابير الإدارية: فاحتذى بالنظام العثماني واختار لنفسـه ثلاثـة وزراء، كان مـن بين هـؤلاء الوزراء قاضي زاده محمـد بك الذي قدم من القِـرْم فـي عهد سـليم الأول، وعمل في خدمة العثمانيين وكان مـع أحمد بَاشَـا في مصر.

كان هـذا الشـخص يواصـل ولاءه للدولـة العثمانية خفيـة، وينتظر الفرصة المناسـبة من أجل القضاء على أحمد بَاشَـا والتخلص منـه. وفي النهاية تعرض أحمـد بَاشَـا الـذي خـرج مـن القلعة لكـي يذهب إلـى الحمّام لهجـوم مفاجئ مـن قاضـي زاده محمد بـك، غير أن أحمد بَاشَـا صعد إلى السـطح ونجح في الهروب إلى القلعة. ونظرًا لأن محمد بَكْ كانت لديه قوة من عدة آلاف جمعها في الحقيقة من هنا وهنالك، فقد فضّل توزيـع خزينة مصر الموجودة في القلعة علـى رجالـه بدلًا من التحرك بقوة وشـدة. وذكر أن الخزينة لهم أمّا البَاشَـا فله. وبدأ بحرص شـديد يجبر الرجال الذين تسـلقوا جدران القلعة على فتح أبواب القلعـة عنـوة. بيـد أن أحمـد بَاشَـا نجا بنفسـه مرة أخـرى مسـتغلًا الاضطراب الـذي اندلـع، ولجأ مـع حوالي عشـرين من رجاله إلى عشـيرة بني بكر القاطنة فـي المنطقة الشـرقية. ولاحقـه محمد بَكْ بإصـرار وكلّف قوة مـن ثلاثة آلاف شـخص بمطاردتـه. إلا أنـه تحرك بنفسـه بسـبب فشـلهم وإخفاقهـم. وقد فزع الحـارس رئيـس عشـيرة بنـي بكر من القـوات القادمـة إليهم وكبّل أحمد بَاشَـا وسـلّمه إلى محمد بك. ولما سمـع السـلطان سليمان بحركة العصيان في مصر أرسل على الفور ثلاثة آلاف جندي إنكشاري بقيادة أَيَاسْ بَاشَا إلى مصر بطريق البر. ولكن اتضح أن قوة أحمد بَاشَا في مصر قد ضعفت في الحقيقة كثيرا.

وهكـذا تـم قمـع عصيانـه وإخمـاده داخليًّـا، بينمـا كانـت هـذه القـوات لا تـزال فـي الطريق، وعندمـا وصل هذا الخبر تم اسـتدعاء الوحدة العسـكرية

التي أرسلت، ومنح قاسم بَاشَا ولاية مصر مرة أخرى. أما محمد بَكْ فقد عين في منصب دَفْتَرْدَارْ مصر، وتم زيادة إقطاعاته مكافأةً لشجاعته التي أبلاها وإخلاصه الذي أبداه.

كان السلطان سليمان في أثناء واقعة أحمد بَاشَا الخائن مشغولا" كما ذكر آنفا" بأمر تنظيم وترتيب إصلاحات جديدة في قصره. لا سيما وأن وزيره الأعظم الجديد إبراهيم بَاشَا هو الذي تحمّل مسؤولية القيام بهذا الأمر.

وأظهر إبراهيم بَاشَا لجميع الناس البادرة الأولى لهذا الأمر بحفلة العرس (الزواج) التي نظمها ورتبها حيث أقيم حفل عرس الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا في إسطنبول بمراسيم كبيرة وأبهة عظيمة.

وشارك السلطان سليمان شخصيًّا في الحفل. وشهد حفل عرس إبراهيم بَاشَا الذي أقيم في ١٨ رجب سنة ٩٣٠هـ (٢٢ أيار/مايو سنة ١٥٢٤م) وأقيمت مهرجانات كبيرة لم يُر مثلها حتى ذلك الزمان. فقد تزينت جميع شوارع إسطنبول، وكأنها تحولت إلى أرض معرض.



السلطان سليمان يشاهد عروضا كانت تجرى في أحد الاحتفالات، كتاب "سليمان نامه"

وتم ترتيب الولائم ووسائل التسلية والترفيه التي اشترك فيها السلطان شخصيًّا، وأقيمت مجالس المسامرة التي قُدمت فيها الحلوى وعقدت المجالس العلمية. وكان ثمة تطور آخر أسعد السلطان سليمان وهو إنجاب خرّم سطان في أثناء حفل عرس الابن الذكر الثامن له (٢٨ أيار/مايو).

وأطلق السلطان سليمان على هذا الطفل اسم والده (سليم). إذًا كان له

أميـران من خرّم سـلطان، وأمير واحـد من مَاهِي دَوْرَانْ سـلطان، وكانت عائلته تكبـر بالتدريـج على مـر الزمان، وعلى ذلك قـلّ بالتدريج خطر انتهاء الأسـرة الحاكمة به.

ومن جانب آخر ورد في المؤلفات والمدونات بصفة عامة أن زوجة إبراهيم بَاشَـا كانت هي "خديجة سـلطان" أخت السـلطان سـليمان. غير أنه ثبت نتيجة دراسات أجريت مؤخرًا أن هذا لم يكن صحيحا. ويشير ما كتبه السفراء البنادقة فيما يتعلق بحفل العرس إلى أن زوجة إبراهيم بَاشَـا ليسـت هي خديجة سلطان وإنما هي سيدة أخرى منتسبة إلى القصر. ومن المحتمل أن زوجة إبراهيم بَاشَا هي ابنة إحدى أخوات السـلطان سـليمان. وثمة احتمال قوي أنها ابنة إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا الذي قتله سـليم الأول والذي كان معروفًا بأنه كان متزوجًا "هانم سلطان" والتي زوِّجت فيما بعد بـ"جُوبَانْ" مصطفى بَاشَا.

وكما سـيذكر لاحقًا كانت لهذه السـيدة علاقات حميمة للغاية مـع حفصة سـلطان والدة السلطان سـليمان وأخواته في دسائس ومؤامرات القصر، وكانت تتردد دائمًا إلى القصر.

بدأ السـلطان سـليمان في حفل عرس إبراهيم بَاشَـا يُشـعر من حوله رويدا بالصورة الجديدة التي ستكون عليها الدولة.

وبدهـيّ أنـه فكر في سـدّ الفراغ الذي ظهر عقب إرسـال الخليفة العباسـي الـذي كان موجودا في إسـطنبول إلـى مصر. لذلك جمـع العلمـاء وكبار رجال الدولة وأعيانها في مجالس الحوار والمسامرة التي أقيمت في أثناء حفل العرس وأمرهـم بتفسـير حديث "السـلطان ظل الله فـي الأرض" تفسـيرًا مفصلا. وبهذا الشـكل تخلى عن مفهـوم الخلافة الذي كان يتبناه والده. حيث جعل السـلطان سـليم الأول الخليفـة بجانبـه كمـا كان يفعل المماليـك تمامًـا، وأراد أن تكون إسـطنبول هي مقام الخلافة. إلا أن السـلطان سـليمان أعاد الخليفة، وشـرع في البحـث عـن صيغة يسـتطيع بهـا أن يمثل الخلافة في شـخصه. لذلـك أراد أن يتخـذ الخطوات الأولـى لهذا الأمر في أثناء حفل العرس هذا حيث أمر العلماء

بمناقشة معنى الحديث المشار إليه. ونفهم هذا أيضا من أعماله السياسية والدينية التي تبناها بشكل أساسي فيما بعد.

وفي أعقاب ذلك كان السلطان سليمان يعتبر أمور الحرمين متعلقة بأمن مصر، ولذا كلف أخلص رجاله أي وزيره الأعظم إبراهيم بَاشَا بهذه المهمة، وهذا أمر له مغزى عميق جدًّا. فبعد حوالي أربعة أشهر من حفل عرس إبراهيم بَاشَا الفخم هذا، تم تكليفه بتدبير أمور (شؤون) مصر.

لم تستطع مصر أن تتكيف مع الإدارة العثمانية تمامًا؛ حيث اندلعت حركات العصيان بعد خَايِرْبَاي بكثرة. فكان لا بدّ من تأسيس نظام راسخ في مصر، بعد حالة التزعزع التي أصيب بها. وفضلا عن ذلك كان أمن الحرمين مرتبطًا بها. أما أنسب شخصية لهذه المهمة فكان يبدو أنه الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا؛ فلهذه الأسباب منح السلطان وزيره الأعظم الجديد سلطات واسعة، وكلفه بوضع القوانين العثمانية في مصر، وإصلاح الإدارة الفاسدة وتطويرها، وفي الوقت نفسه إنهاء الخلاف القائم بين وَالِي مصر قاسم بَاشَا و"الدَفْتَرْدَارْ (*Deftedar*)"[(٣٠)] محمد أفندي.

علاوة على ذلك فإن مهمته هذه والنجاح الذي سيحققه في هذا المكان كانا مهمين، من حيث إنهما سيزيلان الأفكار والآراء السلبية عن شخصيته، وقد تبيّن للجميع مدى الصواب في تعيينه ولم يكن هذا عبثا.

تحرك إبراهيم بَاشَا بمراسيم رائعة من إسطنبول في ١ ذى الحجة ٩٣٠هـ (٣٠ أيلول/سبتمبر ١٥٢٤م).

وقد رافق السلطان شخصيًّا وزيره الأعظم المحبوب إلى الجزر لكي يودعه. وكان هذا التصرف نوعًا من المجاملة التي لم ير مثيل لها حتى ذلك الوقت.

(٣٠) دَفْتَرْدَارْ أي أمين الحسابات: اسم يطلق على الموظف الذي يرأس الشئون المالية في الدولة العثمانية. وقد استخدم بمعنى ماسك الدفتر. وقد بُيّنت وحددت تفصيليا حقوق ومسئوليات أمناء الحسابات في القوانين المنظمة في عهد السلطان محمد الفاتح. وكان كبير الأمناء مسئولا عن جميع أمناء الحسابات. (المترجم)

سافر إبراهيم بَاشَا بعشر سفن حربية ذات مجاديف ومائة جندي إنكشاري وعدة آلاف من العسكر، ومعه كل من دَفْتَرْدَارْ "إسكندر شَلَبِي"، ورئيس الفرسان الإنْكِشَارِيّة "خير الدين أغا"، ورئيس الحاووشية (الرقباء) صوفي زاده محمد أغا، وكذلك كاتب التذاكر جلال زاده مصطفى شَلَبِي الذي انضم إلى الصدر الأعظم الجديد لكي يُستفاد منه في أمور الدولة مع ثلاثين من الرقباء (توفي في سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م).



طغراء السلطان سليمان القانوني (مكتبة قصر طوب قابي، رقم: E ٢/٦١٨٧)

عين جلال زاده فيما بعد في منصب "النِّيشَانْجِي (*Nişancı*)"[٣١] وهو أحد أعلى المناصب في البيروقراطية العثمانية، وذكر بلقب "قُوجَه نِيشَانْجِي (*Koca Nişancı*)" علاوة على ذلك فقد ألف كتابا تاريخيا يحتوي علي فترة السلطان سليمان، ويحمل هذا التاريخ المسمى "طبقات الممالك ودرجات المسالك "سمة كتابة تاريخ الأحداث النمطية المكتوبة على نمط" واحد حتى سنة ١٥٥٠م من فترة حكم السلطان سليمان.

(٣١) نِّيشَانْجِي: من الوظائف الحكومية التي ضُمّت إلى الديوان الهمايوني. وهو رأس الطبقة البيروقراطية (قلمية). وقد كان مكلفا بطباعة "الطغراء" التي تعني توقيع الحاكم على المراسيم المكتوبة باسم السلطان. وكان العاملون في هذه الوظيفة مضطرون أن يكونوا مهرة في الكتابة، عارفين بالأعراف والعادات المحلية، يدمجونها مع المعلومات الفقهية والشريعة الإسلامية. (المترجم)

مر إبراهيم بَاشَا في الطريق بـ"صَاقِيزْ (*Sakız*)" أولا ثم بـ"رودس".

واستقبل موظفو البندقية إبراهيم بَاشَا عندما وصل إلى صَاقِيزْ. وقدموا له الهدايا، ومن هنالك وصل إلى رودس. اضطر الأسطول العثماني الذي غادر رودس في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٢٥م إلى العودة إليها مرة ثانية بسبب رياح الخريف الشديدة، وأجبر عدم تحسّن الأجواء واقتراب الشتاء إبراهيم بَاشَا على الذهاب إلى مصر عن طريق البر بدلًا من الرحلة البحرية التي يمكن أن تكون محفوفة بالمخاطر.

ولهذا الغرض انتقل إلى مَرْمَرِيسْ في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر. وهناك منحهم أمير رودس ستة أحصنة، ووصلوا إلى "مُوغْلَا (*Muğla*)" عن طريق البر بمشقّة وعناء. وهناك أرسل الرجال إلى الجهات المجاورة من أجل توفير حيوانات للركوب وأخرى للذبح (من أجل الطعام) ووصل بهذه الحالة إلى اللاذقية ("دَكِيزْلِي (*Denizli*)").

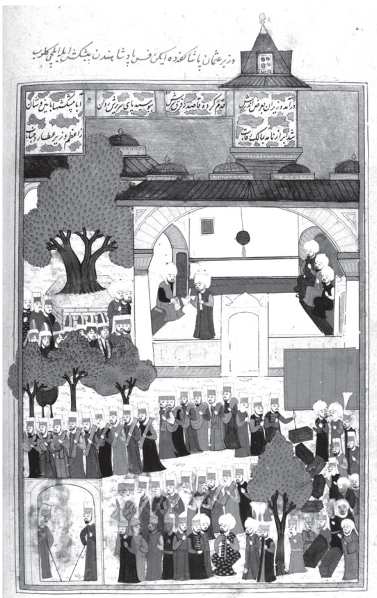
وفي هذه الأثناء علم الدَفْتَرْدَارْ محمد أفندي الذي تحرك من مصر إلى إسطنبول كي يقدم الحساب عن الأعمال والإنجازات في مصر أن الصدر الأعظم قادم إلى مصر. فرجع ومَثُل بين يدي إبراهيم بَاشَا الذي وصل بالقرب من حلب، غير أن إبراهيم بَاشَا لم يستحسن تصرفه هذا، وأمره بالعودة إلى القاهرة. وعقب عودة محمد أفندي ذهب قاسم بَاشَا وَالِي مصر إلى دمشق لاستقبال الصدر الأعظم.

وقد استمع إبراهيم بَاشَا الذي وصل دمشق لشكاوي الشعب، وحاول حل قضاياهم ومشكلاتهم.

وبما أن هُرّم بَاشَا ابن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا أمير أمراء دمشق قريب زوجة إبراهيم بَاشَا (يُظن أنه أخوها الكبير) فإنه استقبله استقبالًا حارًا، إلا أن إبراهيم بَاشَا عامله بقسوة شديدة، وأسدى إليه النصيحة بسبب أنه تلقى خبر بعض أعماله الفاسدة واستغلاله وظيفته.

وفـي النهايـة تحـرك من هذا المـكان، ووصل إلـى القاهرة فـي ٨ جمادى الآخرة سـنة ٩٣١هـ (٢نيسـان/أبريل ١٥٢٥م).وبمجرد أن وصل إبراهيم بَاشَـا إلى القاهرة درس الوضـع، في محاولةٍ لفهم سبب عدم رضا الشعب واستيائه.

واشتكى شعب مصر من الخراج والضرائب التي تؤخذ منهم ظلمًا وعدوانًا. وبنـاءً على هذا اطلع إبراهيم بَاشَـا علـى القوانين التي كانت في عهـد قَايِتْبَايْ، وعلـم كيـف كان يتم تطبيقهـا في عهد قانصوه الغوري سـلطان مصر وخَايِرْبَاي الوالـي العثمانـي. وجمـع هـذه القوانين في قانون واحد جديـد. وأعطى أولوية لمبدأ العدالة، واعتمد على حماية الشعب والمحافظة على الخزانة.


توزيـع العُلُوفَة على الإنكشارية

بالإضافـة إلـى ذلـك تـم إجراء بعـض التعديـلات فـي المجـال العسـكري أيضًـا. وأرسـلت هـذه القوانيـن الجديدة إلى إسـطنبول وتم التصديق عليها من قبل السلطان.

ولـم تتوقـف الأعمـال التـي قام بهـا إبراهيـم بَاشَـا في مصـر عند هذا الحد، فقد أمر الصدر الأعظم بعد أن استمع إلى شـكاوى الشعب بإطلاق سـراح المحكوم عليهم بالسـجن من شـعب مصر بسـبب ديونهم، وسـدد ديونهم من الخزانة.

وأخـذ يمين الولاء من العشـائر العربية التي تعيش فـي أماكن بعيدة منعزلة في مصر. وعمل على انضمامهم تحت الحكم العثماني.

وأمـر ببناء برجين أمام قلعة القاهـرة من أجل المحافظة على الخزانة. وأمر بإصلاح وترميم جامع عمرو بن العاص الذي كان في حالة متداعية على شاطئ

النيل من ماله الخاص. كما أمر بترتيب دفاتر الضريبة طبقًا لدفاتر ضرائب مصر القديمة.

وأمر بحساب الإيراد العام في مصر، وحدد الفائض من حسابات الخزانة العامة (وزارة المالية) بثمانية أحمال ذهب (ثمانون ألف أوقية ذهبية) وقرر إرسالها إلى الخزانة في إسطنبول. وفي هذا الصدد يسجل أحد المؤرخين العثمانيين حادثة متعلقة بهذا الشأن فيقول:

"عندما عين سليمان بَاشَا قائدًا أعلى على حملة الهند في سنة ١٥٣٨م خلفه في منصبه خُسْرَوْ بَاشَا. أرسل خُسْرَوْ بَاشَا اثنى عشر حِمل أَقْجَه بدلًا من ثمانية أحمال أَقْجَه التي اعتاد إرسالها كل سنة. وظن أن إسطنبول سترحب بهذا الأمر وستقابله بالمجاملة والاحترام. بيد أن السلطان سليمان لم يرض عن إرسال أربعة أحمال أَقْجَه زائدة عن إيراد مصر. لأنه اعتقد أن هذا المبلغ لايمكن أن يؤخذ من الشعب إلا بالقوة وظلمًا وعدوانًا. فعزل خُسْرَوْ بَاشَا عن ولاية مصر واستدعاه إلى إسطنبول للتحقيق معه. وبالرغم من أن خُسْرَوْ بَاشَا دافع عن نفسه قائلًا:

> "انشغل سليمان بَاشَا في خدمة الأسطول الهمايوني (السلطاني) في بحر الهند ولم يستطع تحصيل القدر الوافر، إنني تصرفت بدقة سيدي السلطان وتجنبت الإسراف والإتلاف فتحقق هذا المبلغ الزائد عن الحاجة". إلا أنّ السلطان لم تتبدد شكوكه وقال:
>
> "لدينا شك في هذا المال".
>
> ويمنع دخول هذا المبلغ إلى الخزانة، وتم أخذ تصديق شيخ الإسلام، وإنفاق هذه الأحمال الأربعة الزائدة من عملة الأَقْجَه على أعمال الخير وحل مشكلة مياه إسطنبول".

وهكذا تظهر لنا هذه الحادثة عدالة السلطان كما تشكل نموذجًا جيدًا لحرص الإدارة العثمانية على الحيلولة دون وجود انطباع سلبي للشعب إزاء الإدارة العثمانية. أقام إبراهيم بَاشَا في مصر ثلاثة أشهر من أجل هذه

الإصلاحات القضائية والمالية والإدارية. ويتضح أنه في أيامه الأخيرة في مصر قام بتعيين سليمان بَاشَا الخادم وَالِي الشام على ولاية مصر. وعين أيضًا شخصًا يدعى "خَمْرَاوِي (*Hamravî*)" فى منصب الدَفْتَرْدَارْ.

وأخيرًا غادر القاهرة في ١٤حزيران/يونيو سنة ١٥٢٥م. ويتضح أنه تبنى مشروع ربط السويس بنهر النيل الذي اقترحه البنادقة في سنة ١٥٠٤م على السلطنة المملوكية في إطار البحث عن طريق قصير يربط تجارة البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط. فأمر حسب ما ورد في تقارير البندقية بحفر وشق قناة الاتصال مرة ثانية، والتي كانت في زمن الفراعنة (المصريين القدماء).إلا أنه تبين أنّ هذا الأمر لم يتم تحقيقه.

تحرك إبراهيم بَاشَا إلى الأناضول عن طريق سوريا. وفي أثناء ذهابه من "مَرْعَشْ (*Maraş*)" إلى قَيْصَرِي تلقى خبر عصيان السّبَاهِيَّة التركمان الذين نقلت إقطاعاتهم إلى الخزانة بعد حادثة "شَهْسُوَارْ أُوغْلُو"، وعلم أنهم سوف يركزون اهتمامهم على خزانة مصر. والتقى إبراهيم بَاشَا زعماء السباهية التركمان أصحاب "الإقطاعات"(٣٢) ورؤساء العشائر. وعندما علم أنهم بادروا إلى مثل هذه الحركة بسبب إقطاعاتهم التي أخذت ظلمًا من أيديهم، أمر بإعادة إقطاعاتهم.

وهكذا أحسن معاملة أمراء التركمان، ومنع الفوضى واضطراب الأمن في المنطقة، وقضى على التوتّر، وعدم الاستقرار حتى ولو لفترة من الزمن.

(٣٢) الإقطاع: اسم يُطلق على النمط المستخدم في الدولة العثمانية من نظام الإقطاع الذي كان في الدول التركية والإسلامية القديمة. وهو اسم يطلق على مصدر العيش المخصص كأجر للأشخاص الذين يكلفون بعمل خدمة ما خاصة بالدولة. كانت كل أنواع الأموال والأراضي (باستثناء مناطق استيطان القبائل والعشائر) والعقارات التي تُدرُّ دخلا في الدولة العثمانية ملكا للحاكم. وكان ثمة شكلان من أشكال التصرف في الأراضي؛ أولها حق من يعيش على تلك الأراضي في الزراعة والتشغيل؛ وثانيها الحصول على عُشر المحصول النامي في تلك الأراضي التابعة للدولة. وكانت الدولة تستخدم حقها في الأراضي إما بمنح جزء منها لأصحاب الإقطاعات، والزعامات، والخاصة في مقابل وظيفة أو مسئولية ما تُناط بهم، أو بوقفها بغرض الإنفاق على بعض المؤسسات الدينية والاجتماعية.
وكان يطلق على "دِيرْلِكْ (*Dirlik*)" المتراوح إيرادها السنوي ما بين ٣٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ أقجة اسم الإقطاع (تِيمَارْ). أما تلك التي يتراوح إيرادها السنوي ما بين ٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ أقجة فكانت تسمى "زَعَامَة"، بينما كانت تلك التي يزيد دخلها النوي عن ١٠٠٠٠٠ أقجة تسمى "خَاصّ". (المترجم)

وصل إبراهيم بَاشَا الذي حقق نجاحات كبيرة من الأعمال والإنجازات التي قام بها سواء في مصر أو في طريق الذهاب والإياب إلى إسطنبول أخيرًا في ذي القعدة عام ٩٣١هـ (أوائل أيلول/سبتمبر ١٥٢٥م).

أمر السلطان الوزراء باستقبال إبراهيم بَاشَا عند مسافة أربعة أيام. وتم تقديم العديد من الهدايا إلى إبراهيم بَاشَا وأقيمت له مراسم كبيرة عند إيابه مثلما كان الحال عند ذهابه.

الأزمة الداخلية: إعدام فرهاد بَاشَا وعصيان الإنْكِشَارِيّة

سُرّ السلطان سليمان كثيرًا بعودة صديقه الحميم. فقد جرت بعض الأحداث في عاصمة الدولة أثناء غيابه.

كان من الواضح أنه كان يتوق إلى الحديث معه بشأن هذه الأحداث. فقد ظهر أول هذه الأحداث كنتيجة لرغبته في أن يشعر الجميع بنظام جديد ومفهوم للعدالة أراد أن يرسيه داخل القصر. وكان يرغب في أن يثبت لكل رعيته أنه سوف يطبق مبدأ العدالة بالتساوي على الجميع مهما كان موقعه في المجتمع. وهكذا أبدى نيته هذه بصورة واضحة على التصرفات الفاسدة غير القانونية لأحد وزرائه المقربين إليه كثيرا. كلف فرهاد بَاشَا الكِرْوَاتِي الأصل في عهد أبيه بتولي إمارة الرُّومَلِي وتأديب قاطع الطريق "جلالي (*Celâlî*)" في الأناضول وعين في منصب الوزير. وكان أيضًا زوج أخت "بيهان سلطان". لم يستطع فرهاد بَاشَا فيما بعد أن يتحمل تحرك شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ أمير دُو الْقَادِر في أثناء حادثة جَانْبَرْدِي الغزالي وإحرازه الانتصارات. فأرسل خطابات من قبيل الشكاوى في حقه. وتسبب في الحط من قدره. وقتله في أثناء حملة رودس مع أبنائه.

بعد ذلك بدأ فرهاد بَاشَا يقوم بأعمال الظلم والقتل في الأناضول وكأنه جلاد عديم الرحمة. فمثلا يروي أحد المؤرخين العثمانيين مايأتي:

"قدم من إيران أحد الأمراء "السلطان مراد" وهو من أبناء الأمير أحمد عم السلطان سليمان، وأشيع بين الناس أنه تقابل مع بعض الأشراف وأمراء التركمان في أَمَاسْيَا بغية التمرد والعصيان علي السلطان، ومن ثم أخذ الصلاحيات اللازمة من السلطان، وهجم على هذا الأمير وفي خلال ذلك قتل حوالي ستمائة إنسان بريء، وأخذ الكثير من الأموال عنوة".

فقام السلطان سليمان بعد فترة بعزل صهره فرهاد بَاشَا بعد أن تلقى العديد من الشكاوي إلى إسطنبول وتم أيضًا إصدار فَرْمَان (حُكم) من أجل إعدامه. إلا أنه تم العفو عنه بشفاعة "حفصة سلطان" والدة السلطان سليمان وشقيقته بيهان سلطان.

وقد عينه السلطان سليمان على إمارة سَنْجَقْ "سَمَنْدِرَه" في الرُّومَلِي. بيد أن فرهاد بَاشَا الذي لم يقلع عن عادته وطبعه، قام بالضغط والتضييق على الناس في هذا المكان واغتصب أموالهم. فقد كان رجلًا طماعًا لا يكتفي براتب يساوي مليون أَقْجَه. وبناء على ورود شكاوي ضده مرة ثانية أمر القانوني بإحضاره إلى أَدِرْنَه ثم أمر بإعدامه (٤ المحرم سنة ٩٣١هـ ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٢٤م).

وهكذا فإن تصرّف السلطان هذا يبرهن مرة أخرى على عدالته، ويترك تأثيرًا مليئًا بالعبرة والعظة لكبار موظفي الدولة الآخرين، كما يزيد من حسن النية تجاه السلطان والثقة به في نظر الشعب. ولكن هذا التطور عَكَس للمرة الأولى الصراع داخل القصر.

وفي الحقيقة فإن ترقية إبراهيم بَاشَا وصعوده المفاجئ وبعض إجراءاته الأولى أدت إلى صراع خطير بينه وبين منافسيه في القصر. فكان المعارضون له قد شكلوا حزبًا جديدًا.

وكانت الحملة الأولى لهذا الحزب هي عصيان وتمرد بعض جنود الحملة الإنْكِشَارِيّة في إسطنبول. ولكنهم لم يتمكنوا من إدراك أن الدائرة ستدور عليهم وسينقلب الوضع ضدهم. وتطورت الأحداث على هذا النحو:

كان السلطان سليمان قد ذهب إلى أَدِرْنَه أثناء حادثة فرهاد بَاشَا للمرة الأولى من أجل قضاء فصل الشتاء. ولم يكن الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا قد عاد من مصر بعد. وكان السلطان يمضي أيامه في أَدِرْنَه في الصيد ويشارك في اجتماع الديوان مرتين في الأسبوع.

وسرعان ما أثَّر تباطؤ الأمور والأعمال في إدارة الدولة. وبدأت الاضطرابات في مقر الإنْكِشَارِيّة نتيجة الفوضى في إسطنبول. وقد كانت هذه الحادثة تبدو في الواقع وكأنها انتفاضة أو حملة مهمة لمعارضي إبراهيم بَاشَا وخصومه. إذ تحينوا الظرف المناسب، وتحركوا بكل راحة واطمئنان وعملوا على الضغط على الإنكشاريين وتحريضهم. يذكر أحد مؤرخي هذه الفترة وهو المؤرخ زاده مصطفى شَلَبِي-الذي يبدو أنه انضم إلى جماعة إبراهيم بَاشَا- أن المعارضين لإبراهيم بَاشَا سُروا وفرحوا بسبب ذهاب إبراهيم بَاشَا إلى مصر، وظنوا أنه لن يعود من هذا المكان مرة أخرى، وروجوا الإشاعات في هذا السبيل، ولكن عندما تلقوا خبر عودته حرضو الإنكشاريين ضده.

تلقى السلطان سليمان خبر الإضطرابات الواقعة في إسطنبول، فغادر أَدِرْنَه وبدأ الانشغال بالصيد في نواحي "كَاغِدْخَانَة (*Kâğıthâne*)" و"تَرْكُوسْ (*Terkos*)" بقصد أن يكون قريبًا من مركز الدولة. واندلع العصيان بعد وصوله بثلاثة أيام (٣٠ جمادى الأولى سنة ٩٣١هـ/ ٢٥ مارس سنة ١٥٢٥م).

فداهم الإنكشاريون وسلبوا قصور الوزير الثاني أَيَاسْ بَاشَا، والدَفْتَرْدَارْ عبد السلام أفندي وجمرك إسطنبول وقصر الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا وحي اليهود وحوانيتهم.

وبمجرد أن سمع السلطان سليمان هذا الخبر وصل إلى القصر، وعمل على إيقاف العصيان وفي خلال ذلك قتل بيده ثلاثة من الإنكشاريين الذين تجرأوا على طلب العطية منه. وأمر بعد ذلك بتوزيع مائة ألف أوقية ذهبية على الإنكشاريين من أجل تهدئة العصيان. وفي النهاية تم قمع هذا العصيان بفضل هذه التدابير الصارمة، وأعدم مصطفى أغا رئيس الإنْكِشَارِيّة

الـذي تزعـم العصيان. علاوة على ذلك من المحتمـل أنه تم قتل رئيس الكتاب حيدر شَـلَبِي، وهو من معارضي إبراهيم بَاشَـا وقتل أيضًا أفرادًا من كبار موظفي الدولة البيروقراطيين أصحاب السلطة في الديوان العثماني منهم و"بَالِي (*Bali*)" كَدْخُدَا (وكيل) مصطفى بَاشَـا وأغا السِّـبَاهِية (قائد الجنود الخيالة الإِنْكِشَـارِيّة) وبعض الإنكشـاريين. كان حيدر شَـلَبِي رجل دولة قديرا، كتب تاريخ حملات السـلطان سـليم الأول. لكن ربما يلاحظ أنه انضم إلى مثل هذه المؤامرة بسبب معارضتـه لهيمنـة إبراهيم بَاشَـا على أمور الدولة وسـيطرته عليهـا، ولأنه حاول حماية منصبه والمحافظة عليه.

وربما أخفق الحزب المعارض لإبراهيم بَاشَـا بفضل هذا العصيان. وهكذا قد تم القضاء على المنافسين لإبراهيم بَاشَا ومعارضيه قبل مجيئه إلى إسطنبول.

بداية فترة الحملات الطويلة في الغرب

بعد أن عاد إبراهيم بَاشَا إلى إسطنبول، بدأت الاستعدادات لعملية عسكرية جديدة ضد الغرب. وكان هو الذي يخطط للحملة، وصار يتمتع بتأييد السلطان سليمان بعد أن قضى على منافسيه، وقد حان الآن وقت فتح جبهة حرب كبيرة ضد العالم المسيحي. فعرّف السلطان سليمان نفسه على أنه سلطان يحيي الجهاد ضد المسيحيين ليخضعهم لإدارته، وبهذا يغدو السلطان سليمان محورًا رئيسيًّا في سياسة العالم؛ فقد تحمل مسؤولية هذا الهدف السامي الذي يمثل هجمة مرتدة من العالم الإسلامي ضد الحملات الصليبية، وقام هو وإبراهيم بَاشَا برسم خطط الحملة، وتنص هذه الخطة على أن بلاد المَجَر هي الهدف الرئيسي، فالمَجَريون هم القوة الأكبر التي واجهت العثمانيين منذ أن وطأت أقدامهم الرُّومَلِي في أوروبا.

وانتهى الصراع بانتصار العثمانيين على المَجَر الذين كانت البابوية تقودهم وتحركهم كالدمية في حربهم على العثمانيين. وهكذا أعطى السلطان سليمان عقب جلوسه على العرش أولوية لفتح أوروبا ورأى أنها الساحة الأنسب للتوسع، فرغب في فتحها، وعقد العزم على فتح بَلْغِرَاد في حملته الأولى.

كانت بَلْغِرَاد في الحقيقة موقعًا مهما للغاية بالنسبة للأتراك. فلو فتحت لغدت قاعدة العسكرية للعثمانيين تسهل لهم الزحف إلى المَجَر.

ولما فتحت قلعة بَلْغِرَاد صارت حِمىً للمجاهدين الأتراك فقاموا فورًا بشن غارات على قلب أوروبا، كما ظهرت مشكلات عديدة على الحدود في مدة خمس سنوات عقب فتح بَلْغِرَاد، وحتى حملة "مُوهَاجْ (*Mohaç*)"؛ فقد بدأت الصراعات الشديدة بين "البوياريين"[٣٣] في "الأَفْلَاقْ (*Eflâk*)" التي كانت تؤدي

(٣٣) البويار: زمرة نبيلة/عالية في إدارة الدولة، وفي المجتمع في بلاد السلاف، ولا سيما في روسيا ومولدافيا (بوغدان)، وبوخارست (أفلاق)، وترانسيلفانيا (أَرْدَلْ). (المترجم)

الجزية للدولة العثمانية و"القويفوديين"(٣٤) الذين أرادوا الحصول على السلطة، واضطر العثمانيون إلى التدخل في هذه الاضطرابات.

دعا الطرف المظلوم في الأفلاق إلى نجدتهم فصدر قرار الديوان الهمايوني بإرسال أمير السَنْجَقْ محمد بَكْ ليعيد الأمن والنظام، وقد نجح في تحقيق الأمن لحدود "لهستان" (بولندا) و"أَرْدَل (*Erdel*)"(٣٥) لفترة من الزمن. وبالإضافة إلى ذلك عين أمير الإفلاق "رادو" الذي لجأ إلى العثمانيين وكان له نفوذ كبير بين البوياريين في منصب الولاية (على الرُّومَلِي والبلقان) بشرط دفع جزية ١٤٠٠٠(أربعة عشر ألف) أوقية ذهبية.



حليفان بفرشاة "تسيانو واسيللي (*Tziano Vecellia*)": "فرانسوا" ملك فرنسا المأسور والسلطان سليمان

(٣٤) فويفودا: يعني القائد أو الأمير في لغة السلافيين في فايفودي. وقد كان ملوك هذه البلاد يُعرفون باسم "فويفودا (*Voyvoda*)" قبل أن يُلحق العثمانيون بوخارست ومولدافيا إلى أراضيهم. واستمر استخدام المصطلح نفسه للولاة الذين يعينهم السلطان على ولايتي مولدافيا وبوخارست في عصر الدولة العثمانية. وكان الحكام الحاملون هذا اللقب (فويفودا) يساوون أمراء السنجقات من حيث الدرجة في الهيكل الوظيفي للدولة العثمانية. وأُطلق هذا الاسم على الإداريين المسيحيين الحكوميين في كل من الرُومَلِي والأناضول. (المترجم)

(٣٥) غرب رومانيا حاليا. (المترجم)

ومـن جانـب آخر كانـت تقـع بعض الأحـداث على الحـدود والصراعات الصغيـرة على شـواطئ الطُونَة (الدانوب). واسـتهدف المغيـرون بقيادة "ميخال أوغلي فرهاد بَكْ" الأراضي الواقعة بين نهري "دراوا (*Drava*)" و"صَاوَا (*Sava*)" واسـتولوا على الكثير من الغنائم. ولقد انهزم هؤلاء المغيرون أثناء هجوم قاموا بـه علـى نواحي "سِـيرَمْ" من منطقـة "شـواش انثيمتـر (*Szavaszentdemeter*)". وأرسلت رأس قائدهم فرهاد بَكْ الذي وقـع أسيرًا إلى ملك المَجَر من قِبَل قائد (ثغـر) المَجَر القسـيس "بـول تومـوري (*Pol Tomori*)" (١٥٢٣م). وعقب ذلك قـام المغيرون التابعون لـ"خُسْـرَوْ بَـكْ" و"بَالِي بَكْ" بالهجـوم علي هذه المنطقة وحاولـوا الاسـتيلاء على "يَايْجَـا (*Yayça*)" إلا أنهم لم يتمكنـوا، واضطروا إلى الانسـحاب بعـد أن وصلـت الإمـدادات مـن "كريسـتوف (*Kristof*)" هو قونتو "فرانجيبان (*Frangipan*)" بقوة قوامها ستة عشر ألف جندي.

وغدت المناوشـات الحدودية وغارات المجاهديـن تمهيدًا لحملة المَجَر، وخرج السلطان سليمان في هذه الحملة لعوامل عديدة: منها تآمر البابوية والمَجَر ولهسـتان (بولنـدا)، وأهمهـا دور فرنسـا في الحـرب، فقد زادت في السـنوات الأولـى من سـلطنة السـلطان سـليمان الصراعـات والخلافات بين فرنسـا وآل هابسـبورج الذين حكموا في الإقليم الذي يشـمل ألمانيا وإسـبانيا. وإن ترشيح فرانسوا ["فرانسيس (*François*)"] الأول ملك فرنسا نفسه في منصب إمبراطور ألمانيا كمنافس لـ"كارل (*Karl*)" [كارلوس (*Carlos*) الخامس، تشارلس كوينت (*Charles-Quint*)] من آلِ هابسبورج ـ انتهى بدخول هاتين الدولتين المتنافستين على حكم إيطاليا للسيطرة عليها بعد صراع شديد.

بعد فترة أصبح كارل الخامس ابن فيليب الأول "أرشيدوق" (حاكم) النمسا و"جوانا" الأولى ملكة كاسـتيليا (إسبانيا) ملكًا لأسبانيا مـع والدته "جوانا" عقب وفاة فرناندو الثاني جده لأمه (١٥١٦م). ورشـح نفسه لمنصب الإمبراطور عقب وفاة جده لأبيه ماكسـيميليان الأول إمبراطور ألمانيا وروما المقدسـة (١٥١٩م). وتـم انتخابـه إمبراطـورا بعد أن اشـترى أصوات الأمـراء الألمان ضد فرانسـوا

الأول ملك فرنسا الذي نافس وصارع في هذا السبيل. وقد اعتلى عرش ألمانيا في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٢٠م بعد شهر من اعتلاء السلطان سليمان العرش العثماني. ولما أصبح كارل الخامس إمبراطورا وصار يتصرف كأنه الحاكم الوحيد للعالم المسيحي، عمل على توحيد العالم الكاثوليكي تحت حكمه. وكان أكبر منافس له في السيطرة على العالم هو السلطان سليمان الذي رأى نفسه الحاكم الوحيد في العالم. وفي خلال المرحلة التي شهدت سلسلة من الأحداث والتي بدأت بالاستيلاء على بَلْغِرَاد في سنة ١٥٢١م سوف يترك هذان الحاكمان بصمتهما في الأمور السياسية التي ستقرر مصير أوروبا.

وكان لسيطرة العثمانيين على المَجَر ولحملاتهم في قلب أوروبا دور محوري في بناء أوروبا الحديثة. وكان السلطان سليمان في هذه السنوات الأولى شغوفًا للغاية بمعرفة وضع كارل الخامس حتى إنه حاول بعد حصار بَلْغِرَاد الحصول على معلومات من السفراء البنادقة بشأن وضعه وقوته. ولكن لم تكن لديه معلومات عن فرنسا، ولم يكن يتصور في البداية أنه سيجد حليفًا له في أوروبا. ولكن الأحداث المتطورة غيرت هذا الوضع. فكان المذهب البروتستانتي الذي تزعمه "مارتن لوثر (*Martin Luther*)" والمؤمن بحاجة المسيحية في أوروبا لإصلاح جاد قد توصل إلى نتائج خطيرة، وأسهم في الصراع الناشب بين فرانسوا الأول وكارل الخامس على الآمال والأطماع التاريخية في إيطاليا.

انهزم فرانسوا الأول في منطقة تسمى" بافيا (*Pavia*)" في ٢٥ شباط/فبراير بسنة ١٥٢٥م ووقع أسيرًا في يد كارل الخامس ونقل إلى "مدريد (*Madrid*)" حيث تم حبسه هناك. بحثت فرنسا عن حليف لها إثر أسر فرانسوا الأول، ولكن لم يعدها أحد بالمناصرة سوى العثمانيين، كتبت والدة فرانسوا الأول، نائبة السلطنة (الوصية على العرش) دوقة "آنجوليهم (*Angouléme*)" "لويز دي سافوا (*Louise de Savoie*)" خطابًا موجهًا إلى السلطان سليمان، وأرسلت سفيرًا إلى العاصمة العثمانية. عرضت نائبة السلطنة في هذا الخطاب على السلطان عقد

اتفاقية تنص على كسر نفوذ إمبراطورية روما- ألمانيا المتزايد خطرها تدريجيا، وصد الخطر الذي نتج عن أسر وحبس "شارلكان (*Şarlken*)" ملك إسبانيا لابن "فرانسوا (*Fransuva*)" في معركة "بافي (*Pavi*)" وجاء في الخطاب ما يلي:

> "أرجأت فك أسر ابني حتى الآن أملًا في إنسانية شارلكان، بيد أنه لم يقم بما تدعوه إليه إنسانيته التي بنينا عليها أملنا ورجاءنا بل أساء إلى ابننا وأهانه؛ وبناءً على هذا فإني ألتمس من جلالتكم وعظمتكم بصفة خاصة بأن تتفضلوا بإظهار فخامتكم بخلاص ابني وإنقاذه من قبضة ظلم عدونا وذلك بعظمتكم وجلالتكم المؤيدة والمصدق عليها من العالم".

وقد أرسل فرانسوا الأول شخصيًّا خطابًا إلى السلطان مع خطاب والدته هذا. جاء فيه:

> "إلى حضرة حاكم وسلطان البلاد والممالك من أنحاء العالم المعمورة، السلطان المعظم والخاقان المفخم الذي هو ملاذ جميع المظلومين أعرض على حضرتكم ما في القلب وهو أنه: عندما هاجمتم فرديناند الأول ملك المَجَر نجونا من السجن بفضلكم، وعندما هاجمتم شارلكان ملك إسبانيا ثأرنا منه وانتقمنا، أنت ملك الملوك جليل الشأن، فأنا أسير فضلك من اليوم فصاعدًا أي منذ تكرمك بالانتقام منه وهزيمته".

لم ينجح السفير الأول الذي كلف بإيصال الخطاب إلى السلطان، ولكن السفير الفرنسي الثاني "جون فرانجباني (*Jean Frangipani*)" الذي أرسل أواخر السنة نفسها نجح في الوصول إلى إسطنبول ومعه الخطابان المذكوران آنفًا أحدهما خطاب فرانسوا الأول والآخر خطاب والدته (١ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٢٥م).

عندما تلقى السلطان هذين الخطابين وعد السفير فرانجباني بأنه سيقوم بتقديم المساعدة الفعلية عن طريق القيام بحملة ضد المَجَر. وقام فرانجباني بتحريض السلطان بصورة دائمة خلال مدة وجوده في إسطنبول، وشرح له الوضع في أوروبا بالتفصيل وقال:

"الهجوم البري والبحري ضد كارل الخامس سينقذ الملك الأسير وإلا فإن كارل الخامس ستزداد قوته ويشتد ساعده بالمعاهدة التي سيعقدها معه الملكان (فرانسوا الأول ووالدته) مضطرين، وهكذا يغدو هو الحاكم الوحيد في أوروبا".

وبناءً على هذا أخذ السلطان سليمان رأي سفير البندقية وكتب خطابًا موجهًا إلى ملك فرنسا مؤرخ بـ"ربيع الآخر" سنة ٩٣٢هـ (١٥-٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٢٦م). واسى السلطان فرانسوا بخطاب مشهور مفاده: أنّ الملوك قد يتعرضون لمثل هذا في أثناء الحرب، فهذا أمر وارد، ثم أبلغ السفير أيضًا بأنه سيتحرك من جبهتين ضد كارل الخامس على أن تكون إحداهما إلى السواحل الإيطالية والأخرى إلى المَجَر:

"... أنا سلطان السلاطين وكبير الملوك أنا الذي أتوج الملوك ظل الله في الأرضين، أنا سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والرُّومَلِي والأناضول وقَارَامَانْ والروم وولاية "دُوالْقَادِر" و"ديار بكر" وكردستان وأذربيجان ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وإن هذه الأراضي الشاسعة قد فتحها أبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة رحمهم الله، وكم من البلاد افتتحتها بسيف الظافر المنصور.

من السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان إلى فرانسيس ملك ولاية فرنسا:

حمل إلينا رسولكم فرانجباني رسالة منكم وأخبارًا شفوية تفيد بأن عدوكم استولى على بلادكم، وأنكم الآن محاصرون، وتستنجدون لخلاصكم، وكل ما ذُكِر عُرض على أعتاب عرشنا السلطاني، وأحطت به علمًا، فلا عجب أن يؤسَر الملوك فلا تحزن ولا تهتمّ، فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ونحن أيضًا سالكون على طريقهم وفي كل وقت نفتح

البلاد والقلاع الصعبة الحصينة، وخيولنا ليلًا ونهارًا مسروجة وسيوفنا مسلولة، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته وأما الأحوال والأخبار الأخرى فسيبلغكم بها رسولكم".

عندما عاد السفير الفرنسي إلى مدريد أخبر فرانسوا الأول الذي تخلص من الأسر في تلك الأثناء بوعد السلطان، فأرسل فرانسوا أيضًا خطابًا إلى السلطان عبّر فيه عن شكره وامتنانه، ولكن بينما كان فرانسوا يحاول كسب العثمانيين لصالحه واستمالتهم إليه من ناحية إذ استحسن من ناحية أخرى إخفاء عقده معاهدة مع العثمانيين حتى لايفقد كرامته وسمعته لدى الدول الأوروبية. حتى إن توضيح الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا وكشفه جوهر حقيقة هذه المسألة لسفراء فرديناند في إسطنبول فيما بعد يظهر أن السلطان لم يكن يعلم أن فرانسوا أخفى وعد المساعدة.



منمنمة تصوّر السلطان سليمان العظيم في حرب "موهاج"، بريشة الرسام نقاش عثمان رسّام البلاط السلطاني في لوحته هُنَرْ نامَه، ١٥٤٨م

حملة المَجَر:

معركة ميدان مُوهَاجْ

للحملة على المَجَر عاملان رئيسيان:

أولهما: نصائح فرنسا وتوسلاتها، فقد كان لها أثر بيّن في التحضير لحملة حتمية ضد المَجَر بعد أن سبق تأجيلها جراء اضطرابات وقعت في الشرق.

ثانيهما: كان لما أبداه السلطان سليمان وإبراهيم بَاشَا من عزم وحزم وخبرة في الاستفادة من الظرف الراهن دور مهم في هذا الأمر.

علاوة على ذلك كان السلطان سليمان يريد أن يظهر لرعيته أنه سينجح في الأعمال الكبيرة نجاحًا باهرًا بمساعديه الجدد.

كان من الواضح أنه سيعزز قوة نجاحه أكثر بهذه الحملة الجديدة. وسيكون العثمانيون قد أزالوا عقبة بينهم وبين آل هابسبورج ولم يعد شيء يحول بينهم وبين أبواب "فيينا (*Viyana*)" المسمّاة بـ"التفاحة الحمراء (*Kızıl Elma*)"(٣٦) عند الأتراك.

ومن ناحية ثانية لم يكن وضع المَجَر الداخلي في تلك الأثناء مرضيًا، كان ملك المَجَر ينتسب إلى أسرة "ججالون (*Jegallon*)" الحاكمة البولندية الأصل، ومن أقرباء كارل الخامس.

كان أخو كارل الخامس والذي تولى إدارة إقليم النمسا قد تزوج بـ"ماري (*Maria*)" شقيقة "فرديناند"(٣٧) في سنة ١٥٢١م. وكان شابًّا يافعًا، يلفت النظر بمظهره الخارجي العجيب وهيئته الغريبة لكن لا يبدو أنه ناضج وقادر على إدارة الأزمة في المَجَر. وأصبح وجهًا لوجه مع الانقسام الداخلي بسبب هذه الروابط العائلية بين المَجَر وآل هابسبورج، كما كانت إدارة "لايوش (*Layoş*)" الثامن السيئة وحركات الإقطاعيين بدأت تزلزل المملكة وتزعزعها.

كما أن زابوليا أمير "أَرْدَل (تراسلفانيا) كان يترأس حركة وطنية ضد الملك ونفوذ آل هابسبورج.

كان قرويو المَجَر الذين رزحوا تحت نير الإدارة السيئة قد انضموا إلى حركة البروتستانت بغرض إظهار استيائهم. أضف إلى ذلك أن جيش المَجَر

(٣٦) التفاحة الحمراء هي الغاية المنشودة: المُثُل أو الأحلام التي تتباعد كلما خضعت للتأمل بالنسبة للأتراك ولاسيما للأتراك الأُوغُوزْ (*Oğuz*) في علم الأساطير التركية، ولكن جاذبيتها تزداد بقدر تباعدها. وهي ترمز لهدف وغاية معينة بالنسبة للدول التركية. وكانت ترمز للتقدم الدائم في إطار السير التاريخي. وقيل بعد فتح إسطنبول إن الغاية المنشودة هي روما. (المترجم)

(٣٧) فرديناند: إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، عاهل نمساوي من آل هابسبورج. وهو أول دوق للنمسا في الفترة من ١٥٢١م إلى ١٥٦٤م. كما حكم بوهيميا والمَجَر بعد وفاة لويس الثاني ملك بوهيميا والمَجَر بين عامي ١٥٢٦-١٥٦٤م. (المترجم)

في حالة تشتت وتشرذم حتى إن الكثير من جنود المَجَر الذين لم يستطيعوا أخذ رواتبهم لجأوا إلى بَالِي بَكْ أمير المهاجمين العثمانيين. وهكذا كانت هذه الاضطرابات الداخلية في المَجَر، بجانب الأسباب التي شرحتها آنفًا، قد دفعت السلطان سليمان إلى القيام بالحملة.

بحلول فصل الشتاء بدأ الجيش العثماني بالإعداد للحملة. وأرسل السلطان الأوامر إلى أمراء سَنْجَقْ "الرُّومَلِي" في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير سنة ١٥٢٥م، وأمر بتجميع القوات كلها إبان فصل الربيع في صحراء صُوفْيَا، وأن يستعدوا للحملة. وبالإضافة إلى ذلك تم إرسال الخطابات إلى بَهْرَامْ بَاشَا أمير أمراء الأناضول و"سَعَادَةْ كِيرَايْ (*Saadet Giray*)" خان القِرْم من أجل انضمامهم إلى الحملة. وقد أسند السلطان منصب القائد الأعلى للحملة إلى الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا الذي عاد من مصر، وأوصى "كُوزَلْجَة" قاسم بَاشَا وشيخ الإسلام كمال بَاشَا زاد بحماية إسطنبول والمحافظة عليها.

غادر السلطان سليمان إسطنبول في ١١ رجب سنة ٩٣٢هـ (٢٣ نيسان/أبريل ١٥٢٦م) مع جنود "القَابِي قُولُو" وثلاثمائة مدفع. وقد منع السلطان الجيش العثماني الذي بدأ يسير في نظام وانضباط شديدين من الدخول في الحقول المزروعة ومراعي الحيوانات أو الاستيلاء على الحيوانات التي في أيدي الرعايا، وفرض عقوبة على من خالف شيئًا من ذلك.

وبناءً على الأوامر السابقة انضمت القوات الجديدة المتأخرة إلى الجيش أثناء مسيره، وممن انضم إليه في صُوفْيَا أمير أمراء الأناضول بَهْرَامْ بَاشَا وقواته، وتحمل الجيش العثماني في طريق أَدِرْنَه - صُوفْيَا - نِيشْ نحو بَلْغِرَاد مشاق كثيرة سببها الطين والوحل، وعندما وصل الجيش إلى صُوفْيَا تقدمت قوات إبراهيم بَاشَا وحدها لتكون طليعة العملية العسكرية، وقامت بجمع المعلومات حول الطريق والبيئة لإخطار الجيش بها فورًا، كانت هذه القوات المتقدمة التي تتشكل من جنود الرُّومَلِي تحت قيادة إبراهيم بَاشَا وألفين من الجنود الإِنْكِشَارِيّة تزحف نحو "بتروأردلين (*Petervaradin*)" الواقعة على شاطئ نهر الطُونَة.

عـلاوة على ذلك كان يتبـع الجيش العثماني أسـطول صغير في نهر الطُونَة مكون من سفن وزوارق أيضًا.

غادر السـلطان سـليمان إسـطنبول متجهًا إلـى بَلْغِرَاد في رحلة اسـتغرقت شـهرين ونصـف الشـهر وقضـى عيـد الفطـر هنـاك، وحينمـا كان السـلطان في هذا المكان كانت قوات الطليعة بقيادة إبراهيم بَاشَـا مشغولة بمحاصرة قلعة "بترواراوين" وفتحت هذه القلعة بعد حصار العثمانيين لها مدة اثني عشـر يومًا، ودخلهـا الجنـود العثمانيـون من ثغرات عـن طريق حفر الأنفاق قرب الأسـوار (٢٧ يوليـة ١٥٢٦م). وأقيمـت الخيمـة السـلطانية بعـد فتح القلعة على سـهل بالقـرب مـن القلعة، وانعقـد الديوان الهمايونـي وقام الصدر الأعظـم والوزراء وأمراء الأمراء وأمراء السـناجق بتقبيل يد السلطان، وكرّم السلطان كل أمير يزيد إقطاعه على أربعمائة ألف أَقْجَه بثلاثين ألف أَقْجَه ودُرَّاعة، وأما من يقل راتبهم عـن ذلك فمنح كل واحد عشـرين ألـف أَقْجَه ودُرَّاعة. وفي هـذه الأثناء وصل الخبر إلى السـلطان بأن أمراء البُوسْـنَة الذين دخلوا أراضي "سِيرَمْ" فتحوا بعض القلاع في هذه الأراضي.

وتقدم الجيش العثماني الذي تحت إمرة السلطان بمحاذاة نهر الطُونَة ووصل أمام قلعة "إيلوق (*İlok/(Uyluk-Ujluk)*)" وأمر السلطان بمحاصرة القلعة وحذّر مـن حـرق القرى في هذه النواحي ونهبها وتخريبها. واسـتولي الجيش العثماني على القلعة بعد حصار دام سبعة أيام. وتحركَ الجيش عبر نهر "درافا (*Drava*)" بعد الاسـتيلاء على هذا المكان، وفتحت قلعة "أوسـك (*Ösek (Osseg, Esseg/Eszék)*)" بلا مقاومة، وأُعلن في الجيش أنّ السلطان يرغب فى فتح بُودِينْ.

تقـدم الجيـش فـي اتجاه الشـمال وعبر في يومين جسـرًا بُنـي في غضون خمسة أيام على نهر "درافا" ثم هُدِم في (٢٣ آب/أغسطس ١٥٢٦م). وهكذا بدأ الجيش العثماني يقترب أكثر من ميدان المعركة.

وفـي تلـك الأثنـاء تلقـى المَجَريون عـن طريق جواسـيس "بـول توموري (*Pol Tomori*)" خبـر شـروع العثمانيين فـي اسـتعدادات الحملة ضـد المَجَر.

وبدأ ملك المَجَر لايوش الثاني استعدادات الحرب وطلب المساعدة من دول أوروبا. ولكن تُرِك المَجَريون وشأنهم، بسبب تحالف فرنسا وإنجلترا والبابوية والبندقية وميلانو ضد الإمبراطور "كارل الخامس". فما استطاع "شارلكان" ولا أية دولة أوروبية أخرى مساعدة المَجَريين المستغيثين، وعقد مجلس المَجَر اجتماعًا طارئًا، وقرر في نهايته أن يترأس الملك قيادة الجيش.

وتحرَّك الجيش المَجَري الذي يمتلك أقوى فرسان مدرّعة في أوروبا من "بُودِينْ" في ٢٠ يولية تحت قيادة ملكهم، وفي السادس من آب/أغسطس وصلوا منطقة "تولنا (*Tolna*)"، وهي مستنقع سبخ، وكان القائد الأعلى "ناندورا إستيفان (*Nandor İstvan*)" ينتظرهم هناك؛ فحاولوا صد تقدّم الجيوش العثمانية على بعد أربعين كيلو مترًا شمال نهرِ "درافا" خطِّ الدفاع الطبيعي له.

وتقرر في اجتماع جرى هناك أن يسير "ناندورا" إلى "أوسك" ولكن لم يلتزم جنود المَجَر بهذا القرار فصار من الأنسب أن يتحرك الجيش كله، وفي تلك الفترة تم تنصيب قائد المَجَر "بول توموري" حامي حدود المَجَر مع الدولة العثمانية رئيسًا للأساقفة "كالوشا (*Kalocsa*)"، ووصل حينها إلى صحراء "مُوهَاجْ" أيضًا، وراح الجيش المَجَري يترقب وصول العثمانيين، علاوة على ذلك أمر "لايوش" ملك المَجَر حينما كان لايزال في الطريق "جان زابوليا" حاكم "أَرْدَلْ"، وحاكم الأفلاق بالتحرك تجاه العثمانيين. بيد أنه أرسل الأخبار فيما بعد من أجل الانضمام إليه بجميع قواتهما في أقصر وقت.

كان الجيش العثماني يستعرض قوته أثناء تقدمه ناحية الشمال، ومن أجل ذلك كانت فرقة منه تشعل الشموع أثناء مسيرهم، وكان بَالِي بَكْ أمير سَنْجَقْ "سَمَنْدِرَه" يتقدم أمام الجيش العثماني ويتبعه السلطان مع عسكر الرُّومَلِي والجنود الإنْكِشَارِيّة، ومن خلفهم فرسان البُوسْنَة بقيادة خُسْرَوْ بَكْ أمير أمراء البُوسْنَة، وأخيرًا وصل الجيش التركي إلى صحراء "مُوهَاجْ" في ٢٦ آب/أغسطس. ولما شعر السلطان بتعب الجنود أمر بأن يستريحوا حتى الصباح ثم يبدؤوا المعركة مبكرًا، وفي هذه الأثناء أمر بعقد اجتماع لمجلس الدفاع وطلب

من قادة حرس الحدود وكبار الخبراء العسكريين المشاركة، ويرى المؤرخون العثمانيون أن هذه المباحثات جرت على النحو الآتي:

مَثل إبراهيم بَاشَا بين يدي السلطان بعد أن ثبّت حشود الرُّومَلِي وركزهم في أماكنهم. وأمر السلطان بإرسال الرقباء إلى قادة حرس الحدود ليدعوهم للتشاور. ومثل خُسْرَوْ بَكْ أمير أمراء البُوسْنَة قبل الجميع بين يدي السلطان، وطلب منه أن يصعد إلى مكان مرتفع. وبينما كان إبراهيم بَاشَا والوزراء الآخرون يقفون أمام السلطان إذ يسأل إبراهيم بَاشَا وهو يقف خُسْرَوْ بَكْ قائلا:

"أنتم أمراء الحدود يريد صاحب السعادة سلطاننا منكم المشاورة، هذه هي صحراء مُوهَاجْ، ولايوجد أثر من العدو بعد، فما هو الحل؟"

ويجيب خُسْرَوْ بَكْ على هذا السؤال قائلا:

"جلالة السلطان، نحن نتشاور مع عسكريين لهم خبرة في الحدود، فلا نقدم على شيء إلا بمشورتهم، وعندما تأمرنا نذهب إليهم ونتشاور ثم نبلغ جلالة السلطان بالنتائج".

ولما بلغ خُسْرَوْ بَكْ ما أمر به السلطان كلّف أحد رجاله بذلك قائلًا:

"اذهب بسرعة، وادعُ للتشاور كما أمر السلطان كلًّا من "قُوجَه آلاي بَكْ (*Koca Alay Bey*)" (أمير قُوجَه آلاي) و"قرة عثمان" و"محمد صوباشي (*Subaşı*)" و"عادل طاويجة (*Tavıca*)" و"جَرِيبَاشْ "بَالَابَانْ (*Balaban*)".

وفي تلك الأثناء حضر رجل مسن أشيب مقدام يطلق عليه "عادل طاويجة" وسلاحه على ظهره وخوذته الحديدية فوق رأسه ومعطفه المصنوع من اللباد على مؤخر سرج حصانه؛ فظن خُسْرَوْ بَكْ أنه جاء تلبية لدعوة السطان للتشاور. قال عادل طاويجة:

"فيم نتشاور؟ هل أمامنا حلّ غير الحرب؟ أرسلني أمير قُوجَه آلاي إليكم، وحشود العدو قد اقتربت، ارفعوا راياتكم وتقدموا، وحولوا دون الخطر المحدق بالجيش، وتحملوا المسؤولية".

ثم دفع حصانه، واستدار ورحل إلى فرقته؛ وسرعان ما أتى رسول كوجوك بَالِـي بَكْ بالخبـر: اقترب العدو منهم وهو يتقدم بحشـوده من ممرات قريبة من صحراء مُوهَاجْ، وراياته تشاهَد على التلال والقمم بين حين وآخر.

وأقيمت خيمة السلطان فوق تل أطلق عليه تل "خُنْكَارْ (*Hünkar*)" (أي: تل السـلطان). رفع جميع الأمراء راياتهم واقترب السـلطان من هذه الرايات ودعا قائلًا وهو يذرف الدموع:

> "إلهـي أنـت القـوي المتيـن، لاحـول ولا قـوة إلا بـك، بيـدك الأمـر والنصـر، إنـك نِعم المولى ونِعم النصير، كن عونا لنا، فنحن ضعفاء أمة محمد ﷺ".

أمـا الجنود الذين شـاهدوا السـلطان وهو يتضرع إلى الله باكيًـا تأثروا كثيرا وأقسموا بأن يضحوا بأنفسهم وأرواحهم من أجل السلطان. بدأ الجيش العثماني يستعد للحرب في هذا الجو الروحاني.

قـام المَجَريـون بتقسـيم جيشـهم إلـى صفين وبـدؤوا بالهجـوم الأول في ٢١ ذي القعدة سـنة ٩٣٢هـ (٢٩ آب/أغسـطس١٥٢٦م)، وقسموا الصف الأول إلى قلب ويمين ويسار، أما الثاني ففي السّاقة وهو أربـع فرق متتالية.

قرر السـلطان تأجيـل الحرب إلى اليـوم التالي لكن الجيـش المَجَري بادر بالهجوم الفوري، فهم أقوياء جدًّا واثقون من النصر بما لديهم من فرسان عليهم دروع سابغة.

قام "راسقاي (*Raskay*)" و"بطحاني (*Batthanyi*)" بالهجوم الأول للمجريين وفي إثره قام "توموري (*Tomori*)" و"طبيريني (*Perényi*)" بالهجوم الثاني. كانت هـذه الهجمـات شـديدة للغايـة. وبـدأت معركة حاميـة الوطيس بيـن الطرفين. اشتدت هجمات المَجَريين ففتح لهم جنود الرُّومَلِي ثغرات على شكل أجنحة، فظن فرسان المَجَر أنهم حققوا النصر فحاولوا اقتحام قلب الجيش العثماني.

وكان الصـف الثانـي بقيادة ملك المَجَر "لايوش الثاني" يسـير وراء الصف الأول، ولما توغل المَجَر بين جنود الرُّومَلِي أخذ "جنود الأناضول" يدفعون بهم نحو قلب الجيش حيث المدافـع ورماة البنادق من فرقة الإنْكِشَارِيّة.

وفـي الوقت نفسـه اتضـح أنّ القـوات التابعة لـ"خُسْـرَوْ بَـكْ" و"بَالِي بَكْ" قد أحاطت بالعدو فجأة وطوقته. وفي تلك الأثناء بدأ أيضًا إطلاق قذائق المدافـع العثمانيـة المؤثـرة، والتي أصابـت أهدافها. وسـببت هذه القذائـف اضطرابات شـديدة فـي صفوف الجنـود المَجَريين وكبدتهم خسـائر فادحـة. واقترب ثلاثة وعشرون فدائيًا من فرسان المَجَر الذين توغلوا في الجيش العثماني ـ من المكان الذي يوجد فيه السـلطان حيث أقسـموا أن يقتلوه، وبالرغم من أنهم اسـتطاعوا إصابة درعه بثلاثة أسهم إلا أنهم قُتلوا على الفور، وقتل قسم آخر منهم بطلقات بنـادق الإنْكِشَـارِيّة. وبـدأ المَجَريون الذيـن تفرقوا جراء إطلاق نيـران المدفعية الشديدة وطلقات بنادق الإنْكِشَارِيّة المؤثرة السريعة والمتوالية وعمليات تطويق القـوات العثمانيـة لهم ـ بدؤوا ـ يهربون في ذعر ورعب، وقتل بعضهم بالسـيف، وانغرس البعض الآخر في المسـتنقعات واختنقـوا وغرقوا. وقتل من المَجَريين في هذه الحرب هذه ٢٠٠٠٠(عشرون ألف جندي) و٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس. وفـي أثنـاء عبـور الملك لايوش النهـر انجرف في مياهه وغـرق، أما بعض قادة المَجَـر الآخرين فقد قتلوا وقطـع رأس قائدهم المشـهور "بول توموري" ورفـع على سنان الرمح ليراه الجنود.

وبعد الحرب تفقد السـلطان سـليمان ومعه الصدر الأعظم والوزراء ميدان المعركة، وأمر بدفن الجثث, وفي اليوم نفسه أقيمت احتفالات النصر في الجيش العثماني. وفي أثناء تفقد السـلطان ميـدان المعركة، رأى أمير قُوجَه آلاي تحت إحدى الرايات فأمر إبراهيم بَاشَا قائلا:

"استدع أمير الآي واسأله عن الوضـع".

نادى إبراهيم بَاشَـا أمير قُوجَه آلاي، وما إن وصل أمير قُوجَه آلاي مسـرعًا سأله ـ إبراهيم بَاشَا ـ قائلًا:

" بحمد الله تعالى نجح صاحب السعادة سلطاننا في هذه الغزوة الكبرى ماذا نفعل الآن".

فأجاب أمير آلاي ملمّحا إلى وجوب الحملة على بُودِينْ:

"ياسلطاني لا تدع صغير الخنزير في مرقده ".

وإذا كانت القصة التي ذكرتها المصادر العثمانية سـببًا للسـير إلى بُودِينْ فإن السـلطان سـليمان بعد قضائه على الجيش المَجَري كان قد خطط للسـير إليها، وكان لايفكـر فـي البقـاء كثيرًا هنـاك، لأنـه أدرك صعوبة المحافظـة على مكان بعيـد إلـى حد ما عن حدود الدولة، أقام السـلطان ثلاثة أيام في صحراء مُوهَاجْ، وقلّد بمناسبة النصر الصدر الأعظم الطرز المزدانة (المرصعة) بالجواهر. وألبس الأمـراء الخلـع السـلطانية، وبعد أن أمر بإرسـال خطابـات النصر إلـى البلدان العثمانيـة أبلـغ القادة والوزراء بالاسـتمرار في العمليات العسـكرية، وبالإضافة إلى ذلك تم إرسـال المهاجمين إلى داخل بلاد المَجَر. غادر السـلطان سـليمان "مُوهَـاجْ" فـي ٢٦ ذي القعـدة سـنة ٩٣٢هـ (٣ أيلول/سـبتمبر ١٥٢٦م) ووصل بالقرب من بُودِينْ في العاشـر من أيلول/سـبتمبر عام ١٥٢٦م، وفي أثناء الطريق كان ممثلو حكومة المَجَر قد قدموا مفاتيح المدينة إلى السلطان في موقـع يسمى "فولـد فـار (*Földvar*)" ودخل السـلطان المدينة في اليوم التالـي. وكانت أرملة ملك المَجَر ونبلاء المَجَر وأشرافها قد تركوا المدينة قبل دخول الأتراك فيها.



منمنمتان من "سليمان نامه" تكملان بعضهما، وتُظهران موقعة موهاج الدائرة
في ٢٩ أغسطس ١٥٢٦م

ولـم يصب الشعب بأي أذى؛ لأن الجيش العثماني منع سلب المدينة ونهبها. وقضى السلطان سليمان عيد الأضحى في هذا المكان، وتم ترتيب الإحتفالات ووسائل التسلية والترفيه. وأمر السلطان ببناء جسر على نهر الطُونَة في موقع سوق الحطب بالمدينة، فلما اكتمل عبره السلطان مع إبراهيم بَاشَا إلى ضفة "يشته". واستقبل هناك وجهاء دولة المَجَر وتحدث معهم، ثم تجول مع إبراهيم بَاشَا في المدينة، وبالرغم من أنه منع تخريب المدينة وسلبها إلا أنّ شغبًا وعنفًا محدودًا وقع في المدينة أدى إلى احتراق كنيسة كبيرة وبعض الأحياء السكنية، حزن السلطان كثيرًا لهذا الوضع، وأصدر أمرًا" إلى إبراهيم بَاشَا من أجل إطفاء الحريق والتدخل لإنهاء هذا الوضع، ولكن لم يتيسر هذا لأن الحريق كان يشتد وتزداد حدته.

عندما كان السلطان في بُودِينْ أقام في قصر الملك، وأمر بترتيب الاحتفالات ووسائل التسلية. ثم ذهب إلى قصر الصيد الخاص بالملك واصطاد هناك، ثم طلب نقل جزء من أهل المدينة، فتم تسكين اليهود في "سَلَانِيكْ (*Selanik*)".

وغالبية المسيحيين قرب "يَدِي قُولَه (*Yedikule*)"، وفي خلال ذلك أمر السلطان بشحن خزينة الملك، وبعض الأشياء الموجودة في عتاده الحربي على سفن وإرسالها إلى إسطنبول. كان يوجد بين هذه الأشياء تماثيل من البرونز "هرقل (*Herkül*)" و"ديانا (*Diana*)" و"أبو للو (*Apollon*)"، وشمعدانان كبيران من البرونز وكتب "ماثياس كورفينس (*Mathias Corven*)" وقد تكدست التماثيل مع غنائم أخرى في "آتْ مَيْدَانِي (*At Meydanı*)" (أي: ميدان الخيل) أمام قصر إبراهيم بَاشَا. وكان الغرض من هذا عرض الغنائم التي تم الاستيلاء عليها على الشعب وبالتالي إظهار عظمة النصر.

وجاء أهالي إسطنبول وشاهدوا هذه الغنائم والأشياء بإعجاب ودهشة. ولكن استخدمت هذه التماثيل فيما بعد ضد إبراهيم بَاشَا من قبل معارضيه وخصومه. وظهرت عدة شائعات بشأن إبراهيم بَاشَا، واشتهر كثيرا هذا الشعر الذي قاله الشاعر "فغاني (*Figânî*)":

ولد في هذه الدنيا إبراهيمان:

أحدهما حطم الأصنام والآخر نصب الأصنام.

غادر السلطان سليمان "بُودِينْ" في ٢٤ أيلول/سبتمبر واتجه إلى إسطنبول، ورأى أن من المصلحة التنازل عن المدينة، لأن السيطرة والمحافظة عليها عسيرة لبُعدها عن حدود الدولة، ولم يرغب في العودة من الطريق الذي جاءوا منه، ووصل الجيش العثماني الذي تتبع شاطئ نهر الطونة إلى مدينة "سكدين" الواقعة على ضفة نهر" تيسّا (*Tissa*)". وتم الاستيلاء على هذا المكان بسهولة.

وصل الجيش العثماني الذي أسرع في السير بعد "سكدين (*Segedin*)"- أمام مدينة "باج (*Baç*)". قاومت المدينة العثمانيين، ومع ذلك وقعت القلعة تحت الحصار، وسقطت نتيجة الهجمات الشديدة التي تم القيام بها، ولكن سمح بالسلب والنهب بسبب هذه المقاومة الشديدة. وتعرض الجيش العثماني للمقاومة في أثناء تقدمه في الساحة التي تؤدي إلى "بتروأردلين". وعندما تم الوصول إلى "بتروأردلين (*Petervaradin*)" بعد معارك حامية الوطيس تم العبور

من الجسـر الذي أقيم في هذا المكان، وبعد ذلك وصلوا إلى "أَدِرْنَه" عن طريق بَلْغِرَاد-نيش-صُوفْيَا. ووصل السـلطان القانوني إلى إسـطنبول في ٧ صفر سـنة ٩٣٣هـ (١٣ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٢٦م) وذلك بعـد أن مكث في أَدِرْنَه فترة من الزمن.

أزمة داخلية جديدة: حركات التمرد في الأناضول

تلقي السـلطان سـليمان في أثناء العودة من الحملة أنباء عن وقوع حركات تمـرد وعصيان في الأناضول على نطاق واسـع. في البدايـة لم يأبه بهذه الأنباء ولكـن الأخبـار التـي وصلته فيما بعـد جعلته يقتنـع بأن وقوع حـركات التمرد والعصيـان هـذه بتحريض مـن الصفويين أعدائه السـابقين بصفـة خاصة. ومـع ذلـك فلم يكن الوضـع الحقيقي هكـذا، فقد تبين له فيما بعد أن حركات التمرد هـذه اندلعت لأسـباب اقتصادية واجتماعية، في حقيقـة الأمر وقعت فيما مضى في عهد السـلطان سـليم في الأناضول بصفة خاصة حركات عصيان على نطاق واسـع بين جماعات التركمان المنتمين إلى الشيعة، وتم قمـع حركات العصيان هذه بصورة قاسـية. فازدادت هذه الحركات إثر اعتلاء "طهماسب (*Tahmasb*)" الأول العرش، وكانت هناك حركات تمرّد أخرى أثّرت في اتساع رقعة العصيان المدني، ولهذا العصيان سببان:

الأول: استغلال الأخطاء الإدارية المتكررة في الأناضول.

الثاني: تصرفات كبار رجال الدولة من "الدَّوْشِـيرْمَه" بممارسـتهم للضغوط الاقتصاديّة المتعمدة على الناس كما يدعّي بعض المؤرخين المعاصرين.

حيث اتضح أنه بمجرد أن تولى "القانوني" الحكم جرى في أثناء ذلك تقييد وتسـجيل الأراضـي العامـة التي أمر بإجرائها في محاولة لتأميـن وتوفير مزيد من الإيـرادات (الـواردات) للخزانة من أجل الحملات الجديدة. وأدت زيادة موظفي العقارات للضرائب وتخصيص قسم من أراضي السباهية للخزانة إلى استياء الشعب والسـباهية معًا، فوقعت أحداث مؤسـفة، وهكذا ظهرت الاضطرابات الاقتصادية

والاجتماعية في السنوات الأولى لحكم السلطان سليمان، وبدأت تندلع حركات التمرد والعصيان بعضها إثر بعض، وللدعايات الصفوية يد في ذلك.

ولما خرج السلطان سليمان إلى حملة "مُوهَاجْ" كلف قوات وأمراء من "قَارَامَانْ" والروم و"ديار بكر" وحلب ودمشق ومصر بحماية أمن بلادهم، وبذلك فقد اتخذ التدابير اللازمة ضد أي شغب أو اضطراب محتمل يمكن أن يحدث في هذه المناطق إلا أنه اندلع عصيان في "بُوزُوقْ (*Bozok*)" إحدى هذه المناطق أثناء تقدمه إلى "بُودِينْ". وحدث هذا بسبب الظلم والجور أثناء تسجيل أراضي سَنْجَقْ "بُوزُوقْ" التابعة لإدارة" مصطفى بَكْ بن هرسك زاده أحمد بَاشَا.

فعلى سبيل المثال قدّر موظفو التسجيل مائتي أَقْجَه ضريبة على مزرعة تحت تصرّف رجل مسن يدعى "سُوكْلُونْ قُوجَه (*Süğlün Koca*)" من تركمان "قِيزِلْبَاشْ"[٣٨]. وبناء على هذا رفع هذا الشخص التماسًا بالرجوع إلى موظف التسجيل قاضي مصلح الدين ومصطفى بَكْ أمير السَنْجَقْ من أجل تخفيض المائتي أَقْجَه إلى مائة أَقْجَه. ولكن تم رفض عرضه هذا كما قدم الموظفون الذين غضبوا بسبب إصراره على قص لحية هذا الرجل وتعذيبه. وأدى هذا التصرف في حقيقة الأمر إلى عصيان واسع النطاق في المنطقة. واتحد "سُوكْلُونْ قُوجَه" وابنه "شاه ولي" مع شخص يدعى "بَابَا ذُو النُّونْ (*Baba Zünnûn*)" يحتمل أنه الخليفة الصفوي وجمعوا حولهم تركمان "بُوزُوقْ" وقاموا حسبما يرى "جلال زَادَه (*Celalzâde*)" بقتل أمير السَنْجَقْ مصطفى بَكْ وقاضي مصلح الدين وكاتبه محمد في ٢٨ آب/أغسطس سنة ١٥٢٦م.

وأعقب هذا العصيان الذي حدثتْ في "بُوزُوقْ" حركات في نفس التواريخ تقريبًا في مناطق مَرْعَشْ وسِيوَاسْ و"آضَنَه (*Adana*)" و"طَرْسُوسْ (*Tarsus*)" و"إيجل (*İçel*)". ويبدو أن حركات العصيان هذه نشبت من مخطط واضح وتحريض سافر، واشتدّ العصيان عندما انضم إليه تركمان ذي القادر لاستيائهم

(٣٨) "قزلباش (*Kızılbaş*)"، تعني ذوو الرؤوس الحمراء، وهي مجموعة من الجنود الشيعة الذين عينتهم الدولة الصفوية في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. (المترجم)

مـن قتـل أميرهم شهسـوار أوغلو علـي بك، ولتأميـم ممتلكاتهـم، فزحف أمير أمراء "قَارَامَانْ" خرّم بَاشَـا لإنهاء عصيان تركمان بُوزُوقْ وذي القادر؛ وفي تلك الأثنـاء كان هؤلاء العصاة يداهمون القرى والمـدن الصغيرة ويجمعون مؤيدين لهـم قسـرًا للتوجه إلى سِـيوَاسْ، ووقـع اشـتباك في موقـع يسـمى "قُورْشُـونْلُو بَلِـي (*Kurşunlubeli*)" بيـن العصـاة وخـرّم بَاشَـا الـذي وصـل إليهـم بالقرب من "قَيْصَرِي"، وانهزم خرّم بَاشَا بسبب تعجّله في الهجوم. وسيطر العصاة المتمردون بعد هذا الانتصار على نواحي "تُوقَاتْ". وتم إبلاغ عصيانهم إلى السلطان العائد من المَجَر في هذه الأثناء من قبل بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه.

واسـتعد حسـين بَاشَا أمير أمراء الروم (سِـيوَاسْ)، كما بدأ من ناحية أخرى كل مـن حسـين بَـكْ أميـر "طَرْسُـوسْ" ومصطفى بَـكْ أمير "سـيس" جمـع قوة مـن أجـل إخماد حـركات تمرد "بَابَـا ذُو النُّـونْ" والتركمـان العصـاة. وزحفوا مـع بِيـرِي بَكْ إلـى المتمردين العصـاة، وبناء على هذا انسـحب بَابَـا ذُو النُّونْ وجماعـة العصـاة الذيـن كانوا تحـت إدارة سـوكلن أوغلي موسـى إلى نواحي سِيوَاسْ، وقاموا بسلب ونهب "تُوقَاتْ" و"آرْتُوقْ آبَادْ (*Artukabad*)".

هـذا وقـد وصل محمود بَـكْ أمير "مَرْعَشْ" مـع القـوات التي تحت إمرته إلى حسين بَاشَا في ١٢ أيلول/سبتمبر، وفي ذلك الحين كان حسين بَاشَا أيضًا قد أرسل "يُولَارْقِيسْدِي أُوغْلُو إِسْكَنْدَرْ بَكْ (*Yularkısdıoğlu İskender Bey*)" أميـر ملاطيـة بألف فارس للاستكشـاف وتفقّـد الأحوال. وبينما كان إِسْـكَنْدَرْ بَـكْ يريـد أن يوقـع المتمردين في الكمين الـذي نصبه لهم إذ انهزم نتيجة عدم ثبـات وصمـود جنـوده، ووقـع حوالـي أربعمائة جندي أسـيرًا بيـد المتمردين في ميدان المعركة، أما هو فقد استطاع أن يهرب بصعوبة، وحذر بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه من وصول جنود "ديار بكر" وغشـب ودمشـق إلى ملاطية ودعا لضرورة التوجه معًا لمواجهتهم، لكن حسـين بَاشَـا لم يلتفت لذلك بل سـارع بالهجوم علـى المتمرديـن لتخويفهـم، واضطر بِيرِي لمشـاركته، والتقت قوات حسـين بَاشَـا وبِيـرِي بَـكْ بتركمان ذو النون فـي موقـع يسـمى "هُويُوكْلُو (*Höyüklü*)"

فـي ٢٦ أيلول/سـبتمبر ١٥٢٦م. وانتهـت المعركـة بهزيمـة المتمرديـن ومقتل بعضهـم وكان مـن بينهـم بَابَا ذُو النُّـونْ كما قيل، إلا أن بقية قـوات المتمردين الذين انسـحبوا إلى الجبل بدؤوا يسـلبون وينهبون الأشـياء التي تركها عسـاكر حسـين بَاشَـا وهجمـوا مرة ثانيـة على الجنـود وهزموهم ونجحوا في تشـتيت قوات الحكومة. وأصيب حسـين بَاشَـا وانسحب إلى سِيوَاسْ، وتوفي بعد عدة أيام في هذا المكان متأثرًا بجروحه. وفي تلك الأثناء وصل خُسْـرَوْ بَاشَـا أمير أمراء "ديار بكر" وشـتت العصاة المتمردين الذين فقدوا في حقيقة الأمر قسـمًا كبيرًا من قواتهم بسـهولة ويسـر، وقتل معظمهم أيضًا بالسيوف. وهكذا انتهت حادثة بَابَا ذُو النُّونْ.

وبعـد انتهاء حادثة بَابَا ذُو النُّـونْ ظهرت حركات عصيان وتمرد في نواحي آضَنَـه، عصيان "دومـوز أوغلان" في ناحيـة "أولاش (*Ulaş*)" وعصيـان "يَكْجَة (*Yekçe*)" و"وَلِـي خليفـة" مـن "قرة عيسـى لـي (*Karaisalı*)" وجمعـوا الرجال حولهـم وشـقوا عصا الطاعـة في أوائل سـنة ١٥٢٧م. وداهموا القـرى والمدن الصغيـرة المحيطـة بهم. وبنـاء على هذا قمع بِيرِي بَكْ الذي اشـترك في حادثة بَابَـا ذُو النُّـونْ عصيـان "دُومُـوزْ أُوغْـلَانْ (*Domuzoğlan*)" أولا وعصيان يكجة بَـكْ فـي أثره من بعده قُتـل "دُومُوزْ أُوغْلَانْ" فيها، أما يكجة بَكْ فقد تم إرسـاله إلى إسطنبول حيًّا، وأعدم في العاصمة. وحشد ولي خليفة بن قاضي قرة عيسى لي مصطفى خليفة المعروف بخليفة شـاه إيران أكثر من خمسـمائة رجل، وكأنه بهذا قد حرض ثلاثة سناجق كما قال جلال زاده، ثم هجم على طرطوس، وبدأت فـي هـذا المكان معركة رهيبـة حامية الوطيس، وقد هزم بِيـرِي بَكْ الذي وصل فـي هذه الأثناء العصاة المتمردين هزيمة نكـراء، "وقتل زعيمهم وقضى عليهم، وظهرت عقبة حركات العصيان في "بُوزُوقْ" و"جُوقُورْأُووَا (*Çukurova*)" حركة عصيان أشمل منها وأوسـع.

انتشرت هذه الحركة ما بين قَارَامَانْ ومَرْعَشْ بزعامة "قَلَنْدَرْ شَلَبِي (*Kalender Çelebi*)" سـليل "حاجـي بكتاشـي" وهـو من سـلالة حبيب أفنـدي كما يدعي،

أما أمه فهي مغمورة، فشجرة نسبه فيها: والده إِسْكَنْدَرْ، وجده "بالم سلطان" ووالد جده "رسول شَلَبِي" والد حبيب أفندي، وفي ثبوت هذه السلسلة شكوك.

وسرعان ما احتشد الآلاف من حوله لادعائه أنه شيخ تكية "حاجي بكتاشي" وسليل نسبه، وتشير المصادر يومئذ إلى أن عددهم بلغ مع شيعة تركمان قَارَامَانْ ونواحيها ثلاثين ألفًا، فاستطاع أقلندر شَلَبِي القياديّ في حركات التمرد الأخرى أن يستفيد من مكانته لحشد هذا العدد بواسطة الدراويش في التكايا التي بلغ عددها المئات حسب ما قال المؤرخ جلال زاده، والذين رفعوا رايات قلندر وقرعوا الطبول ونفخوا في المزامير المصنوعة من القرون، وبدأت أعمال السلب والنهب والقتل، كان معظم من اجتمع لـ"قَلَنْدَرْ شَلَبِي" من البدو التركمان المتشيعين وفي مقدِّمتهم عشائر "جِيجَكْلِي (*Çiçekli*)" وأَقْجَه قويونلي (*Akçakoyunlu*)" و"مصاتلي (*Masatlı*)" وبُوزُوقْلو رغم أن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية جيدة جدًّا، لكنهم اعتادوا الحرية بدلا من القيود الصارمة، واستاءوا من ضرائب الدولة الباهظة وأعبائها.

وعندما وصل السلطان سليمان إلى "بتروأردلين (*Petervaradin*)" عائدًا من صحراء مُوهَاجْ بلغه خبر عصيان قلندر وتمرده، وعندما علم بانتشار حركة العصيان، أرسل الأوامر على الفور إلى أمراء الأناضول، وكلّف أيضًا الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا عند عودته إلى إسطنبول بفض هذا التمرد.

ويظهر لنا كل هذا أن الوضع قد بات خطيرًا وحساسًا للغاية. وبناء على ذلك انطلق إبراهيم بَاشَا بثلاثة آلاف جندي إنكشاري وألفين من فرسان الـ"قَابِي قُولُو" وعندما اقترب من أقسراي وجَّه قوات بقيادة بَهْرَامْ بَاشَا أمير أمراء الأناضول ومحمود بَاشَا أمير أمراء "قَارَامَانْ" لمهاجمة قلندر شَلَبِي.

والتقت هذه القوات بالعصاة المتمردين في موقع أطلق عليه "جِنْجَفَة (*Cincefe*)"، وقد انهزموا في المعاركة وقتل محمود بَاشَا أمير أمراء "قَارَامَانْ"، وسنان بَكْ أمير "علائية (*Alaiye*)" وقوجي بَكْ أمير أَمَاسْيَا، ومصطفى بَكْ أمير "بِيرَجِيكْ (*Birecik*)"، و"نوح" دَفْتَرْدَارْ إقطاع الأناضول، والشيخ محمد كتخدا

(وكيل) دفتر "قَارَامَانْ" في ميدان المعركة، (٨ رمضان ٩٣٣هـ / ٨ حزيران/يونيو ١٥٢٧م) وكان إبراهيم بَاشَا الذي تلقى خبر هزيمة القوات العثمانية هزيمة نكراء ووفاة كثير من الأمراء، فوصل على الفور بالقرب من "البستان" ومعه ثلاثة آلاف جندي إنكشاري وألفان من فرسان الـ"قَابِي قُولُو" الذين تحت إمرته. وشعر بوجوب اتخاذ بعض التدابير في مواجهة تفوق العصاة المتمردين من حيث العدد. لأن العصاة المتمردين قد استولوا على كثير من العتاد الحربي الذي تبقى في الميدان بعد المعركة، وانضم إليهم نتيجة هذا النصر أناس آخرون، وهكذا زادوا أكثر فأكثر من حيث العدد.

والتحق بـ"قَلَنْدَرْ" أيضا بعض أهل السنة وليس الشيعة القيزلباشيه فحسب، فلم يعد تمرده طائفيًّا، بل بات صراعًا مع العثمانيين على السلطة، ويروى كذلك أنه تلقب بلقب "قَلَنْدَرشَاهْ"، وأنه أقام علاقة مع الصفويين أيضًا.

ولهذا اضطر إبراهيم بَاشَا إلى اتخاذ بعض التدابير ضد قلندر الذي يقوى ويشتد ساعده شيئًا فشيئًا. وهذه التدابير هي:

حال دون اتصال المنهزمين بالقوات الجديدة التي لم تخض الحرب بعد، فقضى على ما قد يحدث من هزيمة معنوية للجدد.

ولم يجند إبراهيم بَاشَا عساكر من الولايات سوى فرقة الـ"قَابِي قُولُو"؛ وذلك لأن الولايات لم تقاتل معه التركمان مطلقًا لقرابتهم بل انضموا إليهم، إلا أن إبراهيم بَاشَا أدرك صعوبة مقاومة العصاة المتمردين الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفًا عن طريق القوة، فعقد على الفور اجتماعًا مع الأمراء، واتخذ في الاجتماع قرارات صارمة، منها أن على أمراء تركمان دُوالْقَادِر الموالين لـ"قَلَنْدَرْ" الإذعان للدولة وطاعتها من جديد.

كان هؤلاء هم فرسان تركمان "دُوالْقَادِر" الذين طالهم التأميم بعد مقتل شهسوار أوغلو؛ فانضموا إلى "قَلَنْدَرْ"، واعتزل أمراء هذه العشيرة قلندر بناءً على وعد إبراهيم بَاشَا لهم بإلغاء التأميم وانسحبت معهم عشائر "دُوالْقَادِر" التابعة

لهم مثل "جِيجَكْلِي (*Çiçekli*)" و"أَقْجَه قُويُونْلُو (*Akçakoyunlu*)" و"مَصَاتْلِي (*Masatlı*)" وبُوزُوقْلو.

وفي الحقيقة، يتضح أنهم فضلوا بناءً على إعادة إقطاعاتهم إليهم البقاء تابعين للعثمانيين بدلًا من الدخول في طريق مظلم.

وأرسل إبراهيم بَاشَا قوة بقيادة قائدين من الـ"قَابِي قُولُو" وهما بلال آغا رئيس طباخي (ذواق) القصر و"دلي بروانه (*Deli Pervâne*)" - إلى قلندر الذي بقيت حوله قوة قليلة جدًّا. وفي ٢٢ رمضان سنة ٩٣٣هـ (٢٢ حزيران/يونيو سنة ١٥٢٧م) تشتت شمل العصاة المتمردين الذين بوغتوا بهجوم هذه القوات في مرعى (مرج) أطلق عليه اسم "باش صاريز" ومات قلندر في هذه المعركة. وقتل أيضًا مع قلندر من يدعى "دِيوَانَه دُونْدَارْ (*Divâne Dündar*)" الذي قيل إنه من أبناء دُو الْقَادِر.

كان إبراهيم بَاشَا قد استاء من هزيمة أمير أمراء الأناضول وجنوده، فعقد اجتماعًا لبحث أسبابها بعد أن نكل بالمتمردين وقتل عددًا منهم.

وحسبما قال المؤرخ جلال زاده الذي حضر هذا الاجتماع وشهد استجواب إبراهيم بَاشَا ودوّنه: إن الصدر الأعظم تكلم بشكل قاس لأولئك الذين انهزموا أمام المتمردين وهربوا: كيف تنهزم وحدة مدربة تدريبًا عسكريًّا أمام مجموعة غير منظمة لا خبرة لها ولا تجربة، وذكر أنه يجب الإعدام فورًا لأولئك الذين تسببوا في هذا. وبعد أن أوصى إبراهيم بَاشَا المؤرخ جلال زاده بأن يدوّن الردود على الأسئلة ليطلع السلطان عليها، وجّه السؤال الأول إلى "بَهْرَامْ بَاشَا (*Behram Paşa*)"، فلم يستطع الرد عليه فسأل الأمراء الآخرين فلم يحر أحد جوابًا، وغضب إبراهيم بَاشَا لتبادل الاتهامات، وما هدأ حتى سمع كلام محمد بَكْ أمير سَنْجَقْ "إيجل" ابن الصدر الأعظم السابق بِيرِي محمد بَاشَا، قال محمد بَكْ بعد أن مدح البَاشَا وأثنى عليه إن القادة الكبار السابقين عندما وصلوا بالقرب من العدو، تفاوضوا مع العقلاء، وتناقشوا، وبعد ذلك تحركوا وفقًا للقرار الذي اتخذ، أما نحن فقد ناقشنا قادتنا، ولم نستطع أن نتخذ قرارًا واحدًا،

ولـم يعبـأ الأمراء بذوي الرتب الدنيا من الخبـراء المحنكين، بل اغتروا بقوتهم، واسـتخفوا بأتبـاع حَاجِـي بَكْتَاشْ فهُزِموا؛ وعـدل إبراهيم بَاشَـا-الذي تأثر بهذا الكلام- عن قراره بإعدام الأشخاص الذين اعتبرهم متهمين.

وبعـد مقتل قلندر اسـتدعى بِيرِي بَـكْ أمير آضَنَه إلى إسـطنبول، ومثل بين يدي السلطان وقدمت إليه الهدايا الثمينة. ولكنه مرض بعد مدة ولازم الفراش، ولذلك لم يستطع العناية والاهتمام بشؤون السَنْجَقْ.

وفـي تلـك الأثنـاء اندلـع عصيـان آخر في آضَنَـه وما حولها. وكان سـبب هذا العصيان شـخص يدعى "سَـيْدِي (*Seydî*)" ابن أخت أحمد بَكْ أمير سَـنْجَقْ "أُوزَيْر (*Üzeyr*)". وبالرغم من أن "سَـيْدِي (*Seydi*)" لم يكن شـيعيا" "قيز لباش" إلا أنـه ارتـدى فيمـا بعد تاجا"[٣٩] أحمر اللون فوق رأسـه. وبـدأ يجمـع الرجال حولـه. فـي البدايـة داهـم "سَيْدِي" الذي قتـل خاله أحمد بَـكْ معسـكر "قِينِيقْ (*Kınık*)" (١٢ شـباط/فبراير سـنة ١٥٢٩م)، وقتل اثنين من أصحاب الإقطاعات وهما يوسـف وحسـين مـن أبناء ونبـلاء "قينيق". وبعـد أن داهم ناحيـة "برندا دمـر" إياس". وفي ذلك الحين اجتمـع حوله ٥٠٠٠ (خمسـة آلاف) رجل وبناءً على اشتداد العصيان وزيادة حدته، تحرك بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه رغم شدة مرضه بألف وخمسمائة من رجاله وأربعة آلاف من المشاة ورماة السهام الذين جمعهم مـن المناطق المجاورة. وعندما شـعر "سَيْدِي" بمجيء هذه القـوات إليه انتقل إلـى مدينـة "قَادِرْلِي (*Kadirli*)" التابعة لـمدينة "مَرْعَـشْ". وأحرقها، وعين عليها متمردًا يدعى "إِينْجِيرْ يَمَزْ (*İncir Yemez*)" كان من بين خمسـمائة رجل التحقوا بـه، ثـم توجه إلى "سـيس (*Sis*)" (قُوزَانْ) وهاجمها، فلاذ أمير سَـنْجَقْ "سـيس" بالقلعـة، وبينمـا كان المتمردون يحاولون حرق المدينة والاسـتيلاء على القلعة وصل بِيرِي بَكْ بقواته وحاربهم، وثبت حتى هزمهم هزيمة نكراء رغم أن بعض جنوده هربوا نحو الجبال، وانقسـم العصاة المتمردون إلى قسـمين هرب قسـم منهم إلى سَـنْجَقْ "أوزير" مـع زعمائهم "أُورْكْمَزْ (*Ürkmez*)" وإِسْـكَنْدَرْ و"شَـاهْ

(٣٩) أي: غطاء رأس. (المترجم)

فَرَحْ" من أبناء "أوزير"، أما الآخرون فظلوا بجانب "سَيْدِي" إلا أنه تمت إبادتهم من قبل قوات بِيرِي بَكْ في معبر (ممر) ودرّبند في جبال سيس، وألقى القبض على سيدا "سَيْدِي"، وقتل أخوه "جيهانشاه". وبعد إرسال "سَيْدِي" المقبوض عليه إلى إسطنبول، هجم بِيرِي بَكْ بقواته على "أوزير" ونجح أيضًا في تشتيت القوات الموجودة في هذا المكان (٢٤ شباط/فبراير). وهكذا تم القضاء على حركات العصيان هذه التي وقعت في منطقة آضَنَه. ولكن في تلك الأثناء كانت حكومة إسطنبول مشغولة في العاصمة بقضية مهمة شغلت كبار رجال الدولة والعلماء. وهي حادثة "المُلَّا قابض".

حادثة "الملا قابض"

وفد الملا قابض من إيران وجالس العلماء العثمانيين، فأحدث فتنة دينية في إسطنبول، وتعد هذه الحادثة مهمة وجديرة بالملاحظة لإظهار عقلية "القانوني" وموقف أهل ذلك الزمان من هذه الحوادث، فبينما نجد أوروبا تحرق من دخله الشك في إيمانه حيًّا دون تحقيق معه نلاحظ أن إسطنبول تدعو من يختلق الأكاذيب ويفسد أصول الدين الإسلامي للحوار والمناقشة العلمية ليتوب، وهذا نموذج ممتاز يكشف النقاب عن عقلية العثمانيين.

قام الملا قابض في أواخر سنة ١٥٢٧م بإثارة فتنة في الحانات ومجالس الأصدقاء، واعتبر سيدنا عيسى عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ. وقام بتفسير بعض الآيات والأحاديث لإثبات ذلك. ولما رأت الحكومة العثمانية أن هذه الادعاءات قد تزعزع عقيدة الناس وتفرز مشكلة اجتماعية قررت تفنيد أفكار الملا قابض بالحوار والمناقشة.

وعلى هذا دُعي الملا قابض إلى الديوان السلطاني، وطلب منه إثبات ادعاءاته أمام قضاة العسكر. وحضر في اجتماع الديوان الذي عقد في إسطنبول في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٢٧م كل من "فَنَارِي زَادَه (*Fenârîzâde*) محيي الدين" قاضي عسكر الرُّومَلِي، و"قَادِرِي شَلَبِي (*Kadirî Çelebi*)" قاضي

عسكر الأناضول. ولم يخش قابض من عرض آرائه وسردها في هذا المكان أيضًا وقال:

"ما بأيدينا من الكتاب والسنة يدل دلالة واضحة صريحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ".

وتلا بعض الآيات والأحاديث، فحيّر الحاضرين في الديوان وأدهشهم. وطالب القادة الحاضرون في الديوان القضاة بالرد عليه، إلا أنهم لم يجدوا شيئًا يقولونه، واكتفوا بالحكم عليه بالإعدام.

ولما ظهر عجزهم عن تفنيد الشبهات حذرهم الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا، وطالبهم بحلّ المشكلة علميًّا، ولكن تحذيراته لم تحقق أي فائدة.

وأصرّ قضاة العسكر بحدة وغضب على قتل قابض. وكان السلطان يسمع هذه المناقشات من وراء النافذة الخشبية المتشابكة فسأل الصدر الأعظم قائلًا:

"يأتي هذا الملحد إلى ديواننا ويهذي بجرأة بكلام لا يليق بمقام نبينا ﷺ؛ ويستدل بالنصوص على زعمه الفاسد ويدخل ويخرج بحرية لماذا يحدث هذا؟"

فأجاب إبراهيم بَاشَا قائلًا:

"ماذا نفعل؟ فقضاة العسكر ليسوا من علماء العقيدة ليفحموا هذا الملعون"

وبناءً على هذا أمر السلطان بنظر القضية في حضور المفتي كمال بَاشَا زاده وقاضي إسطنبول سعدي الشَلَبِي.

وفي اليوم التالي تم استدعاء قابض مرة ثانية إلى الديوان، وحينما حضر شيخ الإسلام وقاضي إسطنبول جيء به لمناقشته مرة أخرى، وسأله كمال بَاشَا زاده بلطف:

"ما هي أدلتك؟"

فأعاد قابض شبهاته، وردّ شيخ الإسلام بأن هناك معاني دقيقة للغاية في هذه الآيات والأحاديث، ثم بينها واحدة واحدة، وكشف زيف شبهات قابض، فتحير قابض أمام هذه الأجوبة، وأعاد شيخ الإسلام بعد ذلك خطابه إلى قابض الذي بدا وكأنه انعقد لسانه، وسأله قائلًا:

"الآن حصحص الحق، هل لديك أدلة أخرى؟ فهل تتخلى عن الاعتقاد الباطل وتقبل الحق؟"

إلا أن "قابضًا" أعاد شبهاته نفسها مرة أخرى، وركب رأسه وتشبث بأفكاره، واتجه كمال بَاشَا زاده عندئذ إلى قاضي إسطنبول، وقال:

"انتهت المناقشة، فاقضوا بما يحكم به الشرع".

والتفت قاضي إسطنبول سَعْدِي شَلَبِي إلى قابض وسأله قائلا:

"هل تراجعت عن اعتقادك واتبعت مذهب أهل السنّة والجماعة؟"

ولكن قابضًا أصرّ على آرائه، فحكم عليه بالإعدام، وأعدِم فورًا عقب الجلسة في ٩ صفر ٩٣٤هـ ٤ - تشرين الثاني/نوفمبر١٥٢٧م.

وهكذا تم إنهاء فتنة قابض الذي لم يتردد في التعبير عن آرائه وأفكاره ذات الطابع التبشيري بحرية وصراحة ـ من قبل السلطان سليمان الذي اعتبر الحادثة ليست مسألة دينية فحسب بل مسألة أمن قومي في الوقت نفسه.

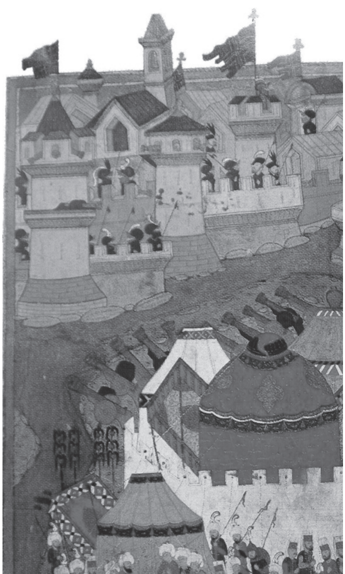
وبعد شهرين أو ثلاثة من مسألة قابض اقتحم بعض قطّاع الطرق أحد المنازل في إسطنبول في ٢٤ شباط/فبراير سنة ١٥٢٨م وقتلوا جميع من بداخله. ومع أنه تم البحث والتحري عن هويتهم إلا أنه لم يعثر على أي إشارة تدل عليهم. وعلى هذا ألصقت الجريمة بمجموعة من العاطلين عن العمل الموجودين في الشوارع والطرقات، وقبض على حوالي ثمانمائة شخص وأعدموا.

أما في ٢٥ نيسان/أبريل فقد قتل قاضي حلب ومحتسبها حيث تعرض لهجوم الناس عليه في أثناء صلاة الجمعة في مسجد "أُولُو (*Ulu*) جامع"

(الجامـع الكبيـر) في حلـب والذي قدمت في حقه شـكاوى كثيـرة عندما كان مفتشًـا للمالية في حلب، واسـتطاع أن يخفي هذه الشكاوي في كل مرة بواسطة المدافعين عنه في إسطنبول. فصدر قرار بنفي كثير من وجهاء حلب إلى رودس، ثم اسـتُدعي بَالِي بَكْ أمير سَنْجَقْ إسـكندرية إلى إسطنبول للتحقيق معه، فأعدم هو وثمانون من رجاله تقريبًا.

وحسبما سيتضح بعد فقد وقعت كل هذه الأحداث في أثناء حملة السلطان سـليمان على مُوهَاجْ وبعدها. وقد حمّل السـلطان سـليمان الصفويين مسؤولية هـذه الحـركات المتمـردة الطائفية فيما يبـدو، لكن تطور الأحـداث في أوروبا خاصة بلاد المَجَر لما لها من أولوية حال دون توجيه السـلطان سـليمان ضربة عسكرية للصفويين.

حملة الـمَجَر الثانية وحصار "فيينا"


حصار فيينا الأول في منمنمة تعود إلى القرن السادس عشر

توفي ملك المَجَـر "لايوس (*Lajos*) الثاني" في مُوهَاجْ وليس له وارث يخلفه، فنشـأ خـلاف فيمـن يرثـه، وتدخـل آل هابسـبورج، إذ ادعى فرديناند وَالِي أقاليم النمسا وبوهيميا في إمبراطورية هابسبورج حقّـه في العـرش لزواج "لايـوس الثاني" بشـقيقته، (تم إعلانـه ملكًا علـى المَجَر: ١٧ كانـون الأول/ديسـمبر ١٥٢٦م)، أمـا عقلاء المَجَر فقد اختـاروا "زَابُولْيَا" وَالِي أَرْدَلْ ملـكًا، فوافـق العثمانيـون عليه بعد خروجهم من بُودِينْ بشرط أن يكون تابعًا لهم وأن تكون المنطقة منزوعة السلاح.

ومما لا شك فيه أن للسلطان سليمان والصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا دورًا محوريًّا في تشكيل سياسة المَجَر، وفي ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٥٢٧م طرد فرديناند "زابوليا" من بُودِينْ، وأعلن نفسه ملكًا على المَجَر في ٣ كانون الأول/ديسمبر، وصبّ السلطان سليمان وإبراهيم بَاشَا جلّ اهتمامهما على هذه المنطقة رغم ما تمر به البلاد من أزمات. واستقبل السلطان سليمان النبيل البولندي الذي أرسله "زابوليا" ويدعى "لاشسكي (*Lasczky*)"، وذكر له أنه سيقدم الدعم والمساعدة إلى "زابوليا"، ثم وصل سفراء فرديناند إلى إسطنبول بمبادرات رفضت جميعها، واعتقلوا وبدأت الاستعدادات لحملة جديدة.

خطط السلطان سليمان لإنقاذ بُودِينْ بداية ومساعدة زابوليا ومساندته، وما قيل من أنه استهدف فيينا للاستيلاء عليها أولًا ثم حاول إخضاع آل هابسبورج والمَجَر كلامٌ عارٍ عن الصحة.

فالمفاوضات التي أجراها السلطان سليمان ووزيره الأعظم إبراهيم بَاشَا مع السفير تظهر بوضوح كم كانا مطلعين على سياسة أوروبا.

وقد لعب "ألفيس كريتي (*Alvise Gritti*)" ابن "اندريا كريتي (*Andrea Gritti*)" الذي كان حاكم البندقية وسفيرًا في إسطنبول فيما مضى دورًا مهمًّا في هذا الأمر بصفة خاصة. كان هذا الشخص موهوبًا للغاية، وقد حظى بثقة السلطان وإبراهيم بَاشَا به بفضل متابعته الجيدة للغاية لأمور أوروبا والتطورات التي تحدث فيها ومعلوماته الغزيرة.

وقد تمكن سفير زابوليا من لقاء السلطان بواسطته. وفي ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٧م استقبل إبراهيم بَاشَا "لاشسكي"، واستنكر تحركات زابوليا، وأشار إلى أنه معلوم ما قد يقوم به كل من اللذين استوليا على الملك (فرديناند وزابوليا) وما قد يقوم به الأمراء المسيحيون الآخرون. وحاول السفير بسبب هذا الكلام تلطيف الجو فذكر أن زابوليا رغب بشدة في الحصول على مساعدة السلطان وليس صداقته. وفي اليوم التالي خاطب مصطفى بَاشَا السفير مرة أخرى بصورة قاسية وقال له:

"كيف تجرأ سيدك على دخول بُودِينْ التي فتحها السلطان، ودخول قصرها الخاصّ بسيدنا السلطان عند عودته، فكل مكان استراح فيه السلطان ووطئته قدما حصانه يدخل تحت حكمنا وسيادتنا في قانوننا؛ وكيف ادعى سيدك العاجز الفقير في كلامه أنه أبو سعادة السلطان، أنت أتيت لطلب مساعدتنا لا لصداقتنا، حسنًا الآن قل ما عندك".

استقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا السفير للمرة الثانية في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر وقال له:

قتلنا ملك المَجَر فأصبحت بلاد المَجَر للعثمانيين، لقد حكمناها بالقوة لا بالمال، وما أخذ بالقوة لا يستردّ إلا بالقوة، ولم تكن لبلاد المَجَر خزانة فإذا أصبحت تابعة للسلطان فالمساعدة تغدو ممكنة حينئذٍ، وبهذا يقضَى على فرديناند ومن معه".

ثم واصل حديثه قائلًا:

"إذا زحفت إلى فرديناند وهاجمته بالجنود الإنْكِشَارِيّة وجنود الرُّومَلِي، أو إذا سار أَيَاسْ بَاشَا بالبُغدانيين والتتار إلى سيدك، ماذا كان سيحدث، فقد تخلينا عن هذه الحملة هذا الصيف بناءً على طلب أصدقائنا البنادقة، وإذا اقتضى الأمر فنحن مستعدون للخروج إلى الحرب، نحن نرى أن المنافسين قضى كل منهما على قوات الآخر وكانت جيوش السلطان سوف تنتصر بسهولة ويسر".

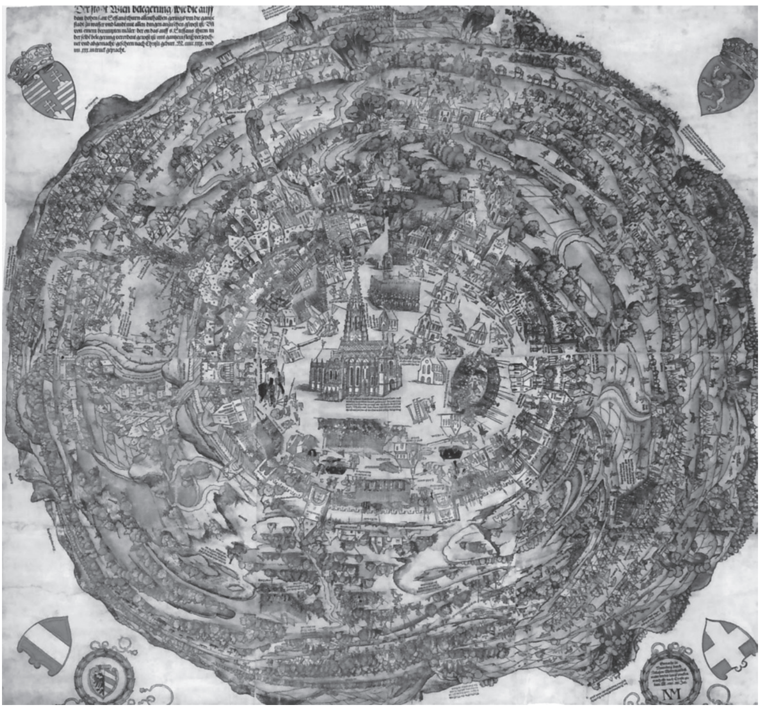
وذكر إبراهيم بَاشَا أيضًا أنهم سيجعلون بُودِينْ مدينة تركية، ثم استعمل تلك الكلمات اللافتة للنظر:

"... تحدثت إليك بالأسلوب التركي أي باختصار شديد، فالأتراك يتكلمون قليلا ويعملون كثيرا. أنت تراني أبتسم وتتعجب، أبتسم لأنك أتيت تطلب الأراضي التي فتحناها بالقوة، فلتعلموا أن لدينا مخالب أكثر قوة ورعبًا من مخالب الصقر، فإنا لا نتخلى عن أرض فتحناها، حتى وإن قتلنا دونها".

استقبل السلطان سليمان "لاشسكي (*Lasczky*)" وقال له:

"أتقبـل وفـاء حاكمكـم بكلّ حب، وليـس هو من يحكـم بلادكم فعلًا، فتلـك الأرض التي يحكمها تحت إمرتنا فتحناها بسـيوفنا، وإنما كافأناه بولاية بلاد المَجَر لانتسابه إلينا، وسنقف معه ضد فرديناند حاكم النمسا، فليطمئن".

ثم صرّح إبراهيم بَاشَـا للسـفير بأنه سـيهاجم عدو الملك وسـيتوّج حاكمه "ملكًا" وليس محافظ "أَرْدَلْ".



خريطة "فيينا" في منمنمة ترجع إلى القرن السادس عشر

وفـي الحقيقـة، حتى لو لـم يطلب "زابوليا" المسـاعدة فإنـه لا يمكن تصوّر أن العثمانيين سيسـمحون بسـيطرة فرديناند على بلاد المَجَر وحكمها. واسـتفاد العثمانيـون مـن زيارة "لاشسـكي" كثيرًا جدًّا، إذ تغير الأمـر وصاروا في موقف

الدفاع عن زابوليا؛ وأخيرًا اعترفت الحكومة العثمانية وفقًا للمعاهدة التي تم الاتفاق عليها في ٢٩ شباط/فبراير سنة ١٥٢٨م بجان "زابوليا" حاكما تابعًا لها.

وفي تلك الأثناء علم فرديناند بمبادرة زابوليا واستمالته العثمانيين إليه، فأرسل هو أيضًا إلى إسطنبول؛ لأنه بدأ يدرك أيضًا أن الطريق إلى حكم المَجَر يمرّ من مركز الدولة العثمانية، وتشكل وفد من سفارة النمسا وهما "هوبور دانسكي جانوس (*Hobordansky Janos*)" و"سيجسموند فايشتسلبرجر (*Sigismond Weichselberger*)" ووصل إلى إسطنبول في ٢٩ أيار/مايو سنة ١٥٢٨م، وامتاز بكونه أول وفد سفارة ترسله النمسا.

استقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا السفراء، وأزعجه حديثهم عن فرديناند وتعظيمهم له، وسأل السفير "هوبور دانسكي" كيف استطاع تعظيم فرديناند والافتخار به بهذا الشكل وهو ماثل بين يدي السلطان في الوقت الذي يطلب فيه كل العالم المسيحي الدخول تحت ظل السلطان وحمايته.

فقال السفير بوقاحة:

"ما هي الدول المسيحية التي رضيت بالحماية العثمانية".

فأفحمه إبراهيم بَاشَا وأسكته لما ذكر له أنّ من بين تلك الدول فرنسا وبولندا والبندقية وأَرْدَلْ.

وقدم سفراء فرديناند إلى الصدر الأعظم قائمة تتضمن أسماء مناطق يريدها ملكهم مقابل الخراج، وعندما رأى إبراهيم بَاشَا هذه القائمة، احتد غضبًا، وعبر عن دهشته بعدم طلب فرديناند إسطنبول أيضًا!. وأنهى المناقشات والمباحثات متحدثًا بقوله:

> "هل ظننت أن السلطان فقيرٌ بحيث يعيد بالمال مافي حوزته من أراضٍ فتحها بالسيف، هل ترى "يَدِي قُولَه" هذه المليئة بالخزائن، لويريد سيدك السلام وحسن الجوار فالطريق الوحيد لذلك هو إخلاء بُودِينْ وبلاد المَجَر".

وفي الحقيقة كان يوجد في قائمة فرديناند أسماء العديد من المدن والقلاع التـي تحت الحكـم العثماني، وفـي مقدمتها بَلْغـرَاد و(بُوكُرْدَلَـنْ، و"صلانقامن (*Salankamen*)"، و"بتروارواويـن (*Petervaradin*)"، و"سـورين (*Severin*)"، و"أورصوفا (*Orsova*)"، و"يَايْجَه (*Yayçe*)"، و"بنالوقا (*Banaluka*)"، و"سكوردانا (*Skordana*)"، و"ثوفيجـراد (*Novigrad*)"، و"سِـيوْرِي حِصَـارْ (*Sivrihisar*)" وسِيرَمْوأماكن عديدة في البُوسْنَة).

وهكـذا وعقب هـذه اللقاءات التي لم تسـفر عن أي نتيجة اتخذ السـلطان سـليمان قرارا بالسـفر في حملـة إلى بلاد المَجَـر بغية معاقبـة فرديناند وحماية زابوليـا. وفـي ذلـك الحين كان نفوذ إبراهيم بَاشَـا قد ازداد كثيـرا. فكان يتجول بملابس أنيقة وقيمة. ويتابـع سياسـة أوروبا مـع صديقه الحميم "ألفيس كريتي" كريـي البندقـي. وكان كريي ابنًا غير شـرعي لحاكـم البندقية، ويعمل مستشـارًا لإبراهيم بَاشَا، فكان يطلعه على أمور أوروبا. ثم إنّ إبراهيم بَاشَا التمس للسلطان خـوذة كبيـرة تعبّر عن أنه حاكم العالم كتلك القلنسـوة المخروطية التي يلبسـها البابـا، وأعـد صاغة (تاجـر مجوهرات) "ريالتـو (*Rialto*)" البندقيـة هذه الخوذة المزينة (المرصعة) بقيمة ١٤٤٠٠٠ (مائة وأربـع وأربعين ألف) ذهبية وأرسلوها إلى إسطنبول.

وفضلًا عن ذلك فإن إبراهيم بَاشَا أسس علاقات تجارية كبيرة مـع البندقية حتى إنه عين العديد من الصناع المهرة البنادقة في الترسانة البحرية بين تاريخي ١٥٢٥ - ١٥٣٦م، وتـم اسـتخدامهم في إنشـاء وبناء السـفن. ومـن المعلوم أن هؤلاء الصناع المهرة قد تفرقوا ورحلوا بعد إعدامه.

أسـند السـلطان سـليمان إلى الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا صلاحيات كبيرة من أجل حملة المَجَر الثانية التي ستنتهي بحصار فيينا.

وكتب المؤرخ جلال زاده مصطفى شَـلَبِي أن فرمان منصب القيادة العامة للجيـش كان يحتـوي علـى صلاحيات واسـعة لم تكن معتـادة أو مألوفة حتى ذلك اليوم.

ويروي جلال زاده هذا الموقف كما يأتي:

"ذات يوم استدعى السلطان سليمان إبراهيم بَاشَا في اجتماع الديوان وذكر له أن الدولة اتسعت وزادت الأعمال وليس في وسعه وإمكانه الاهتمام شخصيًّا بكل عمل والقيام به، ولذلك قال إنه عينه قائدًا عامًّا للجيش بحيث يطيعه كبار وصغار موظفي الدولة بمن فيهم الوزراء أيضًا طاعة كاملة. وأن يتبع قادة الجيش أوامره مثلما كانوا يتبعون أمر السلطان وأردلته. وهكذا وصل إبراهيم بَاشَا إلى أعلى نقطة لسلطته. ويحمل فرمان تعيينه هذا تاريخ ٢٧ مارس سنة ١٥٢٩م. أما الدخل الخاص بإبراهيم بَاشَا فقد بلغ ثلاثة ملايين أَقْجَه. وفي ذلك الحين عين كُوزَلْجَةقاسم بَاشَا في منصب الوزير الثاني عقب وفاة مصطفى بَاشَا الوزير الثاني، وكلف إبراهيم بَاشَا مرة ثانية عشية الحملة بإمارة الرُّومَلِي".

غادر السلطان سليمان إسطنبول يوم الاثنين ٢ رمضان سنة ٩٣٥هـ (١٠ أيار/مايو ١٥٢٩م)، وكان قد وعد بحماية "زابوليا" ضد فرديناند حاكم النمسا، ولم يرسل الجيش والحامية إلى دولة المَجَر بل آثَرَ أن تبقى الآن مستقلة تحت حكم زابوليا وإدارته لمواجهة آل هابسبورج، وبعد أن نزل الجيش في "حلقة بيكار" وصل إلى "جَاتَالْجَه (*Çatalca*)"، صدر في هذا المكان فرمان بشأن تنظيم السّير حيث يسير السلطان أمام الرايات ثم رؤساء الطباخين (الذّواقون)، وحّراس الخزانة، و"آغا الأَنْدَرُونْ (*Enderun*)"[٤٠](رئيس الطواشية في القصر العثماني) وقضاة العسكر، والدَفْتَرْدَارْ، والنيشانجي (التوقيعي).

ووصل السلطان إلى أَدِرْنَه وأقام فيها عشرة أيام واطّلع على أعمال الإمداد والتموين المتعلقة بالحملة. ووصل الجيش الذي غادر أَدِرْنَه إلى بَلْغِرَاد سالكا" طريق "فِيلِبَة (*Filibe*)"-صُوفْيَا -"نيش (*Niş*)"، وقدّم بعض نبلاء المَجَر وأشرافها في هذا المكان ولاء الطاعة. وفي أثناء بدء التقدم إلى أراضي المَجَر

(٤٠) آغا الأَنْدَرُونْ: رئيس الطواشية في القصر العثماني. (المترجم)

قدّم جون زابوليا ومعه سفيره "لاشسكى (*Lasczky*)" وستة آلاف فارس ولاء الطاعة، فاستقبلهم السلطان ورحّب بهم، ومن ناحية ثانية تم إرسال "خَطِّ هُمَايُونْ (*Hatt-ı Humayun*)"[٤١] من إسطنبول إلى زابوليا قبل ذلك وطلب إليه أن يأتي مع قواته ليلتحق بالجيش العثماني، وأما الذخائر والعتاد فلا نعاني من نقص فيهما، فكلاهما وافر، وأجريت المراسم في أثناء مثول "زابوليا" بين يدي السلطان، حيث مر زابوليا بين جنود الأناضول والرُّومَلِي الذين اصطفّوا من ناحيتين ووقفوا صفّين متقابلين بداية من أمام خيمة السلطان واستقبله السلطان الذي يحيط به الوزراء، واقفًا لكي يظهر الأهمية التي أولاه بها، وقبّل زابوليا أيضًا يد السلطان. ووصل الجيش الذي يترأسه السلطان بالقرب من بُودِينْ في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٣٦هـ (٣ أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م).



حصار "فيينا"

(٤١) رسالة مكتوبة بخط السلطان وتوقيعه. (المترجم)

أتـم الجيـش العثمانـي اسـتعداداته لحصـار المدينـة بينمـا كان السـلطان يشـرف على إعداد معسـكره ويأمر جنوده بالسيطرة على أطرافها، ولما أوشك الجيش أن يقصفها بالمدافـع، أبلـغ دفاع القلعة أنهم سيسـلمون المدينة بشـرط الأمـان لمن بداخلها، استسـلمت المدينة بلا مقاومة فـي ٤ المحرم (٨ أيلول/سـبتمبر) وكلّف السلطان سليمان خُسْرَوْ بَكْ أمير سَنْجَقْ "أَلْبَصَانْ (*Elbasan*)" مـع خمسـين من جنـود الإنْكِشَـارِيّة بحمايـة بُودِيـنْ والمحافظـة عليها. وقام بالصيـد طـوال يومين بجـوار بُودِينْ. ثم رافق جنـودُ الإنْكِشَـارِيّة وأحدُ قادتها "زابوليا" ليتوّجوه ملكًا على قصر بُودِينْ (١٤ سـيبتمبر). واللافت للنظر غيابُ السلطان سليمان عن مراسم الاحتفال هذه رغم كثرة مجاملته لـ"زابوليا"، وقلة عدد المشـاركين فيها.

عندما كان السـلطان سـليمان في بُودِينْ قرّر التقدم إلى فيينا ليواجه فرديناند، وغادر بُودِينْ متجهًا إلى فيينا من طريق سلكه إبراهيم بَاشَا قبلَه بمسافة يوم واحد، ووصل الجيش العثماني في ٢٢ أيلول/سبتمبر إلى مدينة "أوفر (*Ovar*)" الصغيرة الواقعة عند الحدود النمسـاوية المَجَرية. وتم الاسـتيلاء على مدينة صغيرة يطلق عليها الألمان اسـم "هونجاريش (*Hungarich*)"- آلتنبورج (*Altenburg*)". وظهر المهاجمـون الأتـراك بالقرب من فيينـا ونجحوا في هزيمة بعـض وحدات العدو وأخذوا منهم أسـرى. واتضـح نتيجة لاستجواب هؤلاء الأسرى أن فرديناند غادر فيينا ليجمـع القوات من بلاده، وأنه انسحب إلى النمسا وترك عشرين ألف جندي مشاة وألفي فارس في القلعة. وبدأ الجيش العثماني يحتشد بالقرب من فيينا. وفي النهاية وصل السلطان أيضًا إلى فيينا وأقام خيمته في قرية "سيمرينح (*Simmering*)". وأخيـرًا وجد الجيش العثماني نفسـه أمام قلعـة فيينا وجهًا لوجه، وهي مركز مهمّ لآل هابسبورج كما أنها من أشهر مدن أوروبا، فالاستيلاء على فيينا سيكون ضربة موجعة للنمسا حيث إنه سوف يسهل دخولها تحت الحكم العثماني مثل المَجَر. ولكن أمر فرديناند الذي أدرك هذا جيدا بتحصين فيينا وتقويتها، وأمر بحفر خنادق كبيرة بسـور داخلي على ارتفاع خمسـة أمتار بين بابي المدينة "شتوبن (*Stuben*)" و"كارنثير (*Karnther*)". علاوة على ذلك اقتلـع أهالي النمسا الأجزاء الخشبية من

المنازل الموجودة في المدينة إزاء تأثير المدافع التركية واحتمال إمكانية إشعال الحرائق، ورفعوا أيضًا أحجار الشوارع والأرصفة حتى لا تصطدم بها قذائف المدافع. بالإضافة إلى ذلك فقد هجرها جزء كبير من المدنيين القاطنين بها قبيل وصول الجيش العثماني. ومن المؤكد أن حصار الجيش العثماني للمدينة بدأ في ٢٢ المحرم سنة ٩٣٦هـ (٢٧ أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م). واتخذ اثنا عشر ألف جندي إنكشاري أماكنهم في الموقع الذي أقام فيه السلطان خيمته. كان أمير الأمراء "بَهْرَامْ بَاشَا" في مقدمة جنود الأناضول في القسم الواقع إلى وادي "شو يشات (*Schwechat*)" في الجانب الأيمن من هؤلاء الجنود، وكانت قوات إبراهيم بَاشَا في الجانب الأيسر من قوات الأناضول.

وكان معظم قوات المدفعية قد تمركزوا جنوب فيينا. وفضلا عن ذلك كانت قوات بَالِي بَكْ قد تمركزت على تلال "فينزبرج (*Wienerberg*)" وسفوحها المطلة على المدينة، أما خُسْرَوْ بَكْ فكان يتقدمهم في الأمام. وسيطر الأسطول العثماني على ضفاف فيينا على نهر الدنوب.

ذهب فرديناند إلى "كرمس (*Kerms*)" ليحشد القوى، وولّى "بفالا جراف فيليبه (*Pfalagraf Philippe*)" قيادة الدفاع عن "فيينا"، بيد أن القائد الذي لعب دورًا مهمًّا في الدفاع عن المدينة هو "نيقولاس دي سَالْمْ (*Nicolas de Salm*)" الذي يبلغ من العمر سبعين عاما. أما الأسوار المقابلة لجبهة الصدر الأعظم التي هي أهم فرقة في القوات العثمانية فكان يرابط فيها أربعمائة فارس وأربعة صفوف؛ وكذلك كانت قوات المدافعين قد اتخذت وضع التحصينات المختلفة بين أبواب المدينة المتعددة. وأقاموا أيضًا حصونًا ترابية جديدة للدفاع عن المدينة، وثبّتوا الأوتاد على حافة نهر الطونة، وكان يوجد في المدينة ما يقرب من ثلاثمائة مدفع أيضًا.

أطبق الحصارُ في أواخر شهر أيلول/سبتمبر، وبدأ الأسطول العثماني أولًا بالتقدم في نهر الطونة بأربعمائة سفينة وقارب، وهدم جسور النهر، وبهذا قُطِع اتصال المدينة بالآخرين، ثم تبين أن القوات النمساوية قامت بهجمتين

مفاجئتين، وفي الحقيقة لم يحضر الجيش العثماني بسبب حلول فصل الخريف مدافــع الحصــار الضخمــة لصعوبــة نقلها؛ فأســرعوا بحفــر الأنفــاق والقنوات أســفل الأسوار، إلا أن النمســاويين حفروا أيضًا أنفاقًا مضادة، فباءت محاولات العثمانييــن فــي الأنفــاق بالفشــل، ففــي ٢ تشــرين الأول/أكتوبر حُفــر نفق نحو كنيســة "ســانت كلير (*St. Claire*)" في منطقة باب "كارتنر (*Kartner*)"، فأفشــله النمســاويون بآخــر؛ واســتمر الحصار هكذا: حفــرٌ للأنفاق وقصــفٌ بالمدفعية، وأخيرًا بدأت الاشــتباكات، وفيما كان الجيش العثماني يســتعد لهجوم شــامل، بادر النمســاويون أيضًا إلى أعمال واســعة النطاق من أجل هجوم مضاد مفاجئ للخروج من القلعة.

وخــرج قســم من القوات النمســاوية قوامَها ثمانيــة آلاف جندي من أبواب "كاينر (*Kainer*)" و"بورج (*Burg*)" و"كارتنر" مستفيدين من ظلام الليل، وخرج قسم آخر من المنطقة المجاورة لدير "كرمس" وطوّقوا الجيش العثماني ولكنهم تأخروا فلم يخرجوا حتى طلعت الشمس، فتكبّدوا خسائر فادحة أمام العثمانيين وعادوا إلى القلعة، ومع هذا لم تســتطع القوات التركية التي طاردتهم الدخول لأنهم استطاعوا إغلاق أبواب القلعة.

وتعــد هــذه الهجمــة المفاجئــة أول وآخــر هجمــات النمســاويين حيث لم يســتطيعوا التجــرؤ علــى مثــل هذا الهجوم مــرة ثانيــة، وتوالت المراحــل التالية للحصــار بالهجمات التي شــنّها الأتراك الواحدة تلو الأخــرى. ومنذ هذا الحين بــدأ يظهــر تأثير الأنفاق وطلقــات (قذائف) المدافع رويدا رويــدا. وهكذا تهدّم الحصن الترابي الموجود بجوار باب "كارتنر" بطلقات المدافع. وعقب ذلك تم تفجير الأنفاق المفتوحة إلى نفس الباب، وفتحت فجوات واســعة في الأســوار. وهجمت القوات العثمانية على هذه الفجوات، ونشــبت في هذا المكان معارك حاميــة الوطيس. بل ومن خلال ذلك دخــل عدة جنود أتراك من الفجوات، مــع أنهم حاولوا رفــع الراية على الأسوار إلا أنهم أخفقوا، وقبض عليهم على الفور وتم قتلهم. وأثناء الاشــتباكات صار الجو بــاردًا، فهطلت الأمطار والثلوج، فبدأ

الجيـش يعاني مـن نقص المواد الغذائية، فضلًا عـن أن البرد والمطر حالا دون إرسال العشرين ألف جمل المحمّلة بالعتاد. ويدون في "رُزْنَامَة (*Ruznâme*)"[٤٢] التي أثبتت فيها أحداث الحرب أن إبراهيم بَاشَا قال:

"أصبـح الجـوّ غيـر مناسـب لمواصلـة القتـال وبدأنا نعانـي من نقص المؤونة" فالأفضل ترك الحملة".

وبـدأت تظهر بعض التوتـرات والاضطرابات في الجيـش العثماني أيضًا. الجنـود الإنْكِشَـارِيّة بـدؤوا يتصرفـون فـي أثناء حصـار "فيينا" بفتـور همة وبلا حماس. وأخيرا لم يسفر الهجوم الشامل الذي شنّ في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر سـنة ١٥٢٩م عن نتيجة مرجوة. بيد أنه فتحت فجوات عديدة أثناء هذا الهجوم بل أصيب قائد النمسـاويين الشهير نيقولاس دي سَالْمْ بجروح خطيرة. كان هذا الهجـوم هو الأخيـر في حصار فيينا الأول. واستشـار السـلطان الصدر الأعظم والـوزراء وأمـر برفـع الحصـار، وتم جمع الخيام في ١٥ تشـرين الأول/أكتوبر وبدأ الجيش العثماني استعدادات العودة

اسـتمر الحصار سـبعة عشر يوما ثم رفـع بأمر السلطان، إذ الحصار لـم يكن يستهدف هذه البلدة مباشرة، ومرد رفعه وفقًا لكتب التاريـخ العثمانية إلى أمرين:

* **أولهما** عدم وجود فرديناند في المدينة،

* **وثانيهما** طلب أهالي فيينا الأمان.

ومـن المحتمل أن السـلطان سـليمان أخذ بالرأي القائـل: حتى وإن فتحت هذه البلدة فالسيطرة والحفاظ عليها أمر صعب كما هو الحال في بُودِينْ، فضلًا عن الطقس البارد هناك، وفي ١٦ تشرين الأول/أكتوبر تحرك السلطان إلى ناحية بُودِينْ، ووصل إلى هناك بعد تسعة أيام.

واسـتقبل السـلطان فـي هـذا المكان من قبـل "زابوليـا" ولـم يتوقـف كثيرا

(٤٢) رُزْنَامَـه: السـجل الـذي تـدون فيه الدخـول أو النفقات أو الأحـداث اليومية في الدولـة العثمانية. (المترجم)

في بُودِينْ، ووصل إلى إسطنبول في ١٦ كانون الأول/ديسمبر، وولّى "كريتي" عليها ومعه فرقة من جنود الإنْكِشَارِيّة، وكان "زابوليا" يدفع الجزية السنوية ويحظى بالحماية والرعاية من قبل العثمانيين. وفي تلك الأثناء اجتاز المهاجمون الأتراك جبال الألب ودخلوا ألمانيا، ووصلوا إلى "رجنسبورج (*Regensburg*)" أو "راتيسبون (*Ratisbonn*)" في "يافيرا (*Bohemya*)" وذهبوا إلى مدينة "برون (*Brunn*)" في بوهيميا فألحقوا بتلك المدن أضرارًا جسيمة وعادوا بكثير من الأسرى، وهكذا أمّنوا الجيش العثماني ضد المخاطر التي يمكن أن تأتي من الخلف.

وعلى هذا النحو عاد الجيش العثماني الذي تكبّد خسائر قوامها خمسة عشر ألف جندي تقريبا وأخفق أمام أسوار فيينا التي حاصرها سبعة عشر يوما. إلا أن هذا الفشل نجم عن الأحوال الجوية أكثر من القدرة الحربية للجنود العثمانيين ونقص العتاد والأدوات الفنية اللازمة من أجل حصار على نطاق واسع وعدم كفاية المؤونة والمهمات والعتاد الحربي. فمثلا يكتب جلال زاده أن شتاء هذه البلاد قارس وأن الأمطار المستمرة أعاقت الجنود ومنعتهم من القيام بمهامهم.

وفضلا عن ذلك لم تنقل مدافع الحصار الضخمة والمؤثرة وسائر العتاد الفنية (الهندسية) لأن العثمانيين لم يستهدفوا حصار فيينا بل كان هدفهم القيام بمعركة حامية منظمة مع فرديناند. وعدا ذلك كان جنود الإنْكِشَارِيّة قد تصرفوا بفتور همة وبلا حماس في هذه المعركة حسبما ذكر آنفا، وكانت فيينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في أوروبا، ثم إنهم عززوا حكمهم في بلاد المَجَر، ولم يبق ثمة احتمال لهجوم مضاد، فالنمسا وشمال المَجَر قد أُنهِكتا.

وفي نهاية الحملة فُتحت بلاد المَجَر، وتقرر أنها تتمتع بحكم ذاتي وتتبع الدولة العثمانية عدا شمال وغرب المَجَر؛ وبهذا تصبح منطقة عازلة بين القوى الكبرى، وقد أيقظ فشل فيينا أملا جديدا لدى "كارل الخامس" وحلفائه، وشعر شارلكان بضرورة أن يتضامن ويتكاتف مع حلفائه. لذلك أرادوا

أن يستميلوا البندقية، إلا أن البنادقة رفضوا التحالف مع الإمبراطور خوفًا من عداوة العثمانيين، بل إنهم جددوا المعاهدة معهم، وضَغَطَ الساسة المنافقون من البنادقة على زابوليا ليبرم هو و"سيجسمون (*Sigismund*)" ملك بولندا معاهدة مع "كارل الخامس" و"فرديناند"، وبذلك يزول عن زابوليا وصف "الخائن" إلا أن هذا لم يتحقق.

أدى حصار الجيش العثماني في حقيقة الأمر إلى اضطراب شديد في أوروبا، وكان الرأي العام ينذر بأن المسيحية كلها في خطر كبير، حتى إن "لوثر (*Luther*)" زعيم حركة البروتستانت وكان ينظر إلى الأتراك في البداية بإيجابية أعلن أن الأتراك هم العدو الرئيسي للمسيحية. قال "لوثر":

"الحرب ضد الأتراك مثل رفض الخضوع لله الذي يعاقب ذنوبنا بسوط الترك".

وألف كتابا سمي "بشأن الحرب ضد الأتراك"، وكان يريد حشد المسيحيين إلى جانب "كارل الخامس"-الذي عارضه بشدة قبل ذلك- وخوض حرب لا هوادة فيها ضد الأتراك.

وفي الحقيقة كان يستطيع التخلص إلى حد ما من التناقض بين أفكاره السابقة واللاحقة فهو يرى أن العثمانيين دجّالون، ومقاومة الدجال مشروعة، أما مقاومة دجاجلة الجيش العثماني فهي مهمة وطنية وليست واجبًا دينيًّا، ففي محاربتهم حماية مشروعة للنفس والبيت والأهل، ومع ذلك لم يكن من الصواب القيام بهذا من أجل العقيدة فقط ومن أجل الدفاع عن الكتاب المقدّس أو بروح الحملة الصليبية. لأن الحملة الصليبية كانت تعني عصيان الله، ومخالفة رسالة عيسى عليه السلام. كانت آراؤه هذه في اجتماع مجلس "السباير (*Speyer*)" تلوّح بمحاربة أمراء البروتستانت مع الملك فرديناند، فالأتراك إذا استولوا على ألمانيا كلها حتى نهر "الراين (*Ren*)"، صاروا خطرًا كبيرًا على المسيحية كلها الكاثوليك والبروتستانت؛ وكما قيل إن لوثر عندما سمع كلام السلطان سليمان الذي اهتم به وتلقى معلومات بشأنه "ليته أكثر شبابا" ويدخل تحت حمايتي" تنهد وصلّب وقال بسخرية:

"حفظنا الله من ولي النعمة (المحسن) طيب النفس هذا".

غير أن هذا الضغط العثماني على الإمبراطورية أراح فرنسا والبروتستانت كثيرا في الحقيقة، وكان البروتستانت قد فرضوا عقيدتهم ووجودهم داخل الإمبراطورية، وأصبحت هذه خطوة جيدة من أجل نشر العقيدة البروتستانتية. ومن جانب آخر وقّع ملك فرنسا عندما كان الجيش العثماني في بلاد المَجَر على اتفاقية مع الإمبراطور (١٣ آب/أغسطس سنة ١٥٢٩م).

أما البروتستانت فقد استغلوا حاجة كارل السادس إلى مؤازرتهم ضد العثمانيين المنهمكين في الحملة على هابسبورج، وفرضوا سيطرتهم على الإمبراطوريّة.

وأخفت فرنسا معاهداتها مع العثمانيين لأن الرأي العام كان ضد العثمانيين، ودخلت في الاتفاقية المسيحية ضد العثمانيين لتبرئ ساحتها، ولتحافظ على مكانتها في أوروبا.

حملة المَجَر الثالثة: التحرك نحو "كارل الخامس"

أمر السلطان سليمان الذي عاد إلى إسطنبول بإقامة احتفالات ختان أبنائه مصطفى ومحمد وسليم بمهرجانات استمرت لأسابيع. كانت الاحتفالات التي بدأت في ١٨ حزيران/يونيو ١٥٣٠م وسيلة "مشروعة" بمثابة تقوية أبهته وتعزيز عظمته لدى الشعب. وعرضت في هذه الاحتفالات الخيام الكبيرة والأشياء التي تم الاستيلاء عليها والتماثيل التي نقلت من بُودِينْ. وشارك جميع أركان الدولة في الاحتفال كما تم أيضًا إرسال بطاقات الدعوة إلى حكام الدّول التابعة للدولة العثمانية[٤٣]؛ واللافت للنظر هو موافقة هذه الاحتفالات الفاخرة للذكرى العاشرة للسلطنة، وأثناء الاحتفال تم عقد النكاح على "خرّم سلطان"،

(٤٣) الدولة التابعة: الدول التابعة شكلًا للدولة العثمانية وقبلت حكمها ولكنها حرة في شؤونها الداخلية مثل الأفلاق - البغدان، وتعتبر القرم أيضًا في هذا الصنف، وكذلك تعتبر الدول التي تدفع الجِزية (الخراج) للعثمانيين في إطار هذا المضمون. (المترجم)

وبهـذا لـم تَعـد جارية بل غدت سيدة حرة سـلطانة؛ وهذه سـابقة فـي التاريخ العثماني، وقوّى السلطان علاقته بـ"خرّم" التي أنجبـت له الأبنـاء، وأصبحت خرّم منذ هذا الحين ذات نفوذ قوي في الحَرَم والقَصْر.

وبعـد فترة وجيـزة كان من الواضح أن هـذا سـيؤدي إلـى نزاع وصـراع بينها وبين إبراهيم بَاشَا. وبدأت الأيام الصعبة بالنسـبة للسـلطان سـليمان، ووقـع بين خياريـن إمـا صديقـه الحميـم ورفيـق سـلاحه إبراهيم وإما زوجته خرّم سلطان التـي أحبها وتعلق بها كثيرًا، مضت سـتة أعوام على ذلك.



منمنمة لمخطوطة "سليمان نامه" المفصلة (تاريخ السلطان سليمان) تصوّر السلطان سليمان وهو يشهد مراسم خِتَان ولديه الأمير بايزيد والأمير جهانْكِير بقاعة النافورة في قصر "طوبَ قابي"

وتشـاور مع إبراهيم بَاشَـا مرة أخرى في إسـطنبول حول الوضـع السياسي إثر عودته من حملة فيينا؛ وكان وفود السفراء حينئذ مؤشرًا بأن مسألة المَجَر لم تحلّ بعد كما ينبغي.

كانـت ادعاءات فرديناند، والضغط على بُودِينْ (٢٣ كانون الأول/ديسـمبر ١٥٣٠م)، وتصرفات "كارل الخامس" تدفعه إلى حل مسألة المَجَر من أساسها، والقضاء على الإمبراطورية الألمانية والتحرك بغية إقامة القوة العثمانية تمامًا في وسط أوروبا. ولكنه أدرك أنه لن يستطيـع تحقيق هذا بصورة تامة. كان ثمة تهديد جديـد يبدو وكأنه سـوف يؤثر فـي الحملة. ففي خلال ذلك تبيـن أن "فرديناند" الذي تخلى عن عرش المَجَر أقدم على عدة مبادرات دبلوماسـية قبيل الحملة، حيث وصل إلى إسـطنبول في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٣٠م وفد سفارة فرديناند الذي تشـكل من أربعة وعشـرين شـخصًا وكان على رأسهم "نيقولاس

يوريشتس (*Nicolas Jurischitz*)" من فرسان الكروات وقائد مدينة "غونس (*Guns*)"، وفارس ايستريا "جوزيف فون لامبرج (*Joseph von Lamberg*)".

وقد تم استقبال السفراء أولا من قبل إبراهيم بَاشَا. وأظهر السفراء في البداية موقفا حذرًا من الإفصاح عن نواياهم.

وأخبروا إبراهيم بَاشَا بسبب حديثه القاسي والحازم بأنهم جاءوا من أجل عقد الصلح. وذكر إبراهيم بَاشَا بعد ذلك للسفراء أن السلطان خرج إلى الحملة من أجل البحث عن فرديناند، وأنه عندما لم يستطع العثور عليه في بُودِينْ وصل بالقرب من فيينا، وأن فرديناند كان يهرب دائمًا من أمام العثمانيين، وأن السلطان لم يأت لفتح فيينا ولكن من أجل التجوال وأنه دمر أسوار فيينا بغية ترك عبرة وذكرى من زيارته هذه، وأنه لم يأخذ معه المدافع الثقيلة وعاد بسبب الأجواء الباردة التي جعلت مثل هذه الحملة العسكرية مشكلة صعبة، وأنه توج عند عودته "جون زابوليا" ملكًا على المَجَر. علاوة على ذلك ذكر أن فرديناند ليس له صفة سوى كونه أحد ولاة كارل الخامس ملك إسبانيا ولذلك ليس له أي حق في بلاد المَجَر. ولم يمتنع أيضًا عن أن يوضح ويروي للسفراء ما يفكر فيه ويلاحظه بشأن كارل الخامس: فقد ذكر إبراهيم بَاشَا أن "كارل" قام بحملة إيطاليا بقصد الحصول على المال من فرنسا وأنه اعتبر نفسه إمبراطورا بارتدائه تاجًا على رأسه من قلنسوة البرنس وصرّح للسفراء أنه مالم يعترف بأن مملكته قد منحت لـ"زابوليا"، ومالم يجعل فرديناند يتخلى عن حبه الشديد للمجر وطلبها فلن يكون الصلح ممكنًا.

وعلى ذلك عرض سفراء النمسا المال على إبراهيم بَاشَا، أما رد إبراهيم بَاشَا فمثير للاهتمام والإعجاب:أشار إبراهيم بسبب هذا العرض بأصبعه إلى برج "يَدِي قُولَه" وذكر أن هذا المكان مملوء بالذهب، وبناءً عليه فإنه لايحتاج إلى أموالهم، وأن الوفد السابق عرض عليه مليون فيلوري مقابل حماية بلادهم، فأشار بأنه لا شيء من الهدايا يحول دون أهداف السلطان وقال:

> "وليس لي أن أترك لكم أرضًا برشوة تقدمونها بل واجبي أن أساعد السلطان في فتح البلاد".

فاعتذر السفراء عن هذا العرض وطلبوا توسط إبراهيم بَاشَا من أجل إمكانية مقابلة السلطان والتفاوض معه.

وأخيرا وافق السلطان سليمان على مقابلتهم في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٣٠م.

قدم السفراء إلى السلطان أوراق الاعتماد التي في أيديهم وورقة تحوي مطالب فرديناند، والتمسوا أن يكون الرد في أقرب وقت.

وبعد يومين من هذا اللقاء استقبل إبراهيم بَاشَا السفراء مرة ثانية وأبلغهم أن مطالبهم قد رفضت من قبل السلطان، وهو ترك المَجَر لفرديناند مقابل دفع الجزية وقال لهم:

"لا يمكنكم استعادة المَجَر بعد أن فتحناها مرتين بالسيف".

واضطر السفراء بناءً على هذا القرار إلى العودة حاملين معهم رسالة مكتوبة موجهة إلى فرديناند.

وفي أثناء استمرار هذه المباحثات بدأ فرديناند يتحين الفرصة المناسبة من أجل الهجوم على المَجَر. وبعد فترة اقتنص هذه الفرصة: إذ تمرد حاكم "زِيجَتْوَارْ (*Zigetvar*)" على "جون زابوليا". وزحف زابوليا من أجل تأديبه بعشرة آلاف جندي مجري وثلاثة آلاف جندي إنكشاري كانوا متواجدين في بُودِينْ وغيرهم من الجنود. وفي تلك الأثناء انطلق فرديناند أيضًا إلى بُودِينْ. ووصلت قوات فرديناند تحت قيادة الجنرال "فون روجندروف (*Von Roggendrof*)" بالقرب من بُودِينْ وحاصرت المدينة في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٥٣٠م.

عندما سمع قاسم بَاشَا الذي كان موجودا في عملية "زِيجَتْوَارْ" العسكرية هذا الأمر عاد إلى بُودِينْ مع قواته وكسر حصار النمسا ونجح في الدخول إلى قلعة بُودِينْ؛ فصارت جنود المَجَر التابعة لزابوليا وقوات قاسم بَاشَا تدافعان عن بُودِينْ؛ وكان المدافعون عن القلعة يقاومون هجمات "روجندروف". وفي تلك الأثناء سمع روجندروف بمجيء المهاجمين الموجودين تحت إمرة

يحيى بَاشَا زاده محمد بَكْ أمير سَنْجَقْسَمَنْدِرَه وخُسْرَوْ بَكْ أمير البُوسْنَة لنجدة بُودِينْ فرفع الحصار وانسحب تحسبًا لوقوعه بين نارين، وفضلا عن ذلك فقد لعب انتشار شائعة أن الصدر الأعظم قادم بجيش كبير دورًا مهمًا في رفع الحصار. وانسحبت القوات النمساوية بسرعة وتركت أسلحتها الثقيلة. وعقب ذلك وصل المهاجمون إلى بُودِينْ وأغاروا على الأراضي التابعة لـ"فرديناند" وعادوا بكثير من الأسرى.

وهكذا وحسبما ذكر آنفًا كان السلطان سليمان الذي قرر القيام بالحملة بسبب تصرفات فرديناند هذه - يريد في الوقت ذاته تصفية حساباته مع إمبراطور ألمانيا. وأعلن السلطان سليمان في هذه المرة ان هدفه هو "كارل الخامس" إمبراطور هابسبورج مباشرة.



لوحة شهيرة رسمها الرسام "تسيانو واسيللي (*Tziano Vecellio*)" البندقي وفيها إمبراطور ألمانيا، وملك إسبانيا شارل الخامس وقد تدرعا وامتطيا الخيل

ونـوى إنهاء هذا الأمر بالقيام بمعركـة حامية الوطيس مـع "كارل الخامس" منافسـه على رئاسـة العالم بزعمه، وتعبر كتب التاريخ العثماني عن هذه الحملة على "كارل الخامس" بـ"غزو ملك إسـبانيا"؛ غادر السـلطان سـليمان إسـطنبول في ١٩ رمضان سـنة ٩٣٨هـ (٢٥ نيسـان/أبريل ١٥٣٢م) وشـهِد العيد في أَدِرْنَه، ووصـل إلـى نيش في ١٣ حزيران/يونيو، وكان سـفراء فردينانـد قد وصلوا قبله إلى المعسـكر العثماني، وكرروا عروضهم مرة ثانية، كان هؤلاء السـفراء ضمن بَعثـة أخرى تُسـمَّى "لامبرج (*Lamberg*)" و"فون نوغـارولا (*von Nogarola*)"، وكانـت التعليمـات الموجهـة إلـى السـفراء هـي تحقيـق وضمـان مـد الهدنـة التـي أجريـت قبل فترة وجيزة بين زابوليا فرديناند في "فيشـاجراد (*Vişegrad*)". بالإضافـة إلـى ذلك كانوا ينوون عرض مبلـغ سـنويا من ٢٥ ألف أوقية إلى مائة ألف أوقية تدفـع كهدية إذا ما أعطى السلطان سليمان المَجَر إلى فرديناند ولكن رفضت هذه العروض من قبل السلطان.

وفـي حزيران/يونيو وافق السـلطان سـليمان علـى مثول السـفراء بين يديه وتأثـروا كثيـرا جدًّا بأبهـة خيمة السـلطان وعظمتها، كان يوجـد بجانب العرش الذهبـي منضـدة صغيرة خاصـة عليها تاج بديـع فخم تقـدر قيمته بمائة وخمس عشـرة ألـف أوقية تم صنعه في إيطاليا. كانت الجواهـر والأحجار الكريمة التي ترصـع العرش والأسلحة المعلقة بجواره تبهر الأبصار. وقد مر السفراء في أثناء وصولهـم إلـى الخيمة من بين جنود الإنْكِشَـارِيّة حاملي البنـادق الذين اصطفوا صفوفا منتظمة. وكتب السفراء في تقاريرهم مايأتي:

> "لمـا وصلنـا لقَّموا جميعًـا بنادقهم، وأطلقـوا النار بالقـرب منا وكأنهم يسخرون منّا".

وقبـل أن يصـل الجيش العثماني إلى بَلْغِرَاد انضم إليه التتار الذين أرسـلهم خان القِرْم. وعندما عبر الجيش العثماني سهل سِيرَمْفي ٢٨ حزيران/يونيو علموا ان السـفير الفرنسـي "رينسـون" وصل إلى المعسكر واستقبله السـلطان بجفاوة بالغة. ويتضـح فيما بعد أن ملك فرنسـا أرسـل رينسـون من أجـل إقناع الجيش

العثماني بالعدول عن الحملة. وأشارت المصادر الفرنسية إلى أن السلطان أراد معرفة موقف ملك فرنسا: هل معه أم ضده؟... لا سيما أن السلطان رأى في موقف "فرانسوا الأول" ونأيه بنفسه في سنة ١٥٣١م ما يدعو للأسف، وبينما كان سفير البندقية في فرنسا يرسل محادثات السلطان والسفير إلى حكومته كتب ما مفاده: إن السلطان وهو يدّعي صداقة عريقة مع فرنسا يعجب من استشفاع رينسون لرجل أساء إلى ملك فرنسا.

وعندما بدأ الجيش بالتقدم إلى أراضي "سِيرَمْ" وصل شخص مجري يدعى "بيريني بتر (*Perényi Péter*)" إلى حضرة السلطان. وقع هذا الشخص أسيرًا في أيدي العثمانيين أثناء حصار فيينا، ونجا فيما بعد عن طريق مبادلة الأسرى. ومثل بيريني بين يدي السلطان بغية الحصول على بعض المنافع والمصالح الشخصية. من ناحية ثانية كان يجري محادثات في إسطنبول منذ سنتين بواسطة "كريتي"، وكان يريد أن يفرض نفسه كأمير تابع للعثمانيين، وأن يجلس على عرش المَجَر.

ولهذا قدّم كثيرًا من الهدايا والأسرى، وبهذا تجرأ على المثول بين يدي السلطان في "أوسك (*Ösek*)" مع ٦٠٠ رجل، ولكن رفض طلب بيريني هذا، كما اتضح أن هذا الرجل الذي تبين نفاقه قد عقد اتفاقا سريا مع فرديناند، فقبض عليه وتم حبسه.

بدأ الجيش العثماني التقدم إلى بلاد فرديناند، وكان هناك الكثير من المدن الصغيرة والكبيرة في هذه المنطقة لا تخضع للحكم العثماني. وقد تمكن كل من يحيى بَاشَازاده محمد بَكْ والغازي خُسْرَوْ بَكْ أمير البُوسْنَة من الاستيلاء على هذه الأماكن. وكان يوجد بين هذه المدن الكبيرة والصغيرة قلاع أيضًا مثل: "أرشاق (*Egerszeg (Erşak*)"، و"سيكلوس (*Siklos (Şikloş*)"، و"بابو جقا (*Babucsa (Baboçka*)"، و"بلوار (*Belovar (Belvar*)"، و"بزرينجة (*Berzeneze Bezerince*)"، و"فوتوش (*Wutuseh (Vutuş*)"، و"قابولنا (*Kapolna*)"، و"قانيجة (*Nagykanisza (Kanije*)"، و"قايارنق (*Kapornak (Kabarnak*)"، بـ"وليسكا

(*Poeleoske*)". وكذلـك أضيفت إليها قـلاع أخرى. وبالرغم من دخول الجيش العثمانـي بـلاد المَجَر وتقدمه من الأراضـي التابعة لفرديناند إلا أنه لم ير أي أثر من جيش الإمبراطورية. وحاصر السـلطان "غوش (*Güns*)" (جانز) الواقعة على مسـافة سـتين ميلا إلـى فيينا، وانتظر مجـيء "كارل الخامس" إليـه. وكان جيش الإمبراطورية الجرّار وصل إلى مشارف "بريجتنو" على مقربة من فيينا.

وتـم اتخـاذ كل التدابير اللازمة للدفاع عن قلعة "جانز" الحصينة، المسـورة بخنادق عميقة؛ وعين يحيى بَاشَـازاده بَالِي أُوغْلُو محمد بَكْ أمير سَنْجَقْسَمَنْدِرَه علـى مقدمة الجيـش العثماني؛ وصل في ١٠ آب/أغسـطس بالقرب من "جانز" وأطلق عليه حرس القلعة نيرانًا كثيفة أثناء مروره بها.

ووصل على إِثْرهم الجيش بقيادة السلطان وقرر حصار القلعة؛ وفي الحقيقة لـم تنقـل المدافـع الضخمـة الثقيلة اللازمـة لأن الحملة كانت مـن أجل تدمير مملكة فرديناند وشـن معركة حامية الوطيس مع الإمبراطور. وأمر إبراهيم بَاشَـا بوضـع المدافـع الصغيرة على مكان مرتفع يطل على القلعة، ومن جانب آخر تم حفر الخنادق وحفر الأنفاق إلى أسـفل الأسـوار، ولكن نبع المياه منها حال دون إتمـام الحفـر إلا نفقًا واحدًا أُضرمت فيه النيران، فتهدمت بعض الأسـوار، أما الهجوم التالي فلم يسفر عن شيء.

وتم تفجير نفقين آخرين أمكن حفرهما بعد فترة، وتهدمت بهما الأسـوار، وقتـل جنـود القلعة، ولكن لم يتمكن أحـد من عبور خندق كان يقـع خلف هذه الأسوار، فاعتمدوا السير من فوق الخنادق بعد ملئها بالحطب وأغصان الأشجار الرقيقة، ولما كانت المنطقة مكتظة بالأشجار أمكن جمـع كمّ هائل من الحطب في الخنادق بلـغ ارتفاعه قِمم الأسوار وصار كأنه حصن يصد نيران العدو، كان المدافعون عن القلعة يطلون حِزم القمح والشعير بالقطران من أجل حرق أكوام الحطب فأشـعلوها وألقوا بها عليها. إلا أن المدافعين عن القلعة الذين تقطعت بهم الأسباب بعد مدة اضطروا إلى تسليم القلعة لأن الجنود العثمانيين استمروا في هذا العمل دون ملل أو كلل.

وطلب قائد القلعة "نيقولاس يوريشتس (*Nicolas Jurischits*)" الذي وصل إلى إسطنبول سفيرًا لفرديناند فيما مضى الأمان، واستحوذ الأتراك على القلعة في اليوم السابع عشر من الحصار في ٢٨ آب/أغسطس سنة ١٥٣٢م.

كان مقر قيادة السلطان يوجد في مكان قريب من القلعة. وتلقى السلطان خبر الاستيلاء على القلعة ووصل إلى مكان على مسافة يوم واحد من القلعة، وقدم الهدايا إلى الصدر الأعظم وسائر الجنود.

وبعد الاستيلاء على قلعة "جانز" وافق السلطان مرة ثانية على مثول "لامبرج (*Lamberg*)" و"نوغارولا (*Nogarola*)" بين يديه وهما سفيرا فرديناند اللذان تباحثا مع السلطان من قبل في بَلْغِرَاد، ولم يسمح لهما بالعودة واضطرا إلى مرافقة الجيش العثماني طَوال شهرين، وشهدا حصار قلعة "جانز"، وتسلما رسالة السلطان الموجهة إلى فرديناند، كانت هذه الرسالة تدعو فرديناند إلى الحرب لأن السلطان بالرغم من أنه حاصر فيينا في سنة ١٥٢٩م وقام بالحملة الثانية في الأراضي الخاضعة لفرديناند إلا أن فرديناند لم يتصدّ للسلطان أو يقاومه. كان السلطان سليمان يريد في رسالته هذه أن يستفز فرديناند ويود أن يتصدى له ويقاومه بأسرع ما يمكن.

ووفقًا للمؤرخ بَجُويْلُو تضمّن نص الرسالةإلى فرديناند:

"تدّعي البطولة والشجاعة دائمًا، وتزعم أنك فارس الميدان، كم داهمتك وتصرفت في ملكك كما أريد دون أن تقاوم أنت ولا أخوك، قبحك الله، كيف تدعي السلطنة وحكم البلاد؟ ألا تستحي من جنودك بل من زوجتك، فالمرأة قد تثور أما أنت فلا، إذا كنت رجلًا فلتأت إلى الميدان، ليقضي الحق سبحانه وتعالى أمرًا كان مفعولًا؛ موعدنا في صحراء "بج (*Beç*)" لننظر لمن ستؤول السلطنة، وعندئذ تقَرّ أعين الرعية المساكين، وإلا فالبطولة ليست مكرًا كمكر الثعالب عندما يغيب الأسد عن الغابة، فإن نكصت هذه المرة وأبيت السجال فعليك بمغزل النساء، إلا أنك لن تنسج به تاج السلطنة ولن تتغنى بالبطولة".

واستطاع السفراء توصيل رسالة السلطان هذه إلى فرديناند في ٢ أيلول/سبتمبر، إلا أنه لم يظهر في الميدان لا هو ولا "كارل الخامس" في خلال هذه الفترة. وحسبما ورد في قيد بَجُويْلُوأ يضًا، جمع الإمبراطور ثمانين ألف جندي مشاة وأربعين ألف جندي خيالة (فارس)، ولكن لم يستطع أن يتصدى للسلطان ويقاومه بسبب الجوع والقحط في بلاده.

وفي حقيقة الأمر كان فرديناند وشارل يتجنبان شر معركة حامية مع السلطان وكانا يحشدان القوات في المواقع الحصينة، ويحاولان شغل الجيش العثماني وخداعه وإنهاك قواه وإبادته؛ وهكذا حصنت القوات الموجودة تحت قيادة "بارون جون كاتشينز (*Baron Johann Katzianer*)" هذا المكان إزاء حصار ثانٍ محتمل للسلطان ضد فيينا. ورأوا أن ينتظر الجيش في مدينة "لينز" عند مسافة مائة وخمسين كيلومترا من هذا المكان.

واصل الجيش العثماني عقب الاستيلاء على "جانز" عمليته العسكرية. وبعد ذلك استسلمت مدينة "سوبيون (*Sopion*)" بلا مقاومة وهي مدينة تحتوي علي عديد من الكنائس والقلاع وكثيرة من حيث عدد السكان. وعبروا منها إلى أراضي الألمان للوصول إلى أقرب نقطة من فيينا، وظن النمساويون أن الجيش العثماني سيزحف إلى فيينا إلا أن الجيش عبر إلى "إيستريا" حتى بلغ إلى مشارف "غراز (*Graz*)"، ولم تتم محاولة الاستيلاء على هذا المكان لأنه قلعة حصينة إلى حد ما.

وتم بعد عبور نهر "الموره (*Mur*)" الوصول إلى وادي "درافا (*Drava*)" بالقرب من مدينة "ماربورج (*Marburg*)"، وأقام السلطان معسكره في هذا المكان (١٧ أيلول/سبتمبر ١٥٣٢م). وأقيم جسر على نهر درافا، وعبره الجنود وبدؤوا التقدم إلى جهة الجنوب.

وبعد دخول الجيش إلى أراضي "سلوفينا (*Slovenya*)" عرضت مدن كبيرة وصغيرة فيها الولاء، ومنها مدينتا "بودغوغونجه (*Podgogonce*)" و"زاغرب (*Zagreb*)".

وفي تلك الأثناء تقدم قاسم بَكْ من المهاجمين العثمانيين مع اثني عشر ألف مهاجم إلى "بادن (*Baden*)" الواقعة بالقرب من فيينا، ثم عاد حينما علم أن السلطان ذهب إلى "ايستريا (*İstiria*)"، وفي أثناء ذهابه إلى هذه الجهة وقع في كمين قوات العدو واستشهد، إلا أن فرق المهاجمين الأخرى قاومت وألحقت أضرارًا بالغة بمحيط هذه المنطقة، وبعد أن دخلت الجيوش العثمانية إلى أراضي سلوفيينا، انفصل إبراهيم بَاشَا في ٢٧ أيلول/سبتمبر عن الجيش لحماية الجيش من الخلف من أجل التقدم إلى جهة "بوشيفا".

أما السلطان فقد تحرك إلى بَلْغِرَاد عن طريق "أوسك". وفي خلال هذه الفترة يتبين أن إبراهيم بَاشَا أرسل في "لاغوفيتس (*Lagowitz*)" خطابا موجها إلى فرديناند مع أسير يدعى "أندريه شتادلر (*André Stadler*)". ويشرح في هذا الخطاب لماذا أقيمت الحملة، وسخر من جبن فرديناند وخوفه.

وفي النهاية التقى السلطان والصدر الأعظم في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر.

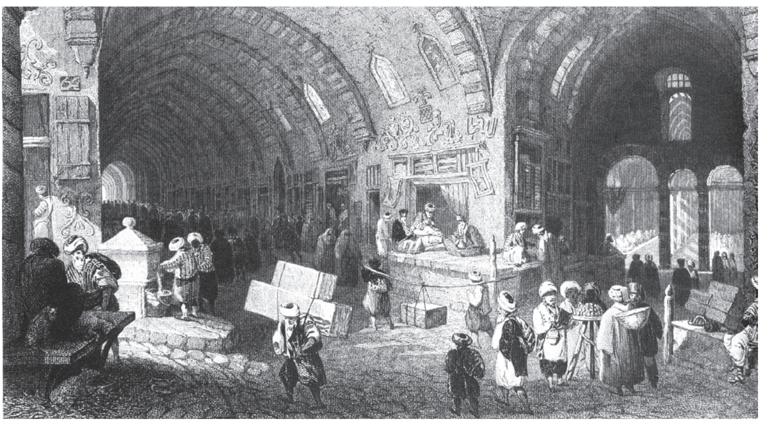
وتم عقب اجتماع الديوان في هذا المكان الإنعام على كبار رجال الدولة وإرسال خطابات النصر إلى جميع أنحاء البلاد. وكتب السلطان كذلك خطابًا موجها إلى دوق البندقية وكلف يونس بَكْ مترجم الديوان بنقل هذا الخطاب. كان يونس بَكْ وهو من مواليد "مودون (*Modon*)" في "مورة (*Mora*)" ويعرف اللغة اللاتينية جيدا قد زار البندقية في سنة ١٥١٩م. فتوصل البنادقة بما جمعوه من معلومات إلى أن والده "جورجيوترنوتي (*Giorgio Taroniti*)"، ونشط يونس بَكْ في رحلته الثانية سنة ١٥٢٢م بإقامة علاقات تجارية هناك، وعقب ذلك قدم في زيارته الثالثة إلى مجلس شيوخ البندقية خطاب الفتح المتعلق بدخول السلطان سليمان بُودِينْ أما الآن فقد كتب في الخطاب الذي نقله أن عودة السلطان كانت تستند إلى جبن فردينادد وخوفه وعدم تصديه للسلطان ومقاومته، وتم الحديث أيضًا عن القلاع التي تم الاستيلاء عليها في الحملة.

وما تسميه كتب التاريخ العثماني بحملة "آلمان" هدفها تهديد العدو وتعزيز الحكم العثماني في المَجَر أكثر من كونها عملًا عسكريًّا، ولم تستطع جيوش

الإمبراطورية الإقدام على أي عملية عسكرية مضادة إزاء الجيش العثماني الذي دخل أراضيها. غادر السلطان بَلْغِرَاد وعندما وصل إلى فِيلِبَة عقد اجتماعًا مع حكام القِرْم وأمرائها، وحل الخلاف بينهم بشكل قاطع، وعُيِّن حاكمًا على القِرْم أحد المشاركين في الحملة، وهو صاحب كِيرَايْخان نجل منجلي كِيرَايْخان.

وعقب ذلك تمّ استقبال سفير بولندا وفي اللقاء وافق السلطان على عرض مد الهدنة بين الدولتين. واستُقبِل السلطان بالاحتفالات والمراسم في كل مكان يمر به طوال الطريق، ودخل إسطنبول في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٩٣٩هـ (٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٣٢م).

وأقيمت الاحتفالات خمسة أيام وخمس ليال في إسطنبول أيضًا بسبب عودة السلطان والجيش من حملة آلمان، وتم ترتيب وسائل الاحتفال المتنوعة. وغيّر السلطان ملابسه متنكرا في القصر وفي أثناء اللهو والطرب وتجول في المدينة مع إبراهيم بَاشَا وذهب إلى السوق المغطى وفتش محالّه وبضائعه.



السوق المغطى

وفي تلك الأثناء كانت تقع بعض الأحداث السياسية الجديدة في البحار حيث وصل أسطول إمبراطورية هابسبورج بقيادة "أندريا دوريا" إلى سواحل "المورة (*Mora*)" واستولى على "كورون (*Koron*)"، وأنزل القوات على سواحل "باتراس (*Patras*)" (باليابادرا (*Balyabadra*)) و"إِينَة بَاخْتي (*İnebahtı*)". واقتضى هذا

الوضع ضرورة تقوية الأسطول العثماني وتعزيزه في البحر الأبيض المتوسط. كانت قلعة "كورون" التي دخلت تحت الحكم العثماني في عهد بايزيد الثاني هدفًا لهجمات أحد الأساطيل التي كانت تحت قيادة "أندريا دوريا" الذي قام بنشاطات وأعمال باسم "كارل الخامس" في أثناء انشغال العثمانيين بحملة آلمان، كان أندريا دوريا قائد الأسطول البحري لعدة دول في عقود مختلفة وللإمبراطور أخيرًا، وقد وصل قرب قلعة "كورون" في "المورة" بإسطنبول مع خمس وثلاثين سفينة ضخمة وثمان وأربعين سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف.

أنزل "أندريا دوريا" قواته على البر وحاصر القلعة من البر والبحر وأمر بإطلاق نيران المدفعية على الأسوار. وفتحت نتيجة ذلك فجوات عميقة في أسوار القلعة، ومات من المدافعين عنها حوالي ألف وخمسمائة جندي. وأدخل دوريا الجنود من الفجوات التي فتحت من ناحية البحر، ونجح في الاستيلاء على القلعة. وبعد أن استولى دوريا على القلعة أسكن الفرنجة في القلعة الداخلية والروم المحليين في القلعة الخارجية. وترك دوريا في "كورون" الفي جندي إسباني بقيادة "فرانسو ماندوزا (*Fransuva Mandoza*)" واستولى على "باتراس (*Patras*)" و"إِينَة بَاخْتي"، والقوات التي أرادت الذهاب لمساعدة القلعة ونجدتها اجتمعت بسرعة فيالمورة. إلا أنها لم تستطع النجاح بسبب تفوق مدفعية العدو وانضمام الألبان والروم المحليين إلى جانب العدو.

ولما علم أندريا دوريا أنّ أسطولًا عثمانيًّا قادمٌ بقيادة "كَمَانْكَشْ (*Kemankeş*) أحمد بَاشَا" انسحب من هذه المياه، وترك الجنود والمدافع في القلاع، ولم يُغفِل تعزيز التحصينات، ولما عادوا من حملة "آلمان" قدّم "كوينليوس (*Connelius*)" سفير النمسا إلى إسطنبول للصلح عرضًا مفاده " أن يسترد العثمانيون قلعة "كورون" في المورة وجزيرة "آرجل (*Arcel*)" شمال إفريقيا على أن يُتوّج فرديناند ملكًا على المَجَر". إلا ان إبراهيم بَاشَا ردّ على هذا العرض بقوله:

"إن الدولـة العثمانيـة لديها العديد من القلاع الأكثـر أهمية من كورون" وإن "كورون" ليسـت مكانا مهما ونستطيـع أن نستولي على هذا المكان بالحرب إذا أردنا بل ونحرقه أيضًا".

وهكـذا يتضـح أن "كارل الخامـس" يهدف إلى اسـتعمال هـذه القلعة غير المهمة كورقة رابحة ضد العثمانيين.

وأخيرا تم تعيين أمير سَنْجَقْسَـمَنْدِرَه يحيى بَاشَـازَادَه محمد بَكْ على إمارة سَـنْجَقْ المورة بسـبب عدم تحمل بقاء "كورون" فترة طويلة في يد العدو وكلّف بالاسـتيلاء على "كورون" (مـارس ١٥٣٤م). كان محمد بَكْ يحاول الاسـتيلاء علـى "كـورون" مـن ناحيـة، والوقيعـة بين الـروم والألبـان وبين العدو لإفسـاد مـا بينهـم مـن علاقة من ناحية أخرى، وفـي النهاية أمر بالقبـض على من اتفقوا مـع العـدو من زعماء الـروم والألبان وقتلهـم، وهكذا نجح في إفسـاد العلاقة بينهم، وباتت كورون واقعة تحت الحصار، وفشـل دفاع القلعة في قيامه بهجمة مرتدة رغم إمدادهم بثماني سفن، وقُتل بعضهم؛ وفتحت أسوار القلعة الخارجية ثم الداخلية عندما ضعف دفاع القلعة وطلبوا الأمان من العثمانيين.

عجـز فردينانـد عن مقاومة الأتراك في حملة "آلمان" فحاول أن يبرم صلحًا مـع العثمانييـن عملًا بوصية أخيـه "كارل"، ورحـب العثمانيون بطلبـه ووافقوا عليه حيث بدأت في تلك الأثناء تظهر بعض المشكلات على الحدود الشرقية. واسـتقبل السـلطان في ١٤ كانـون الثاني/يناير سـنة ١٥٣٣م وفد سـفارة وصل إلى إسطنبول من أجل المباحثات والمفوضات. وأفاد السفير "زرالي هيرونيموس (*Zaralı Hieronimus*)" أن إمكانيـة عقـد صلـح كامـل تتطلـب مـن فردينانـد أن يسـلم مفاتيـح قلعة ("جـران (*Gran*)" ("إسـترجون (*Estergon*)") دليلًا على حسـن نيته، وتم إرسـال مـع "فيسـبازيان (*Vespasien*)" ابن السـفير النمسـاوي "رقيب الديوان"(٤٤) (رسولا من قبل السلطان) إلى "فيينا" من أجل إبلاغ فرديناند

(٤٤) رقيـب الديـوان: هـو مبلّـغ القـرارات والأحـكام المأخـوذة فـي الديـوان إلـى الحـكام والأمـراء في رسائل أو إلى الناس بصوت مرتفع. (المترجم)

بهذا الشـرط الذي اقترحه السـلطان من أجل الصلح. وكتب السـفير في تقريره المؤرخ بـ٢١ كانون الثاني/يناير أن السلطان سليمان يعد فرديناند بمنزلة ابنه وكل من الملكتين مثل بناته، يعني زوجة فرديناند وأخته ماريا الملكة المَجَرية الأرملة.

وبالإضافـة إلـى ذلـك صـدرت التعليمات أيضًا إلـى قادة الحـدود بإيقاف التصرفـات العدوانيـة علـى أندريـا دوريـا وقائد "إسـترجون" ومـن جانب آخر اسـتقبل السـفير العثماني في فيينا بالمراسـم، وكان هذا السـفير هو أول سـفير عثماني تستقبله مدينة فيينا، فرحّب به فرديناند وهو جالس على عرشه متوجّ بتاج الملـك. وكان المَجَريـون في أثناء الاسـتقبال على يمين فرديناند والبوهيميون على يساره. حتى إن شرط تسليم مفاتيح "جران" الذي اقترحه العثمانيون أخاف البوهيميين وأقلقهم، واستطاع فرديناند تهدئتهم بصعوبة، فتم التغاضي عن أمور منها: اسـترداد كورون، وتعديل المواد الخاصة بشـؤون المَجَر من قبل "كريتي" القائم بأعمال السـلطان في المَجَر، وتدخّل البابا وشـارل الخامس في المعاهدة المُزمَع عقدها.

وفي ٢٩ أيار/مايو تحرك إلى إسـطنبول السـفير العثماني ومعه "فيسـبازيان (*Vespasien*)" الذي يحمل مفاتيح "جران (*Gran*)" إلى السلطان وممثل فرديناند وماريـا زوجـة لايـوش الثاني آخـر ممـوك المَجَر أيضًـا" ومعهـم "كورنيليوس دوبليسـيوس شـيبر (*Cornelius Dupplicius Schepper*)"، وأحضر كورنيليوس خطابين إلى السلطان.

كانت إحدي هذه الرسـائل من "كارل الخامس" وتحتوي على التوسـط بين فرديناند والسلطان سليمان وعرض ترك المَجَر لأخيه، أما خطاب فرديناند فوعد فيه بأنه سيكلم "كارل الخامس" لإعادة "كورون".

بدأ الاجتماع مـع سفراء النمسا في أواخر شهر أيار/مايو. وفي تلك الفترة حضر هذه الاجتماعات "كريتي" الذي كان موجودا في المَجَر وطلب إحضاره بوجـه خـاص من أجل المباحثات، واسـتقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَـا في بـادئ الأمر وفد سـفارة النمسـا. ووفقا لتقارير السـفير قدّم الوفـد إلى إبراهيم

بَاشَا مفاتيح "جران" وهدايا أرسلها فرديناند عبارة عن ألماس بقيمة ألفي دوقية وياقوتة قيمتها ضعف هذا المبلغ وقلادة مرصّعة بلؤلؤة كمثرية الشكل قيمتها نصف قيمة الألماس. وافتتحت المباحثات حيث تحمس إبراهيم بَاشَا لبدء المباحثات على الفور. وجرت المباحثات استنادا إلى تقارير السفارة على النحو الآتي:

وقد بدأ اللقاء الأول في ٢٧ أيار/مايو. ووصف السفراء في تقاريرهم حديقة قصر إبراهيم بَاشَا التي يوجد فيها التماثيل المنقولة من بُودِينْ، وذكروا أيضًا أن إبراهيم بَاشَا لديه قفطان قشيب (مرصّع بالذهب والفضة) وتحته ثوب أزرق اللون مقصب أيضًا، وأن البَاشَا معتدل القامة، أسمر البشرة، مدوّر الوجه، مفلّج الأسنان، فحيّوا إبراهيم بَاشَا، وأبلغوه بتحية فرديناند والملكة مارية، وعرّف إبراهيم بَاشَا السفراء بقوة العثمانيين الإدارية والمالية والعسكرية، وأنها جميعًا في يده، وأنه هو من يولّي المناصب والولايات، وأن الحرب والصلح والثروة في يده، ثم طلب منهم أن يصارحوه بمطالبهم بحرّية، وعلى ذلك ذكر السفير كورنيليوسأن فرديناند في حاجة إلى نصيحة إبراهيم بَاشَا وتوسطه من أجل ما تبقى من المَجَر تحت يده، وقدّم خطابات فرديناند وشارل الخامس. وبعد ذلك شرح كورنيليوس خطاب الإمبراطور بالتفصيل وأوضح أنه يعتبر السلطان أخا له، وأنه يريد أن يدخل في معاهدة صلح فرديناند، وفي حالة ترك المَجَر إلى فرديناند سوف يتم تسليم جزيرة "أرجل (*Arcel*)" إلى أصحابها الأولين، و" كورون" أيضًا إلى العثمانيين. ولما عرضوا على إبراهيم بَاشَا "كورون" و"أرجل" مقابل عرش المَجَر، قال لهم:

> "سنفتح "كورون" عنوة لا صلحًا، حيث إنّ هذا المكان ليس مهمًا للغاية، بل إنناسنستطيع حرق القلعة عند الضرورة، وأن السلطان منح الملك المَجَر "جون يانوش"، ولن تستطيع أي قوة في العالم أن تغير هذا القرار".

وطلب إبراهيم بَاشَا بعد هذه المحادثات الأولى انضمام "كريتي" إلى المفاوضات الأخرى التي سوف تجرى، وأبلغ "كريتي" فيما مضي السفراء النمساويين أن السلطان سوف يساند جون زابوليا بصورة مطلقة، وأن الإصرار في هذا لن يثمر، وأن مسألة "كورون" لا تقبل النقاش، لأن العثمانيين حاصروا "كورون" بستين سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف؛ وحضر في المباحثات الثانية بجانب "كريتي" كلُ من يونس بَكْ وجلال زاده مصطفى شَلَبِي. تحدَث إبراهيم بَاشَا في هذه المباحثات الثانية عن نفسه كثيرًا فأوضح للسفراء مرة أخرى قدرته وقوته ونفوذه. ثم أوضح مسألة المَجَر والحملات التي قام بها العثمانيون وآراءه بشأن التصرفات والمواقف التي اتخذها فرديناند. وكذلك ذكر أن السلطان يرى أنَ التمسك بفرديناند وتأييده من قبل "كارل الخامس" لا طائل منه، وتحدث عن قدرة السلطان وعظمته والبلاد التي يملكها، وأبلغه أنه لن يقدم خطاب "شارلكان" إلى السلطان لئلا يثير غضب السلطان وحفيظته، وقال:

> "لو أراد "كارل" الصلح لأرسل رسولا، ويمكن توقيع هدنة لمدة ثلاثة أشهر، وإذا تم الصلح سيتوقف بربروس عن شن الهجوم علي المسيحيين في البحار في غضون هذه المدة".

واجتمع كريتي مع الصدر الأعظم عقب هذه المفاوضات وتباحثا سويًا. ونتيجةً لهذا دعا كريتي سفراء النمسا في ١١ حزيران/يونيوللمفاوضات. واستنكر كريتي في دعوته للسفراء مقولةَ شارلكان أنه نِدّ للسلطان، وأوضح أن السلطان هو وحده من يقرر مصير الصلح، وأيًّا كان مايريد فإن هذا سوف يتم تنفيذه وعمله على الفور بلا قيد أو شرط.

وأخيرًا تم التوصل إلى اتفاق في نهاية المباحثات الطويلة في ٢٥ حزيران/ يونيوسنة ١٥٣٣م. والتقى السفراء بإبراهيم بَاشَا للمرة الثالثة، وفي اليوم التالي استقبلهم السلطان. وقال السفراء للسلطان:

"إن الملـك فرديناند مثـل ابنك، لذا فـإنّ ملكه ملـكك، وملكك ملكه، ولو كان يعلم أن بلاد المَجَر تحت ملكك لما شنّ عليها هجومًا حفاظًا عليها، فبما أنك أبوه وترغب بضمّها إلى سلطانك فهو يبارك لك فيها".

استعمل كورنيليوس رئيس السفراء النمساويين هذه الكلمات، وقدم التحية للسلطان بتقبيل ذيل ثوبه في مراسم استقبال رسمية، واعتذر عن عدم تقديمه الهدية، وكذلك التمس السماح بإعادة جهاز الملكة ماريا وأن يكون إبراهيم بَاشَا الذي يعتبر أخو فرديناند وكيلًا للملك في الباب الهمايوني (أي: الحكومة العثمانية) وقبل السلطان هذه المطالب، وهكذا تمخضت عن هذه المباحثات والمفاوضات هدنة مع السفراء النمساويين الذين غادرو إسطنبول في ١٤ حزيران/يونيو١٥٣٣م.

.

حملاته الشرقية: بداية الكفاح ضد الصفويين

بدأ السـلطان سـليمان القانوني في الاهتمام بتطورات الأوضاع على حدود دولتـه الشـرقية، والتي كانت تـؤرّق ذهنه منذ فترة طويلة، وذلك بعد أن أرسـى دعائـم لحلـول جذريـة للقضايـا التي كانت تشـغل بالـه على الحـدود الغربية. وكان السـلطان القانونـي يأمـل فـي القضاء بشـكل نهائي على الدولـة الصفوية التـي تحوّلـت إلـى "قضية الشـرق" بالنسـبة للدولـة العثمانيـة إبّان عهـد والده السـلطان سـليم الأول، وكانـت تُوجَّه إليهـا أصابـع الاتهام في حـركات التمرد التى حدثت في الآونة الأخيرة. وفي الواقـع، فإن السلطان كان قد أحيا الغزوات الجهاديـة ضـد الغـرب الـذي لم تُنظَّـم ضده حملات عسـكرية بمعنـى الكلمة منـذ فتـرة طويلـة. والآن فقـد حان الـدور على مهمـة حماية الكيان الإسـلامي فـي مواجهة تهديدات الصفويين الذين يشـكّلون المصدر الأساسـي للمشـاكل لحامية عرين الإسلام. ويبدو أن هذه المبادرة كانت تنطوي على تغييرات مهمة ليس في المجال العسـكري فحسـب، بل في الوقت نفسه على تحوّلات جديرة بالملاحظة في المظهر العام للدولة العثمانية على المستويَيْن الديني والسياسي، إذ إن زيادة الحساسـية الدينية سـتمهد السبيل مـع مرور الوقت لظهور اتجاه من شـأنه التأثيـر على الآليـات البيروقراطية والسياسـية في المنطقة بأسـرها. فكان السلطان سليمان يرى نفسه الممثل الأعظم للعالم الإسلامي السُنِّي، وعليه، فقد وضـع نصب عينيه التخلّص من الدولة الصفوية، ووضـع هذه المهمة على رأس أولوياتـه خـلال فترة حكمه، وذلك كنتيجة طبيعية لكون الصفويين شـكّلوا أكبر التهديـدات أمام ترسـيخ مفهوم الدولة السُـنيّة، كما أنهم نجحـوا في إقامة دولة مترامية الأطراف على الأراضي الإيرانية بفضل أيديولوجياتهم السياسية والدينية الجديرة بالاهتمام. ولهذا السـبب، فلا شـك أن السلطان القانوني قد دبّر خططًا محكَمة في هذا السياق مـع إبراهيم بَاشَا.

لقد استمرت المشاكل تطفو على سطح العلاقات العثمانية – الصفوية حتى بعد معركة جَالْدِيرَانْ بين الجانبين. كما أن العثمانيين أنزلوا ضربة قاسية على آمال الشاه "إسماعيل الصفوي" في الوصول إلى الأناضول بعد النصر الذي حققوه في جَالْدِيرَانْ. إلا أن هذه الضربة لم تستطع الحيلولة دون إصرار الصفويين على مواصلة استفزازاتهم للكيان العثماني. أضف إلى ذلك أن الشاه إسماعيل ساورته آمالٌ جديدة عقب وفاة السلطان سليم الأول، ولم يتورّع عن الإقدام على بعض المحاولات المناهضة للعثمانيين، ومنها أنه قدّم الدعم لثورة الغزالي، كما ذكرنا آنفًا، وسعى للاستفادة من تلك الأحداث بُغية الإعداد للإغارة على حدود الدولة العثمانية الشرقية، إلا أن وأْد ثورة "الغزالي"، ووصول نبأ استعداداته العسكرية إلى مسامع الدولة العثمانية، وإرسال فرهاد بَاشَا إلى الحدود الشرقية، كل ذلك دفعه مضطرًا إلى التخلّي عن هذه الفكرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن تحريضات الدولة الصفوية تمخّض عنها اندلاع حركات تمرّدية واسعة النطاق في الأناضول، لاسيما أثناء معركة "مُوهَاجْ". ومن ناحية أخرى، عمد الشاه إسماعيل إلى إيفاد الرسل إلى الأناضول من جهة، ومن جهة أخرى نظّم حملة عسكرية إلى جورجيا أثناء انشغال العثمانيين بفتوحاتهم في بَلْغِرَاد. فاستطاع إخضاع مدن جورجيا الشرقية لسيطرته بمساعدة السلطان "دِيوْ علي (*Div Ali*)" الرومي[٤٥]، وبسط نفوذه في مناطق "شِيرْوَانْشَاهْ (*Şirvanşah*)" إبراهيم الثاني"[٤٦] وحسين بك[٤٧]، أي في مدينتي "شَمَاهِي (*Şemahı*)"[٤٨] و"شَكِي (*Şeki*)"[٤٩].

(٤٥) السلطان دِيوْ علي الرومي: قائد عسكري إيراني بزغ نجمه خلال فترة حكم الشاه "طهماسب الأول". (المترجم)

(٤٦) شيروانشاه إبراهيم الثاني: أحد حكّام دولة الشيروانشاهان في أذربيجان. (المترجم)

(٤٧) حسين بك: أحد أعيان وحكّام مدينة شيروان الواقعة شرق أذربيجان. (المترجم)

(٤٨) شماهي: مدينة أذربيجانية. (المترجم)

(٤٩) شكي: مدينة تقع شمال غرب أذربيجان. (المترجم)

وبينما كان مشغولًا بهذه الأمور، أرسل وفدًا من السفراء لتهنئة العثمانيين على نجاحاتهم في غزوتي "بَلْغِرَاد" و"رودس". بيد أن الشاه إسماعيل ذاته كان قد رأى أنه لا داعي لمباركة جلوس السلطان سليمان على العرش. وأما الآن فقد دفعته فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا وانشغاله بأمور دولته، إلى التظاهر بهذه الصداقة غير الحقيقية. إلا أن وفدًا صفويًّا مكونًا من ٥٠٠ شخص وصل إلى إسطنبول، لم يلقَ حينها الاهتمام اللازم من قِبل الوزراء العثمانيين الذين كانوا على علم تام بالوجه الحقيقي للصفويين، وسُمح لعشرين منهم فقط بالدخول إلى إسطنبول، وأما الباقي فأُجبروا على الانتظار في منطقة "أُوسْكُودَارْ". هذا إضافةً إلى أن السلطان سليمان لم يهنئ الشاه "طهماسب الأول" الذي تولّى مقاليد الحكم في إيران خلفًا لوالده إسماعيل الذي وافته المنية يوم ٢٣ أيار/مايو ١٥٢٤م.

وفي هذه الفترة الحسّاسة التي اتسمت فيها العلاقات العثمانية - الصفوية بالتوتّر، بدأت المشاكل تطفو على السطح في إيران إبّان السنوات الأولى لحكم "طهماسب الأول" الذي اعتلي عرش إيران وهو لايزال فتى يافعًا في الحادية عشرة من عمره. فشرع الأمير الجورجي "ليفيند (*Levend*)" أو "ليفان خان (*Lewan Han*)" في استغلال فرصة جلوس طفل على عرش إيران، وأعلن استقلاله، وقاد حملة عسكرية إلى مدينة "شَكِي" مستغلًّا موت الشاه إسماعيل، وهزم "شِيرْوَانْشَاهْ (*Şirvanşah*) حسين بَكْ، وأرداه قتيلًا. ومن ناحية أخرى، ثار الأوزبكيون، وبدؤوا في الانقضاض على مدينة "خُرَاسَانْ (*Horasan*)". هذا إلى جانب أن الصفويين عيّنوا "السلطان دِيوْعلي الرومي" في منصب أمير الأمراء لمواجهة أي خطر يأتي من الجانب العثماني، ونصّبوه في منصب المحافظ في منطقة "سعد شُوكْورُو (*Sâd Çukuru*)"[٥٠] الشهيرة.

---

(٥٠) سعد شوكورو: منطقة منخفضة تقع في أقصى شرق الأناضول على الحدود التركية - الأرمينية. (المترجم)

وقد مهد السبيل لخروج السلطان العثماني في حملة عسكرية على إيران هذه الأوضاع المضطربة، وإرسال كل من: العلماء الأتراك المحليين الذين ما زالوا يحافظون على الهوية السنية في تبريز، وحاكم "جِيلَانْ (*Gilan*)" رسالة إليه سرًّا، وطلبوا فيها أن يشُنّ السلطان حربًا على إيران. وتسبب هذا الإجراء في إرسال السلطان سليمان رسالة إلى حاكم "جِيلَانْ" يطلب تزويده بمعلومات عن إيران من جهة، بينما دفعه من جهة أخرى لإرسال خطاب تهديدي شديد اللهجة إلى الشاه "طهماسب الأول". وجاء بخطاب التهديد هذا الذي يوجد محفوظًا في أرشيف "فريدون بك (*Feridun Bey*)" الذي كان يجمع خطابات السلاطين العثمانيين، أن السلطان سليمان بعث رجلًا إلى الشاه "طهماسب الأول" يسأله عن أسباب عدم إظهار ولائه للدولة العثمانية، واستطرد بقوله: إنه سيبني سرادقه في تبريز وأذربيجان، وربما أيضًا في سمرقند وخراسان، وإنه كان منشغلًا بفتوحاته في بَلْغِرَاد ورودس، وأما الآن فهو مستعد لقيادة حملة نحو إيران، وإن لم يترك طهماسب الأول "الشاهية"[٥١] ويعود إلى "المشيخة"؛ فإنه ينوي إلى قتله أينما وجده. وبهذه الطريقة، رغب السلطان سليمان في جمع كافة ممالك العالم التركيّ تحت راية واحدة حتى يصل إلى تركستان السُنِّية، واستئصال شأفة خطر الصفويين واقتلاعه من جذوره.

وقد أرسل السلطان سليمان فرمانًا يحمل تاريخ ١٥٢٥م إلى حاكم ولاية "ديار بكر" خُسْرَوْ بَاشَا أبلغه فيه أنه وصله خطابٌ من علماء تبريز من أهل السُّنِّة، وأنه عازمٌ على قيادة حملة عسكرية نحو إيران، وأمره فيه أن يفتح ما يعن له من مناطق العدو حتي يصله هو. ومن هذا المنطلق، فقد فكّر السلطان سليمان في قيادة حملة عسكرية تجاه الشرق قبل الخروج إلى غزوة "مُوهَاجْ" عام ١٥٢٦م، ولكن الأوضاع على الجبهة الغربية في المَجَر لم تمنحه فرصة لتنفيذ هذه الفكرة.

(٥١) أي: منصب الملك. (المترجم)

وبعد أن توصّل إلى اتفاق بوقف القتال مع "آل هابسبورج"، وقعت حادثتان شكّلتا السبب الظاهري للحملة العسكرية ضد الصفويين. أحد هذه الأحداث وقعت في بَلْغِرَاد، والأخرى في مدينة "بِتْلِيسْ (*Bitlis*)" على الحدود العثمانية – الإيرانية:

إن مدينة بغداد التي ضمها الشاه إسماعيل إلى حظيرة ملكه عام ١٥٠٨، استطاع "نُوهُودْ علي سلطان أُوغْلُو ذو الفقار (*Nohud Ali Sultanoğlu Zülfikar*)" -وهو من عشيرة تركمان الموصل- السيطرة عليها في عهد الشاه "طهماسب الأول". فبينما كان "ذو الفقار" حاكمًا على مدينة "كلار"[٥٢] عام ١٥٢٨م، أقدم على قتل عمّه "إبراهيم خان"، الذي عيّنته الدولة الصفوية حاكمًا على بغداد، في هجوم مباغت عندما خرج إلى المراعي في نزهة دون حراسة، وذلك يوم ٢٩ أيار/مايو ١٥٢٨م، وأحكم سيطرته على بغداد بعد حصار دام أربعين يومًا. ولأن "ذو الفقار خان" وَالِي بغداد، وصاحب لقب "خليفة الخلفاء"، أيقن تمامًا أن الصفويين لن يصمتوا أمام هذه الواقعة، وبعد فترة طلب المدد من العثمانيين، وأرسل إليهم مفاتيح بغداد. كما أمر بقراءة خطبة الجمعة، وسكّ العملة باسم السلطان سليمان، كإعلان رسمي عن تبعيته للدولة العثمانية. وفي هذه الأثناء كان العثمانيون منشغلين بحصار فيينا (١٥٢٩م)، مما حال دون إمداد بغداد بالمساعدات الفعلية، وسهّل مهمة الشاه "طهماسب الأول" للهجوم على بغداد لاستعادتها مرة أخرى مستفيدًا من هذه الأوضاع. فحاصرت القوات التي أرسلها "طهماسب الأول" مدينة بغداد، وأما "ذو الفقار خان" فحاول الدفاع عن المدينة باستماتة منتظرًا دعم القوات العثمانية. إلا أنه راح ضحية الخيانة، حيث لقي حتفه على يد أحد أقاربه يُدعى علي بَكْ. وبهذه الطريقة عادت بغداد مجددًا إلى الصفويين. واستطاع "طهماسب الأول" السيطرة على كافة المدن العراقية بعد إسقاط بغداد، وعيَّن "سيف الدين أوغلو تكلو محمد بك" حاكمًا على بغداد.

(٥٢) كلار: مدينة تقع في شمال العراق. (المترجم)

وأمـا السـبب الآخر والرئيسـي لاندلاع الحرب فـكان اسـتغاثة "عُلَمَا خَانْ (*Ulama Han*)" -أحد سـادة إيران- بالعثمانيين، وطلب حاكم "بِتْلِيسْ""شـرف خَـانْ" -أحد أمـراء العثمانيين- المدد مـن الصفويين. فأما "عُلَمَـا خَانْ" فتحوّل إلى طائفة "القِزْلْبَاشْ (*Kızılbaş*)"(٥٣) بعد أن كان من "تُرْكْمَانْ التكّة"(٥٤)، وشارك فـي ثورة "شـاهقولو بابا تكّة لي" فيما بين عامـي ١٥١٠ - ١٥١١م، ثم فرّ هاربًا إلى جوار الشاه إسماعيل، وتقلّد العديد من المناصب. وأما في زمان "طهماسب الأول"، فـكان يقيـم في تبريز برفقة "تُرْكْمَان التكّة" بصفتـه أمير أمراء "أَذَرْبَيْجَانْ (*Azerbaycan*)". وعقـب مقتـل رئيـس وزراء الشـاه "جُوهَـا (*Çuha*)" سـلطان في أصفهان على يد "حسـين بَكْ الشـامي"، اعتبر "عُلَمَا خان" نفسه مرشحًا لهذا المنصـب الشـاغر. وبالرغـم من ذلك، فما إن نما إلى علـم "تركمان التكّة" خبر مقتـل "جُوهَـا سـلطان"، تدفق جزء منهم بسـرعة إلى قزوين، وهزموا الشـاميين هنـاك، ونجحوا في خطف حسـين بك وأسْـره. ثـم عُيّن "جوها سـلطان أوغلو كبـاد" فـي منصب أمير الأمراء، إلا أن الأوضاع لم تهدأ بعد ذلك، وبدأت حركة تمـرد تظهـر مجددًا في إيران ضد "تركمان التكّة". وشـرعت قبائل "أُوسْـطَاجَلُو (*Ustacalu*)"، و"ذُو الْقَـادِر"، و"رُومْلُـو (*Rumlu*)"، و"أَفْشَـارْلُو (*Afşarlu*)" في الاتحاد معًا، بدعم من الشاه "طهماسب الأول"، ضد "تركمان التكّة"، وهمّوا إلى قتل العديد من نبلاء "تركمان التكّة" وزينة قومهم. ولم يستطـع "عُلَمَا خان" أن يقبـل هـذه الأحداث المدبرة ضد عشـيرته، فثار ضد "طهماسـب الأول" في خراسان، لكنه اضطر لطلب العون من العثمانيين بعد أن فشل في حشد القوات اللازمـة لإنجـاح عصيانه. ووصـل "عُلَمَا خان" إلـى مدينـة "وَانْ (*Van*)" -التي كانت ضمن منطقة حكمه- وأوصل طلبه إلى الباب العالي في إسطنبول بواسطة أميـر مدينة "ديار بكـر". ومن جانبها، بعثت حكومة إسـطنبول إلى حاكم بِتْلِيسْ "شرف خان" تطلب منه مساعدة "عُلَمَا خان" في السفر إلى إسطنبول مع عائلته.

(٥٣) قِزِلْبَـاشْ: وتعنـي بالتركية "ذوو الـرؤوس الحمراء"، هم مجموعة من الجنود الشـيعة الذين عينتهم الدولة الصفوية في منتصف القرن الخامس عشر. (المترجم)

(٥٤) تركمان التكة: إحدى قبائل التركمان الشهيرة. (المترجم)

وقَـدِم "شـرف بَـكْ" إلـى قريـة "هَارْقُـومْ (*Harküm*)" فـي "وَانْ" بصحبـة ٢٠ مـن رجالـه، والتقى هناك مـع "عُلَمَا خـان" الذي كان يقيم بهذه القرية، وفي النهايـة لجـأ "علما خان" إلـى الأراضي العثمانية، ووصل إلى إسـطنبول، وقابل الـوزراء فـي الديـوان، ولم يتورّع عـن التلفّظ بكلمـات مناهضة لحاكـم بِتْلِيسْ "شـرف خان". وأخبرهم بأن حاكم بِتْلِيسْ يميل إلى شـاه إيران، حتى إنه حاول التدبير لقتله -أي قتل "عُلَمَا خان"-.

وبناءً عليه، أمر السـلطان سـليمان "عُلَمَا خان" بتحويـل بِتْلِيسْ من إقطاعية إلـى إمـارة، عندما اسـتقبله قبيل حصاره لمدينـة "كُوزيـج (*Köszeg*)" المَجَرية، ومنحـه مدينـة "حصـن كيـف (*Hısnıkeyf*)" المطلـة علـى نهـر دجلـة، إضافـةً إلى ٢٠ صرّة من الدنانير. وما إن سـمـع "شـرف خان" هذا النبأ، حتى اسـتدعى بعضًـا من أمراء الأكراد وأوكل إليهم حماية القلاع المهمة بالمدينة، واصطحب نفرًا من رجاله إلى تبريز، ولجأ إلى الشاه "طهماسب الأول" يطلب منه العون.

وقـد أعـرض "شـرف خـان" بوجهـه عـن الصفوييـن فيما مضي بتشـجيع مـن المـؤرخ ورجـل الدولـة العثمانـي "إدريـس البِيتْلِيسِـي" الذي اشـتهر كثيرًا في عهد السلطان سليم الأول.

وعليـه، فقـد اعترف "شـرف خان" بحكـم العثمانييـن على بِتْلِيـسْ، ومُنح هو وعائلته المدينة كإرث يحكمونها واحدًا تلو الآخر. وكانت هذه العائلة تمتلك نفوذًا قويًّا في بِتْلِيسْ التي أخذت الطابع الكردي منذ عصر الدولة الأيوبية، كما كان لديها الكثير من المناصرين والمؤيدين في تلك المنطقة. ولهذا، شكّل لجوء "شـرف خان" إلى الصفويين خطرًا داهمًا على الدولة العثمانية. ولذا فقد أُرسـل "عُلَمَا بَاشَا" عام ١٥٣٢م إلى بِتْلِيسْ على رأس عدد من جنود مدينة "ذُو الْقَادِر" بولايـة "ديـار بكر". فحاصر "عُلَمَا بَاشَـا" مدينـة بِتْلِيسْ، وأمـر المدافع بقصف حصنهـا. وقـد انهارت جدران حصـن بِتْلِيسْ، وبينما كانت المدينة على وشـك السـقوط في يـده، جاء خبر وصول الشـاه "طهماسـب الأول" لمسـاعدة حاكم بِتْلِيسْ. وفي الوقت الذي كان فيه "شـرف خان" يسـير نحو بِتْلِيسْ ومعه القوات

الصفوية، اقترب الشـاه من مدينة "أَخْلَاطْ (*Ahlat*)"؛ إحدى مدن بِتْلِيسْ. فاضطر "عُلَمَـا بَاشَـا" لفك الحصار عن بِتْلِيسْ، والانسـحاب إلى "ديـار بكر". وفي هذه الأثناء، اسـتقبل الشـاه "شـرف خان" في "أخلاط"، وكافأه بمنحه لقب "شـرف خان" رسميًا. كما منحه الشاه إمارة كردستان بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٥٣٢م. وأعطـاه أيضًـا مدن أَخْـلَاطْ، و"مُـوشْ (*Muş*)"، و"خنـس (*Hınıs*)"، إلى جانب بِتْلِيـسْ. وكان من الأسـباب المهمة التي دفعـت العثمانيين لإعلان الحرب على الدولة الصفوية، فرض الشـاه "طهماسـب الأول" سـيطرته على بعض الإمارات الحدوديـة التابعـة للدولة العثمانية شـرق الأناضول، ومـن ناحية أخرى حصاره لمدينـة بغـداد والاسـتيلاء عليها بعد أن كانـت خاضعة للعثمانييـن وتُقرأ خطبة الجمعـة بها باسـم السـلطان العثماني. كما صدر مرسـومٌ من الديـوان العثماني بتجهيز حملة عسـكرية ضد إيران، عقب مفاوضات ومباحثات بين المسـؤولين العثمانيين.

أطول سفر للسلطان سليمان القانوني: المُضي نحو "العراقيْن"(٥٥)

عندما صدر قرار السـفر، شـرع السلطان سـليمان في إرسال الخطابات إلى كافة ممالكه، وبدأ بحشد جيوشه. بالإضافة إلى ذلك قام بإصدار فرمان بإرسال الأسـلحة والمدافع إلى "ديار بكر" مسـبقًا، واسـتعداد الحكام والقادة للسـفر. وتحـرك الصـدر الأعظم إبراهيم بَاشَـا من "أُوسْـكُودَارْ" يرافقه ٣٠٠٠ من جنود الإنْكِشَـارِيّة (٢ ربيـع الآخر ٩٤٠هـ / ٢١ تشـرين الأول/أكتوبر ١٥٣٣م). وقبل أن يصـل إبراهيم بَاشَـا إلـى "قونيـا (*Konya*)"(٥٦)، جـاءه نفرٌ من رجـال "عُلَمَا" وهـم يحملون رأس "شـرف خان". وكان "شـرف خان" قد اسـتعاد بلاده بدعم من الصفويين، كما ذكرناه آنفًا.

(٥٥) العراقيْـن: مصطلـح اسـتخدم فـي الفترة ما بين القرنين الحادي عشـر والسـادس عشـر الميلاديين علـى منطقتي عراق العرب (المنطقة السـهلية على حوض نهري دجلـة والفرات)، وعراق العجم (المنطقة الجبلية)، وكان يفصل بينهما سلسلة جبال "زاجروس". (المترجم)

(٥٦) قونيا: مدينة تقع وسط الأناضول بالقرب من العاصمة أنقرة حاليًا. (المترجم)

وكان الشاه "طهماسب الأول" قد أوكل إدارة جبهة أذربيجان إلى "شرف خان" في مواجهة العثمانيين، بينما كان في طريقه نحو "خُرَاسَانْ (*Horasan*)"، مطالبًا إيّاه بالتعامل بودٍّ مع العثمانيين خلال فترة غيابه، ووظّف بعض أمراء القزلباش لمساعدته إلا أن "شرف خان" لم يُصغ لنصائح الشاه، وأقدم على جملة من المحاولات للانتقام من أمراء الأكراد الَذين قدّموا الدعم إلى "عُلَمَا بَاشَا" و"فيل يعقوب بَاشَا"؛ أثناء حصار بِتْلِيسْ. فسار نحو مدينة "خيزان" في بِتْلِيسْ، وحاصرها. وبناءً على هذه التطورات، سارع كلٌّ من أمير "ديار بكر" "فِيلْ يعقوب بَاشَا"، الذي صدر إليه أمر التوجّه إلى بِتْلِيسْ للمرة الثانية، و"عُلَمَا بَاشَا"، الذي عُيّن أميرًا على "بِتْلِيسْ" لنجدة أمير "خِيزَانْ"، وتوجّها من هناك لمجابهة "شرف خان" الذي رفع الحصار عن "خيزان"، وانسحب إلى بِتْلِيسْ. وبعد أن اصطف الأمراء الأكراد في المنطقة إلى جانب "عُلَمَا بَاشَا" ضد "شرف خان"، واجه القوات العثمانية بالقوات التي حصل عليها من الصفويين والأمراء الأكراد التابعين له يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر١٥٣٣م عند موقع قلعة "تاتيك"، وقد ضعفت قواته بعد أن انتقل "محمودي أميرة بَكْ"، الذي كان يتبعه ويقف بجنوده على يساره، إلى صفوف العثمانيين الذين أداروا ظهرهم نحو الجبل وصاروا بمأمن أمام قوات العدو. ولقي "شرف خان" مصرعه إثر إصابته بطلق ناري، وعلمه بأن الأمراء الأكراد تجمعوا حول "شمس الدين الثالث" نجل "شرف خان"، وأعلنوا جميعًا ولاءهم التام للدولة العثمانية.

وقد تلقّى إبراهيم بَاشَا رأس "شرف خان" المقطوع وخطاب "عُلَمَا بَاشَا" عند مكان يُدعى "جينارلي"، ومنح شمس الدين بَكْ مدينة بِتْلِيسْ بصفتها إرثًا له ولأبنائه من بعده، كما أطلع السلطان على هذه الأحداث، وأخبره بأنه سيكافئ "عُلَمَا بَاشَا" على ما قدّمه من خدمات جليلة. ثم أكمل إبراهيم بَاشَا طريقه حتى وصل إلى "قونيا"، وتحرك متوجهًا إلى حلب ووصلها بتاريخ ٢٧ كانون الأول/ديسمبر١٥٣٣م. ورأى أنه يتحتم عليهم إقامة القوات العثمانية في حلب طوال فصل الشتاء، نظرًا لبرودة الجو القارس. وبينما كان إبراهيم بَاشَا يقضي الشتاء في حلب، أخضع لسيطرة العثمانيين مدن "اخلاط"، و"عادلجواز"، و"أرجيش"،

و"وَانْ" الواقعة في محيط بحيرة "وَانْ" بواسطة "عُلَمَا بَاشَا" الذي كان يقضي الشتاء بالقرب من "وَانْ"، وذلك عن طريق مبدأ "استمالة حكامها عبر إنفاق الذهب". وأما الشاه "طهماسب الأول" الذي قضى صيف عام ١٥٣٣م في حملة عسكرية ضد الأوزبك في مدينة "بلخ (*Belh*)"، فقد تراجع عن الحرب مع الأوزبك بعد أن فقد السيطرة على بِتْلِيسْ وخضوع "وَانْ" والقلاع المجاورة لها للعثمانيين، وأعدّ العدّة للحرب. إلا أنه كان يفضل عدم مواجهة قوة العثمانيين العسكرية الساحقة بل يسعى لهدم معنوياتهم من خلال تخريب الطرق التي يسلكونها وخوض حرب استنزافية ضدهم.

كان الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا يرنو إلى مغادرة حلب إلى بغداد للاستيلاء عليها. ومن أجل هذا الغرض أمر بحشد جنود ولاية الأناضول في مدينة "آميد"(٥٧). وتحرك من حلب ووصل إلى "آميد" يوم ١٤ أيار/مايو. وبينما كان متواجدًا في "آميد"، بدأت حشود جنود ولايات الأناضول، وقارامان، والروم، ودُو الْقَادِر في الالتحاق به أفواجًا. كما أن حاكم مدينة بِتْلِيسْ شمس الدين بَكْ قدِم إلى "ديار بكر" بالهدايا، والتحق بخدمة إبراهيم بَاشَا، وشارك في هذه الحملة. واستمر تجمع الجيش في "آميد" لفترة تراوحت بين ٤٠ و ٥٠ يومًا، فيما كان "عُلَمَا بَاشَا" ينتظر في تلك الأثناء بالقرب من "وَانْ" استعدادًا للتوجّه إلى "تبريز".

كان إبراهيم بَاشَا يريد التحرك من "ديار بكر" إلى "الموصل (*Musul*)" تمهيدًا لدخول بغداد. إلا أنه وفي ذلك الحين تقرر السير نحو "تبريز" بفكرة طرحها "عُلَمَا بَاشَا"، وبدعم كامل من "إِسْكَنْدَرْ شلبي" الذي كان يتولّى منصب أمين الخزانة في روملي، وخدم في وظيفة الياورية لدى الصدر الأعظم. ذلك لأن "عُلَمَا بَاشَا" كان قد أخبره بأن الشاه غادر "تبريز" متوجهًا صوب "خراسان"، وليس لديه نية للعودة، وعليه فبإمكانهم إخضاع أذربيجان لسيطرتهم بسهولة ويسر. وأما إبراهيم بَاشَا فقد وافق على تلك الفكرة بتأثير من الشخصيات

(٥٧) مدينة "ديار بكر" اليوم. (المترجم)

البـارزة التي كانت تنتسـب إلـى الصفويين، وانضمت لاحقًا لصـف العثمانيين، وكذلك "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي"، إلا أنه أعرب عن مخاوفه في هذا الصدد، وذكر أنه لا يوجـد جنـودٌ يمكـن قتالهم في "تبريز"، ولهذا السـبب فسـيكون عيبًا الإغارة علـى بلـدٍ فـارغ لا يجد مـن يدافع عنه، مشـيرًا إلى أنهم لن يسـتطيعوا إخضاع "تبريز" للسيادة العثمانية بمعنى الكلمة، وأما "بغداد" فلم تكن قد خضعت للولاء الصفوى بشكل كامل، ولذلك فإن الاستيلاء عليها سيكون أيسر من وجهة نظره. لكن فكرة إبراهيم بَاشَـا الصائبة هذه قوبلت بفكرة ترى أن السيطرة على "تبريز" ستسـهم في سـقوط بغداد تلقائيًّا فـي أيدي العثمانيين. وقد كانـت هذه الفكرة، والإغـراء الذي يتسـم به لقب "فاتـح أذربيجان" اللامع دافعًا كـي يغير إبراهيم بَاشَا فكره ويغزو "تبريز".

وفـي نهايـة الأمر، انطلق إبراهيم بَاشَـا مـن مدينة "آميد" مركـز ولاية "ديار بكـر" نحو "تبريـز". وبينما كان الجيـش يقترب من مدينـة "وَانْ"، أعلن حاكمها الصفوي إذعانه للعثمانيين، وأرسل مفاتيح المدينة إليهم (١١ ذي الحجة ٩٤٠هـ - ٢٣ حزيران/يونيـو ١٥٣٤م). هـذا إلـى جانـب أن الجيـش العثمانـي أخضـع لسـيطرته العديد من القلاع المجاورة حتى وصل إلى مدينة "وَانْ". ومـع سيطرة العثمانيين على "وَانْ"، صاروا يتمتعون بمكانة بارزة للغاية في شـرق الأناضول. وكمـا سـنرى لاحقًا، فإن هذه القلعة سـتلعب دورًا هامًا فـي العلاقات العثمانية - الصفويـة فـي المسـتقبل. ومنـح إبراهيم بَاشَـا مدينـة "وَانْ" إلى أمير دمشـق "خُسْـرَوْ بَاشَـا". كما قدّم "أميرة بَكْ محمودي"؛ حاكم قلعة "سيافان (*Siyavan*)" ("أُورْطَانْجَـه (*Ortanca*)") مفاتيـح القلعـة إلى العثمانيين. وقـد اعترفت العديد مـن القـلاع بالسـيادة العثمانية خلال الأيـام اللاحقة. ووصل الجيـش العثماني إلـى مدينـة "بِينْجُـولْ (*Bingöl*)"، ومكـث بهـا ٢٠ يومًـا. وقـد التحـق بالجيش العثماني بعض الأمراء الأكراد في "بِينْجُولْ"، وتحركوا صوب "تبريز". واسـتطاع الجيـش العثمانـي دخول تبريـز دون قتال بتاريخ ١ المحـرم ٩٤١هـ (١٣ تموز/ يوليو١٥٣٤م). واسـتقبل حشـدٌ مـن أهالي "تبريـز" الجيشَ العثمانـي بينما كان في طريقه نحو المدينة. وأما إبراهيم بَاشَا فآثر عدم دخول المدينة، ونصب خيمته

في سـهل "سـعد آبـاد". وعيّن نفرًا مـن الجنود لحماية الأمن العـام في المدينة، وأسكنهم هناك، كما وظّف قاضيًا بها، وأمر بترميم المكان الذي يوجد به ضريح "غـازان خان" أحد ملـوك "الإيلخانييـن"، وأنقاض القلعة القديمـة المحيطة به، وعيّن بعض الجنود داخلها أيضًا.

وبينما كان إبراهيم بَاشَا في "تبريز"، وقعت معركة "قِزْلْجَادَاغْ (*Kızılcadağ*)". وقـد تعرّضـت قـوة عثمانيـة قوامهـا ١٠ آلاف جندي لخسـائر فادحـة في تلك المعركة. وقد تمت هذه الحملة العسـكرية بقرار من "إِسْـكَنْدَرْ شَـلَبِي" و"عُلَمَا بَاشَا"، إذ عرضا الأمرَ على إبراهيم بَاشَا وقالا له:

> "إن الوكـر الرئيسـي للصـوص وقاطعي الطريق في هـذا البلد هو مرعى قِزْلْجَـادَاغْ، ومـن السـهولة بمـكان الوصـول إلـى هناك وتدميـر قواهم بمساعدة بعضٍ من الجنود".

وعليـه حصلا على موافقة من البَاشَـا للقيام بهذه الحملة. ووفق رواية أحد المؤرخين العثمانيين، فقد أوضح "عُلَمَا بَاشَا" بقوله:

> "هي بلدٌ مزدهر كثيرًا، ادخلوا أنتم لاغتنام الغنائم، وسـأكون أنا حارسًـا عليها من الخارج".

وقد وضـع الجنود العثمانيين في مأزق كبير، وتسبب في هلاكهم.

وقد اسـتولى إبراهيم بَاشَـا على دولة أذربيجان بالسيطرة على قلاع "آلِينْجَا (*Alınca*)" القريبـة من "تبريز"، و"جُوغَرْجينليك (*Güğercinlik*)" الواقعة شـمال غـرب بحيـرة "أُرْمِيَـة (*Urmiye*)"، و"صَـارِي قُورْجَـانْ (*Sarı-kurgan*)" الواقعة فـي الجنـوب الشـرقي وغيرها من الأماكـن، وعيّن واليًا علـى كل قلعة من هذه القـلاع... حُوّلـت "تبريز" بعـد ذلك إلى إمـارة ومُنحت لـ"عُلَمَا بَاشَـا"، وأُعطي شـقيقه "ولي" إقليـم "نَاخْيتشِـيفَان (*Nahcıvan*)"، ومُنحت "مَرَاغَـه (*Meraga*)" إلـى "ولي جان" أحد "تركمان التكّة"، وأُعطيـت مقاطعات "أَرْدَبِيلْ (*Erdebil*)"، و"سَـرَاوْ (*Serav*)"، و"مسـكين" إلـى علـي بَكْ. كما بعـث إبراهيم بَاشَـا خطابًا

إلى السلطان قصّ خلاله كيفية دخول "تبريز" والاستيلاء عليها، وعلى ما حولها من مدن، وذكر أنهم حوّلوا مدن "هَمَدَانْ (*Hemedan*)"، و"كَاشَانْ (*Kâşân*)"، و"قُمْ (*Kum*)"، و"شَافْ (*Şav*)"، و"الرَيْ (*Rey*)"، و"شَهْرِيَارْ (*Şehriyar*)" التابعة لعراق العجم إلى مقاطعات بصورة نظرية، وعيّنوا على كل واحدة منها أميرًا بشكل رمزي. وفي هذه الأثناء، وبينما كان الجيش العثماني في "تبريز"، أعلن حاكم "جِيلَانْ" مظفّر خَانْ ولاءه للدولة العثمانية ومعه ١٠ آلاف جندي مشاة، كما أعلن كلٌّ من "مراد بَكْ"؛ أحد أفراد قبيلة "آق قُويُونْلُولَرْ (*Akkoyunlular*)" التركمانية، و"سلطان خليل الثاني"؛ أحد شاهات شيروان، ولاءهم للعثمانيين كذلك.

زيادة نفوذ "خُرّم سلطان"

كان السلطان سليمان يتواجد في العاصمة إسطنبول بينما كان إبراهيم بَاشَا لا يزال في "ديار بكر"، وكان يسعى لإتمام استعداداته للسفر. إلا أنه رغب في تنفيذ بعض المهام الضرورية في غياب إبراهيم بَاشَا، وكان أبرز تلك المهام هي إرسال أكبر أبنائه مصطفى إلى إحدى الولايات لمزاولة المهام الإدارية، بحسب ما تقتضيه قواعد الأسرة العثمانية. وأدّى غياب إبراهيم بَاشَا عن العاصمة إلى تحمّل السلطان سليمان كافة المسؤوليات الهامة بنفسه، كما كان الحال في الأمور الحاسمة السالفة. وربما أن مصطفى ووالدته "مَاهِي دَوْرَانْ" وإبراهيم بَاشَا قد شكّلوا جبهة مناهضة لزوجة والده الثانية "خُرّم سلطان" والفريق المعاون لها. إلا أن أحدًا لم يكن بإمكانه ألبتّة تحديد ماهية هذه الجبهة بالاعتماد على المصادر المتاحة في هذا الصدد. وقد منح إيفاد مصطفى إلى ولاية "مَانِيسَا"؛ التي يُرسل إليها فقط المرشحون الأقوياء لخلافة سلاطين آل عثمان، أملًا كبيرًا لوالدته "مَاهِي دَوْرَانْ" وأنصاره حول تعيينه كوليّ للعهد في المستقبل. وبإمكاننا الاعتقاد بأن والدة السلطان "حفصة سلطان" كان لها تأثيرٌ عظيم في اتخاذ هذا القرار. إلا أن مغادرة مصطفى ووالدته التي سيتوجّب عليها مرافقة ابنها، سيثلج صدر "خُرّم سلطان" كثيرًا، وسيجعلها الآمرة الناهية

في القصر. وكان وجود "حفصة سـلطان" داخل القصر يبدو وكأنه سيقف حائلًا أمـام تحقيـق تطلعاتها التـي ترنو إليها ولو بشـكل مؤقت. ولربمـا كانت "مَاهِي دَوْرَانْ" تنظـر إلـى تواجـد "حفصة سـلطان" داخل القصر على أنه عزاء بالنسـبة لها بينما كانت هي في طريقها نحو "مَانِيسَا" برفقة ابنها. وانطلق الأمير مصطفى مـن إسـطنبول صـوب "مَانِيسَـا" ترافقه والدته ونفرٌ من رجاله في شـهر شـعبان من عام ٩٤٠هـ (شباط/فبراير ١٥٣٤م).

ويمكننـا القـول إن السـلطان كان يشـعر بالفخـر لخـروج ابنـه الأكبـر إلى إدارة إحـدى الولايـات. إلا أن فرحته تلك لم تـدم طويلًا، إذ توفّيتْ أمه حفصة سـلطان بتاريخ ٤ رمضان ٩٤٠هـ (١٩ آذار/مارس ١٥٣٤م)، فحزن عليها كثيرًا. وأسهمت هذه الأوضاع في جعل "خُرّم سلطان" صاحبة الكلمة الأولى والوحيدة فـي جناح حَرَم القصر. فكانت قد سُـرّت للغاية لمغـادرة "مَاهِي دَوْرَانْ" القصر، كمـا أكسـبتها وفاة والدة السـلطان بعد ذلك مباشـرة، قوةً ونفـوذًا كبيرين داخل القصـر، وتخلصـت مـن ثلاثة منافسـين هامين كانـوا يقفون فـي طريقها. وكان إبراهيـم بَاشَـا فـي السـفر، وكانـت زوجته تخبـره بكل مـا يحدث فـي القصر. وكمـا يُفهـم مـن خطاباتهمـا المتبادلة، فـإن جناح الحَـرَم والقصـر بصفة عامة كانـا يشـهدان تطورات كبيرة في تلـك الأثناء، وكانت الأجـواء المحيطة توحي بتوتـر الأوضـاع بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فقد عبّر إبراهيم بَاشَـا في أحد خطاباته التي أرسـلها إلى زوجته عن رغبته في ابتعادها عن القصر. وكانت كل هـذه الأحـداث تعني أن "خُرّم سـلطان" أعلنـت انتصارها بشـكل واضح. وقد وقف السـلطان سـليمان إلى جانب "خُرّم سـلطان" خلال هذه التطورات. حتّى ربمـا كان سـقوط إبراهيم بَاشَـا من نظـره قد حدث في ذلـك التوقيت بالضبط. وفـي هـذه الأثنـاء، اسـتقبل السـلطان "بَرْبَـرُوسْ خَيْـرَ الدين بَاشَـا" الـذي وفد إلى إسطنبول لقيادة الأسطول العثماني.

خدمات "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَا" ووصوله إلى إسطنبول

اسمه الحقيقي هو "خضر"، وكان يمارس أعمال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط برفقة شقيقه الأكبر "أُورُوجْ رَئِيسْ (*Oruç Reis*)"، حتى ذاعت شهرتهما بتخويف السفن المسيحية العابرة لمياه المتوسط. وهذان الأخوان هما ابنا فارس يُدعى "يعقوب" كان والده وجده فارسيْن من أصحاب الإقطاعيات. وقد سكن "يعقوب" جزيرة "مِيدِلْلِي (*Midilli*)" اليونانية بعد أن فتحها العثمانيون. وكان لديه ولدان آخران يحملان اسمي "إسحق"، و"إلياس". وقد شغف ابنه أُورُوجْ بركوب البحر، وبدأ في ممارسة القرصنة، وضم أخيه "إلياس" إلى جانبه. ثم بعد ذلك شرع "خضر" في مزاولة القرصنة هو الآخر على متن سفينة منفصلة. وكان "أُورُوجْ رئيس" يزاول أنشطته في سواحل شرق البحر الأبيض المتوسط، أي سواحل الأناضول، وسوريا، ومصر، وأما "خضر" فعمد إلى ممارسة أنشطته في بحر "إِيجَه" وسواحل مدينة "سَلَانِيكْ" اليونانية. وبينما كان "أُورُوجْ رئيس" في إحدى رحلاته عائدًا من طرابلس الشام، تعرّض لإغارة بعض فرسان جزيرة "رودس"، فسقط أسيرًا في أيديهم، فيما لقي شقيقه "إلياس" مصرعه. ونقل فرسان رودس "أُورُوجْ رئيس" وسجنوه في قلعة مدينة "بُودْرُمْ" الساحلية جنوب غرب الأناضول، لكنه نجا من الأسْر بعد ذلك على يد أخيه "خضر". وبعد أن خرج من الأسْر، عمل "أُورُوجْ رئيس" لدى خدمة المماليك لفترة. أعقب ذلك حصوله على إذْن من حاكم ولاية "أنطاليا" الأمير "قورقوت" لمعاودة ممارسة أنشطة القرصنة في البحر المتوسط، وانطلق ليأخذ ثأره من فرسان "رودس". ثم بعد ذلك، انتقل لمزاولة نشاطاته بالقرب من سواحل إيطاليا، بناءً على توصية من "قُورْقُودْ (*Korkud*)" الذي نُصِّب حاكمًا على مدينة "صَارُوخَانْ". ثم ذهب إلى السواحل المصرية بعد أن أقدم الأمير "قورقوت" على الدخول في صراع على السلطنة، واتحد مع شقيقه "خضر رئيس" الذي كان يعمل في المنطقة الواقعة بين "طرابلس الغرب (*Trablusgarb*)" وتونس.

وبـدأ الشـقيقان فـي التحرّك جنبًا إلى جنب، وأسّسـا أسـطولًا صغيـرًا، واختارا السـواحل التونسـية والجزائريـة كسـاحة لمزاولـة أعمالهمـا. وقدّمـا الهدايـا إلى سـلطان تونس "أبو عبد الله محمد" المنحدر من أسـرة "بني حفص"، وطلبا منـه منحهمـا ميناء "حلـق الـوادي" ((Goulettа) *Halkulvâd*) كمحل لإقامتهما فـي تونـس. وقـد وافـق سـلطان تونـس على هـذا المطلـب شـريطة الحصول على خُمس الغنائم التي يغنماها.

وقد اكتسب الأخوان أُورُوجْ و"خضر" شهرة واسعة النطاق، وبدآ في جمع القراصنـة الأتـراك المشـهورين حولهمـا، بحيـث كان من بين هـؤلاء القراصنة "مصلـح الديـن قـورد أوغلـو (*Kurdoğlu*)" و"محيـي الدين" ابن شـقيق "كمال رئيس". وشـرع الأخوان أُورُوجْ و"خضر" في العمل في مجال القرصنة البحرية لحسـابهما الخاص، ولـم يُهملا إرسـال الهدايا أيضًا إلى السلطان العثماني. كما أهدى "أُورُوجْ رئيس" الهدايا إلى السـلطان سـليم الأول بواسـطة "محيي الدين رئيس" عام ١٥١٥م. وفي مقابل ذلك، أرسل السلطان إليهما سفينتين مجهّزتين بكافة المعدات. وعليه فقد دعّم الأخوان أُورُوجْ و"خضر" وضعيهما، وشرعا في ترسيخ دعائم سيطرتهما على سواحل الجزائر. وكان الإسبان هم أكثر الأطراف انزعاجًـا مـن هذه التطورات، فرغبوا في طرد القراصنة الأتراك من هذه المنطقة. حتى إنهم فكّروا بجدية في احتلال الجزائر.

وقد لجأ عدد من الإسبان المقيمين في الجزائر إلى جزيرة "بينون (*Penon*)" المقابلـة للسـاحل الجزائري، وطلبـوا العون من ملك إسـبانيا "كَارْل الخامس". لكن ملك إسبانيا فشل في إخراج القراصنة الأتراك من الجزائر. وحاول الإسبان مجـددًا التخلـص مـن القراصنة الأتـراك، فتحالفوا مـع أمير مدينة "تلمسـان"، وأرسـلوه ليواجـه "أُورُوجْ رئيـس"، فوصـل هذا النبـأ مبكرًا إلـى أُورُوجْ فاتخذ تدابيره وأخضـع "تلمسـان" لسـيطرته. فهرع أميرها إلى الإسـبان، وحصل منهم على الدعم العسـكري الذي حاصر به المدينة. ودافـع أُورُوجْ عن المدينة سـبعة أشهر متواصلة، وخرج في غزوة للتخلص من حصار الجنود المسلمين من أهل

شـمال إفريقيا التابعين للإسبان وأمير "تلمسان"، إلا أنه أُصيب بجرحيْن، وسقط شهيدًا عام ١٥١٨م.

انتقـل حكـم الجزائر إلى "خضر رئيس" إثر وفاة "أُورُوجْ رئيس". ومن الآن فلاحقًا، فإن الأوربيين سـيذكرون "خضر رئيـس" بلقب "بَرْبَرُوسْ (*Barbaros*)" الـذي يعتبـر الصيغـة المفككة من اسـم "بابا أُورُوجْ"، وسـيطوي التاريخ اسـم "خضر"، وسيذيـع صيت لقب "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين". كان "خضر رئيس" يتواجد في الجزائر بينما لقي أخوه أُورُوجْ مصرعه، وقد بدأ الإسبان والعرب المنتسبون لأميـر "تلمسـان" فـي إعداد العـدة للانطلاق نحـو الجزائر التي يقيـم بها خضر رئيـس، بعـد أن اسـتولوا على "تلمسـان". وفي تلـك الأثنـاء، كان "خضر" يعدّ العـدّة لصد هجـوم الأعداء. وحاصر الإسـبان الجزائر من البـر والبحر. ونجح بَرْبَرُوسْ في الصمود أمامهم، وتمكّن من تكبيدهم خسائر فادحة خلال الهجوم الـذي قامـوا به بقوة عسـكرية قوامهـا ٢٠ ألف جنـدي، حتى إنه لـم ينج منهم سـوى ٣-٤ آلاف من الجنود. هذا إضافة إلى أن أمير تلمسـان "أبو حمو الثالث (*Ebu Hamu.III*)" الـذي شـن هجومًا برّيًّـا اضطر للهروب من ميـدان المعركة حيـن تعـرض لهزيمـة سـاحقة. إلا أنه وعلى الرغـم من كافة هـذه الانتصارات التي حققها بَرْبَرُوسْ، فإنه آثر الرجوع إلى الإدارة العثمانية لعدم شعوره بالأمان فـي مواجهـة هجمـات العناصـر المحليـة والإسـبان، ولتيقنـه من أنه لـن يقدر علـى تحمّـل اعتداءاتهـم مـع مرور الوقت. وللسـبب ذاته، أرسـل وفـدًا برفقة أربـع سـفن وعدد من الأسرى كهدية إلى السلطان العثماني عام ١٥١٩م. فامتنّ السلطان العثماني وقتها "سليم الأول" من هذا التصرف، فبعث إليه بقفطان أمير الأمـراء، وعـدد كبير من السـفن الحربية ومسـتلزماتها، إضافةً إلـى ٢-٣ آلاف جندي. كما سـمح له بتجميع جنود من ولايات الأناضول كيفما شـاء. ويُظهِر هذا السـلوك أن السـلطان سـليم الأول تعرّف جيدًا على بَرْبَرُوسْ، وسـعد كثيرًا بانتصاراتـه، لذلـك أولاه اهتمامًا خاصًا. هذا إلى جانـب أنه أثبت بُعدَ نظره مرة أخرى في هذا الصدد.

إن دخول بَرْبَرُوسْ في خدمة العثمانيين أزعج حكام تلمسان وتونس، حتى إنهم بدؤوا في تحريض شعب الجزائر على القيام بثورة. ونما إلى سمع بَرْبَرُوسْ ما يُحاك ضده خفيةً، فهرع إلى القبض على قادة الثورة المضادة وتخلص منهم. ولما لم يحصل مناهضو بَرْبَرُوسْ على نتيجة من هذه الثورات، شرع الإسبان في الهجوم هذه المرة، إلا أن بَرْبَرُوسْ نجح في كبح جماح هجومهم. ثم واصل حكام تلمسان وتونس الذين اتحدوا ضده، تحريض الشعب الجزائري للثورة ضد بَرْبَرُوسْ، فتمخّض عن ذلك نشوب معركة بين قوات بَرْبَرُوسْ وحكام تونس، وخلال هذه المعارك انتقل شخصان يدعيان محمد بَكْ و"ابن القاضي" - وهما من الجزائريين التابعين لقوات بَرْبَرُوسْ- إلى صفوف العدو. وكان هناك في تلك الأثناء شقيق لحاكم تلمسان يُدعى "مسعود"، لم يتفق مع أخيه، فعاونه بَرْبَرُوسْ على بسط سيطرته على تلمسان. إلا أن هذا الرجل انقلب على بَرْبَرُوسْ وأدار له ظهره، بعد أن لجأ إليه في بادئ الأمر وأحسن إليه بَرْبَرُوسْ وسانده في تولّي السلطة في تلمسان. فسارع بَرْبَرُوسْ-في مقابل ذلك-إلى تعيين شقيق لـ"مسعود" يُدعى "عبد الله" أميرًا على تلمسان، إضافةً إلى ذلك أيده بقوة من الجنود الأتراك قوامها ٢٥٠ جنديًّا لحمايته وحماية مدينته ضد قوات العدو. وبهذه الطريقة، فقد أخضع بَرْبَرُوسْ مدينة تلمسان لسيطرته المطلقة.

ولكن على الرغم من ذلك كله، كانت هناك بعض القبائل التي لا ترغب في تشكيل بَرْبَرُوسْ إدارةفي الجزائر وتونس وتلمسان، فلم تتورّع قيد أنملة عن مضايقته ومشاكسته بتشجيع من الإسبان. كما أن "ابن القاضي" هاجم بَرْبَرُوسْ بتحريض من حاكم تونس، لكن هجومه باء بالفشل. وقوبل بعدها بَرْبَرُوسْ بثورة من الشعب الجزائري، إلا أن الثوار تعرضوا لهزيمة نكراء بعد اعتدائهم على القصر، وأُعدم زعماؤهم شنقًا. لكن هذه التطورات لم تسهم بشكل أو بآخر في استقرار الجزائر. فبدأت الخلافات تدبّ في الجزائر، وظهرت بوادر فتنة جديدة بين السكان العرب المحليين والأتراك، كما فقدت الجزائر بعضًا من القلاع التابعة لها، وبالتالي انخفضت الإيرادات الواردة لخزينة الدولة. كل ذلك دفع بَرْبَرُوسْ لاتخاذ قرار بمغادرة الجزائر، فانسحب إلى مدينة "جيجل

(*Çiçel*)" الواقعة على بعد ٦٠ ميلًا شرق مدينة "بجاية (*Becaye*)" الجزائرية، وعاود ممارسة مهنة القرصنة البحرية هناك (١٥٢٤م).

نجاحات بَرْبَرُوسْ وإنقاذه للمسلمين من الظلم والطغيان

لقد مرّت هذه الفترة من حياة بَرْبَـرُوسْ أثناء مزاولته مهنة القرصنة البحرية بالعديد من النجاحات الجديرة بالملاحظة، إذ استطاع تحقيق العديد من الإنجازات المذهلة خلال تلك الفترة وهو لا يمتلك سوى قلّة من القوات المحدودة. فعلى سبيل المثال، أغارت ٧ سفن تحت قيادته على أسطول مسيحي مكون من ٩ سفن، ونجح في إغراق سفينة من أسطول العدو، وأسْر الثماني الباقية. كما أنه نجح في مهاجمة أسطول كبير من السفن المسيحية بدعم من ٩ سفن فقط، وأحرق العديد منها. ولقد تكلّلت نجاحاته تلك بانضمام ١٠ قراصنة أتراك -من بينهم "آيدن (*Aydın*) رئيس" و"شعبان رئيس"- يرافقهم أسطول ضخم مكون من ٤٠ سفينة، إلى قواته. وبذلك فقد ازدادت قوة بَرْبَرُوسْ وذاع صيته خلال فترة وجيزة، أعقب ذلك خروجه في حملة عسكرية صوب الجزائر التي كان يحكمها في السابق. والسبب في ذلك أن حاكم الجزائر "ابن القاضي" عارض دخول المسلمين القادمين من إسبانيا إلى سواحل إفريقيا، فتقدم هؤلاء المسلمون بشكوى إلى بَرْبَرُوسْ يستنجدون به. فانطلق بَرْبَرُوسْ إلى الجزائر، وتغلّب على "ابن القاضي" الذي كان يدافع عن قلعته بقوة عسكرية قُدِّرت بعشرين ألف جندي، واستعاد حكم الجزائر، وبهذا النصر يكون قد عمد إلى الوقوف إلى جانب المسلمين هناك والعمل على حل مشاكلهم. وبذلك فقد قضى على كافة معارضيه في الجزائر بمن فيهم حاكمها السابق "ابن القاضي".

إن عودة بَرْبَـرُوسْ مجددًا إلى الجزائر وإقامته بها حدث بعد فترة من البُعد دامت ثلاث سنوات. وعندما أحكم سيطرته مرة أخرى على الجزائر، أرسل رسولًا إلى حاكم تلمسان "عبد الله" كأول إجراء يقوم به، وطالبه بسداد الضرائب التي يدفعها سنويًا. لكن "عبد الله" أبى سداد الضرائب، فتقاتل الطرفان، وغُلب حاكم تلمسان، واضطر مجبرًا لدفع الضرائب. ثم بعد ذلك نجح بَرْبَرُوسْ

في بسـط نفوذه على جزيرة "بينون" أو "أدا قلعة (*Adakale*)" المقابلة للسـواحل الجزائريـة. وهـذه الجزيـرة كان يحكمهـا الإسـبان، وكان بهـا قلعـة محكمـة التحصين. وفي الحقيقة، فإن الإسبان فكّروا في السيطرة على الجزائر عبر اتخاذ هـذه الجزيـرة مقـرًا لهم. كما أن الإسـبان عمدوا إلى قصـف الجزائر بالقذائف المدفعيـة أثنـاء الأذان محاولين كتم صـوت الأذان بأصـوات قذائفهم، وهدّموا منـارات المسـاجد بقذائف مدافعهم. فشـرع بَرْبَـرُوسْ في اتخاذ بعـض التدابير الوقائيـة ضـد هـذه الهجمـات، كأول عمل قـام به بعد السـيطرة علـى الجزائر، حتي أُجبر الإسـبان على التراجع عن تنفيذ هذه الهجمات العدائية. والآن، فإن بَرْبَـرُوسْ يرى أنه من الضروري الاسـتيلاء علـى هذه الجزيرة التي تحمل أهمية كبيـرة بالنسـبة للجزائر لقربها منها. وسـعيًا لتنفيذ هذا الغرض، طالب الإسـبان بتسليم الجزيرة في البداية، لكنهم لم يستجيبوا له. فحاصرها وقصفها بالمدافع على مدار أسبوع كامل.

وفـي النهاية، خضعت الجزيرة لسـيطرته عام ١٥٣٠م. أمـر بعدها بَرْبَرُوسْ بهـدم حصون جزيرة "بينون"، واسـتخدام حجارتها فـي صناعة طريق يربط بينها وبيـن أراضـي الجزائر عبـر البحر. وبهـذه الطريقـة، أدّى اتحاد جزيـرة "بينون" بأراضـي الجزائـر إلـى تأسـيس مينـاء جديد للجـوء السـفن إليه عنـد الحاجة. وفي هذه الأثناء، قدِم أسـطول إسـباني لنجدة الجزيرة، إلا أنه عاد أدراجه عندما رأى أن قلعة الجزيرة قد سُـوِّيت بالأرض. لكن سـفن بَرْبَرُوسْ الحربية تعقّبت السـفن الإسـبانية، واسـتطاعت أسْـر ٩ منها تحمل اسـم "بَارْجَا (*barça*)" التي تعتبر أكبر من سفن بَرْبَرُوسْ حجمًا. وقد أخبر أحد القادة الأسرى من الأسطول الإسباني بَرْبَرُوسْ بأن ملك إسبانيا "كَارْل الخامس" ذهب في رحلة إلى إيطاليا، فأمر بَرْبَرُوسْ بتحرك أسـطوله بقيادة "آيدن رئيس" نحو سواحل أوروبا. فقصف "آيدن رئيس" سواحل مدينتي "مرسيليا (*Marsilya*)" و"نيس (*Nice*)" الفرنسيتين، وأَسَرَ أسطولًا إسبانيًّا مكونًا من ١٥ سفينة كانت مكلَّفة بحماية سواحل إسبانيا،

وذلك عبر السيطرة على سفينة الأميرال[٥٨]. ثم عاد "آيدن رئيس" إلى الجزائر يحمل الغنائم والسفن التي أسرها في رحلته إلى أوروبا.

كانت هذه الأعمال التي يقوم بها بَرْبَرُوسْ في عرض البحر الأبيض المتوسط، وكذلك النجاحات التي حققها في هذا الإطار، قد أزعجت الإمبراطور "كَارْل الخامس" الذي كان يمتلك أراضي مترامية الأطراف، وكان يسعى جاهدًا لكي يصير أكبر زعيم في القارة الأوروبية. وقد عقد الإمبراطور الإسباني مجلسًا للتشاور حول قضية بَرْبَرُوسْ، والعمل على إيجاد حل للتحرك بأريحية أكبر في مياه البحر المتوسط. واتخذ المجلس قرارًا بتعيين الإيطالي "أندريا دوريا"؛ أحد أكبر وأشهر أمراء البحار في زمانه، في مهمة وقف ممارسات بَرْبَرُوسْ في البحر المتوسط، والتخلص منه بأي طريقة. وكان "دوريا" ينتسب إلى أسرة عريقة بمدينة "جنوة" الإيطالية، وقد التحق بالعمل في البحر منذ أن كان شابًا يافعًا في التاسعة عشرة من عمره، إذ لم يمكث في مكان واحد لمدة طويلة، بل خدم العديد من الحكام والأمراء في مختلف البلدان. وكان من بين البلدان التي خدم بها الفاتيكان، ونابولي، وفرنسا وغيرها من الدول. وقد دخل مؤخرًا في خدمة الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وكان عمره عندما كُلِّف بردع بَرْبَرُوسْ ستين عامًا. وتيقّن "دوريا" من أن القوات التي يقودها ليست كافية للدخول في نزال ضد بَرْبَرُوسْ، فحصل على دعم من الفرنسيين قوامه ٢٠ سفينة إضافية، وانطلق إلى مياه البحر المتوسط وتحت إمرته أسطول مكون من ٦٠ سفينة. وبمجرد أن علم بَرْبَرُوسْ بتحرك أسطول العدو، انطلق على رأس أسطول مؤلف من ٤٢ سفينة، كان يمتلك ٣٥ منها، وحصل على السبع الباقية من رفيقه "سنان رئيس". إلا أن الطرفين لم يعثرا على بعضهما البعض في عرض البحر، فوصل "دوريا" إلى مدينة "شرشال" وأنزل جنوده إلى الساحل، وتطلع إلى الاستيلاء على المدينة. لكن المدافعين عن المدينة، خرجوا من قلعتها، وقاتلوا قوات "دوريا"، وقتلوا منهم ١٤٠٠ جندي، وأسروا ٦٠٠ آخرين.

(٥٨) أي: قائد الأسطول. (المترجم)

واضطر البحار الإيطالي للانسحاب، وانطلق على رأس أسطوله عائدًا إلى إسبانيا. وأما بَرْبَرُوسْ فتقدّم حتى وصل بالقرب من سواحل جزيرة "مايورقة (*Mayorka*)" الإسبانية، لكنه انحرف بأسطوله تجاه السواحل الفرنسية لعدم مقابلته للأسطول الإسباني في مياه البحر، وغنم الغنائم من مدينتي "مرسيليا" و"تولون (*Tulon*)" الفرنسيتين. وبينما كان عائدًا من فرنسا، نما إلى سمعه ما حدث لأسطول "دوريا". وفي تلك الأثناء، صادف بَرْبَرُوسْ سفينتيْن محمّلتيْن بقوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف جندي كان قد طلبها "دوريا" من إيطاليا إبان وصوله إلى سواحل إسبانيا. فأرسل إليهم "سنان رئيس" الذي استطاع الاستيلاء على هاتين السفينتين. وفور أن علم "دوريا" بما حدث لقوات الدعم التي طلبها من إيطاليا، خرج من مضيق "جبل طارق"، ولجأ إلى ميناء مدينة "إشبيلية". وأما بَرْبَرُوسْ لم يُلق بالًا لتعقّب "دوريا"، وآثر العودة إلى الجزائر.

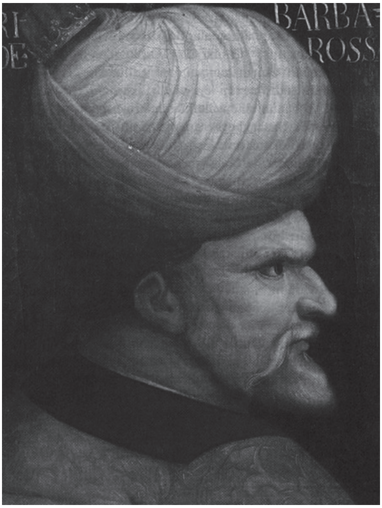
كان السلطان سليمان يتابع باهتمام بالغ جميع الأعمال التي يقوم بها بَرْبَرُوسْ منذ أول وهلة لصعوده إلى عرش السلطنة. وكان بَرْبَرُوسْ يرسل إلى السلطان الأنباء التي تتحدث عن الأعمال التي يقوم بها والانتصارات التي كان يحرزها، وكان يبعث إليه كذلك بالغنائم والهدايا الثمينة. علاوةً على أن السلطان سليمان كان يحصل على الأخبار ذات الصلة بالأوضاع السائدة في منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط بشكل متواصل من بَرْبَرُوسْ. حتى إنه بعث إليه برقيب يُدعى مصطفى، وطلب منه أن يبلغه بماهية اتفاقية السلام الموقعة مع فرنسا، وموقف هذه الدولة في تلك الفترة. وكما ذكرنا آنفًا، فقد أرسل الإمبراطور "كَارْل الخامس" البحّار "دوريا" إلى "مورا (*Mora*)" عام ١٥٣٢م بينما كان في طريقه صوب ألمانيا. وفيما كان "دوريا" يحاصر قلعة "قولون" في "مورا"، كان بَرْبَرُوسْ يقاتل أمير تلمسان "عبد الله". فهاجم بَرْبَرُوسْ أمير تلمسان من البر والبحر، وهزمه هزيمة نكراء. وتمكن "عبد الله" من عقْد اتفاقية صلح مع بَرْبَرُوسْ في مقابل سداد ٣٠ ألف قطعة ذهبية. أعقب ذلك تحرك بَرْبَرُوسْ لنقل مسلمي الأندلس -أي إسبانيا- إلى سواحل إفريقيا، كنتيجة لمحاولة "دوريا" السيطرة على قلعة "قولون". هذا إضافةً إلى قيام بَرْبَرُوسْ بنقل

٧٠ ألف شخص من مسلمي الأندلس إلى إفريقيا على ٧ رحلات، وتسكينهم بالقرب من الجزائر، بعد أن أعربوا له عن عدم تحملهم لتسلط النصارى في إسبانيا وطلبهم العون منه في هذا الصدد. كما هزم أسطول بَرْبَرُوسْ أسطولًا من أساطيل العدو مكونا من ١٥ سفينة قابله أمام جزيرة "سريفوس" اليونانية، واستولى عليها جميعًا إلا واحدة. وقد أقدم بَرْبَرُوسْ على إنجاز عملية إنقاذ مسلمي الأندلس تلك بأسطول مكون من ٣٦ سفينة.

وعلى الرغم من النجاحات التي حققتها القوات البرية العثمانية في الأسفار التي قامت بها، وامتلاكها الترسانات القادرة على بناء السفن بطريقة متميزة، وقدرة عسكرية من الجنود المهرة؛ فإن هذه النجاحات لم تُرَ في الأنشطة البحرية. وكان السبب الرئيسي في هذا الوضع هو عدم وجود شخص قادر على توجيه البحرية التركية إلى الاتجاه الصحيح. وكان السلطان سليمان على وعي تام بأنه لا يمكن أن تكون للدولة العثمانية هيبة يخشاها أعداؤها من دون الاقتداء بالنجاحات التي تحققها القوات البرية كذلك في البحر، لذلك فقد أولى اهتمامًا كبيرًا بترسيخ دعائم السيطرة العثمانية في البحر المتوسط. وعليه، فقد وجد السلطان ما كان يبحث عنه في بَرْبَرُوسْ الذي كان قد ذاع صيته في البحار في تلك الأثناء. وكان أكثر شيء قد لفت انتباه السلطان سليمان في بَرْبَرُوسْ هو دخوله في تحدٍ وصراع مع أسطول إمبراطور إسبانيا، وكان لدى السلطان إيمان راسخ بأنه هو الشخص الوحيد الذي سيتمكن من الوقوف في وجه البحار الإيطالي "دوريا". وكان "دوريا" قد نجح في السيطرة على "كورون"، لكنه لم يتمكّن من الإمساك بزمامها لفترة طويلة. وقد أدّت هذه الأنشطة المعادية للدولة العثمانية التي يقوم بها "دوريا" إلى إرسال السلطان سليمان فرمانًا خاصًا إلى بَرْبَرُوسْ. وبحسب ما أورده مؤرخ القرن السابع عشر "كاتب شلبي (*Katip Çelebi*)"، فقد جاء بذلك الفرمان السلطاني ما يلي:

> "... أتطلع إلى السفر إلى إسبانيا. فاختر لك رجلًا ثقة يحل مكانك في البحر، وتعال لنتناقش في هذا الأمر. وإن لم يكن هناك من هو جدير بالحلول مكانك، فأعلمني حتى نتخذ ما يلزم في هذا الشأن..."

شرع بَرْبَرُوسْ في الإعداد للسفر بعد أن تسلّم خطاب السلطان من الرقيب "سنان". وكان قد انشغل في هذا التوقيت بأمر ٧ آلاف أسير نصراني في الجزائر أعدّوا مخططًا للهرب. وترك بَرْبَرُوسْ ابنه بالتبنّي "خادم حسن أغا" كوكيل يحل مكانه في الجزائر، وعيَّن "رمضان شلبي" مستشارًا له، وأبحر نحو إسطنبول في شهر آب/أغسطس عام ١٥٣٢م يرافقه ١٨ شخصًا من أشهر القباطنة الأتراك. لكنه لم يتعقب سواحل إفريقيا ناحية الشرق، بل توجه إلى جزيرة "سَرْدُونْيَا (*Sardunya*)"، ثم أبحر بعدها صوب جزيرة "صقلية". واستولى في تلك الأثناء على أسطول نصراني مكون من ١٨ سفينة عند مضيق "مسينا (*Messina*)". وبعد أن سيطر على طاقم السفن وحمولتها، أضرم النار بها على مرأى ومسمع من أهالي "مسينا". هرع بعدها بَرْبَرُوسْ متوجهًا صوب مدينة "بريفيزا (*Preveze*)" اليونانية بعدما أعلمه الأسرى الذي سقطوا في أيديه أن "دوريا" أبحر إلى "قورون" على رأس أسطول من قواته. وأما "دوريا"، الذي علم بتواجد بَرْبَرُوسْ في مياه "مورا"، فرّ هاربًا إلى إيطاليا قبل وصول بَرْبَرُوسْ إلى "بريفيزا" بفترة وجيزة. فأرسل بَرْبَرُوسْ خلفه قوة بحرية قوامها ٢٥ سفينة، حتى إن هذه القوة نجحت في اللحاق بسبعة من سفن "دوريا" التي كانت تسير خلف أسطوله، وخطفوا خمسًا منها، وأسروا اثنتين أخريين وعادوا بهما. وانتقل بعدها بَرْبَرُوسْ من "بريفيزا" إلى مدينة "نافارين" والتقى بها قائد الأسطول البحري العثماني "كَمَانْكَشْ أحمد بَكْ"، وانطلقا من هناك نحو إسطنبول في كانون الأول/ديسمبر عام ١٥٣٣م.



لوحة لـ"بَرْبَرُوسْ خير الدين باشا" رسمها رسام أجنبي

استُقبل بَرْبَـرُوسْ فـي إسـطنبول اسـتقبالًا حافـلًا، ونـزل ضيفًـا فـي قصر "كمانكـش أحمـد بَكْ" الواقـع بميـدان "آتْ مَيْدَانِي"؛ -ميدان "السـلطان أحمد" حاليًـا-. واسـتقبله السـلطان سـليمان برفقـة ١٨ مـن أصدقائـه بحضور حشـدٍ مـن الوزراء والعلماء. فأقبل بَرْبَرُوسْ على تقبيل يد السـلطان، وكرّمه السـلطان وألبسـه قفطانًا ثمينًا. وبحسـب ما ترويه بعض المصادر التاريخية، فإن بَرْبَرُوسْ قبّـل يد السـلطان وجلـس أمامه عندما مثـل لديه في القصر، ذلـك لأنه لم يكن على علم صحيح بعادة تقبيل ذيل ملابس السلطان.



بَرْبَرُوسْ خير الدين باشا في حضرة السلطان سليمان

ولقد أُعجب السـلطان سـليمان كثيـرًا بتصرفـه الطائش هـذا، وأطلق عليه لقب "خير الدين" إلا أن تفاصيل هـذه الواقعـة يجـب أن يُنظـر إليهـا بشـك بالـغ، إذ إن أحـد الجوامـع التـي أمر بَرْبَـرُوسْ ببنائها في الجزائر فـي العقـد الثاني من القـرن الخامس عشـر كانـت قـد كُتـب عليهـا اسـم "خير الديـن". ولهذا السـبب، يتضح لنا أن اسـم خير الدين هو من أسمائه الأصلية، وأن واقعة تسميته بهذا اللقب مـن قبـل السـلطان سـليمان القانوني ليست إلا أكذوبة.

لقـد جلـب بَرْبَـرُوسْ العديد من الهدايا الفاخرة وهو قادم إلى إسطنبول، كمـا كان يرافقه بعض الشـخصيات الهامة في تلك الرحلـة، بحيث كان من بين أبرز الشخصيات التي رافقته في هذه الرحلة "رشيد" شقيق حاكم تونس "مَوْلَايْ (*Mevlay*) حسـن". وكان "رشـيد" -المنحدر من سـلالة "بني حفص"- قد لجأ

إلـى بَرْبَـرُوسْ هربًـا من أخيـه "مَوْلَايْ حسـن" الذي كان يتسـم بالشـدة وبقتله لإخوتـه. وعلـى الرغـم مـن ذلك، لـم يتركه "مَـوْلَايْ حسـن" في حالـه، حتى إنه طلب المسـاعدة من السـلطان سـليمان للقبض على أخيه. إلا أن السـلطان أمر بَرْبَرُوسْ باصطحاب "رشيد" في رحلته إلى إسطنبول.

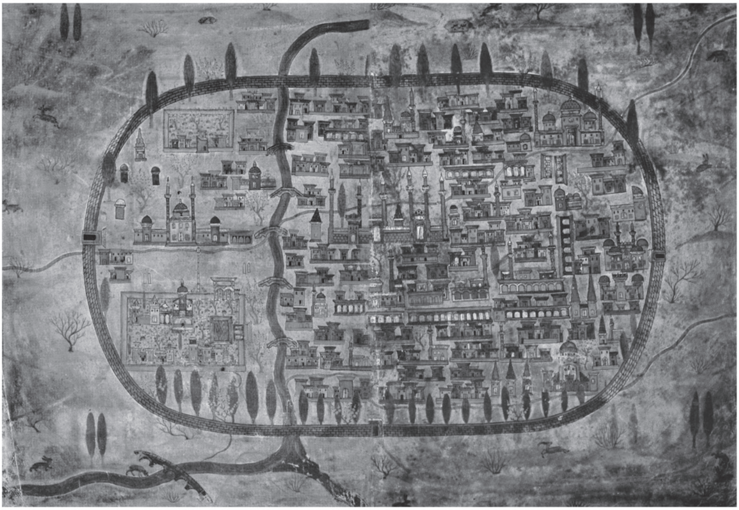
وقـد تناول السـلطان سـليمان خلال اللقـاء بعضًا من الأخبـار ذات الصلة بغـزوات بَرْبَـرُوسْ، كما أطلعه على مسـتجدات الأوضاع في البحر المتوسـط. ثـم أرسـل السـلطان "خيـر الديـن بَاشَـا" إلـى مدينة حلـب إلى جانـب إبراهيم بَاشَـا الـذي كان يعد العـدة هناك في ذلـك التوقيت، وذلك من أجـل تعيينه في منصب أمير أمراء البحر الأبيض الذي كان سيُشَـكل حديثًا في الجزائر. ويروي المؤرخ "جلال زاده" أن بَرْبَرُوسْ ذهب إلى حلب لرؤية الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَـا، وبالطبـع فإن ذلك حدث برغبة من السـلطان. ذلـك لأنه كان يجب عليه بنفسـه -أي إبراهيـم بَاشَـا- توجيـه الأوامـر إلـى بَرْبَـرُوسْ، لتمتعه بلقب "سَـرْ عَسْـكَرْ (*Serasker*)"[٥٩]، أي الوزير المكلف بالنظر في شـؤون الجيش وقيادته، ولامتلاكه أيضًا امتيازات مهمة في هذا الشأن. واستقبل الصدر الأعظم بَرْبَرُوسْ خَيْـرَ الديـن فـي حلـب بعد أن وصلهـا برًا خـلال ٢٢ يومًا. وخلال الاسـتقبال الأول، خُصص مكانٌ له أسـفل مقاعد البَاشَـاوات والأمراء، لكن في الاسـتقبال الثانـي أُجلس فـي مكان أعلى من أماكن سـائر الأمراء الآخرين، لأن السـلطان ألبسـه قفطانًا بصفتـه أميرًا للجزائر. وبعبارة أخرى ذكرهـا المؤرخ "جلال زاده" عن بَرْبَرُوسْ قال فيها:

"... هو أمير سنجاق غَالِيبُولِي، وقبطان سفن البحار، وأمير أمراء الجزائر والمغرب".

(٥٩) سَـرْ عَسْـكَر: هـو لقب كان يسـتخدم فـي الدولة العثمانيـة للوزير المكلف في نظر شـؤون الجيش وقيادته، وكلمة "سـر عكسـر" مؤلفة من كلمة "سر" والتي تعني "رئيس"، وكلمة "عسكر" والتي تعني "جند" والكلمة ككل تعني باللغة التركية "رئيس الجند". (المتبرجم)

سفر السلطان سليمان إلى العراقيْن: دخول تبريز وبغداد

أعدّ السلطان سليمان نفسه للسفر، وانتقل إلى الطرف الآسيوي من إسطنبول في ٢٩ ذي القعدة ٩٤٠هـ (١١ حزيران/يونيو ١٥٣٤م). وبينما كان إبراهيم بَاشَا يتحرك من حلب صوب "ديار بكر"، بعث رسالة إلى السلطان يقترح فيها توجه السلطان إلى أراضي الأناضول (١٤ أيار/مايو ١٥٣٤م). أعقب ذلك حدوث انقسام داخل الجيش بسبب اختلاف وجهتي نظر إبراهيم بَاشَا و"إِسْكَنْدَرْ شلبي" حول قضية وجهة السفر، وبدأت الإشاعات في الانتشار شيئًا فشيئًا، وبدأ الجميع في ترديد عبارة "يلزم للملكِ ملكٌ". وقد ترك السلطان سليمان الحفاظ على الأناضول لأمير صَارُوخَانْ الأمير مصطفى، كما أمن على إسطنبول لشخص ذي ثقة لديه، وتوجّه إلى "أُوسْكُودَارْ" يرافقه قسم من جنود منطقة "روملي". وقد تحرك السلطان بسرعة إثر تلقيه خطاب إبراهيم بَاشَا، ولعلمه بحالة الجيش حينها، ووصل إلى مدينة "قونيا" عبر طريق "بُورْصَا (*Bursa*)-يَنِي شَهِيرْ (*Yenişehir*)-كُوتَاهْيَا". وبينما كان في "آقحصار" نما إلى مسامعه نبأ فتح قلاع مدينة "وَانْ" وما حولها، ثم وصلت إليه مفاتيح هذه القلاع وهو في "قونيا". وعندما نزل للاستراحة في مدينة "سِيوَاسْ"، جاء إليه سفير الأوزبك. وحينما وصل إلى مدينة "أرزينجان (*Erzincan*)" بتاريخ ٢٠ آب/أغسطس، وفد إليه سفير "شيروان شاه (*Şirvanşah*)". وعندما قدم إلى مدينة "أَرْضُرُومْ (*Erzurum*)" في الشرق، وجدها في حالة يرثى لها، فأمر بإعادة ترميمها. وفي تلك الأثناء، أبلغ إبراهيم بَاشَا السلطانَ بنبأ السيطرة على أذربيجان، قبل أن يصل إلى "أَرْضُرُومْ" بفترة وجيزة. وكما جاء بخطابه إلى السلطان -بحسب ما ذكرنا أعلاه- فقد أخبره بأنه نصّب أمراء على كافة مناطق أذربيجان، وأطلعه على هويات هؤلاء الأمراء الجدد.



منمنمة تبريز لـ"مطرقجي نصوح"

وأوصى إبراهيم بَاشَـا السلطان بقضاء فصل الشتاء في "ديار بكر". فأُعجب السـلطان بالفكـرة، وانطلـق مـن أَرْضُـرُومْ فـي رحلـة شـاقة وصل فـي نهايتها إلى "أرجيش" في ١٦ أيلول/سـبتمبر. وبينما كان السـلطان هناك، جاءه رسـول إبراهيـم بَاشَـا، حيـث أخبره بأن الشـاه فـي طريق عودتـه، وعليـه؛ فيجب على السـلطان الإسـراع في التوجه إلى تبريز. فتحرك السـلطان من أرجيش بسـرعة نحـو تبريـز يـوم ٢١ أيلول/سـبتمبر، ووصـل إلى تبريز عبـر طريق "بَنْـدَرْ مَاهِي (*Bendermahî*)" بتاريخ ١٩ ربيع الأول (٢٨ أيلول/سبتمبر ١٥٣٤م)، واستقبله شـعب تبريـز بحفـاوة بالغة. وعقب ذلـك بيومين اثنين، تقابل جيشـا السـلطان والصـدر الأعظـم عنـد منطقـة تسـمى "أوجـان (*Ucan*)". وبعد مؤتمـر ديواني عقده السـلطان، عيّن نجل شـيروان شاه "محمد مِيرْزَا (*Mirza*)" في منصب "سر عسـكر" على "تَبْرِيزْ (*Tebriz*)"، وترك بجـواره كلًّا من أمير "بَيْبُورْدْ (*Bayburd*)" إدريس بَكْ، وأمير "كَمَاهْ (*Kemah*)" سنان بَكْ، وأمير "قارا حصار (*Karahisar*) شـرقي" "بِيقْلِي (*Bıyıklı*) محمد بَاشَا أوغلو مصطفى بَكْ"، وأمير "آيدن""إِخْتِيَارْ (*İhtiyar*) بَـكْ" لمسـاندته فـي حماية المدينة. ثـم انطلق نحو مدينة "سـلطانية"

عبر طريق "زَنْجَانْ (*Zengân*)" شمال غرب إيران. وفي تلك الأثناء، وفد "طهماسب الأول" - المتواجد بالقرب من مدينة "رَيْ (*Rey*)" (طهران) إلى "قَزْوِينْ"، وأرسل أخويه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" و"أَلْقَاسْ (*Elkas*) مِيرْزَا" على رأس قوات من "تُرْكْمَانْ الشَامْلُو (*Şamlu Türkmen*)"؛ إحدى القبائل التركمانية، إلى "تَبْرِيزْ". فالتقت القوات العثمانية والصفوية أمام مدينة "قَارَا آغَاجْ (*Karaağaç*)". وعلى الرغم من انضمام "أفلند خان الأفشاري (*Afşarlu Elvend Han*)" إلى القوات الصفوية، فإنهم انسحبوا مسرعين إلى موقع "أبهر (*Ebher*)" الذي يتواجد فيه الشاه لخوفهم من مدافع الجيش العثماني، وتلقّيهم نبأ تقدُّم السلطان العثماني صوب مدينة سلطانية.

وأثناء تقدم القوات العثمانية، عيّن السلطانُ إبراهيم بَاشَا وجنود روملي في طليعة الجيش، وأمير "قارامان" وجنوده في مؤخرة الجيش. ووصل الجيش العثماني إلى "نيكباي (*Nikbey*) خان" عبورًا بنهر "زنجان (*Zencân*)"، ثم توجّه من هناك إلى مدينة زنجان، ومن هناك إلى سلطانية. وبينما الجيش العثماني في سلطانية، علم السلطان أن الشاه انسحب إلى الأطراف الداخلية لدولته، إذ كان "طهماسب" يخشى مجابهة العثمانيين في ساحة القتال وجهًا لوجه لعلمه مسبقًا بأن منازلة الجيش العثماني ستجلب عليه ويلات كثيرة وستكبّده خسائر بالجملة، وكان دائمًا ينسحب من أمامهم. وعمد إلى تخريب كافة المناطق التي انسحب منها قبل أن يمرّ منها العثمانيون. وعبر الجيش العثماني "قِيزِيلْ أُوزَنْ (*Kızıl Özen*)" ووصل إلى عراق العجم، ثم استطاع الوصول إلى سلطانية وسط ظروف محيطة في غاية الصعوبة بعد أن تقدم وسط أراضٍ صحراء، جرداء، خراب، مقفرة، هُجِّر أهلها من قِبل قوات القزلباش.

وكما ورد في بعض كتب التاريخ أن بعض الأمراء جاءوا إلى السلطان سليمان لدى دخوله سلطانية، وقدّموا فروض الطاعة والولاء. وهنا دخل كلٌّ من "محمد بن ذُو الْقَادِر" أحد أمراء "طهماسب" - وهو ابن "شَاهْرُوخْ (*Şahruh*)" وقد فرّ قبل ذلك هاربًا إلى إيران أثناء اندلاع ثورات العلويين، وعينه الشاه واليًا

علـى إقليمي "طارم (*Tarım*) وخلخال (*Halhal*)" - و"قايا خان (*Kaya Han*)"، و"بورون (*Burun*)" سـلطان أوغلو حسـين سـلطان "التَكَه لُو (*Tekelü*)"، دخلوا فـي خدمـة العثمانييـن يرافقهم ثلاثة آلاف جندي. إلا أن فـي تلك الأثناء بدأت برودة الجو تظهر تدريجيًا، وهطلت كميات كبيرة من الثلوج. واسـتطاع الجيش العثمانـي التقـدم من سـلطانية نحو أبهر وسـط ظـروف مناخية غاية في السـوء مـن ناحيـة، ومن ناحية أخـرى وعورة الطريق، ونفاد المـؤن والذخيرة، وبالتالي مـوت حيواناتهم بسـبب ذلك وغيرها من الأوضاع غيـر المواتية. وكان الجيش العثمانـي يسـير في طريقه ويعبر المسـارات الوعرة والمضايـق الضيقة، واضطر لتدميـر ١٠٠ مـن مدافعه ودفنها جرّاء عدم قدرته على حملها في رحلته الشـاقة تلـك. وكنتيجـة طبيعية لعدم ظهور الشـاه وقواته، وكافة هـذه الظروف المناخية والحياتية الصعبة، أُجبر السـلطان سـليمان على اتخاذ قرار بتغيير مسـار الرحلة صوب بغداد. وكانت مسـيرة الجيش العثماني في هذه الرحلة في غايةالوعورة: فـكان مواصلته لطريق وعرة وسـط صحراء جرداء وأراضٍ مدمرة بمشـقة كبيرة وصبر عظيم، من الأحداث نادر الحدوث في تاريخ البشريةِ جمعاء. فقد استطاع الجيـش العثمانـي الوصول من إسـطنبول إلى بغداد خلال فتـرة زمنية تجاوزت الستة أشهر عابرًا بـ١٢٣ منزلًا.

توجـه الجيش العثماني من سـلطانية نحو "هَمَـدَانْ (*Hemedan*)". وحينها، أُرسل "عُلَمَا بَاشَا" إلى تبريز يرافقه "دُو الْقَادِرلي محمد بَكْ". كما سُمح لحاكم "جِيلَانْ" مظفر خَانْ بالعودة إلى وطنه. وأما الصدر الأعظم فقد شـرع في توجيه السـلطان لانتقاد "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي" لاختياره الطريق الخاطئ في رحلة الجيش. وعليـه، فقـد نجح في جعل السـلطان يعزله من منصبـه. ووصل الجيش بتاريخ ١٥ تشـرين الأول/أكتوبر إلى منطقة تسمى "قصر شيرين (*Kasrışirin*)"، ثم إلى مـكان يُطلـق عليه "خانقيـن (*Hanikin*)". وفي هذه الأثناء، وصل إلى السـلطان خطـابٌ مـن أمير أمراء بغـداد محمد خان "التكّه لو" يعرض فيه طاعة السـلطان والإذعـان لأوامـره، وذلـك تنفيذًا لأمر صادر من الشـاه شـخصيًا. لكن "محمد خـان" لم يكن حسـن النية في هذا الطلب، وكان يرغـب في مراوغة العثمانيين.

إلا أنه في نهاية المطاف غادر المدينة دون مقاومة، وهرب إلى شيراز عبر مدينتي البصرة و"دِيزْفُولْ (*Dizful*)"، وذلك بعد أن أبدى أهالي بغداد رغبتهم في إرسال مفاتيح المدينة إلى السلطان سليمان، وتنفيذًا لأمرٍ جاءه من الشاه.

وقد خرج إبراهيم بَاشَا في مقدمة الجيش نحو بغداد بعد أن ظلت دون أحد يدافع عنها. وهرع سكان بغداد إلى فتح أبواب المدينة أمام الصدر الأعظم يوم ٢١ جمادى الأولى ٩٤١هـ (٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٤م)، ورُفع العلم العثماني على جميع أبراج المدينة. وبعدها بيومين، دخل السلطان سليمان المدينة، وتوجّه مباشرةً نحو مكان يُسمى "عزيمية (*Azimiyye*)" الذي يوجد به قبر الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان". وهنا، قدّم مسؤول حمْل الراية الخاص بالصدر الأعظم، مفاتيحَ بغداد إلى السلطان سليمان.

كان السلطان سليمان يرنو إلى قضاء فصل الشتاء في بغداد بعد رحلة طويلة وشاقة، ولذلك فكّر في الاستراحة في بغداد والتخطيط للحملة العسكرية الجديدة التي يهدف للخروج إليها بحلول فصل الربيع. ومكث الجيش العثماني في بغداد لأربعة أشهر. وأمر السلطان جنوده خلال هذه المدة باتخاذ التدابير اللازمة لعدم المشقة على أهالي المدينة، كما عفى عن قبيلة "التكه لي" بعد أن أطاعوا أوامره، وأحسن إلى ثلاثة من كبار هذه القبيلة بمنحهم بعض الألوية لإدارتها. هذا إضافةً إلى ذلك كلف بعض الأشخاص بالعثور على قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وأمر بتنظيفه من الأوساخ والأتربة، وبناء ضريح ومسجد فوقه. ثم بعد ذلك أمر بإنشاء ضريح وتكية على قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية. بالإضافة إلى ذلك، قام السلطان سليمان بزيارة قبر الإمام "موسى الكاظم"؛ أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية، وذهب إلى مدينتي كربلاء والنجف وزار مقاميّ الإمامين "علي" و"الحسين" رضي الله عنهما.

ولقد تركت هذه الزيارات انطباعات إيجابية عن الدولة العثمانية لدى الشيعة بوجه خاص. إضافةً إلى ذلك، فقد أمر بإحصاء تعداد سكان بغداد، وتطبيق نظام الإقطاعيات هناك أيضًا. كما استولى في الوقت نفسه على المناطق الممتدة

حتى البصرة، والمُشَعْشَع، والقطيف، والبحرين. وكلّف بإحصاء سكان هذه المناطق وتحرير وثائق رسمية لها تحت إشراف "جلال زاده مصطفى شلبي" الذي عُيّن في منصب النّشَانْجِي(٦٠) مكان "سيدي شلبي" الذي أدركه الموت في الطريق جرّاء نقص مؤن الحبوب. وبينما كان السلطان في بغداد، قدّم إليه الشاعر الشهير في ذلك العصر "فضولي" قصيدة شعرية تنتهي بقوله:

"لقد أشهر تاريخك فتح العرب والعجم

وجاء السلطان العظيم إلى برج الأولياء".

ويشير المصراع الأخير من هذا البيت إلى تاريخ فتح بغداد. وبينما كان يستعد للسفر، جاءه خبر مقتل "كِرِيتّي" الذي كان قد أرسله إلى المَجَر على رأس جيش من ثلاثة آلاف جندي، بمنطقة "أَرْدَلْ" - الواقعة غرب ووسط رومانيا حاليًا -، إذ شعر بالقلق إزاء ما صاحب هذه الواقعة من أحداث. فأرسل السلطان رقيبًا بالجيش من بغداد إلى فيينا، كما بعث رسالة نصر إلى البندقية، وأمر بإعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" الذي كان قد كلّف بعزله من منصبه بينما كانوا في طريقهم إلى بغداد.

كانت العلاقة التي جمعت "إِسْكَنْدَرْ شلبي" -الذي كان اللاعب الأساسي في اختيار الجيش العثماني التوجّه نحو تبريز- بالصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا قد أخذت في الفتور بعد أن غضب الثاني من اختيار الأول للطريق الخاطئ للجيش، مما تمخّض عنه معاناة عاشها الجيش بجميع أفراده، حتى أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" أُعفي من وظيفته بينما كان الجيش يتقدم تجاه بغداد. وبحسب وقفية والدة السلطان "حفصة سلطان"، فإن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" هو ابن لشخص يُدعى "موسى"، وقد ترعرع في مكاتب المالية، وارتقى حتى وصل إلى منصب رئيس موظفي الدَفْتَرْدَارْ. وفي تلك الأثناء عيّنه السلطان في وظيفة حاجب الصدر الأعظم، لما رأى فيه من خبرة وحنكة. وبحسب ما يرويه أحد المؤرخين، فقد أوصى السلطان الصدرَ الأعظم إبراهيم بَاشَا بحسن معاملة "إِسْكَنْدَرْ شلبي" بقوله:

(٦٠) مسؤول التوقيع على خطابات السلطان وفرماناته. (المترجم)

"إن إِسْـكَنْدَرْ شَـلَبِي رجل دولة خبير وله رؤية صائبة، فلا تخالفه الرأي ألبتة".

وبهـذه الطريقـة، بدأ الصدر الأعظم في النظر إلى "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي" بصفته منافسًـا له. حتى أن بعض الروايات تقول إن الثراء الفاحش الذي كان يتمتـع به "شـلبي" دفـع إبراهيم بَاشَا إلى الشعور بالغيرة والحسد تجاهه، ذلك لأنه امتلك نفـوذًا كبيـرًا لدى الوزراء بفضـل هذه الثـروة الطائلة. ويذكر المـؤرخ العثماني "غَالِيبُولِي مصطفى علي" أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" كان يرتدي طربوشًا به ثلاثة أوجه مطـرّزة بأفخـم أنواع الزينـة، كما كان لديه ٦٠٠ من العبيـد، وعُيّن معظم هؤلاء العبيد فيما بعد في مناصب رفيعة كالصدر الأعظم، والوزير، وأمير الأمراء. ومن هؤلاء الصدر الأعظم أحمد بَاشَا الذي ينقل المؤرخ "عَالِي" قوله:

"...نحـن الآن سـبعة وزراء في الديـوان. وإن مجمـوع ثروتنا جميعًا لا تبلـغ حجم ثورة المرحوم إِسْكَنْدَرْ شلبي...".

وكان "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي" يمتلك من الثروة والنفوذ الكبيرين، حتى أنه عندما مـات كان مسـجل فـي دفتـر العبيد الخـاص به أنه اشـترى ٦٢٠٠ عبـد. ويُقال أن كل عـام كانـت تأتي سـفينة مـن مدينة "طِرَابْزُونْ" في الشـرق إلى إسـطنبول محمّلة بقطـع القماش التي يحتاجها عبيده وجواريه. كما أنه عندما كان يخرج في سـفر، كان يرافقه حشد كبير من الخدم والحشم قوامه ١٢٠٠ شخص. ويُلاحظ أن هناك بعض الأشخاص بدؤوا في نشر الشائعات مستفيدين من الخلاف الذي دبّ بيـن "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي"؛ صاحب النفوذ والشـهرة الكبيـرة، والصدر الأعظم إبراهيـم بَاشَـا أثنـاء رحلـة تبريـز. وبطبيعة الحال، فقـد أفضت تلك الشـائعات إلـى تأجيـج الخلاف الناشـب بين الطرفيـن. وقد أقـدم دَفْتَرْدَارْ دمشـق "نقّاش علـي أفنـدي"، الـذي يُفهـم أنـه كان يقـف فـي صـف إبراهيـم بَاشَـا ويرغـب فـي القضـاء على "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي"، أقـدم على اتخـاذ بعض التدابير، إذ أشـاع في ليلة من الليالي أن الخزينة على وشك أن تُسرق، وعليه فقد أُعدم ٢٠ رجلًا من مناصري "إِسْـكَنْدَرْ شـلبي". كما كان "علي أفندي" يذيـع دائمًا لدى إبراهيم بَاشَا أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" يرتشي ويرتكب العديد من الموبقات.

ولقد حدثت واقعة أخرى أذكت نيران الحقد والكراهية بين الجانبين: فبينما كلّف الصدر الأعظم المُنادين بالإعلان عن وصوله إلى أذربيجان، فبدأ المنادون في النداء بعبارة؛

"أمْر السلطان القائد"

فتدخل "إِسْكَنْدَرْ شلبي" وأسكتهم بقوله:

"لا تقولوا السلطان القائد، فنادوا هذا "أمْر حضرة القائد".

وعليه، بدأ الخلاف في الازدياد يومًا بعد يوم. وبناءً على ذلك السبب، فقد استخدم إبراهيم بَاشَا دفاع إِسْكَنْدَرْ بَاشَا عن فكرة السير نحو تبريز في السابق، كورقة رابحة في التخلص منه. ووفق ما يرويه بعض المؤرخين في العهد العثماني، فقد وجّه السلطان سليمان سؤالًا إلى الصدر الأعظم عندما وصلوا إلى تبريز قال فيه:

"ما هو سبب وصولنا إلى أرض العدو في حملة مهمة كهذه وسط فصل الشتاء مما عرّض جيشنا إلى مخاطر جمّة؟"

فأجابه إبراهيم بَاشَا إجابةً معاتبة قال فيها:

"وهل أنا رجل ذا أهمية؟ فلقد أوكلتهم أمور الحل والعقد إلى عبدكم إِسْكَنْدَرْ شلبي، وعندما انصرفنا من أمامكم، أوصيتم بأن يُمنح وظيفة مسؤول المالية (دَفْتَرْدَارْ). وعليه، فقد تحرك الجيش بناءً على تعليماته، وحدث ما رآه الجميع".

وكان هذا الجواب سببًا رئيسيًّا في سقوط "إِسْكَنْدَرْ شلبي" من نظر السلطان. وفي يوم ١٣ آذار/مارس ١٥٣٥م، وبينما كانت التجهيزات جارية لعقْد جلسات الديوان، أصدر السلطان سليمان فرمانًا بإعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" قبل أن يصل كلٌّ من "إياس" و"قاسم" بَاشَا إلى الديوان. وقد نُفِّذ هذا الحكم على الفور في مكان يُطلق عليه "آت بازاري" بالمدينة، وأُدخلت أموال "شلبي" وعبيده إلى خزينة الدولة.

وفيما كان الجيش العثماني في بغداد، كان الشـاه "طهماسب" منتشيًا للغاية لتفاديـه السـقوط كضحية لأول خطر يواجهه من جانـب العثمانيين. وقد اعترف الشـاه بأن خصمه الأساسي ليس السلطان سليمان (وبتعبيره "حضرة السلطان")، ولهذا السـبب أرسـل خطابًا إلى وَالِي بغداد "محمد خان" يأمره بإخلاء المدينة، وقال في الخطاب:

"إن عدويّ اللدود هو عُلَمَا بَاشَا".

كما أمر الشـاه بقتل ابن عمته "شـاملو حسـين بَكْ" لاعتقاده أنه يسـتهزأ به، ولشـكه بصدقـه وولائه له. وقد أوقعت هذه الحادثة الريـب في قلب أمير أمراء خراسـان "غازي خان"؛ الذي كان من أمراء "تَكَه لُو"، إذ أدرك أن دور التخلص منـه قد حـان، فاضطر للهرب بصحبة نفر من رجاله إلـى تبريز. وعليه، فقد بقي إلى جانب الشـاه شـخص واحد فقط من أمراء "تكه لو" وهو وَالِي بغداد السابق "شرف الدين أوغلو محمد خان". وقد لجأ "غازان خان" إلى العثمانيين، وأخبر "عُلَمَا بَاشَـا" بأن الشـاه في طريقه نحو تبريز. فأرسـل "عُلَمَا بَاشَـا" إلى السلطان يخبره بهذه الأنباء، ثم انسـحب برفقة "ذُو الْقَادِرلي محمد خان" وسـائر الأمراء العثمانييـن الآخريـن إلـى مدينـة "شـنب غـازان (*Şenb-i Gazan*)" فـي البداية، ثـم إلـى قلعـة "وَانْ" المحصنة بعـد ذلك، لعلمه بأنـه لن يسـتطيع الصمود في تبريـز فـي مواجهة قوات الشـاه. فوصل الشـاه إلى تبريـز، وتعقّب "عُلَمَا بَاشَـا" حتى ولاية "وَانْ" وحاصرها، وقطع السبل المواصلة إليها، وقضى فصل الشتاء محاصـرًا لهـا. وبـدوره، دافـع "عُلَمَا بَاشَـا" عـن "وَانْ"، ولـم يسـمح للصفويين بالاقتراب من قلعتها مستخدمًا نيران المدافـع والبنادق، حتى أجبرهم على البقاء خارج المدينة. وفي مقابل ذلك، اكتفى الصفويون بالسيطرة على الطرق المؤدية إلـى وان، ومحاصـرة المنطقة المحيطة بها، ولـم يسـتطعوا الاقتراب من قلعتها. وكان "عُلَمَا بَاشَـا" المتواجد داخل القلعة، يبعث الرسـل إلى السـلطان سـليمان بشكل متواصل يطلب منه المدد والعون.

وفي يوم ٢٣ آذار/مارس عام ١٥٣٥م وصل مبعوث "عُلَمَا بَاشَا" إلى السلطان، وأبلغه الوضع في وان. فاتخذ السلطان قرارًا بالسير صوب تبريز، وغادر بغداد بتاريخ ٢٧ رمضان ٩٤١هـ (١ نيسان/أبريل ١٥٣٥م). ولعلمه بطبيعة الأراضي الموصلة إلى تبريز جيّدًا، أمر السلطان بتقسيم قوات الجيش إلى ثلاثة أفرع، يتبع كل واحد منها الآخر بفارق منزل واحد. وفضّلت القوات العثمانية السير في طريق ممهدة بشكل أكثر تجاه مدينة "كَرْكُوكْ (*Kerkük*)"، واستثنت السير في طريق بغداد. وعندما وصل الجيش عند منطقة "جوكتبه"، اضطر للانتظار هناك لمدة أسبوع حتى يلحق بهم ركب الجنود الذين كانوا عائدين من مكان قضاء فصل الشتاء. ومن ثم تحرك الجيش من "جُوكْتَبَه (*Göktepe*)" حتى وصل إلى "قِزِلْدَرَه (*Kızıldere*)". وبينما كان الجيش العثماني كذلك، وصل رسول "عُلَمَا بَاشَا" وأبلغهم أن الشاه عاد إلى "وَانْ" مرة أخرى بعد أن كان قد انسحب فور تحرك الجيش العثماني من بغداد، وأن شقيق الشاه "سَامْ مِيرْزَا (*Sâm Mirza*)" في طريقه قادمًا إلى السلطان سليمان حتى يقدم فروض الطاعة والولاء. وفي تلك الأثناء، وصل الرسول الثالث الذي أرسله ملك فرنسا إلى السلطان يُدعى "جان دي لا فوري (*Jean de la Fôret*)". وقد دعا هذا الرسول السلطان سليمان للاتحاد مع فرنسا لقتال إمبراطور إسبانيا. هذا إضافةً إلى أن الرسول طلب من السلطان مساعدة بقيمة مليون قطعة ذهبية للإعداد لهذه الحرب، ورجاه أن يحرّك الأسطول العثماني صوب جزيرتي "سردينيا (*Sardunya*)" و"صقلية". وقد استقبل السلطان السفيرَ الفرنسي استقبالًا حارًّا، وأبقاه جواره حتى وصل الجيش العثماني إلى إسطنبول. وعندما وصل الجيش إلى منزل "صاروجا قاميش (*Sarucakamış*)" بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو، جاء رسول الشاه "تَاجْلُو خَانْ (*Taclu Han*)" إلى السلطان، وعرض عليه إبرام معاهدة سلام وتعيين سفراء لدى كلا الدولتين، إلا أن السلطان ردّ رسول الشاه لعلمه أنه إنما أتى للاطلاع على الوضع داخل الجيش العثماني. وفي النهاية، وصل السلطان على رأس الجيش إلى تبريز عبر "مراغة (*Meraga*)- أوجان (*Ucan*)" بتاريخ ٢٨ ذي الحجة (٢٨ حزيران/يونيو). ومكث الجيش العثماني لبرهة

في "سادآباد (*Sâdâbâd*)"، ومن ثم دخل بعد ذلك تبريز، وكانت هذه المرة الثانية التي يدخلها فيها. وقام السلطان بالتجوّل في قصر الشاه، وأمر بتنظيف جامع "آق قويونلو سلطان حسن"، وكلّف بفرش السجاد، وإقامة الصلاة به. كما مُنح الجنود العطايا، وحصل أركان الدولة على المراتب العليا. وبينما هم كذلك، أُدخل تغييرٌ على طريقة تشكيل الديوان السلطاني. فمن الآن ولاحقًا سيُسمح فقط لأمير الرُّومَلِي- وهو من أعضاء الديوان - بالمشاركة في جلسات الديوان دائمًا. وأما أمير الأناضول، فسيحضر جلسات الديوان إذا لزم الأمر، فيما أُعفي سائر الأمراء الآخرين من حضور تلك الجلسات.

وعندما دخل السلطان تبريز للمرة الثانية، نما إلى علمه أن الشاه يتواجد بالقرب من مدينة سلطانية، فتحرك من تبريز لملاحقته بتاريخ ١٩ المحرم (٢٠ تموز/يوليو). ووصل إلى "درجوزين (*Dergüzin*)" مرورًا بـ"أوجان - قزل اوزن (*Kızılözen*)- سلطانية - حيدر نبي (*Haydarnebi*)- تحت سليمان (*Taht-ı Süleyman*)". وخلال تلك الرحلة، أُعلن عبر المنادين أن السلطان قد تبنّى "سَامْ مِيرْزَا" شقيق الشاه، ومنحه المنطقة الواقعة وراء إقليم "قِيزِيلْ أُوزَنْ". حتى إنه يُروى أن الشاه "طهماسب" عندما سمع هذا النداء، قال:

"ونحن أيضًا تبنّينا ابن دُو الْقَادِر، فما الذي تغيّر؟"

ومكث الجيش العثماني في "درجوزين" لمدة أربعة أيام، إلا أنه لم يعثر على أي أثرٍ للشاه وجنوده. وفي نهاية المطاف، آثر السلطان العودة إلى تبريز بدلًا من التقدّم أكثر دون فائدة. ويروي بعض المؤرخين المعاصرين أن السلطان سليمان عندما كان في تبريز أرسل أهلَ السُنّة الذين بعثوا إليه خطابات يستنجدون به من ظلم الشاه إلى الأناضول، وأسكنهم مدينة "أَرْضُرُومْ"، ووقاهم من ظلم الشاه. ولهذا السبب يعزي البعض تشابه اللهجة التي يتحدث بها سكان المنطقة الواقعة بين ولايات "أرضروم" و"ريزة (*Rize*)" و"طِرَابْزُونْ"، بتلك التي يتكلم بها أهل تبريز، إلى هذه الحادثة التاريخية.

تيقـن السـلطان سـليمان مـن أن البقـاء أكثـر فـي تبريـز لـم يعـد ذا فائـدة، فأخلـى المدينة إيذانًا منه بانتهاء حملته العسـكرية بشـكل كبيـر. وتحرك الجيش العثمانـي من تبريز يوم ٢٧ آب/أغسـطس، ومرّ بالقرب مـن "ميريند (*Merend*)"، ومـن هنـاك إلى "خوي (*Hoy*)" ومن ثـم إلى "أرجيـش (*Erciş*)". وعندما وصلوا إلى "أَخْلَاطْ"، أُرسـل "عُلَمَا بَاشَـا" إلى مدينة "وَانْ". وقد أُسّست ولاية "أَرْضُرُومْ" فـي تلك الأثنـاء، ومنح حكمها إلـى "ذُو الْقَادِرلي محمد خان". وكان السـلطان يهـدف إلـى منـع تقـدم الصفوييـن عنـد حـدود مدينـة "وَانْ" علـى أقـل تقدير، بعـد أن رأى أن أمـر السـيطرة على عاصمتهم تبريز صار بعيـد المنال. هذا إضافةً إلى أن هذه السياسـة الواقعية أعلنت عن نفسـها مرة أخرى بطريقة واضحة للغاية فـي الحمـلات اللاحقة. وفيمـا كان الجيـش العثماني يعود أدراجـه إلى أراضيه، تحـرك الشـاه "طهماسـب" على الفور، ودخـل "تبريز" في البدايـة، ومن ثم انتقل إلـى "ميرينـد" و"خوي". وأمر "بَهْرَامْمِيـرْزَا" بالهجوم على جناح الجيش العثماني الـذي يقـوده "دونبوللـو (*Dünbüllü*) حاجي بَكْ" ويعتبر الجنـاح التابع للجيش. وسـار هو وجنوده نحو مدينة "وَانْ" لقتال "عُلَمَا بَاشَا". فوصل إلى مشارف "وَانْ" بتاريخ ١٨ أيلول/سبتمبر ١٥٣٥م، وعلم أن "عُلَمَا بَاشَا" انسحب إلى "واسطان". وفي النهاية التقى الجيشـان وهُزم جيش "عُلَمَا بَاشَـا" يوم ٢٢ أيلول/سـبتمبر عند مضيق "قُوزْجُونْ قِيرَانْ (*Kuzgunkıran*)" في مدينة "جواش (*Gevaş*)"، على الرغم من تلقيه دعمًا من أمير "ديار بكر" محمد بَاشَـا، واسـتطاع بشـق الأنفس الوصول إلـى الجيـش العثماني الذي كان قد تحرك من مدينـة "طاطفان (*Tatvan*)". وبينما كان الجيش العثماني متوجهًا إلى "آميد" في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، ومن هناك إلـى "قونيا" مـرورًا بطريق "حلب - أنطاكية - جولك بوغـازي (*Gülekboğazı*)- أولو قيشـلا (*Ulukışla*)"، كان الشـاه قـد احتل "وَانْ" و"أرجيـش"، وعيَّن "صوفو أوغلو (*Sofuoğlu*) أحمد سـلطان" حاكمًا على "وَانْ". ثم عاد إلى "تبريز" وقضى بها فصل الشـتاء. وأما السـلطان سـليمان فتحرك من قونيا ووصل إلى إسـطنبول بتاريخ ١٤ رجب ٩٤٢هـ (٨ كانون الثاني/يناير ١٥٣٦م).

لقد برهنت هذه الحملة العسكرية للسلطان سليمان على أنه لن يستطيع القضاء على الصفويين بسهولة ويسر كما كان يرغب. وكانت الفائدة الوحيدة التي تحصّل عليها العثمانيون من هذه الرحلة التي أُطلق عليها "سفر العراقيْن" لدخول الجيش العثماني عراق العرب وعراق العجم، هي ترسيخ دعائم سيطرة الدولة العثمانية في بغداد وما حولها. وذلك لأنه كما أوضحنا سالفًا، فما إن انسحبت القوات العثمانية، استولى الصفويون على تبريز وما جاورها مجددًا. كما أثبتت هذه الحملة بكل وضوح أنه لن يمكن اقتلاع جذور الدولة الصفوية. وفي واقع الأمر، فإن الحملات العسكرية التي قام بها الجيش العثماني في تلك المنطقة كبّدته خسائر فادحة في الأموال، وأصابت جنوده مشقة كبيرة. وبالرغم من ذلك، كان الصفويون يزيدون من تلك المشقة على الجيش العثماني. فلم يكونوا يخرجون لمواجهة العثمانيين، بل كانوا يضرمون النار في الأماكن التي يمر منها الجيش العثماني، ويجفّفون مياه تلك الأماكن، ويهجِّرون منها أهلها، ولم يكونوا يتركوا بها حتى الأعشاب لتقتات عليها خيول العثمانيين. وستكون الغاية المقصودة من وراء الحملات العسكرية التي سيقوم بها العثمانيون فيما بعد هي استعادة مدينة وان، وتشكيل حاجز أمام تقدم الصفويين في تلك المنطقة. وكان الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا هو من سيدفع ثمن الفاتورة الباهظة لتلك الرحلة. وقد تأثّر السلطان سليمان بالنزاعات الداخلية في القصر، وأمر بإعدام صديقه المقرّب إبراهيم بَاشَا في القصر على حين غِرّة (٢١-٢٢ رمضان ٩٢٤هـ / ١٤-١٥ آذار/مارس ١٥٣٦م).

إعدام إبراهيم بَاشَا

استقبلت "خُرّم سلطان"، التي أصبحت صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في جناح الحَرَم بالقصر، وأبناؤها السلطان سليمان لدى وصوله إلى قصر "طُوبْ قَابِي" بشوق كبير. فقد قضى أطول مدة خارج القصر للمرة الأولى، إذ أرهقته هذه الحملة العسكرية الطويلة والشاقة، كما أنه لم يستطع إحراز نصر يُذكر ضد الصفويين، وكان عزاؤه الوحيد هو بسط النفوذ العثماني على مدينة

بغداد. وبينما كان السلطان سليمان يأمل في الاستراحة قليلًا في قصره، سقط في غياهب المشاحنات العائلية المندلعة في القصر. فلم يكن تحويل "خُرّم سلطان" موازين جناح الحَرَم في القصر لصالحها، سيصب في مصلحة منافسها الوحيد على الساحة إبراهيم بَاشَا. وذلك في الخطابات التي أرسلتها إليه أثناء حملة "العراقيْن" العسكرية. وربما كان السلطان قد أخرج إبراهيم بَاشَا من حساباته بشكل تام جرّاء التصرفات التي أقدم عليها خلال تلك الرحلة، وذلك بعد أن تيقّن من أن الحملة لم تصل إلى هدفها المنشود.

وعلى الرغم من أن السلطان جمعته أحداث مصيرية للغاية بـ"إبراهيم بَاشَا" حتى ذلك اليوم، فإن القرب الشديد من السلاطين يمكن أن يفضي في نهاية المطاف إلى نتائج خطيرة كهذه. كما فعل السلطان سليمان في نهاية المطاف، وأوضح للصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا بشكل مؤلم كيف أنه حاكمٌ يجب احترامه وتبجيله. وآثر السلطان التضحية بأعز صديق له الذي لازمه منذ أن كان أميرًا جرّاء بعض الشائعات المحتمل انتشارها والتطورات السلبية داخل القصر.

وقد أُصيب مؤرخو ذلك العصر بصدمة كبيرة بعد إعدام إبراهيم بَاشَا داخل القصر في لحظة لم يكن هو نفسه يضعها في حسبانه. ولهذا السبب، لم يفصح أي واحد منهم عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الحكم، وأخذوا في تحليل الدوافع المؤدية إلى تنفيذ هذه العقوبة بحقه من خلال بعض الاستنتاجات التي لجأوا إليها، والتي لا علاقة لها بالواقع.

ويربط مؤرخ ألّف كتابًا في مطلع القرن الثامن عشر عن تلك الأحداث، إعدام إبراهيم بَاشَا بقوله إن حصوله من السلطان على إذن بالقيادة للتصرف باستقلال تام في كافة أمور الدولة وشؤونها، بخلاف صلاحيات الحاكم مثل زيادة رواتب الموظفين ومنح المكافآت والعطايا، كل ذلك دفعه للشعور بالغرور والكبر، وفي النهاية أفضى إلى الحكم عليه بالإعدام بعد أن كان يحظى بمكانة رفيعة لدى السلطان. وأما المؤرخون الآخرون فيسردون بعض النقاط الأساسية التي أدّت إلى تلك الواقعة، ويمكن تلخيص تلك النقاط في التالي:

أ- لقد أساء إبراهيم بَاشَا التصرف في الصلاحيات التي مُنحت له، حتى إنه أضاف إلى لقبه لفظ "سـلطان" بتشـجيـع من "عُلَمَا بَاشَا". إذ أسدى "عُلَمَا خان" له النصح بقوله وفقا لما حكاه جلال زَادَه (*Celalzâde*):

"في الوقت الذي يتمتع فيه الأمراء والخانات التابعون لشاه العجم بلقب سلطان، فكيف لصدر أعظم الدولة العثمانية التي تحكم أراضي شاسعة في الشرق والغرب، ألا يحصل على لقب سلطان؟ "

فأثّر ذلك كثيرًا في إبراهيم بَاشَـا، وتجرّأ على وضـع لقب سـلطان جنبًا إلى جنـب مــع لقب القائد وهم عائدون من بغداد. حتـى إنه رفـع مكانته إلى درجة أصبح بمقدوره في ظلها إرسال الفرمانات باسمه.

ب- لـم يـولِ إبراهيم بَاشَـا اهتمامًا بالنظم واللوائح أثنـاء حملة "العراقيْن" العسكرية، وبدأ في التصرف كما يحلو له على طريقته الخاصة. كما لم يلقِ بالًا للتشـاور مع رجـال الدولة في الديوان. حتى إن بعـض الروايات تقول إنه طرد من المجلس كل من اعترض عليه وقال له:

"ها هو الكتاب، ها هو القرآن الكريم".

وبحسب ما يفيد به المؤرخ "جلال زَادَه":

"... إن أصحاب النوايا الخبيثة أضروا بالبَاشَـا كما يضر العقرب ضحيته بسمه، ولهذا السبب فقد أُعدم البَاشَا...".

ج- أسـهمت واقعة إعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" في صدور حكم بالإعدام كذلك على إبراهيم بَاشَـا كما شرحنا سـابقًا. فلقد أفضت هذه الواقعة إلى برودة مشاعر السلطان تجاه الصدر الأعظم بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. كما يضيف بعض المؤرخين العثمانيين سببًا آخر إلى هذه الواقعة: فيروون أن السلطان رأى في منامه حُلمًا في الليلة التي أُعدم فيها إِسْكَنْدَرْ بَاشَا، إذ هاجمه إِسْكَنْدَرْ بَاشَا وقال له:

"لقـد ظلمتنـي دون وجـه حق وأطعت نصائح شـخص فاسـد، فلماذا سلبتني حياتي ونسيت مدة خدمتي لك؟".

وهــمّ إلــى خنــق الســلطان بعمامــةٍ كان مُمســكًا بهــا. فاســتيقظ الســلطان مــن منامــه والعــرق ينهمــر من علــى جبينه، ورفــع يديــه إلى الســماء يدعو على إبراهيم بَاشَا ويقول

"إلهي! إن كان إبراهيم قد دفعني لقتل شخص لا ذنب له، فلا تمهله حتى يكمل عامه هذا، وقدّر له الإعدام هو أيضًا!"

ولقــد حاول مؤرخو تلك الحقبة تصوير هذا الحلم على أنه أدّى في النهاية إلى شــعور الســلطان بالحزن والندم لمقتل "إِسْــكَنْدَرْ شــلبي"، وأنه وجّه أصابــع الاتهام صوب إبراهيم بَاشَا في هذه الواقعة.

د- إن الأمــوال الطائلــة التــي صرفها إبراهيم بَاشَــا خلال رحلــة "العراقيْن" رفعت من مســتوى الشكوك ضده، وانتشرت شــائعات تروّج لفكرة أنه استخدم هذه الأموال لحشــد مؤيدين له. وقد شــعر السلطان بالشك والريبة تجاه إبراهيم بَاشَا لصرفه ٨٠ ألف دينار، وقال لـ"أَيَاسْ بَاشَا":

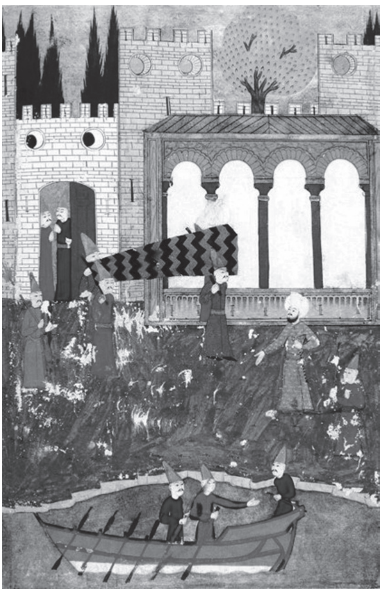
" لقــد تأكدنــا من تجــرّؤ إبراهيم على إنفــاق آلاف الدنانير على الأوغاد طمعًا في السلطة، كما أثبتت التحقيقات صدق هذه الواقعة".

هـ- إن "خُرّم ســلطان" كانت هي الشخص الرئيسي الذي دفـع إبراهيم بَاشَا إلــى التهلكــة، فهــي كانت تطمح كــي يتولّى ابنها الســلطنة عند موت الســلطان ســليمان. بيــد أن ابــن ضَرَّتهــا الأميــر مصطفــى كان هــو الأكبــر ســنًا والأقرب إلى العرش. كما كان إبراهيم بَاشَــا داعمًا لتولّي مصطفى مقاليد الســلطنة. وربما كان الخلاف في وجهات النظر بين إبراهيم بَاشَا و"خُرّم سلطان" سببًا في سعيها الدءوب على تحريض السلطان على الصدر الأعظم، وإيهامه بأنه يسعى لانتزاع الحكم منه.

و- وفي نهاية المطاف، أضحت الأخطاء التي ارتكبها خلال رحلة "العراقيْن" ذريعةً كافية لصدور حكم الإعدام بحقه. وكان على رأس تلك الأخطاء القاتلة: محاولتــه الإغارة على القلاع والقبائل المتواجدة فــي أطراف الأراضي الإيرانية

النائية مما أنهك الجيش واستنفد قواه، وفشله في هزيمة شاه إيران نتيجة "تصرفه بفكر العجم، لا بفكر الأتراك".

وفي حقيقة الأمر، فإن محاولة "عبدٍ" ما إظهار نفسه في الواجهة، والسعي للتساوي بالسلطان صاحب السلطة المطلقة في الحكم، كانت لعبة خطيرة للغاية ومغبّتها مُهلِكة لصاحبها. ولقد أيّد مؤرخون عثمانيون لاحقون فكرة أن إبراهيم بَاشَا دفع ثمن قربه لهذه الدرجة من السلطان. ولا يُعلم حتى اللحظة ما الذى كان يفكر فيه السلطان سليمان وقتها، وكيف أصدر فرمانًا بإعدام إبراهيم بَاشَا. وإن أمْر السلطان بقتل إبراهيم بَاشَا بشكل مفاجئ وهو في القصر من دون إبعاده عنه، ربما يكون دليلًا قطعيًّا على أن البَاشَا نفسه لم يكن يتوقع أن يتعرّض لعقوبة كهذه من السلطان. وقد كتب إبراهيم بَاشَا خطابًا إلى زوجته أثناء تواجده في تبريز، أوصاها خلاله بعدم مغادرة القصر لأي سبب كان إلا في الحالات الطارئة كالموت أو المرض، وذلك جرّاء الصراعات التي كان يشهدها القصر في تلك الفترة، كما أخبرها بأنه سيفتح معها ذلك الموضوع لاحقًا عندما يعود من تبريز، وهو ما يظهر بوضوحٍ كبير الدرجة التي وصلت إليها المنافسة الشرسة بين أفراد القصر من العائلة الحاكمة. وبعد أن أُعدم الصدر الأعظم، أُخرج جثمانه من القصر، ووُري الثرى في مكان غير معلوم.



نعش إبراهيم باشا برغالي (المقبول/ المقتول)، حيث يُنقل إلى المكان الذي سيدفن فيه بعد أن أخرج سرا من القصر، ووضع في زورق

لقد ترك قرار إعدام إبراهيم بَاشَـا أثرًا بالغًا في نفسـية السـلطان سليمان بما سيؤدي بشكل محتمل في إحداث تغييرات جذرية في مزاجه. وفي تلك الأثناء كان يتابـع عـن كثب الأعمال التي يقوم بها "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَـا" في مياه البحر الأبيض المتوسـط، ويخطط لقيادة حملة عسـكرية لفتح إيطاليا الذي كان يطمح إليه منذ زمن بعيد. وعليه، فقد وجّه سابـع حملة كبيرة قام بها حتى ذلك التاريـخ، نحـو جزيـرة "كُورْفُـو (*Korfu*)" اليونانية، إذ كانت هـذه الرحلة بمثابة إعـداد لحملـة كبيرة لفتح الأراضـي الإيطالية. وقام الأسـطول العثماني بإجراء مناورات مشـتركة مع نظيره الفرنسـي في البحر للمرة الأولى، بما شـكّل جوابًا نديًّا لإمبراطور إسبانيا "كَارْل الخامس" الذي خرج في حملة عسكرية إلى شمال إفريقيا، واستولى على مدينتي "حلق الوادي (*Halkulvâdî*)" و"تونس" التونسيتين اللتين كانتا يدافع عنهما بَرْبَرُوسْ خير الدين في شهر تموز/يوليو عام ١٥٣٥م.

من البحر الأدرياتيكي إلى سهوب البحر الأسود الشمالية: حملتان عسكريتان بعيدتان

بينما كان السلطان سليمان منشغلًا بغزو العراقيْن، كانت الأوضاع في البحر الأبيض المتوسط ملتهبة للغاية. فالسلطان يرغب في تغيير موازين القوى لصالحه في البحر المتوسط مستعينًا بـ"بَرْبَرُوسْ خَيْر الدين بَاشَا" الذي أسند إليه مهمة قيادة الأسطول. وعندما عاد بَرْبَرُوسْ من حلب إلى إسطنبول، انشغل ببناء السفن في الترسانة، وعمد إلى نقل خبرته في مجال بناء السفن لتحديث قدرات الأسطول العثماني وفق ظروف عصره، إذ نجح في بناء ٦١ سفينة بطرازات متنوعة. ولقد أصبح الأسطول العثماني يتمتع بالعديد من الطرازات المختلفة من السفن الحربية التي تحمل توقيع بَرْبَرُوسْ مثل السفن والقوادس متعددة الطرازات. وخرج إلى البحر وتحت قيادته أسطول مكون من ٨٤ سفينة، ٦١ سفينة منها بَنتها الترسانة العثمانية، و١٨ سفينة كان يملكها شخصيًا، و٥ سفن أخرى استولى عليها بينما كان يعمل كقرصان في البحر.

وتحرك الأسطول العثماني من إسطنبول في صيف عام ١٥٣٤م، وتوجّه صوب السواحل الإيطالية، ووصل إلى مدينة "ريدجو (*Reggio*)" المطلة على مضيق "ميسينا"(٦١)، وقام بمهاجمتها وتدميرها. ثم هاجم مدينة "سان لوكا (*Santa Lucca*)" التابعة لـ"ريدجو" ودمرها هي الأخرى. وبعدها انتقل إلى مهاجمة مدينة "سيترارو (*Sitraro*)"، وأحرق ١٨ سفينة مسيحية كانت راسية في ميناء تلك المدينة. أعقب ذلك وصوله إلى منطقة "فوندي (*Fondi*)" التابعة لمدينة "نابولي (*Napoli*)". وبحسب ما نقله الكتاب الأوروبيون، فقد تقدّم تدمير

---

(٦١) مضيق ميسينا: عبارة عن ذراع بحري يصل بين البحر التيراني بالبحر الأيوني في البحر الأبيض المتوسط، ويفصل بين جزيرة صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية عند إقليم كالابريا، أي أنه يفصلها عن القارة الأوروبية. (المترجم)

منطقـة "فوندي" على أسْـر "جوليـا جونزاجـا (*Giulia Gonzaga*)"[٦٢] وتقديمها إلـى السـلطان سـليمان. ولقد حـازت هذه الواقعـة على مكانة كبيـرة في عقول الأوروبيين ومخيلتهم. وبالرغم من ذلك، فإن تطور الواقعة ونقلها يعتبر موضـع شك، إذ لا تعدو كونها رواية خيالية رائعة من الطراز الأول.

تحـرك الأسـطول العثماني بقيـادة بَرْبَرُوسْ مـن السـواحل الإيطالية تجاه سواحل تونس. وفي الواقـع، فإن الهجمات التي قام بها الأسطول العثماني على المدن الإيطالية كانت تهدف لاستدراج "أندريا دوريا" ومنازلته.

لكن بَرْبَرُوسْ آثر التوجّه صوب تونس عندما لم يجد رد فعل من "دوريا"، حتى وصل في نهاية إلى سواحل تونس.

وكانـت تونس في ذلك التاريخ تخضـع لسـيطرة سـلالة "بنـي حفص"[٦٣] التـي كانـت تحكمهـا منـذ زمـن طويـل. وكان من يحكمهـا في ذلـك التوقيت هو "مَوْلَايْ حسن" الذي اعتلى العرش بصفته الوريث الثاني والعشرين من هذه الأسـرة الحاكمـة. وقد أقدم هذا الرجل على قتل ٤٢ مـن إخوته البالـغ عددهم ٤٤ أخًا. ولـم يكن يحظى بشـعبية بسـبب شخصيته الظالمة. وكان بَرْبَرُوسْ يريد الاسـتيلاء على تونس حيث اسـتغل لذلك "رشيد" شـقيق "مَوْلَايْ حسن" -أحد الرجليـن اللذيـن كانـا لا يـزالان علـى قيـد الحياة- وكان قـد لجأ إليـه من قبلُ هربًـا مـن ظلم أخيه فاصطحبه بَرْبَرُوسْ إلى إسـطنبول. فتوجّه نحو مدينة "حلق الـوادي"(٦٤) وأنـزل جنوده على سـواحلها، وسـار حتى مسـافة ٩ أميال داخل الأراضي التونسـية. وقد اسـتطاع الجانب العثماني اسـتمالة اثنيـن من العاملين داخل قلعة تونس بشـكل سـرّي، فسـلّم هذان الأخيران مفاتيح القلعة إلى قيادة

(٦٢) جوليا جونزاجا: سـيدة نبيلة إيطالية عاشـت في القرن السـادس عشر، أُسرت خلال الغزو العثماني لإيطاليا تمهيدًا لتقديمها للسلطان سليمان كجارية. (المترجم)

(٦٣) بنـو حفـص أو الحفصيـون: سـلالة أمازيغيـة حكمت في تونس، شـرق الجزائـر وطرابلس ما بين ١٢٢٩-١٥٧٤م. (المترجم)

(٦٤) حلق الوادي: مدينة وميناء تونسي يقـع شمال البلاد قرب مدينة تونس العاصمة. (المترجم)

الأسطول العثماني، مما ساعد قوة تركية قوامها ٥ آلاف جندي على الدخول إلى المدينة على الفور وبسط السيطرة عليها.

وفرّ "مَوْلَايْ حسن" هاربًا من المدينة، ورحب الشعب التونسي بفتح العثمانيين للمدينة واستقبلوهم بفرحة كبيرة لظنّهم أن العثمانيين سينصّبون "رشيد" شقيق "مَوْلَايْ حسن" على العرش. إلا أن بَرْبَرُوسْ لم يصطحب "رشيد" في هذه الغزوة، ذلك لأنه استولى على تونس لصالح الإمبراطورية العثمانية. فلم يستسغ الشعب التونسي هذا التصرّف، وشرعوا في مقاومة القوات العثمانية التي دخلت المدينة. وحاول "مَوْلَايْ حسن" الاستفادة من هذه الأوضاع غير المستقرة، وجمع عددًا من الجنود، وتمكّن من العودة إلى تونس لفترة من الوقت. لكن مَدافع الجيش العثماني انهالت عليه بقذائفها حتى اضطر للهروب بشقّ الأنفس.

أدرك بَرْبَرُوسْ أن حاكم تونس السابق "مَوْلَايْ حسن" سيواصل هجماته على تونس محاولًا استعادتها من أيدي العثمانيين، فعلم يقينًا أنه لن يستطيع بسط نفوذه بشكل كامل على المدينة من دون التخلّص من هذا الخطر الداهم. فتعقّب بَرْبَرُوسْ حاكم تونس السابق على رأس قوة مكونة من ١٠ آلاف جندي، وهاجمه بمدينة "القيروان"[٦٥]، وأُجبر "مَوْلَايْ حسن" مرةً أخرى على الهرب أمام قوة العثمانيين العسكرية.

ويُروى أن بَرْبَرُوسْ أثناء رحلته إلى "القيروان"؛ أمر جنوده أن يربطوا أشرعة السفن بعربات المدافع، مما ساعد السفن على التحرك بسرعة أكبر بفضل الرياح. وبهذه الطريقة استطاع بَرْبَرُوسْ إخضاع تونس للسيطرة العثمانية عام ١٥٣٤م. إلا أن استيلاء العثمانيين على تونس كان يعتبر خطوة مهمة للغاية في طريقهم لبسط نفوذهم على البحر المتوسط. وكانت هذه النقطة التحولية

(٦٥) القيروان: مدينة تونسية تبعد حوالي ١٦٠ كيلومترًا عن تونس العاصمة. ويعود سبب أهميتها إلى دورها الإستراتيجي في الفتح الإسلامي، فمنها انطلقت حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا بالإضافة إلى أن بها قبور عدد من صحابة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. (المترجم)

من المسائل الأساسية التي طالما أرّقت إمبراطور ألمانيا "كَارْل الخامس". فسيطرة العثمانيين على البحر المتوسط تعني إصابة موانئ البلدان الأوروبية المطلة عليه بالركود، والإضرار بتجارتها في مياهه. كما انزعجت البلدان الأوروبية الصغيرة المطلة على سواحل البحر المتوسط من هذه التطورات بشكل خاص، ذلك لأنها كانت تتمتع بمكانة كبيرة في المنطقة بصفتها مراكز تجارية مهمة، فلجأ حكامها إلى الإمبراطور "كَارْل"، وشجّعوه على التصدّي للعثمانيين. وقد انضم فرسان "سانت جيان (*St. Jean*)" على وجه الخصوص إلى تلك الحركة، بعد أن اضطروا للهجرة من جزيرة "رودس" إلى جزيرة "مالطا". وعلم "مَوْلَايْ حسن" بتواجد السلطان سليمان في رحلته إلى العراقيْن من شقيقه الآخر "عبد المؤمن" المتواجد في مدينة "طرابلس" الغرب. ولهذا السبب، طلب "مَوْلَايْ حسن" المساعدة من فرسان "مالطا" الذين كانت تمتد حدود نفوذهم حتى سواحل "طرابلس" الغرب، كما لجأ إلى "كَارْل الخامس" طلبًا للعون في مواجهة العثمانيين. وقد قرّر الأخير التحرك بنفسه صوب تونس لتحريرها من أيدي العثمانيين.

استقلّ الإمبراطور السفينة متوجهًا إلى تونس من ميناء "برشلونة (*Barselona*)" بتاريخ ٢٩ أيار/مايو ١٥٣٥م، يرافقه عدد من نبلاء إسبانيا. وتوجّه الأسطول الإسباني المكون من قرابة ٥٠٠ قطعة بحرية بقيادة "أندريا دوريا" إلى السواحل التونسية. وكان هذه السفن تحمل قوة عسكرية قوامها ٢٤ ألف جندي من ألمانيا، ومالطا، وإسبانيا، والبرتغال، و"جنوة (*Ceneviz*)"، و"نابولي (*Napoli*)". ووصل هذا الأسطول العملاق يوم ١٦ حزيران/يونيو إلى سواحل مدينة "حلق الوادي" التونسية التي تطل عليها قلعتها. ونجح الجنود الإسبان الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من هذا الجيش، في استقلال القوارب الصغيرة، والوصول إلى الشاطئ بدعم من نيران البنادق. ثم تبعهم الجنود الإيطاليون والألمان بعد ذلك. وكان بَرْبَرُوسْ قد دعّم قلعة المدينة بقوة قوامها ٦٠٠ جندي، كما كانت القلعة محاطة بالعديد من الحصون المنيعة حول جهاتها الأربعة. ولقد دافع بَرْبَرُوسْ عن مدينة "حلق الوادي" لشهر كامل،

علـى اعتبـار أنها تمثل بوابة تونس المطلة على البحر. لكن الفروق بين الطرفين كانـت ظاهـرة للعيـان، وبالرغم من ذلك فقد دافـع العثمانيـون عن قلعة المدينة باسـتماتة. حتى إن جيش الإمبراطور لم يسـتطع بناء معسـكر لإدارة العمليات العسـكرية أمام قلعة المدينة إلا بعد ٢٠ يومًا بسـبب القصف المتواصل للبنادق والمدافـع العثمانية. وفي الوقت نفسه تمكّن الجنود العثمانيون من مباغتة قوات العـدو بهجمـات ليلية مفاجئـة أربكتهم وأفقدتهم قواهم، كمـا خرجوا من قلعة المدينـة ثلاث مرات وأغـاروا على قوات العدو المرابطة خارجها. إلا أن قوات العـدو كانـت تُحكم سـيطرتها علـى حصار المدينـة، وكانت تعوّض خسـائرها مـن الجنـود بوحـدات إضافيـة. ولكن مع الأسـف الشـديد لم تسـتطع القلعة الصمـود أكثـر في مواجهـة القوات المسـيحية، على الرغم من جهـود "الرئيس سـنان" المضنية في دفاعه عن ميناء المدينة. واسـتطاع "كَارْل الخامس" في نهاية المطاف الاستيلاء على القلعة بعد هجوم ثانٍ نفّذته قواته ضد الجيش العثماني. وفـرّ من نجا بنفسـه من المدافعين عن قلعـة المدينة هاربًا إلى المكان الذي كان يتواجـد بـه بَرْبَـرُوسْ (١٥ تموز/يوليـو ١٥٣٥م). وغنم الجنود الإسـبان العديدَ مـن المعدّات العسـكرية والذخيـرة التي كانت تملأ القلعة. وبعد سـقوط مدينة "حلق الوادي" في أيدي قوات العدو، وفد "مَوْلَايْ حسن" إلى بلاط الإمبراطور "كَارْل الخامـس"، وأعـرب عـن امتنانـه لهذا النجـاح الباهر. ثم شـهدت الفترة اللاحقة على ذلك التاريخ انضمام العديد من المجموعات المحلية إلى صفوف جيش الإمبراطور.

وفـي تلـك الأثنـاء، كان بَرْبَـرُوسْ يكثّف من اسـتعداداته للدفاع عن مدينة تونـس التـي كانـت تتمتـع بمناظر خلابـة وطبيعة سـاحرة بمسـاجدها الكثيرة، وأسـواقها العامرة، وبسـاتينها الغنّاء. لكن القوات التي كانت تحت قيادته كانت قليلـة العـدد، ولـم يكن من السـهولة بمكان الدفـاع عن مدينة كبيـرة كالعاصمة تونـس بهـذه القـوة الضئيلة. ولقد تسـبب عزوف شـعب المدينة عن المشـاركة في مقاومة قوات العدو، في تحمّل الجنود العثمانيين هذه المسؤولية بمفردهم. لكن هذا لم يُثنِ بَرْبَرُوسْ عن الدفاع عن المدينة. وتمكّن من تكبيد قوات العدو

خسائر فادحة في المعركة التي نشبت بين الطرفين أمام أسوار مدينة تونس. إلا أنه وفي تلك الأثناء استفاد ٤٠٠٠ أسير مسيحي كانوا محبوسين داخل المدينة من هذه التوترات، وخرجوا من السجون ليضعوا المدافعين عن المدينة بين شقي الرحى. واضطر بَرْبَرُوسْ إلى الانسحاب في نهاية المطاف إلى نواحي الجزائر بصحبة ٢٠٠ من جنوده بتاريخ ٢٨ تموز/يوليو ١٥٣٥م.

وما إن دخل جيش الإمبراطور "كَارْل الخامس" المدينة، حتى بدأ في سلبها ونهب خيراتها. ذلك لأن الإمبراطور أذن لجنوده بسلب المدينة أثناء حصارها. فعاث جنوده فسادًا في المدينة، وعمدوا إلى سرقة المنازل، وإحراق الجوامع والمدارس والمكاتب، ونفّذوا مذابح بشعة ضد السكان المحليين، حتى إنهم قتلوا نحو ٣٠ ألفًا منهم، وامتلأت شوارع المدينة بجثث الضحايا هنا وهناك. كما أُسر الجنود الشبان، والنساء، والأطفال، وعُرضوا للبيع كعبيد وإماء في الميادين. حتى إن "مَوْلَايْ حسن" اضطر لدفع مبلغ ألفيّ قطعة ذهبية لإنقاذ محظيةٍ له وقعت أسيرة في يد أحد البحارة. واستمرت أعمال العنف والقتل أيامًا. وفي النهاية، أمر الإمبراطور جنوده بمغادرة المدينة يوم ١ آب/أغسطس. إلا أن خروجهم من المدينة استغرق وقتًا طويلًا. ذلك لأنهم كانوا يتشاجرون فيما بينهم أثناء نقل الغنائم والأسرى، وهو ما تسبب في تأخر خروجهم من المدينة. وقد وافق "مَوْلَايْ حسن" على التوقيع على معاهدة مع الإمبراطور يوم ٨ آب/أغسطس لإنقاذ شعبه من العبودية، وذلك بعد أن ساهم في تعرّضه لهذه المذابح والإهانات على أيدي قوات العدو. ونصّت هذه الاتفاقية على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين بالمدينة، والسماح لهم بأداء عباداتهم ومزاولة شعائرهم الدينية بحرية تامة في تونس. كما وافق "مَوْلَايْ حسن" على التنازل عن مدينة "حلق الوادي" للإسبان، وسداد ١٠ آلاف قطعة ذهبية كنفقات لهذه العملية. وبهذه الطريقة، صار "مَوْلَايْ حسن" من حلفاء الإمبراطورية في إفريقيا. وقد عهد "كَارْل الخامس" بحماية قلعة مدينة "حلق الوادي" إلى القائد "دون بيرناردو ميندوزا (*Don Bernardino Mendozza*)" برفقة قوة عسكرية ضخمة. وتحرك الإمبراطور إلى روما لتقديم فروض الطاعة للبابا، وأرسل "دوريا"

على رأس أسـطول عسـكري إلى الجزائر لتعقّب بَرْبَرُوسْ والقضاء عليه. ولقد حظي النصر الذي أحرزه الإمبراطور بنشوة كبيرة في العالم المسيحي. وانتشرت الروايـات المبالـغ فيها عن الهجمـات التي انتصر فيها جيش الإمبراطور. إلا أن الحقائـق كانـت مغايرة تمامًـا لهذه الروايـات الخيالية. ذلك لأن الشـرف الذي حظـي بـه الإمبراطور بذلك الانتصـار قد بُني على أشـلاء ٣٠ ألف مدني بريء وتخريب كافة أرجاء تونس.

وبعـد أن غـادر بَرْبَـرُوسْ تونـس، وصل إلى مدينـة "عنّابـة"(٦٦) التي كانت تُسـمى قديمًـا "بونـة (*Bone*)". وبعد أن أتمّ اسـتعداداته هناك، انتقـل إلى مدينة "بجاية"(٦٧). وأرسل أوامر إلى قادة أسطوله مطالبًا إياهم بتجميـع سفن الأسطول. ومـن ثـمّ تحـرك صـوب الجزائـر. واسـتطاع الحصـول علـى عدد من السـفن من الجزائر، ليرتفـع عدد سفن أسطوله إلى ٣٢ سفينة. ولـم يكن اليأس قد تسلّل إلـى نفـس بَرْبَرُوسْ فـي أعقاب الهزيمة التي تعرّض لها فـي تونس. فأبحر على رأس جيشـه فورًا إلى جزر "البليار"(٦٨) القريبة من السـواحل الإسـبانية. وهاجم قلعـة مدينة "مـاون" الواقعة فـي جزيـرة "منورقـة (*Minorka*)"(٦٩)، وقلعة مدينة "بالما (*Polma*)" في جزيرة "ميورقة (*Mayorka*)"(٧٠).

حتى إن سكان جزيرة "ميروقة" استقبلوه بحفاوة بالغة ظنًّا منهم أن أسطوله هو الأسـطول المسـيحي العائد إلى أوروبا بعد تحقيق انتصار تونس. وكان هذا الهجوم الذي قام به بَرْبَرُوسْ خير مثال على شـخصيته الأبية الرافضة للخضوع واليـأس علـى الرغـم مـن الهزيمة التـي مُني بهـا. ونجـح بَرْبَرُوسْ فـي العودة من جزر "البليار" إلى الجزائر بالعديد من الغنائم. وقد نزع هذا الهجوم الذي قام

(٦٦) عنّابة: إحدى مدن الجزائر. سابقًا كانت تسمى "بونة". تقع شمال شرق الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتعتبر رابع مدينة في الجزائر من حيث الأهمية. (المترجم)

(٦٧) بجاية: مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. (المترجم)

(٦٨) جزر البليار: أرخبيل جزر يقع شرق إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط. يتكون الأرخبيل من أربع جزر كبرى رئيسية، وتحيط بها عشرات الجزر الصغيرة المتناثرة حولها. (المترجم)

(٦٩) جزيرة منورقة: ثاني أكبر جزر أرخبيل البليار. (المترجم)

(٧٠) ميورقة: أكبر جزر إسبانيا وأرخبيل البليار في البحر المتوسط. (المترجم)

به بَرْبَرُوسْ طعم الفرحة من الاحتفالات التي أحياها المنتشون بالنصر في روما. وعقب ذلك، دعاه السلطان سليمان العائد من رحلة العراقيْن إلى العاصمة إسطنبول. ووصل بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول، وخرج بعدها، وبالتحديد في شهر أيلول/سبتمبر عام ١٥٣٦م، على رأس أسطول ضمّ ٣٠ سفينة من الترسانة الأميرية في رحلة صغيرة إلى السواحل الإيطالية. ويُروى أن هذه الرحلة كانت بقصد تقديم المساعدة لملك فرنسا "فرانسوا الأول (*Fraçois.I*)". لأن السلطان سليمان كان قد وعد ملك فرنسا بتقديم الدعم له في الهجوم المشترك بين الجانبين على مملكة "نابولي (*Napoli*)". ولهذا السبب، أنزل بَرْبَرُوسْ عددًا من جنوده إلى "أوترانتو (*Otoranto*)"[٧١]. وقد أطلق المؤرخون العثمانيون على هذه الحملة اسم "حملة بوليا"، إذ استطاع الجيش العثماني السيطرة على قلعة "كاستيل (*Kastel*)"، لكنه لم يستطع التقدّم أكثر من ذلك.

والسبب في ذلك أن القوات الفرنسية لم تأتِ لتقديم الدعم للقوات العثمانية كما كان متفقًا عليه للإغارة على "نابولي (*Napoli*)". إضافةً إلى أن الأسطول العثماني لم يكن بكامل قوته حتى يتمكّن من تنفيذ هذه العملية العسكرية بمفرده دون مساندة. لكن على أية حال، فقد كانت هذه الرحلة تجربة جيدة نوعًا ما بالنسبة للحملة الثانية التي كانت ستجري بعد عام واحد. وفي تلك الأثناء، حاصرت قوة نمساوية قوامها ١٢ ألف جندي قلعة "سولين (*Solin*)"[٧٢] في عام ١٥٣٧م، تلك القلعة التي كان قد استولى عليها العثمانيون أثناء حملتهم على ألمانيا عام ١٥٣٢م. فهرع حاكم البُوسْنَة "خُسْرَوْ بَكْ" إلى الدفاع عن القلعة، وألحق خسائر فادحة بالجيش النمساوي، كما حاصر قلعة "كليس (*Klis*)" المملوكة لهم واستولى عليها.

(٧١) أوترانتو: بلدة وبلدية في مقاطعة ليتشي في إقليم بوليا في جنوب إيطاليا. (المترجم)

(٧٢) سولين: مدينة كرواتية تتبع منطقة دالماسيا المطلة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي. (المترجم)

التوجّه صوب "بوليا"[٧٣] وتحرك السلطان نحو "فلورة"[٧٤]

كانت فكرة غزو إيطاليا تراود السلطان محمد الفاتح جدّ السلطان سليمان، إلا أنه لم يستطع تنفيذ مخططه هذا، فصارت هذه الفكرة من أهم القضايا التي تشغل بال السلطان سليمان الذي حقق هدفين عظيمين كان يرنو إليهما (رحلة "أوترانتو (*Otoranto*)").

وكان السلطان سليمان سيحتاج إلى موقع إستراتيجي ييسّر له التوجّه صوب إيطاليا لتكوين قاعدة عسكرية قوية. فبعد عودة السلطان سليمان من رحلة العراقيْن، منح بَرْبَرُوسْ مهام أخرى حيث أرسله إلى سواحل "بوليا (*Pulya*) (أوترانتو) بعد تقليده لقب "البَاشَا القبطان". ذلك لأنه في تلك الأثناء كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والبندقية آخذة في التردّي. لا سيما وأن مقتل "كِرِيتّي" دوق البندقية أحدث حالة من عدم الاستقرار والحساسية في المنطقة. وإن وصية "أَيَاسْ بَاشَا" بالتعامل بطريقة أكثر اعتدالًا مع الوضع في البندقية لم تُجدِ نفعًا أمام الرؤى السياسية والأفكار العسكرية التي كان يمتلكها بَرْبَرُوسْ الذي كان يعلم جيدًا نفاق أهل البندقية. وعلى الرغم من أن أهل البندقية لم يتحالفوا مع أي طرف ضد العثمانيين بشكل واضح، إلا أنهم في الوقت نفسه أقدموا على تنفيذ بعض الأعمال المضرة بمصالحهم كلما سنحت الفرصة لذلك، وكانوا يوجّهون القراصنة التابعين لهم للإغارة على السفن التجارية التركية في البحر. فلم ينسَ العثمانيون هذه الحركات الماكرة، وبدأت جبهة مناهضة للبندقية تتشكّل بشكل تدريجي في أوساط رجال الدولة العثمانيين.

---

(٧٣) بوليا: منطقة في جنوب شرق إيطاليا مطلة على البحر الأدرياتيكي في الشرق والبحر الأيوني إلى الجنوب الشرقي ومضيق أوترانتو وخليج تارانتو في الجنوب. (المترجم)

(٧٤) فلورة: هي من كبرى مدن ألبانيا وثاني ميناء في البلاد. (المترجم)

وفي تلك الأثناء أرسل الديوان العثماني مترجمه "يونس بَكْ" إلى البندقية لدعـوة حكامهـا لمراعـاة أحـكام المعاهـدة الموقعـة مـع الجانـب العثماني، إلا أنـه قوبل بمعاملة سـيئة أفضت في النهاية إلـى إصابة العلاقات بين الجانبين بخمـولٍ تـام. وعندما ذهـب "يونس بَكْ" إلـى البندقية هذه المـرة، دعا حكامها إلى مراعاة أحكام المعاهدة مع الدولة العثمانية، إضافةً إلى توصيتهم بالتحالف مـع ملك فرنسـا "فرنسوا الأول" ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وألمح إليهم بأن جيش الدولة العثمانية وأسـطولها جاهزان لهذه المعركة. وقد شـرح "يونس بَكْ" هذه المسـائل بشـكل شفوي باللغة الإيطالية، إلا أن الخطابات التي حملها مـن الديـوان العثماني إلى حـكام البندقية لم تتطرّق إلى هذه القضايا السياسـية، فهـي كانت تنطوي فقط على بعـض الموضوعات التجارية بين الجانبين. ويبدو أن السلطان سليمان رغب في عدم الإفصاح عن هذه المهام الدبلوماسية السرّية بشكل كتابي في خطاباته، فأصدر تعليمات شفوية لرسوله إلى البندقية للحديث عـن هذا الشـأن. وبالرغم مـن رغبة حكام البندقية فـي المحافظة على علاقاتهم بالدولة العثمانية، لكنهم في الوقت نفسـه لم يكونوا يريدون الدخول في حرب مـع "فرانسـوا الأول" ضـد "كَارْل الخامس"، ذلك لأنهم كانوا ينتهجون سياسـة "احـزن مـع الخاسـر في الحرب، وافرح مـع الفائز فيها"، بحيث لجأوا إلى هذه السياسة الحيادية كذلك في أعقاب معركة "بافيا (*Pavia*)" بين الطرفين نفسيهما.

واسـتقبل حـكام البندقيـة "يونـس بَـكْ" بحفـاوة، وأعربـوا له عـن نواياهم السلمية، ولم يُشيروا إلى رغبتهم في الدخول في تحالف ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس". وأبلغوه بأن عليه الرحيل فورًا من المدينة، لأن أحد رسل الإمبراطور نما إلى سمعه أن رسولًا عثمانيًّا يتواجد في البندقية، وعلم بما جاء به من عرضٍ لمجابهة الإمبراطور. وكان رسول الإمبراطور قد وفد إلى المدينة لإقناع حكامها بالتحالـف مـع الإمبراطور ضد فرنسـا والدولة العثمانية. فزادت هذه التصرفات من حكام البندقية من شـك العثمانييـن إزاءهم. كما تعرّض "يونس بَكْ" لهجوم من أهل البندقية خلال خامس رحلة يجريها إلى المدينة، مما شكّل حجةً مقنعة

لـدى العثمانييـن بـأن مواثيق السـلام مـع البندقية قد فُسـخت، وبـدأت الحرب عليهـم. وقـد قام "جيرولامـو ميشـيل (*Girolamo Michiel*)" المكلَّـف بالدفاع عـن جزيـرة "كُورْفُو" اليونانيـة بالهجوم على عدد من السـفن العثمانية التي كان علـى متـن إحداها "يونس بَـكْ"، والتي كانت في طريقها إلـى البندقية للتفاوض مـع حكامها، وذلك لعدم علمه بالمفاوضات الدبلوماسية الجارية بين العثمانيين والبندقية. وأُسـر الأتراك الذين فرّوا هاربين إلى الشـاطئ، وكان من بينهم أيضًا "يونـس بَـكْ". فاعتـذر حكام البندقية إلـى "يونس بَكْ" وأبلغـوه أن هذا الهجوم تمخّض عن سوء فهم، ومنحوه ٦ آلاف عملة ذهبية للتستّر على هذه الواقعة.

وعلـم أهـل البندقيـة أن العثمانييـن يسـتعدون للحـرب، فاعتقـدوا أنهـم سـيقدمون علـى حملتهم العسـكرية برًا عبـر الأراضي المَجَريـة، وذلك لتيقّنهم من أن الجيش العثماني قويٌ للغاية في البَرّ. حتى إن رسـولًا من البندقية يُدعى "توماسـو موسـينيجو (*Tomaso Mocenigo*)" سـافر إلى إسطنبول ليوصل تهاني دوق البندقية إلى السـلطان سـليمان الذي عاد من غزوة العراقيْن منتشيًا بالنصر. وأعرب رسول البندقية عن شكواه للسلطان العثماني من رفع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المصدَّرة من البندقية إلى منطقة الشـام، وعدم حصوله علـى خطابـات سـفيره إلى البندقيـة، وبعـض القضايا الأخـرى المغايـرة لبنود المعاهـدة الموقعـة بين الطرفين. ولقد أعطى "أَيَاسْ بَاشَـا" -الذي تولّى منصب الصـدر الأعظم خلفًا لـ"إبراهيم بَاشَـا"- ضمانات لرسـول البندقية من أجل حل هـذه القضايا، كمـا علم حكام البندقيـة أن التجهيزات العسـكرية الضخمة التي يقـوم بهـا الجيـش العثماني فـي الموانئ إنما هـي موجّهة إلى تونـس ونابولي، ممـا أحيـا الأمل من جديـد في قلوب أعضـاء مجلس البندقية. لكـن كما ذكرنا سـابقًا، فـإن تصرفات حـكام البندقية ضـد الدولة العثمانية دفعـت هذه الأخيرة لتنظيم حملة عسـكرية ضد المدينة التي كان يراود حلم فتحها مخيلةَ السـلطان محمـد الفاتـح. كما أخـذ القادة العثمانيون بعين الاعتبـار إدخال البندقية كذلك في الحلف المضاد للدولة العثمانية الذي شكّله البابا، فيما كانوا يتخذون القرار

لمهاجمة المدينة. فقد نجح البابا "باول الثالث (*Paul.III*)" في التوفيق بين الإمبراطور "كَارْل الخامس" والملك "فرانسوا الأول"، وفرض تهدئة فيما بينهما، ثم أُدخل حكام البندقية هم أيضًا في إطار هذا الاتفاق (١٥٣٧م). لكن الفرنسيين كان من المفترض أن يُرسلوا أسطولًا إلى البحر الأدرياتيكي وفق اتفاق التحالف الذي يجمعهم بالدولة العثمانية.

لقد بدأت ترسانات الدولة العثمانية في إسطنبول ببناء السفن تدريجيًّا عقب عودة السلطان من رحلة العراقيْن، كما أرسل الديوان أمرًا إلى كافة مناطق الأناضول لتجميع ٣٠ ألف جدّاف. أعقب ذلك تجهيز أسطول ضخم مكوّن من ٢٠٠ سفينة بمختلف الأحجام بقيادة الوزير الثاني "لطفي بَاشَا" وبَرْبَرُوسْ خير الدين، وانطلقت هذه السفن إلى البحر بتاريخ ١ ذي الحجة ٩٤٣هـ (١١ أيار/مايو ١٥٣٧م). ثم تحرّك السلطان سليمان برًّا بعد انطلاق الأسطول نحو سواحل البحر الأدرياتيكي بأسبوع كامل، وكان يرافقه ابناه الأمير "سليم" و"محمد" (٧ ذي الحجة - ١٧ أيار/مايو).

وانطلق الجيش العثماني برًّا صوب مدينة "إلباسان (*İlbasan*)" في ألبانيا، مرورًا بمدن "أَدِرْنَه" و"ساماكوف (*Samakov*)" و"سكوبيه". وبينما كان الجيش العثماني قد وصل إلى مدينة "فلورة "الألبانية، كان الأسطول منشغلًا بإنزال الجنود إلى سواحل مدينة "أوترانتو" الإيطالية، وفي تلك الأثناء هاجم "أندريا دوريا" أسطولًا عثمانيًّا مكونًا من ١٢ سفينة قابله بالقرب من جزيرة "باكسوس (*Paksos*)" اليونانية، بعدما انطلق إلى البحر يوم ١٧ تموز/يوليو. وكان هذه الأسطول الصغير تحت قيادة أمين ترسانة جاليبولي "علي شلبي"، وكان في طريقه للانضمام إلى الأسطول العثماني عند سواحل إيطاليا. وقد قاتل "علي شلبي" ببسالة فائقة في مواجهة هذه القوات الضخمة، وكبّد العدو خسائر فادحة. حتى إن البحّار "دوريا" أُصيب في هذه المعركة في ركبته. وعلى الرغم من هذه الجسارة التي أظهرها الأتراك، إلا أن الأسطول العثماني لم يستطع الصمود مدة أطول أمام قوات العدو الهائلة حيث دمّرت بعض السفن،

وأُسر البعض الآخر. وما إن سمع بَرْبَرُوسْ بهزيمة هذه الأسطول العثماني، انطلق للهجوم على أسطول "دوريا"، لكن هذا الأخير انسحب من الساحة وتوارى عن الأنظار. وحينها شعر بَرْبَرُوسْ بضرورة التصرّف بحيطة وحذر تحسّبًا لأي هجوم مماثل محتمل. وشكّل أسطولًا من ٦٠ سفينة ليرافق به السفن العثمانية التي كانت قادمة من مصر تحمل المؤن والحبوب لحمايتها. ثم بعد ذلك اتحد مع أسطول "لطفي بَاشَا" العائد من سواحل "بوليا"، وتوجّها صوب سواحل مدينة "بريفيزا" اليونانية. وفي حقيقة الأمر، فإن هذه القوات أنزلت ٨ آلاف جندي إلى "أوترانتو"، فدمّروا المدن الضعيفة التي قابلتهم في المنطقة، ومكثوا في هذه المنطقة على مدار شهر كامل دون مقاومة تُذكر.

لم يكن السلطان سليمان قد أعلن بعد حالة الحرب على البندقية بشكل قطعي. وفي تلك الأثناء، هاجمت سفن البندقية أسطولَ "يونس بَكْ" الذي كان عائدًا من المدينة، كما ذكرنا أعلاه، وحصل البحارة العثمانيون على خطابٍ أرسله "أندريا دوريا" إلى أميرال البندقية "بينيديتو بيسارو (*Benedetto Pesaro*)" وألمح فيه إلى عقْد اتفاق سرّي بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، كل ذلك دفع القوات العثمانية لتحويل وجهتها من فلورة إلى البندقية. وأمر السلطان "لطفي بَاشَا" بحصار جزيرة "كُورْفُو" الخاضعة لحكم البندقيين، وكلّف الوزير "مصطفى بَاشَا" بإخماد ثورات المناطق الألبانية بينما كان متواجدًا في فلورة. وقد نجحت القوات العثمانية في عملية العقاب تلك التي تمّت بمشاركة الصدر الأعظم "أَيَاسْ بَاشَا".

غادر "لطفي بَاشَا" سواحل فلورة يوم ٢٥ آب/أغسطس، وبدأ بعدها بيوم واحد في حصار "كُورْفُو". وعمد الأسطول العثماني إلى قصف مدفعي على قلعة "سان أنجيلو (*San Angelo*)" المتحصنة في الجزيرة اليونانية التي تخضع لحكم البندقية. وكانت مسألة السيطرة على هذه القلعة المحاطة بالمياه من ثلاث جهات أمرًا في غاية الصعوبة على العثمانيين، إلا أن قذائف المدافع بدأت تدريجيًّا في إحداث ثقوب في أسوار القلعة. وكان الجنود

المغاويـر العثمانيون قد اسـتولوا علـى بعض قرى هذه الجزيرة. وأما السـلطان سـليمان، فتحـرّك من فلورة يوم ٢٦ آب/أغسـطس إلـى ميناء "باسـتيا" المقابل لجزيرة "كُورْفُو"، وأنشأ به مقرًا لمتابعة الأحداث. وبينما كان القتال على أشده، أرسـل السـلطان "أَيَاسْ بَاشَـا" إلى "كُورْفُو"، وأمره برفـع الحصار عن الجزيرة. لكـن "لطفـي بَاشَـا" وبَرْبَـرُوسْ اعترضا علـى هذا القـرار متحججين بـأن قلعة الجزيـرة فُتحـت بها ثغرات، وإن رُفـع الحصـار عنها الآن، فإن جميـع جهودهم سوف تذهب هباءً. إلا أن ذلك لم يغير شيئًا في قرار السلطان.

وتجـدر الإشـارة إلـى أن العديـد مـن المؤرخيـن العثمانيين يعـزون قرار السـلطان برفـع الحصار عـن جزيرة "كُورْفُـو" إلى برودة الجو بشـكل مفاجئ، وهطول الأمطار الغزيرة. ويروي هؤلاء المؤرخون أيضًا أن قذيفة مدفعية قُصفت من داخل القلعة فسـقطت فوق عدد من الجنود العثمانيين، مما أدّى لاستشـهاد أربعة منهم، فأمر السلطان سليمان برفـع الحصار فورًا قائلًا:

"... أنـا لا أضحـي بجندي واحـد من جنودي ولو في سـبيل ألف قلعة كهذه..."

لكـن هـذه الأسـباب والحجج لا يستسـيغها العقل كمبرر لرفــع الحصار. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن السـلطان سـليمان لم يكن مطمئن النفس فـي الأسـاس لهـذه المحاولة، كما لم يكن مقتنعًا بأن التحالف مـع ملك فرنسـا "فرانسـوا الأول" سـيمكن تطبيقه على أرض الواقـع في لحظة كهذه، فضلًا عن أنه لم يكن يثق في القدرة العسكرية والإستراتيجية للصدر الأعظم "أَيَاسْ بَاشَا". إلا أننا لا نصادف أدنى إشـارة إلى عدم كفاءة "أَيَاسْ بَاشَـا" في مصادر التاريخ العثماني. هذا إضافةً إلى عدم وجود أي معلومات حول مواقف "فرانسوا الأول" ووسـاطته بين الطرفين. من ناحية أخرى، وصل الأسطول الفرنسي إلى سواحل ألبانيـا بينمـا كان الأسـطول العثماني يحاصر جزيـرة "كُورْفُو"، ثم تعقّب سـفن بَرْبَـرُوسْ حتـى وصل إلـى جزيرة "خيـوس" اليونانية، وقضى بها فصل الشـتاء. ومن ثم عاد الأسطول الفرنسي بقيادة البارون "سان بلانكار" إلى فرنسا في شهر حزيران/يونيو من العام التالي.

وبهذه الطريقة رفع السلطان سليمان الحصار عن الجزيرة، وانطلق نحو إسطنبول يوم ٢٤ أيلول/سبتمبر مرورًا بمدن "بيتولا" و"أوستروفا (*Ostrova*)" و" سَلَانِيكْ" و"سيرس (*Serez*)" و"فيريس (*Feres/Ferecik*)" و"ديماتوكا (*Dimatoka*)" و"أَدِرْنَه"، إلى أن وصل في النهاية إلى العاصمة إسطنبول يوم ١٨ جمادى الآخرة ٩٤٤هـ (٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٣٧م). ولم تكن عودة السلطان إلى إسطنبول نهاية للصراع بين الدولة العثمانية والبندقية، إذ إن هذا الصراع استمر لفترة في البحر. وبعد أن انتهت رحلة "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَا" إلى إيطاليا، غادرها على رأس أسطول من ٦٠ سفينة، وأما السفن الباقية من الأسطول فعاد بها "لطفي بَاشَا" إلى إسطنبول. وبدأ بَرْبَرُوسْ في التخطيط لأسفارٍ جديدة مستخدمًا الأسطول الذي كان يقوده. ففي البداية غزا جزيرة "كيفالونيا (*Kefalonya*)" التي تسيطر عليها البندقية، ثم واصل طريقه نحو الجنوب الشرقي. وفي تلك الأثناء حاصر حاكم ولاية مورية "قاسم بَكْ" قلاع مدن "مونيمباسيا (*Monembasia*)" و"مالفاسيا (*Malvasia*)" و"نافبليو (*Napoli*)" اليونانية التي كانت خاضعة لسيطرة حكام البندقية. وأما بَرْبَرُوسْ فقد هاجم جزيرة "كيثيرا" اليونانية التي كان يسيطر عليها البنادقة، وغنم الجيش العثماني غنائم كثيرة من هذه الجزيرة التي يُطلق عليها أيضًا اسم "جوكا (*Çuka*)"، ثم حاصر بعض الجزر الأخرى عند خليج "أجانيطس" لمدة ثلاثة أيام، واستولى عليها في نهاية هذه المدة. ثم هاجم جزر "مرتد" و"باروس (*Paros*)" و"أنتيباروس (*Antiparos*)" اليونانية الواقعة في بحر "إِيجَه" واستولى عليها. وبعدها وصل حتى سواحل جزيرة "ناكسوس (*Naksos*)" التي تعتبر واحدة من أهم مجموعة جزر "كيكلادس (*Kiklad*)". وكانت هذه الجزيرة التي أطلق عليها الأتراك اسم "نَاقْشَا (*Nakşa*)" هي مركز مجموعة جزر "كيكلادس" اليونانية. ولقد أدرك حاكم الجزيرة "جريسبو (*Grispo*)" أنه لن يستطيع مقاومة الأسطول العثماني، فأذعن للسيطرة العثمانية، ودفع مبلغ ٥ آلاف قطعة ذهبية مقدمًا، إذ اتفق الطرفان على دفع حاكم الجزيرة هذا المبلغ سنويًّا لخزينة الدولة العثمانية. واستطاع بَرْبَرُوسْ فيما بعد السيطرة على عدد من الجزر

مثـل "سـيروس (*Syra*)"، و"نيـوس (*Nios*)"، و"تينـوس (*Tenos*)"، و"باتمـوس (*Patmos*)"، و"جياروس (*Giyarus*)"، و"أستيباليا (*Stampalya*)".

ومن ثم عاد بَرْبَرُوسْ إلى إسـطنبول بعد غزو هذه الجزر حاملًا معه العديد من الهدايا والأسرى لتقديمهم إلى السلطان. وبينما كان بَرْبَرُوسْ في خضم هذه الغزوة، حاصر حاكم مورية "قاسم بَكْ" مدينتي "نافبليو" و"مالفاسيا (*Malvasia*)" اللتين كانتا بمثابة آخر ما كان يملكه حكام البندقية من أراضٍ في مورية، وقصفهما بالمدافع الضخمة، إلا أنه لم يستطع استعادتهما مرة أخرى.

وفـي الواقـع، كان السـلطان سـليمان على يقينٍ تام من أنـه خرج في غزوة فاشـلة إلى جزيرة "كُورْفُو"، ولهذا السـبب فقد عمدٍ إلى تنفيذ مخططات جديدة لتلافي الآثار السلبية لهذه الحملة الفاشلة. وبدأ السلطان في الاهتمام عن كثب بقضية "مولدوفا (*Moldova*)" التي كانت تابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، رغبةً منه في التخلص من آثار هذا الفشل. وفيما كان منشغلًا بهذه الأمور، كان يتلقّـى أنبـاء الصراع الـواردة من المناطق القريبـة من "دالماسـيا (*Dalmaçya*)" -كرواتيا حاليًا- و"سلوفيينا (*Slovenya*)"، ويتابعها باهتمام بالـغ، إذ كانت حدود "كرواتيـا" تشـهد تطـورات في غايـة الخطـورة. وعندما عاد السـلطان من رحلة "كُورْفُو"، كانت قوات آل "هابسـبورج" قد بدأت في مزاولة أنشـطتها العسـكرية في المناطق القريبة من كرواتيا.

لقد تحجّج قادة حدود "هابسـبورج" باستيلاء حاكم البُوسْنَة "غازي خُسْرَوْ بَاشَـا" على مدينة "كليس" الواقعة جنوب شـرق كرواتيا، ومحاولته لتنفيذ بعض المخططات الأخرى، وشـرعوا في تجميـع القوات على طول امتداد نهر "درافا (*Drava*)". بحيث تجمّـع ١٦ ألف جندي مشـاة، و٨ آلاف من الفرسـان وعُيّن الجنرال "كاتزيانير (*Katziner*)"(٧٥) في قيادة هذه الوحدة العسكرية. وكانت هذه الوحـدة تضمّ نبلاء وأمراء من "بوهيميا"، و"إيسـتيريا"، و"تيـرول"، و"كارنيول"، و"كاريتيـا". وكان يرافـق هـذه الوحـدة ٤٩ مدفعًـا، فعبـرت الحـدود ووصلت

(٧٥) يُذكر باسم "كوتشيان" في المصادر التاريخية العثمانية. (المترجم)

إلـى مشـارف مدينة "أوسـييك" الكرواتيـة تمهيـدًا لحصارها. إلا أنهـم عجزوا عـن حصـار المدينة بفضل الهجمـات المتكررة التي نفّذها ضدهم "يحيى بَاشَـا زاده محمـد بَـكْ"، حتى إنهم اضطروا إلى الدفاع عن أنفسـهم. وفي هذه الأثناء دخـل عـدد من السـكان النصـارى القاطنين هـذه المنطقة إلى مقـر إقامة جيش "هابسـبورج"، وخطفـوا جيـاد الجيـش وثيرانه، ممـا أحدث إربـاكًا في صفوف الجيـش. وعندمـا سـمع القائـد العسـكري "كاتزيانير" بقـدوم "غازي خُسْـرَوْ" و"يحيـى بَاشَـا زاده محمـد بَـكْ"، بـدأ فـي الانسـحاب بعـد أن أخـذت حالته فـي التدهـور مـع مـرور الوقـت. ولأنه قـام بهذا الانسـحاب على عجلـة، فقد تدحرجت بعض قطع المدفعية التابعة لجيشه وهَوت في مياه النهر.

ولمـا سـمع حاكم ولاية "سَـمَنْدِرَه" عـن التحركات العسـكرية على خط الحـدود، أرسـل رسـولًا إلـى "جعفـر بَـكْ" حاكـم "إيزيورنيـك (*İzyornik*)"، و"أحمـد" شـقيق حاكـم مدينـة "كروشـيفاتس" الصربيـة، و"مراد" حاكـم مدينة "كليس"، يخبرهم بقدوم "يحيى بَاشَـا زاده محمد بَكْ" وحاكم البُوسْـنَة "خُسْـرَوْ بَاشَـا"، وطالب منهـم المجيء فورًا. ثم باغتت القـواتُ العثمانية المتجمعة عند مدينة "فوكوفار (*Vukovar*)" الكرواتية وحدات جيش "هابسـبورج". فعلم القائد "كاتزيانير" بقدوم القوات العثمانية، فعبر بجنوده تلال جبل "فيرتيجو (*Vertizo*)" المرتفعة، وعندما وصل إلى الأراضى المنبسـطة قابله فرسـان الجيش العثماني. فألحق الجيش العثماني هزيمة سـاحقة بالنمساويين الذين تكبّدوا خسائر فادحة في هذه المعركة التي وقعت يوم ١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٣٧م. حتى إن القائد النمسـاوي الشـهير "بول باكتيـش (*Pol Bakiç*)" لقي مصرعه فـي هذه المعركة، وذلك بعد أن كسـب شـهرةً واسعة خلال حصار مدينة "جونس"، وأدار المعركة التي وقعت بالقرب من مدينة "نوشـتات" الألمانية والتي استشهد خلالها "قاسم بَاشَـا" أحـد المغاويـر الأتراك. وفي هـذه الليلة عقـد "كاتزيانيـر" مؤتمرًا جمعه بأعضـاء مجلس الحرب، واتخذ قرارًا بالانسـحاب عبر مدينـة "فالبو". لكن في اليوم التالي علم "كونت لودران" الذي كان يسـتعد لتنفيذ هذه الخطة، أن القائد "كاتزيانيـر" اصطحب بعضًا من القوات خلسـةً في الليـل وفرّ هاربًا. وعليه، فقد

فضّل "لودران" قتال العثمانيين، فمُني بهزيمة نكراء في اليوم التالي، وسقط أسيرًا في أيدي الجيش العثماني. وأرسله "يحيى بَاشَا زاده" إلى إسطنبول، إلا أنه وافته المنية وهو في الطريق لشـدّة إصابته. وقد أدخل هذا النصر الذي حققه الجيش العثماني في "فيرتيجو" فرحة عارمة على إسـطنبول. وبينما كانت هذه الأحداث تحدث تباعًا في "فيرتيجو"، كانت نقطة أخرى من الحدود المشتركة بين الدولة العثمانية والنمسـا، على ضفتي نهر "تيسّـا"، تشـهد أحداثًا جديدة. فقد هاجمت القـوات النمسـاوية وحـدات الجيـش العثمانـي المرابضـة عنـد مدينة "تُـوكَايْ (*Tokay*)" المَجَريـة التـي تقـع عند موقـع التقاء نهر "تِيسّـا" ومدينـة "بودروج"، وذلـك بغـرض اسـتعادة المدينـة من أيـدي العثمانيين. وقـاد القوات المنتسـبة إلى منطقة "بوهيميا (*Bohemya*)" التشيكية الجنرال "ديفيل (*Devel*)" الذي هجم بجنـوده لاسـتعادة المدينـة، إلا أنه اضطـر لطلب المزيد من القـوات إثر تدخل القـوات العثمانيـة لصـدّ هجومه، واسـتمر في القتال بعد أن حصـل على الدعم العسكري، لكنه فشل في الاستيلاء على المدينة من أيدي العثمانيين.

وكان السـلطان سـليمان يسـتعد لغزو مولدوفـا عندما وصلته هـذه الأنباء التي تتحدث عن الوقائع التي تشهدها حدود دولته مـع كرواتيا. لكنه كان يعتقد ضـرورة تنظيم شـؤون أسـطوله فـي البحر. فأرسـل "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَـا" فـي البدايـة إلى بحـر "إِيجَه" مرة أخـرى بتاريخ ٩ المحرم ٩٤٥هـ (٧ حزيران/ يونيـو ١٥٣٨م). لكـن هـذه الرحلة لم تتم بسـهولة كما كان متوقعًـا. فقد أدرك بَرْبَـرُوسْ ضـرورة زيادة عدد سـفن الأسـطول العثمانـي، ولهذا السـبب طالب العاملين بترسانة صناعة السفن بالإسراع في إنشاء السفن. وكان يأمل في الانتهاء من إنشـاء ١٠٠ سـفينة بعد الحصول على موافقة السـلطان. وبـدأ العاملون في الترسانة بإنشاء هذه السفن على الفور تنفيذًا لما تلقّوه من أوامر في هذا الصدد. وبينمـا كانت السـفن فـي طور البنـاء، طُلب من بَرْبَـرُوسْ الخروج إلـى البحر، إلا أنه اعترض على هذه الفكرة نظرًا لأن السـفن لم تُجهَّز بعد. مما دفـع وزراء الديـوان للجـوء إلـى حيلةٍ ماكرة لحثّه علـى الخروج إلى البحر. فأشـاعوا خبرًا

مُفاده أن "أندريا دوريا" وصل إلى جزيرة كريت، وينتظر في البحر بصحبة ٤٠ سفينة لمهاجمة الأسطول العثماني الذي يقوده "الرئيس صالح" -المكون من ٢٠ قطعة بحرية- وهو في طريقه لجلب بضائع الهند من مصر. فهرع بَرْبَرُوسْ على الفور للانطلاق إلى البحر على رأس السفن التي كانت في حوزته بتاريخ ٧ حزيران/يونيو (٩ المحرم) وفق رواية بعض المؤرخين العثمانيين، أو بتاريخ ٧ تموز/يوليو (٩ صفر) بحسب رواية البعض الآخر. وكان يرافقه في هذه الرحلة ٤٠ سفينة. كما كانت ٩٠ سفينة تخضع لعملية البناء، ستلحق بأسطوله فور الانتهاء من إنشائها. وقد استقبله السلطان قبل انطلاقه إلى البحر، كما ودّعه رجال الدولة وأركانها حتى الميناء.

لقد خرج بَرْبَرُوسْ خير الدين إلى البحر بنيّة مهاجمة أسطول "أندريا دوريا". لكنه عمد إلى فتح بعض الجزر في بحر "إِيجَه" عندما علم أن "دوريا" لم يصل إلى جزيرة "كِرِيتْ". ولما وصل إلى جزيرة "إمروز (*İmroz*)"، أخرج ١٧ مدفعًا قابلًا للاستخدام من سفينة غارقة عند سواحلها. ثم بعد ذلك فتح الأسطول العثماني جزيرة "سكياثوس (*Sciathus*)"؛ التي منحها العثمانيون آنذاك اسم "إيشكاتوز (*İşkatoz*)"، بعد حصار دام لستة أيام، وأسر ٣٨٠٠ شخص. وفي تلك الأثناء، قدِم من إسطنبول أسطول مكون من ٩٠ سفينة، واتحد بالأسطول الذي كان يقوده "الرئيس صالح" والمؤلف من ٢٠ سفينة، وانضمّا إلى أسطول بَرْبَرُوسْ، ليرتفع بذلك عدد سفن الأسطول العثماني إلى ١٥٠ سفينة. لكن ١٢ سفينة من هذا الأسطول أُعيدت إلى شبه جزيرة "جاليبولي" لنقص تجهيزاتها وافتقارها للحد الأدنى من الجنود. وأُرسل الجزء الباقي من الأسطول صوب جزيرة "وابية" اليونانية. وحينها قام بَرْبَرُوسْ بالاستيلاء على جزيرة "سكيروس (*Skyros*)"، وبعث الغنائم التي ظفر بها من الجزيرة إلى العاصمة إسطنبول. ثم بسط سيطرته على جزر "أندروس (*Andros*)"، و"تينوس (*Tinos*)"، و"سريفوس (*Seriphos*)"، و"سكوربينتا (*Skorpenta*)" من الشمال نحو الجنوب على التوالي. ثم توجّه بعدها إلى جزيرة كِرِيتْ

بعدمـا فـرغ من أنشـطته في جـزر "سـبورات (*Sporat*)" و"كيـكلاد (*Kiklad*)". وكانـت جزيـرة "كِريـتْ" تتبـع حكـم البندقية في ذلـك الوقـت، إذ كان حكام البندقيـة قـد اشـتروها من البيزنطييـن في عـام ١٢٠٤م مقابـل ١٠٠ ألف قطعة نقـود فضيـة في إطار اتفاقيـة موقعة بين الطرفين. وسـيطر عليها حـكام البندقية منـذ ذلـك التاريـخ، وكانوا يعاملـون أهل الجزيـرة من الرومان بظلـم وفظاظة. وكان إخضـاع حـكام البندقية جزيرة كِرِيتْ لسـيطرتهم يمنحهم إمكانيةً التحّكم الكامـل فـي بحر "إِيجَـه". وكان العثمانيـون على وعي تام بأن اسـتيلاءهم على هذه الجزيرة التي تعتبر بمثابة قاعدة مهمة بالنسـبة لحكام البندقية، يعني إحكام السـيطرة علـى بحر "إِيجَه" بأكملـه. وأدرك وقتها بَرْبَرُوسْ أهميـة هذه الجزيرة، وتيقّن من أن قواته غير كافية لمهاجمة جزيرة كبيرة بهذا الحجم والسيطرة عليها، فخطّط لإرسال بعض جنوده الشجعان في هجمات مفاجئة على الجزيرة لتدمير المواقـع الهامة بها، إذ أدرك أن هذه الهجمات المباغتة ستكون بمثابة إعدادٍ جيّد لأي هجوم كبير محتمل تقوم به قواته في المسـتقبل. ووصل أسـطول بَرْبَرُوسْ إلى جزيرة كِرِيتْ على مشـارف قلعة "كاندية". فهمّ جنوده بتدمير نحو ٢٠ قرية قريبـة مـن منطقة "ميلابوتاما (*Milapotama*)" بالجزيـرة، ومن ثم هاجموا مدينة "ريثيمـو". بعدهـا وصلوا إلى منطقة يُطلق عليها اسـم "أبوكـوران" في الجزيرة، واسـتولوا علـى ٨ قـرى بها، وأسـروا عـددًا من قاطنيهـا. ثم بعد ذلـك انطلقوا نحو منطقة "سـودا"، وفتحـوا الأماكن المحيطة بها، وانتقلـوا إلى منطقة "خانيا" الواقعة غرب جزيرة كِرِيتْ. ودافـع أهل "خانيا (*Hanya*)" عن المدينة باسـتماتة محتميـن بقلعتهـا الحصينة، مما دفـع بَرْبَرُوسْ للتخلّـي عن حصار المدينة لمدة طويلـة، وآثـر الإغارة على المدن والقـرى المجاورة لها. وبهـذه الطريقة بدأت الدولـة العثمانية في تشـكيل ضغط كبير على جزيرة كِرِيـتْ وحكامها. وبعد أن استمرت هجمات العثمانيين على الجزيرة لمدة شهر متواصل، لم يعُد بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول، واتجّه نحو جزيرة "كارباثوس"، واستولى على هذه الجزيرة التي كانت تحتضن فيها ثلاث قلاع، ثم أقام بها لعشـرة أيام. وفي تلك الأثناء، بسـط

سيطرته على جزيرة "كاشوت (*Kaşot*)" القريبة. أعقب ذلك مرور الأسطول العثماني ببعض الجزر المجاورة لجزيرة رودس. إلا أن رياح السموم هبّت بشدّة على سفنه، مما أنهك قوى مُجدّفي سفن الأسطول، فأمرهم بَرْبَرُوسْ بالاستراحة لمدة في جزيرة "كوس". وانضمّ عددٌ من المجدّفين النصارى إلى الأسطول العثماني في هذه الجزيرة، كما لحق بهم بعض المجدّفين القادمين من الأناضول. وبعد أن حصل الأسطول العثماني على بعض احتياجاته الضرورية في هذه الجزيرة، انطلق إلى جزيرة "أستروبالاي (*Astropalay*)"، واستولى عليها. فقد طاف الأسطول العثماني خلال هذه المدة بـ ٢٥ جزيرة تابعة لحكم البندقية في بحر "إِيجَه"، بسط نفوذه على ١٣ منها، وفرض الخراج على ١٢ أخرى، ودمّر جزيرة كِرِيتْ. إلا أن سيطرة الأسطول العثماني على هذه الأماكن التابعة لحكام البندقية وتدميرهالم تُحرّك ساكنًا لأسطول البندقية.

ومن المحتمل أن يكون السلطان سليمان قد تلقّى أنباء هذه الغزوات التي قام بها بَرْبَرُوسْ بينما كان في طريقه إلى غزو مولدوفا. لكنه كان قد أصدر أوامر بتنفيذ مهمة بحرية أخرى قبل انطلاقه في هذه الغزوة بشهر كامل، إذ نُفّذت هذه الأوامر على أكمل وجه. كان الوالي العثماني على مصر "سليمان بَاشَا الخادم" قد تحرّك صوب الهند مصطحبًا الأسطول العثماني من مدينة السويس المطلة على البحر الأحمر للحيلولة دون ازدياد نفوذ البرتغاليين في المياه الهندية. وكان سبب انطلاق سليمان بَاشَا في هذه الغزوة لتلبية طلب المساعدة الذى تقدّم به حكام السلطنات المسلمة الصغيرة في الهند لمواجهة تهديدات البرتغاليين. وحظى هذا الطلب بدعم من السلطان سليمان الذي كان يبذل ما بوسعه لخدمة المسلمين وحمايتهم من الظلم بصفته خليفة لهم. وعندما وصلته أنباء الانتصار الكاسح الذي حققه بَرْبَرُوسْ في البحر المتوسط، والمعلومات الأولية لغزوة سليمان بَاشَا نحو الهند، كان السلطان في طريق عودته من مولودفا منتشيًا بالنصر الذي حققه بها.

غزو مولدوفا

لقد شرع العثمانيون في غزو مولدوفا -التي تحمل في الوقت نفسه اسم "بوغدان"- في البداية إبّان عهد السلطان "بايزيد الثاني"، إذ استطاعوا الاستيلاء على قلاع مدينتي "كيلي" و"أكيرمان". ولم تكن هذه الدولة قد فتحها العثمانيون بالمعنى الكامل، بل كانت تتبعهم في صورة الاعتراف بسيادة السلطان ودفع الضرائب للدولة العثمانية. وكانت مولدوفا تدفع ضرائب إلى الدولة العثمانية بقيمة ٤ آلاف قطعة ذهبية في عصر الحاكم "ستيفان سيل ماري" في الفترة بين عامي ١٤٥٧ - ١٥٠٧م. وقد طرأت زيادة على هذه الضريبة في السنوات اللاحقة. واعتبارًا من عام ١٥٢٧م شرع الأمير "بيترو راريش (*Petru Rareş*)" في إدارة مولدوفا بأمر سلطاني صادر من السلطان سليمان. وحصل الأمير "راريش" على تصريح من السلطان سليمان بإدارة مولدوفا بواسطة أحد رسله بينما كان السلطان متواجدًا في المَجَر، وكان هذا التصريح ينص على حرية ممارسة الطقوس الدينية في مولدوفا، وأن حق انتخاب الحُكّام يكون مملوكًا للنبلاء والشرفاء، إلا أنه في الوقت نفسه فإن الحاكم المنتخب يجب الموافقة عليه من قبل السلطان. كما قرّرت الدولة العثمانية تشكيل هيئة من النبلاء، على أن تُرسل هذه الهيئة كل عام ٤ آلاف قطعة ذهبية كجزية إلى العاصمة إسطنبول، إضافةً إلى ٤٠ مُهْرةً، و٢٠ مُهْرًا كعلامة على التبعية للدولة العثمانية. ولقد حصل السلطان سليمان بنفسه على الضرائب المقرّرة من الأمير "بيترو راريش" بينما كان عائدًا من فيينا، وفي مقابل ذلك أهداه معطفًا من الفرو، وذيليّ حصان، وقلنسوة، كما سمح له ببناء قصرٍ لنفسه في حي "فنار" الشهير بإسطنبول. لكن الأمير "راريش" بعد مدة من الوقت بدأ يسيء التصرّف أمام هذه الإحسانات من السلطان سليمان، وأقدم على ارتكاب بعض الأفعال غير السويّة. وفي نهاية الأمر، اضطر السلطان لمهاجمة مولدوفا. ذلك لأن "راريش" اعتدى على مدينة "أَرْدَلْ" التي كانت تعيش فترة من النزاعات في ذلك الوقت،

وأقام تحالفًا سـريًّا مـع الإمبراطور "فرديناند" ضد الدولة العثمانية وملك المَجَر "يانـوش زابوليـا"(٧٦). كما عادى الحاكم البندقي "ألفيس كِرِيتّي" الذي كان رجل الدولـة العثمانيـة الموثـوق به في هذه المنطقة، وتسـبّب في مقتلـه. وامتنـع عن الضريبة التي كان يدفعها سنويًّا إلى العثمانيين. هذا إضافةً إلى عزوفه عن إرسال ألف فارسٍ طُلبوا منه مؤخرًا.

وبطبيعة الحال كان مقتل "كِرِيتّي" من أكثر الأسباب التي أفضت إلى غضب السـلطان علـى الأمير "راريـش (*Rareş*)". فكان هذا الرجل يرافق إبراهيم بَاشَـا في السـابق، ثم كسـب ثقة السـلطان سـليمان. وقد أرسـله السـلطان إلى مدينة "أَرْدَلْ" لتشـكيل حكومـة تتبـع الدولـة العثمانيـة فـي منطقـة جبـال "كاربـات" الممتدة في أوروبا الوسـطى والشـرقية. وقد وقـع "كِرِيتّي" أسـيرًا في يد الأمير "راريش" حاكم مولدوفا بعد حصار قلعته، ثم قُتل بعد ذلك. وقد قرّر السـلطان غـزو مولدوفـا في شـهر أيار/مايـو عـام ١٥٣٨م بعد هـذه التصرّفـات التي قام بها "راريش"، وعلاقته غير الجيّدة بالبولنديين الذين تقدّموا بطلب إلى السـلطان مـن أجل عزلـه -أي "راريش"- عن منصبه. لكن قرار هـذه الغزوة لم يُعلن عنه إلا بعد انتهاء التحضيرات للرحلة وتقدم الجيش العثماني حتى وصل إلى مدينة "أَدِرْنَه". ولم تكن الإعدادات فقط لغزو مولدوفا، فكان بَرْبَرُوسْ يستعد للخروج في غزوة بحرية أخرى في تلك الأثناء. وكان حاكم" كوجالي علي"، وحاكم تكّة "خُـرّم"، وحاكم صيدا "علي"، وحاكم علائية مصطفى، والجنود التابعون لإمارة جاليبولي يستعدون هم أيضًا للحاق بركب أسطول بَرْبَرُوسْ في رحلته. وقد عيّن السلطانُ حاكم إمارة آيدن "فرهاد" لتولّي شأن العاصمة إسطنبول، وحاكم إمارة صَارُوخَـانْ الأمير مصطفى لتولّي شـؤون منطقة "إِيجَـه"، وحاكم إمارة أَرْضُرُومْ "ذُو الْقَادِرلي محمد خان" لتولّي أمور الحدود الشرقية للدولة، و"رمضان أوغلو" لتولّي شؤون منطقة "آضَنَه" و"إيتشل" الجنوبية المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي تلك الأثناء جاء رسول "فلورنسا" وقدّم الهدايا الثمينة إلى البلاط

(٧٦) يانوش زالبوليا: ملك المَجَر بين عامي ١٥٢٦ - ١٥٤٠. (المترجم)

العثماني، وكان معه خطابٌ من حاكم فلورنسا "كوزيمو دي ميديشي (*Cosme de Médicis*)". ولقد امتنّ السلطان كثيرًا لقدوم هذا الرسول، ومنحه مقدارًا محددًا من المال لتلبية احتياجاته. وعندما تحرك السلطان من إسطنبول ووصل إلى أَدِرْنَه، أعلن أنه بصدد غزو مولدوفا.

وبينما كان السلطان سليمان في أَدِرْنَه، جاءه "ماني (*Mani*)" نجل حاكم ولاية البصرة "مجاميز أوغلو أمير راشد"، وقدّم فروض الطاعة والولاء للسلطان. وجلب معه هدايا قيّمة للسلطان، وأبلغه أن والده أمر بقراءة خطبة الجمعة وسكّ العملة في البصرة باسم السلطان سليمان. وكان السلطان قد منح ولاية البصرة إلى "الأمير راشد"، وأرسل إليه فرمانًا بإدارتها، كما بعث إليه بعلمٍ للدولة العثمانية. ثم تحرّك السلطان من أَدِرْنَه نحو مولدوفا يوم ٢٦ تموز/يوليو. وفي تلك الأثناء، وصل إلى أَدِرْنَه جنودُ الأناضول الذين انتقلوا إلى شبه جزيرة جاليبولي إلى منطقة الرُّومَلِي، كما التحق بهم أمير الرُّومَلِي "خُسْرَوْ بَاشَا". وبينما كان الجيش العثماني في مكان إقامة السلطان، جاء رسولٌ من الأمير "راريش"، واستقبله السلطان. فأخبره الرسول أن الأمير "راريش" سيذعن مطيعًا لأوامره، فأرسل السلطان أمينَ "كَفَه" "سنان شلبي" يحمل خطابًا برفقة الرسول إلى الأمير "راريش". وقد أخبره السلطان سليمان في هذا الخطاب أنه إنما خرج في هذه الغزوة بسبب فظاظته وهمجيته، مشيرًا إلى أنه ربما يعفو عنه ويرحمه إذا تاب الأمير عن فعلته، وندم وعزم على عدم تكرارها، وأتى إلى إسطنبول ومرّغ وجهه في البلاط السلطاني، فقبل بشروط السلطان. فذهب أمين "كَفَه" سنان شلبي لمقابلة الأمير "راريش" في مدينة "ياش (*Yaş*)"، فبلّغه بأوامر السلطان، إلا أنه رأى أن حاكم مولدوفا قد حشد جنوده لمواجهة السلطان العثماني، فعاد إلى إسطنبول وأخبر السلطان بأن "راريش" مصمم على مجابهته، مما دفع السلطان سليمان للمضي قدمًا في تنفيذ قراره بغزو مولدوفا.

استطاع الجيش العثماني العبور من فوق جسر بنوه عند منطقة "إيساقجي (*Isakçı*)" القريبة من نهر الطُونَة بَكْافة عدّتهم وعتادهم خلال ٣٠ ساعة. وتمركز

الجنود بشكل منتظم كلٌ في موقعه بانتظار أوامر السلطان. ووصل السلطان سليمان يوم ١٦ آب/أغسطس إلى جبل "بابا"، وزار ضريح "صاري صالتوك بابا (*Sarı Saltuk Baba*)" الموجود هناك، وخرج إلى الصيد في المنطقة. ثم تقدّم الجيش العثماني في أراضي مولدوفا، حتى رأى ضرورة بناء جسر آخر فوق نهر "بروت (*Prut*)". وكُلِّف نائب الصدر الأعظم "لطفي بَاشَا" ببناء هذا الجسر، فأسند هذا الأخير هذه المهمة إلى المعماري "سنان". ونجح "سنان" في بناء جسرٍ بتصميم رائع ومتين في غضون ١٣ يومًا، وعبر الجيش من فوقه يوم ٣١ آب/أغسطس. وفي تلك الأثناء التي انضم فيها خان القِرْم "صاحب كِيرَايْ" بجنود وأمرائه إلى الجيش العثماني، انضم كذلك ٣٠٠٠ جندي من "سِلَاحْدَارْ" المِطرَد من قوة إمارة "الأفلاق" الرومانية. وقد استعان الجيش العثماني بهذه الإضافات في مقدمة الجيش في أعمال فتح الحصون بشكل أكبر. وعندما دخل الجيش العثماني الأراضي المولدوفية، وصل إلى مدينة "قيلتشين" التي يوجد بها قصر الصيد الخاص بالأمير "راريش" الذي أُصيب بدهشة كبيرة فور سماعه نبأ وصول الجيش العثماني. فأدرك حينها أمير مولدوفا أنه لن يستطيع الوقوف أمام الجيش العثماني، فآثر الانسحاب إلى مدينة "فوكشان" برفقة عدد من قواته، واتخذ بعض التدابير الوقائية بها بُغية نصب كمين للجيش العثماني. إلا أنه تراجع عن هذه الفكرة لاحقًا، وفضّل الفرار إلى داخل إقليم "ترانسيلفانيا (*Transilvanya*)". وانسحب بعدها إلى جبل "بوتشيني" في البداية، ثم إلى مدينة "أَرْدَلْ"، وفي ذلك التوقيت كان الجيش العثماني قد دخل مدينة "ياش". أعقب ذلك سيطرة العثمانيين على مدينة "سوتشافا" التي كان يتخذها الأمير "راريش" مقرًا له (٢٠ ربيع الأول ٩٤٥هـ / ١٦ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م)، إذ استولى عليها الجيش العثماني دون قتال.

وما إن دخل السلطان سليمان الأراضي المولدوفية، حتى أعطى الأمان لأهلها، وأمر بتوافد أمرائها ونبلائها وأعيانها ورهبانها لمقابلته. وعليه، فقد جاء إليه جميع الأمراء والنبلاء، وأعربوا عن طاعتهم وإذعانهم له، وأبلغوه بتبعيتهم له. وتم تعيين "ستيفان لاكوستا (*Stefan Lacusta*)" حاكمًا جديدًا على مولدوفا.

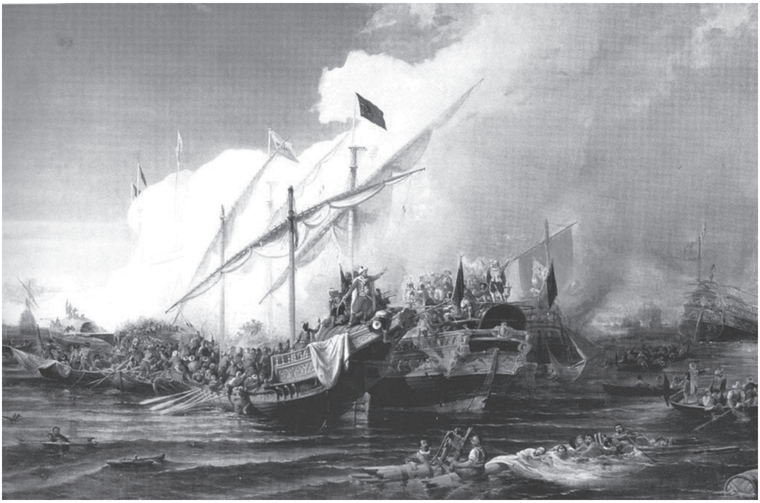
وأعطاه السلطان معطفًا من فراء السمور، وقلنسوة، وذيل حصان، وراية، وصكًّا لإدارة شـؤون البـلاد. وينـص هـذا الصـكّ على دفـع أميـر مولدوفـا الضرائب إلى الدولة العثمانية في إسـطنبول بنفسـه مرة كل عامين، كما يتوجّب عليه طاعة الأوامر الصادرة من السـلطان. وقد بسـط العثمانيون نفوذهم خلال هذه الغزوة على الأراضي الواقعة بين نهري "بروت (*Prut*)" و"دنيستر (*Diniester*)". وبهذه الطريقـة حُوّلت منطقة "بيسـارابيا (*Baserabya*)" شـرق أوروبـا لإمارة عثمانية، إذ عيّـن السـلطان أميرًا لإدارة شـؤون هذه المنطقة. إضافةً إلـى ذلك بُنيت قلعة "كيلي (*Kili*)" من جديد بعد أن هُدمت، لتكتسب مدينة "أكيرمان (*Akkirman*)" قوة ومنعة بفضل هذه القلعة. هذا إلى جانب سيطرة العثمانيين على مدينة "تيغينا (*Tighina*)" أو "بينـدر (*Bender*)" المحاذية لمجرى نهر "دنيسـتر (*Diniester*)". وسـيلمع نجم هذه المدينة مع مرور الوقت باسـم "بيندر". وفرضت السلطات العثمانيـة حظـرًا على أهـل مولدوفا ببنـاء القلاع والحصون علـى حدود منطقة "بيسارابيا"، وآثر القادة العثمانيون تعيين ٥٠٠ جندي من جنود الإنْكِشَارِيّة لخدمة الأميـر "سـتيفان (*Stefan*)" كإجـراء احتـرازي ضـد أي هجوم محتمـل. وعليه، فقـد أحكمت الدولـة العثمانية قبضتها تقريبًا على المنطقة الواقعة شـمال البحر الأسـود بالكامـل. وصارت هذه المنطقة بمثابة نافـذة الطرق التاريخية الموصلة إلى إسطنبول على البحر الأسود. وكانت طرق التجارة القادمة من بحر الشمال تصـل إلـى إسـطنبول عبر هـذا المنفذ القائم في هـذه المنطقة، حتـى إنها كانت تشـمل في الوقت نفسـه أراضي بولندا. وبعبارة أخرى موجزة، سيطر العثمانيون على سواحل مولدوفا التي كانت تحمل أهمية بالغة بالنسبة لاحتياجات العاصمة إسطنبول من مأكل ومشرب وخلافه، وإحكام السيطرة على منطقة البحر الأسود بأكملهـا. إذ بسـطت الدولـة العثمانية نفوذهـا على الطرق الواصلـة بين مدينتي "أكيرمان" و"لفيف (*Lviv*)".

وبعد أن أوجد السـلطان سـليمان حلًا جذريًّا لقضية مولدوفا، وأثناء عبور الجيش العثماني نهر "بروت" سُـمح لخان القِرْم "صاحب كِيرَايْ" وقتها بالعودة إلى وطنه. كما أرسـلت الدولة العثمانية رسائل تبشّر بالنصر الذي حققه الجيش

إلـى كافـة الممالـك والولايـات عبر الرسـل والمبعوثيـن. لكن الأميـر الجديد لمولدوفـا لـم يسـتطع إحكام سـيطرته علـى الأوضاع فـي البـلاد، كما حدث مـع خليفته، فأفضى هذا الواقـع لحالة من الفوضى وعدم الاستقرار في مولدوفا، مما سـيدفـع السلطان سليمان لاستدعاء الأمير "راريش" إلى إسطنبول، وتكليفه بـإدارة شـؤون ولايـة مولدوفـا للمـرة الثانيـة (١٥٤١ - ١٥٤٦م). وبينمـا كان السـلطان عائدًا من غزوة مولدوفا، وصل إلى مدينة "يانبولو" حيث أمضى بعضًا من وقته في ممارسة رياضة الصيد، أتاه ابن بَرْبَرُوسْ بالتبنّي ليخبره بالنصر الذي حققه والده في "بريفيزا". ثم انتقل السلطان إلى أَدِرْنَه، وقضى بها فصل الشتاء.

معركة "بريفيزا" البحرية

كانـت النشـاطات التـي يزاولها "بَرْبَـرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَـا" فـي البحرين الأبيض المتوسـط و"إِيجَه" باسـم الدولـة العثمانية تثير حنـق الإمبراطور "كَارْل الخامـس" أكثـر من أي وقـت مضى. ولـم يكن الإمبراطور وحـده، بل كان البابا هو أيضًا يسـارع في عقد تحالفات ضد الأتراك العثمانيين، حتى إن هذا الأخير سـعى فـي الإصلاح بيـن "كَارْل الخامس" و"فرنسـوا الأول". ومن جهة أخرى، كان حـكام البندقيـة يعقدون تحالفات سـرية ضد الدولة العثمانيـة، على الرغم من تمتعهم بصداقة مـع الدولة العثمانية منذ فترة طويلة، كما كانوا يعدّون العدّة لقتالهـم. وفـي نهاية المطاف، عقدت جميـع تلك الأطـراف العزم على تجميع أسـاطيلها عند سـاحل جزيـرة "كُورْفُو" اليونانية للرد على آخـر غزوة خرج فيها بَرْبَـرُوسْ إلى جـزر بحر "إِيجَه". وقد تجمـع عند جزيـرة "كُورْفُو" عددٌ كبير من السـفن ذات التجهيزات المتفوقة من الأساطيل الإسبانية، والبرتغالية، والبندقية، والبابويـة. وقـد اتفق هؤلاء المتحالفـون في معاهدتهم على فكرتين رئيسـيتين، إذ كانت الفكرة الأولى هي رغبة الإمبراطور "كَارْل الخامس" في الاستيلاء على الجزائـر التـي تمثّل له قاعـدة فعّاليات القرصنـة، وأما الفكـرة الثانية كانت عزم حكام البندقية على استعادة الجزر التي فتحها العثمانيون حديثًا.



معركة "بريفيزا (*Preveze*)" البحرية (٢٧ سبتمبر ١٥٣٨م)

وصلت سفن البندقية أولًا إلى جزيرة "كُورْفُو" مكان تجمّع الأسطول المسيحي. وبعد ذلك بفترة، قدِمت سفن الأسطول البابوي. وقد شعر قائد الأسطول البابوي الأميرال "جريمالدي" بالملل جراء انتظار السفن الإمبراطورية التي كانت تمثل ألمانيا وإسبانيا والنمسا، فقام بمهاجمة قلعة "بريفيزا" الواقعة عند مضيق "ناردا" جنوب مدينة "يابنية" اليونانية بأسطوله المكون من ٨٣ قطعة بحرية. وصدّت قواتُ "حسين شاه بَكْ" حاكم ولاية "كَارْلِـي إِيلِي (*Karlıili*)" التي كانت تتبعها "بريفيزا"هجومَ الأميرال "جريمالدي". وبينما كان "حسين شاه بَكْ" يحاول صد هجوم العدو بقواته، كان يبعث الرسل إلى السلطان سليمان الذي كان يغزو مولدوفا لإبلاغه بهذه التطورات. وأخذ "جريمالدي" في قصف القلعة بالمدافع من البحر، كما أنزل جنوده إلى سواحل المدينة. لكن "حسين شاه بَكْ" قام بهجوم مباغت من داخل القلعة، واستطاع خطف هؤلاء الجنود. فلجأ "جريمالدي (*Grimaldi*)" إلى تشديد القصف على القلعة من البحر، وأنزل جنودًا آخرين إلى البرّ، إلا أنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة، إذ كبّده الجيش العثماني خسائر كبيرة. واضطر "جريمالدي" في النهاية للعودة إلى جزيرة "كُورْفُو" عندما سمع أن الأسطول العثماني في طريقه إلى "بريفيزا".

لقد وصل نبأ هجوم العدو على "بريفيزا" إلى "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" بينما كان في جزيرة "كوس" اليونانية. فأرسل أسطولًا استكشافيًّا بقيادة "تُورْجُوتْجَا (*Turgudca*)" لمعرفة المزيد من المعلومات عن قوات العدو، فصادف هذا الأسطولُ سفن الأسطول النصراني المكون من ٤٠ سفينة في البحر، فعاد مسرعًا وأبلغ بَرْبَرُوسْ أن أسطول العدو تجمّع عند سواحل "بريفيزا". وكان بَرْبَرُوسْ يحصل على العديد من الأنباء والمعلومات حول أسطول العدو من تُورْجُوتْجَا (*Turgutça*) (الرئيس تُورْجُوتْ (*Turgut Reis*))، ومن غيره من الرسل بشكل مستمر. حتى إنه علم بالهجوم الذي شنّه العدو على "بريفيزا" بالقرب من "كورون"، وأولى اهتمامًا بشكل زائد بالحملات الاستطلاعية للوقوف على مستجدات الأوضاع في هذا الشأن. وأرسل أربع سفن سريعًا إلى سواحل إيطاليا، فعادوا إلى بَرْبَرُوسْ وأبلغوه بتشكُّل أسطول "أندريا دوريا" من ٥٥ سفينة كبيرة، و٩٠ سفينة صغيرة، كما استولوا على قارب صغير وسفينة شحن أثناء إبحارهما خلف الأسطول الإيطالي. فعلم منهم بَرْبَرُوسْ أن أسطول التحالف النصراني في طريقه لتنظيم هجمة مشتركة، مما جعله يمتلك معلومات مفصّلة في هذا الصدد.

تحرّك بَرْبَرُوسْ على رأس أسطوله إلى مدينة "بريفيزا"، وكان هذا الأسطول مكونًا من ١٢٠ سفينة، ٢٠ منها مملوكة للقراصنة، وكانت هذه السفن من النوع الذي كان يضمّ الأشرعة والمجاديف في آن واحد، وضمّت أنواع القوادس الصغيرة والكبيرة، والفرقاطات. ومن الصعوبة إعطاء رقم معين يشير إلى عدد سفن التحالف التي كانت تحت قيادة "أندريا دوريا"، كما أن المصادر المحلية والأجنبية تعطي أعدادًا مختلفة في هذا الشأن. فعلى سبيل المثال يروي المؤرخ النمساوي البارون "فون هامر" أن أسطول "دوريا" كان مكونًا من ١٦٠ قادسًا. أما المصادر التاريخية التركية، فيشير مثلًا المؤرخ العثماني "كاتب شلبي" إلى أن أسطول "دوريا" كان يتشكّل من ٥٢ قادسًا إسبانيًا، و٧٠ قادسًا بندقيًّا، و٣٠ قادسًا بابويًّا، و١٠ قوادس برتغالية، أي ما مجموعه ١٦٢ قادسًا، بالإضافة إلى ١٤٠ قطعة بحرية أخرى، ما يجعل إجمالي عدد قطع الأسطول يتخطّى

٣٠٠ سفينة من طرازات مختلفة. كما يرتفع هذا العدد إلى ٦٠٠ سفينة إذا أضفنا السفن المتطوعة الأخرى، بحسب ما يرويه "شلبي". فيما يروي المؤرخ العثماني الآخر "جلال زاده" أن أسطول التحالف النصراني كان مكونًا من ٣٠٠ سفينة كبيرة. وتذكر مصادر أخرى أن تعداد الجنود العثمانيين الذين كانوا على متن الأسطول ٨ آلاف جندي، منهم ٣ آلاف من الإِنْكِشَارِيّة. وأما أسطول "دوريا" فكان يضمّ ٢٥٠٠ جندي مدفعية، بالإضافة إلى عدد كبير من الجنود. وكان الأسطول العثماني أضعف من أسطول العدو من حيث عدد السفن والقوة العددية للجنود. وعندما وصل بَرْبَرُوسْ إلى "بريفيزا" استعدادًا لمنازلة أسطول العدو، وصل "دوريا" إلى سواحل المدينة يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م. وقد رسا أسطول "دوريا" على بعد ميلَيْن من سواحل "بريفيزا". وفي مقابل ذلك، كان الأسطول العثماني راسيًا في خليج "آرتا"[٧٧]. وقبل بدء المعركة، جمع بَرْبَرُوسْ قادة سفن أسطوله، وتشاور معهم حول الإجراءات التي سيتخذونها أثناء القتال. وقد أوصى بعض الأمراء بَرْبَرُوسْ بإنزال عدد من الجنود والمدافع إلى ساحل المدينة للتمكّن من مواجهة الكثرة العددية لقوات العدو. فلم يعرب بَرْبَرُوسْ في البداية عن إعجابه بهذه الفكرة، إلا أنه سمع بعد ذلك بمحاولات إنزال العدو لقواته إلى البرّ، فأسرع إلى إنزال جنوده إلى الساحل، واستطاع وقف إنزال جنود العدو إلى الشاطئ عبر قصفه سفن الأسطول بوابل من قذائف المدفعية.

وعقب ذلك أخذت قوات التحالف بقصف ساحل المدينة بالمدفعية. لكن بعض قادة الأسطول العثماني الذين كان من بينهم "مراد أغا"، و"تُورْجُوتْجَا"، و"الرئيس كُوزَلْجَه محمد" وآخرون بادروا إلى إجبار سفن العدو على التراجع والانسحاب عن طريق الخروج بسفنهم أمام أسطول العدو.

(٧٧) خليج آرتا: هو خليج يقع في شمال غرب اليونان. تطل مدينة بريفيزا على الجهة الشمالية من الخليج. (المترجم)



معركة "بريفيزا" البحرية

وشوهدت بعض قوات "أندريا دوريا" وهي تهاجم السفن العثمانية الراسية في "بريفيزا". فقد وصلت قوات العدو إلى مضيق "بريفيزا"، وفتحت النيران على الأسطول العثماني. فأمر بَرْبَرُوسْ بقرع الطبول، ورفع الراية، والتحرّك إلى الأمام. وتقدّم الأسطول العثماني حتى مسافة ٦ أميال، ومن ثم رسا. وانتظر حتى وصلت سائر السفن الأخرى لتنضم إليه. وعندما انضمت هذه السفن إلى أسطوله، شرع في مهاجمة العدو بقصفه بالمدفعية. ومع حلول الظلام، بدأت سفن التحالف في الانسحاب من المنطقة. كما عاد بَرْبَرُوسْ إلى الخليج، وجمع مجلس الحرب لمناقشة الأمور المقرر إنجازها في المستقبل. وقد تحرك "دوريا" فيما بعد للهجوم على مدينة "ليبانت" لإجبار بَرْبَرُوسْ على الخروج من "بريفيزا" لقتاله، وذلك بموجب القرارات التي اتخذها مجلس الحرب. وانطلق أسطول التحالف بقيادة "دوريا" في ساعات الصباح الباكر من يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م. وفي صبيحة اليوم ذاته، أبحر الأسطول العثماني صوب جزيرة "كُورْفُو". وأثناء إبحارهم، كلّف بَرْبَرُوسْ بعض رجاله للصعود إلى صوارِي السفن لمراقبة الأوضاع من على بعد، فشاهد أولئك المراقبون صوارِي بعض سفن العدو الراسية على مقربة من جزيرة "ليفكادا". وعليه، فطن بَرْبَرُوسْ لوجود أسطول "دوريا" في هذه المنطقة، فحوّل وجهة أسطوله نحو الجنوب. وعندما أشرقت الشمس، أدرك "دوريا" أن الأسطول العثماني يبحر خلفه.

كانـت الريـاح تهـبّ في صالـح أسـطول التحالـف النصراني في سـاعات الصبـاح الأولـى. حتّى إن ذلـك أرهق البحـارة الأتراك كثيرًا. لكن مـع سـطوع الشـمس، انقطـع هبـوب الرياح، لتتوقف حركة سـفن العدو الشـراعية الكبيرة. وفـي تلـك الأثناء، بدأ بَرْبَرُوسْ في مهاجمة أسـطول العدو، مما أدهش "دوريا" وأصابـه بالحيـرة، لدرجـة أنـه قضى سـاعات يفكّر بتـردد بالـغ فـي دخول هذه المعركـة ضـد الأسـطول العثمانـي. وبعـد مدة طويلة مـن التفكير، قـرر دخول المعركة. والتقى الأسطولان على بعد ٣-٤ أميال غرب ساحل جزيرة "ليفكادا". وقـد اتخـذ الأسـطول العثماني وضـع الهـلال، إذ كان بَرْبَـرُوسْ في المنتصف، و"الرئيـس صالـح" عن يمينه، و"الرئيس سـيدي علي" عن يسـاره. وفي الخلف كانت سـفن "الرئيس تورجوت" المتطوعة تقف على الجانبين كاحتياطي لسـفن الأسـطول. وأما أسـطول التحالف النصراني فقد نظّم نفسه بحيث كانت السفن الشراعية الكبيرة في المقدمة، تليها القوادس ذات المجاديف موزعة على ثلاث مجموعات، ثم السـفن ذات المجاديف الصغيرة، وفي المؤخرة جاءت السـفن من النوع الذي كان يضمّ الأشرعة والمجاديف في آن واحد. وكان "أندريا دوريا" يتمركز في صف القوادس في الصف الثاني، إذ كان ينوي اتخاذ السـفن الكبيرة التي كانت في المقدمة كخندق يحتمي به لدى مهاجمة الأسطول العثماني.

لـم يستسـغ بَرْبَـرُوسْ فكـرة الهجـوم على سـفن العـدو والالتحـام معها وجهًـا لوجـه، لعلمـه بالتفـوق العـددي الـذي يتمتـع به أسـطول العـدو، فبدأ في مهاجمتهم بقصف مدفعي عن بُعد. وقد أحدثت المدفعية التركية بعيدة المدى خسـائر كبيرة في صفوف سفن أسـطول التحالف. وفي مقابل ذلك، لم تستطع قذائف مدافـع العدو -الأقصر من حيث المدى- الوصول إلى سـفن الأسـطول العثمانـي. فبادر "دوريا" يرافقـه الأميرال البندقي "كابيلو (*Capello*)" إلى تطويق الأسـطول العثمانـي من الخلف مسـتقلًا القوادس التي كانت فـي الصف الثاني من أسـطوله، ورغب في جعل الأسـطول العثماني بين شـقي الرحى عن طريق قصفه من الخلف أيضًا. لكنه فشـل في تنفيذ هذه الخطة بسـبب اقترابه من مدى قذائـف المدافـع العثمانية التي لم تسـمح له بذلك. وعمـد "دوريا" إلى محاولة

تنفيذ هذا المخطط مرة ثانية، إلا أن بَرْبَرُوسْ فطن إلى هذا المخطط، واتخذ التدابير اللازمة لمواجهته. وبينما كان "دوريا" يرغب في تطويق سفن الأسطول العثماني، عمد بَرْبَرُوسْ إلى تغيير اتجاه سفنه، وضرْب العدو من الجنب. وعندما حاول "دوريا" إجراء مناورة عكسية، تحرك الأسطول العثماني في المقابل، ولم يُعطِ فرصة لأسطول "دوريا" لمهاجمته. لكن بَرْبَرُوسْ لم يكتفِ بالتدابير التي اتخذها في مواجهة قيام أسطول "دوريا" بالمناورة متخذًا السفن الكبرى التي كانت في مقدمته كخندق للاحتماء به. ولهذا السبب، قرر القيام بهجوم مباغت لم يكن "دوريا" يتوقعه. فهجم فجأةً على قوادس أسطول "دوريا" التي كانت في المقدمة، وأحدث شقًّا في صفوفها، وبدأ في الاشتباك مع تلك السفن. كما بادرت القوات العثمانية الاحتياطية إلى محاولة تطويق أسطول العدو من جديد. ولقد أذهل هذا الهجوم الذي قام به بَرْبَرُوسْ قائد أسطول التحالف "دوريا" وسائر القادة الآخرين بشكل كبير. ولهذا السبب، بدأت سفن العدو في التصادم ببعضها البعض. حتى إن معظمها ركب فوق بعضه البعض، مما أحدث خسائر فادحة بين صفوفها. وقد أصدر "دوريا" أمرًا لأسطوله بالانسحاب بعدما أدرك أن الأمور بدأت في التدهور في مقابل حركة التطويق التي همّت لتنفيذها القوات الاحتياطية العثمانية. إلا أن هبوب رياح شديدة في تلك الأثناء أسفر عن إصابة سفن أسطوله بحالة من التخبّط والحيرة. لكن على ما يبدو أن هذا الوضع سيكون في الوقت نفسه سببًا في نجاتهم من بين يد الأسطول العثماني. ذلك لأن سفن أسطول العدو الشراعية استدارت حتى جعلت الرياح تهب من خلفها، وانطلقت مسرعة حتى هربت من ميدان المعركة. حتى إن "دوريا" الذي كان يستقلّ السفينة التي تحمل راية التحالف، أطفأ مصباح السفينة، وتوارى عن الأنظار هاربًا في ظلمة الليل الحالكة. ومَن نجى مِن أسطول التحالف توجّه صوب جزيرة "كُورْفُو".

وبهذه الطريقة أدّت المناورات والمخططات الذكية التي قام بتنفيذها بَرْبَرُوسْ في النهاية إلى انسحاب "دوريا" من ميدان القتال بعدما شعر بأن عاقبته ستكون سيئة إذا ما بقى فيه. وإن إستراتيجية شقّ الصف التي طبّقها بَرْبَرُوسْ

في هـذه المعركة سـيلجأ إليها العديد من الأميرالات المشـاهير في المسـتقبل للاسـتفادة منهـا فـي معاركهـم. ولقد فقـد أسـطول التحالف في هـذه المعركة ٦٠ سفينة، وسقط من قواته ٢٧٧٥ جنديًّا أسيرًا في أيدي العثمانيين. وفي مقابل ذلك، لم تتضرر أية سفينة من الأسطول العثماني، بالرغم من فقدانه ٨٠٠ جندي بين شـهيد وأسـير. وقد منعت ظلمة الليل الحالكة والرياح الشديدة أي محاولة لتعقّب سـفن أسـطول "دوريا" الذي آثر الهروب مستفيدًا من ظلمة الليل. إلا أن نصر العثمانيين كان محققًا في هذه المعركة، ذلك لأن "دوريا" فرّ هاربًا بسـرعة كبيـرة، وتـم إبلاغ السـلطان بهذه الأنباء السـارّة. وأرسـل بَرْبَرُوسْ ابنـه بالتبنّي "حسـن أغـا" بصحبة اثنين مـن القباطنة النصارى الذين أُسـروا خـلال المعركة إلـى السـلطان لإخباره بنبـأ النصر. وتلقّى السـلطان سـليمان هذا النبـأ المفرح عندمـا كان في مدينـة "يانبولو (*Yanbolu*)" عائدًا من غزوة مولدوفا، إذ اسـتمع إلـى رسـالة النصـر التـي بعثها بَرْبَـرُوسْ وهو واقـف على قدميـه، وأمر بإعلان هـذا النصـر فـي جميع الولايـات العثمانيـة. كما أصـدر السـلطان أوامر بمنح القائـد بَرْبَـرُوسْ مائة ألف قطعة نقود فضية كمكافـأة له على هذا الإنجاز. وبعد أن مكث بَرْبَرُوسْ عند سواحل "بريفيزا" لمدة تراوحت بين ١٥-٢٠ يومًا، استولى علـى جزيـرة "كيفالونيـا"، ثم انطلق من سـواحل اليونـان الغربية إلى إسـطنبول لقضاء فصل الشتاء بها.

سـفر "سـليمان بَاشَـا الخَادم" إلـى الهـند

لقد شهد عام ١٥٣٨م ثلاث غزوات كبيرة وهامة للغاية بالنسبة للسلطان سـليمان. فعندما عاد من غزوة مولدوفا إلى العاصمة إسـطنبول، تسـلّم تقريرًا حـول أنشـطة الأسـطول العثمانـي المتوجّـه صـوب الهنـد في ذلـك الوقت. فقـد وجّـه البرتغاليـون ضربـة قاصمة لتجـارة الهنـد، وأضروا بتجـارة التوابل المتوجهـة صـوب البحر الأبيض المتوسـط، كما سـعوا لتنظيـم هجمات على المدن الإسـلامية المقدسـة منـذ زمن المماليـك (مثل مكة المكرمـة والمدينة المنـورة)، وحاولـوا بسـط سـيطرتهم علـى مياه البحـر الأحمـر. وكان البحار

البرتغالـي "بارثولوميـو دياز" قـد نجح في الدوران حول جنوب قـارة إفريقيا، واكتشـاف طريـق رأس الرجـاء الصالـح. وتعقّـب الطريق الذي اكتشـفه "دياز (*Dias*)" بحـارٌ برتغالي آخر يُدعى "فاسـكو دا جامـا (*Vasco de Gama*)" عام ١٤٩٨م، واسـتطاع الوصول إلى سـواحل الهند. ويمكننا سـرد بعض الأسباب التـي دفعـت البرتغاليين إلى خوض مغامرة كهذه. وعلى الرغم من عدم وجود معلومـات دقيقـة حـول هذا الصـدد، فـإن المؤرخ الإنجليزي "سـي. بوكسـر (*C. Boxer*)" يـرى أن الدافـع الـذي جعـل البرتغاليين يقومون بهـذه المغامرة ناجمٌ عن عوامل دينية واقتصادية وإستراتيجية، إذ يمكننا تلخيص هذه العوامل على النحو التالي:

- الروح الصليبية في مواجهة المسلمين.
- الرغبـة فـي الوصـول إلـى الثـروة الذهبيـة التـي تتمتـع بهـا دولـة "غينيا (*Guinea*)" في إفريقيا.
- التطلّـع للعثـور على الكاهن "يوحنّا" الأسـطوري الـذي يمثّل الديانة النصرانية في الشرق.
- الرغبة في اكتشاف منشأ تجارة التوابل والبهارات القادمة من الشرق.

حتى إنه عندما وصل "فاسـكو دا جاما" إلى الهند عام ١٤٨٩م، كانت أول كلمة تلفّظ بها هي:

"جئنا لاكتشاف النصارى والتوابل!".

وعليـه، فقـد بـادر البرتغاليـون إلى الوصول إلى سـواحل الهند للمشـاركة فـي تقاسـم ثروات قارة آسـيا، ونشـر الديانـة النصرانية بها. وبـدؤوا على الفور فـي بسـط نفوذهم على السـواحل الهندية. وبذل "فاسـكو دا جامـا" جهدًا حثيثًا من أجل تحقيق ذلك الهدف في رحلته الثانية التي قام بها إلى الهند عام ١٥٠٢م. وأمـا مـن أسّـس المسـتعمرات البرتغالية فـي الهند بعـد "فاسـكو دا جاما" فهو "ألفونسـو دي ألبوكيـرك (*Alphonse d›Albuquerque*)". ففـي عهد هذا الأخير

استطاع البرتغاليون الاستيلاء على ولاية "جوا" الواقعة غرب الهند. حتى إنهم بسطوا سيطرتهم على المناطق الواقعة بين البحر الأحمر في الغرب وسواحل إندونيسيا في الشرق. ولقد شكّل إنشاء البرتغاليين مستعمرات لأنفسهم في الهند خطرًا داهمًا على البحارة المماليك والعرب والهنود الذين كانوا يعملون في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، كما صارت هذه الوضعية غير مريحة في الوقت نفسه بالنسبة لحكام الدول المسلمة في هذه المنطقة، إذ تسببت سيطرة البرتغاليين على المناطق الحيوية من الناحية العسكرية والتجارية في هذه المنطقة في زعزعة استقرار هذه الدول على كافة المستويات. أضف إلى ذلك استيلاء البرتغاليين على جزيرة "سُقطرى (*Sukatra*)" اليمنية القريبة من خليج عدن، كما سيطروا على مدينة "هُرمز" الإيرانية التي تعتبر من أهم المدن المطلة على الخليج العربي. وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على المناطق الهامة التي تعبر منها بضائع شرق آسيا إلى البحر الأبيض المتوسط (١٥١٥م). ذلك لأن التجارة القادمة من شرق آسيا إلى أوروبا كانت تعبر من طريق عبر ميناء الإسكندرية مرورًا بطريق عدن -جدة- السويس، وعبر مدينة حلب وميناء طرابلس الشام مرورًا بمدن هُرمز - البصرة، أي الموانئ التي كانت تخضع لسيطرة المماليك. فكانت البضائع القادمة من الهند وسائر بلدان شرق آسيا تمرّ بهذه الطرق التي أُطلق عليها اسم "طريق البهارات" عبورًا بالموانئ المذكورة، ومن ثم تُنقل بعدها إلى القارة الأوروبية. ولهذا السبب، كان المماليك يكسبون أموالًا طائلة من ضرائب هذه البضائع التي كانت تمر من المدن والموانئ الخاضعة لحكمهم. كما أن التجار العرب كانوا يحصلون على أموال عظيمة من وراء هذه التجارة. أما الآن فإن سيطرة البرتغاليين على الموانئ التي تعبر منها هذه التجارة المهمة كلّف المماليك خسائر كبيرة، مما أدّى في نهاية المطاف إلى تراجع موارد الخزانة المصرية، ومعاناة التجار العرب من ضوائق مالية عصيبة.

على الرغم من محاولة المماليك للتصدي لهجمات البرتغاليين، إلا أنهم لم يفلحوا في مواصلة هذا التصدي بشكل مؤثر. ولجأ السلطان المملوكي "قنصوه الغوري (*Kanısav Gavri*)" إلى السلطان العثماني "بايزيد الثاني"

يستنجد به لمواجهة خطر البرتغاليين، وطلب منه إرسال بحّارة الأناضول الذين ذاع صيتهم في كافة أرجاء البحر المتوسط، لمساعدته في القضاء على توغُّل البرتغاليين. كما طلب منه إمداده بمستلزمات بناء السفن مثل الأخشاب والحديد والحبال، وبعض الأسلحة النارية مثل المدافع والبارود لمواجهة البرتغاليين. فاستجاب السلطان "بايزيد الثاني" فورًا لهذه المطالب، وأرسل قافلة مساعدات إلى مصر.

ويروي المؤرخ المملوكي "ابن إياس" معلومات قيّمة للغاية حول ١٠٠٠ بحّار تركي كانوا تحت قيادة "الرئيس سلمان" بهذه المناسبة. فقد نجح "الرئيس سلمان" في تشكيل أسطول بحري مؤلف من ٢٠ سفينة بالتعاون مع أمير جدة حسين بَكْ. وانطلق هذا الأسطول بقيادة الاثنين لصد هجوم البرتغاليين عام ١٥١٥م، إلا أنهم تعرّضوا للهزيمة. لكنهما لم يستسلما لهذه الهزيمة، وانطلقا مجددًا في العام التالي صوب مدينة عدن اليمنية بأسطول مكون من ٢٢ سفينة وقادوسيْن اثنين. وهُزما مرة أخرى في هذه الغزوة، وأُصيب "الرئيس سلمان" ونُقل إلى مدينة جدة، ولما وصل إلى هناك جاءه نبأ فتح السلطان سليم الأول لمصر.

بعد أن فتح السلطان العثماني "سليم الأول" مصر عام ١٥١٧م، جاءته مفاتيح مكة المكرمة التي أرسله أميرها. وفي مقابل ذلك بعث إليه السلطان فرمانًا وبعض الهدايا الأخرى. كما أمر بضرورة قتْل أمير جدة حسين بَكْ لانتشار ادّعاءات بحقه تشير إلى الاستيلاء على العديد من البضائع بغير وجه حق. ولقد استدعى السلطان "الرئيس سلمان" المتواجد في جدة، لكن هذا الأخير أرسل أحد رجاله إلى السلطان برسالة يشرح فيها أسباب عدم مقدرته على مغادرة جدة في الوقت الحالي. وسرد "سلمان" في هذه الرسالة بعض الموضوعات التي كان أهمها أن مدينة جدة يوجد بها ٦٠٠ بحّار من العباد والبحارة والبربر، وأن البرتغاليين قدِموا إلى مضيق باب المندب بأسطول مكون من ٤٥ سفينة وبدؤوا في إنشاء قلعة هناك، بحسب الأخبار الواردة من اليمن، وأنهم -أي البرتغاليين- وصلوا إلى ميناء جدة يوم ٢٥ آذار/مارس ١٥١٧م بأسطول مؤلف

من ٣٠ قطعة بحرية، وأحرقوا ستة قوادس وقاربيْن وأربع سفن، لكن المدافعين عن المدينة لم يسمحوا لهم بإنزال جنودهم إلى الساحل، وطردوهم بقصف سفنهم بالقذائف المدفعية. وكتب "سلمان" كذلك أن حاكم عدن شجّع البرتغاليين على مهاجمة جدة بعد أن أوهمهم أنها خاوية لا يوجد بها أحدٌ. ليُفهم من ذلك أن البرتغاليين إنما حاولوا تشكيل قاعدة لهم في المنطقة لبسط نفوذهم على مياه البحر الأحمر. ولقد شكّلت هذه المواجهة بداية الصراع العثماني - البرتغالي في هذه البحار.

عقب ذلك، توجّه "الرئيس سلمان" إلى مصر، وقبّل يد السلطان سليم الأول، ومن ثم عاد إلى إسطنبول. وعاد بعدها بفترة وجيزة إلى مصر أثناء ولاية أحمد بَاشَا، وحاول إحكام السيطرة العثمانية على اليمن. وفي تلك الأثناء، أعلن أحمد بَاشَا عن تمرده على الدولة العثمانية، مما استدعى قدوم الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا إلى مصر، فهمّ "الرئيس سلمان" للذهاب إلى مصر. وحصل منه إبراهيم بَاشَا حينها على معلومات حول أحوال أهل اليمن. وتحرّك بعدها "الرئيس سلمان" عام ١٥٢٥م إلى اليمن على رأس أسطول جهّزه أمير جدة الجديد حسين بَكْ في مدينة السويس من ٢٠ قادوسًا. وكتب تقريرًا يتناول أحوال الموانئ المطلة على البحر الأحمر، والقلاع التي أنشأها البرتغاليون في الهند، والأوضاع التجارية لعدد من المدن مثل "سومطرة (*Sumatra*)" الإندونيسية و"ملاكا (*Malaka*)" الماليزية. وتُظهر هذه الوثيقة أن العثمانيين عزموا في ذلك التوقيت على الاهتمام بأحوال البحر الأحمر، والحبشة، والمحيط الهندي بشكل جدّي. وتتمتع الرحلة التي قام بها الأسطول العثماني بقيادة "الرئيس سلمان" إلى عدن بأهمية كبيرة في التاريخ العثماني، نظرًا لأنها تعتبر أول رحلة يقوم بها الأسطول إلى مياه المحيط الهندي.

لقد بدأت الدولة العثمانية -بعد ضمّ مصر إلى رقعتها- في الانفتاح تدريجيًّا على البحر الأحمر والمحيط الهندي. واستطاع العثمانيون إفشال مخططات البرتغاليين الذين سعوا بشتّى الطرق لتأسيس مراكز تجارية ذات أهمية في البحر

الأحمر الذي يعتبر من أهم الطرق التي تعبر منها تجارة البهارات، إذ شكّلوا صخرةً صمّاء تكسرت فوقها طموحات البرتغاليين، لما كانوا يتمتعون به من قوة وصلابة أكثر من أسلافهم المماليك. وهذا أيضًا يُعدُّ بمثابة مؤشر جليّ على فشل البرتغاليين في السيطرة على طريق التجارة الشرقية بمعنى الكلمة. وفي الوقت الذي بدأ العثمانيون فيه بالاستقرار في مصر، كان البرتغاليون أصحاب الكلمة العليا في المحيطين الهندي والأطلسي. وعلى الرغم من هجمات البرتغاليين وسيطرتهم على هذه المنطقة، كان التجار المسلمون يحاولون نقل بضائعهم عبر الطريق الموصلة بين الهند والبحر الأحمر بين الحين والآخر. ولقد تسبب الحصار الذي فرضه البرتغاليون على سواحل البحر الأحمر في ارتفاع أسعار التوابل في مدينتي القاهرة والإسكندرية المصريتين، وبيروت اللبنانية مع مرور الوقت. هذا بالإضافة إلى أن قافلة بحرية وصلت من الهند إلى مصر عام ١٥١٨م، واستطاعت جلب القليل من التوابل. ويكتب الرحّالة "ليو الإفريقي (*Leo Africanus*)" الذي زار مصر عقب الفتح العثماني، أن مصر في ذلك الوقت لم تكن تشهد أي أعمال تجارية، والسبب في ذلك اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، ونقلهم كافة الأنشطة التجارية عبر هذا الطريق. ولهذا السبب، كان الهدف الرئيسي من الإدارة التي رغب العثمانيون في ترسيخها في مصر هو إعادة إحياء الطرق التجارية الموصلة إلى الهند، إذ إن جزءًا لا بأس منه من دخل الخزينة المصرية كان يأتي من الإيرادات التي تُدرّها تجارة التوابل القادمة من الهند، بحيث ستلعب مصر دورًا فعّالًا في المستقبل القريب لدعم الاقتصاد العثماني. وبطبيعة الحال فإن تأمين هذا الطريق وإحياء الأنشطة التجارية في مصر كان يحتّم على الدولة العثمانية بناء أسطول قوي في السويس للتصدي لنفوذ البرتغاليين. كما أسس الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا أثناء تواجده في مصر قاعدة بحرية مركزها السويس (١٥٢٥م). وقد كانت هذه الخطوة أولى الخطوات الهامة التي أقدمت عليها الإدارة العثمانية لإثبات قوتها في المنطقة، وإكساب موانئ البحر المتوسط حيويتها بالتجارة القادمة من الشرق من جديد. وفي تلك الأثناء، عيّن إبراهيم بَاشَا وَالِي الشام "سليمان بَاشَا الخادم" واليًا على مصر.

لقد نجح سـليمان بَاشَـا في توطيد الأمن في مصر بإدارته الحكيمة للأمور عقـب تعيينـه واليًـا علـى البـلاد، وأولى اهتمامًـا كبيـرًا بِرفعة مصـر وتطويرها. كمـا اهتـم كثيـرًا بالفعّاليـات التجاريـة فـي البحر الأحمـر ومـع الهنـد، بحيث لعبـت أوامر السـلطان سـليمان دورًا كبيرًا فـي تنفيذه لهذه الأمـور. وعندما نما إلـى مسـامع السـلطان أن البابـا يبـارك مخططـات البرتغالييـن لغـزو الممالك الآسيوية ويشجّعها، أرسل أوامر إلى سليمان بَاشَا بتجهيز أسطول بحري، آخذًا بعين الاعتبار التطورات المسـتقبلية. فبدأ سـليمان بَاشَـا في إنشـاء سـفن ذلك الأسطول في مدينة السويس. كما بعث خطابًا إلى القائد البحري بَرْبَرُوسْ طلب منه تحميل مستلزمات بناء السفن على ٢٠ سفينة، وجَلبْها إلى السويس. وكانت المدافـع مـن بيـن أكثر الأشـياء لفتًا للانتباه فـي هذه الطلبات. ومـا إن وصلت هذه المسـتلزمات إلى السـويس، حتى بدؤوا في إنشـاء ٧٦ قطعة بحرية مختلفة الأحجام، وتمت تقويتها بالمدافع اللازمة. وأثناء غزو السلطان سليمان لبغداد، أُسندت مهمة أخرى إلى "سليمان بَاشَا الخادم"، وعُيّن مكانه حسين بَاشَا. وأسفر هـذا التغييـر في المواقـع عن تأجيل الغزوة المحتملة إلـى الهند لبعض الوقت. لقـد طلبت بعض الحكومات المسـلمة في الهند مثل "جوجـارات (*Gücerat*)" و"كلكتـا" مسـاعدة العثمانيين للتصـدي لهجمات البرتغالييـن. فانتهزت الإدارة العثمانيـة هـذه الفرصة للعـب أدوار مهمة في المحيط الهندي، لا سـيما بعد أن فتحـت مصـر وأخضعتها لسـيطرتها. وفي أعقاب ضمّ بغداد إلـى حظيرة الدولة العثمانيـة أثنـاء غـزوة العراقيْـن التي قام بها السـلطان سـليمان، عيّن السـلطانُ "سـليمان بَاشَـا الخادم" واليًا على مصر للمرة الثانية. وتحرّك سـليمان بَاشَا إلى مدينـة "جوجـارات" الهندية يرافقه أسـطول بحري أُنشـئ في ترسـانة السـويس تحـت إشـراف مهندسـين مـن "جنـوة (*Cenova*)" متخصصين في هذا الشـأن. وبينما كان الأسطول المصري في طريقه نحو الإبحار في البحر الأحمر بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو ١٥٣٨م، كان السلطان سليمان خرج في غزوة مولدوفا، وكان بَرْبَـرُوسْ خَيْـرَ الدين في طريقه صوب "بريفيزا". ويعتبر هذا المشـهد من أجمل الأمثلة الدالة على عظمة الدولة العثمانية وقوتها في ذلك الوقت.

كان الأسطول العثماني الذي يقوده "سليمان بَاشَا الخادم" يمتلك مدافع كبيرة قادرة على حصار المدن. وكانت سفن أسطوله تضم على متنها ٩ آلاف شخص، من بينهم ألفا جنديّ من الإنْكِشَارِيّة. ووصل الأسطول إلى سواحل مدينة عدن. وكانت المدينة التي تتمتع بأهمية إستراتيجية بالغة، يحكمها في ذلك التوقيت "عامر بن داود" وهو من "الدولة الطاهرية"(٧٨) اليمنية. ولقد طلب "عامر بن داود" المساعدة من "سليمان بَاشَا الخادم"، نظرًا لما كان يعيشه من اختلاف في وجهات النظر مع الإمام "شرف الدين" الذي كان من الأسرة الزيدية التي تحكم اليمن. وقد علم سليمان بَاشَا بهذا الطلب عندما وصل إلى جزيرة "كمران"(٧٩)، فرسا بأسطوله عند سواحل مدينة عدن يوم ٢٧ تموز/يوليو ١٥٣٨م من دون أن يردّ على "عامر بن داود" بشيء. وعمد إلى إلقاء القبض على حاكم عدن وإعدامه، وعليه فقد انتقلت السيادة في هذه المدينة إلى الدولة العثمانية. وعيّن سليمان بَاشَا شخصًا يُدعى "برهام (*Behram*) بَكْ" حاكمًا على عدن، وترك معه ٥٠٠ جنديّ و٢٠ مدفعيًّا لحماية المدينة. عقب ذلك خرجت عدن عن سيطرة الدولة العثمانية، إلى أن عادت مرة أخرى إلى حظيرتها عام ١٥٦٨م.

تحرّك الأسطول العثماني من عدن، ووصل إلى سواحل الهند بعد ذلك بعد ١٩ يومًا، إذ كانت سفن الأسطول قد أُعدّت وفق ظروف البحر المتوسط المناخية، بحيث كانت السفن المجدفية تشكّل الغالبية العظمى من سفن الأسطول أكثر من السفن الشراعية. ولقد عانى بحّارة الأسطول العثماني كثيرًا بسبب الرياح الموسمية التي لم يكونوا معتادين عليها. وهاجم الأسطول العثماني في البداية قلعتي "جوكلا (*Gokala*)" و"كات (*Kat*)" في الهند، واستولى عليهما. ثم تحرّك صوب مدينة "ديو". وفي تلك الأثناء، كان "محمود شاه" يجلس على عرش "جوجرات (*Gücerat*)". ولم يكن هذا الشخص يكنّ مشاعر مناصرة

---

(٧٨) الدولة الطاهرية: دولت ورثت مناطق نفوذ الدولة الرسولية في اليمن، وهي معظم أراضي اليمن باستثناء مناطق الجبال الشمالية التي تنافس عليها الأئمة الزيديون فيما بين عامي ١٤٥١ - ١٥١٧. (المترجم)

(٧٩) جزيرة كمران: تقع جنوب البحر الأحمر على مسافة ٦ كيلومترات قبالة السواحل الغربية لليمن. (المترجم)

للعثمانييـن لتحالفـه سـرًّا مـع البرتغالييـن ضدهم. فكانت تصرفاتـه تلك تتضاد مـع طلبات المسـاعدة التي تقدم بها سـلفه "بَاحَادِرْ (*Bahadır*)" من العثمانيين. ذلك لأن سـليمان بَاشَـا إنما وصل إلى مدينة "ديو" بناءً على طلبٍ بالمسـاعدة تلقّـاه من "باهادر شـاه" الـذي قُتل وهو يتولّـى حكم مدينة "جوجـرات". وكان البرتغاليـون يحكمـون مدينة "ديو"، إذ كانت تعتبر من أقوى حصونهم في الهند. أنزل سليمان بَاشَا جنوده إلى سواحل المدينة في أوائل شهر أيلول/سبتمبر، وبدأ في حصارها. وكان يأمل في أن يتلقّى دعمًا من السكان المحليين لفتح المدينة، ويعتقد أن بإمكانه الاسـتيلاء على القلعة بسـهولة ويُسرٍ بفضل مساعدتهم. لكن الوضـع لم يكن كما كان يتوقّـع:

ضيّـق سـليمان بَاشَـا الخنـاق علـى مدينـة "ديـو" مـن البـر والبحـر، وبدأ فـي قصفهـا بالمدافـع. وكان يدافـع عن المدينة قائدٌ برتغالي يُدعى "أنطونيو دي سـيلفيرا (*Antonio de Sylveira*)". وخلال فترة الحصار التي اسـتمرت لعشرين يومًـا، بـدأت حصـون قلعة "ديو" فـي التهـدّم أمام قذائـف المدافـع العثمانية، إلا أن المدافعيـن عـن المدينة اسـتماتوا مـن أجل منـع العثمانييـن من دخولها. وبعـد طـول قتال عنيـف، أدرك الجنـود البرتغاليـون المدافعون عـن القلعة من الخارج أنهم لن يسـتطيعوا الصمود أكثر في وجه العثمانيين، فآثروا الانسـحاب إلى داخل القلعة، وفي تلك الأثناء شاهدوا سليمان بَاشَا وهو ينقل جنوده مسرعًا إلـى سـفنه، ويبحر بهم بعـد أن تركوا حتـى مدافعهم على الشـاطئ. ولقد أقدم سـليمان بَاشَـا على هـذه الخطوة بعدما امتنـع "محمود شـاه" -الـذي كان يفكّر فـي القضـاء على أمير عدن- عن إرسـال الطعام وسـائر المسـتلزمات الأخرى التي طلبها منه العثمانيون، هذا بالإضافة إلى أن سـليمان بَاشَـا علم أن الأسطول البرتغالـي فـي طريقـه نحو المدينـة، ففضّل الانسـحاب بجنوده وفـكّ الحصار عنها. ويمكننا أن نسـرد في هذا الصدد خدعة أخرى قام بها "محمود شـاه" ضد العثمانييـن مفادهـا: أنه لم يكن ثمة أسـطول برتغالي في طريقه نحو مدينة "ديو" لنجدتها من أيدي العثمانيين؛ إذ أقدم حاكم جوجارات "محمود شاه" على تمرير رسـالة مزيّفة عبر بعض الجواسـيس إلى سـليمان بَاشَـا يتحدّث فيها عن قدوم

الأسطول البرتغالي، وقد وصلت هذه الرسالة سليمان بَاشَا؛ فسلّم-أي سليمان بَاشَا- المدافع التي لم يستطع شحنها على متن سفن أسطوله إلى "مصطفى بَكْ" أحد رجال "الرئيس سلمان"، و"خوجة سفر" القادم من الهند والذي نُصّب واليا ملقبا بلقب "خُدَاوَنْد (*Hüdavend*)" التي تعني السيّد. وبينما كان الأسطول العثماني في طريقه للعودة، مرّ بميناء مدينة "الشحر (*Şihr*)" المطلة على خليج عَدَن جنوب اليمن. وقد أعلن حاكم المدينة اعترافه بالحكم العثماني على المدينة. ونفهم من ذلك أن سليمان بَاشَا رغب في تنظيم الأوضاع السائدة في اليمن بينما كان عائدًا من غزوه للهند.

لقد اعترفت اليمن، وبالأخص منطقة "زبيد (*Zebid*)" بالحكم العثماني فيها عقب فتح مصر، وقُرئت الخطبة باسم السلطان العثماني. وعقب وفاة الحاكم "برسباي" الذي اعترف بالسيادة العثمانية، تولّى الحكم على منطقة "زبيد" شخصٌ يُدعى "حسين بَكْ الشركسي". وكان "إِسْكَنْدَرْ بَكْ" الذي سيطر على هذه المنطقة إبّان وفاة السلطان سليم الأول، قد أعلن عن خروجه عن السيادة العثمانية. لكن العثمانيين لم يغزوا منطقة حكمه لردعه، بل قُتل بعدها بفترة على يد "ناهودا (*Nâhuda*) أحمد". وفي الوقت الذي وصل فيه سليمان بَاشَا إلى مدينة "المخا"، كان "ناهودا أحمد" يحكم منطقة زبيد. وما إن وصل سليمان بَاشَا إلى سواحل "المخا"، أرسل دعوة إلى "ناهودا أحمد" لزيارته في سفينته، إلا أن هذا الأخير لم يستجب لدعوته. وعليه، آثر سليمان بَاشَا معاملته برفق ولين، وأرسل إليه حاجبه "سليمان أغا". وكان "سليمان أغا" يحمل معه راية وشهادة بالإمارة لمنحهما إلى "ناهودا أحمد". ورافق "سليمان أغا" حشد كبير من الرجال الذين كان من بينهم بعض الحُرّاس الذين أُمروا بقتل "ناهودا أحمد" في حال عصيانه للأوامر. لكن "ناهودا أحمد" تصرّف حيالهم بمكرٍ شديد، ورفض دعوة سليمان بَاشَا، إلا أنه تظاهر بقبول الأوامر العثمانية. حتى إن هذا الوفد أبرم معه معاهدة لسداد الضرائب بشكل سنوي إلى الدولة العثمانية. وفيما كان "سليمان أغا" في طريق عودته، أبلغه "ناهودا (*Nâhuda*) أحمد" أنه عازمٌ على نقض الاتفاق المبرم بينهما، والاستيلاء على عدن بمجرد

مغادرة سـليمان بَاشَـا لليمن، مشدّدًا على أنه لن يتنازل عن المناطق التي انتزعها بالسـيف إلا بالسـيف، لا بإبرام الاتفاقيات والمعاهدات. وبناءً على هذه الأنباء، توجّه سـليمان بَاشَـا إلى جزيـرة "كمـران (*Kameran*)"، وكلّف جنـوده بتجهيز عربـات المدافـع. ثـم بعد ذلك أنـزل عددًا من جنـوده في ميناء مدينة "سـالف (*Salif*)". وانضـم حاكـم تلـك المنطقة "كاشـف سـنان" إلى الجيـش العثماني، وزوّدهم بالحيوانات التي كانوا بحاجة إليها لإتمام عملية الهجوم. وهمّ الجيش العثمانـي بمنازلـة "ناهودا أحمد". وقد اضطر هذا الأخير للانسـحاب إلى مدينة زبيد بعدما انقلب عليه أحد قادته ويُدعى "ولي بَكْ". وفي الواقـع، كان سليمان بَاشَـا قد أسـر قسـمًا لا بأس به من جنوده، مما أصاب جيش "ناهودا" بالضعف مـع مرور الوقت. وعليه، أذعن "ناهودا" لعرض سليمان بَاشَا بالاستسلام وتقديم فروض السـمـع والطاعة في ظل شـروط مناسـبة له. وما إن دخل سـليمان بَاشَا إلى مدينة زبيد بهذه السـهولة، أمر بإعدام "ناهودا أحمد" على الفور. وعيّن أمير غزّة مصطفى نجل "بِيِقْلِي محمد بَاشَا" حاكمًا على منطقة زبيد. ثم انتقل سليمان بَاشَـا إلـى مكة المكرمة، ومنها إلى مصر. واسـتُدعي بعدها إلـى عاصمة الدولة العثمانيـة إسـطنبول، وانضم لزمرة وزراء الديـوان الهُمايوني الذي يعتبر مجلس شورى الدولة العثمانية.

إن غـزوة العثمانييـن لسـواحل الهنـد لـم تعـد عليهـم بالفائدة التـي كانوا يرجونها، على الرغم من بثّها للرعب في نفوس البرتغاليين. لكن سيطرتهم على قواعد مهمة في اليمن مثل عدن وزبيد مكّنتهم من بسـط سـيطرتهم على الطرق التجاريـة المـارّة في منطقة جنوب غرب آسـيا، وانتزاع هذه السـيطرة من أيدي البرتغالييـن. هـذا إلى جانب أن الأسـطول العثماني اسـتطاع خـلال غزوة الهند الاسـتيلاء علـى بعض القلاع الواقعة جنوب مصر فـي المنطقة التي أطلق عليها مؤلفو كتب التاريخ العثماني اسـم "أرض الحبشـة"، إذ عيّن سليمان بَاشَا حاكمًا على هذه المنطقة شـخصًا يُسـمى "أوزدمير بَكْ". واستطاع "أوزدمير بَكْ" انتزاع قـلاع "إبريـم (*İbrim*)" و"دير (*Derr*)" و"سـاي (*Say*)" من أيدي حكومة "فونـج (*Funç*)"، وبسط نفوذه على منطقة "سيفاكين". وبهذه الطريقة، بدأت حلقة جديدة

من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على تجارة الشرق، بعدما سيطر العثمانيـون علـى كافة المناطق الواقعـة على ضفتي البحـر الأحمر حتى مضيق "بـاب المندب" جنوبًا، إذا ما اسـتثنينا المناطق الخاضعة أصلًا لمملكة الحبشـة التي صار للدولة العثمانية حدود معها.

العودة إلى قضايا المجر والتطورات السياسية الجديدة

آثر السلطان سليمان القانوني منح نفسه قسطًا من الراحة من غزواته عقب العـودة من غـزوة مولدوفا. فلقد تخطّـى عمره الأربعين عامًـا. ويبدو أن الأنباء السـارّة التـي وصلته بشـأن الغزوتين الكبريـن اللتين نجح الأسـطول العثماني في تحقيق نجاحات باهرة فيهما، أثلجت صدره وأراحته، لا سـيما بعد أن حقّق نصرًا مؤزّرًا في مولدوفا. لكن الحرب مع جيش البندقية كانت لا تزال مستمرة حتـى ذلـك الحين. كمـا وقعت بعـض الحوادث علـى الحدود الغربيـة للدولة وفـي البُوسْـنَة. فلقد شـنّ حـكام البندقية هجمـات متتالية على تلـك المناطق، ممـا دفـع أمير البُوسْـنَة "خُسْـرَوْ بَكْ" إلى الاسـتيلاء على قلعـة "نين" الخاضعة لحكـم البنادقـة والواقعة غرب مدينة "زادار"، حتى إنـه تمكّن من إحباط هجوم شـنّه البنادقة على قلعة "نادين" بمسـاندة ١٠ آلاف جندي مشـاة وألفيّ فارس. لكن مدينة "كاسـتيلنوفا" الواقعة على الساحل الشمالي لخليج "كاتارو" والتابعة لإمـارة البُوسْـنَة، تعرّضـت بعدهـا بفترة لهجوم مـن "أندريا دوريـا" الذي أردل الثأر لهزيمته في "بريفيزا" عند موقـع "دالماسـيا". فما إن سـمـع "دوريا" بمغادرة بَرْبَـرُوسْ سـواحل اليونان، حتى وصل إلـى مدينة "كاسـتيلنوفا (*Kastelnova*)" وحاصرهـا بعد شـهر واحد من هزيمتـه في "بريفيزا". وأنزل جنوده إلى سـاحل المدينة، وأمطرها بوابل من القذائف المدفعية. فاستمات المدافعون عن المدينة فـي حمايتهـا، وأقدموا على بعض المحاولات للخروج من قلعة المدينة، إلا أن الغالبيـة العظمـى من قواتهم سـقطوا قتلـى في هذه المحـاولات، وقلّ عددهم، ممـا دفعهـم إلى الاستسـلام فـي النهاية. وقـام بعدها "دوريا" بتسـكين ٦ آلاف حارس في هذه المدينة. ولـم يسـتطـع حاكـم البُوسْـنَة "بَالِي بَكْ" استرداد المدينة

رغم كل المساعي التي بذلها في هذا الصدد. فأوكل السلطان سليمان أمر استرداد المدينـة إلـى بَرْبَـرُوسْ. وعندمـا وصل بَرْبَـرُوسْ على رأس أسـطول مكون من ١٥٠ سـفينة إلى سواحل"كاسـتيلنوفا"، كان "خُسْـرَوْ بَاشَـا" قد وصل هو الآخر بقواتـه إلـى المدينـة. وحاصـر الجيـش العثمانـي قلعـة المدينة على مـدار ٢٠ يومًا، واسـتطاع فـي النهاية اسـتردادها بعدما قصفها بالمدافـع، وفُتحت ثقوب في جدرانها، فانسـلّ عددٌ من الجنود العثمانيين إلى داخلها، وسـهّلوا السـيطرة عليها. (٢٥ ربيع الأول ٩٤٥هـ / ٢٤ آب/أغسطس ١٥٣٩م).

وكان يبـدو فـي تلك الأثنـاء أن هذه الصراعات بيـن العثمانيين والبندقيين ستنتهي بتوقيع معاهدة بين الطرفين. فبينما كان العثمانيون في طريقهم لاسترداد "كاستيلنوفا" من أيدي البنادقة، كانوا هم قد تحرّكوا لإبرام اتفاقية وإعلان وقف إطـلاق النـار مـع الجانب العثمانـي. ذلـك لأن الاتفـاق المبرم بيـن البندقيين والإمبراطـور "كَارْل الخامـس" لـم يكن يصـب في مصلحتهم. هـذا إلى جانب أن جيوش البندقية تكبّدت خسائر فادحة جرّاء المعارك التي دخلتها بموجب هذا الاتفاق. وقد فقدوا من بين أيديهم عددًا كبيرًا من جزر بحر "إِيجَه"، كما صارت جزيـرة كِرِيـتْ هي الأخـرى عُرضةً للضيـاع. وفي خضمّ هـذه الأحداث، اتخذ مجلـس البندقية قـرارًا بتوقيـع معاهدة مع الدولة العثمانية. فأرسـلوا جاسوسًـا خِلسـةً إلى إسطنبول للوقوف على نوايا السلطان، وأركان الدولة العثمانية حول هـذه الاتفاقيـة، والاطلاع على آرائهم بشـأن توقيـع معاهدة مـع إدارة البندقية. وقـد عاد هذا الجاسـوس بأنباء إيجابيـة حول رغبة العثمانيين فـي إبرام معاهدة سـلام. وعليه، كلّف البنادقة "توماسـو كونتاريني (*Tomaso Contarini*)" رسميًّا بالتفاوض مع الدولة العثمانية. لكن السلطان سليمان لم يستقبل مبعوث البندقية بشـكل جيد. وقـد أبلغه الصدر الأعظم فـي ذلك الوقت "لطفي بَاشَـا" بإمكانية التوقيـع على معاهدة صلح مع حكام البندقية، شـريطة حصول الدولة العثمانية علـى صلاحيـات واسـعة، وأوصاه بالعودة إلـى البندقية والقدوم إلى إسـطنبول في وقت لاحق لحضور حفل ختان أولياء العهد.

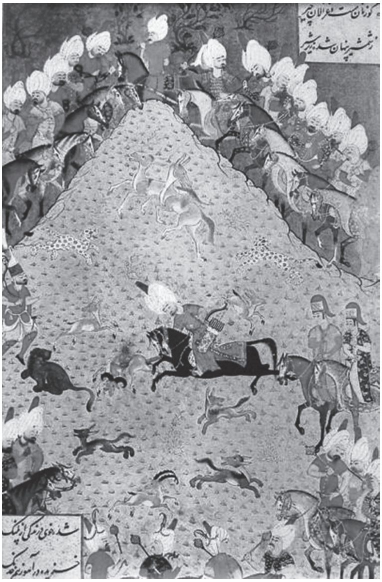
وأما البنادقة فتيقّنوا من أن إبرام معاهدة صلح مع السلطان العثماني هو السبيل الوحيد أمامهم لمواجهة القرارات التي اتخذها الإمبراطور "كَارْل الخامس" وملك فرنسا، وكذلك الوضع السياسي السائد في أوروبا. ولهذا عزموا على ترسيخ دعائم السلام مع الدولة العثمانية مهما كلفهم ذلك الأمر من تضحيات. وللسبب ذاته بعثوا "ألفيس لويجي بادورو (*Alvise/Luigi Badeoro*)" إلى البلاط العثماني عام ١٥٤٠م لاستكمال المفاوضات مع السلطان لإقرار السلام بين الطرفين، إذ منح مجلس شيوخ البندقية "بادورو" صلاحية تقديم عرض للسلطان لإعادة الأوضاع كما كانت عليه قبل بدء العداوة بين الجانبين. وأسندوا له مهمة تقديم ٣٠٠ ألف قطعة ذهبية إلى البلاط العثماني كتعويض عن مصاريف الأسفار التي قام بها الأسطول العثماني. إلا أن هذا الرسول لم يكن ليتخلّى عن القلعتين الواقعتين في مقاطعة "مورية"، أي قلعتي "مونيمفاسيا (*Monemvasia*)" و"نابليو (*Napoli*)". وعلى الرغم من ذلك، فإن مجلس شيوخ البندقية كان يميل لمنح هذا الرسول صلاحيات أكثر إذا استلزم الأمر، حتى إن المجلس أصدر تعليمات سرية له بأنه مخوّل بترك هاتين القلعتين ومغادرتهما إذا ما حالتا دون إبرام معاهدة السلام مع العثمانيين. ولقد أُفشيت هذه التعليمات من قِبل السفير الفرنسي "جولاوم باليسيه" (كجزءٍ من مؤامرة دبّرها بشكل مشترك كل من "أجوستينو أبوندينو (*Agostino Abbondino*)"، و"جيوفاني فالير (*Giovanni Valier*)"، وموفو ليون (*Moffuo Lion*)"، و"ألمورو دولفين (*Almoro Dolfin*)") كُتّاب السفارة. ولقد أوصل هذه المعلومات التي حصل عليها إلى الديوان الوزاري العثماني. ولهذا السبب، فقد ضيّق الوزراء العثمانيون الخناق على سفير البندقية، مما دفعه لتنفيذ آخر تعليمات حصل عليها في هذا الشأن.

وعقب جولة من المفاوضات بين الدولة العثمانية والبندقية على مدار ثلاثة أشهر، وقّع الطرفان معاهدة سلام بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة ٩٤٧هـ (٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤٠م). وتنص هذه المعاهدة على تخلّي حكام البندقية عن مدينتي "مونيمفاسيا (*Monemvasia*)" و"نافبليي" للعثمانيين.

كما لـن يسـترجـع البنادقة مـن العثمانيـين مدينتـي "أورانـا (*Urana*)" و"نادين (*Nadin*)" الواقعتين على سـاحل منطقة "دالمسـيا"، والجزر التي اسـتولى عليها بَرْبَرُوسْ في بحر "إِيجَه" مثل جزر "بطمس (*Patmos*)"، و"سكيروس (*Scyros*)"، و"أسـتيباليا (*Stampelia*)"، و"أجانيطـس (*Egine*)"، و"نيو (*Nio*)"، و"أنتيباروس (*Antiparos*)"، و"بـاروس (*Paros*)". وقبل البنادقة بدفـع ٣٠٠ ألف قطعة ذهبية إلـى الدولة العثمانية كمصاريف المعارك التـي دارت بينهما. وفي حقيقة الأمر، فـإن حـكام البندقيـة قدّمـوا الكثير مـن التنـازلات والتضحيات من أجـل إقرار السـلام مع العثمانيين. وسـلّم الموظف المدني من قبل حكومة البندقية مدينتي "مونيمفاسـيا" و"نافبليو" إلى العثمانيين بموجـب المعاهدة الموقعة بين الطرفين يومي ٢١ و٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه.

كان السـلطان سـليمان قد عيّن زوج اخته "لطفي بَاشَـا" في منصب الصدر الأعظـم عقب وفاة "أَيَاسْ بَاشَـا" (٢٦ صفر ٩٤٦هـ - ١٣ تموز/يوليو ١٥٣٩م). وكان "أَيَـاسْ بَاشَـا" قائـدًا من الدرجة الأولى، كما اشـتهر باتسـاع قسـم الحَرَم الخـاص بـه وبوزنه الزائد الذي لـم يكن أي حصان يتحمّل نقله من مكان لآخر. ولـم تكن وفاته خسـارة كبيرة للدولة العثمانيـة، إذ كان الديوان يعجّ بالكثير من الرجال المحنكين أصحاب الخبرات في مجال الإدارة. وكان "لطفي بَاشَا" واحدًا من أبرز هؤلاء الوزراء المثقفين من الناحية الفكرية. وشـعر السـلطان سـليمان بحاجة إلى قضاء فترة من الوقت بعيدًا عن أجواء السياسة المتلبّدة في إسطنبول، فآثـر قضـاء فصل الشـتاء فـي مدينة أَدِرْنَه عقـب عودته من غـزوة مولدوفا. هذا إضافة إلى ميله إلى تنظيم العديد من رحلات الصيد الطويلة على امتداد المنطقة الممتـدة من إسـطنبول حتى "كوجالي" في الشـرق. وفي إحـدى المرات توجّه إلـى مدينـة "بورصـا" إحدى العواصـم القديمة لدولتـه، وزار أضرحـة أجداده. ومـن ثـمّ انتقل منها إلى شـبه جزيرة "جاليبولي" في الغـرب، ثم خرج في رحلة صيـد عائدًا إلى إسـطنبول (أيلول/سـبتمبر ١٥٣٩م). أعقب ذلـك إقامته احتفال بمناسـبة خضـوع ولديْه "بايزيـد" و"جِيهَانْكِيـرْ (*Cihangir*)" من "خُرّم سـلطان"

إلـى عمليـة الختـان. وفي الوقـت نفسـه، زوّج ابنته "مهرماه سـلطان" بـ"رسـتم بَاشَـا" (١١ تشـرين الأول/أكتوبر ١٥٣٩م). وعقب ذلك مباشـرة اصطحب كلًّا من الصدر الأعظم "لطفي بَاشَا" و"رستم بَاشَا" في رحلة إلى أَدِرْنَه. وأمر بترتيب فعّاليـات الصيـد بالقـرب مـن منطقة "يانبولـو". وقبيـل خروجه فـي غزوة جديدة عزل السـلطان سليمان "لطفي بَاشَـا" مـن منصب الصـدارة العظمى لسـوء معاملته زوجته "شـاه سلطان"؛ شـقيقة السـلطان. وكانـت شـخصية "لطفي بَاشَـا" تتسم بالعصبية والحدّة، وكان مغـرورًا للغايـة، ويثـق بعلمـه الشـرعي. كما ألّـف كتابًا عن التاريخ العثمانـي. وقـد كتـب رسـالة يبرهن فيها على أن السـلطان سليمان يحمل لقـب خليفة المسـلمين. وفـي حقيقة الأمـر كان السـلطان سـليمان يكنّ له تقديـرًا واحترامًا كبيريْـن، ويؤمن بأنه يلعب دورًا حاسـمًا في التغير الذي تعيشـه الدولة. لكن إقدامه على معاقبة امرأة زانيـة بطريقـة بشـعة، أدّى إلى نشـوب خلاف بينه وبين زوجته "شـاه سـلطان". فتطور الخلاف إلى مشـادة بالأيدي بسبب عصبيّته، فهمّ إلى لطم زوجته، إلا أن طاقم الخدم الذين كانوا موجودين في القصر منعوه من ذلك. وقد أبلغت "شـاه سـلطان" هذا إلى أخيها السـلطان سليمان، فما كان منه إلا أن عزل "لطفي بَاشَا" عن منصبه، وعيّن مكانه "سـليمان بَاشَـا الخادم" الذي اكتسب شهرة واسعة بعد غزوه للهند (المحرم ٩٤٨هـ - نيسان/أبريل ١٥٤١م). ومن الواضح أن العاطفة التي كان يكنّها السلطان سليمان تجاه عائلته ستحدد طابعها في المرحلة المقبلة من حيث البناء الاجتماعي للأسرة الحاكمة.



منمنمة تُظهر السلطان سليمان في إحدى رحلات الصيد

وفي تلك الأثناء، أضحت التطورات السياسية التي يشهدها الغرب بمثابة نهاية الصمت الذي كان يسيطر على الأجواء منذ عام ١٥٣٣م. أضف إلى ذلك فإن وفاة ملك المَجَر "زابوليا (*Zapolya*)" (٢٠ تموز/يوليو ١٥٤٠م) طرحت قضية المَجَر مجددًا على السطح بشكل مفاجئ. ذلك لأن "زابوليا" كان قد أبرم اتفاقًا سريًّا قبل وفاته بعامين مع غريمه اللّدود "فرديناند". وكان هذا الاتفاق ينص على أن يعترف "فرديناند" بحكم "زابوليا" ملكًا على المَجَر، في مقابل أن يؤول الحكم في حالة وفاته إلى "فرديناند"، دون أن يترك "زابوليا" وريثًا له لتولّي العرش. وعلى ذلك، راح "فرديناند" يتحرك زاعمًا أن جميع مناطق المَجَر تخضع لسيطرته، على الرغم من ولادة طفل لـ"زابوليا" قبل وفاته بأيام قلائل. ولم يكن يُتوقع أن يرضى السلطان سليمان عن هذه الوضع. لأن العثمانيين كانوا يؤمنون بأن حدودهم الغربية لدولتهم تمتد حتى غرب منطقة "بودا" وشمالها، وليس نهر الطُونَة. وقد حاصر "فرديناند" مدينة "بودا" في أيار/مايو ١٥٤١م، مما حدا بالسلطان سليمان باتخاذ قرار بغزو المَجَر مرة أخرى (غزوة بودا).

غزو المَجَر وضم "بودا" إلى أراضي الدولة العثمانية

لقد شعر ملك المَجَر "زابوليا" أنه يتحمل مسؤولية هذه الأوضاع بعد مقتل الزعيم البندقي "أندريا كِرِيتّي" عام ١٥٣٤م، فساوره الخوف من حركة انتقامية يقوم بها السلطان سليمان. لكنه أدرك بعدها أن السلطان حمّل مسؤولية هذه الأوضاع إلى ملك "النمسا"، وذلك من رسالة بعثها السلطان إلى فيينا، فاستراحت نفسه. أحسّ "زابوليا" بعد فترة من التردّد أنه بحاجة إلى إبرام اتفاقية مع "فرديناند".

والتقى سفراء كلا الطرفين في مدينة "فارد (*Varad*)" المَجَرية. وبعد مدة من التفاوض وتبادل وجهات النظر، استطاع الجانبان إيجاد أرضية خصبة لعقْد اتفاقية بينهما في شباط/فبراير ١٥٣٨م. ونصّت هذه الاتفاقية على أن يتنازل "زابوليا" عن جميع أراضي المَجَر بعد وفاته إلى "فرديناند"، سواء أكان له ولد

يخلفـه أم لا. كمـا تعهّـد "زابوليا" بعدم إبرام أي اتفاق أو تحالف مـع السـلطان سـليمان ضـد "فرديناند" والإمبراطـور "كَارْل الخامس". وقـرّر الطرفان التوقيـع على هذه الاتفاقية سـرًّا لتيقّنهما من أن السـلطان سـليمان لن يوافق على اتفاقية كهـذه. وقبـل مـرور عام واحد علـى توقيـع هـذه الاتفاقية، أقـدم "زابوليا" على الـزواج بـ"إيزابيـلا (*İzabella*)" ابنـة ملك بولندا الذي كان ينتهـج سياسـة عدائية تجاه آل "هابسبورج"، ومنح عائلتها جزءًا من مدن وقلاع المَجَر كهدية العرس. فلـم يتحمّـل "فرديناند" أن يحصل أحدٌ غيره على أجزاء من المَجَر، على خلاف الاتفاقية التي وقعها مـع "زابوليا" والتي تنصّ على أن تؤول جميـع أراضي مملكة المَجَر إليه بعد وفاته، فبادر بإرسال مبعوث إلى عاصمة الدولة العثمانية، وأفشى بنـود الاتفاقيـة إلى حكومـة البلاط هناك. ويروي مؤرخٌ آخـر معلومات مختلفة فـي هذا الصدد. فيرى هذا المؤرخ أن رسـولًا يُدعـى "لازكي" أطلـع العثمانيين على هذه الاتفاقية السرية لعداوة بينه وبين "زابوليا". وكان البولندي "هيرونيموس لازكي (*Hieronimus Laczky*)" يدافـع عن مصالـح "زابوليا" في إسـطنبول حتى عشر سنوات مضت، لكنه منذ عام ١٥٣٨م يخدم "فرديناند" للغرض ذاته، وذلك بعـد أن سـاءت علاقته بملك المَجَر "زابوليا" الـذي اعتبره أنه لا يمكن الثقة به. حتى إنه شـاع عنه أنه أقام علاقات سـرّية مـع بعض الأشـخاص في إسـطنبول مـن دون علـم "زابوليا". لكنـه قدّم تقريرًا إلى "فرديناند" عـام ١٥٣٩م أخبره فيه بالتأكيـد علـى ضرورة انتقـال حكم المَجَر بعـد وفاة الملك "لويس" إلى أسـرة عريقة آل "هابسـبورج". وكان يعتقد أنه إذا ما أبلـغ السـلطان سـليمان بالخلاف الحاصل بين "زابوليا" و"فرديناند"، فإن السلطان سيجد ذلك منطقيًّا. وكان يقول دومًا "يجب بذل المزيد من الجهد من أجل مسـاعدة الأتراك على عدم الخوف مـن قـوة الإمبراطور وفرديناند"، ويحكي أنه سـيتولّى مسـؤولية إقناع السـلطان في هذا الصدد. وعندما وصل "لازكي" إلى إسطنبول كمبعوثٍ من "زابوليا"، كان يحمـل معه الخراج الـذي يدفعه "زابوليا" للعثمانيين عن المَجَر، كما كانت لديه تعليمات بإبلاغ السلطان باستعدادهم لإعادة منطقة "كاستيلنوفا" إلى العثمانيين، وإطلاعـه علـى رغبة الإمبراطور في توطيد سـبل الصداقة مـع البلاط العثماني

مـن دون شـروط مسـبقة. وأفشـى أمر اتفاقيـة "فـاراد (*Varad*)" إلى السـلطان، وقـدّم إليـه العـروض التي كان يحملهـا معه، إذا ما قبل السـلطان سـليمان هذا الوضـع. لكنه في نهاية المطاف لم يسـتطع الظفر بشـيء سـوى فترة من الهدنة مـع العثمانيين لم تتجاوز الستة أشهر.



نقش بارز يظهر حصار "بودين" عام ١٥٤١م

ومـن ناحيـة أخرى، رُزق "زابوليا" قبل موته بعدة أيام بطفل ذكر، فقرر عدم تطبيـق بنود الاتفاقيـة الموقّعَة مع "فرديناند"، وأوصـى بتنصيب ابنه على عرش مملكـة المَجَـر. وأخبـر مـن حوله بأنـه ربما يلجأ لطلب المسـاعدة مـن الدولة العثمانيـة لمواجهة أي هجوم محتمـل يقوم به "فرديناند". وفي نهاية الأمر، عيّن "زابوليا" ثلاثة أوصياء على ابنه الرضيع، وأرسـل أحد رجاله يُدعى "فيربوجي" إلى إسطنبول. وبعدها تُوفي "زابوليا"، وعلم "فرديناند" بخبر وفاته، فبعث سفيره "لازكي" إلى إسطنبول للمرة الثانية. ولم يهمل هذا السفير أي شيء يتعلق بالدفاع عن الأرشـدوقية، وحماية مصالحها خلال لقائه بالمسـؤولين العثمانيين، وذلك نـزولًا على رغبة "فرديناند". وقد نشـر "لازكي" إشـاعة مفادهـا أن ابن "زابوليا" المولـود حديثًـا لـم يُرزق به مـن "إيزابيلا"، بل وُلـد من امرأة أخـرى كان على

علاقة بها. وعلى الفور بدأت هذه الشائعة تنتقل بين الناس كالنار في الهشيم. مما دفع السلطان سليمان لإيفاد رسول برتبة رقيب إلى مدينة "بودا" للتحقّق من صحة هذه الشائعة. والتقى هذا الرسول بالملكة "إيزابيلا" التي أرضعت طفلها كي يصدّق أنه ولدها، فوضع الرقيب يده على صدر الرضيع، وأقسم نيابة عن السلطان سليمان بأن هذا الطفل سيتولّى حكم المَجَر في المستقبل.

وعقب وفاة "زابوليا"، أرسل أرشيدوق النمسا المنحدر من أسرة هابسبورج "فرديناند" -الذي صار يحمل تاج عرش المَجَر وبوهيميا- رسولًا إلى إسطنبول، ومن ناحية أخرى بدأ في الانشغال بتجهيز جيشه. وكان نبلاء المَجَر المنحازون لـ"فرديناند" يمنّون أنفسهم باحتلال "بودا" قبل وصول العون الذي أرسله السلطان سليمان. وقد راقت هذه الفكرة لـ"فرديناد"، فأرسل على الفور جيشًا إلى مدينة "بودا". ووصل الجيش النمساوي بقيادة "ليونارد فيلس (*Leonhard Fels*)" إلى الأراضي المَجَرية، واستولى على مدن "والتزن (*Waltzen*)"، و"إزترجوم (*Esztergom*)"، و"سيكشفهيرفار (*Stuhlweissenburg*)"، و"فسيجراد (*Vişegrad*)"، و"بشتي (*Peşte*)". لكنه لم يستطع دخول مدينة "بودا". وفي تلك الأثناء كان السلطان سليمان قد استقبل "فيربوجي (*Verböczi*)" مبعوث ملك المَجَر "زابوليا" في إسطنبول، ومنحه فرمانًا سلطانيًا مفاده أن ابن "زابوليا" سيعتلي عرش مملكة المَجَر بعد وفاة أبيه، ويحكم جميع الأراضي التي مُنحت له - وهي في الأساس مملوكة للسلطان الذي استولى عليها بالسيف - في مقابل دفع الجزية الشرعية للدولة العثمانية. وأما "لازكي" رسول "فرديناند" فقد استقبله السلطان يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٤٠م. وأبلغ السلطان سليمان بأن أراضي المَجَر مملوكة له -أي للسلطان- ووبّخه وعاتبه، ولم يقبل الحجج التي ساقها "لازكي"، وأصدر قرارًا بقطع المفاوضات الجارية مع سيّده.

وبحسب ما رواه "لازكي" في تقريره حول هذه الزيارة، فإن السلطان سليمان عنّفه تعنيفًا شديدًا بقوله:

"عندما أتيتنا كرسولٍ العام الماضي، أخبرتك بأن المَجَر هي ملكٌ لي، وربما أبلغت ذلك لسيّدك. فلماذا يرسل جيشًا إلى أراضي دولتي؟ ولماذا أنت هنا؟ أين شرفك؟ فسيّدك يحاول خداعي! ويرغب في إعلان الهدنة حتى الصيف كي يستطيع تجهيز جيشه حتى ذلك الوقت، ويغير على مدينة بودا. فنحن الآن في الشتاء، ولكن الصيف حتمًا سيحلّ".

حتى إن "لازكي" بعد أن انصرف من أمام السلطان، استمر السلطان في التلفّظ بَكْلمات موبخة له بصوتٍ عالٍ من وراء ظهره. وعليه، فقد فطن السلطان سليمان إلى ضرورة إعلان حرب جديدة ضد "فرديناند". فجمع وزراءه ورجال دولته، وتشاور معهم على مدار ٣ ساعات حول إمكانية إعلان الحرب. وفي نهاية هذه المشاورات والمداولات، أعلن عن الاستعداد لخوض غزوة جديدة إلى المَجَر.

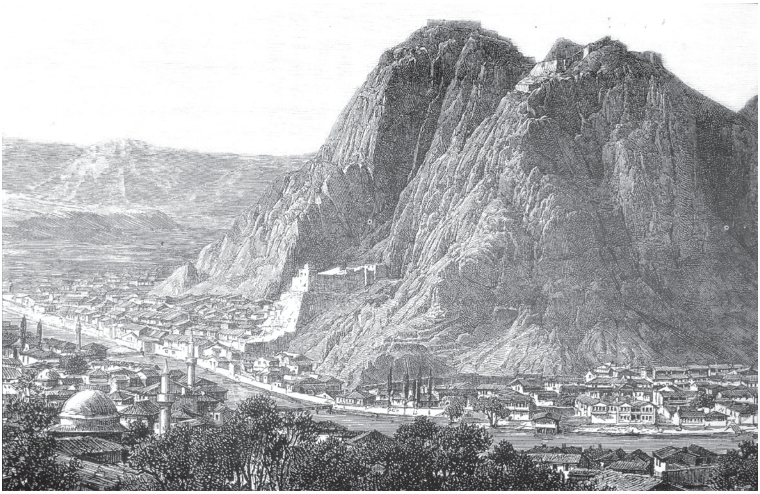
ونفهم من ذلك أن وجهة نظر الدولة العثمانية تجاه المَجَر تغيّرت بشكل جذري بوفاة الملك "زابوليا". لم يكن السلطان سليمان متيقّنًا من أن مملكة المَجَر ستستطيع حماية استقلالها بدعم من الدولة العثمانية في مواجهة آل "هابسبورج" كما كان في السابق. فهو كان يعتقد أن آل "هابسبورج" يسعون إلى الاتحاد مع مملكة المَجَر، والزحف جنوبًا صوب نهر الطُونَة، أو حتى إلى أراضي البلقان، ليشكلوا بذلك خطرًا داهمًا على حدود الأراضي العثمانية. وبينما كان السلطان سليمان يلتقي سفير النمسا في إسطنبول ليتباحث معه حول أحوال المَجَر، شعر "فرديناند" بضرورة التحرّك بشكل أكثر فعّالية، فكلّف جيشه بمحاصرة مدينة "بودا" للمرة الثانية في شهر أيار/مايو عام ١٥٤١م. ووصل جيش "فرديناند" إلى مشارف "بودا"، وبدأ في تثبيت مدافعه الكبيرة أمام المدينة، ودكّ حصونها بالقذائف ليل نهار من دون انقطاع. وبادرت القوات التابعة لـ"زابوليا" بقيادة الأسقف "مارتينوزي (*Martinuzzi*)" بالردّ بالشدّة ذاتها على القوات النمساوية التي كان يدير شؤونها الجنرالان "فون روجيدورف (*Von Roggedorf*)" و"بيريني بيتر (*Perenyi Peter*)".

وما إن وصل خبر حصار الجيوش النمساوية لمدينة "بودا" المَجَرية في ربيع عام ١٥٤١م إلى مسامع السلطان سليمان، حتى سيّر في المقدمة بعضًا من قوات الرُّومَلِي بقيادة الوزير الثالث "صوفو محمد بَاشَا" إلى المدينة للدفاع عنها. ثم تحرّك بنفسه على رأس قواته من إسطنبول يوم ٢٥ صفر ٩٤٨هـ (٢٠ حزيران/يونيو ١٥٤١م). وقد أرسل السلطان سليمان خطابًا رسميًّا لإعلان الحرب إلى "فرديناند" في اليوم الذي غادر فيه إسطنبول. وأخبر السلطان سليمان غريمه "فرديناند" في هذا الخطاب أن تحركاته العدائية لا تتوافق مع تصريحاته التي يدلي بها حول رغبته في السلام، مؤكدًا أن المَجَر تخضع لسيطرة الدولة العثمانية، والعالم بأسره على علم بهذا. وأعرب السلطان سليمان عن تعجّبه من إرسال "فرديناند" لجيشه إلى المَجَر، مشيرًا إلى أنه تحرّك بقواته لردعه بعد محاولته هدم دولة نصرانية في المَجَر. وقد بدأ السلطان سليمان في غزوته الرابعة للمجر عام ١٥٤١م، والتي أطلق عليها المؤرخون العثمانيون غزوة "إستابور (*İstabur*)".

لقد أقدم السلطان سليمان على خطوة مهمة للغاية بالنسبة لعائلته قبل انطلاقه نحو المَجَر بأربعة أيام، إذ أصدر فرمانًا بنقل ابنه الأكبر مصطفى -الموجود في مقاطعة "مَانِيسَا"- إلى إمارة مقاطعة "أَمَاسْيَا" (١٦ حزيران/يونيو ١٥٤١م). وإن كان هذا الإجراء أعاد إلى الأذهان الشبهات التي كان يشعر بها "السلطان" تجاه ابنه الأمير مصطفى، فإن السلطان قام بهذه الحركة بتأثير كامل من زوجته "خُرّم". فهذه الأخيرة كانت تسعى لتمهيد طريق العرش لابنها، وعليه فقد خطت أولى خطواتها المناهضة للأمير مصطفى الذي كانت تنظر إليه على أنه أكبر عقبة تقف في طريق ابنها لتولّي عرش السلطنة. وفعلت "خُرّم" ما بوسعها حتى استطاعت تعيين ابنها الأكبر الأمير محمد واليًا على "مَانِيسَا" بعد مغادرة مصطفى لها، إذ وفد إليها "محمد" في موكب مبهر يوم ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤١م. وأما ابنها الآخر "سليم" فقد أرسلته إلى مدينة "قونيا" (١٥٤٢م)، تلك المدينة التي ينحدر منها الشاعر العظيم "مولانا جلال الدين الرومي"، والتي كانت تشكّل مركزًا لدولة السلاجقة، ومن بعدهما إمارة

الكرمانيين، وقد استطاع العثمانيون السيطرة عليها بشكل كامل في عهد السلطان محمد الفاتح. وكان من يدير مدينة "مَانِيسَا" يعتبر هو المرشح الأقوى لتولّي عرش السلطنة بشكل رمزي. وأما الأمير مصطفى فقد ابتعد بتعيينه حاكمًا على "أَمَاسْيَا" كثيرًا عن العاصمة إسطنبول. إلا أنه في الوقت نفسه كُلِّف بمهمة عظيمة، حيث كانت مدينة "أَمَاسْيَا" منطقة إدارية تتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة لقربها من المنطقة الحدودية الفاصلة بين الدولة العثمانية وغريمتها الدولة الصفوية في شرق الأناضول. وربما تكون هذه الوظيفة التي أُسندت للأمير مصطفى بحماية حدود الدولة الشرقية باسم الأسرة الحاكمة، ذريعة ضمنية لإسكات الأصوات المحتملة التي تعارض إرساله إلى "أَمَاسْيَا". إلا أن مصطفى أدرك أنه صَغُر في نظر والده السلطان سليمان مع مرور الوقت. ولم يصطحب السلطان سليمان صدره الأعظم المعيّن حديثًا في غزوته إلى المَجَر، وفضّل تكليفه بحماية حدود الأناضول الشرقية ضد أي هجوم محتمل يشنّه الصفويون. كما أمر الصدر الأعظم "سليمان بَاشَا الخادم" بمراقبة تصرفات الأمير مصطفى أثناء وجوده في الأناضول.

وكانت التقاليد العثمانية تقضي بأن يصطحب الأمراء المكلّفون بتولّي أمور إدارة المقاطعات والداتهم معهم، وأن يبتعدن عن القصر السلطاني في إسطنبول. فاضطرت "مَاهِي دَوْرَانْ" والدة الأمير مصطفى لمرافقته في رحلته إلى "مَانِيسَا". إلا أن "خُرّم سلطان" لم تذهب مع ابنها الأكبر الأمير "محمد" عندما عُيّن لإدارة "مَانِيسَا"، وآثرت البقاء في القصر. وكان أبرز الأسباب التي برّرت هذا الإجراء كونها أول جارية يتزوجها السلطان سليمان في عرس، وأما السبب الآخر فرغبتها في رعاية سائر أبنائها الآخرين الذين لا يزالون صغارًا. ووضع ابنيها الصغيرين "بايزيد" و"جِيهَانْكِيرْ" أفضل مثال على ذلك. وعليه، فقد بدأ عهدٌ جديد في القصر السلطاني مع "خُرّم سلطان". وكان امتناعها عن السفر مع ابنها إلى "مَانِيسَا" يعني أن السلطان العثماني المستقبلي سيكون واحدًا من أبنائها. كما صارت هي الآمرة الناهية في جناح حَرَم السلطان سليمان. هذا إضافة إلى أن السلطان كان يزيد ارتباطه وتعلّقه بها مع مرور الأيام.



مدينة "أَمَاسْيَا"

مـن ناحيـة أخـرى، وصل الوزير محمد بَاشَـا إلى مشـارف مدينـة "بودا"، بعـد أن كان قـد تحـرّك قبـل موكـب السـلطان سـليمان. وبـادر إلى الاشـتباك مـع قـوات "فردينانـد" التـي تحاصـر المدينـة. وبدأت قـوات محمد بَاشَـا في القتـال مع جيش آل "هابسـبورج" الذي كان يحاصـر قلعة مدينة "بودا". وكانت قـوات "هابسـبورج" تقاتل بأريحية كاملة وتفوق ملحـوظ، نظرًا لتفوقها العددي فـي مواجهـة الجيـش العثمانـي. ولم تكن قـوات الوزيـر العثماني محمد بَاشَـا بإمكانهـا الاقتـراب أكثـر من جيش "هابسـبورج" لما يتمتـع به مـن كثرة البنادق والمدافع التي كانت بحوزته. ذلك لأن جيش "هابسـبورج" بنى أسـوارًا حصينة علـى هيئة مسـتطيل أُطلق عليهـا "اسـتابور / طابـور (*İstabur/Tabur*)"، وذلك عـن طريـق حفر الخنادق حول قواعـده الحصينة، ونشـر المدافـع وعربات نقل المؤن والذخيرة خلفها على التوالي. وبهذه الطريقة نجحوا في تشـديد الحصار علـى قلعـة "بـودا"، والصمود في وجه القـوات العثمانية والتفـوّق عليها. إلا أن قوات "هابسـبورج" ما إن سـمعت أن السـلطان سـليمان في طريقه إلى المدينة علـى رأس جيـش جـرار، حتى شـرعت فـي الإعداد للانسـحاب مـن المنطقة علـى الفور. وعمدت قوات جيش "هابسـبورج" إلى اسـتقلال سـفنهم الراسـية

فـي نهـر الطُونَـة للعبور إلى ضفتـه المقابلة، فعلـم الوزير العثماني محمد بَاشَـا بهـذه التحـركات، فأصـدر أوامـره علـى الفـور بمهاجمـة قـوات العـدو وهي فـي طريقهـا للانسـحاب. فهرعـت القـوات العثمانيـة بالهجـوم علـى جيـش "هابسـبورج"، وتمكّنـت مـن تدميـر حصونـه، وقتلـوا عـددًا كبيًرا مـن جنوده. ونجـح القائد العام للجيش "فـون روجندروف (*Von Roggendorf*)" في الهرب من ساحة المعركة وهو مصاب، إلا أنه لقي مصرعه متأثرًا بجراحه وهو في طريقه للهرب. كما لقي المصير ذاته العديد من قادة جيش "هابسبورج". وكان من بين هؤلاء القتلى "جيرومي" شقيق "لازكي" سفير النمسا. (٢٢ آب/أغسطس).

وصلت أنباء هزيمة جيش "هابسبورج" إلى مسامع السلطان سليمان، فسُرّ لذلـك كثيـرًا. ووصل في نهاية المطاف إلى مشـارف مدينـة "بودا" يوم ٢٥ آب/ أغسـطس، وأمـر بنصـب خيمته في مدينة "أوبـودا (*Obuda*)" الذي كان الاسـم القديم لمدينة "بودا". ثم أرسل السلطان سليمان هدايا ثمينة إلى الأميرة "إيزابيلا" زوجة الملك "زابوليا" وابنها الصغير "جون سيجسـموند (*Janos Zsigismund*)" الموجوديْـن في المدينة. ونقل هـذه الهدايا إلى قصر "بودا" رئيس رقباء الديوان السلطاني "علي أغا"، وأخبر "إيزابيلا" بطلب السلطان مقابلتها هي وابنها الصغير في خيمته. فشـعرت "إيزابيلا" بالخوف من هذا اللقاء، إلا أنها قررت في النهاية الذهاب إلى خيمة السلطان سليمان برفقة وفد مكون من ستة أشخاص، كان من بينهم الأسقف "مارتينوزي"، وذلك بعد مشاورات أجروها فيما بينهم. وفي اليوم التالي اصطُحب ولي عهد المَجَر "جون سيجسـموند" الذي كان يبلـغ من العمر عامًا واحدًا إلى خيمة السلطان. وبعد أن التقى السلطان سليمان وليّ عهد المَجَر وأمه ومستشاريها، أمر بإسكانهم في خيمة أُعدّت خصيصًا لهم. ويُروى أن وليّ عهد المَجَر "جون سيجسـموند" بدأ في البكاء عندما اسـتقبله السـلطان سليمان في خيمته، فأمر السـلطان باستدعاء مرضعته، وأخذ في مداعبته وملاطفته بنفسه حتـى يهـدأ. وبعـد أن أجرى السـلطان سـليمان مفاوضات مـع الوفـد المَجَري حـول قضيـة المَجَر، أخبرهم بأن المَجَر صارت ولاية عثمانية. ثم بعد ذلك قدّم النشانجي "جلال زاده مصطفى شلبي" -المكلَّف بشؤون الفرمانات- وثيقة حكم

المَجَـر إلى الملكة "إيزابيلا" في حضرة مترجم كان بجوارهما، وأبلغها بأن ابنها سيُنصّب على عرش المَجَر عندما يكبر. وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان أن يقنع الملكة "إيزابيلا" وَسادة المَجَر. عقب ذلك أرسل السلطان سليمان وليّ عهد المَجَر "جون سيجسموند" ووالدته إلى قلعة "ليبوفا (*Lipova*)" لتولّي مهام حاكمية منطقة "أَرْدَلْ". وكان في تلك الأثناء تم تحويل مدينة "بودا" إلى مدينة عثمانية بالكامل، لتظل المدينة تحت إدارة الدولة العثمانية لنحو ١٥٠ عامًا شكّلت خلالها أكبر قاعدة للدولة العثمانية في وسط أوروبا.


السلطان سليمان في حرب بودين ١٥٤١م بينما يستقبل إيزابيلا جاكيلونكا وابنها سيغموند زابوليا

وبعد أن دخل السلطان سليمان مدينة "بودا"، أمر بتحويل كنيسة "الأم مريم" التي تعتبر من أكبر الكنائس في المدينة إلى جامع. ثم كلَّف سليمان بَاشَا بتولّي ولاية "بودا". وكان سليمان بَاشَا من أصلٍ مجري، وكان قد تولّى ولاية بغداد لفترة من الوقت، وكانت رتبته وزيرًا عندما جرى تعيينه واليًا على "بودا". وتخبرنا رسالة أرسلها السلطان سليمان إلى الصدر الأعظم "سليمان بَاشَا الخادم"، والتي يوجد نسخة منها في أرشيف "فريدون بَاشَا، أن جميع قلاع المَجَر وملحقاتها صارت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية، وأنه تم تعيين القضاة والقادة العسكريين والمحافظين، كما جرى إسناد مهمة حماية "بودا" والدفاع عنها إلى الوزير سليمان بَاشَا بدعم من فرقة من الجنود. وفي الوقت الذي عُيّن فيه سليمان بَاشَا واليًا على "بودا"، أُسندت مهام القضاء إلى "خير الدين أفندي"، وشؤون المالية إلى "خليل أفندي". وقد قام "علي أفندي" بتسجيل أول تفاصيل بشأن أراضي مدينة "بودا". وبعثت

الدولة قوة عسكرية إلى سليمان بَاشَا للدفاع عن "بودا"، وكان قوام هذه القوة ألفي جندي من الإنْكِشَارِيّة، وألف فارس، و١٠ آلاف من الجنود النصارى، و٣٠٠ جندي آخرين. ويبالغ أحد المؤرخين العثمانيين في عدد هذه القوة العسكرية، إذ كتب أن مجموعها وصل إلى ٢٠ ألف جندي.

قُسّمت مدينة "بودا" إلى ١٢ مقاطعة، وأما المَجَر فقُسّمت إلى ثلاث مناطق. وهذه المناطق الثلاث كانت على النحو التالي: وسط المَجَر ومركزها مدينة "بودا" وتخضع لسيطرة العثمانيين، والجزء الذي مُنح لمملكة "أَرْدَلْ"، والجزء الواقع في شمال وشمال غرب المَجَر ولا تزال تسيطر عليه النمسا. ولم يتعرّض سكان وسط المَجَر إلى أي إكراه أو ضغط تحت حكم الدولة العثمانية. ووُضعت القوانين التي نظّمت حياة المَجَريين وحقوقهم، وسعى الولاة العثمانيون لرفع الظلم عن أهالي المَجَر بغض النظر عن توجّهاتهم. وعمد السلطان سليمان إلى تطبيق النظام الإداري العثماني في المَجَر، وأمر بتحديد الأراضي التابعة للدولة من جهة، والتعريف بالأوجه الاقتصادية والقانونية للإدارة العثمانية من جهة أخرى. كما بذل السلطان ما بوسعه كي يعيش من يخضعون لسلطة هذه الإدارة في أمان وسلام تامّيْن. ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك تلك التي ترويها لنا السجلات القانونية الواردة في دفاتر تسجيل أراضي ولاية "بودا".

وبينما كان السلطان سليمان متواجدًا في "بودا"، ظنّ "فرديناند" أن الجيوش العثمانية ستغير عليه، فسارع باللجوء للخيار الدبلوماسي عبر إرسال مبعوثَيْن وهما "نيكولاس فان سالم" و"سيجسموند فون هيربيرستين" الذي كان نبيلًا طاعنًا في السن. والسبب في ذلك أن عاصمته فيينا كانت خاوية من المدافعين عنها، كما أن شعب المدينة التي كان يقيم بها كان يشعر بالخوف والهلع. وكان من المقرر أن يلتقي هذان المبعوثان بالسفير "لازكي"، ويلتقوا جميعًا عددًا من الوزراء العثمانيين للاطلاع على شروط السلطان لعقْد اتفاقية سلام مع "فرديناند". بيد أن "لازكي" كان يتواجد في مقر قيادة الجيش النمساوي، إذ كان السلطان قد تركه في بَلْغِرَاد بينما كان في طريقه نحو بودا. وكان هؤلاء

المبعوثون سيبلغون السلطان بطلب "فرديناند" التنازل عن جميع أراضي المَجَر لصالحه، في مقابل دفع ضريبة لخزينة الدولة العثمانية بقيمة ١٠٠ ألف فلورين. وفي حالة إعادة الأراضي التي استولى عليها النمساويون عقب وفاة "زابوليا" إلى "فرديناند"، فإن ذلك الأخير يتعهد بسداد ٤٠ ألف فلورين سنويًا.

استقبل السلطان سليمان مبعوثَيّ "فرديناند" في "بودا" يوم ٧ أيلول/سبتمبر. وعاملهم السلطان معاملة حسنة للغاية، لكنه لم يقبل ما عرضوه. وأبلغهم بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال عقْد اتفاق سلام مع "فرديناند" من دون أن يعيد كافة الأراضي التي استولى عليها مؤخرًا، ويتعهد النمساويون الذين يسيطرون على أجزاء من المَجَر بأن يدفعوا الضرائب للدولة العثمانية عن المناطق التي يحكمونها. ويسرد المؤرخ العثماني بَجُويْلُو هذه الواقعة بقوله

"... جاء رسولٌ مُعتَبر من الملك فرديناند، وجلب معه العديد من الهدايا الثمينة. وطلب من السلطان سليمان منح فرديناند مدينة بودا في مقابل سداد الخراج إلى الدولة العثمانية، بعد أن أُعطيت للملك يانوش زابوليا. فأجابه السلطان بضرورة رفع فرديناند يده عن أراضي المَجَر، وإرسال خراج النمسا التي يحكمها عامًا بعام إلى خزينة الدولة العثمانية. وعليه يمكن عقْد معاهدة سلام معه، وإن لم يفعل فلن يكون للسلام مكان. فتلقّى رسول فرديناند هذه الإجابة، وغادر المكان عائدًا من حيث جاء..."

ووضع السلطان سليمان إعادة "فرديناند" مدن "إسترجون"، و"تاتا (*Tata*)"، و"فيسجراد (*Vişegrad*)"، و"سيكشفهيرفار (*Stuhlweiszenburg*)" كشرطٍ لإبرام اتفاق سلام معه. وعلى الرغم من أن سفراء النمسا لم يحققوا نجاحًا في هذه الزيارة، إلا أنهم استطاعوا استمالة بعضٍ من نبلاء مدينة "أَرْدَلْ" إلى صفّ آل "هابسبورج". والسبب في ذلك أن أحد النبلاء المَجَريين ويُدعى "بالاسا" بادر إلى تحريض أهل "أَرْدَلْ" ضد العثمانيين. حتى إن السلطان بعث فرمانًا إلى سكان "أَرْدَلْ" حذّرهم فيه، ودعاهم إلى إظهار الولاء، وذكّرهم بتبعيتهم إلى وليّ العهد "جون سيجسموند" ووالدته الملكة "إيزابيلا" تحت حمايته شخصيًّا.

وهدّدهـم بأنه في حالـة انصياعهم لأفكار "فرديناند" حول العصيان ضد الدولة العثمانية، فإنهم سيعرّضون أنفسهم لمشاكل لا قِبل لهم بها. وحذّرهم من أن قوات السلطان سيكون لها الحق حينها في تخريب بلادهم بدعم من قوات التتار. وبهذا الشكل بدأ يُستشعر بالهيمنة العثمانية الكاملة في (أردل)، وبشكل واضح. وفي تلك الأثناء، جاء إلى السلطان السفير الفرنسي "بولين" ليبلغه بخبر مقتل السفير السابق "رينسون" في إيطاليا. وعقب ذلك غادر السلطان سليمان مدينة "بودا" يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر، ووصل إلى إسطنبول يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٤١م (٨ شعبان ٩٤٩هـ). وقبل أن يغادر السلطان "بودا"، أي يومي ٢٣-٢٤ أيلول/سبتمبر ١٥٤١م، وصلته أنباء عن تعرّض إمبراطور هابسبورج "كَارْل الخامس" لهزيمة ساحقة في الجزائر التي أنزل بها جنوده في محاولة منه لبسط نفوذه على منطقة شمال إفريقيا.

هزيمة الإمبراطور "كَارْل الخامس" في الجزائر عام ١٥٤١م

بينما كان السلطان سليمان في طريقه نحو غزو المَجَر، أمر قائد البحرية بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بالتوجّه إلى سواحل البحر الأدرياتيكي للدفاع عنها على رأس أسطول مكون من ٧٠ سفينة. ذلك لأن الجناح الإسباني من إمبراطورية "هابسبورج" ألقى بثقله إلى البحر الأبيض المتوسط، ووضع نصب عينيه السيطرة على الجزائر بعدما استولى على تونس في شمال إفريقيا. وكان "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" يحمل لقب قائد القوات البحرية العثمانية، وفي الوقت نفسه كان يتولّى مهمة تسيير شؤون منطقة غرب الجزائر. وقد أوكل بَرْبَرُوسْ شؤون الجزائر إلى ابنه بالتبنّي "حسن أغا الخادم". وكان هذا الأخير يزاول أعمال القرصنة في البحر المتوسط، ويهدد سواحل أوروبا الممتدة من جزيرة "صقلية" في الشرق حتى مضيق "جبل طارق" في الغرب. وكان يتعرّض للبضائع الثمينة القادمة من العالم الجديد في البحر ويصادرها. ولهذا السبب كان الإمبراطور "كَارْل الخامس" يتطلع لغزو الجزائر من أجل القضاء على قاعدة القرصنة هذه بالقوة. فبعد أن قمع الثورة البروتستانتية المندلعة في بلجيكا، أصدر الإمبراطور

قـرارًا بالتحـرك من ألمانيا نحو الجزائر بنفسـه علـى رأس جيش قوامه ١٢ ألف جنـدي مشـاة وألف فـارس ألماني عابـرًا منطقة "تيرول (*Tirol*)" غرب النمسـا، وإقليـم "لومبارديـا (*Lombardiya*)" شـمال إيطاليـا. حتـى إن "كَارْل الخامس" لـم يسـتمع إلـى النصائح التي أسـداها إليه البابـا و"أندريا دوريا" بشـأن تأجيل هـذه الغزوة لاقتراب فصل الشـتاء، وقال لهم إنه بإمكانـه الانتهاء من هذا الأمر في غضون فترة قصيرة لا تتعدَّى ٤٠-٥٠ يومًا.



تنصيب بربروس خير الدين باشا قائدا بحريا (٦ نيسان/أبريل ١٥٣٤م)

وكان الإمبراطـور "كَارْل الخامـس" شـخصية ذات وجـه يمتـاز بالجفـاف والصلابة والطول والضعف في آنٍ معًا، وكانت جبهته وأنفه مرتفعتين، وشـفتاه نحيلتين، وعيناه وحشيتين، ولحيته كثّة تتدلّى من ذقنه حتى صدره، وشاربه مائل إلـى أعلـى، وعظامه وعضلاتـه قد غُطّيـت بالحلقات والألـواح المعدنية (كناية عـن الـدروع التـي كان يرتديهـا). وكان الإمبراطـور معتادًا على الإبحـار وكأنّه قبطـان يرشـد السـفن الضالـة في طريقهـا. وبعد أن باركـه البابـا، انطلق ليلحق بأسـطوله الـذي ينتظـره فـي مدينة "لا سبيتسـيا" شـمال غرب إيطاليـا في أوائل شـهر آب/أغسـطس عام ١٥٤١م. ووصل الإمبراطور إلى ساحل "بورتو فينيري (*Porto Venero*)" الـذي يتواجـد به أسـطول مكون من ٣٦ سـفينة بقيادة "أندريا

دوريـا". وركب سـفينة "دوريـا" برفقة بعض الأشـخاص الذين كانـوا بصحبته، والذيـن كان مـن بينهم بعض النسـاء النبيلات. وقد تعرّض أسـطول الإمبراطور "كَارْل الخامـس" لعـدد مـن العواصـف وهـو فـي الطريـق، ووصل فـي النهاية إلى ميناء جزيرة "ميروقة" الذي كان يمثل مكان التجمُّع الرئيسي لسفن الأسطول. وقـد تحـرّك أسـطول الإمبراطـور من هنـاك إلى الجزائر، إذ تشـكّل الأسـطول من ٦٥ قادسًـا، ونحو ٤٠٠ سـفينة نقل وسفينة غير شراعية، بما في ذلك السفن التي كانت منتظرة في ميناء جزيرة "إيبيزا"[٨٠].

وبدأت سـفن الأسـطول الإمبراطوري تَلُوح في أفق سـواحل الجزائر يوم ٢٠ تشـرين الأول/أكتوبـر ١٥٤١م، ثـم عمـدت إلى إنزال الجنود إلى السـاحل بعدهـا بثلاثـة أيـام بتعليمات من الإمبراطور نفسـه الـذي كان يتواجد على متن سفينة الأميرال قائد الأسطول.

وفـي اليـوم التالـي، دخلـت الجزائـر قـوة قوامهـا ٢٥ ألف جنـدي منهم ٦ آلاف إيطالـي، و٦٦٠٠ إسـباني، و١٢ ألـف ألمانـي، وألـف فـارس، و٤٠٠ مالطيّ. وفي تلك الأثناء كان "حسـن أغا" في الجزائر يترأس قوة صغيرة قوامها ٢٦٠٠ جنـدي منهـم ٦٠٠ تركـي، وألفـان مـن العـرب. لكن هذه القـوة -رغم صغرهـا- سـتتمكن من إفشـال محـاولات جيـش الإمبراطور لاقتحـام الجزائر بمساعدة الظروف المناخية. إذ إن قوات الإمبراطور "كَارْل الخامس" بينما كانت تتقـدم نحـو الأراضي الجزائرية، تعرضـت لهجوم القوات التركيـة والعربية بين الفينـة والأخـرى. حتـى إن جيـش الإمبراطور فَقـدَ ٣ آلاف جنـدي خلال هذا التوغّل القصير. وما إن وصلت سـفن أسـطول الإمبراطور إلى سواحل الجزائر، حتى صدرت أوامر بفرض حصار على المدينة. وأُرسـلت تعليمات لقادة سـفن الشحن والنقل بإنزال المدافع الثقيلة ومستلزماتها من على السفن وتثبيتها على السـاحل فورًا. وبينما الأمر كذلك، هبّت عاصفة شـديدة وبدأت الأمطار تهطل

(٨٠) جزيـرة إيبيـزا: هـي جزيرة مـن أرخبيل جزر البليـار ذاتية الحكـم تقع في البحر المتوسـط وتتبع إسبانيا. (المترجم)

بغـزارة، مما وضـع القـوات البرية والبحرية للإمبراطور في مأزقٍ شـديد. وكان الجنود يشعرون ببرودة الجو، ويرتعدون تحت الرياح العاتية بملابسهم المبتلّة، بعدما نزلوا من السفن من دون خيام أو أغطية تقيهم المطر. وقد شجّعت حالتهم المزرية تلك المدافعين عن الجزائر على زيادة هجماتهم ضد قوات الإمبراطور. ومع اشـتداد الرياح، أمر "حسـن أغا" بفتح أبواب قلعة الجزائر، وخرجت قواته في ساعات الصباح الباكر لتهاجم الجهة التي كان الجنود الإيطاليون يعسكرون بهـا، ممـا أصـاب هؤلاء الجنـود بذعرٍ شـديد، وأجبرهم على الفـرار من أرض المعركـة. فسـارع قائد القوات الإسـبانية إلى نجدة الجنـود الإيطاليين، وحاول تحفيزهـم وتشـجيعهم على خـوض المعركة وعدم الانسـحاب. فتناول الجنود الإيطاليـون بنادقهـم لمواصلـة المعركة، لكنهم لـم يسـتطيعوا إطـلاق النار منها لابتـلال البـارود بميـاه الأمطار. ما دفعهـم في نهاية المطاف إلـى مقاومة قوات "حسن أغا" بالسيوف والحراب والأسهم التي كانت بحوزتهم. فاضطرت قوات "حسـن أغا" للانسـحاب أمام هذه المقاومة من الجنود الإيطاليين، واسـتدرجوا القـوات الإيطاليـة والمالطيـة حتـى مشـارف القلعـة، وبـدأ بإمطارهـم بوابـل مـن القذائـف المدفعيـة مـن أبـراج القلعة، ودفـع بالقـوات العثمانيـة لقتالهم، مما دمّر معظم قواتهم. وفرّ الإيطاليون هاربين مجددًا بعدما مُنوا بهزيمةٍ ساحقة. وعندمـا رأى "حسـن أغـا" الجنـود الإيطاليين وهـم يهربون، بـادر إلى الخروج مـن القلعـة لتتبّعهـم، ثم عاد إلى القلعـة واحتمى بها. لكن هـذه المرة لم تجرؤ القوات الإسبانية على ملاحقته.

بـادر "حسـن أغا" فيمـا بعد إلى إمطار قوات الإمبراطور بوابل من السـهام مـن الأماكـن المرتفعـة المنيعـة التـي كانت تطل علـى أرض المعركـة، وألحق خسائر كبيرة بَكْتيبة الجنود الألمان الذين كانوا في مقدمة الجيش. ولقد تعرّض الجنـود الألمان لهزيمة معنوية، فألقوا السـيوف والحراب التي كانت بحوزتهم، وفرّوا هاربين من المكان. فاستشاط الإمبراطور غضبًا عندما رأى ذلك المشهد، واسـتلّ سـيفه، وامتطى جواده، وألقى بنفسـه في أرض المعركة لتشجيـع جنوده علـى القتـال. مما دفـع "حسـن أغا" إلى الانسـحاب مرة أخـرى. وما إن وصل

الإمبراطـور وجنـوده إلى أرض فارغة تعقبًا لقوات "حسـن أغا"، بدأت المدافع العثمانيـة فـي قصف قـوات الإمبراطـور، فأُجبرت في النهاية على الانسـحاب. وفي تلك الأثناء كانت سـفن أسـطول الإمبراطور قد أنزلت المدافع والذخيرة التي كانت تحملها إلى البر بعدما هبّت رياح شديدة وارتفعت أمواج البحر، وبدأ بعضٌ منها في التخبّط والاصطدام ببعضها البعض، وأما البعض الآخر فانجرف إلى السـاحل بعدما انكسرت سلاسل المراسى الخاصة بها. وخلال فترة وجيزة لم تتجاوز ٥-٦ ساعات غرقت نحو ١٥٠ سفينة من أسطول الإمبراطور. وكانت الغالبية العظمى منها من السـفن الشـراعية. كما هَوت بعض السـفن المجدافية الأخـرى على السـاحل. وكان من بيـن هؤلاء القادة الإسـباني "إرنان كورتيس" فاتـح المكسـيك، والذي كان يشـتهر بظلمه وجوره، إذ شـارك فـي هذه الغزوة برفقة اثنين من أبنائه على متن سـفينة جهّزها لحسـابه الخاص. وبعدما انجرف "كورتيـس" إلى الشـاطئ، هاجمـه المقاتلون العـرب بحرابهم، إلى أن اسـتطاع إنقاذ نفسه من بين أيديهم بشقّ الأنفس. وقد فقد أسطول الإمبراطورية ١٢ ألف جندي في هذه الكارثة التي ألمّت به.

اجتمـع الإمبراطـور "كَارْل الخامـس" بقيـادة مجلـس الحـرب، ذلك لأن جيشـه كان يعانـي مـن نقص الغذاء، علـى الرغم من توقف هطـول المطر. كما لـم يكونوا يملكـون حينها المدافع والذخيرة اللازمة مـن أجل حصار الجزائر، وكانت معظم مؤنهم وأسـلحتهم قد غرقت مـع السـفن التي غاصت في أعماق البحـر. وقـد اقترح "أندريـا دوريا" تعقّب قـوات الإمبراطور السـاحل، ومن ثم التوجّـه صـوب رأس "ماتيفـو"، وإنشـاء معسـكر محـاط بالخنـادق والمتاريس فـي تلـك المنطقـة، وإركاب الجنـود علـى متن السـفن. وهو ما قبلـه المجلس بإجماع الآراء. وبدأ الانسحاب يوم الجمعة الموافق ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر.

ولما شـاهد "حسـن أغا" قوات الإمبراطور وهي تنسحب، أمر بفتح أبواب القلعة، وخرج على رأس قوة من الجنود العرب المحليين لتعقّب قوات العدو. وكانـت الأمطـار فـي ذلك الوقت تهطل بشـكل خفيف. وقد امتـلأت الطرقات

بالوحل وبرك المياه الناجمة عن الأمطار، مما جعل جنود الإمبراطور يعانون الأمرّين في طريق سيرهم. وعبرت قوات الإمبراطور مياه "وادي الكمين" سباحةً. ولما وصلوا إلى "وادي الحراش" عانوا كثيرًا حتى تمكّنوا من عبور مياهه؛ ذلك لأن مياه الوادي كانت هائجة نظرا لارتفاع منسوب الفيضان بها، حتى إن بعض الجنود تعرّضوا للغرق في تلك المياه. وكان الجنود الإيطاليون في مؤخرة الجيش، فأدركهم جنود "حسن أغا"، وقضوا على جزء منهم، وآثر الجزء الآخر إلقاء نفسه في المياه والغرق هربًا منهم. واستطاع قليلٌ منهم العبور إلى الضفة المقابلة. وأما "حسن أغا" فلم يُرد التقدّم أكثر، وعاد أدراجه إلى قلعته. وقد جمع "كَارْل الخامس" مجلس حربه مجددًا يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، وتشاور مع أعضائه حول شؤون الحرب والخطوات التي يتعيّن عليهم الإقدام عليها خلال المرحلة المقبلة. وقد اقترح "إرنان كورتيس" -الذي أنقذ نفسه بأعجوبة خلال الحرب- حصار قلعة الجزائر من جديد، واقترح ضرورة عودة السلطان إلى أرض الوطن، ومن ثمّ يتحركون هم بشكل أكثر حرية في أرض المعركة. إلا أن القادة الآخرين اعترضوا على هذا الاقتراح، وفي نهاية الاجتماع اتخذ الإمبراطور قرارًا بإنهاء هذه الغزوة، ونقْل جميع الجنود بمن فيهم جنوده إلى السفن لمغادرة المكان من حيث أتوا. ولقد شكّلت عملية نقل الجنود إلى السفن معضلة بالنسبة للإمبراطور. حتى إنهم اضطروا لإلقاء المدافع والذخائر وسائر مستلزمات القتال الأخرى في البحر لتخفيف الحمل عن السفن، كما عمدوا إلى قطع أرجل جيادهم المتميزة وألقوها هي الأخرى في مياه البحر للغرض ذاته. وبينما هم كذلك، هبّت عاصفة شديدة أخرى أفضت إلى انجراف عدد من السفن إلى الشاطئ وهي تحمل على متنها الجنود. وأدرك حينها الإمبراطور أنهم لن يقدروا على مجاراة الرياح، فأمر بترْك الجنود الذين انجرفت سفنهم إلى الشاطئ، وإبحار السفن الأخرى. وقد أسر أهل الجزائر هؤلاء الجنود الإسبان الذين تُركوا على الشاطئ. واستطاع الإمبراطور العودة إلى إسبانيا برفقة السفن التي تم إنقاذها بصعوبة بالغة.

غزو المَجَر مجددًا والاستيلاء على قلعة "إسترجون"

عندما عاد السلطان سليمان إلى إسطنبول من غزوة المَجَر، كان عقله لا يزال يفكّر بها. ذلك لأنه كان على علم بأن آل "هابسبورج" لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام ضمّ "بودا" إلى الأراضي العثمانية وتشكيل ولاية بها. وفي تلك الأثناء، جاء السفير البرتغالي "ديوجو دي ميسكيتا (*Diogo de Mesquita*)" إلى إسطنبول. فحصل من الديوان العثماني على خطاب جاء فيه شروط إبرام معاهدة سلام مع ملك البرتغال بتاريخ ٢٨ أيار/مايو ١٥٤٢م، ورافقه القائد العثماني "الرئيس صالح" حتى ودّعه عند مضيق "جبل طارق". وشهدت تلك الفترة وصول أنباء سارّة من اليمن. لكن "فرديناند" لم يكن قد تخلّى عن فكرة الاستيلاء على مدينة "بودا". وقد تم تعيين أمير "براندنبورج (*Brandenburg*)" "يواكيم (*Joachim*) الثاني" قائدًا لجيش الإمبراطورية، فانطلق نحو "إسترجون" يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٥٤٢م، ثم سلك طريق "فيسجراد" حتى وصل إلى مدينة "بست" المقابلة لمدينة "بودا" يوم ٢٨ أيلول/سبتمبر. وفي واقع الأمر، فإن "فرديناند" كان قد بعث رسولًا إلى السلطان سليمان فور وصوله إلى إسطنبول ليعرض عليه مطالبه التي كان أصرّ عليها في الماضي. وكان هذا الرسول هو "ترانكيليوس أندرونيكوس (*Tranquillus Andronicus*)" الذي جاء إلى إسطنبول قبل عامين. وقد وصل هذا الرسول إلى إسطنبول في نهاية فصل صيف عام ١٥٤٢م،



قلعة "أسترجون"

وكانـت التعليمـات التـي لقّنهـا "فرديناند" قبل مجيئـه في يـوم ١٠ تموز/يوليو، تنـص علـى تنازل الدولـة العثمانية عن المَجَـر لصالـح "فرديناند" مقابل سـداده ضريبـة سـنوية بقيمـة ٥٠ ألف قطعـة ذهبية، وإن لـم يكن ذلك كافيًـا، يُزاد هذا المبلـغ إلـى ١٠٠ ألـف قطعة ذهبية، وهو العرض نفسـه الـذي كان قد تقدّم به فـي السـابق. لكن مسـؤولي الديوان العثماني شـعروا بأن هذا العـرض ليس ذا أهمية كبيرة، فلم يجدوا حاجة حتى إلى اصطحاب هذا الرسـول إلى السـلطان سـليمان للقائه. كما أبلـغ الصدر الأعظم "سـليمان بَاشَـا الخادم" هذا الرسـول باسـتحالة إبرام معاهدة سـلام مـع سـيّده ما لم يتنازل عن القلاع التي اسـتولى عليهـا. وحـذّره مـن أن "فرديناند" إن لـم يتراجـع عن طلباته تلك، فإنه سـيلقي هو وعائلته المصير ذاته الذي لقيه "علاء الدولة" في السـابق. كما هدّده "رسـتم بَاشَا" الذي كان يتولّى منصب الوزير الثاني في ذلك الوقت بقوله:

> "إن الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَـا قد ضغط على فيينا بطرف أصبعه قبل ذلك، وأما أنا فلا أفعل ذلك، بل أقبض عليها بَكْلتا يديّ!"

وهكـذا فشـل الرسـول "ترانكيليوس" في الوصـول لمراد سـيّده، واضطر للعـودة إلـى بـلاده بخُفـيّ حنيـنٍ فـي شـهر تشـرين الأول/أكتوبـر ١٥٤٢م. وأمـا "فرديـنانـد" فهـمّ إلى تطبيق مخططه القديم، وأخذ في إرسـال الرسـل إلى إسـطنبول من جهة، والإعداد لحملة عسـكرية واسـعة النطاق مـن جهة أخرى. وقد عقد مجلس الإمبراطورية في مدينة "سبير" الألمانية في ربيـع عام ١٥٤٢م، وقـد أدرك الأمـراء الألمان خطـورة الموقف في نهاية المطـاف، وقرروا تمويل الحـرب فـي اجتماعهـم بمدينـة "نورنبرج" في صيـف العام ذاتـه. وكان قد قرر اجتمـاعٌ عُقـد قبل ذلك عـام ١٥٣٢م تقديم الدعم للتصـدي للأتراك، وأما الآن فقادة أوروبا عازمون على تنفيذ هذا القرار. ويعتبر مصطلح "المساعدة التركية" هـو مصطلح شـاع اسـتخدامه في تلـك الحقبة، ويعني تأسـيس جيش مشـترك وتوفيـر مصـادر تمويله من أجل التصدي لغزوات العثمانيين على منطقة وسـط أوروبـا. وقـد حصل هـذا التوجّه على دعم من البابا نفسـه، وتجمّـع جيشٌ كبير

من العديد من الدول. وكان هذا الجيش يضم جنودًا من شعوب أوروبية متعددة باستثناء الفرنسيين، وأُسندت قيادته إلى أمير براندنبورج "يواكيم الثاني" للعبه دور الوسيط بين الأمراء البروتستانتيين والإمبراطور. وقد اكتسب هذا الأخير شهرةً واسعة بعدما ألحق هزيمة بأحد فروع قوات المغاوير العثمانية التي كانت تتقدم نحو مدينة "لينتز" النمساوية بقيادة الأمير "قاسم" أثناء الزحف على ألمانيا عام ١٥٣٢م. إذ بالغ المؤرخون الألمان في تلك الحقبة عندما نقلوا هذا النجاح الذي حققه أمام القوات العثمانية. وقد منحه الإمبراطور لقب "فارس" بعد إنجازه هذا، كما عُيّن تحت إمرته عشرة مستشارين عسكريين. وكانت رواتب الجنود ستُدفع من الإيرادات الواردة من ضرائب الإمبراطورية التي تشكلت تحت مسمى صندوق "التمويل العام". ويجمع هذا الصندوق إيراداته من دخول وثروات جميع سكان الإمبراطورية من جميع الطبقات. وكان "يواكيم الثاني" يشعر بقلق شديد إزاء إلحاق مدينة "بودا" بأراضي الدولة العثمانية، ويقول

> "إذا واصل الأتراك مساعيهم إلى ضمّ المزيد من الأراضي في أوروبا، وحالفهم الحظ في الاستيلاء على المزيد من المناطق في المَجَر ومولدوفا وسليزيا؛ فسيحين الدور على أراضينا ليستولوا عليها هي أيضًا."

وأما جنود المَجَر فكان يقودهم "بيريني بيتر (*Perenyi Peter*)". وبينما كان هذا الجيش يتوجّه نحو "بودا"، كان أسطول بحري في طريقه صوب المدينة ذاتها عبر نهر الطُونَة. وقد تلقّت الحكومة العثمانية خبر هذا الهجوم الكبير الذي يقوم به "فرديناند" بواسطة السفير الفرنسي، فصدرت أوامر إلى حاكم منطقة الرُّومَلِي أحمد بَاشَا بالاستعداد للحرب، كما أُرسلت تعليمات إلى كلٍّ من "علُما بَاشَا"، و"دوكاكين زاده (*Dukakinzâde*) محمد بَكْ"، و"أرسلان بَكْ" للإسراع إلى حماية "بودا" في مواجهة قوات "فرديناند". وكانت تلك الفترة قد شهدت تعيين "بَالِي بَاشَا" واليًا على مدينة "بودا" مكان سليمان بَاشَا الذي تُوفي في وقتٍ سابق. ووصل جيش "هابسبورج" إلى مشارف مدينة "بست" المقابلة لمدينة "بودا" على الضفة المقابلة لنهر الطُونَة. وقد خرجت الوحدات العسكرية

العثمانيـة مـن قلعـة المدينـة، ودخلت في اشـتباكات مـع القـوات المهاجمة، إلا أنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الانسحاب إلى القلعة مرة أخرى والدفاع عنها، نظرًا لكثرة أعداد جيش العدو. وكانت القوات العثمانية مؤلفة من ٨ آلاف جنـدي، منهم ٣ آلاف من الإنْكِشَـارِيّة، بقيادة "يوسـف أغا". وقد حاصر جيش التحالف مدينة "بسـت"، وأمطر القلعة بوابلٍ من القذائف المدفعية التي أحدثت أضـرارًا مادية جسـيمة بجدرانها. وحاولت القـوات العثمانية الدفاع عن المدينة عن طريق حفر الخنادق والمتاريس، لكن قوات العدو اسـتطاعت دخول القلعة مـن الثقوب التي فتحت في جدرانها بسـبب القصـف العنيف، إلا أن المدافعين عـن القلعـة ألحقوا هزيمة نكـراء بالجنود الأعـداء الذين توغلـوا داخل القلعة. وبينما الأمر كذلك، نشـب خلاف بين وحدات جيش التحالف، إذ دخل الجنود المشـاة الألمان في مناقشـات حادّة مـع قادتهم لعدم حصولهـم على رواتبهم، وقـرّروا الانسـحاب مـن أرض المعركـة بعدمـا لـم يحصلوا على مسـتحقاتهم الماليـة. وكانت قـوات جيش التحالف قد تلقّت هزيمـة موجعة في آخر هجوم علـى القلعـة، مما اضطرها إلى اتخاذ قرار رفـع الحصـار عنها. وكان "فرديناند" قـد جمـع قواتـه مـن كل أرجاء أوروبـا بعدما أشـاع أنباء تتحـدث عن خطورة الدولـة العثمانيـة على جميـع البلدان الأوروبية في أعقاب اسـتيلائها على مدينة "بـودا" وضمها إلى أراضيها. وقد اضطرت قواته للانسـحاب بعد أسـبوع كامل مـن الحصار، حتـى إنها تعرّضت في أثناء انسـحابها لهجوم مفاجئ من الجيش العثمانـي الـذي ألحق بها خسـائر كبيرة. وقد صـار هذا الحصار مصـدرًا للعار بالنسبة لـ"فرديناند". ويروي أمير مدينة بورتينباخ "سبيتيان سشرتلين" قائد وحدة الجنود المرتزقة الذين شاركوا في الحرب، ما يلي:

> "عسـكروا لفترة طويلة على مشـارف فيينا. ولم يسـتطع الجيش التركي الوصول إلى هناك بسهولة. لكنهم شرعوا يتحركون في فصل الخريف. وحاصروا مدينة "بشـتي"، وتمركزت جنودهم في مواقـع سـيئة. ومن ثم هاجموا المدينة بشكل عشوائي، وانسحبوا من أرض المعركة مهزومين، ممـا جعلهم عرضةً للتندّر والسـخرية من كافة بلدان العالم المسـيحي.

وخُسْـرَوْ فـي هذه المعركة ١٥ ألف جندي من خيـرة الرجال، وأضاعوا الأموال التي جمعوها من دون الاستفادة بها في أمر مفيد".

وعندما سـمـع السـلطان سـليمان بأنباء حصار مدينة "بسـت"، توجّه نحو مدينـة "أَدِرْنَـه". ومـا إن وصلته أخبار هزيمة قوات "هابسـبورج" على مشـارف "بسـت"، قرر قضاء فصل الشـتاء في "أَدِرْنَه"، والانتظار بها من أجل الخروج في غزوة في فصل الربيع. ولقد كان مرور فصل الشتاء قاسيًا وصعبًا، مما أدّى إلى أن يعاني الشـعب معاناة جمَّة. وقد أرسـل السـلطان سـليمان أوامـر إلى حاكم الرُّومَلِي أحمد بَاشَـا في عيد النيروز كي يجمع جنوده. كما أولى اهتمامًا كبيرًا بشؤون الانضباط داخل صفوف الجيش، وتوفير المؤن والأطعمة اللازمة للغزوة. وفي النهاية، تحرّك السـلطان ويرافقه ابنه الأمير "بايزيد" يوم ١٨ المحرم ٩٥٠هـ (٢٣ نيسـان/أبريل ١٥٤٣م)، بعد قضائه ٤ أشـهر في "أَدِرْنَه". ووصل السـلطان إلـى مدينة "بَلْغِرَاد" يـوم ٤ حزيران/يونيو، واتحدت قواته بقوات حاكم الرُّومَلِي أحمـد بَاشَـا الـذي كان قد انطلـق في وقت سـابق. كما لحق حاكـم الأناضول إبراهيم بَاشَـا كذلك بالجيش. وبعد انطلاق السـلطان سليمان من "أَدِرْنَه" بوقت قصير، كان حاكما بودا "بَالِي بَاشَـا" والبُوسْـنَة "عُلَمَا بَاشَـا" قد تقدّما بجيشيهما. وقد انطلق كلٌّ من "عُلَمَا بَاشَا"، وحاكم مدينة أوسييك "مراد بَكْ"، وحاكم مدينة مُوهَاجْ "قاسم بَكْ"، واستولوا على قلعة "أثين" المتاخمة لمدينة "بوجيجا" شرق كرواتيـا، وبسـطوا نفوذهم على عـدد من القلاع الأخرى في تلـك المنطقة مثل "سافرونيكا (*Safronica*)"، و"بلوستينا (*Belostina*)"، و"راهوتشزا (*Rahoçza*)". ومن ناحية أخرى استولى "بَالِي بَاشَا" على قلعة "نانا (*Nana*)". أعقب ذلك تقدُّم القـوات العثمانية حتى وصلت إلى قلعة "فالبـو" التي كانت أكثر تحصينًا مقارنةً بالقلاع السابقة. وحاصر أمراء الولايات الحدودية العثمانية هذه القلعة، وأحكموا حصارهم عليها. ثم انضمّت إليهم قوات أحمد بَاشَا، وأمطروها بوابل من قذائف المدافـع، مما أسرع عملية تهدّم جدرانها، وأُجبر المدافعون عنها على الاستسلام للقـوات العثمانية. وقد وقعت قلعة "فالبـو (*Valpo*)" في أيدي العثمانيين بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو، ثم انطلقوا للاستيلاء على قلعة "شيكلوش (*Şikloş*)".

ولما وصل السلطان سليمان إلى مدينة "أوسيك (*Ösek*)"، وصله نبأ فتح قلعة "فالبو (*Valpo*)"، فأمر السلطانُ حاكمَ "بودا" بإقطاع قائد هذه القلعة "سانتا ميخلاي (*Santa Mihaly*)" جزءًا من الأراضي. كما أصدر السلطان فرمانًا بتوطين سكان مسلمين في هذه القلعة، وتعيين خطيب للمسجد وإمام ومؤذن. وفي واقع الأمر، اتخذ السلطان سليمان قرارًا بالخروج في هذه الغزوة بغرض السيطرة على القلاع المجاورة لمدينة "بودا" التي ألحقها بأراضي دولته، وذلك بُغية توفير الأمن والأمان لأهلها، وتوسيع رقعة المدينة بضمّ مناطق جديدة لها. وبهذه الطريقة فقد كان السلطان سليمان يطمح لتحقيق أهداف ومصالح اقتصادية، إلى جانب غاياته السياسية والإستراتيجية. وبعد أن استولى الجيش العثماني على قلعة "فالبو"، حاصر مدينة "شيكلوش"، ثم انطلق للسيطرة على مدينة "بيتش" المَجَرية. وعبرت القوات العثمانية نهر "درافا" بواسطة جسر بنوه فوق مياهه، ووصلوا إلى مدينة "بيتش" التي استسلم أهلها من دون قتال. وينحدر من هذه المدينة المؤرخ العثماني الشهير "إبراهيم أفندي" (١٥٧٤ – ١٦٥٠) الذي عُرف بلقب "البيتشيوي (*Peçevî*)" نسبةً إلى المدينة، لكن هذا اللقب حُرّف قليلًا حتى صار "بيتشوليو (*Peçuylu*)" أو "بيتشيوي (*Peçuyî*)". وبعد سيطرة العثمانيين على مدينة "بيتش"، ضغطوا بشكل أكبر على قلعة مدينة "شيكلوش"، حتى سقطت في أيديهم يوم ٨ تموز/يوليو ١٥٤٣م. ودخل السلطان سليمان المدينة بعد الاستيلاء على قلعتها، وأمر بتوزيع الهدايا والعطايا على من أسهم في فتح هذه المدينة. وبعد فتح "شيكلوش"، تقدّم الجيش العثماني نحو "بودا"، ووصل إلى مشارفها يوم ١١ تموز/يوليو. ومن ثم استراح الجيش في المدينة لعدة أيام، وبعدها تقدّمت قافلة عسكرية بقيادة حاكم مدينة "سيليسترا" قوامها ٤٠ مدفعًا كبيرًا و٤٠٠ مدفع صغير نحو شمال نهر الطُونَة. وكانت قوة المدفعية هذه قد أُرسلت من إسطنبول بحرًا، ونُقلت حتى مدينة "بودا" بالسفن عبر مياه نهر الطُونَة. ثم بعد ذلك تحرّك الجيش العثماني من "بودا" حتى وصل إلى مشارف مدينة "إزترجوم (*Esztergom*)".

وكانـت مدينـة "إزترجـوم" -المتاخمة لضفاف نهر الطُونَـة- تتمتع بمكانة تاريخية وقدسـية كبيرة لدى سـكان المَجَر. وكانت تلـك المدينة تمتلك العديد من الحصون الداخلية والكنائس الكبيرة، وكان أهلها يلبّون احتياجاتهم من المياه بواسـطة السـواقي التي بنوها على نهر الطُونَة، نظرًا لارتفاع موقـع قلعة المدينة عـن مسـتوى الأرض. وكانـت المدينـة قـد خضعت لفتـرة من الوقت لسـيطرة العثمانيين، ثم اسـتعادها بعد ذلك آل "هابسـبورج" من أيديهم. وقد جاءت قلعة هـذه المدينـة على رأس القـلاع التي كان يتعيّن على الدولة العثمانية الاسـتيلاء عليهـا لتوفيـر الأمـن لمدينة "بـودا". وبـدأ حصار مدينـة "إزترجوم" مـع إنزال المدافـع المُرسـلة عبر نهر الطُونَة إلى الشـاطئ، وتمركزها أمام قلعة المدينة يوم ٢٩ تموز/يوليو. وكانت تدافـع عن المدينة قوة عسكرية أغلبها من الجنود الألمان، والإيطاليين، والإسبان. وفي الوقت الذي بدأ فيه حصار الجيش العثماني لمدينة "إزترجـوم"، كانت قوة عسـكرية عثمانية تحاول السـيطرة علـى القلاع الصغيرة المجاورة للمدينة، وتسـعى لتفريق قوات المقاومة. وقد اسـتطاع حاكم مُوهَاجْ "قاسـم بَكْ" الاسـتيلاء على قلعتي "ساز (*Saz*)" و"مانفري (*Manveri*)" من هذه المواقـع. كما كُلِّـف كلٌّ من وَالِي بودا "محمد"، وحاكم فولجترين "أرسـلان"، وحاكـم سـيجيدين (*Segedin*) "درويـش (*Derviş*)" باسـتهداف المنطقة الواقعة بين مدينتيّ "إزترجوم" و"سيكشـفهيرفار". وعندما حاصر السلطان سليمان قلعة "إزترجوم"، عرض على حماتها الاستسـلام. لكن هؤلاء المدافعين رفضوا هذا العرض اعتمادًا على القوات الإضافية التي جاء بها القائد الإسـباني "سانسيوس كوتا". فبادر العثمانيون بقصف القلعة بالمدافع التي كانت بحوزتهم.

وقد تمكّن المدافعون عن القلعة من تكبيد القوات العثمانية خسائر فادحة بفضـل تحصينـات المدافـع المؤثـرة التـي كانت تخضـع لقيادة قائـد القوات الإيطالية "فيتيلّي (*Vitelli*)". لكنهم في النهاية لم يستطيعوا الحيلولة دون اقتراب القـوات العثمانيـة مـن أسـوار القلعة حيث بـدأ الجنـود المشـاة العثمانيون في دخـول القلعة من الفتحات التي أحدثتهـا المدافـع في جدرانها، لكن المدافعين عـن القلعـة نجحـوا في صـدّ هجوم القـوات العثمانية بشـقّ الأنفس بمسـاعدة

قذائـف المدافـع وطلقات البنادق بشـكل كثيف. وقد استشـهد في هذا الهجوم "جندي سـنان بَكْ" أحد أمراء الأناضول، ومحمد بَكْ الذي كان يقود الأسـطول العثماني الذي قصف أسـوار قلعة "إزترجوم" بقذائـف المدافـع من نهر الطُونَة. لكن هذا الفشـل لم يثبّط عزيمة الجيش العثماني، فأمطر القلعة بقذائف مدفعية أشـدّ من السـابق. وما إن بدأت أسـوار القلعة تتداعى، وأرسـل المدافعون عنها وفدًا إلى السـلطان سـليمان ليبلغوه باستعدادهم للاستسـلام. وقد قبل السلطان هـذا العـرض، وسـقطت القلعة فـي أيـدي العثمانيين يـوم ١٠ آب/أغسـطس، وسـمحت القيـادة العثمانية للمدافعين عنها بالخـروج منها بحرية تامة دون قيد. وبهذه الطريقة خضعت مدينة "إزترجوم" -صاحبة المكانة الإستراتيجية الرفيعة- لسـيطرة الدولـة العثمانية. ولما دخل السـلطان سـليمان المدينـة، أمر بعضًا من الذين كانوا يدافعون عنها في مواجهة الجيش العثماني بتنظيفها، وصلّى الجمعة في الكنيسـة الكبيرة الواقعة في وسـط المدينة بعد أن أمر بتحويلها إلى مسـجد. وتشير إحدى الروايات التاريخية إلى أنه عندما قصفت القوات العثمانية المدينة أثنـاء حصارهـا، انقلب الصليب الذهبي الذي كان أعلى برج جرسـها حينها قال السلطان سليمان:

"لقد فتحنا المدينة!"

ثـم بعـد ذلك عُيّـن قاض وقائد عسـكري للمدينة. ورُمّمت أسـوار المدينة وحصونهـا خـلال فترة قصيرة، شـريطة توزيـع المهام والوظائـف على الوزراء. وفي تلك الأثناء، اسـتقبل السـلطان سـليمان السـفير البولندي الذي أعرب عن تهنئة ملك بولندا على هذا الفتح، مما أسـعد السلطان كثيرًا. وأمر بإكرام السفير البولندي وإطعامه وإتحافه بالهدايا القيّمة.

وبعـد أن فتـح الجيـش العثمانـي مدينـة "إزترجـوم"، توجّه صـوب مدينة "سيكشـفهيرفار (*Székesfehérvar*)" التـي كانـت تتمتـع هـي الأخـرى بأهميـة كبيرة. وتقـع هذه المدينة في منطقة بين مدينة "بودا" وبحيرة "بالاتون" على بعد ٥٨ كيلومتـرًا جنـوب غرب "بودا". وغادر السـلطان سـليمان مدينة "إزترجوم"،

ووصل إلى مشارف قلعة "تاتا". واستولى عليها دون مقاومة. ثم انطلق الجيش العثماني نحو قلعة مدينة "سيكشفهيرفار"، وكانت هذه القلعة تحوطها أسوار وخنادق عميقة ومنيعة. كما كان المدافعون عن القلعة يمتلكون مدافع من النوع البعيد المدى. وبعد أن بدأ حصار المدينة، عمد الجيش العثماني إلى إحراق مدافع العدو بعيدة المدى، إلا أنه لم يستطع التقدّم أكثر نحو القلعة. ففكّر السلطان سليمان في كيفية الاستيلاء على هذه القلعة المنيعة، فلم يجد بُدًّا من أن يرسل أمير الأناضول إبراهيم بَاشَا إلى مدينة "بودا" لجلب المدافع الكبيرة البعيدة المدى. وفي تلك الأثناء، بادر الوزير الثالث محمد بَاشَا وقائد الجنود الإِنْكِشَارِيّة إلى التمركز بقواتهم عند جانب من جوانب القلعة، فيما شرع الوزير الرابع "خُسْرَوْ بَاشَا" وأمير الرُّومَلِي أحمد بَاشَا في التمركز عند الجوانب الأخرى من القلعة. وقاموا بوضع المتاريس والضغط على قوات العدو. وفي نهاية المطاف، جاءت المدافع الكبيرة، وأُمطرت القلعة بوابلٍ من القذائف. لكن تلك الفترة شهدت هجومًا فاشلًا أقدم عليه "خُسْرَوْ بَاشَا" في محاولة منه لاقتحام القلعة. أعقب ذلك إقدام قوات المدفعية العثمانية بقصف القلعة بقذائفها بشكل أشدّ وأقوى، حتى أُصيبت أسوار القلعة بتشقّقات وتصدّعات. وقد أصدرت القيادة العسكرية للجيش العثماني قرارًا بشنّ هجومٍ شامل على القلعة في يوم ٢ أيلول/سبتمبر. وقد قصفت مدافع الجيش العثماني النقاط الثلاث التي ستهجم منها قواته بشكل كثيف، ومن ثم بادر الجنود بالهجوم على تلك النقاط. فاضطر المدافعون عن القلعة إلى الانسحاب إلى داخلها، وأدركوا حينها أنهم لن يستطيعوا الصمود في مواجهة القوات العثمانية، فطلبوا الأمان. فلم يعطهم السلطان سليمان الأمان لأنهم كانوا قبل ذلك يخضعون لحكم الملك "زابوليا"، ثم انضموا إلى صف عدوه "فرديناند" عن رضا وطواعية. لكن مشاعر الرحمة تغلّبت على السلطان بعد ذلك. وتسلم السلطان مفاتيح القلعة يوم ٤ أيلول/سبتمبر ١٥٤٣م. ويروي المؤرخ العثماني "جلال زاده مصطفى شلبي" أن هذه المدينة كانت تضم الكثير من الكنائس والأبنية العتيقة والتماثيل والأضرحة، وأن هذه الأضرحة كان مدفونًا بها بعض ملوك

المَجَـر، إذ كانـت فخمة للغاية ومُزركشـة بأفخم أنواع الزينة. حتى إن السـلطان سـليمان خـرج في جولـة تفقّدية لأحياء المدينة، وشـاهد أضرحـة ملوك المَجَر القدماء. وحصل على عهد الولاء من شعب المدينة.

شعر السلطان سليمان بالاكتفاء بفتح هذه القلاع الهامة، واتخذ قرارًا بوقف العمليات العسكرية مع اقتراب فصل الشتاء، وذلك عقب الاستيلاء على مدينة "سيكشفهيرفار". ومن ثمّ بدأت استعدادات العودة. وقد أعلنت الإدارة العثمانية مدينة "سيكشـفهيرفار" ولاية تابعة لمدينة "بودا"، ومُنحت إدارتها لشـقيق حاكم بودا "يحيى بَاشَا أحمد بَكْ". وقد عُيّن قاضٍ ومسؤول عسكري بالمدينة، وكُلّف ٤ آلاف جنـدي، منهـم ألـف من الإنْكِشَـارِيّة، بحماية المدينة واسـتتباب الأمن بهـا. كما أرسـلت الإدارة العثمانية رسـائل النصر إلى كافة الولايـات العثمانية، وملـك فرنسـا، ودوق البندقية. عاد بعدها السـلطان سـليمان إلـى مدينة "بودا"، ثـم وصـل إلى مدينة "بيتروفأردلين" عبر تتبـع سـاحل نهر الدانـب، ومنها توجّه صـوب "بَلْغِـرَاد". وقد أمر السـلطان بإرسـال الجنـود إلى الأماكـن المخصصة لقضـاء فصـل الشـتاء، وعاد هو إلى إسـطنبول برفقة جنـوده المكلَّفين بحمايته. وبينمـا هـو كذلـك، تلقّى نبأ وفاة ابنه الأميـر "محمد" حاكم إمـارة "صَارُوخَانْ" بولايـة "مَانِيسَـا" (٧ / ٨ شـعبان ٩٥٠هـ / - ٦ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٣م). وقـد نـزل عليه هـذا الخبر كالصاعقة، إذ إنه فقد ابنًا له للمـرة ثانية بينما كان في غـزوة. وأمر بإحضار جثمان الأمير محمد إلى العاصمة إسـطنبول. وصلّى عليه صـلاة الجنـازة في جامـع بايزيد يوم ١٦ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٣م وسـط حشـد كبير من أهالي إسـطنبول. وقد دُفن الأمير محمد بأمر من والده السـلطان فـي المنطقـة التي خُصصت بها غـرف قديمة لجنـود الإنْكِشَـارِيّة، أي الحظيرة المتاخمـة للجامـع المعـروف اليوم باسـم جامع شـهزاده (الأميـر). وقد كُلّف المعمـاريّ "سـنان" بإنشـاء ذلـك الجامع الذي حمل اسـم الأميـر محمد. وقد حدّد السـلطان سـليمان تاريخ وفاة ابنه الأمير محمد بقصيدة شعرية ألّفها بنفسه وعنونها بـ"خير الأمراء أميري محمدا!". وكانت وفاة الأمير محمد قد هزّت كيان والدته "خُرّم سـلطان" أكثر من السـلطان نفسـه. ذلك لأنها كانت تسـعى لتربيته

وتنشـئته بعناية بالغة بصفته المرشـح الأقوى لخلافة والده على عرش السلطنة. وأما الآن، فإنها سـتوزّع حبها هذا على أبنائها الآخرين وعلى رأسـهم "سـليم". وربما كانت تفكر في الاستعاضة عن الأمير محمد بأخيه "سليم" كي يخلف أباه في الحكم.



جامع شهزاده الذي خططه المعماري "سِنَانْ" ما بين ١٥٤٣-١٥٤٨م وقال عنه: "إنه عملي في فترة التلمذة المهنية"

لم يخرج السـلطان سـليمان إلى أي غزوة كبيرة على مدار خمس سـنوات منـذ عـام ١٥٤٣م، وبـدأ في تمضية معظـم أوقاته في الخـروج لجولات الصيد فـي "أَدِرْنَـه". ولقد زاد حبه لعائلته واهتمامه بها عقب وفاة ابنه المؤسـفة. وكان ذات مـرة قـد خرج إلـى ولاية "بورصـا" وترافقه زوجتـه "خُرّم" وابنهـا الصغير "جِيهَانْكِيـرْ"، والتقـى بابنـه الآخر الأمير "سـليم" الذي نقله إلى "مَانِيسَـا" لتولّي إمـارة "صَارُوخَانْ" بعد أن صار أكثر المرشـحين لولاية العهد (١٥٤٤م). وربما كان السـلطان يفكّر في أن يتولى ابنه "سـليم" العرش مكانه، وصار يتجاهل أكبر أبنائه مصطفى تمامًا.

حاول السـلطان سـليمان علـى مدار السـنوات الخمس التـي أمضاها بين إسـطنبول وأَدِرْنَـه متابعة الأخبار القادمـة من الولايات الحدوديـة ومن الداخل

عـن كثـب، وكان قد عيّن زوج ابنته "رسـتم بَاشَـا" في منصـب الصدر الأعظم، ليؤكّـد مرة أخرى الاهتمام الذي أولاه بأسـرته. فالآن أقرب مسـاعديه هو زوج ابنتـه. وهـو مـا أدخـل السـرور والبهجة علـى قلب "خُـرّم سـلطان ". فعلي أية حـال، ظهرت دولـة عثمانية تديرها عائلتها. وكان الأميـر مصطفى على ما يبدو لن يستطيـع هذه المرة إفشال هذه اللعبة الجديدة، وتحويل دفّة الأمور لصالحه.

وبينما كان القصر السـلطاني في إسـطنبول يشهد كل هذا التطورات، كانت الاشتباكات مـع آل "هابسبورج" على الحدود الغربية للدولة العثمانية لا تنقطـع برًّا وبحرًا. وكان قائد الأسطول العثماني "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" ينفذ عمليات عسـكرية واسـعة المـدى في ظل إسـتراتيجياته الجديدة التـي وضعها، ذلك في الوقت الذي كان الجيش يخرج في غزواته البرّية خلال عامي ١٥٤٢ - ١٥٤٣م على وجه الدقة. حتى إن الأسـطول العثماني سـعى في تلك الفترة إلى التعاون مـع الفرنسـيين لتوجيـه ضربات بحرية إلـى جبهة آل "هابسـبورج" الإسـبانية. أي بتعبيـرٍ آخـر، كانـت المعـارك متواصلة برًّا وبحـرًا في وقتٍ متزامـن تقريبًا. وكانت أنباء فعّاليات بَرْبَرُوسْ العسـكرية في البحار تصل إلى السـلطان سليمان دومًـا وهـو في غزواتـه وأسـفاره البرّيـة. وفي الواقـع، فإن تحالف الأسـطول العثمانـي مـع نظيره الفرنسـي كان لـه دور كبير في أن تخرج القـوات العثمانية فـي غـزوة بحرية ضد الجناح الإسـباني مـن إمبراطورية آل "هابسهابسـبورج"، ذلك لأنه في عام ١٥٤٢م عندما خرج السـلطان سليمان إلى غزو المَجَر، كانت الحـرب بيـن الإمبراطـور "كَارْل الخامـس" والفرنسـيين علـى وشـك الاندلاع مـن جديد. وكان الفرنسـيون يحاصـرون مدينـة "بيربينيا"، لكنهم لم يسـتطيعوا الصمـود أكثـر، فاضطـروا للانسـحاب فـي نهايـة المطـاف. وأمـا الإمبراطـور "كَارْل الخامـس" فقـد وجد الأرضية خصبـة لإبرام اتفاقية تحالـف مع إنجلترا (شـباط/فبراير ١٥٤٣م)، لينجـح في وضـع الفرنسـيين تحت ضغط مرة أخرى. ولهذا السـبب لجأ الفرنسـيون إلى طلب العون من السلطان سليمان عبر إرسال السـفير "بولين" إلى بلاط دولته. وبناءً على ذلك الطلب، تقرّر خروج الأسـطول العثماني في عملية عسكرية مشتركة مع نظيره الفرنسي.

وتشير بعض كتب التاريخ العثماني إلى أنه عندما تقدّم السفير الفرنسي بطلب المساعدة من الدولة العثمانية، أعرب أركان البلاط العثماني عن استيائهم من الموقف الفرنسي في السابق. فكان أركان البلاط العثماني على علم بأن فرنسا قد تحالفت مع الدول المسيحية لمواجهة الدولة العثمانية بين الفينة والأخرى في أعقاب حصار فيينا عام ١٥٢٩م على وجه التحديد، كما أنهم كانوا على دراية تامة بأن الفرنسيين كانوا ينكرون تحالفهم مع العثمانيين ويستترون منه أمام الرأي العام في أوروبا في العديد من المناسبات لحماية مصالحهم. وفي حقيقة الأمر، بينما كان الفرنسيون يعترفون بالأولوية لمواقفهم أمام الرأي العام المسيحي، فإنهم لم يؤيّدوا فكرة الإضرار بعلاقتهم مع العثمانيين. وكانوا يدركون أنهم يستطيعون تخفيف الضغط الذي تمارسه إمبراطورية "هابسهابسبورج" عليهم عن طريق اللعب بورقة التعاون مع الدولة العثمانية. ولم يكن هناك أدنى شك يعتري اهتمام السلطان سليمان الخاص بعلاقته بفرنسا. حتى إنه قدّم الدعم المادي لتشكيل الفرنسيين وحدة عسكرية جديدة مع إنجلترا والأمراء البروتستانتيين للتصدّي للإمبراطور "كَارْل الخامس". وكانت مفاوضات التحالف الرسمي بين الدولة العثمانية وفرنسا قد قطعت شوطًا كبيرًا منذ عام ١٥٣٢م. وفي عام ١٥٣٥م وصل السفير الفرنسي "لا فوريس" إلى إسطنبول، وطلب من البلاط العثماني المشاركة بجميع قواته البرية والبحرية في هجوم ضد آل "هابسهابسبورج" العام التالي، كما طلب تزويد ملك فرنسا بدعم مادي بقيمة مليون قطعة ذهبية. ولقد تمخّض عن مفاوضات التحالف هذه التجهيز لعدد من المخططات العسكرية. ويُروى أن عام ١٥٣٦م شهد منح فرنسا أول الامتيازات التي تعترف ببعض حقوقها التجارية. لكن المؤرخين المعاصرين يشيرون إلى أن هذه الامتيازات ظلّت على حالها كمسودة موقوفة التنفيذ، ولم تسر بشكل رسمي حينها.

وكانت الفترة الواقعة بين عامي ١٥٣٧ – ١٥٣٨م شاهدةً على تنفيذ أول المخططات الحربية لمواجهة آل "هابسبورج". ولقد أجرى الجيشان العثماني

والفرنســي عمليات عسـكرية مشـتركة للمـرة الأولى بهـذه المناسـبة، كما قدّم الأسـطول الفرنسـي الدعم لهذه العمليات. لكن الأوضاع تغيّرت بشكل مفاجئ عـام ١٥٣٨م. فقد أبرمت فرنسـا في شـهر تموز/يوليو من ذلـك العام اتفاقًا مـع الإمبراطـور "كَارْل الخامس"، لمشـاركة فـي التحالف الصليبـي الذي ضمّ عدة أطراف في أوروبا. إلا أن الحرب المندلعة بين فرنسا والإمبراطورية سيتولّد عنها الحاجة إلى مساعدة الدولة العثمانية من جديد.

إن العمليـات العسـكرية المشـتركة بيـن الأسـطولين العثماني والفرنسـي في البحر المتوسـط سـتصب في مصلحة السـلطان سـليمان في المقام الأول، إذ إنـه سيسـتفيد منها فـي تهديد وإبطال فعّاليـة الجناح الإسـباني للإمبراطورية أثنـاء غزواتـه البرّيـة في غـرب أوروبا. ومـا إن اتخـذت الإدارة العثمانيـة قرارًا بدعـم فرنسـا، حتى أرسـل المترجم "يونس بَـكْ" إلى البندقية -كمـا هو الحال في المرات السابقة- وطلبت من دوقها التحالف مع فرنسا ضد الإمبراطور "كَارْل الخامـس". لكـن دوق البندقيـة آثر التصـرّف بترددٍ كبير لعـدم رغبته في تفضيل دولـة على أخرى من هاتين الدولتيـن. ومع ذلك، فإن "يونس بَكْ" الذي وصل إلـى البندقية في ربيع عام ١٥٤٢م اسـتطاع إمداد الجيوش الفرنسـية المتمركزة فـي مدينـة "مارانـو" الإيطاليـة بالغـذاء، كمـا نجـح فـي الحيلولـة دون تنازلها عن مواجهة قوات "كَارْل الخامس". حتى إن بعض المصادر تذكر أنه حصل على معلومات حول جيش الإمبراطورية خلال هذه الرحلة. وعليه، فقد أنجز "يونس بَـكْ" هذه المهمة الدبلوماسـية بنجاح باهر، وسـتكون هـذه المهمة هي الأخيرة له في حياته، إذ سـتوافيه المنية بعد ذلك التاريخ بعدّة سـنوات، وبالتحديد يوم ٢٢ حزيران/يونيـو عـام ١٥٥١م. من ناحية أخرى، فقد حمل السـفير الفرنسـي "بوليـن" بُشـرى إلى الملك "فرانسـوا الأول" مفادهـا أن العثمانيين منحوه وعدًا بمسـاعدة فرنسا، وأن قائد الأسـطول العثماني بَرْبَرُوسْ سيخرج بأسطوله لدعم الأسـطول الفرنسـي فـي أقـرب فرصة سـانحة. ثمّ جـاء "بوليـن" للمـرة الثانية إلى إسطنبول، وكان يرافقه في هذه الرحلة سفيرٌ آخر يُدعى "بيليسيه (*Pellicier*)". فاستقبل السلطان سليمان هذين السفيرين اللذين نجحا في الحصول على خطاب

من السلطان يَعد فيه ملك فرنسا بتقديم الدعم لدولته، وذلك بعد أن لعب الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" دورًا هامًا في إقناع السلطان بقبول هذا الطلب.

حصار مدينة "نيس (*Nice*)"

بدأ الأسطول العثماني استعداداته فور صدور قرار تقديم العون إلى فرنسا. وقد خاطب السلطان سليمان قائد الأسطول بَرْبَرُوسْ في اجتماع الديوان، وأخبره بتعيينه قائدًا للجيش لمساعدة الفرنسيين والخروج في غزوة إلى إسبانيا. وأبلغه السلطان بأن هذه المهمة صعبة للغاية، إذ إنه سيدخل في معارك بحرية مع كافة الأساطيل التي يقابلها في البحر المتوسط، باستثناء الأسطول الفرنسي، وقال له إنه سيحصل على القوات العسكرية اللازمة لإنجاز هذه المهمة. وخرج بَرْبَرُوسْ إلى البحر على رأس أسطول مكون من ١١٠ قوادس[٨١] و٤ صنادل[٨٢] في ٢٤ من شهر أيار/مايو عام ١٥٤٣م. وكان السفير الفرنسي "بولين" يتواجد في سفينة قائد الأسطول. وقد تزوّد الأسطول العثماني بالمياه والمؤن اللازمة له من مدينة "مودون"، ثم تحرك من مودون وعبر البحر اليوناني، ووصل في النهاية إلى مضيق "ميسينا". وعندما وصل الأسطول إلى سواحل مدينة "ريدجو" الإيطالية، شعر سكانها بالخوف، فصعدوا إلى الجبال. لكن ٦٠ جنديًّا كانوا يحمون قلعة المدينة فتحوا النار على الأسطول العثماني، وأردوا بعض الجنود شهداء. فأمر بَرْبَرُوسْ بإنزال المدافع إلى شاطئ المدينة، وأمطر القلعة بوابل من القذائف، حتى سقطت المدينة في أيديهم. وتذكر مصادر التاريخ الغربية أن زوجة حاكم تلك المدينة "جايتانو" وابنته سقطتا أسيرتين في أيدي العثمانيين، وأن ابنته "دونا ماريا" اعتنقت الإسلام وتزوجت بَرْبَرُوسْ، لتنجو عائلتها بذلك من الأسْر. ثم وصل أسطول بَرْبَرُوسْ إلى مصب نهر "تيبر" ومنطقة "أوستيا" القريبة من روما، مما أدخل الخوف إلى قلوب مسؤولي روما.

(٨١) قادس (ج. قوادس): يُعد القادس نوعًا من السفن المزودة بمجاديف لدفعها حيث نشأت في إقليم البحر المتوسط واستُخدمت في الحرب، والتجارة والقرصنة منذ الألفية الأولي قبل الميلاد. (المترجم)

(٨٢) صندل: قارب مسطح القاع، تم تصميمه أساسًا لنقل البضائع الثقيلة عبر الأنهار والقنوات. (المترجم)

وهرع نبلاء المدينة والقساوسة والنساء والأطفال لترك المدينة، وفرّوا هاربين إلى ما وراء منطقة "ديفولي" الواقعة في وادي "سابين".

وكان السبب الرئيسي الكامن وراء عدم قيام بَرْبَرُوسْ بأي هجوم عسكري على الرغم من اقترابه من روما لهذه الدرجة، هو عدم صدور أوامر من السلطان بمهمة كهذه، وتفضيله التحرّك وفق المخطط الموضوع لهذه الغزوة. حتى إن السفير الفرنسي أمّن الشعب الإيطالي القاطن بالقرب من البحر، وأسهم في إزالة الخوف عن قلوبهم. وبعد أن أمّن السفير الفرنسي الشعب الإيطالي، شوهد قيام بعض الأهالي الذين زال عنهم الخوف والرعب بتزويد سفن الأسطول العثماني بالطعام والشراب.

أخذ بَرْبَرُوسْ على رأس أسطوله في تتبع السواحل الإيطالية حتى وصل إلى مشارف مدينة "مارسيليا" الفرنسية يوم ٢٠ تموز/يوليو عام ١٥٤٣م. وبينما كان الأسطول العثماني يعبر من أمام سواحل مدينة "تولون" حيّاه الأسطول الفرنسي المتواجد بالمدينة عبر شدّ الأعلام، وعندما وصل إلى "مارسيليا" استُقبل بمراسم في غاية الأبّهة والعظمة. وقد استقبل الأسطولَ العثماني في "مارسيليا" قائد الأسطول الفرنسي "فرانسوا دو بوربون" الذي كان يشغل في الوقت نفسه منصب دوق "أنجين" على رأس أسطول قوامه ٣٠ سفينة. وتروي بعض المصادر التاريخية التي تتناول تلك الحقبة أن كافة طوائف الشعب الفرنسي توافدت على "مارسيليا" لرؤية القائد البحري التركي الكبير "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" الذي حقق شهرة واسعة في ذلك العصر. وبعد أن استقبل الأسطول الفرنسي بَرْبَرُوسْ من خلال رفع الأعلام التركية على السواري وإطلاق بعض قذائف المدفعية، جاء الدوق "دو بوربون" إلى بَرْبَرُوسْ، وأوصل إليه سلام ملك فرنسا. وأما بَرْبَرُوسْ فلم يولِ اهتمامًا على الإطلاق بهذه المراسم البهيجة، وسأل قائد الأسطول الفرنسي "دو بوربون" الذي كان يبلغ من العمر حينها ٢٣ عامًا عن المخططات الواجب تنفيذها في إطار التعاون العسكري بين الدولتين. وقد اعترى بَرْبَرُوسْ غضبٌ كبير عندما علم أن الجانب الفرنسي لم يقم

بالإعدادات اللازمة لتنفيذ هذه الخطط العسكرية، وصبّ غضبه على من كانوا حوله من القادة الفرنسيين، حتى إن قائد الأسطول والسفير الفرنسيين بذلا جهدًا جبّارًا من أجل تهدئته وإذهاب الغضب عنه. وفي واقع الأمر، لم يفكر الفرنسيون في كيفية الاستفادة بشكل مثالي من خبرات بَرْبَرُوسْ، واتخذوا قرارًا بتنفيذ بعض الخطط العام التالي. وما إن أعلن بَرْبَرُوسْ اعتراضه على هذا التخطيط، حتى ذهب السفير الفرنسي إلى الملك "فرانسوا الأول"، وتلقّى منه معلومات حول نيته مهاجمة مدينة "نيس" التابعة لدوق إقليم سافوا "تشارليز" حليف الإمبراطور "كَارْل الخامس"، بدلًا من مهاجمة أراضٍ تابعة للإمبراطور نفسه.

وكان الأسطول الفرنسي في تلك الغزوة يتألف من ٢٢ قادسًا و١٨ سفينة نقل، بالإضافة إلى قوة عسكرية قوامها ٧ آلاف جندي. وقد التحقت هذه القوة بأسطول بَرْبَرُوسْ، وانطلقوا جميعًا صوب سواحل مدينة "نيس". واستولت قوات التحالف العثماني - الفرنسي على ميناء "فيلفرانش"، وأنزلوا جنودهم إلى الشاطئ. وتدفق الجنود عبر التلال، حتى وصلوا إلى قلعة "نيس" وحاصروها. وأرسلت قوات التحالف خطابًا في البداية إلى القلعة تطالب المسؤولين عنها بالاستسلام، إلا أنهم تلقّوا جوابًا بالرفض، فبدأ حصار القلعة على الفور. وكان بَرْبَرُوسْ يتواجد وقتها على جبهة القتال عند الجبل. وبدأت المدافع التي أنزلها من السفن في قصف القلعة، واستطاعت قذائف المدافع تدمير برجين من أبراج القلعة بعد مرور سويعات قليلة. وفي النهاية، استسلمت المدينة بعد هذا الهجوم المكثّف. (٢٠ آب/أغسطس ١٥٤٣م) إلا أن الجنود الذين كانوا يدافعون عن المدينة انسحبوا إلى القلعة الداخلية وواصلوا مقاومتهم بقيادة الفارس المالطيّ "باولو سيميوني" الذي قضى فترة من حياته في الأَسْر قبل ذلك بصحبة بَرْبَرُوسْ. فقد رغب بَرْبَرُوسْ في شنّ هجوم على القلعة الداخلية في أسرع وقت ممكن للحيلولة دون وصول إمدادات إلى المدافعين عنها. لكن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولًا من قبل الفرنسيين. فأدرك بَرْبَرُوسْ وقتها أنه لا رجاء من دعم الفرنسيين لمخططاته، فأمر بإنزال ثمانية مدافع كبيرة إلى الشاطئ، وبادر بقصف القلعة الداخلية. وبينما الأمر كذلك، شكا الفرنسيون من نفاد

بـارود بنادقهم، وطلبوا من بَرْبَـرُوسْ تزويدهم بالبارود. وقد أصاب هذا الطلب بَرْبَرُوسْ بالعصبية، وقال لدوق "آنجين" ما مفاده:

"يا لهم من محاربين عظماء! يملأون سـفنهم ببراميل الخمر والشـراب، وينسون براميل البارود اللازم لبنادقهم!".

ومن ثَمّ توجّه إلى السفير الفرنسي "بولين" وسأله ساخرًا:

"هل كنت تمازحني عندما أخبرتني بجاهزيتكم للحرب بشكل شبه كامل عندما كنّا في إسطنبول؟!"

ولم يكن بَرْبَرُوسْ يستسيغ محاصرة قلعة "نيس" وإقامة معسكر أمامها بكل هذه القوات الضخمة التي كانت تحت قيادته، وأخذ يحادث نفسه لبرهة قائلًا:

"يتعيّن عليّ ألا أحمّل هذا الذنب لأحدٍ غير نفسي. هل أني لم أكن أعلم أن الفرنسـيين كاذبـون ومتلوّنون وكُسـالى؟! لم يكن لـي أن أبرم معهم عهدًا للخروج في غزوة كهذه!".

وإن لـم تكـن هذه الروايات صحيحـة، فإنها تدل على الخـلاف الذي كان ناشبًا بين أسطولي التحالف العثماني والفرنسي إذا جاز التعبير.

ولقـد اسـتطاع دوق "آنجين" كظم غيـظ بَرْبَرُوسْ وتهدئتـه بصعوبة بالغة. وشـهدت تلـك الفتـرة تواتـر أنبـاء عـن إعـداد "أندريا دوريـا" وبعـض القوات المسـاعدة العـدّة، وتوجّههم صـوب مدينة "نيس". لكن هذه القوات المسـاعدة تعرّضـت لعاصفة شـديدة وهي في الطريق، فاضطرت للرسـو في جزيرة "سـن مارجريت". وقد أعلن وَالِي ميلان "ماركي ديل جواستو" أن الإسبان بعثوا خطابًا إلـى قائـد المدافعين عن نيس "سـيميوني" يخبره بانطلاقهم إلـى المدينة لتقديم العون له. واسـتطاع الجنود الأتراك إلقاء القبض على الرسـول الذي كان يحمل ذلـك الخطـاب قبل أن يدخل إلـى قلعة مدينة "نيس". فلمـا وصلت هذه الأنباء إلـى مسـامع بَرْبَـرُوسْ، أمر علـى الفور برفـع الحصـار عن القلعة لعـدم رغبته في أن يضـع قواته بين شـقّي رحى هاتين القوتين، وكذلك رفضًا منه أن يضحّي

الجنود الأتراك بأنفسهم ودمائهم في سبيل الفرنسيين الذين كانوا يتصرّفون برعونة كبيرة. وأما السفير "بولين" فقد حاول إقناع بَرْبَرُوسْ بتنفيذ مخطط جديد، وعرض عليه الهجوم على أسطول "دوريا" في البحر بعد أن تعرّض لعاصفة شديدة أدّت إلى وقوع خسائر بين سفنه. لكن بَرْبَرُوسْ لم يُلقِ بالًا لهذا العرض لعلمه مسبقًا بتصرّفات الفرنسيين غير المسؤولة. حتى إنه مازح السفير الفرنسي قائلًا "لا، لن أواصل أكثر من ذلك في هذه المهمة. أخشى أن أنسى المعاملة التي عاملني بها أخي دوريا في بونة وبريفيزا".

قضى بَرْبَرُوسْ ذلك الشتاء في مدينة "تولون". وفي تلك الأثناء، أرسل أسطولًا بقيادة الرئيسَيْن "صالح" و"حسين" إلى سواحل إسبانيا. ولقد عادا بالكثير من الغنائم والأسرى من هذه الغزوة. كما عادت القوات التي أرسلها إلى جزيرة "سردينيا" بالعديد من الغنائم. وفيما كان بَرْبَرُوسْ يقضى فصل الشتاء في "تولون"، قرّر الفرنسيون تزويده بمبلغ مالي قدره ٥٠ ألف قطعة ذهبية لاستخدامها في تلبية نفقات الجيش. إلا أن تأخرّهم في دفع هذه المبالغ أسخط بَرْبَرُوسْ كثيرًا. وفي نهاية المطاف، دفع ملك فرنسا" فرانسوا الأول" مبلغًا ماليًّا قدره ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية عندما حان وقت رحيل وعودة جيش التحالف. ولقد خرج بَرْبَرُوسْ في رحلة بحرية في شهر أبريل/ نيسان عام ١٥٤٤م. وكانت أكبر مهمة قام بها في ذلك التوقيت هي إنقاذ القائد البحري الشهير "الرئيس تورجوت" من الأسْر، إذ كان هذا الأخير قد وقع أسيرًا في يد "جانيتانو دوريا" ابن أخ "أندريا دوريا" في هجوم قام به، واقتاده إلى مدينة "جنوة" وحبسه في سجن بها. وقد وصل بَرْبَرُوسْ إلى مشارف مدينة "جنوة" التي يقبع فيها "تورجوت" سجينا، وهدّد أهلها بقوله "سلّموني تورجوت، وإلا سأحرق جميع قراكم!" فسلّموه "تورجوت" مقابل فدية قدرها ٣ آلاف قطعة ذهبية بحسب اتفاق أُبرم بينهم، وذلك رغبةً منهم في الوقوف على الحياد وعدم الدخول في الحرب. كما استطاع بَرْبَرُوسْ الحصول على المجاذف وبعض المستلزمات الأخرى لسفنه من أهل "جنوة".

إن الأسطول الذي أرسله بَرْبَرُوسْ إلى إسبانيا وإيطاليا وجزيرة "سردينيا" تمكّن من وضع الإمبراطور "كَارْل الخامس" في وضع محرج. وقد وقّع الإمبراطور اتفاقية "كرسبي" مع الملك "فرانسوا الأول" يوم ١٨ أيلول/سبتمبر عام ١٥٤٤م، في أعقاب الغزوة التي قام بها بَرْبَرُوسْ على مدينة "نيس"، والهجمات التي نفّذها أسطوله في إسبانيا وإيطاليا. وفيما كان بَرْبَرُوسْ في طريق عودته إلى إسطنبول، حصل على العديد من الغنائم والأسرى خلال بعض الهجمات التي شنّها على الموانئ التي كانت في طريقه بينما كان يسير بالقرب من الساحل الإيطالي. ولم يجرؤ "أندريا دوريا" في تلك الفترة على الخروج في حملة بحرية ضد بَرْبَرُوسْ. ولم يخرج الأسطول العثماني إلى أي غزوة بحرية بعد العودة من فرنسا لعدة سنوات. واستطاع بَرْبَرُوسْ قضاء آخر أيام حياته في راحة واسترخاء، إلى أن وافته المنية بعد عامين من العودة من فرنسا يوم ١٤ تموز/يوليو عام ١٥٤٦م. ودُفن في ضريح مجاور للمدرسة التي كلَّف بإنشائها إلى جانب مرفأ منطقة "بشيكتاش" في إسطنبول. وبإمكاننا التخمين بكل سهولة أن السلطان سليمان حزن حزنًا شديدًا لمفارقة بَرْبَرُوسْ. وقد عزم السلطان على تسليم قيادة الأسطول إلى "سُوكُولّو (*Sokullu*) محمد بَاشَا". وبعد تعيّين هذا الأخير بعد ذلك بفترة وجيزة حاكمًا على منطقة الرُّومَلِي، أُسندت مهمة قيادة الأسطول هذه المرة إلى "سنان بَاشَا" شقيق الصدر الأعظم "رستم بَاشَا". وقد أدّى تعيين أشخاص على غير دراية بأمور البحر على رأس الأسطول العثماني إلى امتعاض عدد من البحّارين الذين عملوا لفترة طويلة مع بَرْبَرُوسْ، بعد أن تُوفي "سنان بَاشَا" عام ١٥٥٤م، عُيّن بعده "بياله بَاشَا" قائدًا للأسطول، مما أذهب ذلك الغضب عن أصحاب بَرْبَرُوسْ القدامى. ذلك لأن "بياله بَاشَا" سيتمكّن من الحفاظ على هيبة الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط بمساعدة كلٍّ من "الرئيس تورجوت"، و"الرئيس أولوج علي"، و"الرئيس حسن"، و"الرئيس صالح".

إبرام أول معاهدة مع آل "هابسبورج"

بعـد عـودة السـلطان سـليمان من غـزوة عـام ١٥٤٣م، خطّط للاسـتيلاء علـى مدينـة "فسـيجراد" التـي تعتبر قلعتهـا من بين القـلاع التي طمـح لضمها إلـى سـيطرته مـن أجل ضمان أمـن مدينة "بـودا". ولهذا، عيّـن كلًّا من حاكميّ بودا والبُوسْنَة من أجل تحقيق هذا المأرب. وقد تحرّك هذان القائدان في ربيع عـام ١٥٤٤م بجيشـيهما صـوب مدينة "فسـيجراد". وكانت هـذه المدينة تتمتع بشـهرة ذائعة الصيت مثل مدينة "سيكشـفهيرفار". كما كان ملوك المَجَر يخبئون تيجانهم في هذه المدينة أيضًا. وقد خضعت المدينة لاحتلال النمسا عقب وفاة الملك "زابوليا". وتمتلك "فسـيجراد" أهمية كبيرة نظرًا لموقعها المطل على نهر الطُونَة، ما جعل منها مركزًا للتحكم بسهولة في طرق النقل بهذه المنطقة. وكان العثمانيـون قد اسـتولوا على المدينة أثناء معركة "مُوهَـاجْ"، وما لبثوا أن فقدوها بعدهـا بفتـرة. وتعتبر المدينة في الوقت نفسـه من الأماكن التي طالب السـلطان سـليمان عدوه اللدود "فرديناند" بتركها ومغادرتها. لقد اتحد حاكم بودا "يحيى بَاشَـا زاده محمد بَاشَـا" مع كلٍّ من حاكم سيكشـفهيرفار "أحمد بَكْ"، وحاكم سـيجيدين "درويش بَـكْ"، وحاكم بوجيجا "مـراد بَكْ"، وحاكم مُوهَاجْ "قاسـم بَـكْ". ثم قسّـم جنـود الإنْكِشَـارِيّة المتواجدين فـي قلاع "بـودا"، و"إزترجوم"، و"سيكشـفهيرفار" إلى قسـمين، ترك قسـمًا منهم لحماية القلاع، وكلَّف القسـم الآخـر باللحـاق بركـب حُـكّام تلك المـدن التـي ذكرناها آنفـا. حاصرت تلك القـوات مدينـة "فسـيجراد"، وبـادرت بقصف قلعتهـا وأسـوارها بالمدافع التي كانـت بحوزتهـا. وبعـد أن صمـد المدافعـون عن القلعة لعشـرة أيـام كاملة في وجـه هـذا الهجـوم الضاري، لم يجـدوا بدًّا فـي نهاية المطاف غير الاستسـلام للقوات العثمانية. وعقب السيطرة على "فسيجراد"، عبر محمد بَاشَا نهر الطُونَة، وتقدّم ناحية الشـرق. ووصل إلى مشـارف قلعة "نوفجراد"، واستولى عليها دون مقاومـة. ومـن ثَمّ تقدّم حتى مدينة "هاتفان"، واسـتطاع أيضًا بسـط نفوذه عليها

دون مقاومـة أو قتـال، لأن القائمين على الدفاع عن المدينة آثروا حرقها والفرار من أمام القوات العثمانية. ولقد أولى محمد بَاشَا اهتمامًا كبيرًا بترميم قلعة تلك المدينة وتعيين قوات للدفاع عنها، وجعلها مركز ولاية، وعيّن "ولي بَكْ" حاكمًا عليهـا. أعقب ذلك اسـتيلاؤه على بعض المدن مثـل "دومبافار"، و"دوبريكوز"، و"شـيمونترينا"، و"أوزارا". وبينما كان محمد بَاشَـا يحاصر مدينة "شـيمونترينا"، جـاءه أمرٌ بإرسـال مسـاعدات إلى "عُلَمَا بَاشَـا" الذي كان يغـزو بعض المناطق في البُوسْـنَة وكرواتيا، فأرسـل إليه بعضًا من قواته. وكان "عُلَمَا بَاشَـا" منشـغلا فـي ذلـك التوقيت بحصار قلعـة مدينة "فليكا" فـي سـلوفيينا، إذ أدرك أن قواته غيـر كافيـة لفتـح هذه المدينة، فأبلـغ السـلطان سـليمان بذلك طالبًـا منه قوات إضافيـة. وعليـه، فقد أصدر السـلطان تعليمات إلى محمد بَاشَـا بإرسـال بعض قواته إلى "عُلَمَا بَاشَا" لمساندته في فتوحاته.

وبعـد أن نجـح "عُلَمَـا بَاشَـا" فـي الاسـتيلاء علـى مدينـة "فليـكا"، تمكّن مـن السـيطرة علـى قلعـة "مونوسـلو" الواقعـة بالقـرب من مدينـة "إيفونتيشـا" في كرواتيا. ثم سـار بجيشـه حتى وصل إلى مدينة "سـاجوريا" المتاخمة لمدينة "فأردلين"، وألحق هزيمة بقوة مختلطة من كرواتيا وولايتيّ "كريتين" و"سـتيريا" النمسـاويتيْن. وعقـب تلك النجاحـات التي حقّقها "عُلَمَا بَاشَـا" وحاكم مُوهَاجْ "مالكوتـش بَـكْ"، انسـحبا إلـى مدينتـي "دوبيتشـا" و"بنيالوكا". ونتيجـة لذلك، فقد شـهدت إمارة "بودا" توسّـعات كبيرة بفضل هذه الغـزوات التي وقعت عام ١٥٤٤م. ووصـل عـدد المقاطعـات بهـا بعد هـذه الفتوحات إلـى ١٢ مقاطعة. وقد شـعر "فرديناند" بربكة وحنق شـديدين جرّاء هذه التحرّكات العسكرية التي أقدمـت عليهـا الجيـوش العثمانية وحُـكّام إماراتهـا الحدودية في عمـق القارة الأوروبيـة. وعقـب أن اسـتولى العثمانيـون علـى عـدد مـن القلاع التـي كانت تخضـع لسـيطرته واحدةً تلـو الأخـرى، رأى "فرديناند" من المناسـب الرجوع إلـى السـلطان سـليمان للتفـاوض معه. وتفـاوض فـي البداية مـع "يحيى بَاشَـا زاده محمـد بَاشَـا"، ونجـح فـي عقْد اتفـاق هدنة معه لمدة شـهر فـي حزيران/ يونيـو عام ١٥٤٤م. كما أرسـل فـي تلك الأثناء وفدًا من السـفراء إلى العاصمة

إسطنبول. وكان ذلك الوفد مكونا من "هيرونيموس أدورنو" وكاتبه ذي الأصول الإيطالية "جان ماري مالفيزي". لكن سفير النمسا وافته المنية على حين غِرّة قبل أن يلتقي السلطان سليمان في "أَدِرْنَه"، وذلك بحسب ما تظهره رسالة كان قد أرسلها السلطان حول هذا الصدد. وقد كتب هذه الرسالة الكاتب "بيرتيمو" بتاريخ ٢٣ ذي الحجة ٩٥١هـ - ٨ أيار/مايو ١٥٤٤م، إذ جاء فيها أن السفير النمساوي وافته المنية، وأن السلطان لم يفهم ما المطلوب بالتحديد من الرجل ومن الخطاب الذي كان بجوزته. ثم استطرد السلطان كلامه في تلك الرسالة بقوله "... مهما كان غرضك من إرسال رجالك إليّ، فإن عزّة دولتي وبلاطي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار منذ زمان الآباء والأجداد. وأنا لا أمانع في وفود أي رسول أو سفير سواء من أجل الصلح والصداقة أو من أجل الحرب والعداوة..." ولقد طلب السلطان سليمان في هذه الرسالة من "فرديناند" أيضاح مطالبه بدقة، وأشعره أنه يميل إلى إبرام اتفاق سلام معه(٨٣). وعندها أرسل "فرديناند" وفدًا آخر من السفراء، إذ كان يترأس هذا الوفد قانونيّ يُدعى "نيكولاس سيكو". ولقد بعث الإمبراطور "كارل الخامس" رسولًا هولنديًّا يُدعى "فيلتفيك" إلى جانب السفير النمساوي ليحضر جلسات المفاوضات مع السلطان العثماني. وكان العرض الذي كُلِّف السفير "سيكو" بعرضه على البلاط العثماني عبارة عن تقديم هدايا مالية سنوية إلى السلطان قدرها ١٠ آلاف قطعة ذهبية، و٣ آلاف قطعة ذهبية أخرى إلى الصدر الأعظم، من أجل المحافظة على حدود دولة "فرديناند".

وفي الوقت الذي أبلغ فيه السلطان سليمان السفير الفرنسي "دي أرامون" بأن يخبر ملك فرنسا لدى عودته إلى بلاده بأن صداقته مع الدولة العثمانية محفوظة(٨٤)، لم يكن السلطان يفكّر في الدخول في حرب ضد آل "هابسبورج" نظرًا لظهور بوادر احتمال نشوب حرب مع إيران على الجبهة الشرقية. وكان ملك فرنسا قد أبرم اتفاق "كرسبي" مع السلطان سليمان (١٨ أيلول/سبتمبر ١٥٤٤م).

(٨٣) أنظر: أرشيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي" رقم: *E.12321, 374*

(٨٤) أنظر: من أرشيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي"رقم: *(E.12321, 226)*

وللسبب ذاته كان ملك فرنسا يسعى جاهدًا لتولّي دور الوسيط للإصلاح بين السلطان سليمان والإمبراطور "كارل الخامس". حتى إنه بعث رسولًا يُدعى "جيان دي مونتلوك" إلى إسطنبول في مهمة استثنائية. وكان هذا الرسول سيعمل جنبًا إلى جنب مع مبعوث الإمبراطور "كارل الخامس". إلا أن هذا الأخير لم يكن يثق في الملك "فرانسوا الأول" على الإطلاق. ولقد وصل هذان المبعوثان إلى إسطنبول يوم ٧ أيلول/سبتمبر ١٥٤٥م. وبعد مفاوضات مع الجانب العثماني، اتفق الطرفان على قبول مقترح النمسا بعقْد الهدنة، ووقعا على ذلك اتفاقا بالهدنة لمدة ١٨ شهرًا في "أَدِرْنَه" يوم ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ذاته. وعاد هذان المبعوثان إلى بلديهما بعد إبرام هذا الاتفاق مع العثمانيين. إلا أن الهولندي "فيلتفيك" سفير الإمبراطور جاء إلى إسطنبول مرة أخرى في نهاية صيف عام ١٥٤٦م. وقد أخبره وزراء الديوان العثماني بضرورة ضمّ الملك "فرنسوا الأول" إلى أي اتفاق سلام يُبرم بين الطرفين في المستقبل من أجل أن يكتسب صفة المتانة، ويستند على أرضية صلبة. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى ملك فرنسا، حتى أرسل رسولًا يُدعى "كاديجناك" إلى إسطنبول وبحوزته رسالة مشفَّرة من أجل تأخير هذه المفاوضات فورًا، ثم بعدها مباشرة بعث سفيره الآخر "دي أرامون" على رأس وفد حاشد للغرض ذاته. ذلك لأن آمال ملك فرنسا التي عقدها على اتفاق "كرسبي" مع العثمانيين كانت قد تبخّرت، فهو لم يكن يرغب من الآن فصاعدًا في إبرام اتفاقية صلح بين السلطان سليمان والإمبراطور "كارل الخامس". إلا أن وفاة الملك "فرانسوا الأول" في ذلك التوقيت (٣١ آذار/مارس ١٥٤٥م) وضع الوفد الفرنسي في موقف لا يُحسد عليه. فأُصيب السفراء الفرنسيون بترددٍ كبير في اتخاذ القرار، واضطر المبعوث "دي أرامون" للانتظار حتى تلقّي تعليمات من الملك الجديد. وقد اتخذ الملك الجديد "هنري الثاني" قرارًا باقتفاء أثر والده في سياسته تجاه الشرق، مما دفع السفير "دي أرامون" في محاولة منه لمراوغة السلطان سليمان بعروض جذّابة. وأما "فيلتفيك" سفير الإمبراطور "كَارْل الخامس" فكتب في تقريره أن السفير الفرنسي طلب من السلطان سليمان احتلال المناطق

المتبقية في المَجَر، وإرسال الأسطول العثماني من جديد إلى سواحل إفريقيا. لكن السلطان وديوان دولته لم يمتنّا من تصرفات الفرنسيين، ولم يوليا اهتمامًا بمطالبهم. وكان السلطان يتابع عن كثب ترسيخ دعائم السلام والاستقرار في محيط حوض نهر الطُونَة، واستباب الأمن في الوقت نفسه في البحر الأبيض المتوسط. ولهذا السبب قرّر عقْد اتفاقية صلح مع أرشيدوق النمسا والإمبرطور "كَارْل الخامس".

وكان هناك شخص آخر لا يرغب في إبرام اتفاق سلام بين العثمانيين وآل "هابسبورج" وهو السفير الفرنسي "دي أرامون". وهذا الشخص هو "كريستوف روجندروف" قائد كتيبة الإمبراطور الخاصة، وهو في الوقت نفسه نجل الجنرال "روجندروف" الذي حاصر مدينة "بودا". فقد لجأ هذا الشخص إلى السلطان، وحرّضه على إعلان الحرب على سيّده السابق. حيث واعد السلطان بأنه إن فعل ذلك سيمنحه قلاعه وقصوره التي في النمسا، وأنه سيساعد جيشه على الاستيلاء على فيينا. إلا أن تصرفاته غير المسؤولة أفضت في نهاية المطاف إلى رفض عرضه كما حدث مع السفير الفرنسي"دي أرامون". وأما "فيلتفيك" سفير الإمبراطور فوصل إلى "أَدِرْنَه" عقب وصول السلطان لها، واستقبله السلطان رسميًّا يوم ١٤ كانون الثاني/يناير عام ١٥٤٦م. وقد قدّم السفير الهولندي خطاب اعتماده وبعض الهدايا الأخرى ومذكّرة تتضمن مهامه وصلاحياته. وأما السلطان سليمان فقد أبلغه بأنه سيسعى لحل كافة المشاكل القائمة بين الطرفين إن كان قد جاء بعرض مناسب من قبل الإمبراطور. وبعد مفاوضات استمرت بين الجانبين على مدار عدّة أشهر، أبرما اتفاق هدنة لمدة ٥ سنوات يصب في مصلحة العثمانيين في شهر ربيع الآخر ٩٥٤هـ (حزيران/يونيو ١٥٤٧م). وقد أُدخل البابا وفرنسا والبندقية كذلك في هذا الاتفاق. ونصّ الاتفاق على الإبقاء على المناطق التي استولى عليها العثمانيون في المَجَر تحت إدارتهم، وأما المناطق الأخرى في مملكة المَجَر التي لم يفتحها ومازالت تخضع لسيطرة "فرديناند" فسيدفع عنها خراجًا سنويًّا إلى الدولة العثمانية بقيمة ٣٠ ألف قطعة ذهبية. ويأتي في نص هذا الاتفاق ما يلي:

- "... إن ولاية المَجَر فُتحت بسيوفنا.
- وإن قلاع تلك الولاية وحصونها تخضع لسيطرة جنودي وأمرائي، إذ زوّدناها بالجنود والتجهيزات اللازمة للمحافظة عليها.
- كما أن كافة القرى التابعة لهذه القلاع وربوعها وحقولها وبساتينها ورعاياها وحدودها تخضع لأهل الإسلام.
- ويتعهّد فرديناند بدفع ٣٠ ألف قطعة ذهبية سنويًّا إلى خزينة الدولة العثمانية في مقابل عدم خضوع رعايا بعض القلاع والحصون في المَجَر لأهل الإسلام..."

ويشير هذا الاتفاق إلى "فرديناند" كالتالي:

- "... فرديناند ملك الرومان ورعاياهم.."
- وهو ما يدل على عدم الاعتراف به ملكًا على المَجَر. كما جاء وصف الإمبراطور "كَارْل الخامس" كما يلي: "... كَارْل ملك ولاية إسبانيا وشقيق فرديناند..."
- وهو أيضًا يشير إلى عدم اعتراف السلطان بإمبراطوريته.

وقد صادق "كَارْل الخامس" و"فرديناند" على هذه المعاهدة في مدينة "آوجسبورج" بتاريخ ١ آب/أغسطس ١٥٤٧م.

وبينما كانت الدولة العثمانية توقّع هذه المعاهدة، أتتها بعض الأنباء من اليمن. وكان السلطان سليمان يولي اهتمامًا كبيرًا بتلك المنطقة منذ غزوة "سليمان بَاشَا الخادم" إلى الهند. كما أن السلطان على ما يبدو كان قد أخضع اليمن لسيطرته، إذ كانت اليمن تتمتع بأهمية كبرى لحماية الأراضي المقدسة والدفاع عنها. وقد بدأ العثمانيون في توسيع رقعة نفوذهم في اليمن بالسيطرة على مدينتي "زبيد" و"عدن" اللتين تعتبران من أهم المدن اليمنية. وتولّى إمارة تلك المنطقة "مصطفى بَكْ" ابن "بيقلي محمد بَاشَا"، ثم شخص آخر يُدعى كذلك "مصطفى بَكْ". وقد سعى "مصطفى بَكْ" في بسط نفوذه على المناطق

المحيطة بمدينة "تعز"، إلا أنه فشل في ذلك. وبعد أن تولّى مكانه "أويس بَاشَا"، خضعت "تعز" للسيطرة العثمانية. ويروي المؤرخ العثماني "علي" أن "أويس بَاشَا" هو ابن السلطان سليم الأول من إحدى جواريه، حيث أُخفي ميلاده عنه. وقد استغلّ الخلاف الناشب بين أفراد الأسرة الزيدية في اليمن، واستولى على "تعز" بحجة تقديم العون إلى "الأمير مختار" (١٥٤٥م). إلا أن "أويس بَاشَا" قُتل بعد السيطرة على "تعز" بفترة قصيرة إثر نشوب ثورة قام بها السكان المحليون بتحريض من رجل عسكري يُدعى "بهلوان حسن" رغب في بسط نفوذه على إدارة المدينة. وبعد مقتل "أويس بَاشَا" انتقل حكم إمارة اليمن إلى فرهاد بَاشَا. ولقد قام هذا الأخير بقمع الثورة المندلعة في "عدن"، واستطاع ترسيخ دعائم الاستقرار في المناطق الجبلية (الجبل) والمنبسطة (تهامة) في اليمن. وفي تلك الأثناء وفد إلى اليمن قائد عثماني يُدعى "أوزدمير بَاشَا"، ونجح في الاستيلاء على "صنعاء" (١٥٤٧م). وكان يشغل في ذلك الوقت منصب حاكم مقاطعة، وارتقى لمنصب حاكم اليمن بعد استدعاء فرهاد بَاشَا إلى إسطنبول. وإن كانت بعض المصادر التاريخية تخبرنا بتولّي "أوزدمير بَاشَا" إدارة ولاية اليمن بصفة الوكيل، لكن سجلات إدارة الدولة العثمانية لا تؤكد هذه المعلومات. وكان "أوزدمير بَاشَا" من مماليك مصر الشراكسة. وقد دخل في خدمة العثمانيين في وقت مبكر من حياته بعدما بسطت الدولة العثمانية سيطرتها على مصر. ونجح في جذب انتباه السلطان سليمان، حتى إن المؤرخ العثماني "علي" ينقل لنا حكاية في هذا الشأن، فيقول:

> "بينما كان المتطوعون من الجنود في غزوة الهند يصعدون إلى السفينة، تلقّى سليمان بَاشَا طلبًا من أوزدمير الذي كان فارسًا بارعًا قال فيه "أنا أيضًا أرغب في المشاركة في هذه الغزوة. لكنني لا أريد أن تُخلّوا بيني وبين حصاني قط." فامتنّ سليمان بَاشَا كثيرًا من هذا الطلب، وسمح له باصطحاب جواده معه على متن السفينة، على الرغم من أنه لم يكن يسمح لأحد بهذا".

ويُفهم من هذه القصة أن "أُوزْدَمِيرْ" استطاع كسب رضا سليمان بَاشَا بفضل الأعمال التي قام بها خلال تلك الغزوة. وما إن عاد منتصرًا من غزوة الهند، حتى عيّنه سليمان بَاشَا قائدًا للجنود الإنْكِشَارِيّة، ثم حاكمًا على إحدى المقاطعات. ثم نجح بعد ذلك بفترة قصيرة في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة في جنوب مصر والقريبة من سواحل البحر الأحمر مثل "إبريم"، و"درّ"، و"ساي". كما أظهر كفاءته كذلك في إدارة اليمن. وفيما كان يحكم إحدى المقاطعات في اليمن، أسهمت عملية سيطرته على "صنعاء" في إذاعة صيته وشهرته. ولقد تمكّن بعد ذلك بفترة وجيزة من القضاء على "بلهوان حسن" الذي قتل "أويس بَاشَا". وقد حصل على لقب البَاشَاوية تكريمًا لتلك النجاحات التي حققها. وكما سنرى لاحقًا، سيتمكّن "أُوزْدَمِيرْ بَاشَا" من صنع شهرة واسعة لنفسه في اليمن والحبشة.

تحطُّم آمال القضاء على الصفويين:
غزوتان شرقيتان فاشلتان

بعد أن عقد السلطان سليمان معاهدة الصلح في إسطنبول عام ١٥٤٧م، ولّى وجهه شطر الشرق مجددًا. ذلك لأن انشغال العثمانيين بغزواتهم البرّية والبحرية في الغرب وأوروبا تمخّض عنه بعض النتائج التي لم تكن تصب في مصلحتهم، ومنها: تمهيد أرضية مواتية لإعادة الشاه "طهماسب" تنظيم شؤون إيران الداخلية، وسيطرته على جورجيا وشيروان، وحصوله على مدينة "قندهار" من الهند كشكرٍ منهم على مساعدات أرسلها إليهم، وردّه لهجوم الأوزبك. ولقد استطاع الشاه خلال تلك الفترة نشر المذهب الشيعي في أذربيجان وعراق العجم، أي مناطق "غنجة (*Gence*)"، و"قره باغ (*Karabağ*)"، و"رافان (*Revan*)"، و"نخجوان (*Nahcivan*)". كما لم يتورّع عن اضطهاد أهالي "شيروان"، وإرسال الجواسيس والخطابات إلى العشائر التركمانية المقيمة في الأناضول لاستمالتهم إلى إلحاقهم بمقاطعة "أردبيل" الإيرانية. وفي واقع الأمر، لم تسنح الفرصة لتوقيع أي اتفاقية أو معاهدة بين العثمانيين والصفويين في أعقاب غزوة العراقيْن التي قام بها السلطان سليمان. فبعد عودة العثمانيين مباشرةً من هذه الغزوة، استعاد الشاه من أيدي العثمانيين على الفور مدنًا مثل "وَانْ"، و"واسطان"، و"أرجيش"، و"بايزيد". حتى إنه أخمد ثورات أهل هذه المناطق من السُنّة، وأذاقهم شتّى صنوف العذاب. وعلى الرغم من ذلك، شهدت إيران بعض الاضطرابات الداخلية بين الفينة والأخرى. وكانت إيران في ذلك الوقت تهتزّ داخليًّا بسبب الشقاق الناشب بين أفراد الأسرة الصفوية، واستهتار الجماعات التركمانية التي كان يعتمد عليها الصفويون. ولعلّ لجوء "القاص مِيرْزَا" شقيق الشاه إلى العثمانيين واحتمائه بهم كان من أبرز تلك الأحداث، كما منحت هذه الواقعة الفرصة إلى العثمانيين لغزو إيران.

وفي أعقاب سقوط "شيروان" بأكملها في أيدي الصفويين عام ١٥٣٨م، عُيّن "القاص مِيرْزَا" حاكمًا عليها في "شماهي"، وبعد ذلك تملّكته رغبة في الاستقلال عن شقيقه، وبدأ في تطبيق حركة استقلالية عام ١٥٤٦م، حتى إنه امتنع عن سداد الضرائب وإرسال الجنود إلى الشاه. فأرسل إليه أخوه الشاه بعض الرسل للاستفسار عن ذلك الأمر، وأدرك حينها أنه لا يملك القدرة على مجابهة شقيقه بعدُ، فعمد إلى إيفاد والدته وابنه إلى الشاه ليخبراه بأن شيئًا كهذا لن يحدث أبدًا، وأن تصرُّفه هذا فُهم بشكل خاطئ، واضطر في نهاية الأمر إلى إنكار عزمه على الاستقلال بولايته. وبالرغم من تظاهر الشاه بأنه عفا عن شقيقه جرّاء هذه الواقعة، فإنه كان يعتزم غزو جورجيا في البداية، ومن ثَمّ معاقبته بعد الانتهاء من هذه المهمة. وخرج "طهماسب" على رأس جيشه من عاصمته "تبريز" عام ١٥٤٦م متوجّهًا إلى جورجيا، فتقدّم حتى وصل مدينة "أَهيلْكَلَكْ (*Ahılkelek*)" الجورجية، ونجح في الحصول على العديد من الأسرى والغنائم هناك. وبينما كان الشاه في طريق عودته بحلول فصل الشتاء، أتاه اثنان من أمراء جورجيا ("ليفيند خان (*Levend Han*)"، وحاكم "بَاشَاشوق (*Başaçuk*)") وأعادا تقديم فروض الطاعة والولاء لينقذا نفسيهما من هجوم محتمل كان سيقوم به الشاه. وفي شهر كانون الثاني/يناير عام ١٥٤٧م أرسل الشاه قوة عسكرية قوامها ٥ آلاف مقاتل على حين غِرّة لمهاجمة أخيه "القاص مِيرْزَا". ولقد ألحقت هذه القوة هزائم متتالية بهذا الأخير بعدما هاجمته وضيّقت الخناق عليه، مما اضطره للانسحاب إلى مدينة "دميرقابو". وكان يتعقّب "القاص مِيرْزَا" أثناء انسحابه حاكمُ مدينة شكي "محمد خان". فلجأ "القاص" إلى منطقة "داغستان شيمهالي" برفقة ٤٠ رجلًا كانوا بصحبته، ثم انطلق إلى إسطنبول عبر مدينتي "أزاك (*Azak*)" و"كَفَه"، وقدّم فروض الطاعة للسلطان سليمان. وفي تلك الأثناء، كانت كل مناطق "شيروان" قد سقطت مجددًا في يد الشاه الذي أسند إدارتها إلى ابنه "إسماعيل مِيرْزَا الثاني".

وعندما بسط الشاه سيطرته على دولة "شيروان" عام ١٥٣٨م، كان حاكم تلك المنطقة سلطان برهان علي بن خليل الثاني قد فرّ هاربًا واستغاث بقبائل

"تركمـان القايتـاق". ثـم ذهب إلى إسـطنبول، وحصل على بعض المسـاعدات من الدولة العثمانية، ومن ثَمّ عاد مجددًا إلى "داغستان". لكنه اضطر للانسحاب فـي مواجهة قوات "القاص مِيرْزَا" الذي كان يحكم "شـيروان" في ذلك الوقت، وعاد بعدها إلى إسطنبول مرة أخرى. والآن، فإن لجوء "القاص مِيرْزَا" هو الآخر إلى العثمانيين تمخّض عنه حالة غريبة من وجهة نظر هذين العدويْن القديمين. ففي البداية طلب "برهان علي سلطان حفيد الشاه "إسماعيل الصفوي" المساعدة من العثمانيين، وأما الآن فقد لجأ "القاص مِيرْزَا بن الشـاه إسـماعيل" هو الآخر إلـى البـلاط العثمانـي لإنقـاذ دولتـه من بيـن يدي أخيـه "طهماسـب". وعندما هـرب "القـاص" ووصل حديثًا إلى "كَفَه"، بعثـت الحكومة العثمانية برهان علي إلـى شـيروان، وهـمّ هـذا الأخيـر إلـى طـرد "إسـماعيل الثاني بن طهماسـب" من وطن أجداده، وسيطر على دولته مجددًا.

اسـتقبل السـلطان سـليمان "القـاص ميـزرا" الـذي هـرب من "شـيروان" إلى إسـطنبول وسـط مراسـم فخمة للغاية. وقد همّ الوزير السُنّي "سيد عزيز الله شـيرواني" الـذي كان من علماء السـنة في "شـيروان" ومِيرْزَات "القـاص مِيرْزَا" إلى تقبيل يد السـلطان سليمان، فيما ألبس السـلطان "القاص" القفاطين الثمينة، وأتحفـه بمجموعـة جياد على ظهورها أطقم مزينـة ومرصعة بالحلي، وخصّص لـه بعض الرجال لخدمته. ويـروي المؤرخ العثماني بَجُويْلُـو هذه الواقعة حول وصول القاص إلى إسطنبول فيقول:

> "عندما وصل السـلطان من أَدِرْنَه إلى إسـطنبول، أجلسوا "القاص مِيرْزَا" فـي مكان كي يشـاهد مراسـم مرور موكب السـلطان. فقـال عندما كان يشاهد ألوية الموكب وهي تدخل المدينة:
>
> "مـر مـن أمامنا قارعو الطبول، ثم رأينا أغـوات العربات والمدافـع وهم يتزينون بأبهى أنواع الزينة كما هي العادة عند العثمانيين. وتساءلت أهذا هـو السـلطان؟ ثم قمت مـن مكاني واقفًا كـي أحيّي السـلطان وأعظمه وأبجله. ثم تبعه موكب قائد الإنْكِشَارِيّة، والخيّالة، ثم الوزراء. فاعتلتني حالة من الحيرة والاندهاش من فخامة موكب السلطان حينما كان يمر".

ثـم اسـتقبله السـلطان سـليمان، وقدّم إليـه الهدايـا والعطايـا القيّمة. وقد انتشرت بعض الشائعات في حقّ "القاص مِيرْزَا" في تلك الأثناء. حتى إن بعض الشـائعات بدأت في الانتشـار بين الناس تقول "لماذا كل هذه التكاليف الطائلة لاسـتقبال هذا الشـخص ومكافأته. فهو لم يأتِ رغبة منه في أهل السُـنّة، وربما جاء لإنقاذ نفسـه من بطش أخيه الشـاه. ولما وصلت هذه الشائعات إلى مسامع السلطان، قال حسب ما رُوي في هذا الصدد:

"نحن فعلنا ما يحتّمه شـرف السـلطنة علينا. وإن أقدم على أي عمل من أعمال الخيانة، فقد فوضّنا أمره إلى الله تعالى هو الذي يعاقبه".

ما إن وصل "القاص مِيرْزَا" إلى إسطنبول، حتى عمد إلى تحريض السلطان سـليمان للخـروج فـي غزوة إلى الشـرق، وقال له إنه ومـع خروجه إلى حدود إيران فإن أمراء وفرسـان العجم سـيهمّون لإلقاء القبض على الشاه "طهماسب"، وإنهم ينتظرون تشـريف السـلطان. ويُفهم من ذلك أن السـلطان سـليمان اتخذ طلـب "القـاص" هـذا كحجة للخروج في غـزوة إلى إيران، وقد كانـت لدية نيّة مبيتة أساسًـا لتنفيذ هذا الأمر. كما رغب السـلطان في الاستفادة من شقيق الشاه للنجاح في هذه الغزوة. وكانت غزوة السلطان سليمان إلى الشرق (إيران) مُقدَّرة لعدة أسـباب منها: اضطهاد الشـاه "طهماسـب" لأهل السُنّة في إيران، وتشجيع "رسـتم بَاشَـا" لـه من أجل الخروج في غـزوة إلى جورجيا، والمسـاعدات التي طلبتها قبائل الأوزبك من السلطان. وقد أفضى لجوء "القاص مِيرْزَا" إلى البلاط العثمانـي إلى إضفاء الشـرعية على هذه الغزوة. وكان السـلطان سـليمان يضع بعين الاعتبار الاضطرابات الداخلية التي تعاني منها إيران، إذ فكّر في أن الفرصة قـد سـنحت مـن أجـل أن يضـع حـلًّا جذريًّا لهذه المشـاكل. كمـا لعبت بعض العوامل الأخرى دورًا كبيرًا في إجبار السـلطان سـليمان على الخروج في غزوة ثانية نحو إيران على الرغم من تقدّمه في العمر، ومن بين هذه العوامل نذكر على سبيل المثال: تضييق الشاه "طهماسب" الخناق على منطقة "شيروان"، واستنجاد أهـل السـنة فـي إيران بالسـلطان من ظلم الشـاه، وطلب قبائـل الأوزبك العون

من الدولة العثمانية، وترسُّخ مفهوم الخلافة الإسلامية واعتبار السلطان نفسه حاميًا لعرين المسلمين.

غزوة إيران الثانية

كان السلطان سليمان يفضّل الإقامة في ولاية "أَدِرْنَه" ومتابعة الأخبار الواردة من أطراف حدود دولته. وقد وصلت أنباء نجاح أمير ولاية بغداد في تنفيذ حملة عسكرية ناجحة على البصرة إلى السلطان في شهر ذي الحجة ٩٥٣هـ (كانون الثاني/يناير ١٥٤٧م). وعاد السلطان سليمان بعدها إلى إسطنبول في شهر المحرم ٩٥٤هـ (شباط/فبراير ١٥٤٧م)، لكنه لم يتوجّه إلى القصر حتى شهر حزيران/يونيو من العام نفسه، وآثر قضاء وقته في الخروج في جولات الصيد حول العاصمة. ثم عاد إلى القصر يوم ١٢ ربيع الأول (١ حزيران/يونيو). خرج بعدها إلى جولة تنزّهية على ظهور الجياد برفقة "القاص مِيرْزَا"، وتناولا مسألة الخروج في غزوة إلى إيران خلال هذه الجولة. ويتحدث بعض المؤرخين العثمانيين عن أن هذا اللقاء زاد من تصميم السلطان سليمان على الخروج في غزوة صوب إيران. وربما أقنعته هذه المناقشات التي أجراها مع "القاص مِيرْزَا" بأن بمقدوره إعادة إيران إلى حظيرة العالم الإسلامي السُنّي، والقضاء على هذه الفتنة التي إن استمرت فستجرّ المسلمين جميعًا إلى عواقب لا يعلم مداها إلا الله. لكن الأحداث اللاحقة أثبتت أن الأوضاع ليست كما كان يظنّ السلطان. إذ سيكون من بين أبرز الدروس التي سيتعلّمها من هذه الأحداث هي ضرورة "تقبّل" وجود الصفويين على الساحة.

في أعقاب لجوء "القاص مِيرْزَا" إلى البلاط العثماني، بدأت الإعدادات على قدمٍ وساقٍ للخروج في غزوة إلى إيران في شتاء عام ١٥٤٧ - ١٥٤٨م. وقد خرج السلطان سليمان في جولة صيد في محيط منطقة "كوموتيني" يوم ١٢ شوال (٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر)، ثم انتظر حتى اكتملت تجهيزات الغزوة، ومن ثم عاد إلى إسطنبول. واستُدعي وَالِي البُوسْنَة في ذلك الوقت "عُلَمَا بَاشَا" إلى إسطنبول لدرايته بأحوال إيران وشؤونها، وعُيّن في منصب وَالِي "أَرْضُرُومْ"

شـرق الأناضول، كما أُسـندت إليه مهمـة الاعتناء بـ"القاص مِيـرْزَا". ومُنح هذا الأخيـر رايـة الدولـة وذيل حصـان وطبلة، وانضم إلـى موكبه عدد مـن الجنود العثمانيين. وانتقل هذا الموكب إلى منطقة "أُوسْـكُودَارْ" على الشـاطئ الآسيوي من إسـطنبول يـوم ٢١ آذار/مارس ١٥٤٨م، ثم انطلق صوب الحدود الشـرقية. وعبـر السـلطان سـليمان مضيق البوسـفور من منطقـة "بشـيكتاش (*Beşiktaş*)" إلى "أُوسْكُودَارْ" على متن سفينة يوم ١٨ صفر ٩٥٥هـ (٢٩ آذار/مارس ١٥٤٨م) فـي مراسـم مهيبة، وودّعه سـكان العاصمة بالتهليل والأدعيـة. وبدأت المدافـع في ضرب قذائفها في الهواء من "طُوبْ خَانَه (*Tophane*)" لتحية السـلطان بينما كان في طريقه إلى "أُوسْـكُودَارْ". وعندما وصل إلى منطقة "سـيد غازي"، التقى به ابنه الأمير "سـليم" حاكم ولاية "صَارُوخَانْ" (مَانِيسَـا). فأرسـله السـلطان إلى ولايـة "أَدِرْنَـه" للحفاظ علـى الأمن في منطقـة الرُّومَلِي. كما اجتمـع السـلطان سـليمان فـي قصر "آقحصـار (*Akhisar*)" بابنيـه الآخريْن الأميـر "بايزيد" حاكم ولايـة "كرمان"، والأمير مصطفى حاكم ولاية "أَمَاسْـيَا"، وكلّفهما بالحفاظ على المناطق التي تخضع لحكمهما في مواجهة الثورات المحتملة التي قد تقوم بها قبائل القزلباش في الأناضول في غيابه.

وفـي تلـك الأثنـاء، علِـم الشـاه "طهماسـب" أن السـلطان سـليمان خرج فـي غـزوة صوب بلاده برفقة شـقيقه "القـاص ميرْزَا" وذلك حسـبما أبلغه أمراء الولايـات الحدوديـة مـع الدولـة العثمانيـة. فأُصيـب بذعـر وهلـع شـديدين لمـا وصلـت إليـه هذه الأنبـاء. وكان هذا الشـعور الذي راوده فـي ذلك الوقت نابـعٌ مـن احتمال صعود أخيه "القاص مِيـرْزَا" إلى عرش إيران بدعم من الدولة العثمانيـة، أكثـر مـن كونه كان خائفًا من سـيطرة العثمانيين أنفسـهم على إيران. حتى إن تلك المخاوف التي ساورت الشاه يمكن تأكيدها ببعض الروايات التي سـردها المؤرخـون العثمانيون حول "نية السـلطان سـليمان إسـناد عرش إيران إلـى القـاص مِيرْزَا بعد القضاء على شـقيقه طهماسـب". وكان شـاه إيران يذكر السـلطان سـليمان دائمًـا بالتعظيـم والتبجيـل، وقـد قـرّر عدم مواجهـة الجيش العثماني خوفًا من الدعم الذي يقدمه السلطان إلى شقيقه "القاص مِيرْزَا". وكان

يشـير إلى السـلطان سـليمان في مذكراته دومًا بلقب "حضرة السـلطان"، وكان يدّعى أنه خُدع من قبل وزراء البلاط العثماني وشـقيقه. وهمّ الشـاه "طهماسب" إلى حشد قوات جيشه، وعزم على تنفيذ بعض الإجراءات لعرقلة تقدّم العثمانيين نحـو بـلاده، ومن بين هـذه الإجراءات: تدمير مـوارد الطعام والشـراب والمياه في الأماكن التي سـيعبر منها الجيش العثماني، وإرسال جواسيس القزلباش إلى الأناضـول وتوجيههـم لتحريض مناصريهم هناك لإحـداث ثورات ضد الحكام العثمانييـن لإربـاك حركة الجيش التركي، وتشـتيت ذهن قادتـه والهجوم بقواته علـى أراضـي الأناضول مـن الخلف عندمـا يضطر الجيـش العثمانـي لمغادرة الأماكن التي احتلها بعد معاناته من أزمة المؤن وظروف الطريق الوعرة. ويشرح مؤرخو الدولة الصفوية هذه الأوضاع بقولهم:

> "أرسـل الشـاه بعضًا من رجاله إلى المعابر التي يمر منها الجيش التركي مـن تبريز وحتى حدود الدولة العثمانية حتى يحرقوا جميع المسـاحات المزروعـة والحقـول في تلـك المنطقة. كما عمد سـكان تبريز إلى غلق جميـع عيـون المياه وقنواتهـا، ولم يبقَ أي مورد ميـاه في تلك المنطقة. ووصـل الشـاه إلى هضبة آشـقانبر، وبـدأ في الانتظار هناك. وقد أرسـل بعض قادته العسكريين إلى منطقة مرند الواقعة أقصى شمال غرب إيران".

ووصل السلطان سليمان من ولاية "سِيوَاسْ" إلى "أَرْضُرُومْ" في الشرق عبر طريق "صوشهري - أرزينجان - تيرجان". وأرسل خطابًا إلى الشاه "طهماسب" يدعـوه إلـى الحرب. وعندما وصل إلى منطقة "جُوبَـانْ كُوبْرُو (*Çobanköprü*)" في ولاية "أَرْضُرُومْ"، ألقت قواته القبض على أربعة جواسـيس صفويين أُرسـلوا إلـى الأناضول. وكان هؤلاء الجواسـيس يحملون رسـائل إلـى قبائل القزلباش فـي ولايـات "أَمَاسْـيَا" و"بُوزُوقْ" و"سِـيوَاسْ" و"توقات" تحرّضهـم على الثورة ضد الدولة العثمانية. فأمر السـلطان سليمان بإعدامهم على الفور، وبعث فرمانًا إلـى ابنـه الأمير مصطفى كـي يتخذ المزيد مـن التدابير الاحترازيـة ضد ثورات القزلباش في الأناضول. وكان السـلطان يطمـح إلى إنقاذ ولاية "وَانْ" من أيدي الصفويين في البداية. ولذلك، عندما وصل إلى منطقة "عَادِلْجَوَازْ (*Adilcevaz*)"

عبر طريق "حسـن قلعة - أرجيش (*Erciş*)"، أرسـل حاكم أَرْضُرُومْ "عُلَمَا بَاشَا" وحاكـم كرمـان "رمضان أوغلو بِيرِي بَاشَـا" لمهاجمة قلعـة "وَانْ". وعندما أبان برهان علي سلطان عن رسالة السلطان سليمان في دولة "شيروان" أذعن الجميع للأمـر، فأرسـل خطابًـا إلى السـلطان يخبره بـأن جميع مناطق "شـيروان" تقدّم فروض الطاعة والولاء له، مما أدخل السـرور إلى نفسـه. وبينما كان السـلطان يعتزم التوجّه صوب "وَانْ" بعد أن أرسل إليها كلًّا من "عُلَمَا بَاشَا" و"بِيرِي بَاشَا"، جـاءه نبـأ خروج جنـود القزلباش إلى منطقـة "كارافول"، فأمر بإرسـال "القاص مِيـرْزَا" وبعـض مـن القـوات العثمانيـة لردعهم. ووقعـت معركة بيـن الجانبين عنـد مراعي مدينة "مرند" الإيرانية، وتقهقرت قوات القزلباش واضطرت للعودة إلى داخل إيران والرجوع إلى الالتحام بقوات الشاه من جديد.

وصل السـلطان سـليمان إلى مدينة "خوي" يوم ٢١ تموز/يوليو. ثم انتقل منهـا إلـى منطقة "شـنب غازان (*Şenb-i Gazan*)" يوم ٢٨ من الشـهر ذاته، وأمر بإنشاء معسكره في ذلك المكان. وكان "القاص مِيرْزَا" عندما طرح على السلطان سـليمان فكـرة غـزو إيـران قـد أبلغه بـأن الشـاه "طهماسـب" هرب مـن تبريز، وأن أهالـي تبريـز ينتظرونـه علـى أحرّ من الجمـر. لكنه عندما وصـل إلى تبريز لم يستقبله أحدٌ من أهلها، كما فرّ بعضٌ من رجال "القاص مِيرْزَا" هاربين ولجأوا إلـى أخيه الشـاه. وعلى الرغم من ذلك، دخل السـلطان مدينـة تبريز دون قتال. ويذكـر بعض المؤرخيـن العثمانيين أن "القاص مِيـرْزَا" نُصِّب على عرش إيران بصفته ملكها الجديد، ويشير البعض الآخر إلى أنه أُسندت إليه إدارة تبريز فقط. ولقد وجّه السـلطان سـليمان تعليمات تحذيرية مشـددة لجنوده كي لا يتعرّضوا لأي شخص من أهالي تبريز. ولم يستسـغ السلطان بعض التصرّفات غير اللائقة التـي أقـدم عليها "القاص مِيرْزَا" فـي تبريز مثل نهْب قصر الشـاه، ونفي الصُنّاع والحرفييـن إلى الأراضـي العثمانية، وزيادة الضرائب بشـكل كبير، وحتى تنفيذ مجازر ضد السـكان المحليين. وقد أقام السـلطان سليمان في تبريز خمسة أيام، وآثـر بعدهـا العودة إلـى "وَانْ" بعدما أدرك أن كارثة محققة سـتقـع إذا ما مكث مزيـدًا من الوقت هنا بسـبب نقص الغذاء والمؤن. وشـهدت الفتـرة التي مكثها

السلطان في تبريز نفوق ٥ آلاف من الجياد والجمال التي كانت تخدم جيشه بعد أن اضطروا لأكل أوراق الشجر وقشورها لما ساءت حالتهم الصحية بسبب نقص العلف. فعانى الجيش العثماني من عدم وجود ما يركبه في طريق عودته إلى الأناضول. وبهذه الطريقة، أُجبر السلطان على إخلاء تبريز مجددًا في ثاني غزوة كبيرة يقوم بها إلى إيران (٢٣ جمادى الآخر ٩٥٥هـ - ١ آب/أغسطس ١٥٤٨م).

ووصل السلطان سليمان إلى "وَانْ" يوم ١٥ آب/أغسطس من العام نفسه، وأمر بإلحاق قوات الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" بقوات "عُلَمَا بَاشَا" و"بِيرِي بَاشَا" اللذين يحاصران قلعة "وَانْ". وبدأت القوات مجتمعةً في تشديد القصف على القلعة. ولكن الشاه "طهماسب" كان قد حصّن القلعة بحصون منيعة، وجهّزها بالمدافع والذخائر والقذائف اللازمة للدفاع عنها. وكانت هذه المدينة تعتبر بوابة العبور إلى منطقة أذربيجان شمال غرب إيران، وكان الصفويون يؤمنون بأن هذه المدينة لن تسقط في أيدي الأعداء ما دام يحكمها أمراء منتسبون إلى الأئمة الاثني عشر. وبدأت القلعة في الاهتزاز في مواجهة قذائف المدافع العثمانية. وقد طلب الحاكم الصفوي المسؤول عن تأمين القلعة "جبني (*Çepni*) شاه علي سلطان" من القوات العثمانية مهلة يومين لتسليم القلعة بعد أن أدرك أنه لن يستطيع المقاومة طويلًا. لكن القيادة العثمانية لاحظت مبادرة المدافعين عن القلعة في ترميم أبراج القلعة التي تهدّمت جرّاء القصف وإدخال المياه إلى القلعة خلال هذين اليومين، فواصلوا قصفهم لها دون هوادة. وبعد مدة خرج بعض رسل المدافعين عن القلعة عبر حبال تدلّت من داخلها وهم يحملون أكفانهم على رؤوسهم، وذهبوا إلى "القاص مِيرْزَا" وطلبوا منه التوسّط لطلب الأمان من السلطان سليمان. وقد قبل السلطان طلبهم هذا، وغادروا المدينة، ليتمكّن السلطان سليمان بعدها من بسط نفوذه على القلعة يوم ٢٤ آب/أغسطس. وتحوّلت "وَانْ" إلى إمارة مستقلة، وعين السلطانُ أمينَ المالية "صاري (*Sarı*) إِسْكَنْدَرْ شلبي" واليًا عليها وخصص له مبلغ مليون قطعة فضية، وترك معه ٥ آلاف من الجند المتطوعين.

لم يقم السلطان سليمان طويلًا في "وَانْ"، وتحرّك صوب ولاية "ديار بَكْر" لقضاء فصل الشتاء بها. وعلم الشاه "طهماسب" في ذلك الوقت أن الجيش العثماني استولى على "وَانْ" وذهب لقضاء فصل الشتاء في "ديار بَكْر"، فسارع إلى التحرّك، وإرسال قوات حاشدة من جيشه إلى مناطق "أرجيش"، و"أخلاط"، و"عادلجواز". وقد تعرّضت قوة عثمانية تراوح قوامها بين ٣ - ٥ آلاف جندي إلى هجوم الجيش الصفوي بينما كانوا يقومون بترميم قلعة ولاية "قارس (*Kars*)" تحت إدارة رئيس "عثمان شلبي" وعلي بَكْ الذي مُنح لقب البَاشَاوية، وهو في الوقت نفسه شقيق "ذُو الْقَادِرلي محمد خان". ونفّذت القوات الصفوية التي كان يقودها أكبر أبناء الشاه "إسماعيل مِيرْزَا" و"قاجارلي جوكجه سلطان" هجومًا مفاجئًا ضد القوات العثمانية، وهزموا الجنود العثمانيين المكلفين بحماية حوالي ٥ آلاف من عمال البناء ورؤسائهم الذين تم جمعهم من ولايات "أَمَاسْيَا"، و"توكاط"، و"سِيوَاسْ"، و"أَرْزِينْجَانْ"، و"أَرْضُرُومْ". ولم يتردد الجيش الصفوي في قتل الجنود العثمانيين الذين هرعوا للاحتماء بقلعة الولاية وطلبوا الأمان من القوات الصفوية. وعمدت القوات الصفوية إلى إحراق قلعة "قارس" وتدميرها، ولم يبق منها شيء إلا الخراب. بعدها بادرت قوات الشاه إلى تنظيم هجمات مشابهة على مناطق "باسين"، و"أَرْضُرُومْ"، و"بايبورت". وهمّت تلك القوات إلى إحراق وتهديم منازل ومساكن القرى والبلدات المتاخمة لمدينتيْ "عادلجواز" و"موش"، وارتكبت مجازر وحشية ضد أهالي منطقة "أخلاط". ولما وصلت أنباء قدوم طلائع الجيش العثماني، توجّه الشاه "طهماسب" صوب "أرزينجان" و"تيرجان"، وأمر جنوده بإضرام النيران في مدينة "أرزينجان". وقد أنشأ الشاه هناك قاعدة عسكرية لقيادة جيشه، وبدأ في عمليات القتل والنهب والسرقة في محيط تلك المنطقة. وفي ذلك التوقيت كان السلطان سليمان قد أرسل "القاص مِيرْزَا" إلى بغداد لتنظيم هجوم على مدينتيْ "قم (*Kum*)" و"كاشان (*Kâşân*)" الإيرانيتين، كما كلّف الوزيرَ الثالث أحمد بَاشَا بالتوجّه إلى "أرزينجان" للتصدّي لاعتداءات الشاه. وقد أرسل أحمد بَاشَا بدوره حاكم ولاية مالاطيا "عثمان بَكْ" برفقة ٧٠ جنديًّا للخروج في حملة استكشافية،

وتحـرّك هو بقواته من بعده. وعبر "عثمان بَكْ" مدينة "كيماه (*Kemah*)"، وشـنّ هجومًـا ليليًّـا مفاجئًـا علـى قوات الشـاه. وقام جيشـه بربط الأوانـي والمراجل النحاسـية التـي حصلـوا عليها مـن "كيماه" في ذيـول بعض الجيـاد، وأطلقوهم على جيش الصفويين محدثين ضجيجًا وضوضاء مفزعة. وقد شعر جنود الشاه بخـوف وهلـع شـديدين، وبدؤوا في اسـتلال السـيوف على بعضهـم البعض. ومـن ثـمّ انضمت هذه الكتيبـة العثمانية قليلـة العدد إلى هذا الصـراع، وبادروا بالهجـوم علـى الجنـود الصفوييـن المرتبكيـن. ومـا إن أشـرقت الشـمس، حتى شوهد الجيش الصفوي وقد تمزّق شرّ ممزّق. وعندما وصل أحمد بَاشَا بقواته فـي اليـوم التالـي لـم يجـد إلا خيـام الجنـود الصفويين خاويـةً. وفـي الواقـع، كان الشاه "طهماسب" وجنوده قد انسحبوا بسبب الفوضى العارمة التي اندلعت في تلك الأثناء ظنًّا منهم أن جيش السلطان سليمان قد وصل، وتوجّهوا صوب منطقة "قره داغ". ومن جانبه، عاد أحمد بَاشَـا، وأبلـغ السـلطان الذي وصل لتوّه إلى منطقة "بيرتك (*Pertek*)" هروب جيش الشاه.

لقد انطلق السـلطان سـليمان إلى "ديار بَكْر" بعد تلقّيه نبأ انسـحاب قوات الشاه، وأمر بتوزيـع جنوده على أماكن الإقامة لقضاء فصل الشتاء. وكان توزيـع الجنود لقضاء فصل الشتاء على النحو التالي: الوزير الثاني محمد بَاشَا في بغداد يرافقـه ١٥٠٠ جنـدي من الإنْكِشَـارِيّة، حاكـم الرُّومَلِي وجنوده فـي "ماردين"، حاكـم الأناضـول وجنوده في "أورفة". وأما السـلطان فقد انتقـل من "ديار بَكْر" التـي أقـام بها شـهرين إلى حلب لقضاء الشـتاء بهـا (٢٢ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٨م). وبينمـا هـو مقيـمٌ في حلب أتـاه ابنه الأميـر "بايزيد"، وشـرع الاثنان في قضاء أوقاتهما في الخروج في جولات الصيد. وخرج السلطان حتى وصل إلى حماة، وتجوّل بتلك المنطقة. وقد أقام في حلب لمدة ستة أشهر.

وصـل "ألقـاص مِيـرْزَا (*Elkas Mirza*)" إلى مدينة "همـدان (*Hemedan*)" بصحبه ٥ آلاف فارس بعدما طلب من السـلطان سـليمان الإغارة على المنطقة القريبـة من "أصفهان"، وسـمح السـلطان له بذلـك. وقد ألحق "القـاص مِيرْزَا"

هزيمة بقوات أخيه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" و"أوسطاجلو جراغ سلطان". ونهب خزائنهم وممتلكاتهم. وتقدّم بقواته حتى وصل إلى "قم" و"كاشان". وهناك اختطف "محمد بَكْ الأفشاري"، واحتلّ مدينة "قم". وحاصر مدينة "أصفهان"، وتقدّم حتى وصل إلى مدينة "شيراز" مركز بلاد فارس، ونهب ودمّر كافة المدن والقرى الواقعة على الطريق الموصلة إلى تلك المدينة. ولم يُهمِل "القاص مِيرْزَا" اختيار أفضل وأجود الأشياء التي اغتنمها، وأرسلها بواسطة "سيد عزيز الله الشيرواني" الذي كان يرافقه إلى السلطان سليمان الذي كان يقضي فصل الشتاء وقتئذ. وكان من بين تلك الأشياء كتب مكتوبة بعبارات رائعة، والأسلحة، وعطور المسك، والسجاد، والمجوهرات، ورسالة إلى السلطان. وقد أخبر "القاص مِيرْزَا" السلطانَ في هذه الرسالة أنه انتقم من الدمار الذي أحدثه الشاه "طهماسب" في ضواحي "أرزينجان". وأفضت هذه الهجمات التي شنّها "القاص مِيرْزَا" إلى دفع شقيقه الشاه إلى الخروج من مكان قضاء فصل الشتاء في "قاراجاباغ"، وتوجّهه صوب مدينة "قزوين" في محاولة منه لصدّ هجماته وحماية العراق من اعتداءاته. فأدّت هذه التحركات إلى انسحاب "القاص مِيرْزَا" إلى بغداد. وفي حقيقة الأمر، كان "القاص مِيرْزَا" لا يتورّع عن الإقدام على أعمال النهب والتخريب والحرق في كل مدينة كان يدخلها، وكان يتصرّف بفظاظة بالغة تجاه وطنه وشعبه.

وفي الوقت الذي أولى فيه السلطان سليمان اهتمامًا خاصًّا بالنظام والانضباط في تبريز حين فتحها، لدرجة أن جنوده "لم يروّعوا حتى دجاجة هربت من قنّها"، نجد أن "القاص مِيرْزَا" لم يتورّع عن ظلم أهل المدينة وتشريدهم وإشاعة المذابح بينهم. عندما انسحب "ألقاص مِيرْزَا" إلى بغداد، نزل إلى "كربلاء"، وزار ضريحيّ الإمامين "علي" وابنه "الحسين" رضي الله عنهما. وفُهم من ذلك أنه عاد مجددًا إلى اعتناق المذهب الشيعي. وقد أدّت هذه الحركة إلى سقوطه من نظر العثمانيين، وساءت علاقته بالصدر الأعظم. حتى إن الصدر الأعظم السابق "لطفي بَاشَا" -الذي ألّف كتابًا في التاريخ- يروي أن حاجب "القاص مِيرْزَا" بعد أن وجهت إليه بعض التهم أُعدم على الخُطّاف، مما هزّ كيان

هذا الأخير الذي كان مستاءً في الأساس من عدم تنصيبه على عرش إيران، كما كان منفعلًا بسبب إيفاد محمد بَاشَا إلى بغداد. وبينما كان السلطان سليمان يقيم في قصر "إيلمالي"، أرسل خطابًا وبعض الرجال إلى "القاص مِيرْزَا" يطلب منه المجيء للقائه، ففزع "القاص مِيرْزَا" من هذا الطلب، وتحجّج ببعض الحجج، ولم يلبِّ هذه الدعوة. ووجد نجاته في اللجوء إلى الأمراء الأكراد المتواجدين بجوار منطقة "شهر زور". ولقد احتمى "القاص مِيرْزَا" بقلعة "ميروان" الخاضعة لحكم "سُرهاب بَكْ" أحد قادة أكراد إمارة "إيرديلان". لكن شقيقه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" ما إن علم بوجود أخيه في هذه القلعة، حتى حاصرها بقواته. وألقى "بَهْرَامْ مِيرْزَا" القبض على شقيقه "القاص مِيرْزَا"، وحبسه في قلعة "آلاموت" الشهيرة شرق بحر قزوين. ثم أُلقي من فوقها ومات بعد ذلك بعدة أيام.

وفيما كان السلطان سليمان في مدينة حلب جاءه خطابٌ من ملك شيروان "برهان". وقد أخبره برهان علي سلطان في هذا الخطاب أنه أحرق ودمر بعض المناطق مثل "جينجه"، و"قره باغ"، و"موجان"، و"تاليش". وفي الوقت الذي كان السلطان سليمان يقضي فصل الشتاء برفقة كتيبة من الجنود العثمانيين، واصل حاكم "وَانْ" إِسْكَنْدَرْ بَاشَا هجماته وغاراته على الأراضي الصفوية. فتحرّك هذا الأخير بقواته حتى وصل إلى "شوكورو سعد" أو "روان"، وشنّ هجومًا على "خوي"، واستولى على القلعة وقتل "دونبوللو حاجي بَكْ" الذي خدم الدولة العثمانية فيما مضى، ومن ثَمّ انضمّ إلى الصفويين. ولقد أدخل هذا النجاح السرور على السلطان سليمان، إذ استطاع إِسْكَنْدَرْ بَاشَا الاستيلاء على "خوي" خلال فترة وجيزة. لكن غزوة جورجيا شغلت عقول العثمانيين كثيرًا. وكانت جورجيا في ذلك الوقت يوجد بها ثلاث حكومات مستقلة. وكانت إحدى هذه الحكومات تُدار بنظام الإمارة، وأما الاثنتان الأخريان فتُداران بنظام الملكية. في الشرق نجد مملكة "كارتلي (*Kartli*)" وعاصمتها "تفليس"، وفي الغرب مملكة "إيميرتي (*İmereti*)" وعاصمتها "قوتايس (*Kutayis*)"، وأما على ضفاف نهر "شوروه (*Çoruh*)" سنجد دولة الإمارة أو "ساميشا (*Samtskhe*)" وعاصمتها "آهيسها (*Ahısha*)". وكانت هذه الأخيرة على وجه الخصوص في صراع دائم

مـع الدولة العثمانية. ولقد اشـتبك حكام هذه الإمارة مـع حاكم ولاية أَرْضُرُومْ العثمانيـة "موسـى بَاشَـا" فـي وقتٍ كان السـلطان سـليمان فيه منشـغلًا بغزواته فـي أوروبـا، ونجحـوا في قتله. وقد هُزم "موسـى بَاشَـا" -وهو أحد المنتسـبين إلـى بنـي "إسـفنديار (*İsfendiyar*)"- في الغزوة التي شـنّها على جورجيا، وقُتل وقُطعت رأسه. فهرع حاكم "ديار بَكْر" "علي بَاشَا الخادم" لدعم القوات العثمانية ضد الجورجيين، واستطاع تحقيق النصر عليهم. لكنه لم يتمكّن من إنقاذ "موسى بَاشَا" من بين أيديهم، واستطاع فقط الحصول على رأسه المقطوعة.

وفي شهر تموز/يوليو عام ١٥٤٨م كُلِّف حاكم أَرْضُرُومْ "تكلو محمد بَاشَا" بمهاجمـة أراضـي هؤلاء الأمراء الجورجيين إثر تصرّفاتهـم العدائية ضد الدولة العثمانيـة. بغـرض الانتقام من هذه الإمـارة الجورجية النصرانيـة التي أعرضت عن البلاط العثماني، وولّت وجهها شـطر الشـاه "طهماسب"، وعمدت إلى قتل "موسـى بَاشَـا" حاكم أَرْضُرُومْ. وكان محمد بَاشَا قد دخل الأراضي الجورجية، وفرض حصارًا على قلعة "باراكان" يوم ١٦ آب/أغسـطس عام ١٥٤٨م، ونجح فـي الاسـتيلاء عليها بعد معارك دامية، لا سـيما وأن هـذه القلعة المحصنة تقـع في منطقة منحدرات صخرية. ثم بسط نفوذه على قلعة "كوميكا" بعد معركة حامية الوطيـس. كما حوصـرت قلعة "بينيك" وفُتحت هي الأخرى. وبعدها حوصرت حصـون "بارنـاك (*Parnak*)" و"كورميـك سـاماجار (*Körmik Samagar*)"، و"آها (*Aha*)" وسـقطت في أيدي العثمانيين. لكن الأمير الجورجي "كَيْخُسْـرَوْ (*Keyhüsrev*) الثانـي" اسـتطاع اسـتعادة بعـض هـذه القلاع بعد فتـرة كمنطقتيْ "نارمـان (*Narman*)" و"بينيـك (*Penek*)". حتـى إنـه احتـلّ مقاطعـة "ليفانـي" (بيرتيرك)، ووصل الجورجيون حتى حدود "إسبير". وبينما كان السلطان سليمان فـي طريقـه من حلـب إلى "ديـار بَكْر"، وصله خبـر هجوم أمـراء جورجيا على مراعي "قره داغ". فأرسـل الوزير الثالث أحمد بَاشَـا على رأس حملة عسـكرية إلى جورجيا. وتحرّك أحمد بَاشَا بتاريخ ٢٥ آب/أغسطس ١٥٤٩م يرافقه حكام وأمـراء ولايـات "أَرْضُـرُومْ"، و"قارامـان"، و"ذُو الْقَـادِر"، و"روم"، ووصـل إلى "أَرْضُرُومْ" يوم ٨ أيلول/سبتمبر من العام نفسه، وزوّد جيشه هناك ببعض المدافع

اللازمة لدكّ حصون العدو. ثم سار بجنوده حتى وصل إلى قلعة "تورتوم" التي اتخذها الأمير الجورجي "كَيْخُسْرَوْ الثاني" مركزًا لغزواته نظرًا لتحصُّنها بشكل مُحكم، وحاصرها، وعمد إلى قصفها بالقذائف المدفعية على مدار اليوم حتى بدأت أسوارها في التهدّم. فاضطر حُماة القلعة لتسليمها في نهاية المطاف. وعَيّن أحمد بَاشَا بعض القوات للدفاع عن "تورتوم"، ثم استكمل طريقه حتى فتح مدينتيْ "نيهاك" و"أميراهور". وقدِم الجيش بعد ذلك إلى منطقة "آقْجَه قلعة"، وتمكّن من بسط نفوذه عليها بعد معارك عنيفة. وعقب سقوط هذه القلعة في أيدي الجيش العثماني، أذعنت بعض القلاع الأخرى فيما بعد وقدّمت فروض الطاعة والولاء. وعليه، فقد استطاع العثمانيون فتح جميع المناطق الواقعة على طول نهر "تورتوم" من "نيهاك" وصولًا إلى قلعة "زخيك". ثم بسط أحمد بَاشَا سيطرته بعد ذلك على قلاع "كامهيس"، و"بينيسجرد"، و"أنزاف"، وسائر مناطق "آقجه قلعة". كما تمكّن من فتح ولاية "داف - إيلي" التي كانت تضمّ مناطق "أولتو"، و"تورتوم"، و"يوسف إيلي"، و"أردانوتش". وقُسّمت هذه المناطق إلى أربع مقاطعات، ودخلت ضمن النظام الإداري العثماني. وهذه المناطق هي مقاطعات "تورتوم"، و"آقجه قلعة"، و"غدير ليوانه"، و"كامهيس". وعُيّن أربعة حكام على هذه المقاطعات لإدارتها ومتابعة شؤونها.

وفي تلك الأثناء تحرّك السلطان سليمان من حلب متوجّهًا إلى إسطنبول (١٠ جمادى الآخرة ٩٥٦هـ - ٦ حزيران/يونيو ١٥٤٩م). لكنه عانى من مشكلة صحية قبيل وصوله إلى "ديار بَكْر". ولهذا السبب خلد إلى الراحة لفترة من الوقت في منطقة "قاراجاداغ". وعلى ما يبدو لم تكن مشاكله مع الصفويين والغزوة التي كان يدبّر لتنظيمها العام التالي سببًا في إقامته لفترة طويلة في حلب. وشهدت تلك الفترة ظهور علامات المرض الجدّية عليه. وكان السلطان قد أُصيب بمرض النقرس الذي سبّب له آلامًا مبرحة، وذلك بسبب إفراطه في تناول البروتينات، ما أفضى إلى تجمّع الدم وتبلوره داخل المفاصل. وكان خلوده للراحة في "قاراجاداغ (*Karacadağ*)" بسبب هذه الآلام. وقد أفادته الأجواء الحارة في تلك المنطقة وخفّفت آلامه ولو بشكل مؤقت.

وتعافـى السـلطان سـليمان خلال فتـرة قصيرة أثنـاء إقامته في "قاراجـاداغ". كما انتظر عودة الوزير أحمد بَاشَـا من جورجيا هناك أيضًا. وبعد أن عاد أحمد بَاشَـا من جورجيا يوم ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٤٩م، وتحسّنت حالته الصحية، انطلـق السـلطان سـليمان مـن "ديار بَكْـر" إلى إسـطنبول. ولما وصـل إلى ولاية "عانتب" أعلن لأمرائه وولاته أن رحلته قد انتهت، وأذن لهم بالعودة إلى ولاياتهم. وبعدها وصل إلى إسطنبول عبر طريق "آضَنَه - أولوقيشلا (*Ulukışla*) - قونيا" يوم ١ ذي الحجة عام ٩٥٧هـ (٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٤٩م).

وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان تأسيس ولاية "وَانْ" التي كانت تضمّ كذلك مدينة "هاكّاري" كنتيجة لغزوته الثانية إلى إيران. هذا إضافةً إلى اسـتيلاء قادته على المناطق المجاورة لنهر "جوروه" الخاضعة لحكام جورجيا، وألحقها بـإدارة دولتـه بعدما قسّـمها إلى أربع مقاطعات. وفي الوقت نفسـه اسـتطاعت دولـة "شـيروان" الحصـول علـى اسـتقلالها -ولو لفتـرة من الزمن- بمسـاعدة الدولة العثمانية. وعبر بعدها بفترة "أوسـطاجلو عبد الله خان" أراضي "شـيروان" في إحدى سـنوات خمسـينيات القرن السـادس عشـر، وبينما كان يمرّ فوق نهر "كـور"، كان حاكم شـيروان برهان علي سـلطان قـد وافته المنيـة. وحينها تولّى الحكـم في شـيروان شـخص يُدعى "مهراب" لم يسـتطع الصمـود في مواجهة الصفوييـن، ففـرّ هاربًا ولجـأ للإقامة في جزيرة في بحر "الخـزر". وأما "عبد الله خـان" فقـد كلّف بعضًا مـن رجاله بالعثور علـى قبر "برهان"، ولمـا وصلوا إليه قطعوا رأسـه. ثم سـار "عبد الله خان" إلى مدينة "شـيماهي"، وساهم في إخضاع "شيروان" لسيطرة قبائل القزلباش من جديد.

مرض السلطان سليمان

وبعـد أن عـاد السـلطان سـليمان إلى إسـطنبول، حتى بدأ فـي قضاء وقته فـي ولاية "أَدِرْنَه" التـي كان يخلد فيها للراحة ويبتعد عن قضايا الدولة المتعددة لفتـرات طويلـة. لكـن منـذ عام ١٥٥٠م بدأ في الشـعور بأن السـن قـد تقدّمت به، وربما بدأت أصعب أيام حياته حيث زاد عليه المرض واشـتدّ. وكان يشـعر

بالحاجة للخروج في غزوة جديدة تنسيه الفشل المرير الذي سيطر على غزوته الثانية إلى إيران. وقبل كل شيء، أمر ببناء جامع كبير وكلّية ملحقة به (٢٧ جمادى الأولى ٩٥٧هـ - ١٣ حزيران/يونيو ١٥٥٠م). وشارك بنفسه في مراسم وضع حجر الأساس لهذا الجامع، إذ وضع أول أحجار أساس ذلك الجامع شيخُ الإسلام "أبو السعود أفندي". واستمر بناء الجامع حتى عام ١٥٥٧م. لكن هذه الفترة شهدت ارتفاع حدّة التوتر والصراع الخفيّ بين أبنائه بسبب مرضه والبيئة النفسية التي تمخّضت عن جلوسه على العرش لفترة طويلة. وازداد نفوذ كلٍّ من "خُرّم سلطان" و"رستم بَاشَا" وحاشيتهما على السلطان سليمان. وأمّا هو فكان يفكّر في ابنه الأمير "سليم" كي يخلفه في الحكم. لكنه لم يكن ينوي التعرّض لعاقبة جدّه السلطان "بايزيد الثاني". وسعى لقيادة غزوتين كبيرتين في تلك الأثناء بنفسه على فترات متباعدة. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتشرت أنباء تدهور حالته الصحية في كل الولايات، حتى إنها وصلت إلى مسامع أبعد منافسيه. وأشار "كاتارولو فيسنتي بوتشيا" في خطاب أرسله إلى القصر الإسباني إلى أن السلطان سليمان أصبح عصبيًّا وحزينًا للغاية، موضحًا أن زوجته "خُرّم سلطان" تقوم بإعداد الأدوية المسكنة لتهدئته.

وأما الدبلوماسي البندقيّ "نافاجيرو (*Navagero*)" فيروي في تقرير أعدّه عام ١٥٥٣م أن معاناة السلطان الصحية ازدادت في الآونة الأخيرة بسبب مرض النقرس الذي ألمّ به، وأن أطباء القصر عاجزون عن إيجاد علاج لتسكين أوجاع السلطان، لكن في الوقت نفسه فإن حاشية القصر يبذلون جهدًا حثيثًا كي لا يسمع أحد بمرض السلطان. وفي الواقع، لم يكن لمرض السلطان علاج شاف. إذ إن الأدوية التي كان يصفها الأطباء للسلطان كانت من أجل تخفيف آلام المرض المبرحة. وبدأ مزاجٌ عصبي يسيطر على حالة السلطان سليمان مع مرور الوقت بسبب المرض. ويُفهم أن هذه الحالة النفسية التي كان يعيشها السلطان قد تحسنت واستعادت حيويتها مع تحوّل المنافسة بين أبنائه من السر إلى العلانية، هذا بالإضافة إلى التطورات التي كان يشهدها الغرب في ذلك الوقت. ويمكننا الحصول على معلومات حول أوضاع الإدارة في الدولة في تلك

الفترة إذا ما علمنا بالتقارير المؤرخة في عام ١٥٥١م التي تشير إلى أن السلطان سليمان لم يعد يعارض تدخل زوجته "خُرّم" في شؤون الدولة، وأنه أسند مهمة إدارة الأسطول إلى "سنان بَاشَا" شقيق زوج ابنته "رستم بَاشَا" بتأثير من "خُرّم" نفسها. وصار السلطان يؤثر السفر إلى "أَدِرْنَه" لقضاء أوقاته في ممارسة هواية الصيد كلما شعر بالضيق جرّاء قضايا دولته. وقد جذبت الأحداث المندلعة في إقليم "أَرْدَلْ" انتباه السلطان وجعلته لا يفكّر بشيء سواها. لكن يمكن القول إنه كان يحصل على معلومات متعلقة بالأنباء القادمة من كافة مناطق وأقاليم دولته.

قضية إقليم "أَرْدَلْ"

كان السلطان سليمان على علم تام بأهمية إقليم "أردل (*Erdel*) / ترانسيلفانيا (*Transilvanya*)" من أجلٍ أمن إمارة "بودا" في المَجَر. ولهذا السبب كان يتابع التطورات التي تحدث في هذا الإقليم عن كثب. وفي تلك الأثناء بدأت علاقة إمارة "أَرْدَلْ" مع آل "هابسبورج" تسوء بشكلٍ يهدّد اتفاق السلام الموقّع بين الطرفين عام ١٥٤٧م بسبب المكائد والمؤامرات التي كان يحيكها "مارتينوزي (*Martinuzzi*)" (فراتير جورجي (*Fráter György*) وتذكره المصادر التاريخية التركية باسم "باراتا (*Barata*)" الذي كان وصيًا على ملك أردل "يانوش سيجسموند (*Janos Sigismund*)". وكانت القوات العثمانية تسعى للحفاظ على أمن إمارة "بودا" في المقام الأول، وعليه فقد اضطرت للإقدام على تنفيذ حملة عسكرية جديدة على طول حدودها. وكما ذكرنا آنفًا حول خضوع "بودا" لسيطرة الدولة العثمانية، فإن الملكة "إيزابيلا" وابنها "يانوش سيجسموند" ذهبا إلى إمارة "أَرْدَلْ" ومدينة "ليبوفا". وكان هذه المدينة لديها مجلس يُسمى "توردا". وكان هذا المجلس هو صاحب الكلمة العليا في إدارة "أَرْدَلْ"، وقد أسهم هذا المجلس في نقل مركز الإمارة عام ١٥٤٢م إلى "بَلْغِرَاد – أردل". وبهذه الطريقة بدأت بذور استقلال المَجَر تُبذَر في أراضي "أَرْدَلْ" بشكل سرّي. وكان يرأس هذه الحركة القسّ "مارتينوزي". وقد نصّب هذا الأخير نفسه كنائب للملك الصغير (كوزبيرو). وقد شكّل "مارتينوزي" مجلسًا

مكونـا مـن ٢١ عضوًا من ممثلي المَجَريين والسـكليين والسكسـونيين من أهل "أَرْدَلْ". وبينمـا كان يقـوم بجميـع هذه الأمور، عمد "مارتينوزي" إلى ممارسـة بعـض الأعمال بغرض إلغاء السـيطرة العثمانية علـى "أَرْدَلْ"، وإلحاقها بأراضي آل "هابسـبورج"، وبالتالي المسـاهمة في احتلالهم الفعلـي للإقليم. ومن ناحية كان يـراوغ العثمانيين بخطاباته التي كانت تظهر حسـن نيتـه، ومن ناحية أخرى كان يبعث رسائل إلى "فرديناند" لإبلاغه بنيته الحقيقية، كما سعى لتوطيد علاقته به. وقد رغب "مارتينوزي" في تحرّك "فرديناند" لإخضاع الملكة "إيزابيلا" وابنها الملك الصغير لحمايته. وبعد كل هذه المحاولات، عقد "فرديناند" اتفاقًا سـرّيًّا مـع بعض رجال الملكة "إيزابيلا" في شـهر أيلول/سـبتمبر عام ١٥٤٩م. ونصّ هـذه الاتفـاق على إخـراج إمـارة "أَرْدَلْ" وكافة الأراضي المتاخمـة لضفتيْ نهر "تيزا" من تحت أيدي العثمانيين ومنحها إلى آل "هابسبورج".

كان "مارتينـوزي" يؤمـن يقينًا بإمكانية تنفيذ بنود هـذا الاتفاق. وقد خطط فـي حالة انكشـاف هذا الأمـر لتحميل هذه التهمة لغريمه السياسـي "بيتروفيتش (*Petrovics*)" الـذي كان مـن أحد رجـال الملكة "إيزابيلا". ذلك لأنه شـعر بأن الملكـة بـدأت تدريجيًّا في الشـعور بالضيق والحـرج من تصرفاتـه، وأردل أن يحمّل غريمه "بيتروفيتش" فشل هذه اللعبة السياسية كي ينأى بنفسه عن أي تهم أو عقوبات توجّه إليه. وتسببت الوقائع التي شهدتها الحدود مع النمسا ونشوب اختلافات جديدة بسـبب التأخر في سـداد الضرائب السـنوية في تبادل السـفراء بين الجانبين. وبعد فشـل الطرفين في التوصل إلى اتفاق خلال الاجتماع الذي عُقـد في مدينة "جنجوش" المَجَرية، أُرسـل السـفير العثماني "محمد شـاويش" إلـى فيينـا، وقد أبلـغ هذا الأخير السـلطان سـليمان لدى عودتـه بالتصريحات المثيرة للشـك التي أدلى به أرشـيدوق النمسـا حول إقليم "أَرْدَلْ". ولقد أحسّت الملكـة "إيزابيـلا" في تلـك الأثنـاء بالضيق من مكائـد "مارتينوزي"، وشـعرت أن عـرش ابنهـا يتعـرّض للتهديد. فلم تتردد في إرسـال شـكوى إلى السـلطان سـليمان تشـتكي فيها "مارتينـوزي" وتطلب العـون منه لمواجهتـه. وعليه، فقد أرسـل إليها السـلطان خطابًا يبلغها بأنه يقدّر الأخبار التي أرسـلتها حول "أَرْدَلْ"

قبل ذلك في شهر حزيران/يونيو عام ١٥٥٠م، وأخبرها بضرورة الانتباه إلى وضعية "فرديناند" وتحرّكاته. كما طالب السلطانُ في هذه الرسالة من نبلاء الشعوب الثلاثة المقيمة في المَجَر (المَجَريون - السيكيليون - السكسانيون) بإبعاد "مارتينوزي" عن الحكم وتسليمه إلى العثمانيين، وأبلغهم بلهجة حادّة بضرورة عدم خضوعهم إلا للملكة "إيزابيلا" ورجلها الصدوق "بيتروفيتش".

وأما "مارتينوزي" فحاول فجأة تحريف الحقائق عبر إرسال الرسائل والخطابات إلى إسطنبول كي لا يبوء بغضب الدولة العثمانية عليه. ومن ناحية أخرى أخذ في مضايقة الملكة "إيزابيلا"، وكان يقول لها إن مصلحة ابنها لن تتحقق إلا بعقد اتفاق مع الإمبراطور "فرديناند". وفي نهاية هذه المحاولات، بادرت "إيزابيلا" بالإعراض عن الدولة العثمانية، ووقّعت اتفاقًا آخر مع "فرديناند" عام ١٥٥١م. وقد نصّ هذا الاتفاق على أن يدفع "فرديناند" مبلغ ١٠٠ ألف قطعة ذهبية إلى "إيزابيلا" كمهرٍ لخطوبة بنتٍ من بناته على ابنها "يانوش سيجسموند"، ويحصل هذا الأخير بموجب هذا الاتفاق على لقب وَالِي مدينة "أوبوله".

وقد وافقت "إيزابيلا" على هذه الاتفاقية، وانسحبت حتى مدينة "كاسا" الواقعة على حدود المَجَر. وأما "مارتينوزي" فكان يبلغ السلطان سليمان بأن الأخبار المتعلقة بدخول النمساويين المَجَر عارية تمامًا عن الصحة ولا أساس لها. بيد أن حاكم "بودا" كان يطلع السلطان على الأوضاع في المَجَر أولًا بأول. وعليه، فقد أرسل السلطان سليمان فرمانًا يخاطب به شعب "أَرْدَلْ" حمل تاريخ ١ تموز/يوليو ١٥٥١م. وأوضح السلطان في هذا الفرمان أنه أصدر تعليمات بالتحقيق في هذا الأمر إلى كلٍّ من حاكم الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا"، وقوات "أفلاق" ومولدوفا، وتتارٍ منطقة "دوبروجا"، وخان القِرْم. وعندما تيقن السلطان من خيانة القسّ "مارتينوزي" واستيلاء آل "هابسبورج" على "أَرْدَلْ" ودخول قواتهم إلى الإقليم، استدعى سفير هابسبورج في إسطنبول "مالفيزي" إلى ديوانه، وطالبه بتوضيح الأمر حول هذا الشأن. فلم يعطه السفير جوابًا شافيًا، فأمر بإلقاء القبض عليه وإلقائه في السجن.

وشـهدت هذه الفترة وفاة حاكم "بُودَا" يحيى بَاشَا زاده محمد بَاشَا، فعُيّن "قاسم بَاشَا" خلفًا له. وأبلغ هذا الأخيرُ السلطانَ بأن آل "هابسبورج" عمدوا إلى تجهيز قواتهم العسكرية، وأنشأوا قلعة على الأراضي العثمانية في مدينة "سولنك" الحدودية. فأمر السلطان بهدم هذه القلعة على الفور، وأرسل خطابًا إلى "فرديناند" يخبره فيه أن شروعه في إنشاء قلعة على أراضٍ تركية يعتبر مخالفًا لمعاهدة السلام الموقعة بينهما. وبعد هذا الخطاب، أرسل "فرديناند" خطابًا آخر إلى الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" برّر فيه التصرفات التي أقدم عليها خلال الوقائع التي شهدتها "سولنك" و"أَرْدَلْ"، وأعرب عن رغبته في ألّا تتسبب هذه الأحداث في ظهور عداوة جديدة بين الدولتين. كما عبّر "فرديناند" في هذا الخطاب عن أمله في إطلاق سراح سفيره من سجنه. فأما السلطان سليمان فلم يلقِ بالًا لهذه الحجج الواهية، وأقدم على تعيين حاكم "ديار بَكْر" "علي بَاشَا الخادم" واليًا على "بودا" خلفًا لـ"قاسم بَاشَا" الذي تصرّف بتراخٍ ملحوظ في التعاطي مع قضية هدم قلعة "سولنك" التي كُلّف بالاهتمام بها.

وما إن اعترت الحساسية الأوضاع القائمة في إقليم "أَرْدَلْ"، حتى كلّف السلطان سليمان حاكم الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا" بشنّ هجوم على الإقليم. وانضمّ إلى قوات "سُوكُولّو محمد بَاشَا" حكّام مقاطعتي "سيمنديرة" و"نيبولو". وكانت مهمة حاكم "فيدين" قيادة قوات إمارة "أفلاق"، ومهمة حاكم "نيبولو" قيادة قوات إمارة مولودفا من أجل السيطرة على المناطق المحيطة بمنطقة "دوبروجا". وأما "سُوكُولّو محمد بَاشَا" فقد تحرّك من صُوفْيَا يوم ١٠ تموز/يوليو عام ١٥٥١م. ولقد واصل "مارتينوزي" خططه الماكرة للمراوغة كما ذكرنا آنفًا، ونجح في تسيير أموره لفترة من الوقت. حتى إنه استطاع تأخير تحرّك "سُوكُولّو محمد بَاشَا" إلى "أَرْدَلْ". وكان "مارتينوزي" يرسل الضرائب المستحقة على أقساط إلى البلاط العثماني، وكان يتحدث عن أن الوقائع التي تشهدها "أَرْدَلْ" هي من صنيع أشخاص آخرين غيره. لكن القائد العثماني "سُوكُولّو محمد بَاشَا" فطن إلى أن هذه الألاعيب التي يقوم بها "مارتينوزي" لكسب المزيد من الوقت، وقد جاءه أمرٌ بالسير بجنوده من صُوفْيَا صوب بَلْغِرَاد. وعندما عبر

"سُوكُولّو محمد بَاشَا" وادي "سِيرَمْ" ووصل إلى منطقة "سلانكامين"، لحقت به قوات حكام مقاطعات "فيدين" و"نيبولو" و"سيمنديرة"، إضافةً إلى ألفيْ جندي من الإنْكِشَارِيّة و١٥٠ مدفعًا أُرسلوا من إسطنبول. وكان يخضع لأوامره أيضًا الجنود المغاوير التابعون لوالي بودا "علي بَاشَا الخادم"، ووالي البُوسْنَة "عُلَمَا بَاشَا"، و" علي بَكْ ميخائيل أوغلو ". وقد تحرّك "سُوكُولّو محمد بَاشَا" من "سلانكامين" يوم ٧ أيلول/سبتمبر عام ١٥٥١م، حتي عبر نهر الطُونَة بالقرب من مدينة "بيترفأردلين"، ودخل "أَرْدَلْ" عبورًا بنهر "تِيسّا" بالقرب من قلعة "تيتل". وما إن وصل إلى هناك، حتى حاصر قلعة "بيتشة" بعد أن تمركزت المدافع والبنادق التي جلبتها السفن العثمانية عبر نهر الطُونَة، وبدأت حصار القلعة بقصفها بنيران تلك المدافع والبنادق. وبعد ثلاثة أيام من الحصار المتواصل، استطاعت القوات العثمانية الولوج إلى المدينة عبر الثقوب التي أحدثتها نيران مدافعهم في أسوار القلعة، ونجحوا في الانتقال في كل شوارع المدينة حتى بسطوا سيطرتهم عليها بالكامل. وبادر "سُوكُولّو محمد بَاشَا" إلى تكليف رجاله بترميم أسوار القلعة وحصونها، وعيّن حامية عليها. ثم توجّه بعدها إلى مدينة "بيتشكيريك"، بعدها سار إلى مدينة "تشاناد" الواقعة على ضفاف نهر "ماروش". وقام قائد المدافعين عن القلعة من الصرب "فيرينك" بتسليم مفاتيح القلعة إلى محمد بَاشَا. كما استطاعت القوات العثمانية بسط نفوذها على ١٢ قلعة في تلك المنطقة بالطريقة ذاتها.

توجّه "سُوكُولّو محمد بَاشَا" بعدها إلى مدينة "ليبوفا". وكانت قلعة هذه المدينة من أحصن القلاع وأقواها في "أَرْدَلْ"، وكان قائد تلك المدينة شخص يدعى "بيتو يانوش" وتحت إمرته قوة عسكرية قوامها ٢٠ ألف جندي. وبينما كان محمد بَاشَا في طريقه إلى "ليبوفا"، اشتبكت قوة استكشافية من العدو مع قوة استكشافية عثمانية، فهُزمت قوات العدو، واستطاع من نجا منهم الهروب إلى القلعة وإبلاغ قائدها بضخامة القوات العثمانية. وأدرك حينها القائد "بيتو يانوش" أنه لا فائدة من مقاومة القوات العثمانية، ففضّل الانسحاب بقواته إلى مدينة "تيميشوارا". وأدّى ذلك الوضع إلى استسلام أهل المدينة

وتسليمهم القلعة إلى الجيش العثماني مع قبول دفع جزية إلى الدولة العثمانية. وعمد "سُوكُولّو محمد بَاشَا" إلى إسناد إدارة المدينة إلى "عُلَمَا بَاشَا" يرافقه ٥ آلاف فارس ومائتان من جنود الإنْكِشَارِيّة لتأمين المدينة. وبعد أن سقطت مدينة "ليبوفا" بسهولة في أيدي العثمانيين، تحرّك محمد بَاشَا على رأس جيشه إلى مدينة "تيميشوارا" التي تعتبر مركز إقليم "بانات" غرب رومانيا. وكانت هذه المدينة تضمّ قوة عسكرية ذات عدد كبير مدعوم بالضباط والجنود المسلحين بالبنادق من الألمان والإيطاليين والإسبانيين. وبعد أن وصل محمد بَاشَا إلى مشارف المدينة، أمر جنوده بتثبيت مدافعهم أمام قلعتها، وأمطرها بوابلٍ من القذائف المدفعية. لكن العدو استطاع الصمود في وجه القوات العثمانية بفضل مساعدة العوامل الجوية غير المواتية له. فالأمطار الغزيرة ملأت جنبات المكان. ولم يقوَ الجيش العثماني على مقاومة قوات العدو في ظلّ الأجواء الباردة والأمطار الغزيرة. وفي نهاية الأمر، قرّر محمد بَاشَا رفع الحصار عن القلعة والانسحاب على أن يأتي على رأس حملة عسكرية جديدة بحلول فصل الربيع. فعرض الأمر على السلطان. وجاءه أمرٌ من السلطان بالانسحاب والإقامة في بَلْغِرَاد.

وبينما كانت القوات العثمانية منشغلة بحصار مدينة "تيميشوارا (*Temeşvar*)"، دخلت قوة عسكرية ضخمة من آل "هابسبورج" إقليم "أَرْدَلْ"، وبدأت في حصار قلعة مدينة "ليبوفا (*Lipova*)" (٤ تشرين الأول/أكتوبر). وكانت القوة العثمانية المتمركزة في "ليبوفا" بقيادة "عُلَمَا بَاشَا" عبارة عن ٥ آلاف جندي. وكان القسّ "مارتينوزي" يرافق القائد النمساوي "كاستالدو" أثناء حصاره لقلعة "ليبوفا". وقد ترقّى "مارتينوزي" إلى منصب الكاردينالية عرفانًا بالإنجازات التي حققها في "أَرْدَلْ".

وشرع "عُلَمَا بَاشَا" في الدفاع عن "ليبوفا" أمام جيش "هابسبورج" المكون من قوات ألمانية وإسبانية وإيطالية ومجرية. وشهدت المدينة اشتباكات عنيفة بين الطرفين، ولم يستطع الجيش العثماني قليل العدد الصمود طويلًا

في مواجهة جيش النمسا الجرّار حيث استشهد ٣٥٠٠ جندي عثماني أثناء الاشتباكات. وآثر "عُلَمَا بَاشَا" وقتها الانسحاب إلى داخل قلعة المدينة برفقة ١٥٠٠ من جنوده. وبدأ جيش النمسا في نهب مدينة "ليبوفا" وسرقة خيراتها، وفرض حصارًا على قلعتها. وفي الواقع، لم يكن العثمانيون يتوقعون بينما كانوا يستولون على "ليبوفا" أن يستهدف جيش "هابسبورج" هذه المدينة في البداية، ولهذا لم يفكّروا في تزويدها بالمؤن والحاجيات الأساسية اللازمة لأهلها وللقوات المدافعة عنها. وللسبب ذاته نفدت مؤن القوات العثمانية بالمدينة سريعًا. فأدرك "عُلَمَا بَاشَا" حينها أن الوضع سيسوء مع مرور الوقت، فعرض على القائد النمساوي "كاستالدو" الهدنة لمدة عشرين يومًا بتاريخ ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥١م. وجاء في العرض الذي قدّمه "عُلَمَا بَاشَا" أن تخرج القوات العثمانية بعد العشرين يومًا من القلعة، وتتوجّه صوب الحدود من دون التعرّض لها بأي أذى. وفي حالة قبول قائد الجيش النمساوي بهذا العرض، فإن الجيش العثماني سيسلّم قلعة "ليبوفا".

ولقد لعب القسّ "مارتينوزي" دورًا محوريًّا في إقناع قائد جيش "هابسبورج" بقبول هذا العرض العثماني. ولم يستطع "مارتينوزي" الحصول من آل "هابسبورج" على وعد أكثر من تولّي إدارة إحدى الولايات. ولقد طمح إلى استغلال هذه الوضعية الحرجة، ورغب في تنفيذ هذه الطموحات عبر إبرام اتفاق مع الدولة العثمانية. وبدأ في التواصل سرًّا مع "عُلَمَا بَاشَا"، وظنّ أنه سينال عفو السلطان سليمان إذا ما أظهر تأييده للمصالح العثمانية في المنطقة. وكانت مساعيه في خروج "عُلَمَا بَاشَا" والقوات التركية من "ليبوفا" من دون أذى ستعطيه فرصةً على طبق من ذهب في هذا الشأن. كما أنه قد حصل على وعدٍ من "عُلَمَا بَاشَا" بخصوص هذا الطلب. وتنفيذًا لبنود الاتفاق المبرم بين الطرفين، غادر "عُلَمَا بَاشَا" بعد انقضاء مدة الهدنة مدينة "ليبوفا" يوم ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥١م. حتى إن "مارتينوزي" أخبر "عُلَمَا بَاشَا" بأن قوة نمساوية قد نصبت فخًّا للقوات التركية وهي في طريقها للانسحاب. فأخذ القائد التركي هذا التحذير على محمل الجدّ، واجتهد في تفادي الاشتباك مع قوات "هابسبورج"

وهو في طريقه، إلا أنه تعرّض لهجوم مباغت من وحدات من الجيش النمساوي علـى إحـدى ضفاف نهـر "تاميش"، مما شـكّل تناقضًـا ملحوظًا لمـا اتفق عليه مـع قائد جيش "هابسبورج". وقد أُصيب "عُلَمَا بَاشَا" في هذه المعركة، واستطاع أن ينجو بنفسه وبصحبته ٣٠٠ جندي من قواته.

ولقد اعترى الشكُ القائد النمساوي "كاستالدو" من تصرّفات "مارتينوزي" المريبـة، وأحـسّ بالريبـة والقلق مـن تواصله مـع القائـد العثماني "عُلَمَا بَاشَـا" خِلسـةً. فهـمّ إلـى تقصـي الأمـر، ثمّ بـادر إلى إرسـال أنبـاء حول هـذا الصدد إلى "فرديناند". وبعد أن أجرى التحقيقات اللازمة حول نشاط "مارتينوزي"، علم "كاسـتالدو" أنـه متآمر مــع العثمانيين ويتخابر لصالحهم، كمـا وصلته خطابات تؤكّـد هذه الشـكوك. وعليـه، فكّر القائـد النمسـاوي وقتها جديًّا فـي التخلص مـن "مارتينوزي". وفـي نهاية المطاف، دخل أحد الجنود إلـى غرفة الدير الذي يعمل به "مارتينوزي" يوم ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥١م بحجة طلب التوقيـع على بعض الخطابات، وقتله بعدّة طعنات بالسكين وهو جالس على مكتبه.

وبعد أن اسـتولى "كاسـتالدو" على مدينة "ليبوفا"، سـار بجيشـه نحو مدينة "زيجيد" جنوب المَجَر للاسـتيلاء عليها هي الأخرى. وقد شـنّت قوة نمسـاوية قوامهـا ١٠ آلاف مـن الجنـود ورجـال الميليشـيات التي كان يُطلق عليها اسـم "هايـدوك"، هجومًـا علـى مدينـة "زيجيـد" بقيـادة قائـد حاميتها الأسـبق "توث ميخـلاي" عشـية يـوم ٢٨ شـباط/فبراير عـام ١٥٥٢م. واسـتطاعت هـذه القوة السـيطرة على ضواحي المدينة الخارجية بفضـل هذا الهجوم المباغت. فاضطر حاكـم مدينة "زيجيد" "ميخال زاده (*Mihalzâde*) خضر بَكْ" للانسـحاب بقواته إلى داخل قلعة المدينة، وبعث رسـالة إلى حاكم مدينة "بودا" يطلب منه العون. ولقد وصلت أنباء هذه الأوضاع إلى "سُوكُولّو محمد بَاشَا"، فتحرّك على الفور، وأرسـل حاكم سـيمنديرة "قاسم بَاشَـا" بقواته على الفور لنجدة مدينة "زيجيد". وكان أسرع من وصل إلى نجدة مدينة زيجيد هو وَالِي بودا "علي بَاشَا الخادم". وشنّ "توث ميخلاي" هجومًا على القلعة بعدما سيطر على المدينة بغزو مفاجئ،

إلا أنـه اضطـر للانسـحاب مرة أخـرى أمام حركـة مباغتة قام بهـا "خضر بَكْ". ثـم بعد ذلـك رأى قائد قـوات العدو جنودَ وَالِـي "بودا" أمامه، فسـحب جنوده إلى مشـارف المدينة، واسـتعد للقاء قوات "علي بَاشَـا الخادم". ووقعت معركة دامية بين الطرفين على مشارف مدينة "زيجيد". وألحقت القوات العثمانية هزيمة قاسـية بقوات القائد "توث ميخلاي"، مما دفعه للتخلّي عن ٥ آلاف من جنوده فـي ميدان المعركة، ونجا بنفسـه بشـقّ الأنفس مـن بين أيدي الجنـود الأتراك. وقد فرّ هاربًا من ميدان المعركة، وعبر نهر "تِيسّـا" سـباحةً، وتوارى عن الأنظار. وبعد أن حقق "علي بَاشَـا" هذا النصر الكبير على قوات العدو، كافأه السـلطان سليمان بإتحافه بهدية عبارة عن سيف وقفطان.

وبعد أن عاد "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" إلى بَلْغِرَاد، أردل السـلطان سـليمان إيجاد حل لقضية إقليم "أَرْدَلْ"، ولهذا عيّن الوزير الثاني "قارا أحمد بَاشَـا" قائدًا على المَجَر. وانطلق أحمد بَاشَـا من "أَدِرْنَه" يوم ٢٢ نيسـان/أبريل عام ١٥٥٢م ويرافقـه قـوة من الجنود والمدافـع. وفي تلك الأثناء، تعرّض "حمزة بَكْ" حاكم إمـارة "سـيكش فهيرفار" لهجوم مـن قادة مدينة "فسـبريم (*Vesprim*)" بينما كان فـي طريقـه لمكان عمله بصحبة مائتي فارس، وسـقط أسـيرًا فـي أيديهم. وكان جـزءٌ كبيـرٌ من مدينة "فسـبريم" قد أُنشـئ على ربـوةٍ عالية. وعندمـا وصل هذا النبـأ إلـى وَالِي بـودا "علي بَاشَـا الخادم"، توجّـه على رأس قواته إلى مشـارف "فسـبريم" فـي الأول من نيسـان/أبريل، وبـدأ في قصفها بقذائـف المدافـع على مدار عشـرة أيام متواصلة. وقد انضمّ إلى صف القوات العثمانية بعضٌ من قادة حاميـة المدينة، وبدأت مفاوضات الاستسـلام تجري مـع سـائر القادة الآخرين الموجوديـن بالقلعـة. وبينمـا الأمـر كذلـك، دخلت القـوات العثمانيـة المدينة واستولت عليها. وكلّف "علي بَاشَا الخادم" القائد "جعفر بَكْ" بتولّي أمر الدفاع عن مدينة "فسبريم"، وأَسَرَ القائد النمساوي، واصطحبه برفقته.

ما إن وصلت هذه الأنباء إلى الوزير الثاني "قارا أحمد بَاشَا"، حتى قدِم إلى بَلْغِرَاد يوم ١٥ أيار/مايو، والتقى مـع "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" الذي قضى فصل

الشـتاء بالمدينة ذاتها. وتحرّكت قوات القائديْن حتى وصلت إلى مشارف مدينة "تيميشـوارا" يـوم ٢٧ حزيران/يونيو عام ١٥٥٢م. وبعـد أن أعدّوا العدّة اللازمة لمحاصـرة قلعـة المدينـة، بـدؤوا في فـرض الحصار علـى القلعة بعـد أن ثبّتوا مدافعهـم فـي الأماكن المناسـبة. وكانت حامية القلعـة المحصنة بالكامل تحت قيادة "لوسـونزي إيسـتفان". وكانت حامية المدينة تردّ على هذا القصف العنيف بقصـف مماثـل وإطلاق نار من بنادق جنودهـا. ويذكر المؤرخ العثماني "جلال زاده" أن حاميـة القلعـة كانت تمطر الجيش العثمانـي بوابلٍ من قذائف المدفعية وطلقات البنادق كالسـيل المنهمر. كما أنهم كانوا يسارعون في ترميم الحصون والأسـوار التـي دكّتها المدافـع العثمانية. وكان أحمد بَاشَـا و"سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" يتجـوّلان بالمنطقـة المحيطة بأسـوار القلعة ويتابعان إجـراءات حصارها بُغيـة تحفيـز جنودهما والحفاظ على حماسـتهم على خلفية طـول أمد الحصار مـع مـرور الوقـت لمقاومة العـدو مقاومةً لا يُسـتهان بها. وبينمـا الأمر كذلك أُصيـب الجـواد الذي كان يمتطيه محمد بَاشَـا بقذيفة مدفعية، إلا أن هذا الأخير لم يتأثر بتلك الواقعة، وامتطى جوادًا آخر وواصل جولاته التفقدية حول وحدات المدفعيـة في جيشـه لرفـع الروح المعنوية لجنود الجيـش العثماني. وقد أفضى القصف المدفعي الشـديد إلى حدوث شـقوق وفتحات في أسـوار القلعة. لكن أحمد بَاشَا فطن إلى أنه لـم يحن الوقت بعد للهجوم، فاتخذ قرارًا بالتأنّي وعدم التسـرع والإقـدام على خطـوة كهذه. إلا أن هـذا القرار لم يلـقَ ترحيبًا من قادة جيشــه الذيــن بدأ صبرهم ينفد. ومن دون صــدور أمر بالهجوم من قيادة الجيش العثماني، أمر قادة الوحدات جنودهم بشـنّ هجوم فوري على القلعة. لكن هذا التسـرّع فـي الهجـوم تمخّضت عنـه نتائج كارثية، إذ استشـهد في هـذا الهجوم المباغـت ألفـان مـن جنـود العثمانيين، كما لقـي "مصطفى بَـكْ" حاكم مقاطعة "نيبولـو" حتفـه هـو الآخر. وفـي أعقاب تلـك الواقعة، وصل حاكـم الأناضول "حسـن بَاشَـا" وبصحبتـه المـؤن اللازمة للجيش. وقـد قوّت هذه المسـاعدات عزيمـة الجيـش العثمانـي المحاصـر للقلعـة، ومنحته أمـلًا جديدًا فـي النصر.

وأما "حسن بَاشَا" فقد تعرّض لهجوم من قبل قوات العدو وهو يسير في طريقه، إلا أنه استطاع تفريقهم والوصول بسلام وأمان إلى مركز قيادة الجيش العثماني. وفي مقابل ذلك، استطاع العثمانيون إفشال محاولة أقدم عليها "توث ميخلاي (*Toth Mihaly*)" قائد حامية مدينة "سيجيدين (*Segedin*)" لجلب المؤن والمساعدات إلى المدافعين عن القلعة. فقد لحقت به هزيمة نكراء من القوات العثمانية بينما كان في طريقه للتقدّم حتى مياه نهر "ماروش" بقصد مباغتة القوات العثمانية من الخلف وإيصال الدعم اللازم إلى حامية القلعة، وسقط ابنه أسيرًا في أيدي العثمانيين، بينما تمكّن هو من النجاة بنفسه بشقِّ الأنفس.

وفي يوم ٢٥ تموز/يوليو شهدت القلعة أعتى هجوم شُنّ عليها. فقد وجّهت القوات العثمانية هذا الهجوم إلى أقوى حصن من حصون القلعة بعد أن تحوّل إلى مكانٍ خرب بتأثير مدافع الجيش العثماني. وكان هذا المكان يُطلق عليه اسم "برج الماء". وتعرّضت القوات العسكرية لكلا الجانبين لخسائر فادحة في هذه المعركة. وعلى الرغم من ذلك، فشلت القوات العثمانية في اقتحام المدينة مجددًا. وعادت القوات العثمانية لشنّ هجوم مماثل في اليوم التالي، واستطاعت الاستيلاء على برج الماء. ولقد هزّت هذه الهزيمة وسقوط حصون القلعة في أيدي العثمانيين كيان حامية المدافعين عنها. وعليه، اتخذ قائد القوة المدافعة عن القلعة قرارًا بالاستسلام بضغط من جنوده، وأخبر القيادة العثمانية باستعدادهم لتسليم القلعة شريطة إطلاق سراح حاميتها من دون مضايقات. وعندما خرجت حامية القلعة من داخلها، عمد كلٌّ من "سُوكُولّو محمد بَاشَا" و"قاسم بَاشَا" إلى إحاطة أفرادها لحمايتهم من غضب الجنود العثمانيين. إلا أن أحد جنود الإنْكِشَارِيّة أقدم على التعرّض لأحد خوادم "لوسونزي" الذي كان يحمل درعه الذهبي مع حقيبة أو خوذة، فبادر "لوسونزي" بضربه بسيفه، كما ضرب حاجب الأمير التركي الذي حاول تهدئة الأوضاع في رأسه، فتبدّلت الأوضاع إلى حالة من الهرج والمرج. فأُحضر "لوسونزي" الذي أُصيب بجروح بالغة لمقابلة أحمد بَاشَا، فاتهمه أحمد بَاشَا بالخيانة، فردّ قائلًا:

"مـاذا أفعل؟! الشـعب لـم يتركني وشـأني، وقد كنت أقسـمت على أن أمـوت معهـم. وإلا لـكان رجـال كثيـرون من جنودكـم قد قُتلـوا حتى تستولوا على تيميشوارا".

وبعدهـا أدرك أحمـد بَاشَـا أن نسـبة شـفاء "لوسـونزي" مـن جراحه شـبه معدومة، فأمر على الفور بإعدامه. وقد ساهمت السيطرة على مدينة "تيميشوارا" إلى سقوط المزيد من القلاع المجاورة في أيدي العثمانيين. وكانت قلعة "ليبوفا" من ضمن هذه القلاع. كما استسـلمت مدينة "لوغـوج" للجيوش العثمانية. وقد بسـطت القوات العثمانية سيطرتها كذلك على عدد من القلاع الصغيرة والكبيرة فـي تلـك المنطقة. وبهذه الطريقة خضعت أراضي إقليم "بانات" بالكامل للنفوذ العثماني. وقد عيّنت الإدارة العثمانية ولاةً وحُكّامًا على هذه المدن، واستحدثت نظام الإمارات، ونُصّب "قاسم بَاشَا" أولًا حاكمًا على ولاية "تيميشوارا".

وفي الوقت الذي كان فيه "قارا أحمد بَاشَـا" يقوم بحملته العسـكرية، كان وَالِـي بـودا "علي بَاشَـا الخـادم" يهاجم قلعة مبنيـة على ربوة عاليـة يُطلق عليها اسـم "دريجيلي (*Dregely*)". واسـتطاع قائد القلعة "زونـدي جورجي" الصمود فـي مواجهـة القوات العثمانية إلى نهاية المطاف. وبعد أن سـقط قتيلًا برصاصة أصابته خلال الاشتباكات بين الجانبين، وقعت المدينة في يد الجيش العثماني. وأمـر "علـي بَاشَـا الخـادم" بدفـن جثمان هـذا الرجل الـذي دافـع عـن المدينة باسـتماتة أسفل القلعة، وثبّت على قبره حربةً ورايةً عرفانًا منه وتقديرًا لشجاعته المتناهية. ثم سار "علي بَاشَا الخادم" إلى مدينة "سيزسني (*Szecseny*)" واستولى عليهـا بسـهولة ويسـر. وكان في تلك الأثناء "يحيى بَاشَـا أرسـلان بَـكْ" حاكـم مدينـة "سيكشـفهيرفار" قـد هاجم بقوة قوامها ألفا جندي قلعة تُسـمى "سـالجو (*Salgo*)" واسـتولى عليهـا بحيلـة ماكـرة؛ إذ جلـب عروق الأشـجار السـميكة وثبّتهـا أمـام القلعـة على هيئة مدافـع، فظنّت حاميتها أن هـذه العروق عبارة عن مدافــع ضخمة، وسـلّمت القلعة بشـرط الخـروج منها مـن دون أذى. ثم نجح "أرسـلان بَكْ" في الاسـتيلاء على عدد من القلاع الأخرى مثل "صاج (*Sag*)"، و"جيورمـات (*Gyurmat*)"، و"بوجاك (*Bujak*)". وقد شـهدت هذه الفترة وقوع

اشتباك عسكري بين "علي بَاشَا الخادم" وقوة من جيش "هابسبورج" قوامها ٧ آلاف جندي في وادي "بالاست". وكان يقود هذه القوة النمساوية "إيراسموس تويفل" أحد قادة "فرديناند" العسكريين. والتقى الجيشان التركي والنمساوي في معركة دامية بالقرب من قلعة "فولك" يوم ١١ آب/أغسطس عام ١٥٥٢م. وقد تكبّد جيش "هابسبورج" خسائر فادحة في هذه المعركة. واستطاع "علي بَاشَا الخادم" بسط نفوذه على قلعة "فولك" بعد هذا الانتصار، وأسر أفراد الحامية المدافعة عن القلعة ومن بين هؤلاء الأسري القائد النمساوي "إيراسموس تويفل". ونُقل الأسرى الذين كان يبلغ عددهم ٤ آلاف شخص إلى مدينة "بودا". وأما "تويفل" فقد نُقل إلى إسطنبول. ثم بعدها شنّ "علي بَاشَا الخادم" هجومًا على قلعة "سولنوك"، واتحدت قواته بقوات "قارا أحمد بَاشَا" أمام تلك القلعة. وحاصرت القوات العثمانية قلعة هذه المدينة التي كانت تقع عند نقطة تقاطع نهريْ "زاجيفا" و"تِيسّا" وبالقرب من ضفاف هذين النهرين. وكان يدافع عن هذه القلعة قوة عسكرية قوامها ٣ آلاف جندي مسلح و٣٦ مدفعًا، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الذخيرة، إذ حصّنها النمساويون تحصينًا جيدًا لحمايتها. وكان قائد حامية الدفاع عن القلعة شخص يُدعى "لوران نياري". ولم يكن هذا الرجل قادرًا على الحيلولة دون نشوب خلافات بين الجنود الألمان والبوهيميين والمَجَر المدافعين عن القلعة، كما لم يجرؤ على مقاومة القوات العثمانية الغازية. وفي الوقت الذي بادر أفراد حامية القلعة إلى الهرب من أمام القوات العثمانية على أفواج، فشل قائد الحامية في إيجاد طريق للهرب هو الآخر، وأُلقي القبض عليه وأُحضر لمقابلة القائد العثماني أحمد بَاشَا (٤ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبهذه الطريقة استطاعت القوات العثمانية السيطرة على قلعة "سولنوك". ولقد لعب نجاح العثمانيين في الاستيلاء على تلك القلعة دورًا كبيرًا في تشجيعهم على التقدّم والسير نحو قلعة "أيري". وكانت هذه القلعة تتمركز في موضع في غاية الأهمية، وكان يُطلق عليها من قبل المَجَريين اسم "إيجير"، واللاتينيين اسم "أجريا"، والألمان اسم "أيرلاو". وكان مؤسس دولة المَجَر "إيستيفان" قد أنشأ أسقفية في هذه المدينة.

وصل "علي بَاشَا" إلى مشارف قلعة المدينة يوم ٩ أيلول/سبتمبر عام ١٥٥٢م، وبدأ في استعداداته لحصارها. وأرسل أحمد بَاشَا خطابًا إلى قائد القلعة "دوبو إيستيفان (*Dobo Istvan*)" يطلب منه تسليمها، إلا أن هذا الأخير لم يردّ على هذا الخطاب، وحبس الرسول. وبدأ حصار مدينة "أيري (*Eğri*)" بقصف مدفعي لأسوار قلعتها بأربعة مدافع ثبّتها "أرسلان بَكْ" حاكم "سيكشفهيرفار" في موقع قريب من ضواحي المدينة. وبينما كانت قوات "علي بَاشَا" تشرع في حصار المدينة، وصل أحمد بَاشَا إلى المدينة، وأقام خيمته برفقة "سُوكُولّو محمد بَاشَا" عند موقع "أجيديوس (*Aegidius*)" الواقع عند وادي نهر "إيجير" (١١ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبهذه الطريقة اشتدّ الحصار على قلعة المدينة بفضل تثبيت المدافع الكبيرة التي جلبها أحمد بَاشَا على التلال العالية المسيطرة على أغلب نواحي المدينة. ودافعت قوة عسكرية قوامها ألفا جندي من حامية القلعة عن المدينة باستماتة بقيادة "دوبو إيستيفان (*Dobo Istvan*)" ضد القوات التركية. كما شارك أهالي المدينة في الدفاع عن القلعة.

وقد أحدثت المدافع العثمانية خسائر كبيرة في أسوار القلعة التي بدأت تتداعى، فهمّ المدافعون عنها لترميمها وتحصينها مستخدمين البراميل المليئة بالرمال والملاط وغيرها من مواد البناء الأخرى. كما أنهم كانوا يحمونها بعناية عن طريق نشر قطع القماش والجلود المبللة على مخازن المؤن. وفي المقابل لم تكتفِ القوات العثمانية بقصف القلعة بالقذائف المدفعية، وبدأت في حفر الخنادق، ومحاولة فتح بعض القنوات حولها. وقد فشل هجومٌ شامل شنّته القوات العثمانية على القلعة يوم ٢٩ أيلول/سبتمبر. كما تكرّر هذا الهجوم بعدها بثلاثة أيام ولكن دون فائدة، وخسرت القوات العثمانية في هذه الهجمات ٨ آلاف جندي. وقد أدّت قذائف المدافع العثمانية إلى تدمير خزانات البارود الخاصة بقوات حامية الدفاع، مما نتج عنه معاناتهم من نقص البارود. إلا أن عزيمتهم عن الدفاع عن القلعة لم تفتر على الرغم من كافة هذه الصعاب. ونجحوا حتى في تدمير الأبراج التي صنعتها القوات العثمانية بالقرب من أسوار القلعة لعبورها ودخول القلعة. ومع طول حصار القلعة، اضطرت القوات

العثمانيـة لمكافحـة الظـروف الطبيعيـة والأحـوال الجوية الصعبـة، إلى جانب صمود حامية القلعة. ذلك لأن موسـم الشـتاء قد حلّ، وبدأت الأمطار والثلوج تهطـل. فأدرك أحمد بَاشَـا حينها أن الأمور سـتزداد سـوءًا، فقـرّر رفـع الحصار عـن القلعة كحيلـة أخيرة للتخلّص من هـذه المعاناة (١٩ تشـرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م). ولقد تأثّر أحمد بَاشَا كثيرًا من هذه الأوضاع السيئة، مما دفعه لتأنيب "علي بَاشَـا" الذي شـجّعه على غزو تلك المدينة. وأدّت هذه الأوضاع بعد فترة لسقوط "علي بَاشَا" من نظر أحمد بَاشَا.

وكانت قوة سكسونية بقيادة الأمير "ماوريس" في طريقها إلى دعم القوات المدافعـة عـن قلعـة مدينـة "أيـري"، إلا أن نبأ رفـع القـوات العثمانيـة الحصار عـن المدينـة وصلهـا وهي في الطريـق، فرجـع. ثم بعدها انشـغل النمسـاويون بتحصيـن المدينة وإحكام السـيطرة عليها. وقد شـكّلت هذه المحاولة الفاشـلة للجيـوش العثمانيـة فـي حصار مدينة "أيـري" واحدةً من ثلاث حملات فاشـلة أخفقـت فيهـا الدولـة العثمانية في عهد السـلطان سـليمان القانونـي إلى جانب حصـار فيينـا ومالطـا. وعُزل "علي بَاشَـا الخـادم" من منصبه عقب هذا الفشـل في حصار "أيري" بعد أن سقط من نظر الإدارة العثمانية، وعُيّن مكانه "تويجون بَاشَـا". وقـد حكم هذا الأخيـر مدينة "بودا" لعامين شـهدا أحداثًا مثيـرة للغاية. والسـبب فـي ذلـك أن المنطقـة الحدودية مـع النمسـا كانت تشـهد مناوشـات بين الجانبين بشـكل متواصل. وكان انشغال العثمانيين بصراعهم مـع الصفويين حافـزًا للنمسـا لمواصلـة اعتداءاتها علـى أراضي الدولـة العثمانية فـي أوروبا. وقد دفعت هذه الاعتداءات والتجاوزات من النمساويين على الأراضي العثمانية "تويجون بَاشَا" إلى الردّ بهجمات مماثلة. وأفضت هذه الغزوات التي شنّها هذا الأخير إلى سـقوط مدينتـيْ "بيتش" و"ناجيكانيزا" في قبضـة الجيوش العثمانية. وكان السـلطان سـليمان مسـرورًا لحلّ أزمـة إقليم "أَرْدَلْ" كمـا كان يريد. وكان هناك خبرٌ آخر قادم من البحر الأبيض المتوسـط أسـرّه كثيرًا وأنسـاه آلام مرضه لفترة من الوقت.

أنشطة "تورجوت رئيس" في البحر المتوسط وفتح طرابلس الغرب

اشتهر "تورجوت رئيس" كثيرًا في أقاليم البحر المتوسط وذاع صيته كخليفة لـ"بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين" على رأس الأسطول العثماني. وقد نقلت إحدى سفن أسطوله إلى البلاط العثماني بعض الأنباء ذات الصلة بالتطورات التي تشهدها منطقة البحر المتوسط، والأحداث المندلعة في مدينة "المهدية" وجزيرة "جربة" التونسيتين، بالإضافة إلى أوضاع الإسبان وأنشطتهم في تلك المنطقة.

وقد وُلد "تورجوت رئيس" في قرية "سيردالوز" أو "سيرالوز" التابعة لمدينة "موغلا (*Muğla*)" (بدروم) الساحلية جنوب غرب الأناضول. ولما كبر انضم إلى إحدى سفن القراصنة الذين كانوا يتلقون الدعم والزاد من سكان المناطق الساحلية في ولايتيْ "إِزْمِيرْ" و"منتشا (*Menteşe*)". حسب المعلومات التي يوردها أحد مؤرخي العهد العثماني وهو "جاليبولي مصطفى علي" في كتابه المعروف "كُنه الأخبار"، نجد أن المؤرخين الغربيين يروون أن "تورجوت رئيس" ينحدر من أصلٍ روميّ. كما تشير بعض مصادر البندقية التاريخية إلى أنه ذو أصلٍ إيطالي. وهناك مصادر تاريخية أخرى تؤكّد أن "تورجوت رئيس" كان يعمل إلى جانب القائد العثماني الإيطالي الأصل "أولوج علي". وتذكر المصادر التاريخية العثمانية أن "تورجوت رئيس"


"تُورْجُوتْ رئيس" البحار التركي الشهير

مارس العديد من فعّاليات القرصنة في بحريْ "إِيجَه" والأبيض المتوسط، ثم انضمّ إلـى قـوات بَرْبَرُوسْ في معركـة "بريفيزا". وتـروي المصادر ذاتهـا أن بَرْبَرُوسْ بعـد أن اسـتولى علـى قلعـة "نوفـا" وعاد إلـى إسـطنبول عام ١٥٣٩م، سـمح لـ"تورجـوت رئيـس" بمزاولـة أعمـال القرصنة بحريـة إلى جانب عـدد من قادة البحرية العثمانية الآخرين.

وقـد شـرع "تورجوت رئيـس" -أو كما اشـتهر آنذاك باسـم "تورجوتجا"- فـي ممارسـة أعمـال القرصنة لفترة من الوقت فـي مياه البندقية. ومـن ثَمّ انتقل إلـى المناطـق القريبـة مـن جزيـرة مالطـا بعد إبـرام معاهدة سـلام بيـن الدولة العثمانيـة والبندقيـة. وحينها طاف بسـواحل إيطاليا الغربية، ووصل إلى سـاحل مدينة "جنوة"، واسـتولى على سـفن أسـطول هذه المدينة الواحدة تلو الأخرى. ولقـد دفعـت هذه الأعمال التـي قام بها العديد من القادة الإيطاليين للاسـتنجاد بالبحار الشـهير "أندريا دوريا" لوقف نشـاطه في البحر المتوسـط بعدما اشتكوا منه ومن هجماته. فطاف "دوريا" بجميـع سواحل إفريقيا بحثًا عنه، إلا أن جميـع محاولاتـه لـم يُكتب لها النجاح. ولم يكن "دوريـا" هو الوحيد الذي يبحث عن "تورجـوت رئيـس"، بل كان ابـن أخيه "جينيتينـو دوريا" هو كذلـك يبذل جهدًا حثيثًـا لتحقيـق الغـرض ذاته. وبينما كان "تورجوت رئيس" منشـغلًا بالاسـتيلاء على جزيرة "كورسـيكا"، شـنّ أسـطول "جينيتو دوريا" هجومًا مباغتًا على سفن "تورجوت رئيس" وهي في حالة غير منظمة، مما أفضى إلى سـقوط ١١ سـفينة فـي أيـدي الإيطاليين. ولقد اسـتطاع القراصنة الأتراك الذين نزلوا إلى الشـاطئ إنقـاذ أنفسـهم بشـقّ الأنفس. إلا أن من بقي داخل السـفن العثمانيـة قُتل بعضٌ منهـم بأيدي الإيطاليين، والبعض الآخر سـقط أسـيرًا نتيجة هـذا الهجوم. وكان "تورجوت رئيس" من بين الأسرى. وفيما يلي نسرد رواية حول هذه الواقعة:

لقد اعترت "جينيتو دوريا" فرحة عارمة بعدما ألقى القبض على "تورجوت رئيس". وبعد تقييده بالسلاسـل، أُحضر "تورجوت رئيس" يرافقه حارسـان إلى مقابلـة القائـد الإيطالـي. وعندما رأى "تورجـوت رئيس" أنه لم يقـع أسـيرًا في

يد "أندريا دوريا"، بل أسـره فتى يافـع لـم ينبت شـاربه بعدُ، أعرب عن اندهاشـه وعجبه بقوله:

"يا إلهي! هل وقعت أسيرًا في يد فتاة بالغة؟!"

وما إن سـمـع "جينيتو دوريا" هذه العبارة حتى استشـاط غضبًا، واقترب من "تورجـوت رئيـس" ورفـع يده ليضربه، إلا أن "تورجـوت" التصق به بينما كانت كلتـا يديـه مكبلة بالأصفاد، ولـم يسـمح له بلطمه. فهمّ "جينيتو دوريا" باسـتلال سـيفه رغبـةً منه في قتـل "تورجوت"، لكن القـادة والحراس الذيـن كانوا حوله حالـوا دون ذلـك، ونقلوه للانضمام إلى بقية الأسـرى الذيـن يجدّفون مجادف السفينة. وعاش "تورجوتجا" حياة طويلة وشاقة في الأسر إلى أن خرج بَرْبَرُوسْ في غزوة إلى فرنسـا عام ١٥٤٣م. إذ أنقذه بَرْبَرُوسْ من الأسـر بالتهديد وبدفع الفدية، واستقبله بفرحة كبيرة عندما التحق بأسطوله. وأتحفه بالعديد من الهدايا حتى فاز بقلبه، وامتدحه أمام حاشيته بقوله:

"تورجوتجا أنفع منّي!".

وبعد أن نجا من الأسـر، اتخذ "تورجوت رئيس" جزيرة "جربة" التونسـية قاعدة لغزواته في البحر المتوسـط، وانطلق إلى جولة بحرية على رأس أسـطول صغيـر مكـون من ٥ سـفن. ووصل إلـى سـواحل إيطاليا وصقليـة، حتى أطلق جيش الإمبرطورية السـفن الإسـبانية لاعتراض طريقه، إلا أنها فشلت في اقتفاء أثـره والوصول إليه. وعلى الرغم من اتخـاذه جزيرة "جربة" قاعدة لتحركاته في البحر المتوسط، إلا أنه شعر بالحاجة لبسط نفوذه على مكان أكثر ملاءمة يسمح لـه بالخروج فـي غزواته البحرية بشـكل أكثر اطمئنانا وثقة. ولهذا السـبب بادر إلـى تنفيـذ بعـض المخططات الرامية للسـيطرة على بعـض المناطق في تونس، وعقـد اتفاقًـا مـع حاكم تونـس "سـلطان حميد". وقد نـصّ هـذا الاتفاق على أن يـزوّد حاكم تونس أسـطولَ "تورجوت رئيس" بالمـؤن والذخيرة مثل البارود وقذائـف المدافـع وغير ذلـك، وفي مقابل ذلك يتعهّد "تورجوت رئيس" بتقديم المسـاعدة لـه عند الحاجة. وعقب إبـرام هذا الاتفاق، عمـد "تورجوت رئيس"

إلى بسط نفوذه على قلاع مدن "سوسة"، و"صفاقس"، و"منستير" الخاضعة للحكم الإسباني على الرغم من تبعيتها في الأساس للحكومة التونسية. كما عيّن حاميات للدفاع عن تلك القلاع. وكانت قلعة "المهدية" من بين أهم القلاع التي استولى عليها "تورجوت رئيس" في شمال إفريقيا. وتقع مدينة "المهدية" وقلعتها عند رأس "بونة" (عنابة). وكانت هذه القلعة محصنة للغاية لإحاطتها بأسوار مزدوجة.

وشوهدت سفن "تورجوت رئيس" للمرة الأولى عند مشارف القلعة عام ١٥٤٩م، ومكث عدة أيام في ميناء المدينة بعدما حصل على إذن من واليها كي يتزوّد بما تحتاجه سفنه من مواد مختلفة. وشهدت الفترة اللاحقة على ذلك التاريخ تردد "تورجوت رئيس" مرات عديدة على المدينة، وصادف رجلًا طمّاعًا من كبراء المدينة يُدعى "إبراهيم". واتفق مع هذا الرجل على أن يعطيه نصيبًا معيّنًا من الغنائم التي كان يحصل عليها من عمليات القرصنة. وبهذه الطريقة استطاع "تورجوت رئيس" التردد على مدينة "المهدية" بحرية تامة لدى عودته من أسفاره البحرية، في مقابل منح "إبراهيم" بعضًا من غنائم عمليات القرصنة. وعلى الرغم من أن "إبراهيم" هذا بذل جهدًا كبيرًا لترسيخ دعائم ذلك الاتفاق، إلا أن مجلس المدينة لم يوافق عليه. ذلك لأن مجلس المدينة اتخذ هذا القرار خشية التعرّض لغضب قادة إسبانيا وجنوة. وما إن علم "تورجوت رئيس" بهذا القرار، حتى غادر المدينة على الفور، وبدأ في إعداد أسطوله خِلسةً في مدينتيْ "سوسة" و"منستير"، ثم انطلق على رأس أسطول صغير مكون من ٥-٦ سفن في ليلة حالكة إلى سواحل "المهدية". وساعده "إبراهيم" في دخول قلعة المدينة والسيطرة على أماكن حساسة داخل المدينة. وبعد أن استولى "تورجوت رئيس" على مدينة "المهدية"، أسند إدارتها إلى شقيقه "خضر"، وخرج مرةً أخرى على رأس أسطوله إلى غزواته البحرية.



القراصنة

لقد أُصيب الإسبان والإيطاليون بقلق وفزع كبيرين بعد فتح قلعة "المهدية" علـى يد "تورجوت رئيس". والسـبب في ذلـك أن فتح هذه المدينة يعتبر إضافة جديـدة إلـى قاعدة القرصنـة التي أسسـها القائد العثمانـي بَرْبَرُوسْ. وسـتؤدي هذه التطورات لاحقًا إلى اسـتحالة تجوّل السـفن الإسبانية والإيطالية في البحر المتوسط، وستتعرّض رحلات الأساطيل التجارية إلى ضربة قاصمة.

وقـد دفعـت هذه التداعيـات الإمبراطور "كَارْل الخامس" إلـى عقْد اجتماع برفقـة أعضاء مجلس الحرب، واتخذوا قرارًا بشـنّ غـزوة على مدينة "المهدية". وانطلـق "أندريـا دوريـا" علـى رأس أسـطول مكون من ٥٣ قادسًـا من إسـبانيا، ونابولـي، والفاتيكان، وصقلية، وسـار به حتى وصل إلـى "المهدية" وحاصرها. لكـن قـوات "دوريـا" عانت الأمرّين في الاسـتيلاء علـى هذه القلعـة الحصينة. حتى إن سـفينة قيادة أسـطول "دوريـا" أصابتها قذيفة مدفعيـة أُطلقت من داخل القلعة، بعدما رغب قادتها في عدم الاقتراب أكثر لتفادي قذائف المدفعية، فسقط ٣-٥ أشخاص قتلى جراء هذا القصف. وقد أدّت هذه الواقعة إلى إجبار مجلس

الحـرب علـى إعادة النظر فـي مخططاتهم، وقـرّروا في نهاية المطاف السـيطرة علـى مدينـة "منسـتير" فـي البداية. فانطلـق "دوريا" إلـى المدينة، وأنـزل جنوده إلى الساحل، واستولى على المدينة من دون مقاومة تُذكر. إلا أن القلعة الداخلية للمدينة قاومت كثيرا حتى إن حاميتها كبّدت القوات الإسبانية خسائر كبيرة.

وفـي مقابـل هـذه المقاومـة الباسـلة، اضطر "دوريـا" للتقهقر إلـى الخلف للحصول على دعم إضافي. وقد نشب خلاف بخصوص أسلوب إدارة أسطول "دوريا"، إلا أنه تمكّن من إيجاد حل لتلك المشكلة. ثمّ حاصر مدينة "المهدية" مجددًا، وأنزل جنوده إلى ساحلها (حزيران/يونيو ١٥٥٠م). وفي هذه الأثناء بادر "تورجوت رئيس" إلى توفير المؤن والتموين اللازم لأهل القلعة، ثم بعدها خرج علـى رأس أسـطوله من القلعة عازمًا على توفيـر التموين الضروري من الخارج لعلمـه أن القلعـة ستسـقط في أيدي الأعداء لا محالة إن لـم يأتها العون والمدد من خارجها.

وأمـا "خضـر رئيـس" الـذي أُسـندت إليـه مهمـة الدفاع عـن القلعـة، فبدأ فـي تحفيـز معنويـات حاميـة القلعة وأعدّهـم للدفاع عـن القلعـة. وكان يدافـع عـن القلعـة ١٧٠٠ جنـدي مشـاة و٦٠٠ فـارس. وعلـى الرغـم من هـذه القوة العسكرية الضعيفة، استطاع "خضر رئيس" الخروج من القلعة في هجوم مباغت شنّه على قوات العدو، وألحق بالقوات الإسبانية خسائر فادحة.

أعقب ذلك تنظيم الإسـبان هجومًا فاشـلًا للاستيلاء على القلعة. وأسفرت هذه الأوضاع عن وقوع القوات الإسـبانية في مأزق حقيقي، فهرع إلى نجدتهم حاكم تونس السابق "مَوْلَايْ حسن" الذي تسبب ابنه "حميد" في إصابته بالعمى وإبعاده عن عرش تونس. وبدأ جنود "مَوْلَايْ حسـن" في دعم القوات الإسـبانية في حربها ضد بني جلدتهم.

وقـد شـهدت هذه الفتـرة قيـام "تورجوت رئيـس" بهجوم عسـكري على السـواحل الإسـبانية والإيطاليـة. كمـا لجـأ إلى تونـس وجزيرة "جربة" وسـائر المـدن العربيـة الأخرى لتجميـع قوات إضافيـة لمواجهة أعدائه، حتى إنه وصل

إلـى جزيـرة "كيفالونيـا" اليونانية، وطلب المسـاعدة من السـلطان. لكنه بالرغم مـن كافة هذه المسـاعي الجـادّة لم يلقَ الاهتمـام الذي كان يأمل به. واسـتطاع فـي النهايـة تجميـع قـوة عسـكرية قوامهـا ٣٧٠٠ جنـديّ مغربيّ و٨٦٠ تركيًّـا، وسـار بهـم لمسـاندة حاميـة مدينـة "المهديـة". وأنـزل جنـوده إلـى السـاحل، وحينهـا رأى بعـض العمـال القادميـن مـن جزيـرة صقلية وهـم يقطعون أشـجار الزيتـون على السـاحل تحـت قيادة سَـريّة إسـبانية قوامهـا ٢٥٠ جنديًّـا. فأمـر جنـوده علـى الفـور بنصـب كميـن لقـوات العـدو، وعاجلهم بهجوم مباغت، إلا أنـه اضطر في النهاية إلى الانسـحاب والتوجّه صـوب جزيرة "جربة" بعدما


لوحة للسلطان سليمان معروضة في المتحف الوطني المجري

هاجمته قوات مالطا وصقلية، مما دفع جنوده إلى الهرب خشـية الهزيمة. وفي مقابل ذلك، صمد "خضر بَكْ" في دفاعه عن القلعة، وكبّد قوات العدو خسـائر بالجملة، بحيث استطاع الصمود ورفاقه في مواجهة القوات الإسبانية على مدار شهرين كاملين. ولم يتمكّن الإسبان من دخول القلعة إلا بعد استشهاد آخر جندي مـن القـوات المدافعـة عن المدينـة، وكان "خضر بَـكْ" من بين الشـهداء الذين سقطوا وهم يدافعون عن القلعة.

وبعد أن سـقطت "المهدية" في أيدي الإسـبان، أرسـل السـلطان سـليمان خطابًا إلى الإمبراطور "كَارْل الخامس" أخبره فيه أن هجوم قواته على "المهدية" علـى الرغـم من معاهدة السـلام المبرمـة بينهما تعتبـر انتهاكًا صارخًـا للاتفاق الموقـع بين دولتيهما. فردّ "كَارْل الخامس" بخطابٍ أنقذ به الوضـع، إذ أبلغه فيه أن المعاهدات الموقعة بين الحُكّام لا تشـمل القراصنة، وأن "تورجوت رئيس"

لا يخضع لحماية السلطان. فلم يستطع السلطان سليمان التفوّه بكلمة أمام هذه الحُجة، لكنه لم ينسَ هذه الكلمات التي قالها "كَارْل الخامس"، وحفظها للاستعانة بها عندما تحين الحاجة إليها. وقد طاف "تورجوت رئيس" بسواحل إيطاليا وإسبانيا لفترة من الوقت متأثرًا بانفعاله بموت أخيه، وعمد إلى تخريب ما وصلت إليه يده في هاتين الدولتين. ودفعت هذه الأنشطة "أندريا دوريا" إلى البحث عنه في كل مكان. وفي نهاية المطاف علم أنه متواجد في جزيرة "جربة". التي تقع أمام خليج "قابس" شرق تونس. وتوجد مساحة من المياه الضحلة للغاية بين هذه الجزيرة والبحيرة الواقعة في الساحل. وتبلغ المساحة بين رأس الجزيرة الجنوبي والساحل المقابل ميلين فقط، وتعدّ مياه هذه المنطقة ضحلة للغاية لدرجة أنه يمكن للإنسان العبور من الجزيرة إلى اليابسة سيرًا على الأقدام من دون الحاجة إلى السباحة في مياهها. ويوجد عند منتصف هذا المضيق قناة ضيقة بإمكان السفن بعمق ٢٠٠ متر المرور منها، ويُطلق على تلك المنطقة اسم "القنطرة". ولم تكن البحيرة الواقعة في الجزء الخلفي من المضيق تسمح بعبور السفن، إذ لم تكن أية سفينة بإمكانها الدوران حول هذه المنطقة للوصول إلى غرب جزيرة "جربة".

وبحلول خريف عام ١٥٥٠م قام "تورجوت رئيس" بسحب سفنه إلى ذلك المضيق، وانشغل بصيانتها وإصلاحها. وكان "أندريا دوريا" يبحث عن "تورجوت رئيس" في تلك الأثناء، حتى وصل أسطوله إلى جزيرة "جربة". وحينها شعر "تورجوت رئيس" أنه لن يستطيع مقاومة أسطول "دوريا" الضخم، ففضّل تنفيذ حيلة غريبة للغاية لإنقاذ نفسه وسفنه من أيدي الأعداء حيث بادر "تورجوت رئيس" بالإعداد الجيّد لصدّ هجوم سفن العدو، وبدأ في قصفها بالمدافع لمنعها من العبور من المضيق. فأمر "دوريا" جنوده بالنزول إلى الساحل، وقام بتنصيب أوتاد الإشارات (الأوتاد الإشارية) في النقاط العميقة بمنطقة "القنطرة" مستخدمًا السفن القادرة على الإبحار في المياه الضحلة. ذلك لأنه كان يظنّ أن "تورجوت رئيس" قد حوصر ولم تعد لديه فرصة في النجاة. ولم يشرع "دوريا" في الإقدام على تنفيذ هجوم لحصار المنطقة، وانتظر حتى تصله مساعدات طلبها من إيطاليا.

وفي النهاية، أُصيب بحالة من الدهشة والذهول بعدما جاءته أنباء عن قدوم السفن التي جلبت المساعدات، والتي كانت تبدو بعيدة عن الجزيرة. إذ أرسل إليه قبطان إحدى السفن التابع لفرسان "سانت جيان" رسالة أبلغه فيها أنه تحرّك بسفينتين من مدينة "ترابانـي"، وأنهم تعرّضوا لهجوم من أسطول "تورجوت رئيس" بينما كانوا في طريقهم إلى تونس، مما أسفر عن سقوط قادسٍ من نوع "كابودانا" في أيدي العثمانيين، مشيرًا إلى أنه استطاع إنقاذ نفسه بصعوبة بالغة من بين أيديهم.

وما إن سمع "دوريا" هذه الأنباء، حتى اعترته مشاعر الحيرة والقلق. ثم بعد ذلك سارع إلى الاقتراب بسفنه من الميناء، ولم يجد أحدًا هناك سوى السكان العرب المحليين. بيد أن "تورجوت رئيس" كان قد زرع أوتادًا في الطريق بواسطة بعض العمال الذين استأجرهم من أهالي جزيرة "جربة" في وقتٍ كان "دوريا" منشغلًا فيه بحصار الجزيرة، واستطاع بفضل هذه الأوتاد نقل سفنه من المياه الضحلة إلى البحر العميق. وكانت هذه الفكرة من الأفكار التي لجأ إليها السلطان محمد الفاتح إبّان حصاره لمدينة إسطنبول أثناء فتحها. وفي الوقت الذي دخل فيه "دوريا" ميناء الجزيرة بسفنه وسط حيرة ودهشة، كان "تورجوت رئيس" قد أبحر بأسطوله إلى "بحر الجزر" منذ وقت طويل.

وصل "تورجوت رئيس" إلى بحر "إِيجَه"، وأرسل إحدى سفن أسطوله إلى السلطان سليمان لينقل إليه آخر الأنباء المتعلقة بالأحداث التي شهدتها مدينة "المهدية" وجزيرة "جربة" في شمال إفريقيا. وقد سُرّ السلطان سليمان كثيرًا بلجوء "تورجوت رئيس" إليه، إذ كان السلطان عازمًا على تنفيذ المخطط ذاته الذي كان ينفذّه "تورجوت" ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس". وأمر السلطانُ "تورجوت رئيس" بالانتظار في جزيرة "وابية". وكان الأسطول العثماني يخضع لعملية إعداد كبيرة في إسطنبول. إذ كان السلطان سليمان يهدف من وراء تجهيز الأسطول إلى شنّ هجوم شامل على القلاع النصرانية المبنية على السواحل التونسية، وتطهيرها من القراصنة. وأعدّت القيادة العسكرية العثمانية في ربيع

عام ١٥٥١م أسـطولًا مكوّنًا من ٩٠ قادسًـا، وعليه قوة قوامها ١٠ آلاف جندي منهم ٣٥٠٠ من الإِنْكِشَـارِيّة. والتقى هذا الأسـطول بقيادة "سنان بَاشَا" بأسطول "تورجـوت رئيـس" عند جزيرة "وابية" في بحـر "إِيجَه"، وتحرّك الجميع صوب مدينة "بريفيزا". وقد وصلت أخبار التحرّكات التي تشـهدها الترسانات العثمانية إلـى مسـامع قادة الجيـش الإسـباني. ولأنهم لا يعلمـون الهدف الذي يسـعى العثمانيون لتنفيذه، بادروا إلى تحصين بعض الأماكن التي تحمل أهمية بالنسـبة لهـم ضـد أي هجوم محتمل من الأسـطول العثماني. وجـاءت مدينة "المهدية" في مقدمة المدن التي كثّفوا تحصيناتها لصدّ أي هجوم محتمل.

عبرت سفن الأسطول العثماني البحر الأيوني، ووصلت إلى مضيق "مسينا"، وطافـت لفتـرة مـن الوقت في تلك المنطقـة. ومن ثمّ أنزلت دفعـات من الجنود على البر، ودمّر بعض الأماكن على الساحل. ثم توجّه الأسطول بعدها إلى مالطا التي كان "كَارْل الخامس" قد منحها إلى فرسـان "سـانت جيان" في وقت سـابق للجوء إليها والإقامة بها بعد مغادرتهم جزيرة "رودس". ووصل الأسطول العثماني إلـى سـواحل مالطـا يـوم ١٨ تموز/يوليو عـام ١٥٥١م. وعلى الرغـم من إصدار "سنان بَاشَا" -قائد الأسطول- أوامره بإنزال الجنود إلى الساحل، تراجع بعد ذلك عن حصار مالطا، وسار بأسطوله نحو طرابلس الغرب.

وكانت تلك المدينة قد سقطت في يد مملكة نورمان صقلية بعد أن حكمها الأمويون، والعباسـيون، والأغالبة، والفاطميون. ثم بسـطت دولة "موحد الدين" سـيطرتها علـى المدينة، ثم اسـتولت عليها أسـرة بني حفص التـي كانت تحكم تونـس. وفـي عام ١٥١٠م وقعت في أيدي الإسـبان الذين منحوها عام ١٥٣٠م إلى فرسـان "سـانت جيان" المسـتوطنين في مالطا. وما إن هجم النصارى على هذه المدينة، حتى همّ المسلمون للدفاع عنها، إذ اتخذوا قلعة "تاجوراء" الواقعة شرق طرابلس قاعدة لهم لمهاجمة أعدائهم. إلا أنهم لجأوا إلى الدولة العثمانية لطلب المساعدة بعدما أدركوا أنهم لن يستطيعوا مواجهة أعدائهم بمفردهم نظرًا لقلة عددهم وعتادهم. فأرسـل السلطان سليمان أحد أغاوات "أندرون" ويُدعى

"مراد أغا الخادم" إلى سواحل شمال إفريقيا لدعم المسلمين هناك. وبدأ هذا الرجل في مقاومة فرسان مالطا المقيمين في طرابلس، إلا أنه فشل في التصدّي لهجماتهم، وسارع لطلب المزيد من المساعدة من السلطان سليمان.

وعندما وصل قائد الأسطول العثماني "سنان بَاشَا" إلى مشارف "طرابلس الغرب"، حتى فتح قناة للاتصال مع "مراد أغا"، كما طالب "جاسبارد دي فاليير" قائد فرسان مالطا في طرابلس بتسليم المدينة. وعندما علم "سنان بَاشَا" أن هؤلاء لن يتراجعوا عن الدفاع عن المدينة، حاصر المدينة وبدأ في الإعداد لمهاجمتها. وكانت تضمّ قلعة المدينة -بخلاف فرسان مالطا- جنودًا فرنسيين، وإيطاليين، وإسبان، وحتى مغاربة مسلمين. فأنزل "سنان بَاشَا" إلى الساحل ٦ آلاف جندي و٤٠ مدفعًا، وبدأ في حصار القلعة وقصفها بالقذائف المدفعية. وكثّفت القوات العثمانية قذائفها على الأماكن الضعيفة من أسوار القلعة بعد تحديدها، حتى تصدّعت أسوارها وفُتحت بها الثقوب. وفطنت حامية المدينة وقتها أنها لن تستطيع الصمود طويلًا أمام هذا الهجوم الضاري، فأبلغوا "سنان بَاشَا" باستعدادهم للاستسلام والتخلّي عن المدينة بشرط عدم المساس بأهلها وممتلكاتهم، وتزويدهم بالسفن اللازمة للمغادرة إلى مالطا وصقلية. وعليه، فقد سقطت القلعة في أيدي القوات العثمانية يوم ١٢ شعبان عام ٩٥٨هـ (١٥ آب/أغسطس ١٥٥١م). وعندما دخل "سنان بَاشَا" المدينة أسند إدارتها إلى حاكم تاجوراء "مراد أغا".

لم يندهش "تورجوت رئيس" من إسناد مهمة إدارة طرابلس إلى "مراد أغا"، إذ إن علاقته بـ"سنان بَاشَا" كانت قد ساءت منذ حصار جزيرة مالطا. ذلك لأن الاثنين دخلا في خلاف حاد بخصوص حصار مالطا. وحينما أدرك "سنان بَاشَا" التحصينات التي تتمتع بها قلعة الجزيرة، التفت إلى "تورجوت رئيس" وقال له:

> "هل هذه القلعة التي أخبرتني أن غزوها سهل؟ فليس هناك أي نسر يرغب في أن يبني عشّه في مكان أعلى وأكثر انحدارًا من الصخرة التي بُنيت عليها تلك القلعة".

فردّ عليه "تورجوت رئيس" قائلًا:

"لا يمكنك بلع اللقمة دون أن تمضغها. حاول أن تتذّكر ماذا فعل الإسبان عندما هاجموا قلعة مدينة المهدية من قبل".

وحينها عاجله "سنان بَاشَا" بقوله:

"قل لي ماذا فعلوا إذًا؟"

فأجابه "تورجوت" بجوابٍ أفحمه جاء فيه:

"هل أقول لك ماذا فعلوا؟! لقد حاربوا وضحوا بأنفسهم في سبيل الاستيلاء على القلعة، وسقط منهم العديد من القتلى من أجل تحقيق هذا الهدف".

وقد أدّى هذا الخلاف إلى نشوب حالة من عدم التفاهم بينهما، لا سيما وأن "سنان بَاشَا" كان يخشى من تهديد "تورجوت" لمنصبه بفضل قدراته المتميزة وشجاعته وشهرته التي كان يتمتع بها. وللسبب ذاته بدأ "سنان بَاشَا" في استثقال "تورجوت" ومعاملته بطريقة سيئة. وقد امتعض "تورجوت رئيس" من إسناد أمور إدارة طرابلس الغرب إلى "مراد أغا"، وقرّر الخروج إلى البحر برفقة أصدقائه. وعندما رأى سفن الأسطول تسير خلفه، صدّهم وأمرهم بالعودة، وأخبرهم بأن فتح طرابلس قد تمّ ونفذ رغبة السلطان سليمان، وأنه الآن حرٌ يفعل ما يشاء، وأن الأسطول العثماني يخضع لأوامر القبطان "سنان بَاشَا". وعلى الأرجح فإنه وافق على الانضمام إلى الأسطول بعدما ألحّ عليه "سنان بَاشَا" وسائر قادة الأسطول الآخرين، ورضي بالعودة إلى إسطنبول. وبعد فتح طرابلس الغرب عام ١٥٥١م، التحق "تورجوت رئيس" بالأسطول العثماني الذي أبحر لمساعدة الفرنسيين عام ١٥٥٢م. وتشير إحدى الوثائق التاريخية الموجودة في مكتبة متحف قصر "طُوبْ قَابِي" بإسطنبول إلى أن "تورجوت" تولّى إدارة إمارة "قارلي" بتاريخ ١٥ نيسان/أبريل ١٥٢٢م.

حملة بحرية مشتركة مع فرنسا

بدأت الأجواء في البحر المتوسط في التوتّر في تلك الأثناء، إذ كان ملك فرنسا "هنري الثاني" قد أرسل خطابًا إلى إسطنبول يطلب المساعدة إثر تجدد الخلافات الناشبة مع "كَارْل الخامس". وقد أعلن هذا الأخير الحرب على فرنسا بتاريخ ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٥٥١م. إلا أن السلطان سليمان لم يأخذ طلب العون القادم من فرنسا على محمل الجد في البداية لعلمه بمعاملة الفرنسيين السابقة لقائد أسطوله بَرْبَرُوسْ ، ورفض الطلب الفرنسي قائلًا:

"ملك فرنسا لا يفي بوعوده قطّ!"

لكن السفير الفرنسي في إسطنبول استطاع استمالة وزراء البلاط العثماني بالهدايا القيمة التي قدمها إليهم.

وقرّر السلطان سليمان في نهاية الأمر الموافقة على طلب مساعدة فرنسا بشرط حصوله على جميع الأسرى والغنائم والبضائع والسفن التي ستستولي عليها القوات العثمانية والفرنسية من أسطول التحالف.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هناك أسبابا أخرى كامنة وراء موافقة السلطان سليمان على تقديم المساعدة للفرنسيين بخلاف هذه المعلومات التي وردت أعلاه. فالسلطان كان يرى أن تشكيل فرنسا لجبهة تحالف جديدة سيكون مناسبًا من أجل تنفيذه خططه بسبب الاشتباكات الحدودية الدائرة حول ولايتيْ "أَرْدَلْ" و"بودا". وقد أشار السلطان إلى هذه الأوضاع بشكل واضح في رسالتيْن أرسلهما إلى ملك فرنسا بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو ١٥٥٢م. وأكّد السلطان في الرسالة الأولى أن "فرديناند" بدأ في التصرّف بمكرٍ وحيلةٍ، وبالتالي فلا يمكن الثقة به بعد الآن، كما أنه لا يمكن الأخذ بعين الاعتبار أي رسول أو سفير يأتي من طرفه. وأما الرسالة الثانية فذكرت أن الدولة العثمانية وافقت على طلب فرنسا بعدم الإغارة على الأقاليم التابعة للبابا، كما أن قواتها لن تهاجم المناطق

التي تربطها صداقة بفرنسا، مشدّدةً على أن هذا الأمر لا ينطبق على التعامل مع الأراضي الإسبانية. وفي الوقت الذي وافق فيه السلطان سليمان على إرسال أسطوله لمساندة الفرنسيين وعدم التعرّض لأراضي البابا حليفهم، أبلغهم أنه لن يتبع السياسة ذاتها مع الإسبان. وطالب -في مقابل هذه المساعدات- الفرنسيينَ بعدم التحالف مع عدوه "فرديناند"، ورَفْض استقبال أي رسول يرسله آل "هابسبورج" إلى فرنسا.

لقد وصلت هاتان الرسالتان إلى ملك فرنسا أواسط شهر حزيران/يونيو، وكان الأسطول العثماني قد بدأ في استعداداته للإبحار في فصل الربيع من العام نفسه. وجاء "تورجوت رئيس" -حاكم إمارة "قارلي إيلي"- أمرٌ بتاريخ ١٥ أبريل/ نيسان ١٥٥٢م من أجل الالتقاء بقوات "سنان بَاشَا"، والانضمام إلى الأسطول الذي سينطلق لتقديم المساعدة لفرنسا. ثم بعد ذلك أُرسل أمرٌ إلى حاكم الجزائر وقائد الأسطول العثماني "سنان بَاشَا" بتاريخ ٢ أيار/مايو ١٥٥٢م لإخباره بأنه تقرّر تحديد ميناء "أنابولو" للقاء بين الأسطولين العثماني والفرنسي[٨٥].

وقد أبحر الأسطول العثماني المكون من ١٠٣ قوادس بقيادة "سنان بَاشَا" في ربيع عام ١٥٥٢م. وكان الأسطول العثماني يضم سفن "تورجوت رئيس" حاكم إمارة "قارلي إيلي"، كما شارك السفير الفرنسي "جابريل دي أرمون" في هذه الغزوة بثلاث سفن. حتى إن القيادة العثمانية أرسلت أمرًا إلى رئيس البلدية بتاريخ ٥ حزيران/يونيو لتزويد سفينة السفير الفرنسي بالبارود[٨٦].

ووصل الأسطول العثماني إلى سواحل مدينة "ريدجو" الإيطالية في أوائل شهر تموز/يوليو، ثم انفصل "تورجوت رئيس" باثنتي عشرة سفينة من سفن الأسطول وشرع في الهجوم على جزيرة "صقلية". ولم يكن الأسطول العثماني قد استطاع مقابلة الأسطول الفرنسي في ميناء "أنابولو" كما كان متفقًا عليه، فأرسل قائد الأسطول "سنان بَاشَا" رسالة إلى السفير الفرنسي "دي أرمون"

(٨٥) *(K.888. s.202 b-207 b; 167 a)*

(٨٦) *(K.888. s.211 a)*

يسـأله عن سـبب تأخر الأسـطول الفرنسـي، فأجابه الأخير بأن السـبب في ذاك ربما يكون اعتراض "أندريا دوريا" بأسـطوله طريق الأسـطول الفرنسي، موضحًا أنه يمكن مقابلة الأسـطول الفرنسـي إذا ما كانت السـفن العثمانية سـتتحرك من سـواحل إيطاليـا نحو الشـمال. وعليـه، بدأت السـفن العثمانية فـي التقدّم نحو الشـمال متعقبةً السـواحل الإيطالية. وفي تلك الأثناء وردت معلومات تشير إلى أن أسـطول "دوريا" سـيبحر إلى تلك المنطقة أيضًا. وحينها راجـع "سـنان بَاشَا" رفيقـه "تورجوت رئيس" وتشـاور معه حـول التدابير التي مـن الممكن اتخاذها للتعامـل مـع هجوم محتمـل يقوم بـه "دوريا"، فقـال له "تورجـوت رئيس" إن "دوريا" سيسـلك طريقًا بين جزيرة "بونزا" وسـاحل اليابسة، وعرض عليه نصب كمين لأسطوله في تلك المنطقة.

ثم تحرّك الأسطول العثماني ووصل إلى سواحل جزيرة "بونزا" بعد الموافقة على مقترح "تورجوت رئيس". وبدأت إدارة الأسطول العثماني في صيانة السفن وتزويدهـا بمـا ينقصها مـن ناحية، ومن ناحية أخرى أخذت فـي التأهّب انتظارًا لسـفن أسـطول "دوريا". وكان "دوريا" في ذلك الوقت في طريقه نحو "نابولي" مرورًا بالسـواحل الإيطالية يسـير بحذرٍ شـديد. وبادر إلى إرسـال المسـتطلعين لتمشيط المنطقة للوقوف على المخاطر التي من الممكن أن تواجهه في رحلته. وعلم "دوريا" وقتها أن الأسـطول العثماني قد توجّه إلى جزيرة "بونزا"، فجمع أعضاء مجلس الحرب واتفقوا جميعًا على مواصلة الطريق شريطة المرور بعيدًا عـن جزيـرة "بونـزا". وعندما وصل أسـطوله إلـى الجزيرة لم يرَ أي أثر للسـفن العثمانية، مما جعله يستكمل طريقه بثقة كاملة. ثم بعد ذلك أدرك أن "تورجوت رئيـس" يتعقّب أسـطوله من الخلف بأسـطول قوامه ١٢ سـفينة، فلم يرغب في الدخول في اشـتباك معه، وأمر سـفنه بالإسـراع في التقدّم في طريقها للخلاص من هذا الخطر. وفي مقابل ذلك، قامت سفن "تورجوت رئيس" بالاستيلاء على ٧ سـفن من أسـطول "دوريا" كانت تسير في الخلف بعد أن انطلقت بقية السفن مسرعة في طريقها. وربما استطاع "دوريا" النجاة بنفسه من هزيمة محققة بفضل سرعة سفنه (٥ آب/أغسطس ١٥٥٢م).

لقد فضّل "سنان بَاشَا" البقاء بأسطوله في سواحل جزيرة "بونزا" لفترة من الوقت، ثم انطلق مجددًا للعودة إلى إسطنبول. وكان الأسطول الفرنسي قد تأخر في اللحاق بركب السفن العثمانية بسبب تغيير قائده. وبعد أن وجد الفرنسيون حلًا لهذه المسألة، انطلق أسطولهم إلى مضيق "مسينا" للقاء الأسطول العثماني، لكنهم علموا حينها أن السفن العثمانية انطلقت عائدةً إلى إسطنبول. فأسرعت السفن الفرنسية إلى الانطلاق هي الأخرى للحاق بركب الأسطول العثماني. وأدرك الأسطول الفرنسي السفنَ العثمانية وهي راسية في إحدى الجزر القريبة من جزيرة "ليفكادا" اليونانية وبحّارتها منشغلون بتزييتها وصيانتها. وقد أعرب قائد الأسطول الفرنسي المكون من ٢٤ سفينة عن رغبته في عدم العودة إلى فرنسا لاقتراب حلول قضاء فصل الشتاء، وأفاد بأنه يريد قضاء الشتاء في جزيرة "خيوس"، كما طلب إذنا من قيادة الأسطول العثماني من أجل الذهاب إلى إسطنبول برفقة السفير الفرنسي. ووصل هذا الطلب إلى السلطان سليمان عن طريق قائد الأسطول "سنان بَاشَا"، وأخبرهم السلطان بأنه لا يمانع في قضائهم فصل الشتاء في جزيرة "خيوس" (٢٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م). وبناءً على هذا الإذن السلطاني، قضى الأسطول الفرنسي فصل الشتاء في جزيرة "خيوس"[(٨٧)]. ثم بعد ذلك وصل السفراء الفرنسيون إلى إسطنبول بعد الموافقة على طلبهم، والتقوا السلطان سليمان والصدر الأعظم "رستم بَاشَا". وأسفر هذا اللقاء عن صدور قرار بتنظيم غزوة جديدة مشتركة بين الأسطولين العثماني والفرنسي إلى سواحل إيطاليا.

وقد أرسل السلطان سليمان رسالةً بتاريخ ٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٢م إلى "تورجوت رئيس" الذي عاد من رحلة دعم الأسطول الفرنسي برفقة "سنان بَاشَا" أخبره فيها أنه علم بالإنجازات التي حقّقها في المناوشات التي وقعت مع "دوريا" خلال هذه الرحلة من "سنان بَاشَا". وخاطبه بقوله:

---

(٨٧) *(KK.888, s.448 b)*

"... لقـد شـاركتَ فـي العديد مـن الغـزوات، وأظهرتَ العـام الماضي شجاعة وبسالة كبيرتين، فأنت خادمي المطيـع مظهر الجلادة والشهامة. بيّـض الله وجهـك. وما نتمنّاه هو أن تقـدّم المزيد من الخدمات وتبيّض وجوهنا في غزوات قادمة..."

وأبلغـه أنه عيّنـه للحفاظ على أمن هذه المناطق على رأس أسـطول مكون من ٤٠-٥٠ سفينة، ذلك لأن موسم الغزوات لم ينتهِ بعد. كما أخبره أنه أضاف مبلـغ ٤٠ ألـف قطعة فضية إلى دخله في مقابل هذه الخدمات[٨٨]. وعلاوة على ذلك، صدر أمرٌ إلى قائد الأسـطول "سـنان بَاشَـا" العائد من السـفر إلى سواحل "روملي" بالقرب من جزيرة "ليفكادا" لصيانة الأسطول بتاريخ ٢٨ آب/أغسطس (٧ رمضان) يخبره بأنه تم تكليف "تورجوت رئيس" بالدفاع عن المناطق البحرية الخاضعة للدولة، وأنه يجب عليه -أي "سنان بَاشَا"- القدوم فورًا إلى إسطنبول ببقية سـفن الأسـطول باستثناء السفن التي تُركت تحت قيادة "تورجوت رئيس". وهـذا يوضح لنا أن الدولة العثمانية قد اتخذت قرارًا نهائيًّا بالخروج بأسـطولها في غزوة مشتركة مع الفرنسيين.

تحـرّك الأسـطول العثمانـي بقيـادة "سـنان بَاشَـا" من إسـطنبول في شـهر نيسـان/أبريل عام ١٥٥٣م. ثم وصل إلى جزيرتيْ "وابية" و"مودون" واتحد مـع أسـطول "تورجوت رئيس"، بعد ذلك توجّهوا جميعًا نحو مضيق "مسينا". وكان الأسـطول العثماني مؤلفا من ١٥٠ سـفينة منها ٢٠ قادسًـا فرنسـيًا، و٥٠ قادسًـا مملوكًا للقراصنة. وبدأ الأسـطول المشـترك العثماني - الفرنسي في البحث عن سفن "أندريا دوريا"، بحيث أنزل جنوده إلى سواحل "صقلية" و"كاتانيا"، وشرع في قصف السـواحل الإيطالية. ثم صدر قرارٌ من إدارة الأسـطول بالهجوم على جزيـرة "كورسـيكا" بمقترح من الفرنسـيين. وحاصر الأسـطول مدينة "باسـتيا" التـي تعتبـر مركـز الجزيـرة، وهزمت القـوات العثمانية - الفرنسـية قـوة قوامها ٤ آلاف فـارس و٣ آلاف جنـدي مشـاة جـاءت لمسـاندة حاميـة المدينـة.

(٨٨) *(K.888, s.430 a*

وفي النهاية، استسلمت المدينة بتاريخ ١٧ آب/أغسطس ١٥٥٣م. وأعطت قوات التحالف العثماني - الفرنسي الأمان لنحو ٤٠-٥٠ من نبلاء المدينة، وأسرت الباقي. ثم بعد ذلك أُطلق سراح حوالي ٧ آلاف سجين مسلم محبوسين في سجون المدينة. وقد نُقل هؤلاء السجناء أثناء عودة الأسطول العثماني إلى مدينة "فلورة" الألبانية وأُسكنوا بها.

"بِيرِي رئيس" ومسألة أسطول الهند

تشير المصادر التاريخية إلى أن السلطان سليمان بدأ بعد عودته من غزوته الثانية إلى إيران في الاهتمام بشؤون الأسطول العثماني في الهند، إضافةً إلى الأحداث التي شهدها البحر الأبيض المتوسط في الأساس. فلقد استمر الصراع العثماني - البرتغالي في البحر أيضًا عقب عودة "سليمان بَاشَا الخادم" من غزوة الهند. وقد أولى العثمانيون اهتمامًا أكبر بأسطولهم في البحر الأحمر بعد أول غزوة قاموا بها إلى الهند. وكان "فرهاد بَكْ" يتولّى منصب قائد الأسطول المصري قبل أن يُعيّن واليًا على اليمن، فعُيّن مكانه "بِيرِي رئيس" قائدًا على أسطول الهند (١٥٤٧م). و"بِيرِي رئيس" هو ابن شقيق البحار الشهير "كمال رئيس"، إذ شارك معه في العديد من الغزوات البحرية. وبعد وفاة "كمال رئيس"، عمل "بِيرِي رئيس" لمدة في الأسطول العثماني تحت إدارة بَرْبَرُوسْ.


جزء من خريطة العالم، رسمها "بيري رئيس"، وتظهر المحيط الأطلسي وأسبانيا وشمال غرب إفريقيا، وشمال شرق ووسط أمريكا، ويعود تاريخها إلى شهر أبريل/نيسان عام ١٥١٣م. متحف قصر "طوب قابي"

وانضمّ إلى أسطول الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا الذي انطلق إلى مصر بحرًا في عهد السلطان سليمان، وشغل منصب مرشد الأسطول في هذه الرحلة.

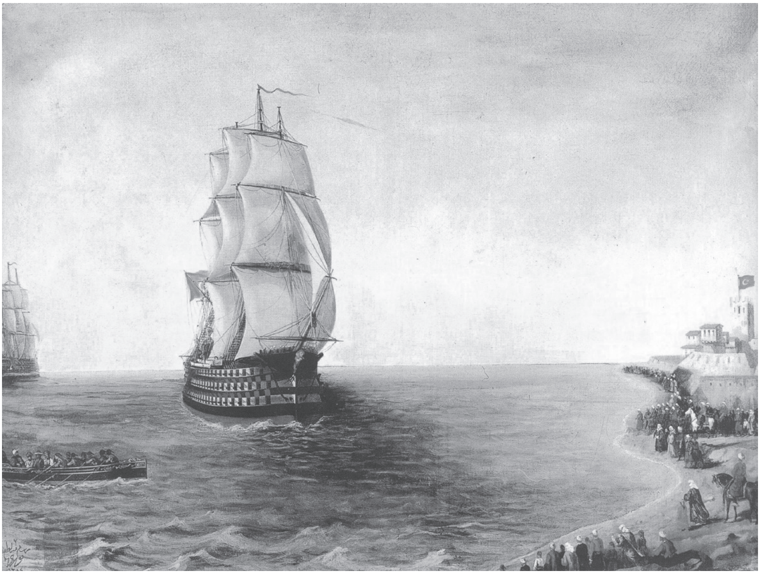
وقد عرض كتابه الشهير "كتاب البحرية" الذي ألّفه عن علوم البحار على الصدر الأعظم، ثم أهداه إلى السلطان سليمان عام ٩٣٢هـ (١٥٢٦م)، وأتحفه أيضًا بخريطة للعالم رسمها بيده عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨م). وتحمل الخريطة التي رسمها بيده أهمية كبيرة نظرًا لأنها كانت تضمّ القارة الأمريكية. وكان كتابه "كتاب البحرية" يضمّ خرائط سواحل بحريْ "إِيجَه" والأبيض المتوسط، وتظهر الموانئ الواقعة على تلك السواحل. وكان "بِيرِي رئيس" قد تقدّم به العمر عندما أُسندت إليه إدارة الأسطول المصري في السويس.

وفي تلك الأثناء استولى البرتغاليون على "عدن". وكان خروج تلك المدينة من أيدي العثمانيين يعني خسارةً إستراتيجية كبيرة بالنسبة لهم. وبهذه الطريقة، استطاع البرتغاليون بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة عند مخرج البحر الأحمر في الجنوب، بحيث شكّلت هذه الحادثة تهديدًا حقيقيًّا للمصالح الاقتصادية العثمانية في هذه المنطقة. ولهذا السبب تحرّكت القوات العثمانية بقيادة "بِيرِي رئيس" على الفور، واستطاعت إعادة سيطرتها على قلعة "عدن" بتاريخ ١٢ شباط/فبراير ١٥٤٩م. هذا إلى جانب أن العثمانيين حصّنوا المناطق الخاضعة لسيطرتهم في اليمن، وبسطوا نفوذهم على منطقتيْ "البصرة" و"الإحساء"، مما أصاب البرتغاليين بهلعٍ كبير. ذلك لأن القوات العثمانية كانت تهدد قلعة مضيق "هرمز" الذي يعتبر النقطة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها للسيطرة على مداخل ومخارج الخليج العربي. كما كان العثمانيون قد استولوا على منطقة "القطيف" قبل عام ١٥٥٠م بقليل، مما ألقى الرعب والخوف في قلوب البرتغاليين. وقد أدّت كافة هذه الوقائع إلى فشل البرتغاليين في إظهار هيمنتهم في البحر الأحمر، مما دفعهم في نهاية المطاف إلى التحرّك بُغية إيقاف سيطرة العثمانيين في الخليج العربي وطردهم من المناطق الساحلية التي استوطنوا بها في تلك المنطقة. فتوجّه البرتغاليون عام ١٥٥٠م إلى منطقة "القطيف"،

واسـتطاعوا تحقيـق نصر مؤقـت أمام قوة عثمانية قوامهـا ٦٠٠ جندي. إلا أنهم تعرّضـوا لهزيمـة فادحة عندما حاولوا التقـدّم أكثر في مياه الخليج العربي. وفي مقابل هذه الهجمات التي شـنّها البرتغاليون، بادر العثمانيون إلى إعداد أسـطول من أجل الإبحار في غزوات في المحيط الهندي.

وفـي الوقـت الـذي كان فيـه "بِيـرِي رئيس" يعـدّ العدّة من أجـل الخروج فـي غـزوة إلى الهنـد، صدرت أوامر لحاكـم البصرة "قوباد بَاشَـا" بإعداد جيش مـن ١٥ ألـف جنـدي وعـدد من السـفن. ويبـدو أن الهـدف الرئيسـي من هذه الإعـدادات العسـكرية هو السـيطرة على مضيق هرمـز. وتحرّك "بِيـرِي رئيس" من ميناء السـويس المصري في شـهر أيار/مايو عام ١٥٥٢م على رأس أسـطول مكون من ٢٤ قادسًـا، و٤ سـفن شـراعية / مجدافية، و٨٥٠ جنديًا. ووصل هذا الأسـطول إلـى ميناء "جـدّة"، ثم عبر مضيق "باب المنـدب"، ومن ثَمّ وصل إلى مدينـة "عـدن". بعد ذلك تعقّب سـاحل البحـر حتى وصل إلى ميناء "مسـقط". وكانت مدينة "مسقط" تعتبر من أهم مناطق عمان الواقعة في أقصى جنوب شرق شـبه الجزيـرة العربية، كما كانت المدينـة تتمتع بأهمية كبيـرة للغاية نظرًا لأنها كان تشـهد مرور السـفن المتوجّهة من منطقة الخليج العربي إلى سواحل شرق إفريقيا. وكان البرتغاليون قد حاصروا مدينة "مسـقط" بأسطول قوامه ٤٠ سفينة، وبسـطوا هيمنتهـم عليها، وحصّنـوا هذه المنطقة بشـكل جيّد للتصدّي للسـفن العثمانيـة القادمة من البحر الأحمر. وكان "بِيرِي رئيس" يأمل في السـيطرة على هـذه المناطـق الهامة الخاضعة للبرتغاليين من أجل تأمين طرق المواصلات بين الهند والخليج العربي.

وبعد أن وصل الأسطول العثماني إلى "مسقط"، تم إنزال الجنود والمدافع الكبيرة على الفور، وبدؤوا في قصف قلعة المدينة. واسـتمر قصف القلعة على مـدار سـتة أيـام متواصلـة إلى أن سـقطت في اليـوم السـابع، ودُمّـرت القلعة، وأُسـر أفراد حاميتها. ثم توجّه "بِيـرِي رئيس" بعدها إلى مدخل الخليج العربي، وحاصر منطقة مضيق "هرمز" التي كانت تعدّ بمثابة الهدف الرئيسي لغزوته تلك (١٩ أيلول/سبتمبر).



لوحة تُصور وصول الأسطول العثماني بريشة فنان مجهول.

وعلى الرغم من تدمير قلعة "هرمز" بعد تعرّضها لقصف عنيف من قبل القوات العثمانية، لم تسقط في أيديهم، لكنهم عمدوا إلى تدمير المناطق المحيطة بها. وبينما الأمر كذلك جاءت أنباء إلى قيادة الأسطول العثماني تتحدث عن تحرّك أسطول كبير بقيادة الوالي البرتغالي العام من"جوا" نحو مضيق "هرمز"، فتقرّر رفع الحصار عن المنطقة. وفي تلك الأثناء استولت القوات العثمانية على جزيرة "كيشم" التي كانت تشتهر بثراء أهلها، إضافةً إلى بعض المناطق المجاورة لها. ويسند بعض المؤرخين العثمانيين مثل "عالي" وبَجُويْلُو الشائعات التي انتشرت بشأن حصول "بِيرِي رئيس" على رشوة من أجل رفع الحصار عن قلعة "هرمز" إلى الحقد الذي كان يملأ قلب حاكم البصرة "قوباد بَاشَا"، ويشكّون في أن يكون "بِيرِي رئيس" قد رفع الحصار عن قلعة "هرمز" في مقابل حصوله على بعض المال.

ولقـد أقدم "بِيرِي رئيس" على رفـع الحصار عن قلعة "هرمز" والانسـحاب إلـى الخليـج العربـي فـي الوقـت المناسـب، ذلـك لأن أي تأخير كان سـيطرأ على هذا الإجراء كان سـيؤدي إلى خسارة موجعة من الأسطول البرتغالي الذي كان يتمتـع بالعديـد مـن المزايا التي ترجّـح كفته. وفي الواقـع، فإن الأسـطول البرتغالـي وصل إلى قلعة "هرمز" لتقديم المسـاعدة لحاميتها، إلا أن الأسـطول العثمانـي بقيـادة "بِيـرِي رئيس" كان قد قطـع مسـافة كبيرة نحـو الخليج العربي عندمـا وصـل الأسـطول البرتغالي إلـى مضيق "هرمـز"، وكان هذا قـرارًا صائبًا من جانب "بِيرِي رئيس". وعندما وصل "بِيرِي رئيس" إلى البصرة طلب المساعدة من "قوباد بَاشَا". لكن هذا الأخير رفض تقديم العون لـه قائلًا:

"لقد ظلمتَ المسلمين ونهبت أموالهم!"

كمـا رغـب في انتزاع السـفن والبضائـع التي كانت بحـوزة "بِيرِي رئيس". وفـي تلـك الأثناء وصلت إلـى "بِيرِي رئيـس" -بينما كان فـي الخليج العربي- معلومـات مفادها أن البرتغاليين يعتزمـون إغلاق مدخل الخليج. وكانت بعض سـفنه تحتـاج إلـى الصيانـة في ذلـك الوقت. كمـا أن جدّافـي السـفينة تفرّقوا، ولـم يرغـب الجنـود في ركـوب السـفن. وأما "بِيـرِي رئيس" ففضّـل الانطلاق بسـفنه عوضًـا عـن الانتظـار عند "البصـرة"، ومن ثَـمّ أبحر على رأس أسـطول صغيـر مكـون من ثلاث سـفن، وترك بقية السـفن الأخرى فـي البصرة. ونجح فـي تخطّـي الحصـار الـذي فرضـه البرتغاليـون فـي الخليـج العربـي، إلا أن إحدى سـفن أسـطوله دُمّـرت بالقرب من جـزر البحرين، واسـتطاع بالرغم من ذلـك الوصـول بالسـفينتيْن الأخريـن إلـى مصـر. إلا أنـه كانت هنـاك مفاجأة غيـر سـارّة تنتظـره فـي مصـر. ذلـك لأن "قوبـاد بَاشَـا" كان قد نشـر شـائعات مغرضـة ضـد "بِيـرِي رئيـس" فـي مصر كذلـك، كمـا أذاع أنـه ترك الأسـطول العثمانـي فـي موقف حـرج وهرب ببعض السـفن. وعليه، وصلت هـذه الأنباء إلـى السـلطان سـليمان الـذي كان متواجـدًا فـي حلـب بسـبب غزوتـه إلـى "ناخيتشـيفان"، فغضب كثيرًا بسـبب هذه التصرفات التي لم تكن مناسبة لسياسة



السلطان سليمان برسم ماثيو باغاني
(Mathio Pagani)

دولتـه، وأمـر بإعـدام "بِيـرِي رئيس". وحبسـه وَالِي مصـر "داود بَاشَـا" في أحـد السـجون، ثـم أعدمـه تنفيـذًا للأوامـر الـواردة لـه مـن السـلطان، وصـادر أموالـه وبضائعـه (٩٦٠هـ / نهاية عـام ١٥٥٣م). وعلى الرغم من أن هـذا البحّـار العظيـم راح ضحيـة إهماله في إنجاز المهام المكلف بها، إلا أن مؤلفاتـه في علـم البحار كانت بمثابـة المرشـد الذي قـاد علم البحر والخرائـط العثمانية علـى مدار قرون طويلة.

وبعـد أن غـادر "بِيـرِي رئيـس" البصـرة، عُيّـن حاكـم القطيف السـابق "مـراد رئيس" قائدًا لأسـطول السـويس المصـري. وجـاءت أوامـر إلـى هـذا الأخيـر بالبقاء علـى رأس الأسـطول في البصـرة لفتـرة مـن الوقت مع الأخـذ بعين الاعتبار الأنشـطة التـي كان يزاولها الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي. وقد حوصر الأسطول المصـري فـي الخليج العربـي، إلا أن قائده الجديد "الرئيـس مراد" انتهز إحدى الفرص السـانحة أمامه واتخذ قرارًا بالعودة إلى ميناء السـويس بأسـطول مكون مـن ١٥ قادسًـا وسـفينتيْن. لكن بعد أن وصل أسـطوله إلى مضيـق هرمز، قابله الأسـطول البرتغالـي. واندلعـت اشـتباكات عنيفة بيـن الجانبين اسـتمرت حتى منتصـف الليـل. ولـم يسـتطع الأسـطول المصري الصمـود كثيرًا فـي مواجهة نظيـره البرتغالي، وأُصيبت معظم السـفن العثمانية بقذائـف المدفعية البرتغالية، ونجـح "مـراد رئيس" في العودة بما بقي في يده من سـفنٍ إلـى الخليج العربي مسـتغلًّا ظلمة الليـل الحالكة. ولقد تكبّـد الطرفان العثماني والبرتغالي خسـائر كبيـرة فـي هـذه المعركـة. وكان مـن بيـن شـهداء الأسـطول العثمانـي قائـدان

يُدعيان "سلمان رئيس" و"رجب رئيس". كما سقطت إحدى السفن العثمانية في أيدي البرتغاليين. ولمّا وصل "مراد رئيس" إلى البصرة بصعوبة بالغة، وصلت أنباء هذه المعركة إلى الحكومة العثمانية في إسطنبول، فعُزل "مراد رئيس" من منصبه كقائدٍ للأسطول المصري عام ١٥٥٢م. وعليه، فقد حوصر الأسطول العثماني مرةً أخرى في الخليج العربي. ونجا "مراد رئيس" من الإعدام بأعجوبة، ووافته المنية عام ١٦٠٣م. واليوم يوجد قبره في جزيرة "رودس". وبعد أن تعرّض الأسطول العثماني للهزيمة من الأسطول البرتغالي، وعَزل "مراد رئيس" من منصبه بدأت الإدارة العثمانية تبحث عن قائد جديد للأسطول يستطيع إخراجه من هذا المأزق. وبعد البحث والتمحيص، اُختير "سيدي علي رئيس" قائدًا لأسطول السويس بعد أن برز اسمه كأكثر شخصية لديها معلومات عملية ونظرية حول طبيعة العمل في البحر (٢ كانون الأول/ديسمبر ١٥٥٣م).

قضية خانية القِرْم: "صاحب كِيرَايْ خان"

قبل أن يخرج السلطان سليمان في ثالث وآخر غزواته إلى إيران، أقدمت "دوقية موسكو" على القيام بعملية عسكرية جديدة من شأنها أن تتمخّض عنها نتائج مهمة في المستقبل في المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود حتى بحر "قزوين"، وهي المنطقة التي كان يولي العثمانيون اهتمامًا بها ليس بشكلٍ مباشر، ولكن بواسطة خانات القِرْم. وكان نجم "دوقية موسكو" قد بدأ في البزوغ في ذلك التوقيت، وكانت تسير في طريقها نحو أن تكون قوة عظمى في تلك المنطقة. فقد قضى الروس على خانية قازان بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م، وبدؤوا في التدفق جنوبًا نحو بحر قزوين. ودلّت هذه الأحداث على أن خانية القِرْم كانت تعيش فترة حسّاسة للغاية من تاريخها. وكان السلطان سليمان مهتمًّا منذ وقت طويل بشؤون خانية القِرْم. والسبب في ذلك أنه قضى فترة من فترات حياته مقيمًا في مدينة "كَفَه" عندما كان أميرًا قبل اعتلاء عرش السلطنة، ولذلك كان على علمٍ ببواطن الأمور في ذلك الإقليم، كما أنه صار على دراية كاملة بشؤون تلك المنطقة.

وكان من المثير أن يتبع السلطان سليمان سياسة تتبنّى فكرة عدم السماح لخانية القِرْم بالانفراد بقراراتها بعدما اعتلى عرش السلطنة. ذلك لأن والده السلطان سليم الأول كان قد استخدم القوى المتواجدة في تلك المنطقة كمعينٍ له في صراعه على السلطة، حتى إنه استطاع الانقلاب على والده، والوصول إلى العرش بدعم من خانات القِرْم، مما جعل هذه المنطقة تتمتع بأهمية حسّاسة للغاية بالنسبة للعثمانيين. وعليه، فبإمكاننا التخمين أن السلطان سليمان سيُقدم على تنفيذ بعض الخطوات من أجل ربط خانية القِرْم بقوة مركز دولته بمعنى الكلمة كإجراءٍ طبيعي في ظلّ الظروف المحيطة بإمبراطوريته. وفي الواقع، فقد بدأت سلسلة الأحداث المتتالية بمقتل خان القِرْم "محمد كِيرَايْ" عام ١٥٢٣م. تبع ذلك قيام مجموعات "نوجاي" بقتل جنود قبيلة القِرْم. ثمّ أرسل السلطان سليمان أحد أبناء "مينجلي كِيرَايْ" ويُدعى "سَعَادَةْ كِيرَايْ" إلى القِرْم كخانٍ لها يرافقه ٥٠٠ جندي من الإنْكِشَارِيّة مجهزين بالأسلحة. وقد دعمت قبيلة "شيرينلر" خان القِرْم الجديد باعتبارها من أقوى العشائر التي رحّبت بحكم العثمانيين في القِرْم. إلا أن هذا الدعم أفضى إلى نشوب انشقاقات بين صفوف أفراد هذه القبيلة، حتى نشب صراع بين الطرفين المعارضين. وعلى الرغم من رغبة "سَعَادَةْ كِيرَايْ" في توطيد الأمن والاستقرار في القِرْم، إلا أنه تعرّض لهزيمة على يد المعارضين من أبناء قبيلة "شيرينلر" الذي التفّوا حول "إسلام كِيرَايْ" نجل الخان السابق "محمد كِيرَايْ الأول". وبعد هذه الهزيمة، لجأ "سَعَادَةْ كِيرَايْ" إلى إسطنبول عام ١٥٣٢م، وأخبر السلطان أنه تنازل عن حكم الخانية في القِرْم. وكان السلطان "سليمان يعرف "سَعَادَةْ كِيرَايْ" منذ أن كان أميرًا، فمنحه قصرًا في منطقة "أيوب" بإسطنبول، وخصص له دخلًا سنويًّا وعطايا أخرى. وقد عاش "سَعَادَةْ كِيرَايْ" في إسطنبول حتى تُوفي. واستمر حكم "إسلام كِيرَايْ" في القِرْم خمسة أشهر بعد هروب "سَعَادَةْ كِيرَايْ"، لكن الدولة العثمانية لم ترضَ عن هذا الوضع، فاضطر "إسلام كِيرَايْ" لطلب العفو من السلطان سليمان. وعليه، فقد عيّن السلطانُ "صاحب كِيرَايْ" شقيق "سَعَادَةْ كِيرَايْ" وابن "مينجلي كِيرَايْ" الثالث حاكمًا على خانية القِرْم (ربيع الأول ٩٣٩هـ - تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٢م)، وكلّف "إسلام كِيرَايْ" ليكون نائبًا له.

وعندما توجّه "صاحب كِيرَايْ" إلى القِرْم، وجد نفسه داخل صراع ناشب بالفعل سواء شاء أم أبى. والسبب في ذلك أن "إسلام كِيرَايْ" قائد الجناح المستقل من قبيلة "شيرينلر (*Şirinler*)" كان يشعر بضيق وغضب شديدين لانتزاع "صاحب كِيرَايْ" سلطته من يديه بدعم من العثمانيين، إذ كان "إسلام كِيرَايْ" يصرّ على الحفاظ على حقوق عشيرته والدفاع عنها. فأدرك "صاحب كِيرَايْ" وقتئذ أنه سيدخل في صراع مع "إسلام كِيرَايْ" عاجلًا أم آجلًا، وشعر أنه بحاجة إلى التقرّب من قبيلة "نوجايلر (*Nogaylar*)" للتصدّي لنفوذ قبيلة "شيرينلر". ذلك لأن قبيلة "نوجايلر" كانت تتواجد في السهوب الواقعة خارج منطقة القِرْم. وكانت هذه القبيلة على ما يبدو أكثر الحلفاء إفادةً ضد "إسلام كِيرَايْ" المتواجد عند مضيق "أور - قابيسي (*Or-kapısı*)"، والذي كان ينسحب إلى السهوب عند اللزوم. وكان "صاحب كِيرَايْ" يسعى لترسيخ دعائم سلطته المركزية في القِرْم. وبعد أن قُتل "إسلام كِيرَايْ" بعد ذلك بفترة على يد "باقي بَكْ" قائد قبيلة "مانجيت"، بدأ "صاحب كِيرَايْ" في الاهتمام بأمر "باقي بَكْ". وكان هذا الأخير ابن شقيق "صاحب كِيرَايْ"، حيث برز اسمه بين نبلاء القِرْم بفضل شجاعته وجسارته، ظلّ يشكّل خطرًا على "صاحب كِيرَايْ" حتى قُتل عام ١٥٤١م. وقد استمر الصراع بين هذين الطرفين لفترة من الوقت إلى أن أُبرم اتفاق فيما بينهما، لدرجة أنهما خرجا في غزوة مشتركة إلى موسكو. لكن "باقي بَكْ" قُتل بعدما تعرّض لهجوم من "صاحب كِيرَايْ" وهما في طريق العودة من هذه الغزوة. وبعد مقتل "باقي بَكْ"، بدأ "صاحب كِيرَايْ" في التخطيط بشكلٍ جدّي من أجل تحقيق رغباته في ترسيخ دعائم سلطته الكاملة في القِرْم، وتأسيس نظام مركزي للإدارة بها. وبالرغم من أن "صاحب كِيرَايْ" تقرّب في البداية إلى قبيلة "نوجاي"، إلا أنه اتحد مع قبيلة "شيرينلر" عندما فكّر في التخلص من "باقي بَكْ". حتى إنه تحالف معهم لمهاجمة قبيلة "نوجاي" التي لم تكن تعترف بهذه السلطة المطلقة. وشهد عاما ١٥٤٦ - ١٥٤٧م وقوع حادثة في تاريخ القِرْم أُطلق عليها "غضب قبيلة نوجاي". وقد هُزمت القبيلة أمام أسلحة الخان "صاحب كِيرَايْ" النارية.

لقد كان السلطان سليمان يتابع عن كثب هذه الصراعات التنافسية التي كانت تشهدها خانية القِرْم. ذلك لأن الدولة العثمانية كانت تسعى لتحقيق بعض المآرب السياسية التي تصب في مصلحتها مثل تنصيب حاكم على خانية القِرْم من أسرة "كِيرَايْ" ليكون تابعًا لها ولا يثور عليها، والاستفادة من قوات القِرْم في الغزوات التي يقوم بها الجيش العثماني إلى مولدوفا والمَجَر وإيران، والحيلولة دون تحوُّل خانية القِرْم إلى تهديدٍ يهزّ عرش السلطان في إسطنبول. وكانت الدولة العثمانية تشعر بالقلق إزاء حصول خانية القِرْم على إرثها في عشيرة "إيديل" المنسوبة للقبيلة الذهبية، وتتحد مع قبيلة "نوجاي" وتشكّل دولة مستقلة. وفي الحقيقة فإن "صاحب كِيرَايْ" كان يعارض فكرة أرستقراطية القبائل، ولذلك سعى لتأسيس إدارة مطلقة في القِرْم على غرار الطراز العثماني. وكان الهدف الرئيسي من الإجراءات التي نفذّها "صاحب كِيرَايْ" في القِرْم هو تكوين خزينة تمتلك مصادر دخل منتظمة ووفيرة لتيقّنه من أن هذه الخزينة هي الشرط الأساسي لتكوين دولة مركزية كما كان يطمح. وكان خانات القِرْم يحصلون على خراج سنوي من جيرانهم، أي موسكو وليتوانيا وبولندا ومولدوفا. هذا بالإضافة إلى أن "صاحب كِيرَايْ" استطاع ملء خزينته بثروة كبيرة اكتسبها من الغزوات التي قام بها. حتى إنه سعى لتوفير الأمن للقوافل التجارية القادمة من آسيا الوسطى وإيران في الغزوات التي قام بها في أستراخان وشركيسيا. إلا أن قوة "صاحب كِيرَايْ" وعظمته تسببت في نشوب حالة من العداء ضده بين وزراء البلاط العثماني، لا سيما وأنه كان يتمتع بمكانة خاصة لدى السلطان سليمان. ولم يصمت "صاحب كِيرَايْ" أمام هذه الحالة من العداء من جانب الوزراء العثمانيين. حتى إنه بعد أن استولى على "أستراخان" وألحق هزيمة بقبيلة "نوجاي"، رفض إرسال قوات إضافية لمساندة الجيش العثماني في الغزوة التي قام بها السلطان سليمان إلى إيران. وقد أفضت هذه الواقعة إلى اتهام الوزراء العثمانيين للخان "صاحب كِيرَايْ"، كما حاولوا تقليل شأنه لدى السلطان سليمان وإسقاطه من نظره. وفي تلك الأثناء طلب "صاحب كِيرَايْ" من الإدارة العثمانية تعيين "دولت كِيرَايْ" المقيم في إسطنبول

حاكمًا على خانية "قازان" بعد وفاة حاكمها "صفا كِيرَايْ". وكان يرغب في تحقيق هذا المطلب ليتخلّص من منافس له على خانية القِرْم. لكن الحكومة العثمانية استغلّت هذه الفرصة، وأرسلت "دولت كِيرَايْ" إلى القِرْم ليكون حاكمًا عليها، وأظهرت وكأنه عُيّن حاكمًا على خانية قازان. وعندما وصل "دولت كِيرَايْ" إلى القِرْم، تظاهر بأنه ذاهبٌ إلى قازان، وانتظر في مدينة "أكيرمان" "صاحب كِيرَايْ" الذي كان قد خرج في غزوة ضد الشراكسة. وفي نهاية الأمر بقي "صاحب كِيرَايْ" وحيدًا بعد أن فارقه رجاله وجنود الإِنْكِشَارِيّة الذين كانوا يرافقونه. وعندما خرج متوجّهًا إلى إسطنبول لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان سليمان، أُلقي القبض عليه وقُتل (شوال ٩٥٨هـ - تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥١م). لكن هذه الأحداث صبّت في المقام الأول في مصلحة الروس، إذ إنهم سعدوا كثيرًا بالقضاء على "صاحب كِيرَايْ" الذي كان يعتبر ألدّ أعدائهم. حتى إنهم فكّروا في استغلال الظروف المواتية بعد واقعة قتله. وحرّض "إيفان (*İvan*) الرابع" قيصر روسيا "الشاه علي" للهجوم على خانية القِرْم للمرة الثانية عام ١٥٥١م. كما هزم قوات "دولت كِيرَايْ" وهي في طريقها للإغارة على موسكو، واستولى على قازان بتاريخ ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥٢م. وهكذا صادفت الدولة العثمانية منافسًا جديدًا لم تكن تتوقعه عند حدودها الشمالية.

الغزوة الأخيرة على الصفويين واتفاق السلام

لقد آثر السلطان سليمان الخلود إلى الراحة لفترة طويلة إثر تعرضه لمرض منذ عودته من غزوته الثانية على إيران. وبدأ في قضاء وقته في جولات الصيد الطويلة في المناطق القريبة من العاصمة إسطنبول وبالأخص في ولاية أَدِرْنَه. كما أنه كان يتابع عن كثب الأحداث التي سردناها أعلاه. وفي تلك الأثناء بدأت بعض الشائعات تصل إلى مسامعه بسبب عدم خروجه في أي غزوة منذ وقت بعيد. ولقد بادرت "خُرّم سلطان" وزوج ابنتها الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" في التفكير في بعض المخططات للتخلّص من الأمير مصطفى الذي كان يتولّى شؤون الإدارة في ولاية "أَمَاسْيَا".

وأما السلطان سليمان فقد كان يذهب في كثير من الأحيان إلى الجامع الكبير الذي كلّف المعماريّ الشهير "سنان أغا" ببنائه. وكان يعتبر نفسه حاميًا لعرين العالم الإسلامي، و"خليفة" مصممًا على مكافحة النظم والأفكار المخالفة للعقيدة السُنيّة. وقد ازدادت الحساسية الدينية لديه منذ نشوب الصراع مع الدولة الصفوية الشيعية. وقد وصفه "لطفي بَاشَا" بلقبيْ "إمام العصر" و"الخليفة" في رسالة الخلافة التي ألّفها. كما ازدادت مظاهر الحياة الدينية لديه في الفترات التي تولّى فيها كلٌّ من "كمال بَاشَا زاده" و"جيفي زاده محمد" و"أبو السعود أفندي" منصب شيخ الإسلام. وفي عهد السلطان سليمان بدأ المذهب الحنفي في اكتساب صفة رسمية بوصفه المذهب الرئيسي للدولة العثمانية. وبدأ القائمون على سنّ القوانين في شرح الإجراءات العرفية الواردة في اللوائح القانونية في ظلال الشريعة الإسلامية. وشهدت تلك الحقبة تكثيف الاجتهادات بين العلماء حول مشروعية المخصصات المالية من أجل تشكيل الأوقاف ودعمها. ولقد تمكّن الشيخ "أبو السعود أفندي" من إيجاد تحليلات وسطية أراحت إداريّي الدولة. إلا أن هذه التحليلات لم ترضِ بعض الجهات الأخرى. وبدأت الحساسيات الدينية في التأثير على الأوساط الثقافية والعلمية في الدولة العثمانية مع مرور الوقت بتأثيرٍ من الإمام "بيرجيفي (*Birgivi*)" (تُوفي ٩٨١هـ / ١٥٧٣م).



"أبو السعود أفندي" وهو يُفتي

ولقد شهد ذلك الوقت انتشار شائعات بشأن ضرورة تنازل السلطان سليمان عن عرش السلطنة لصالح ابنه الأكبر الأمير مصطفى الذي كان يتولّى شؤون إدارة ولاية "أَمَاسْيَا". ولم يكن الأمير مصطفى الذي قارب عمره الأربعين عامًا على ما يبدو سيقبل بسهولة بتلميع صورة أخويه من زوجة أبيه الأمير "سليم" أو "بايزيد" لخلافة والده على العرش. وكانت تراوده بعض الأفكار بتحريض من حاشيته بشأن أن حالة والده الصحية لم تعد تسمح له بإدارة الدولة كما يجب، وعليه فيجب أن يتنازل له عن العرش كما فعل جدّه السلطان "سليم" قبل ذلك. وكانت هذه الأوضاع تصب في مصلحة الثنائي "رستم بَاشَا" و"خُرّم سلطان" التي كانت تسعى بشتّى الطرق للتخلّص من الأمير مصطفى لتنصّب أحد أبنائها سلطانًا مكان والده. وسنرى أن هذه الشائعات ستؤدي إلى سقوط الأمير مصطفى من عيني والده السلطان سليمان الذي كان يعاني من مشاكل نفسية ناتجة عن مرضه.


رستم باشا

ولقد تم التخطيط لغزوة ثالثة نحو الأراضي الإيرانية لتحقيق توازن متساوٍ مع ردود الأفعال الغاضبة جرّاء واقعة مقتل الأمير مصطفى الذي كان يحظى بحب كبير في القصر. وستثبت هذه الغزوة أن السلطان سليمان لا يزال يتمتع بقدرة كبيرة على إدارة دولته المترامية الأطراف على الرغم من تقدّمه في السن.

لقد تلا سفير البندقية "تريفيسانو (*Trevisano*)" الذي كان متواجدًا في إسطنبول إبّان غزوة "ناخيتشيفان" تقريرًا في مجلس الشيوخ ضمّ بعض

المعلومـات المثيـرة للجـدل حـول السـلطان العثمانـي وأسـرته. وتشـير هـذه المعلومـات إلـى أن والـدة الأميـر مصطفى أكبر أبناء السـلطان الذيـن على قيد الحياة من أصل شركسـي. وأما "خُرّم سـلطان" فهي الزوجة الرسـمية للسلطان، وعينـاه لا تـرى أحـدًا غيرها. هـذا إضافةً إلى أن السـلطان سـليمان لم يجامع أي امـرأة أخـرى منـذ أن عُقد قرانه عليها بشـكل رسـمي. وابنه الأمير "سـليم" يتصـف بجسـده الضخم وروحـه المائلة إلى المرح والتسـلية، وأمـا ابنه الأمير "بايزيد" فجسده أقل وزنًا من شقيقه "سليم"، كما أنه مهتم بالأدب. إلا أن هذين الأخوين لم يسـتطيعا الظفر بقلوب الشعب وطبقة الجنود الإنْكِشَارِيّة كشقيقهما الأكبر الأمير مصطفى. فيما كان الأمير "جهانكير" ضعيفا في إدارة شؤون الدولة، لكنـه كان فـي الوقت نفسـه مرحًا ومحبًـا للدعابة. ولقد لعبت مشـاكله الصحية وبنيته الجسمانية الحدباء دورًا كبيرًا في أن يولي والداه اهتمامًا خاصًا به.

وكان السـلطان سـليمان يحب ابنته "مهرماه" زوجة الصدر الأعظم "رسـتم بَاشَـا" كثيـرًا. وللسـبب ذاته اسـتطاع "رسـتم بَاشَـا" الوصول إلـى مناصب عليا في الدولة. ولم يكن السـلطان سـليمان يهمل أمور دولته وشـؤونها طرفة عين، لكنـه بعـد أن ألَـمَّ بـه المـرضُ ينتظر الصـدر الأعظم ليأتيـه في غرفتـه بالقصر كي ينقل له الموضوعات ذات الصلة بشـؤون الدولة، وذلك بعد أن كان يذهب إلـى مبنى الديـوان ويتابـع القضايا المنظورة، وأمـور الدولة عبر نافذة خُصّصت لهذا الغرض. وكان الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" يتولّى القيام بهذه الأمور. وكان بإمكانه جعل السـلطان سـليمان يفعل كل شـيء يريده. ذلك لأنـه كان يتصرّف بحذر شديد، مما أكسبه تقدير السلطان سليمان واحترامه. لكن في الوقت نفسه لم يسـتطع "رسـتم بَاشَا" التقرّب إلى السلطان بقدر سلفه إبراهيم بَاشَا. حتى إنه لم يكن بمقدوره دخول القصر، والخروج منه إلا بإذن من السلطان.

ويروي سفير البندقية أنه ذهب إلى مقابلة السلطان قبل خروجه في غزوته، وأنـه -أي السـلطان- سـرد بعض الجمـل لإظهار صداقتـه لجمهوريـة البندقية

علـى غير عادتـه بالتلفّظ ببعض الكلمات، وهي ما اسـتقبله كل من كان حاضرًا بتعجب ودهشـة لعدم تعوّدهم على مثل هذه الفعل من السـلطان. ويذكر السفير أنـه تجـاذب أطراف الحديث مـع "رسـتم بَاشَـا" لمـرات عديدة، مشـيرًا إلى أن هذا يعتبر شـرفًا كبيرًا بالنسـبة له. وبالرغم من أن كافة هذه الروايات تعتمد على مشـاعر السفير وأحاسيسـه، فإنها تضيء لنا الدرب لاكتسـاب معلومات بدرجة ما عن السـلطان والقصر. وتؤكّد هذه المعلومات لنا أن الثلاثي "رسـتم بَاشَـا" – "مهرمـاه" – "خُرّم سـلطان" بـدأ نفوذهم في القصر يظهر جليًّـا للعيان مـع مرور الوقت. ولقد أورد سـفير البندقية بعض الملاحظات المثيرة بشـأن طريقة تنظيم جيش السلطان سليمان أثناء انطلاقه إلى غزو "ناخيتشيفان (*Nahçıvan*)".

كانـت تلـك الأثنـاء تشـهد بعـض المناوشـات بيـن الجانبيـن العثمانـي والصفوي على الحدود فيما بينهما، إلا أن هذه المشاكل لم تكن عويصة لدرجة ألّا تُحـلّ بالطـرق الدبلوماسـية. وكان مـن بين تلك الأحداث أن اسـتولى شـاه إيـران "طهماسـب" علـى ولاية "شـيروان (*Şirvan*)" بالكامل عقـب وفاة برهان علـي سـلطان مطلـع عـام ١٥٥٠م، ثم بعد ذلك وفي شـهر أيار/مايـو من العام نفسه شرع في إعداد العدة لمهاجمة الأوزبك بعدما أغار حاكمهم "عبد اللطيف خـان" وأميرهـا "باراك (*Barak*) خـان" على إقليم "خراسـان (*Horosan*)" ونهبا مدينـة "هـرات" ومـا حولها. إلا أنه سـرعان ما التقط أنفاسـه بعد عـودة خانات الأوزبك إلى "بخارى". ثم بعد ذلك نظّم هجومًا على "حسن بَكْ أوغلو درويش محمد" أحد حكام "شيروان". وقد دخل الشاه "طهماسب" أراضي دولة "شكي" بعـد انضمـام "باجراتلي ليفند خان" حاكم منطقـة "ماخيتي" الجورجية، وحاصر قلعة "جلسنجوراسن" التي احتمى بها "درويش محمد خان"، واستطاع في نهاية المطـاف الاسـتيلاء عليها على الرغم من صعوبة تلـك المهمة. وأما محمد بَكْ فقد هرب من القلعة، إلا أنه أُلقي القبض عليه وقُتل بعدها. وعليه، سقطت دولة "شـكي" بشـكل كامل في يد الشاه "طهماسب"، إذ أسـند الشاه إدارة هذه الدولة إلـى "تويجون بَكْ القاجاري". وبينما كان الشـاه "طهماسـب" منشـغلًا بشـؤون

"شـكي"، كان إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا المعيّن في عـام ١٥٤٨م حاكمًا علـى ولاية "وَانْ" ينفّـذ بعـض الخطـط الهجوية. فقد أغار علـى "خوي" وفتحها في فصل الشـتاء قبـل عـودة الجيـش العثماني إلى إسـطنبول، وأردى "دونبوللو حاجي سـلطان" قتيـلًا. ثـم بعـد ذلك هاجـم مدينـة "روان"، وأحرق سـوقها، وخطـف حاكمها الصفوي. وقد أُسـندت مهام الحكام في ولاية "أَرْضُرُومْ" إلى إِسْـكَنْدَرْ بَاشَا عام ١٥٥١م، إذ هـمّ بالاسـتيلاء على المناطق الخاضعـة لحكم الأتابكة. ونجح في حصـار مدينـة "أردانوتش" والسـيطرة عليها يـوم الجمعة الموافـق ١٣ أيار/مايو عام ١٥٥١م. ثم سـار ناحية الشـرق، وفتح المناطق الواقعـة بين مدينتي "كينزو – دامـول (*Kinzo-Damol*)" و"أرضاهان" على امتداد نهر "كور (*Kür*)". وتشـير المصادر التاريخية الجورجية إلى أن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا بسط نفوذه على "أردانوتش"، ثـم اسـتولى على دولة "بارنـاك" حتى مدينـة "آرصيـان (*Arsıyan*)"، كما أضرم النيران في جميع الأماكن القريبة من إقليم "آرتان (*Artan*)"؛ أي ما يُعرف اليوم بـ"أرضاهان (*Ardahan*) – جوله (*Göle*) – هاناك (*Hanak*)". ولقد أمر إِسْـكَنْدَرْ بَاشَا بترميم الجامع القائم من أيام حكم قبيلة "آق قويونلو" التركمانية بعد فتحه "أردانوتـش"، وأوقـف مصبغة وعددًا مـن الدكاكين لخدمة هـذا الجامع. ولقد اتخذ إِسْكَنْدَرْ بَاشَا من مدينة "أردانوتش" مركزًا لولايته.

وما إن تلقّى "طهماسـب" نبأ محاصرة إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا لمدينـة "أردانوتش" وطلـب ملـك جورجيـا "كَيْخُسْـرَوْ الثانـي" الحصول علـى الدعـم، حتى فارق "شـكي"، وسـار بجيشـه لمهاجمة إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا. وفي الطريق، قدّم "كَيْخُسْرَوْ الثاني بن جورجورا" فروض الطاعة والولاء لشـاه إيران، فيما منحه "طهماسب" منطقتـيْ "آهيلكليـك" و"تومـوك". وبهـذه الطريقـة نجح "طهماسـب" في إقامة منطقة عازلة في مواجهة الدولة العثمانية من خلال إلحاق بعض المدن بالمناطق المتبقية في يد هذا الحاكم الجورجي. ولقد دخل الشاه بعد ذلك دولة "كارتلي" فـي جورجيـا، ثم عاد إلـى "قره باغ" مـع اقتراب فصل الشـتاء. وفي تلك الأثناء جـاء مبعـوث برتغالـي لمقابلـة الشـاه عـام ١٥٥١م، وقـدّم إليه بعـض الهدايا.

وعلى ما يبدو فقد زوّد هذا المبعوث الشـاه ببعض المعلومات حول مستجدات الأوضـاع في القـارة الأوروبية. ذلك لأن العلاقات الثنائية بيـن الدولة العثمانية وإمبراطوريـة هابسـبورج عادت إلى التوتر كمـا ذكرنا أعلاه، مما أدّى إلى وقوع اشـتباكات علـى الحـدود بين الجانبيـن. وكانت هـذه الأوضاع تعني أن الشـاه "طهماسـب" بإمكانـه التحـرّك بطريقة أكثر حريـة على الحدود الشـرقية للدولة العثمانية.

وتذكر المصادر التاريخية الصفوية أن مبادرة الشـاه "طهماسـب" للاعتداء علـى الأراضـي العثمانيـة بـدأت بخطـاب أرسـله إلـى إسـطنبول. فتشـير هذه المصادر إلى أن الشاه كتب خطابًا حميميًّا إلى عاصمة الدولة العثمانية، وأعرب عن شـكواه من الهجمات التي شنّها إِسْكَنْدَرْ بَاشَا على مدينتيْ "خوي" و"روان" ومجابهتـه للدولـة الصفويـة، مضيفًا أنه -أي إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا- قـد جاوز حدوده بإقدامه على ارتكاب هذه الأفعال. ولقد تسبب هذا الخطاب في انزعاج السلطان سليمان كثيرًا، إذ بعث إلى شاه إيران ردًّا غاضبًا يبلغه فيه أنه سيغير بجيشه على أراضـي العجـم (أي إيـران). مما دفـع "طهماسـب" فـي النهاية إلـى إصدار أمر بحشـد جيوشه لمواجهة أي هجوم عثماني محتمل كما كان واضحًا من خطاب السـلطان سليمان. ولقد جمـع "طهماسب" جيوشه عند موقـع مرعى "آقمانجان (*Akmangan*)"، بحيث كان يرغب في التقدّم بقواته قبل الجيش العثماني. ولهذا السـبب قسّـم جيشه إلى أربعة أقسام، إذ أرسل القسـم الذي كان يقوده "سافيلي معصـوم بَـكْ" إلى مدينتيْ "أرجيـش" و"بارجيري" (مرادية)، والقسـم الذي كان يقوده "شـاهفردي القاجاري" و"أدهم بَكْ الرومي" إلى مدينة "بسـين"، والقسـم الذي كان يقوده "دُو الْقَادِرلي إبراهيم بَكْ" إلى عراق العجم، والقسم الذي كان يقـوده "بيرام بَـكْ القاجاري" والأتابـك الجورجي "كَيْخُسْـرَوْ الثاني" إلى ولاية "داف"؛ أي موطـن الأتابكة القديـم وهي مناطق "أرضاهان - جوله - أردانوتش - ليوانـه - أولتـو - تورتوم". وكان يأمل "طهماسـب" من خلال هذه الهجمات في اسـتعادة الأراضي التي سـلبها منـه العثمانيون. إلا أنـه أدرك أن هذه المهمة صعبـة للغايـة، ورأى أن نهـب وتخريب هذه المدن والأقاليم أيسـر بالنسـبة له.

وانطلق "طهماسـب" على رأس جيشـه من مرعى "آقمانجان" ووصل إلى مدينة "أليشجيرد" يوم ٢٨ آب/أغسطس عام ١٥٥٢م.

وقد شهدت هذه الأثناء إغارة "صافيلي (*Sâfili*) معصوم بَكْ" على المناطق المجـاورة لولايـة "أرجيـش" ونهبها، إلا أنه لم يسـتطـع الاسـتيلاء على قلعتها. ثم بعد ذلك عاد إلى "إيليشجرد"، وانضم إلى ركب الشاه "طهماسب"، وعرض عليـه الأمـر. وكمـا أن هـذا القسـم الأول من جيوش الشـاه هجم علـى مناطق "أخـلاط" و"عادلجـواز"، إلا أنه لم يتمكّن من الوصول إلى مبتغاه، وعاد أدراجه إلى "إيليشجرد"، فقد أغار القسم الذي كان يقوده "شاهفردي القاجاري" و"أدهم بَكْ الرومي" على مدينة "بسين"، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق أي انتصار بسبب مقاومـة الحاكم العثماني "مراد" لقواتهم، فأضرمـوا النيران في المنطقة، وعادوا مجددًا إلى جوار الشـاه. عقب ذلك تحرك الشـاه من "إيليشجرد" ترافقه القوات المحتشـدة حوله، ووصـل إلى "أخلاط"، وعمد إلى إحـراق المناطق المجاورة لبحيرة "وَانْ" على مدار شهر كامل من آذار/مارس إلى نيسان/أبريل عام ١٥٥٣م. ثم بعد ذلك انشـغل بالتجهيز لفرض حصار على قلعتيْ "أرجيش" و"وَانْ". كما أنه توجّه بعد ذلك إلى "أخلاط" وحاول الاستيلاء على قلعتها، وبينما هو كذلك وصلته أنباء إلحاق إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا هزيمة بقوات "كَيْخُسْـرَوْ الثاني" وحاكم دولة شـكي "تويجون بَكْ"، فأرسـل ابنه "إسـماعيل مِيرْزَا" و١٣ قائدًا من نبلاء دولته علـى رأس جيـش جرّار ضمّ في الوقت نفسـه ألف حـارس و٦٠٠ حارس آخر مـن "ناخيتشـيفان" إلى ولاية "أَرْضُرُومْ" شـرق الأناضول. وكان إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا يحتمـي داخـل قلعة "أَرْضُـرُومْ"، ونجح في هزيمة فرع الجيـش الصفوي الذي كان يقوده "كَيْخُسْرَوْ الثاني". ومـع اقتراب فصل الشتاء آثر إِسْكَنْدَرْ بَاشَا السماح لبعض جنوده بمغادرة القلعة لعلمه أنها لن تستطيـع استيعاب المزيد من الجنود. ومـا إن وصلـت هـذه الأنبـاء إلـى الجيش الصفـوي، حتى أرسـل قادتُه سـرّية استطلاعية إلـى مشـارف القلعـة، وخبـأوا بقيـة الجيـش خلفهـا. ولـم يكـن إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا علـى دراية بهـذه الفخ، فخرج مـن القلعة لمواجهة هذه السـرّية الصفويـة. وسـرعان ما تقهقرت السـرّية الصفوية مـع بدء المعركـة بين الطرفين

حتى استطاعت استدراج قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا إلى منطقة قريبة من الجيش الصفوي، ثم باغت آلاف الجنود الصفويين قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا قليلة العدد على حين غِرّة.



قلعة "أَرْضُرُومْ"

لقد أولى الشاه "طهماسب" اهتمامًا خاصًا بالقبض على إِسْكَنْدَرْ بَاشَا -الذي كان ينعته بـ"يزيد الأصفر" لكونه أشقر الشعر- والقضاء عليه. ذلك لأن هذا البَاشَا المقدام ساهم بشجاعته وحيويته في استيلاء العثمانيين على العديد من القلاع التي كان يسيطر عليها الصفويون، إذ أدهش الصفويين ببراعته وذكائه بالتخطيط لهذه الغزوات. ويُقال إن الشاه "طهماسب" قال في حق إِسْكَنْدَرْ بَاشَا فيما معناه:

"أيها الغزاة! لو سقط يزيد الأصفر في يدي، لأقطعنّه إربًا إربًا، وسأمنح أجزاء جسده إلى رجالي لأكلها كي تنبت بداخلهم بذور الشجاعة والرجولة."

وعلى الرغم من تعرّض إِسْكَنْدَرْ بَاشَا لهجوم مباغت من القوات الصفوية التي نصبت له كمينًا للإيقاع به، إلا أنه لم يتخلّ عن ثباته وعزيمته أو يتراجع

عن الدخول في معركة دامية أمام جيش الشـاه. وقد آثر إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا الدخول فـي هـذه المعركة مع الانسـحاب إلى الوراء بسـبب قلة عدد قواتـه، كما تكبّد الطرفـان في هذه المعركة خسـائر كبيرة للغاية. حتـى إن حاكم ولاية "طِرَابْزُونْ" مصطفـى بَـكْ، وحاكم ولايـة مالاطيا "خير الدين بَكْ"، وحاكـم ولاية "بُوزُوقْ" محمـود بَـكْ سـقطوا شـهداء في هـذه المعركة، كمـا وقـع حاكم ولايـة "بيجا" محمـود بَـكْ أسـيرًا في أيـدي الصفويين. وعندمـا وصلت أخبار هـذه المعركة إلى السـلطان سـليمان، أرسـل الهدايا والعطايا إلى إِسْكَنْدَرْ بَاشَـا تقديرًا لبسالته فـي مواجهة القوات الصفوية. كما بعث له رسـالةً جـاء بها ما يلي "يا رب بيّض وجـه عبدك إِسْـكَنْدَرْ في كلا الدارين. فأنت لم تقصـر إطلاقًا في مواجهة جنود الصفويين وأظهرت شجاعة منقطعة النظير في محاربتهم مـع قلة عدد جنودك." كما دعا السلطان وزراءه لإرسال خطابات إليه لتطييب خاطره وتخفيف أحزانه.

وكان الشـاه "طهماسـب" يحـاول في ذلك الوقت فـرض حصار على مدينة "أخلاط"، حيث لجأ لتطبيق بعض الحيل الخادعة بعدما رأي من مقاومة واستبسال من حامية قلعة المدينة. وعليه، فأخبر قادة الحامية أن جيوش السـلطان سـليمان بعيـدة عنهـم، وأمـا بَاشَـاوات الولايات فهـم منشـغلون بمحاربـة أعدائهم، فلن يستطيعوا إرسال قوات إضافية لتدعيمهم، موضحًا أنه على استعداد لضمان أمنهم وسـلامة حياتهم إن سلّموه مفاتيح القلعة وخرجوا منها طواعيةً. وقد أحدث هذا العـرض الصـوري فرقـة بين أفراد الحاميـة الذين قرروا في نهاية المطاف تسـليم القلعة إلى الجيش الصفوي. إلا أنهم وما إن دخلت القوات الصفوية القلعة عاثوا فيها فسادًا وتقتيلًا دون تفرقة بين رجل وامرأة وطفل. وبعد أن بسط الشاه سيطرته على "أخلاط"، سـار بجنوده للانضمام إلى القوات التي تحاصر مدينة "أرجيش". كما أرسل قوات إضافية لمساعدة الكتيبة الصفوية التي تحاصر ولاية "عادلجوار" التي يحكمها "يولارقصدي سـنان بَاشَـا أوغلو مصطفى بَكْ". ومـع تعرّض قلعة "أرجيـش" لقصـف مدفعي صفوي على مدار ثلاثة أشـهر متواصلة إلا أن القوات الصفويـة لم تسـتطع الاسـتيلاء عليها إطلاقًا بسـبب دفـاع "إبراهيم بَـكْ" عنها. وبينما كان الشاه في "أرجيش"، عادت قوات ابنه "إسماعيل مِيرْزَا" من "أَرْضُرُومْ"

والتحقت بقواته. ولقد سقطت قلعة "أرجيش" في أيدي الصفويين في الشهر الرابع من الحصار بعد نشوب حالة من الشقاق بين أفراد حاميتها ومقتل "إبراهيم بَكْ" على يد منافسيه للسبب ذاته. وقد أقدم الصفويون على قتل حاكم إمارة أرجيش "بديع الزمان"، وهدموا بنيان القلعة حتى وصلوا إلى أساساتها. عقب ذلك سار "طهماسب" بجيوشه من "أرجيش" إلى "بارجيري". واستبسل قائد حامية المدينة "ذاكر أوغلو محمد بَكْ" في مقاومة هجمات القوات الصفوية، لكنه اضطر لتسليم القلعة في النهاية. وبعد أن استولى الشاه على هذه المدن، عاد إلى "ناخيتشيفان" في ربيع عام ١٥٥٣م. ولقد أحدثت هذه الجرائم التي ارتكبها الصفويون من قتل وحرق وتدمير في مدن شرق الأناضول على مدار ثمانية أشهر متواصلة حالة من الغضب العارم في عاصمة الدولة العثمانية. لا سيما وأن الأخبار حول أوضاع قوات إِسْكَنْدَرْ بَاشَا المنتشرة على مشارف ولاية "أَرْضُرُومْ" قد انتشرت، مما يعني أنه لم يعد هناك أي حاجز أمام نشوب حرب جديدة بين العثمانيين والصفويين.

تحرّك السلطان سليمان نحو "ناخيتشيفان" ومقتل الأمير مصطفى

أرسل السلطان سليمان جنود ولاية الرُّومَلِي إلى الأناضول بقيادة "سُوكُولّو (*Sokullu*) محمد بَاشَا" للردّ على الهجمات المتكررة للصفويين في شرق الأناضول. كما بُعثت خطابات إلى حكام الولايات والإمارات في الأناضول لحشد قواتهم. هذا إلى جانب صدور أوامر إلى الوزير الثاني أحمد بَاشَا بتولّي شؤون الدفاع عن حدود الدولة الشرقية في أوروبا بولاية "بودا".

ولما انتشرت مناقشات بين أركان الدولة حول ضرورة إرسال قائد مشهور يتحلّى بالحكمة والحنكة على رأس القوات المتوجّهة صوب الأناضول، أصدر السلطان سليمان أوامره بتنصيب الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" قائدًا على القوات العسكرية المتجّهة إلى شرق الأناضول. وعبر "رستم بَاشَا" مضيق البوسفور نحو منطقة "أُوسْكُودَارْ" الواقعة بالجانب الآسيوي من إسطنبول، ثم تحرّك

نحو ولاية "قونيا" في الشرق. وكان السلطان سليمان يبلغ من العمر ٥٨ عامًا في ذلك الوقت، وقد أنهكت قواه الإحدى عشرة غزوة التي قام بها طيلة فترة حكمه. لكنه بالرغم من ذلك رأى أنه من الضروري الخروج في غزوة جديدة مرهقة لوقف زحف الصفويين نحو شرق الأناضول ليبرهن على أنه مازال قويًّا بإمكانه الدفاع عن إمبراطوريته بعدما شعر أن أمن دولته وسلامة عرشه صارت على المحك.

ولقد أقام الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" -الذي أرسله السلطان في مقدمة الجيش- فترة في "أنقرة"، ثم وصل إلى قونيا وآقصراي. وفي تلك الأثناء ساءت الأحوال الجوية مع حلول فصل الشتاء، وتسببت الثلوج الكثيفة في إغلاق معظم الطرق. فمكث "رستم بَاشَا" هناك، وأرسل خطابًا إلى السلطان بواسطة قائد سلاح الفرسان "إسفنديار أوغلو شمسي أحمد بَاشَا" المعروف باسم "شمسي أغا"، إذ شعر "رستم بَاشَا" بضرورة إرسال أخبار الأمير مصطفى إلى والده السلطان. وكان السلطان يتلقّى رسائل تحريضية ضد ابنه الأمير مصطفى باستمرار. وتتضمن إحدى عرائض الصدر الأعظم -التي أوردها "شمسي أغا"- بعض المعلومات حول التحريضات التي كان يتلقّاها الأمير مصطفى، ومنها:

> "لقد شاب والدك المجاهد، وصار عاجزًا عن الخروج إلى الغزوات. ولقد أسند مهمة غزو إيران هذه المرة إلى الصدر الأعظم. فلا غرو أن السلطان كان يريد تنصيبك على رأس هذه الغزوة، إلا أن رستم بَاشَا حال دون تنفيذ هذا الأمر. فإذا ذهبتَ واعترضت طريق الجيش، فإن أغلب الجنود سيختارونك ويفضلونك على رستم بَاشَا. وليبقَ السلطان الأعظم في قصوره يتعبّد بقية عمره، وتقوم أنت بإدارة شؤون الدولة وتسيير أمورها ليستتب الأمن ويتحقق الاستقرار."

فلما قرأ السلطان سليمان هذه الرسالة لم يرغب في تصديق محتواها، وربما حذّر الصدر الأعظم بقوله:

"... حاشـا أن يكـون ابنـي الأميـر مصطفي قد تجرّأ علـى وقاحة كهذه، وأنا لم أره يرتكب فعلًا كهذا طول حياتي. فهناك بعض المفسدين الذي يفتـرون الكذب على الأمير مصطفى بَاشَـاعة أنباء أنـه يرغب في انتزاع السـلطة منّـي. وإياكـم أن تتحدثـوا عن هـذه الأكاذيب مـرة أخرى وأن تشيعوها بين الخلائق".

ومـن الصعوبـة بمكان أن نثبت أنه قد وقعت في الأسـاس أو أن السـلطان سـليمان اسـتخدم عبـارات كهـذه لإظهار غضبـه كردٍّ فعـل عليهـا. وربما أبرز المؤرخـون العثمانيـون هذا السـيناريو لإضفاء صبغة الشـرعية على واقعة مقتل الأمير مصطفى. حتى إنهم يذكرون أن "رسـتم بَاشَـا" أبلـغ السـلطان في رسالته أن الجنـود أعربـوا عـن رغبتهم فـي رؤية السـلطان نفسـه قائدًا عليهـم. فعليه، اسـتدعى السـلطان الصـدرَ الأعظم إلـى إسـطنبول، وأخبره أنه يعتـزم الخروج إلـى هـذه الغـزوة وقيـادة الجيش بنفسـه. وتسـوقنا هـذه الوقائـع إلـى الاعتقاد بأن السـلطان سـليمان -الذي لم يكن ينوي الخروج في هذه الغزوة- إنما اتخذ قـرار قيـادة جيشـه بنفسـه بعدما أحسّ أن عرشـه صار في خطر جـرّاء تصرّفات ابنـه الأميـر مصطفـى بوجه خـاص. هذا إلـى جانـب أن هذه الأحـداث تدفعنا إلـى التفكيـر أن الأمير مصطفى هو السـبب الأساسـي الكامـن وراء اتخاذ قرار الخروج في هذه الغزوة. وكما أوردناه سابقًا، فإن كافة هذه المشاهد كانت بمثابة الفصل الأخير لهذه المسـرحية التي جرى التخطيط لها بدقة متناهية. ولم يدرك السلطان سليمان طبيعة هذه الأمور بشكل كامل.

ومـا إن وصلـت أنباء خـروج الجيـوش العثمانية لغزو إيران إلى مسـامع الشـاه "طهماسـب"، حتى آثر اللجوء إلى الحلول الدبلوماسـية هذه المرة. فبادر إلى إطلاق سراح حاكم إمارة بيجا "محمود بَكْ" الذي أسره في إحدى المعارك بالقـرب مـن "أَرْضُـرُومْ"، وأرسـله إلـى إسـطنبول لإيصال رسـالة إلـى الإدارة العثمانية برغبته في إقرار السـلام، وإيفاد رسـول لعـرض مقترحاته لهذه الوتيرة على السلطان. ووافقت الإدارة العثمانية على استقبال رسول الشاه "طهماسب"، وأُرسـل خبر هذه الموافقة إلى الشـاه بواسـطة أحد الرجال الذين كانوا يرافقون

"محمـود بَـكْ" فـي رحلته إلـى إسـطنبول. وبناءً عليه، بعث شـاه إيران رسـولًا إلى إسـطنبول يُدعى "شمس الدين دجلاني" برسالة اعتذار إلى السلطان. إلا أن هذا الرسـول لم يعد بالخبر المأمول إلى الشـاه لوصوله إلى إسـطنبول في وقت كان الجيش العثماني فيه قد أعدّ العدّة، وخرج إلى غزو إيران. واحتجز السلطان سـليمان الرسـولَ الإيراني حتى وصل إلى حلب، وأخبره أنـه بإمكانه الردّ على عرض الشـاه. إلا أن الهدف الأساسـي الذي خروج من أجله السـلطان سليمان مـن إسـطنبول بتاريخ ١٨ رمضان ٩٦٠هـ (٢٨ آب/أغسـطس ١٥٥٣م) كان ابنه الأمير مصطفى. وكان السلطان قد اصطحب ابنه الأمير "جهانكير" كذلك عندما غادر إسـطنبول. وعندمـا وصل موكب السـلطان إلى منطقة "يني شـهير"، جاءه ابنه الآخر الأمير "بايزيد". فأمر السلطان بتعيينه قائدًا للحماية المدافـع عن ولاية الرُّومَلِي، وأرسـله إلـى مدينـة "أَدِرْنَه". ولما وصل السلطان إلى مدينة "كُوتَاهْيَا" أتـاه السـفير البولنـدي "يازلوفيسـكي". وأبلغـه السـلطانُ بشـعوره الإيجابـي بشـأن الخطـاب الـذي أتـى بـه، وعبّـر عن اسـتعداده لتنفيذ رغبـات البولنديين كوقف زحف قوات المغاوير العثمانيين على بولندا وتجديد المعاهدات القديمة الموقعـة بيـن الدولتيـن. كما سـمح له السلطان بالعودة إلى بلاده بعد ذلك.



منمنمـة تظهـر سـليمان القانونـي في أثناء موقعة نَاخْيتشِيفَان (سليمان نامه)

تقـدّم الجيـش العثماني حتى وصل إلى منطقة "بولفاديـن" يوم ٢٢ أيلول/سـبتمبر، وحينهـا جـاء حاكم ولايـة صَارُوخَانْ الأمير "سـليم" لتقبيـل يد والده السـلطان، وطلـب مـن والـده الانضمـام إلـى الجيش في هـذه الغـزوة، فوافق السـلطان على هذا الطلب. وأرسل السـلطان سليمان يستدعي ابنه الأكبر الأمير

مصطفى الذي أظهره البعض على أنه الخصم المتمرد. وكان مَنْ حول السلطان أثناء الطريق يملأون أذنيه بالشائعات التي تنتقص من قدر الأمير مصطفى وتقلل قدره لدى والده بشكل مستمر. ولقد تحرّك الأمير مصطفى من منطقة "إيرلي" في ولاية "قونيا" ووصل إلى منطقة "آقتبه" حيث يعسكر والده السلطان بتاريخ ٥ تشرين الأول/أكتوبر. ولم يكن يدري بما كان ينتظره، فأمر بنصب خيمته إلى جانب خيمة والده. وفي اليوم التالي، جاءه الوزراء وكبراء الدولة وقبّلوا يديه كما كان متبعًا وقتها، ومنحهم الأمير الهدايا من القفاطين الثمينة. ثم امتطى الأمير مصطفى جواده وسار به حتى وصل إلى خيمة والده، ونزل عن جواده أمام خيمة الديوان الوزاري. وصافحه الوزراء في المقدمة، ورافقوه حتى خيمة السلطان. وبدأ جنود الإنْكِشَارِيّة في التسليم عليه بصوت عال.

وتشير بعض المنمنمات التاريخية إلى أن الأمير مصطفى كان قد أطلق لحيته عندما جاء لمقابلة والده السلطان. وفي الواقع، فإن إعفاء اللحية بالنسبة لأمراء الدولة العثمانية كانت عادة تقتضي إقامة مراسم خاصة عقب صعود الأمير إلى عرش السلطنة. ولقد أدهش الأمير مصطفى الجميع بمظهره وملابسه تلك، وازدادت الشبهات التي كانت تحوم حوله. كما تواترت أنباء عن إرساله موفدًا إلى البندقية، وإقدامه على عقد بعض المباحثات الدبلوماسية مع المسؤولين الإيطاليين. وبينما يورد تقرير البندقية بعض المعلومات بشأن المبعوث، ينقل كذلك أنه كانت هناك تخوفات كبيرة من وصول هذه الأخبار إلى مسامع السلطان سليمان. حتى يُقال إن الخطابات التي أرسلها البنادقة إلى الأمير مصطفى سقطت في أيدي الإدارة العثمانية.

ودخل الأمير مصطفى خيمة والده وهو واثق بنفسه لأقصى درجة، إذ لم يكن على علم بما سيحدث له. وما إن دخل الخيمة وجد أمامه الجلّادين الذين كان يُطلق عليهم لقب "الأخرس". فلما رآهم تعجّب كثيرًا، وبدأ في الصياح على والده. وهاجمه بعضٌ من هؤلاء الجلّادين، فنشبت معركة بينهم. وأمسك "محمود أغا"؛ أحد أغوات القصر والذي سيُعرف بعد ذلك باسم "زال محمود

بَاشَا"، بذراع الأمير مصطفى، وتمكّن من خنقه بسرعة فائقة. ولـم يستطـع الأمير المسـكين المقاومـة، ولقي مصرعـه على الفور. وعقب إعـدام الأمير مصطفى، أُعـدم رجـلان آخـران من رجاله كانـا ينتظرانه خـارج الخيمة بقطـع رأسـيهما. ثـم بعـد ذلك توجّـه المختصون إلـى خيمة الأمير وحـددوا ما بداخلهـا. ونُقل جثمـان الأميـر إلى منطقة "إيرلـي"، وصُلي عليه صلاة الجنـازة. بعدها نُقل إلى ولاية "بورصا" لدفنه في جامع "مرادية". وقد أشاعت تقارير سفير البندقية -على وجـه الخصـوص- بعض الأقاويـل التي تتحدث عن وجود السـلطان سـليمان خلف سـتارة خيمته بينما كان ابنه الأمير يُعدم، حتى تشـير بعض تلك الروايات إلى أن السـلطان تحدث مـع ابنه وتجادل معه قبيل شـنقه. ويسرد تقرير عام نُشر عام ١٥٥٣م هذه الواقعة كالتالي:

"عندمـا دخـل الأميـر مصطفى إلـى الغرفـة الرابعة من خيمة السـلطان، وجد والده يجلس ممسـكًا قوسًا وسهمًا في كلتا يديه. فانحنى مصطفى احترامًا وتبجيلًا لأبيه. فصاح السلطان في وجهه قائلا

"أيها الكلب الوقح! بأي وجهٍ وأي جرأة تسلّم عليّ حتى الآن!"

ثـم أدار رأسـه إلـى الخلف. وكانت هـذه الحركة إشـارة للرجال الذين كلفهم باغتيال ابنه الأمير. فلفّ قائد الحرّاس يديه على عنق الأمير على الفور، وحذّره بقوله:

"إياك أن تتحرّك، فأنا أنفذ أوامر السلطان."

كمـا وثـب ثلاثة من الجلّاديـن الملقبين بـ"الأخرس" عليـه، ولفوا حول رقبته حبل القوس لخنقه. لكن هذا الخيط ما لبث أن انقطـع، واسـتطاع مصطفـى النجـاة بنفسـه مـن أيديهـم. وطـرح بعضهـم علـى الأرض، وحـاول الفـرار هاربًـا. إلا أنـه تعثّـر فـي ذيـل ملابسـه، وهوى سـاقطًا على الأرض. وحينها أمسكه قائد الحرّاس من قدميه، وبادر بقية الرجال إلـى خنقه مسـتخدمين حبال الأقـواس. لكنهم لم يسـتطيعوا خنقه هذه المـرة أيضًـا، ذلك لأن الأميـر مصطفى نجح في وضـع يديه بين عنقه وحبالهم، فحالت دون اختناقه.

فقال لهم السلطان سليمان:

"اخلعوا عنه عمامته وإلا لن تستطيعوا قتله."

والسبب في ذلك أن الأتراك معتادون على ارتداء قبعة مكتوب عليها بعض الكلمات أسفل العمامة، إذ يعتقدون أن هذه الكتابات تحميهم من الشرور. فالتقط قائد الحرّاس هذه القبعة وأعطاها إلى السلطان حيث أخذها السلطان ووضعها في إحدى جنبات الخيمة. ثم لفّوا حبلًا ثالثًا حول عنق الأمير مصطفى الذي حاول النجاة بنفسه عن طريق فتح فمه على آخره وإنزال ذقنه حتى صدره. إلا أن الحرّاس رفعوا رأسه بالقوة واستطاعوا قتله بعدما كان يمثل الأمل بالنسبة للعديد داخل البلاط العثماني، كما كان يعتبر الأمير الأشجع في السلالة الحاكمة."

ويمكننا أن نفهم بسهولة تامة أن هذه الرواية تعتمد في المقام الأول على الشائعات التي انتشرت داخل الجيش العثماني، وأنها مبالغ فيها بقدر كبير. وفي الواقع، ليس لدينا أي مصدر آخر نستطيع من خلاله التصديق المباشر لهذه المعلومات التي تذكر لنا كيفية قتل الأمير مصطفى. ويتناول سفير البندقية "تريفيسانو" الذي كانت تجمعه علاقة وطيدة بالصدر الأعظم "رستم بَاشَا" ما حكاه هذا الأخير له حول هذه الواقعة. وقد قال "رستم بَاشَا" له إنه كان متواجدًا داخل غرفة الخيمة أثناء قتل الأمير، مضيفًا أنه توصّل بنفسه إلى قناعات جازمة تشير إلى أن الأمير مصطفى أقدم على تنفيذ بعض الأعمال والمحاولات المشبوهة كي يعتلي عرش السلطنة محل أبيه، وأوضح الصدر الأعظم" أنه نقل هذه الوقائع إلى السلطان سليمان بعدما تيقّن منها تمامًا.

وقد كتب سفير البندقية أن واقعة إعدام الأمير مصطفى أحدثت حالة من الحزن العميق لدى الجميع سواء الأتراك المسلمون أو الأوروبيون النصارى، موضحًا أنه انتشرت مخاوف بين الناس من اندلاع ثورة كبيرة في أعقاب إذاعة خبر مقتل الأمير، وذكر أن الكره والبغض ضد "رستم بَاشَا" ازدادا بعد هذه الواقعة. ويروي السفير أن مصطفى تلقّى تحذيرات من والدته وبعض أصدقائه بهذا الشأن، إلا أنه لم يرد تصديقهم لثقته في أن والده السلطان لن يقدم

على القيام بحركة كهذه. لكنه في الوقت نفسـه قد ذهب طواعيةً إلى خيمة أبيه. ويقول السفير إن الجميع توقّع بشكل مثير للغاية نشوب حالة من الصراع والنزاع بين أبناء السـلطان سـليمان في حالة وفاته بعدما تقدّم به العمر. ويُروى أن الأمير مصطفى كان محبوبًا للغاية من قبل طبقة الجنود الإنْكِشَارِيّة، ولذلك كان يتمتع بامتياز كبير للارتقاء إلى عرش السلطنة خلفًا لأبيه. والسبب في ذلك أنه لم يكن أحدٌ يفكّر على الإطلاق أن يعتلي العرش أحد غيره بعد وفاة السـلطان سـليمان. وبالرغم من ذلك كان الأميران "سـليم" و"بايزيد" يمتلكان أوراقًا رابحة لكسـب هذا السـباق. فالأمير "سـليم" يتمتع بوضـع يمكّنه من السـيطرة على إسـطنبول بسـهولة بدعم من والدته "خُرّم" والصدر الأعظم "رسـتم بَاشَـا". كما أنه بإمكاننا التوقـع بإقـدام أخيه "بايزيد" على بعض المحاولات في هذا الصدد. إلا أنه على ما يبدو أن كل شـيء جاهز ومعدّ للتنفيذ لمسـاندة "سـليم" للصعود إلى العرش. والآن وبعد مقتل الأمير مصطفى بدأت هذه الأوضاع تبدو بشكل أكثر وضوحًا. ولهذا السبب كان السلطان سليمان يأمل في أن يتواجد ابنه الأمير "سليم" بجواره ويشـارك في الحروب، وأن ينجح في كسـب ودّ الإنْكِشَارِيّة وسائر فرق الجيش بالنجاحـات التـي يحققها فـي الغزوات. وأما الإنْكِشَـارِيّة والشـعب بصفة عامة لم يكونوا يحبون الأمير "سـليم"، وكانوا يقلّلون قدره لفشـله في تنفيذ أي عمل بطولي يُحسب له، ويلقّبونه باسم "السلطان الساذج".

وفـي حقيقـة الأمـر، لقد أفضـى مقتل الأميـر مصطفى إلى حـدوث حالة مـن الحزن العام وسـيطرة حالة من الانفعال علـى جنود الجيش. ويبدو واضحًا أن السـلطان هو نفسـه أيضًا يشـعر بالأسـى العميق لمقتل ابنه الذي شُـنق أمام عينيـه. ويبـدو أن حالة من تصفية الحسـابات نشـبت بين أفراد الأسـرة الحاكمة العثمانيـة مـرة أخـرى كما هو متبـع في عادات السـلطنة. فمفهـوم الدولة لدى العثمانييـن قـد اتخـذ من أبديتها أساسًـا لـه، وكان يرى الأسـرة الحاكمة كجزءٍ لا يتجزأ عن هذا المفهوم. ولقد شهد السلطان سليمان الصراع الذي عاشه والده مع إخوته في الماضي عن كثب. ولم يكن يرغب في نشوب حالة من الفوضى في دولته في وقت بلغ فيه من العمر عتيًا. وفي النهاية قرّر التضحية بابنه الأمير

مصطفى في سـبيل حماية إمبراطوريته. إلا أنه كان يتعيّن عليه في الوقت نفسـه اسـترضاء مشـاعر شـعبه الغاضبة. فأقدم علـى تنفيذ بعض الإجـراءات في هذا الصـدد، كان أولها عزْل الصدر الأعظم "رسـتم بَاشَـا" من منصبـه، وعيّن مكانه الوزيـر الثانـي "قارا أحمد بَاشَـا". وكان غرضه من وراء هـذه الخطوة هو حماية زوج ابنته "رستم بَاشَا" الذي لم يبخل في دعمه كثيرًا من أجل الحفاظ على أمن الدولة واسـتقرارها. وقد بادر السـلطان سـليمان إلى تنفيذ هذه الإجراءات رغم الانتقـادات الموجهـة إليـه. لكنه في الوقـت ذاته كان يطمح إلـى تخفيف وطأة ردود الأفعال الغاضبة لمقتل الأمير مصطفى من خلال الخروج في غزوة جديدة إلـى إيـران. وفـي حقيقة الأمر لم يكن "رسـتم بَاشَـا" محبوبًا للغايـة من الجنود والإداريين نظرًا لامتلاكه شـخصية بخيلة. وقد أوضـح سـفير البندقية أن "رستم بَاشَـا" لـم يكن ينتظر أن يعاقبه السـلطان بعقوبة أكثر مـن عزله عن منصبه. ذلك أنه كان يعرف السـلطان سـليمان جيدًا، وكان يتصرّف بحيطة وحذر شـديدين. كما أنه لم يكن من النوع الطائش الذي يعطي الفرصة لأعدائه كي يتخلّصوا منه. وبالرغم من أن السفير لم يكن يدري مدى إمكانية إسناد منصب الصدر الأعظم مرة أخرى لـ"رسـتم بَاشَـا"، فإنه لم يقطـع الاتصال به لعظمة قوته ونفوذه، وهو ما سيساعده في المستقبل لتحقيق نجاح دبلوماسي هام للغاية لدولته.

وسنرى أن ردود الأفعال الغاضبة على إعدام الأمير مصطفى لن تهدأ على الرغم من كافة المحاولات الرامية لتخفيف حدّتها. وسنشاهد أن المرثيات التي نظمها الشعراء لرثاء الأمير ستجد رواجًا كبيرًا بين أفراد الشعب، وستنتقل بينهم بشـكل سـريع. ويأتي الشـاعر "يحيى بَكْ" في مقدمة أبرز الشعراء الذين نظموا قصائدهـم فـي رثاء الأميـر مصطفى. ولقد لاقت المرثية التـي ألّفها لنعي الأمير قبولًا واسـعًا بين كافة طبقات الشـعب. حتى إن "رستم بَاشَا" لاحق هذا الشاعر قضائيًّا بعدما اتهمه بالتسبب في مقتل الأمير مصطفى، إذ ألصقت هذه المرثيات تهمـة مقتـل الأمير إلى "رسـتم بَاشَـا"، كمـا تضمّنت بعض العبـارات التي تتهم السـلطان سـليمان وزوجته "خُرّم سـلطان" بهذه الجريمة. وجاء في حق "رستم بَاشَا" في هذه المرثيات ما يلي:

"توارى عن الدنيا ذاك السلطان

وحزن الناس جميعًا لفراقه

فهذه مصيبة أصابت الجميع بأسى بالـغ

وأقامت الأفلاك والملائكة المأتم لوفاته

فهم قتلوا هذا المظلوم بغير ذنب

وسيكتب التاريخ مكر رستم"

وقيل في حق السلطان سليمان ما يلي:

"هذا هو السلطان مصطفى يا سلطاني

فهو سرور الدنيا ونور العيون

وبينما كان يسير في طريقه كالشجاع

لماذا سقط وهو في طريقه"

وفي موقـع آخر:

"قتلتموه وسال دمه، فهل هذه الحقيقة؟

وأقنعتك أقوال الأعداء، فهل هذه المودة؟"

وفي ما يلي نرى شـاعرة تُدعي "نسـائي" انتقدت موقف السـلطان سليمان وزوجته "خُرّم" إزاء حادث مقتل الأمير مصطفى في مرثية لها قلت فيها:

"لقد ظلمت هذا الشجاع وجنيت عليه

وخنقته من رقبته وآذيت روحه

ولم تهتدِ وترجـع عن قرارك وأن تعلم أن الرحمة من الإيمان

وقتلت ملك العالم السلطان مصطفى بلا رحمة"

"سرت وراء كلام ساحرة شريرة

واستمعت لكلامها ومكرها

وظلمت هذه الثمرة التي زرعتها ورويتها طيلة عمرك

وقتلت ملك العالم السلطان مصطفى بلا رحمة"

وبعد مقتل الأمير مصطفى، لم يعُد والده السلطان سليمان إلى إسطنبول، واتخذ قرارًا بمواصلة رحلته إلى غزو إيران. واستكمل طريقه نحو شرق الأناضول على الرغم من اقتراب فصل الشتاء. ويبدو أن السلطان وضع في حسابه أنه إذا عاد إلى إسطنبول في ذلك التوقيت فإن حادثة مقتل الأمير مصطفى ستُقابل بردود أفعال أكثر غضبًا من أي وقت لاحق. وربما تُنسي هذه الغزوة وما سيصاحبها من معارك حربية الجميعَ هذه الواقعة المحزنة بشكل مؤقت. وقد رجّح السلطان قضاء فصل الشتاء في حلب بعدما بدأت أمارات البرودة والأمطار تظهر في الأفق. وتعتبر مدينة حلب من المدن التي قضى بها السلطان سليمان وقتًا طويلًا عندما كان يخرج في غزواته الشرقية، وربما أُعجب بها لدرجة جعلته يفضّل المرور عليها في هذه الغزوة كذلك. وأما وحدات الأمير "سليم" العسكرية كانت ستقضي فصل الشتاء في ولاية "مَرْعَشْ"، فيما سيقضي جنود الرُّومَلِي الشتاء في ولاية "توقاط". وقد سمح السلطان لمبعوث الشاه بالعودة إلى إيران بينما كان طريقه صوب حلب. وفي نهاية الرحلة، وصل السلطان إلى حلب يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٥٥٣م. وكان يرافقه أصغر أبنائه الأمير "جهانكير" الذي كان جسده ضعيفًا ونحيلًا وظهره محدب قليلًا، ولعل مشاكله الصحية تلك جعلت والده السلطان يحبه كثيرًا. وقد شعر "جهانكير" بالإرهاق الشديد من مشقة الرحلة والحزن لمقتل أخيه الأكبر مصطفى، كما أصابه المرض. ولم يكن "جهانكير" يملك أدنى فرصة للصعود إلى العرش مقارنةً بأخويه الأكبر منه. ولقد أصيب هذا الأمير بحالة من التدمير النفسي خشية أن يتعرّض لعاقبة أخيه الأكبر مصطفى في المستقبل على الرغم من عدم رغبته في اعتلاء عرش السلطنة، آخذًا بعين الاعتبار ما فعله والده السلطان سليمان بابنه الأكبر من قبل. كما تفاقمت أعراض المرض عليه مع مرور الوقت. ويروي مبعوث البندقية "برناردو نافاجيرو" ما يلي حول الأمير "جهانكير" في التقرير الذي عرضه على مجلس الشيوخ في البندقية عام ١٥٥٣م:

"الأمير جهانكير هو الابن الأصغر للسلطان سليمان من زوجته خُرّم. وبالرغم من أن ظهره مقوّس بعض الشيء، إلا أنه على درجة عالية من

الذكاء. وهو يعيش في القصر بجوار والده، لكن عمره تقدّم وحان وقت خروجه من القصر. ويقال إنه أكبر مصدر للمرح والترفيه بالنسبة لوالده السلطان. وهذا صحيح، إذ إن السلطان سليمان كان يصطحبه في كل جولة صيد ورحلة يقوم بها مستقلًا المركب. وكان الأمير جهانكير يقول لوالده "يا سيدي! رزقك الله طول العمر والبركة فيه. أنا لم أفقد أملي في أن أكون حاكمًا كبيرًا. وإن لم يحدث ذلك، فلن يحميني أحد بغض النظر عن من سيكون السلطان.

وقال له والده السلطان سليمان ذات يوم وهو يتنهّد

"يا بني! إن من سيحكم هو الأمير مصطفى، وحينها سيقتلكم جميعًا".

تُوفي الأمير "جهانكير" يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه. وكان مرضه قد استمر لأربعة أيام، وعندما انتشر خبر وفاته، ظنّ الجميع أن السلطان سليمان هو من مات لحداثة سن الأمير "جهانكير". حتى إن بعض الجنود بدؤوا في سلب ونهب ما قابلهم. ثم وعي الجميع حقيقة الأمر، وخرج السلطان سليمان إلى باب المكان الذي كان يمكث فيه، ووقف متكئًا على عصا كانت في يده، ووقتئذ تيقّن الجميع أن السلطان لا يزال على قيد الحياة. ثم استتبت الأوضاع في المدينة وصار كل شيء تحت السيطرة. وأُقيمت مراسم لتوديع جثمان الأمير "جهانكير"، وبعدها نُقل إلى العاصمة إسطنبول لدفنه. ولما وصل الجثمان إلى إسطنبول دُفن إلى جانب شقيقه الأكبر الأمير محمد في صحن مسجد بُني باسمه -أي الأمير محمد- في إسطنبول. وعندما وصل خبر إعدام الأمير مصطفى إلى زوجة السلطان "خُرّم" أدركت أن أبناءها صار بإمكانهم اعتلاء عرش السلطنة دون مواجهة منافس حقيقي، وتيقّنت أنها وصلت إلى غايتها في نهاية المطاف. إلا أنه يمكن التخمين بسهولة تامة إلى أي درجة هزّت وفاة أصغر أبنائها الأمير "جهانكير" كيانها ووجدانها. وربما اعتبرت وفاة ابنها ما هي إلا تجلٍّ للعدالة الإلهية لدورها الرئيسي في إعدام الأمير مصطفى، حتى إنها على ما يبدو نظرت إلى هذه الواقعة على أنها بمثابة عقوبة لجريمتها، مما دفعها إلى محاسبة نفسها على ما اقترفته من الخطايا. لكن حالتها العامة

فـي الوقـت نفسـه لـم تكن قد سـاءت إلـى حد كبيـر بعـد أن وجـدت عزاءها في سائر أبنائها الآخرين. وأما "مَاهِي دَوْرَانْ" والدة الأمير مصطفى لم تكن لديها فرصة كهذه، إذ كانت قد بلغت من الكبر عتيًّا، وشـعرت وقتها بأنها صارت في وضـع لا تُحسد عليه بعد مقتل ابنها الوحيد الذي كانت تبني عليه آمالًا عريضة. ولقد انتقلت "مَاهِي دَوْرَانْ" بعد ذلك إلى ولاية "بورصا"، ومكثت بها مسـتفيدة من المبلـغ الذي كان يُرسل إليها من القصر في إسطنبول حتى وافتها المنية.

لجـأ السـلطان سـليمان إلى قضاء أوقاتـه في الخروج إلى جـولات الصيد للتخفيـف ولـو قليلًا عـن الحزن الـذي أصابه جراء وفـاة ابنيْه فـي حلب. حتى إنـه اسـتدعى ابنـه الأمير "سـليم" للغـرض ذاته، إذ خـرج مـع "سـليم" في جولة صيـد، لدرجـة أنه طلب الذهاب إلى القدس، لكنـه تراجـع عن هذه الرغبة جرّاء تـردّي الأحـوال الجويـة. وقد اسـتقبل في تلـك الأثناء رسـولًا قادمًـا من ولاية "أَرْدَلْ" فـي المَجَـر، بحيـث أخبره هذا الرسـول أن الملكة "إيزابيـلا" تطلب منه مـد يد العـون. وأبلغته الملكة أن آل "هابسـبورج" عمدوا إلـى تكتيكات جديدة لانتـزاع دولتهـا من بين يدي ابنها. وبخلاف ذلك، أقدم السـلطان سـليمان على تنفيـذ بعض الإصلاحات المالية على مدار الفترة التي قضاها في حلب. وأصدر أوامـره للحيلولـة دون انتشـار عمليات الاسـتغلال وسـوء التصـرّف فيما يتعلق بجباية الأعشـار وسـائر الضرائب الأخرى. كما أولى السـلطان اهتمامًا بتوسـيع رقعـة الأوقاف فـي حلب. ولقد طبّق السـلطان كافة هذه الإجـراءات كذلك في دمشـق والقـدس. وكان يتابـع أيضًا الأنباء الـواردة من الجبهة ضـد الصفويين. وجاءه رسـل من ولايـة "وَانْ" يخبرونه بتحرّكات الشـاه وهجمات على الولاية، واصطحبـوا معهم أسـيريْن صفويين إلى السـلطان. وتحرّك السـلطان من حلب يـوم ٩ أيار/مايـو حتى وصل إلى "ديار بَكْـر" متبعًا طريق "أورفا"، وأقام في مدينة "جيفليـك". وأمـر في هذه المدينة بعقد اجتماع ديوان كبير. وبخلاف المعتاد، لم يجتمـع السلطان سليمان بأعضاء الديوان فقط، بل جمـع في الوقت نفسه حشدًا كبيـرًا مـن ضباط وقادة طبقة الإِنْكِشَـارِيّة على مختلف رتبهـم، وكان يلقي كلمة أمام كل زمرة من هؤلاء عندما يقف أمامهم. وأخذ يشـرح لهم أسـباب الخروج

فـي هـذه الغزوة على إيران، موضحًا أن اعتداءات الشـاه على الدول الإسـلامية تأتي على رأس هذه الأسـباب، وأن شرف السلطنة العثمانية جعل من الضروري الخروج في هذه الغزوة. وذكر أمامهم أن الغازين من جنود وضباط الإِنْكِشَـارِيّة بذلوا جهودًا جبارة لخدمة الدين والسـير علـى درب آبائهم وأجدادهم العظماء، معربًا عن أمله في أن يرى منهم المزيد من الشـجاعة والإقدام وتقديم الخدمات فـي المسـتقبل أيضًـا. ووعدهم بمكافـأة مَنْ يبلي منهـم بلاءً حسـنًا في الحرب بالعديد من المكافآت القيّمة. وقد دمعت عيون كل من سـمـع خطاب السـلطان هذا وهم متأثرون للغاية، وعاهدوه على السمـع والطاعة حتى وإن ذهب إلى الهند أو الصيـن أو حتـى إلى جبل قاف وعدم العودة مرة أخرى. كما وعدوه في نَفس واحد بالتضحية بأنفسهم في سبيله وسبيل الإسلام والوطن، وأنهم سينفذون كل ما يوجه إليهم من تعليمات. وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان الفوز بقلوب جنـود جيشـه، إذ حصلوا على جرعة كافية من شـحن المعنويـات قبيل توجههم للخـروج للحرب. ولقد سـجّل مبعوث بندقيّ آخر كان متواجـدًا داخل الجيش العثمانـي فـي ذلك الوقت تلك الواقعـة، حيث أفاد بأن الحـكام العثمانيين نادرًا ما يلقون خطابات حماسية كهذه، مشيرًا إلى أن خطاب السلطان سليمان أعجب الجميع وأدهشـهم. وسـاهم هذا الخطاب في إطلاع السـلطان على حالة جنوده ومعرفة ما إذا كانت سـلطته عليهم قد تزعزعت أم لا بسـبب حادثة إعدام الأمير مصطفى. وبعد أن اختبر السـلطان ولاء قادة جيشـه وجنوده له، انطلق إلى ولاية "أَرْضُرُومْ" متبعًا طريق "تشاباكتشور"، وأصدر فرمانًا بحشد جميـع جنود ولايات الأناضول في محيط ولاية "أَرْضُرُومْ" في عيد النَّوْرُوزْ (عيد الربيـع) وهم يحملون معهم الكثير من المؤن والأطعمة.

وفي هذه الأثناء وصل السـفير الإيراني "شمس الدين دجلاني (*Dilcânî*)"؛ الذي سمح له السلطان سليمان بالذهاب قبل ذلك، إلى جوار الشاه "طهماسب" المتواجـد فـي "ناخيتشـيفان" مطلـع عـام ١٥٥٤م، وسـلّمه خطـاب السـلطان. وأرسل الشاه فرقة من المغاوير في ذلك التوقيت إلى ولايات "وَانْ"، و"واسطان (*Vastan*)"، و"أرجيـش"، و"عادلجـواز" لسـلبها، كما نهبت هـذه الفرقة المناطق

المحيطة بولايتيْ "هاكّاري" و"جيفار". وكما هي عادته المعهودة، أمر الشاه جنوده بتدمير وحرق كل شيء قابلهم في طريقهم؛ ومواصلة الكر والفر. وقد أصدر السلطان سليمان أمرًا بالخروج في الغزوة لكلٍّ من قائد جنود الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا" الذي قضى فصل الشتاء مع جنوده في ولاية "توقاط"، وحكّام ولايات الأناضول، وسِيوَاسْ، ودمشق، ومَرْعَشْ، وقائد إمارة أضنه. بالإضافة إلى أنه أجرى تغييرًا إداريًّا أثناء مغادرته حلب وعيّن إِسْكَنْدَرْ بَاشَا حاكمًا على "ديار بَكْر"، ومحمد بَاشَا بن دوكاكين" قائدًا لحامية مصر، والوزير الثاني إبراهيم بَاشَا قائدًا لحامية إسطنبول. ثم تحرك موكب السلطان سليمان من منطقة "جفليك"، وتقدّم ويرافقه جنود الشام والأناضول وجنود الـ"قَابِي قُولُو" حتى وصل إلى منطقة "جاباقجور (*Çapakçur*)". وعبر الجيش العثماني نهر "مراد" إلى الجهة المقابلة بواسطة جسر بنوه فوق مياهه. وبعد أن تحركت القوات العثمانية من تلك المنطقة، انضمّ إليها حاكم ولاية "ديار بَكْر" إِسْكَنْدَرْ بَاشَا بجنود ولايته. وعندما وصل الجيش إلى موقع "صوشهري (*Suşehri*)"، لحق به "سُوكُولّو محمد بَاشَا". كما انضمّ إلى الجيش كلٌّ من الأمير "سليم"، وحاكم ولاية الأناضول أحمد بَاشَا، وحاكم ولاية كارامان "علي بَاشَا"، وحاكم ولاية سِيوَاسْ "علي بَاشَا"، وحاكم ولاية ذُو الْقَادِر "حيدر بَاشَا" (٩ حزيران/يونيو). ثم وصل الجيش إلى سهْل "بسين" يوم ١٢ حزيران/يونيو. وانتظر في تلك المنطقة لمدة ١٢ يومًا حتى تصل إمدادات المؤن. وقد بادر جنود الجيش خلال فترة الاستراحة هذه إلى التدريب على المناورات العسكرية وضرب النار، إذ تنافسوا فيما بينهم لإظهار مهاراتهم وقدراتهم. ويشير المؤرخ العثماني "جلال زاده" إلى أن الفرسان كانوا يقومون بعروض عسكرية على ظهور الجياد، وكانوا ينظرون خلفهم وهم يسيرون إلى الأمام ويصوبون سهامهم صوب آثار نعول الجياد على الأرض. كما كانوا يتمايلون ناحيتيْ اليمين واليسار على أرداف الأحصنة، ويصوبون سهامهم صوب الأهداف وهم على هذه الوضعية، ويلعبون السيوف والتروس كذلك[٨٩]..

(٨٩) (ورق: *372b-373a*)

ولما وصل الجيش إلى سهْل "قارس" يوم ٥ تموز/يوليو، أرسل السلطان سليمان خطابًا شديد اللهجة إلى الشاه "طهماسب". وكان هذا الخطاب يشبه الخطاب الذي أرسله والده قديمًا إلى الشاه إسماعيل. وقد دعا السلطان سليمان شاه إيران في هذا الخطاب إلى الحرب، ودعاه أيضًا إلى العدول عن مذهبه المنحرف والعودة إلى الإسلام. وقدّم له فتاوى دينية أصدرها علماء عثمانيون تتحدّث عن أن ما يفعله ضد المسلمين هو كفر بواح وزندقة صريحة بحسب المذاهب الأربعة لأهل السُنّة، مشيرًا إلى أن علماء الإسلام أصدروا فتاوى عدّة بشأن إهدار دماء أمثاله إذا أصر على أفعاله. وأضاف السلطان في خطابه أنه عازم على القضاء على الصفويين إذا ما واصلوا المقاومة معتمدين على مذهبهم المضل، موضحًا أنه آثر اتباع السُنّة في إرسال دعوة من أجل أن يتوب ويعود إلى الإسلام قبل أن تنشب الحرب بين الطرفين. كما دعاه السلطان سليمان إلى إظهار الشجاعة والرجولة في ميدان المعركة وعدم الفرار منه خائفًا كالنساء، وتابع بقوله:

> "بعد انسحاب البواسل المنتقمين من أمامك، سعيتَ في الأرض فسادًا تنهب أموال فقراء المسلمين وبيوتهم وتبيدهم قتلًا وتعذيبًا، أولئك العاجزون الذين ائتمننا الله على حفظ أمنهم وحمايتهم. وهذا لا يليق بأهل الإسلام الذين آمنوا بالله واليوم الآخر. فإن كان في قلبك ذرة من نور الإيمان، وفي ضميرك نفحة من العقائد الدينية، فاتبع تعاليم الإسلام، وتُبْ واندم على رفضك وإلحادك بعقائد الإسلام. وإن كنت تخشى مدافعنا وبنادقنا، فهي ليست مُعدّة لمهاجمة الروافض والملحدين، فسيوفنا تكفي لصد بغي فئة مكروهة يعلم مكرها الجميع".

ولقد أوضح السلطان سليمان في هذا الخطاب السبب الرئيسي لخروجه في غزوة "ناخيتشيفان"، كما أخبر الصفويين الموقف الصلب للجيش العثماني من الآن كي يستعدوا جيدًا للمعركة الحاسمة. وسار الجيش العثماني في طريقه حتى وصل إلى منطقة "شوريجيل" يوم ١٠ تموز/يوليو، وبدأ اعتبارًا من تلك المنطقة في الهجوم على كافة القرى والمدن الخاوية حتى عودته إلى إقليم

"ناخيتشـيفان". وكان الشـاه "طهماسـب" في هذه الأثناء يحشد كافة قوات جيشه لمواجهة تقدّم الجيش العثماني، وتحرّك من "ناخيتشيفان" إلى مرعى "بازارجاي". وعمدت القوات الصفوية إلى تحويل الأماكن التي سـيمرّ منها الجيش العثماني إلى صحراء جرداء، وبدأت في الانتظار هناك حتى تنتهز فرصة سانحة لاصطياد الجنود العثمانيين. إلا أنه في الوقت الذي تسـلّم فيه الشـاه "طهماسـب" خطاب السلطان سليمان، كانت مناطق عدّة من دولته تتعرّض لعمليات الخراب والتدمير. فبالرغـم من سـكون الأوزبك وعدم مبادرتهم بـأي هجوم على الصفويين، دخل "قاسـم بَاشَـا الشـيرواني" في معركـة ضد "أوسـطاجلو عبد الله خـان" وهو أحد المنتسبين للصفويين. هذا بالإضافة إلى أن حاكم ولاية بغداد "عثمان بَكْ" تحرّك حتى وصل إلى مدينة "شهرزور"، وهزم حاكم ولاية أرديلان الكردي "سهراب"، واختطفـه إلـى مدينة "دينفر". كما قام حاكم ولاية عمادية "سـلطان حسـين بَكْ" بالانطـلاق نحو المنطقة المحيطة ببحيـرة "أرومية"، وواصل هجماته حتى وصل إلـى مدينـة "مراغـة". وقد تقدّم حاكـم ولاية "وَانْ" فرهاد بَاشَـا أيضًـا إلى مدينة "إيليشجرد"، وسار بقواته حتى حدود منطقة "أراص".

وبينمـا كان السـلطان سـليمان متواجـدًا فـي موقـع يُقـال له "شـرابخانه" يتبـع منطقة "شـوريجيل"، وقعت معركة بين طلائـع الجيش الصفوي وطلائع مـن الجيـش العثماني كان يقودها "دُو الْقَادِرلـي مِيرْزَا علي"، إذ نجحت القوات العثمانيـة في إلحاق هزيمة بالصفويين، وأسـرت عددًا منهم، واقتادتهم إلى مقر قيـادة الجيـش. واعترف أحد هؤلاء الأسـرى بأن الشـاه "طهماسـب" فـرّ هاربًا بصحبة جيشه وتوارى عن الأنظار. وواصل الجيش العثماني طريقه، فعبر منطقة "قافاكبيلـي"، ثـم وصل إلى مدينة "روان" يـوم ١٨ تموز/يوليو. وبادرت القوات العثمانية إلى حرق وتدمير موقـع بُسـتاني يُسـمى "باغي سـلطاني" كان يخلد فيه ابـن الشـاه وأمـراؤه للراحة والاسـترخاء. ووصل الجيش إلى سـاحل "أراص"، ثم انتقل إلى مدينة "آرباجاي (*Arpaçayı*)" يوم ٢٤ تموز/يوليو. وفي تلك الأثناء صادفـت قـوات حاكم ولاية "ديار بَكْر" إِسْـكَنْدَرْ بَاشَـا مجموعة من الصفويين، ونجحـت في تفريقها. وعندمـا وصل الجيش العثماني إلى منطقة "قارا حصار"،

ظهر سواد في الأفق، وكان ذلك كمائن نصبها الصفويون للقوات العثمانية. فتمكّن العثمانيون من تفريقهم وجعلهم يهربون إلى الجبال المحيطة بالمنطقة. ولما وصلت القوات العثمانية إلى إقليم "ناخيتشيفان" وجدته أُخلي بالكامل وتحوّل إلى صحراء قاحلة. وكان الشاه "طهماسب" قد انسحب من أمام القوات العثمانية وتوجّه صوب مرعى يُطلق عليه اسم "ايكرتشلر (*Eğerçeler*)" يقع بين منطقتيْ "ناخيتشيفان" و"جينجه (*Gence*)". ولم يرَ السلطان سليمان تعقّب الشاه مناسبًا، ذلك لأنه كان من المحتمل أن تواجه القوات العثمانية مخاطر عدّة ومشقات كثيرة طوال الطريق بين الجبال المنحدرة. ولقد اقتنع السلطان سليمان بأنه شفى غلته من الصفويين، لذلك اتخذ قرارًا بالعودة.

وفيما تحرك الجيش العثماني من أجل العودة إلى إقليم "ناخيتشيفان"، وصل حاكم ولاية عمادية "سلطان حسين بَكْ" إلى مدينتيْ "مراغة" و"سرهند" القريبة من عاصمة الشاه تبريز بأمرٍ من السلطان سليمان، وأغار على قوة عسكرية صفوية كانت تقيم في موقع يُقال له "تخت سليمان" وكان من بينهم بعض الأمراء الصفويين المهمين، ونجح في هزيمتهم وتفريقهم، وأرسل إلى السلطان سليمان بعض الرايات والطبول وذيول الخيول التي حصل عليها منهم. وقد عبر الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان مدينة "أراص" يوم ٣١ تموز/يوليو، ووصل إلى جبل "قارجاليق (*Kargalık*)"، ثم إلى منطقة "بايزيد" يوم ٦ آب/أغسطس. وبينما هم كذلك جاء خطاب أرسله الشاه "طهماسب" إلى الصدر الأعظم. وتضمّن هذا الخطاب -بحسب ما ذكره المؤرخ "جلال زاده"- بعض العبارات التي كان من بينها أنه لم يستطع المجيء لمقابلتهم بسبب عجزه، وأنه لن يستطيع مقابلته مطلقًا حتى لو جاء إلى إيران عشرات المرات في المستقبل. وأما الخطاب الذي أرسله الصدر الأعظم أحمد بَاشَا ردًّا على خطاب الشاه فجاء به التأكيد على القضايا التي ناقشها السلطان سليمان في خطابه، مخبرًا إياه بأنه إذا جمعتهم الأقدار في ساحة الحرب فإن القوات العثمانية ستترك المدافع والبنادق وستقاتلهم باستخدام السيوف. فأرسل الصفويون ردًّا على هذا

الخطاب في رسالة يطلبون فيها عقد معاهدة سلام مع الدولة العثمانية. فأجابهم العثمانيون بضرورة عدم السعي في الأرض فسادًا ونشر الفتن في بلاد المسلمين إذا ما كانوا يريدون السلام، وأبلغوهم بأنهم سيقضون فصل الشتاء على الحدود بين البلدين وسيغيرون عليهم بعد انقضائه في حالة إصرارهم على مواصلة البغي بغير الحق. حتى إن هذا الخطاب أشار إلى إمكانية تدمير مدينة "أردبيل" التي تعتبر مكانًا مقدسًّا بالنسبة للصفويين. وشمل خطابٌ أرسله حاكم ولاية أَرْضُرُومْ "أَيَاسْ بَاشَا" إلى الصفويين الكلام ذاته، إذ أفاد بأن قواته ستدمّر مدينتي "أردبيل" و"تبريز" بعد انقضاء موسم الشتاء، مشيرًا إلى أن السلطان سليمان سيقبل إبرام اتفاق سلام مع الصفويين إن هم أردلوا ذلك.

ولقد تبادل وزراء كلا الطرفين المراسلات نيابة عن حاكميهما، وتناقشا بشأن كافة الأوضاع فيما بينهما، إلى أن هدّد الجانب العثماني بحرق "أردبيل" و"تبريز" وتدميرهما، مما أقلق القادة الصفويين كثيرًا. كما شعر الصفويون بالقلق والحيرة عندما وصلتهم أنباء قضاء السلطان سليمان فصل الشتاء في ولاية "أَمَاسْيَا"، واقتنعوا بأن التهديدات العثمانية جدّية وليست من قبيل المزاح. تحرك السلطان سليمان صوب مدينة "بايزيد" يوم ٩ آب/أغسطس، ومن هناك وصل "إيليشجرد" يوم ١١ آب/أغسطس. واستطاع أن ينجو بنفسه من خطر حريق اندلع في مرتع يسمى "دولبندي". ووصل الجيش العثماني إلى قلعة "حسن" يوم ١٧ آب/أغسطس. ولقد أرسل الشاه "طهماسب" فرقة من المغاوير يقودها "مهردار شاه قولو" إلى ولاية "داف إيلي (*Dav-ili*)" لنهبها. وتقابلت القوات الصفوية بقوة عثمانية تابعة للحاكم العثماني "سنان بَكْ" بالقرب من مدينة "أولتو (*Oltu*)"، فقتل الجنود الصفويون معظم القوات العثمانية، وأسروا "سنان بَكْ". كما أغارت هذه القوة الصفوية على إمارة "كامهيس (*Kamhis*)"، ثم عادت أدراجها. وواصل الصفويون هذه الغارات أيضًا في جورجيا لفترة من الوقت. وعندما وصل الجيش العثماني إلى سهْل "أَرْضُرُومْ"، أرسل السلطان سليمان -الذي وصلته أنباء عن هذه الهجمات الصفوية- الصدر الأعظم أحمد بَاشَا

على رأس قوة عسكرية إلى "أولتو". ووصل أحمد بَاشَا إلى "أولتو"، وأخذ يتقدّم بقواته، لكنه عاد مجددًا عندما لم يجد أثرًا للجيش الصفوي. وكان الشاه "طهماسب" قد سحب قواته لما علم بقدوم القوات العثمانية. وبينما كان السلطان سليمان يقيم في "إيليشجرد"، أتاه رسول صفوي يوم ٢٩ شوال ٩١٦هـ (٢٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٤م) بخطاب من الشاه "طهماسب". وكان هذا الرسول هو أحد الحرّاس الصفويين ويُدعى "شاهقولو أغا (*Şahkulu Ağa*)". وكان يرافق الرسول الصفوي الحاكم العثماني "سنان بَكْ" الذي سقط أسيرًا في أيدي القوات الصفوية قبل ذلك. واستقبل السلطان سليمان الرسول الصفوي الذي أقدم على تقبيل يده، وقدّم إليه رسالة الشاه. وقد وافق السلطان على إبرام اتفاق سلام ونبذ العداوة والبغضاء مع الصفويين، كما أعطى الرسول خطابًا موجّها إلى الشاه "طهماسب".

وفي هذه الأثناء وصلت أنباء من حاكم بغداد محمد بَاشَا تشير إلى أن بعض المدن التابعة لإيران في منطقة "شهرزور (*Şehrizor*)" مثل "زالم (*Zâlem*)"، و"هافار (*Havar*)"، و"باسكي (*Paske*)"، "قزلجه قلعة (*Kızılcakale*)" قد تم الاستيلاء عليها، مضيفًا أن حكام ولايات "باني (*Bâne*)"، و"هيفينج (*Heveng*)"، و"سيادي (*Siyâde*)"، و"أفرامان (*Avraman*)" قدّموا فروض الطاعة والولاء للدولة العثمانية. وتحرّك السلطان سليمان من "أَرْضُرُومْ" إلى "أَمَاسْيَا" لقضاء فصل الشتاء بعدما منح حكام الولايات العثمانية الرتب العليا والترقيات للجنود. ووصل الجيش العثماني إلى "سِيوَاسْ" بعد مغادرة "أَرْضُرُومْ" بعشرين يومًا، ثم إلى "أَمَاسْيَا" بعدها باثني عشر يومًا. وأسند السلطان مهمة الوزارة إلى حاكم ولاية الرُّومَلِي "سُوكُولّو محمد بَاشَا"، وأمره بقضاء فصل الشتاء في ولاية "كارامان". ووصل السلطان سليمان في نهاية الأمر إلى "أَمَاسْيَا" يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، وقضى أيامه التي أقامها بها منشغلًا بالمفاوضات السياسية والمسؤوليات الإدارية، هذا بالطبع إلى جانب خروجه في جولات الصيد.

وكان تفضيل السلطان لولاية "أَمَاسْيَا" لقضاء موسم الشتاء بها -في الواقع- يحمل دلالة رمزية بخلاف كونها المركز الإداري لابنه الأمير مصطفى الذي أمره بإعدامه في الماضي. فقد أردل السلطان سليمان أن يبرهن للصفويين أنه جادٌ في تهديداته التي أطلقها بتدمير مدينتيْ "أردبيل" وتبريز" كما جاء في الخطابات التي تبادلها وزراؤه مع الجانب الصفوي، إذ كان يطمح من وراء هذه التهديدات إلى دفع الصفويين إلى إبرام معاهدة صلح معه. وقد تسبب ذلك الموقف الثابت والحازم من الجيش العثماني في حالة من الخوف الذي أُصيبت به قبائل القزلباش التي كانت تخشي من تدمير مدينة "أردبيل" التي تعتبر المركز الأكبر بالنسبة لهم، والتي كانوا يطلقون عليها اسم "دار الإرشاد". وفي نهاية المطاف، أُجبر الشاه "طهماسب"على الدخول مع وزرائه في مفاوضات سلام مع الدولة العثمانية.

أرسل الشاه "طهماسب" أحد رجاله ويُدعى "فروخ زاد (*Ferruhzâde*) بَكْ" إلى "أَمَاسْيَا" -حيث يقيم السلطان سليمان- برسالة كتبها بودٍّ وحميمية شديدة. ووصل هذا الرسول إلى "أَمَاسْيَا" يوم ١٠ أيار/مايو ١٥٥٥م، واستقبله خارج المدينة مجموعة من قادة حاشية القصر وعدد من الرقباء الموظفين. وأُهدي له عدد من الجياد وبعض الهدايا الأخرى المتعددة. وكان الرسول يحمل معه بعض الهدايا لتقديمها إلى السلطان مثل السجاجيد الرقيقة والجميلة، والخيام المطرزة الملونة، وأطقم الأحصنة، وسيوف الشام المزركشة، والتروس الجميلة، ونسخة من المصحف الشريف المذهبة. وبعد أن التقى الرسول الصفوي عددًا من الوزراء العثمانيين، استُقبل في الديوان السلطاني يوم ٢١ أيار/مايو. وقدّم الرسول الإيراني خلال هذا الاجتماع "عرض الإخلاص وصدق النية" من الشاه، وأعرب عن رغبته في إقرار السلام. ثم بعد ذلك استقبل السلطان سليمان الوفد الصفوي الذي قدّم إليه الهدايا ورسالة الشاه "طهماسب". وكانت هذه الرسالة مزينة بأحد عشر بيتًا من الشعر، إذ قدّم خلالها الشاه تحياته إلى السلطان سليمان الذي لقّبه بـ"سلطان اليوم" و"حاكم العالم" الذي تعيش في ظلّه الدنيا بأسرها في رفاهية ورخاء. وأضاف الشاه أنه تلقّى خطابًا أرسله السلطان في وقت الهدنة

مع "قورجو شاه قولو" من "سليمان نبي"، وأعرب عن احترامه لما ورد به. وأفاد الشاه بأنه أرسل مبعوثه "فروخ زاد" تعبيرًا عن رغبته في مناقشة موضوعات إقرار السلام بين الطرفين بشكل مفصل، وأشار إلى أن طلباته من السلطان هي كالتالي:

> "ليكن باب التواصل بيننا مفتوحًا على مصراعيه من الآن فلاحقًا حتى يتسنّى لنا إقرار السلام، ويستطيع كلا الشعبين العثمانى والإيرانى إقامة علاقات ودية فيما بينهما. ولنسمح للجميع بزيارة الكعبة المشرفة، وقبور سيدنا محمد ﷺ، والإمام علي في النجف، والإمام الحسين في كربلاء. وفي مقابل هذه المنحة سينشغل زائرو هذه الأماكن المباركة بالدعاء لكم."

لقد مُنح الوفد الصفوي هدايا قيمة للغاية لدى مغادرته الديوان العثماني. واستُقبل الوفد مرة أخرى يوم ١ حزيران/يونيو في الديوان، وسُمح له بالرحيل بعدما أُعطي رسالة مختصرة موجّهة إلى الشاه بشأن موافقة السلطان سليمان على عقْد اتفاق سلام معه. وأوضح السلطان سليمان في رسالته المختصرة التي أرسلها إلى الشاه أنه قَبِل بالطلبات التي سردها الشاه في خطابه، وأنه وافق على توطيد العلاقات بين الجانبين في مقابل تنفيذ هذه المواد الثلاث، وهي كما يلي:

١- حظر كل أشكال السباب واللعن التي يستخدمها الشيعة للنيل من الخلفاء الراشدين وأصحاب النبي الأمين ﷺ وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٢- منع أمراء الولايات الحدودية من الإقدام على الاعتداء والإغارة على الأراضي العثمانية ما لم يتعرّضوا لهجوم من الجانب العثماني.

٣- السماح للحجاج من أبناء قبائل القزلباش بأداء مناسك الحج في أمان وسلام وطمأنينة.

وبعد أن أنهى أعضاء الوفد الإيراني مباحثاتهم مع القادة العثمانيين، خرجوا قاصدين العودة إلى بلادهم. وفي تلك الأثناء عُقدت لقاءات مع عدد من الرسل الذين أوفدهم آل "هابسبورج" وكانوا متواجدين آنذاك في "أَمَاسْيَا". وغادر الفريقان "أَمَاسْيَا" في اليوم ذاته. وكان سفير آل هابسبورج "بوسبك"

قد وفد إلى "أَمَاسْيَا" حيث استقبله السلطان سليمان. وقد وصف هذا السفير السلطان عندما التقاه بأنه كان ذا وجه عابس، إلا أنه كان في الوقت نفسه ذا هيبة كبيرة. وكتب هذا السفير أن السلطان سليمان ظهرت على وجهه علامة ازدراء واحتقار بعدما سمع كلامه، واكتفى بقوله: "جميل، جميل".

وفي الواقع، كانت هذه الزيارة من سفير هابسبورج تنطوي عليها خطة سياسية، ذلك أن النمساويين كانوا قد لجأوا إلى الحلول والمفاوضات الدبلوماسية بعد الغزوة التي شنّها العثمانيون على إقليم "أَرْدَلْ". ولقد أرسل "فرديناند" كلًّا من أسقف مدينة "بيتش" المَجَرية "أنطون ورانسزي" برفقة قائد أسطول نهر الطُونَة "فرانسوا زاي" إلى إسطنبول، إذ وصلا عاصمة الدولة العثمانية بتاريخ ٢٥ آب/أغسطس ١٥٥٣م، والتقوا في البداية الصدر الأعظم "رستم بَاشَا"، ثم اجتمع بهم السلطان سليمان بعد ذلك. وقد عرض الوفد النمساوي على السلطان التنازل عن أراضي المَجَر الأصلية لـ"فرديناند" في مقابل إبرام اتفاق سلام بين الطرفين وضرائب بقيمة ١٥٠ ألف قطعة ذهبية، و٤٠ ألف قطعة ذهبية إضافية في مقابل التخلّي عن إقليم "أَرْدَلْ" وشمال المَجَر. وبعد أن التقى السلطان سليمان الوفد النمساوي، استمرت المفاوضات مع وزرائه لعدم وجود السلطان في العاصمة بسبب خروجه في غزوة إيران. ولقد أعرب أركان الدولة العثمانية خلال هذه المفاوضات عن استحالة التنازل عن إقليم "أَرْدَلْ"، لكنهم أعربوا عن عزمهم إطلاق سراح سفير هابسبورج "مالفيزي" الذي طُرِح في السجن قبل عامين. وعقب خروج السلطان سليمان من إسطنبول قاصدًا غزو إيران، استقبل الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" وفد المبعوثين النمساوي الذي أفاد بأن حبس سفير بلادهم يعتبر منافيًا للقانون المتبع بين الدول، فما كان من "رستم بَاشَا" إلا أن ذكّرهم بواقعة قطعهم أنف وأذنيْ الرسل العثمانيين الذين أُرسلوا إلى النمسا إبّان صعود السلطان سليمان إلى عرش السلطنة. ولقد تعجّب السفراء النمساويون من سرد "رستم بَاشَا" هذه الحادثة، وقالوا له إنها وقعت في زمن الملك السابق "لايوش الثاني"، وأنه لا يمكن ربطها بأي حال من الأحوال بالإمبراطور "فرديناند". فردّ عليهم الصدر الأعظم بقوله:

"هكـذا أنتـم أيهـا المَجَريـون! فقدتم بَلْغِـرَاد وملككـم ومملكتكم لهذا السـبب. كما أخللتم بآخر هدنة موقعة معكم لمدة ٥ سـنوات، وأغرتم على إقليم أَرْدَلْ. وأما نحن فاسـتولينا على مدن تيميشـوارا، وسـولنك، وليبوفا، وبيتش."

وبينمـا كان الوفد النمسـاوي عائـدًا إلى بلده، تواصلـت الاضطرابات على الحـدود بيـن الدولتيـن. إلا أن "فرديناند" أصابه الخوف والهلـع بعدما وصلته أنباء تشـير إلى أن الدولة العثمانية توصلت إلى حل للأزمة المندلعة مع إيران، فلجـأ إلـى محاولات التفـاوض مع الجانـب العثماني عبر الطرق الدبلوماسـية خشـية أن يسـيّر السلطان سليمان حملة عسكرية للإغارة على بلاده. ولقد لعبت مشـاكله التي كان يعانيها مع فرنسـا دورًا بارزًا في تحقيق مراده. كما أنه، وبينما كان السـلطان سـليمان منشغلًا بغزو إيران، انتشرت فرمانات تفيد بأن "فرديناند" هو المتسبب الرئيسي في ما حدث لإقليم "أَرْدَلْ"، حتى إن السلطان أرسل فرمانًا حول هذا الشأن عندما كان في حلب بتاريخ ٧ نيسان/أبريل ١٥٥٤م. وفي وقت كان فيـه مبعوثـو "فرديناند" يواصلون مفاوضاتهم الدبلوماسـية مع المسـؤولين العثمانيين في إسـطنبول، أرسـلت ملكة المَجَر والنبيل الصربي "بيتر بيتروفيتش" وفدًا من الرسـل لتقليل قدر "فرديناند" لدى السـلطان سـليمان ومحاولة إفشـال محاولاته الدبلوماسـية الرامية لإقرار السـلام مع العثمانيين. إلا أن مسـاعيهما بـاءت بالفشـل الذريـع. وطلـب مبعوثـو الملكـة "إيزابيـلا" بوضـع "يانـوش سيجيسموند" ابن الملك "زابوليا" الذي بلـغ عمره آنذاك ١٤ عامًا تحت وصاية السـلطان سليمان، ومنحه ولايات "سـوليمار" و"ليبوفا" وبعض القلاع الأخرى. ولكافة هذه الأسباب التي ذكرناها شعر "فرديناند" بضرورة إيفاد هيئة دبلوماسية ذات صلاحية واسـعة إلى إسـطنبول لمقابلة السـلطان سـليمان من أجل تلافي أسـباب العداوة بين الجانبين في أسـرع وقت ممكن. وبالفعل أرسـل "فرديناند" هيئـة جـاء على رأس المشـاركين بها كلٌّ من "بوسـبك"، و"أنطون ورانسـزي"، و"فرانسوا زاي" إلى إسطنبول مطلـع عام ١٥٥٥م. وكان يرأس الوفد النمساوي فـي هـذه الرحلة "بوسـبك" ذو الأصول البلجيكية، وكان يحمل معه رسـالة من

"فرديناند" إلى السلطان سليمان. ولقد ألّف هذا المبعوث رسائل باللغة اللاتينية حول ما رآه في أراضي الدولة العثمانية، وتُرجمت هذه الرسائل إلى لغات عدّة تحت مسمّى "الرسائل التركية"، وكانت تضمّ معلومات مثيرة للغاية بشأن مظاهر قوة الدولة العثمانية وضعفها في تلك الحقبة التاريخية الهامة. حتى إن "بوسبك" نال لقب أول من اكتشف معبد "أوجست" القريبة من مدينة أنقرة.

وعندما وصل "بوسبك" والوفد المرافق له إلى إسطنبول علم أن السلطان سليمان لازال مقيمًا في ولاية "أَمَاسْيَا"، فتحرّك إليها مباشرة. وخلال مراسم حفل استقباله من قبل السلطان، قدّم "بوسبك" إلى السلطان سليمان عشرة آلاف قطعة ذهبية، وطاقم طاولة طعام من الفضة المزركشة والمنقوش عليها بالذهب، بالإضافة إلى رسالة "فرديناند". ولقد حاول "فرديناند" في هذه الرسالة إثبات حقه في حكم إقليم "أَرْدَلْ"، حتى إنه أبلغ السلطان أنه يلجأ إلى عدله وسماحته لمساعدته في تحقيق هذه الغاية. كما زعم الوفد النمساوي خلال اللقاءات التي عقدوها مع السلطان ومسؤولي البلاط بأن مسؤولية إفشال جهود السلام بين الطرفين ملقاة على عاتق العثمانيين. وقدّموا وعودًا بدفع مبالغ لإثبات حسن النية من أجل إقرار السلام منها ٨٠ ألف قطعة ذهبية للسلطان، و٢٠ ألفًا للصدر الأعظم، و١٤ ألفًا للوزراء. لكنهم في نهاية المطاف استطاعوا الحصول فقط على وعد بالهدنة المؤقتة لمدة ستة أشهر. وغادر الوفد النمساوي ولاية "أَمَاسْيَا" بتاريخ ٢ حزيران/يونيو ١٥٥٥م وهو يحمل رسالة من السلطان سليمان. وفيما كان الوفد النمساوي في "أَمَاسْيَا" لمناقشة شروط السلام مع الإدارة العثمانية، وكذلك سفراء إيران، توافد سفراء فرنسا وبولندا والبندقية لتقديم التهاني على هذه التطورات. وامتلأت جنبات "أَمَاسْيَا" بسفراء الدول الأجنبية. ثم تحرّك "بوسبك" على رأس الوفد النمساوي بعد ذلك من إسطنبول إلى النمسا. وقبل أن يغادر السلطان سليمان ولاية "ديار بَكْر" جاءه السفير الفرنسي "كوديجناك"، وطلب منه تقديم المساعدة بأسطوله للدخول في معركة ضد "كَارْل الخامس" بالقرب من سواحل جزيرة "كورسيكا". فوافق السلطان على هذا الطلب، وأرسل أمرًا في الحال إلى "تورجوت رئيس" قائد الأسطول

للاهتمام بهذا الشأن. وبعد إبرام معاهدة سلام مع الوفد الإيراني، سار السلطان عائدًا من "أَمَاسْيَا" إلى إسطنبول بتاريخ ٢١ حزيران/يونيو ١٥٥٥م.

ونصّت المعاهدة التي أُطلق عليها معاهدة "أَمَاسْيَا" على اعتراف الصفويين بسيطرة الدولة العثمانية على ولايات البصرة، وبغداد، و"شهرزور"، و"وَانْ"، وبتْلِيسْ، وأَرْضُرُومْ، وقارس، وبلاد الأتابكة. وبهذه الطريقة استطاع الطرفان الاتفاق فيما بينهما على مناطق النفوذ في جورجيا ولو بشكل نسبي. كما أسهمت هذه المعاهدة في خفض التضاد والتشاحن الديني بين العثمانيين والصفويين إلى مستوى مقبول. ولقد دامت معاهدة "أَمَاسْيَا" نحو ربع قرن من الزمان حتى وفاة الشاه "طهماسب" ونشوب نزاعات في إيران، إذ ستشكّل هذه المعاهدة أساس المعاهدات التي ستُوقع بين الجانبين في المستقبل.

السنوات والأعمال والغزوات الأخيرة للسلطان

واقعة مصطفى المزيف ومقتل أحمد بَاشَا

عاد السلطان سليمان إلى إسطنبول يوم ١٢ رمضان ٩٦٢هـ (٣١ تموز/يوليو ١٥٥٥م). وهو الآن عائدٌ إلى قصره تتملّكه حماسة وطاقة ربما لم يكن يتوقعها أحد ممن حوله. وبإمكانه من الآن فلاحقًا الجلوس على عرش إمبراطوريته بشكل أكثر قوة ومتانة بالرغم من كافة الأحداث التي تحيط به. ومع ذلك فإن تأثير مرض النقرس عليه بدأ يزيد مع مرور الوقت. وكان يجب عليه في الوقت نفسه الاهتمام بالقضايا السياسية الطافية على السطح. وبينما الأمر كذلك، بدأ يظهر أول ردود الفعل على مقتل الأمير مصطفى في منطقة الرُّومَلِي. فقد ظهر أحد الأشخاص بالقرب من مدينة "سالونيك" مدّعيًا أنه هو الأمير مصطفى، وبادر إلى جمع المناصرين حوله. وكان السلطان سليمان قد أوكل مهمة الدفاع عن منطقة الرُّومَلِي إلى ابنه "بايزيد" بينما كان عائدًا إلى إسطنبول، وأخبره هذا الأخير بأن رجلًا يشبه الأمير مصطفى كثيرًا أقدم على قيادة حركة تمرد واسعة النطاق في ذلك الإقليم. ولم يكن لدى أحد معلومات وافية ومؤكدة حول هوية هذا الرجل وأصله، وزعم أنه هو الأمير مصطفى الذي أمر السلطان سليمان بقتله قبل ذلك في منطقة "آقتبه"، وقد ظهر من منطقة "سالونيك" و"ينيشهير". وكلما كان الملتفون حوله يقولون في البداية إنه يشبه الأمير مصطفى كثيرًا، كان يردّ عليهم بقوله:

"إياكم أن تفشوا سرّي! فلقد أنقذت نفسي من أيديهم بشقّ الأنفس."

وكان يشعر من حوله بأنه هو نفسه الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان. ومع مرور الوقت بدأ هذا الأمير المزيّف في جمع المزيد من الناس حوله، وعمد إلى نشر شائعة أنه هو الأمير مصطفى، موضحًا أن الجلّادين قتلوا شخصًا

يشـبهه كثيـرًا في منطقـة "آقتبه" تنفيذًا لأوامر السـلطان. وبعدها شـرع في ادّعاء حقـه في الجلوس على عرش السـلطنة خلفًا لوالده. وتذكـر المصادر التاريخية العثمانية هذا الرجل بلقب "مصطفى المزيّف". ولقد تقدّم هذا الرجل حتى وصل إلـى أطراف مدينتـيْ "سيليسـترا (*Silistre*)" و"نِيكْوبُولُو (*Niğbolu*)"، واسـتطاع أن يجمع حوله العديد من الأنصار من الأتباع والدراويش من مدينة "سيماونا". وعمـد هـذا الأميـر المزيّف إلى إعـداد البيئة المحيطة به وتوزيـع الأموال على أثريـاء المنطقـة وموظفي الضرائب الحكوميين، وأعلن اعتلاءه عرش السـلطنة، وعيّن وزيرًا تحت إدارته، واختار اثنين من دراويش "سـيماونا" ليشـغلا منصب القضـاة العسـكريين. وبهذه الطريقة بدأ في الاسـتعانة بهؤلاء في شـنّ حملات دهـم علـى منازل الأثريـاء ومزارعهم، وجمـع الضرائب منهـم، ووزع الأموال والممتلكات التي سلبها منهم على فقراء المدينة. وقد ارتفـع عدد مريديه بفضل هذه الإجراءات إلى عشـرة آلاف شـخص. وتشـير المصادر التاريخية العثمانية إلـى هـذا الأمير المزيّف باسـم "الشـخص مجهول النسـب" أو"سـيىء الأصل والنسـب". وكانـت الثـورة التي تسـبب في اندلاعهـا تحمل أهمية كبيـرة للغاية مـن حيـث هوية مريديـه الـذي التفّوا حولـه والعقلية التـي يفكرون بهـا. وكان ما يلفت الانتباه في خضم تلك الأحداث هو دعم هذه الثورة من قبل الجماعات المناصرة لقبائل القزلباش في "دوبروجا" (أتباع الشـيخ بدر الدين). ومـع تفاقم الأوضـاع بمـرور الوقـت، اضطـر الأميـر "بايزيد" لإبـلاغ والده السـلطان بهذه الأحـداث، ومـن ناحية أخرى أرسـل قوة عسـكرية كبيـرة بقيادة أحـد أغاوات الخيّالـة لوأد هـذا التمرد، كما كلّف حاكم إمارة "نِيكْوبُولُو" "دُو الْقَادِرلي محمد بَكْ" -الذي كان قد أُسـندت إليه مهمـة تأديب العصاة والمَجَرمين- بدكّ معاقل مناصري هذه الثورة واستئصال شأفتهم.

وبينما كان السـلطان سـليمان في طريق عودته من ولاية "أَمَاسْـيَا"، أفادت معلومـات من قضاة الرُّومَلِي وبكواتها وأنبـاء من ابنه الأمير "بايزيد" تحذّره من تفجّر الأوضاع. فأرسـل على الفور الوزير "سُوكُولّو محمد بَكْ" -الذي أُسندت

إليـه مهـام وزارية فيمـا كان يتولّى منصب حاكـم ولاية الرُّومَلِـي- إلى المنطقة المندلعة بها تلك الثورة. وعندما وصل هذا الأخير إلى منطقة "تراقيا (*Trakya*)"، تلقـي أخبـارا تتحدث عـن أن المتمردين هوجموا حتى شُـتتوا وتم القبض على قادتهم. ذلك لأن أنصار هذه الثورة فرّوا هاربين لما سـمعوا أن قوات الحكومة تقترب منهم، وحينها اسـتطاع حاكـم "نِيكْوبُولُو" محمد بَكْ القبض على الرجل الـذي عيّنه الأمير مصطفى المزيّف وزيـرًا له بعد خداعه ببعض الوعود، ثم بعد ذلك ألقى هذا الرجل القبض على الأمير المزيّف وسلّمه إلى حاكم "نِيكْوبُولُو". وأُرسـل هذا الأميـر المزيّف إلى أَدِرْنَه مكان إقامة الأميـر "بايزيد". ثم بعد ذلك نُقل إلى إسطنبول، وأُعدم وقت وصول السلطان سليمان إلى منطقة "أُوسْكُودَارْ" بالشـطر الآسـيوي مـن المدينـة، ثـم عُرضت جثتـه أمـام عامة النـاس للاتعاظ من خاتمته. وتربط بعض المصادر التاريخية هذه الواقعة بحادثة شـخص يُدعى "حمزة بالي" المنتسـب للطريقة الملامتيـة - البيرامية. وكان "حمزة بالي" يعيش في البُوسْنَة؛ وقاد حركة صوفية أُطلق على أتباعها لقب "الحمزاويون"، وقد كان لهـؤلاء الأتبـاع تأثيرٌ كبيرٌ في منطقة الرُّومَلي لفترة طويلة. حتى إن إعلان اعتلاء الأميـر مصطفـى المزيّف عرش السـلطنة أُلقي على عاتق "حمزة بالي" بواسـطة طائفة الحمزاويين الذين يمكن التخمين بأنهم كانوا من بين رجاله. وفي الواقـع، فإن هذه الواقعة حدثت بالتأكيد كتجلٍّ لردود الأفعال الناشـئة بين عامة الشـعب بشكل عام والأوساط الصوفية بشكلٍ خاص بعد مقتل الأمير مصطفى.

وبعد وقوع هذا الحادث قرر السلطان سليمان استدعاء "رستم بَاشَا" لتعيينه في منصبه السـابق مرة أخرى. وبعد طمـس آثار واقعة الأمير مصطفى المزيّف، قُتـل الصـدر الأعظـم أحمد بَاشَـا بتاريـخ ٢٩ تشـرين الأول/أكتوبـر ١٥٥٥م. ويكون السـلطان بذلك قد أعدم وزيره الأول (الصدر الأعظم) للمرة الثانية بعد واقعـة إعـدام ابنه الأكبر. وكان أحمد بَاشَـا قد نُصّب صدرًا أعظم خلفًا لسـابقه "رستم بَاشَا" الذي عُزل من المنصب عقب واقعة مقتل الأمير مصطفى. ويروي بعـض المؤرخيـن أن أحمد بَاشَـا كان مـن مؤيدي الأمير مصطفـى، وأنه رفض

منصب الصدارة العظمى عندما عُرض عليه في البداية، إلا أنه اضطر للموافقة على "الختم السلطاني" وقبول المنصب بعدما أخذ ضمانة بأنه لن يُعزل من المنصب كما حدث لخلفه.

ولا تتضمّن كتب التاريخ العثماني أية معلومة واضحة وصريحة بشأن السبب الكامن وراء مقتله. لكن بعض الروايات التاريخية تشير إلى أنه لجأ إلى بعض الحيل الماكرة كي يسقط "سميز (*Semiz*) علي بَاشَا" -الذي كان يعتبره نـدًّا له- من نظر السلطان، ويترك انطباعًا لدى السلطان بأنه على دراية بالشؤون الإدارية للدولة أكثر من سلفه "رستم بَاشَا"، وأنه يستطيع حماية خزينة الدولة ومواردها. حتى إنه عيّن "دوكاكين أوغلو محمد بَاشَا" واليًا على مصر بدلًا من "سميز علي بَاشَا"، وأصدر إليه تعليمات بزيادة مقدار الضرائب المرسلة من مصر إلى القصر السلطاني في إسطنبول سنويًا. وقد أرسل وَالِي مصر الجديد الضرائب السنوية وبها زيادة قدرها ١٥٠ ألف قطعة ذهبية، فلفتت هذه الزيادة انتباه السلطان سليمان الذي وجّه سؤالًا عن هذه الزيادة لوالي مصر السابق "سميز علي بَاشَا" الذي كان متواجدًا في الديوان حينها. فأجابه هذا الأخير بأنه كان يدير شؤون مصر وفقًا للقوانين القديمة عندما كان واليًا عليها، وأنه لم يكن يضيف ضرائب جديدة وثقيلة لظلم الشعب والتعدّي على ممتلكاته، ملمحًا إلى أن الوالي الجديد بإمكانه زيادة موارد الخزينة إذا انتهج نهجًا ظالمًا لعامة الناس بجمع ضرائب إضافية منهم. وقد أدّت هذه الإجراءات غير المرضية إلى إغضاب السلطان، كما سقط أحمد بَاشَا من نظر السلطان أيضًا بعدما ظهرت عدم كفاءته في الإدارة أثناء غزوة "ناخيتشيفان". ويذكر المؤرخ العثماني الذي عاصر هذه الحقبة "جلال زاده مصطفى شلبي" أن أحمد بَاشَا لم يكن يتمتع بالقدرات الكافية التي تمكّنه من القيام بمهام الصدر الأعظم على أكمل وجه، وأنه كان يتصرّف برعونة كبيرة في تطبيق القوانين، مشيرًا إلى أن فشله في أداء مهامه أثناء غزوة "ناخيتشيفان" تسبب في ضياع الفرصة التي كانت سانحة للسيطرة على كافة أراضي إيران حتى مدينة "أصفهان". إلا أن هذه الوقائع كانت انعكاسًا واضحًا لوجهة النظر الرسمية وضوح الشمس في كبد

السماء. وأما السفير "بوسبك" فيقول إن أحمد بَاشَا كان متعلقًا للغاية بالأمير مصطفى، وإنه قدّم الدعم السرّي لثورة الأمير المزيّف بعد إعدام الأمير مصطفى، وإنه حصل على بعض المعلومات حول تشجيع الأمير "بايزيد" لاعتلاء عرش السلطنة. إلا أنه كان هناك عامل أساسي آخر للقضاء عليه يُضاف إلى هذه الأسباب الظاهرية التي سردناها، ألا وهو رغبة "خُرّم" زوجة السلطان في إعادة زوج ابنتها "رستم بَاشَا" إلى منصبه مرة أخرى. ويُفهم من ذلك أن أحمد بَاشَا كان على علم كامل بالتوازنات داخل القصر، ذلك لأن زوجته هي "فاطمة" شقيقة السلطان سليمان، وربما كان يمثّل الحزب المناصر للأمير مصطفى قبل وفاته. وفي حقيقة الأمر كان هذا السبب هو الدافع وراء تعيينه في منصب الصدر الأعظم بدلًا من "رستم بَاشَا" بعد إعدام الأمير مصطفى. ونفهم من ذلك أن زوجة السلطان "خُرّم" وابنتها "مهرماه" ساهمتا في التخلّص من أحمد بَاشَا الذي ينتسب إلى الحزب المنافس من أجل إعادة تنصيب "رستم بَاشَا" من جديد في منصبه الذي كان لديه تأثير على السلطان الذي بلغ من العمر عتيًا. ومن اللافت للانتباه في هذا الشأن أن المؤرخ العثماني "عالي" نقل مقولة للشاه "طهماسب" قالها للمبعوث العثماني "حسن بَاشَا" كالتالي:

> "إن من أسوأ الأشياء التي أقدم على فعلها سلطانكم هي إعدام ابنه الأمير مصطفى، وقتله لشخص شجاع ومجاهد مثل أحمد بَاشَا تنفيذًا لرغبة النساء."

كما وصف المؤرخ الآخر بَجُويْلُو هذه الواقعة بـ"القتل بمكر النساء". وفي نهاية الأمر، أُعدم أحمد بَاشَا أمام غرفة العرض على حين غفلة بينما كان قد جاء إلى القصر لحضور إحدى جلسات الديوان. وأُسند منصب الصدر الأعظم مرة أخرى إلى "رستم بَاشَا". وبهذه الطريقة يكون السلطان سليمان قد وفّى بوعده الذي وعده إياه ألا يعزله من منصبه، فهو لم يعزله من المنصب، بل أمر بقتله. وكما يقول المؤرخ "كاتب شلبي"

> "لقد أقسم السلطان سليمان ألا يعزله، وفي الواقع فقد أمر بقتله".

غزوة جديدة لمساعدة فرنسا

وبهذه الطريقة أخذ كلٌّ من "خُرّم سلطان" وابنتها "مهرماه سلطان" و"رستم بَاشَا" موقعه في المقدمة فيما يتعلق بشؤون إدارة الدولة. وكان أكبر أمل يسيطر عليهم هو أي الأميرين سيخلف والده في العرش، إلا أنهم كانوا مقتنعين أكثر بالأمير "بايزيد" لتولّي هذه المسؤولية الثقيلة. ولقد قضى السلطان سليمان فصل الشتاء في "أَدِرْنَه"، ومن ثم عاد إلى إسطنبول (رجب ٩٦٣هـ - أيار/مايو ١٥٥٦م)، وحينها وصله نبأ من جبهة المَجَر يذكر أن "علي بَاشَا الخادم" فشل في حصار مدينة "سيكتوار (*Sigetvar*)". وسُرّ السلطان كثيرًا لتلقيه خبر فتح مدينة "وهران" شمال إفريقيا على يد الأسطول بقيادة "بياله بَاشَا"، والسبب في ذلك أن هذا القائد نفّذ الأوامر التي أصدرها له السلطان بتاريخ ٢٤ آذار/مارس ١٥٥٥م بعد لقاء جمعه بالسفير الفرنسي أثناء غزوة "ناخيتشيفان". وكان "بياله (*Piyale*) بَاشَا" -ذو الأصول الكرواتية أو باحتمال أكبر المَجَرية- قد نُصّب كقائد للأسطول العثماني بعد وفاة القبطان "سنان بَاشَا". وقد تلقّى أوامر من السلطان سليمان وتحرّك على رأس أسطوله المكون من ٦٠ سفينة وما يلزمها من عتاد ومجدّفين بصحبة "تورجوت رئيس"، وانطلق إلى البحر يرافقه ولاة "كوجالي (*Kocaili*)" و"ميديللي (*Midilli*)" للقاء الأسطول الفرنسي. فتقدّم الأسطول العثماني بالقرب من سواحل إيطاليا الجنوبية، وهاجم شاطئ منطقة "بوليا"، وحاصر مدينة "ريدجو (*Reggio*)" واستولى عليها. وأُرسل بعض الجنود فنُهبت بعض الأماكن أيضًا. وبينما الأمر كذلك، وردت أنباء إلى قيادة الأسطول بشأن تواجد "أندريا دوريا" بالقرب من جزيرة "كورسيكا". فتحرّك الأسطول العثماني صوب الجزيرة، إلا أن "دوريا" هرب مسرعًا من تلك المنطقة بعدما علم بقدوم السفن العثمانية. وظل الأسطول العثماني يطوف في مياه "كورسيكا" لفترة من الوقت، إلا أنه عاد في النهاية إلى إسطنبول مع اقتراب حلول فصل الشتاء. ولقد أدّى انسحاب الأسطول العثماني من المياه الإيطالية إلى عودة "دوريا" من جديد وحصاره

إقليم "توسكانا (*Korsika*)". وكانت فرنسا قد فقدت هيمنتها في البحر الأبيض المتوسط بشكل كامل، وهو ما دفعها إلى تسليم جزيرة "كورسيكا" إلى الإمبراطور "كَارْل الخامس" وفق معاهدة وقّعها الطرفان.

إلا أنه وبعد مرور فترة من الزمن اضطر "كَارْل الخامس" للتنازل عن عرشه بعد أن أصابه مرض بتأثير من الإرهاق الناجم عن المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وقسّم إمبراطوريته بين ابنه "فيليب" وشقيقه "فرديناند". وهكذا بعد فترة طويلة من الكفاح المستمر، أعلن "كَارْل الخامس" إفلاس سياسته للسيطرة على العالم بأسره. وعمد الإمبراطور إلى الانزواء في حياة العزلة وهو حزين، وآثر أن يتابع كفاح ابنه من خلف الكواليس. ومُنح أخوه "فرديناند" لقب قائد الإمبراطورية الرومانية - الجرمانية، إلا أن إسبانيا لم تكن ضمن هذه الإمبراطورية. فقد تنازل "كَارْل الخامس" لابنه "فيليب" عن إسبانيا ومستعمراتها البحرية الغنية. وعليه، فَقَدَ السلطان سليمان بهذه الطريقة ألدّ أعدائه وأكبر منافسيه إذا جاز التعبير. ومع الأسف لا يوجد لدينا معلومات دقيقة حول رد فعل السلطان سليمان بشأن تنازل "كَارْل الخامس" عن العرش. إلا أننا بإمكاننا أن نفهم بوضوح أنه لم تكن لديه أدنى نية هو الآخر للتنازل عن عرشه لأحد أبنائه كما شهدنا ما حدث في واقعة إعدام ابنه الأمير مصطفى مؤخرًا.

انطلق الأسطول العثماني بقيادة القبطان "بِيَالَه (*Piyâle*) بَاشَا" ويرافقه حاكم ولاية طرابلس الغرب "الرئيس تورجوت" إلى البحر بعدما تلقّت عاصمة الإمبراطورية نبأ عام ١٥٥٦م من حاكم الجزائر "صالح بَاشَا" بشأن تهديد القوات الإسبانية لولايته. ووصل الأسطول العثماني إلى سواحل مدينة "وهران" التي تعتبر من أهم المدن الجزائرية، وحاصر المدينة إلى أن سقطت في يديه بعد هجمات قام بها. وكان القائد الأسبق للأسطول العثماني بَرْبَرُوسْ قد استولى على المدينة في وقت سابق، إلا أن الإسبان استطاعوا بسط نفوذهم عليها بدعم من السكان العرب المحليين نظرًا لما تتمتع به المدينة من أهمية إستراتيجية كونها تعدُّ بمثابة نافذة مدينة "تلمسان" على البحر المتوسط. وكانت سيطرة

الإسبان على هذه المدينة تشكّل خطرًا على الجزائر بأكملها. وبعد أن بسط "بياله بَاشَا" سيطرته على هذه المدينة، عاد على الفور إلى إسطنبول. ثم انطلق إلى البحر من جديد عام ١٥٥٧م بأسطول مكون من ٦٠ قادسًا. ووصل إلى سواحل شمال إفريقيا، واستولى على ميناء "بنزرت (*Bizerte*)". وكان هذا الميناء خاضعًا لسيطرة الإسبان، كما هو الحال بالنسبة لمدينة "وهران"؛ إذ كان يقع في منطقة ذات أهمية إستراتيجية كبيرة. وعقب استيلائه على ميناء "بنزرت"، تحرّك بسفنه لتمشيط سواحل شمال إفريقيا، وعاد في نهاية الرحلة إلى إسطنبول مجددًا.

لقد نشب نزاع جديد بين فرنسا وإسبانيا بعد تنازل "كَارْل الخامس" عن العرش وتنصيب ابنه "فيليب الثاني" ملكًا على إسبانيا وشقيقه "فرديناند" على رأس الإمبراطورية الرومانية - الجرمانية. ولا توجد معلومات مفصلة حول رد فعل القصر العثماني على هذه التطورات الجديدة. وربما يكون السلطان سليمان قد حقق بذلك غايته ليصبح أعظم حاكم في العالم بعد انسحاب أكبر منافسيه من الساحة. ولهذا السبب لم يفتر عن متابعة مستجدات الأوضاع على الساحة الأوروبية. ولقد تزوّج ملك إسبانيا "فيليب الثاني" من ملكة إنجلترا "ماري تيودر"، وبالتالي اتحدت قوات كلتا الدولتين بشكل تلقائي ووُجّهت ضد فرنسا. وكانت هولندا كذلك تخضع لإدارة الملك "فيليب" في ذلك الوقت، وهو ما يعني أنه استطاع وضع فرنسا بين شقّي الرحى. وسارت قوات التحالف إلى فرنسا وهزمت الجيوش الفرنسية في معركة دارت بين الطرفين على مشارف مدينة "سان كانتن" عام ١٥٥٧م. وعاش الفرنسيون بعدها أيامًا صعبة للغاية، إذ تعرّضوا لهزيمة ثانية على يد قوات التحالف في معركة وقعت في مدينة "جرافيلينس" في العام التالي. واضطر ملك فرنسا للجوء إلى الدولة العثمانية لمساعدته في تخطّي هذه الأزمة. ويضم أرشيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي" في إسطنبول عريضة قدّمها السفير الفرنسي إلى السلطان سليمان لتقديم الدعم لبلاده[٩٠]. وافتتح السفير الفرنسي هذه العريضة بالدعاء للسلطان سليمان،

(٩٠) *(E.4482)*

ثم انتقل إلى شرح الوضع في فرنسا، مشيرًا إلى أنها فقدت العديد من المدن في معاركها مع إسبانيا. وأخبره بأنهم يحتاجون إلى الكثير من القوات لصد هجوم جيوش التحالف. ثم تابع السفير خطابه بالتنويه بأنه تم إرسال السفير "دي لافين" كعلامة على الصداقة الفرنسية – العثمانية، وأضاف أن فرنسا خسرت كل ما تملك في معاركها البرية والبحرية المستمرة منذ ٣٥ عامًا ضد إيطاليا وإسبانيا وبيومنت وإنجلترا واسكتلندا وكورسيكا. وأشار إلى أن الدولة العثمانية لطالما قدّمت المساعدات الجليلة إلى فرنسا بشكل متواصل، طالبًا العون مجددًا من السلطان العثماني على أن يُعطى له ما يشاء من مال وملك كما وعد بذلك ملك فرنسا. وأبلغ السلطان أن تنفيذ الخطة المرتقبة وخروج أسطوله إلى منطقة غرب البحر المتوسط سيكون له فوائد عظيمة للغاية. كما طلب السماح للأسطول العثماني بالتحرّك ناحية الوجهة التي سيحددها السفير الفرنسي "دي لافين"، مشيرًا إلى أن الأميرال قائد الأسطول الفرنسي صدرت له أوامر كذلك في هذا الصدد. وبتأثير من هذه العريضة التي قدّمها السفير الفرنسي إلى السلطان، انطلق الأسطول العثماني إلى البحر في ربيع عام ١٥٥٨م. ولقد تحرّكت ١٥٠ قطعة بحرية عثمانية من إسطنبول لدعم فرنسا في المقام الأول، حتى إن قائد الأسطول "بياله بَاشَا" لم يبذل جهدًا في البحث عن عدوه "أندريا دوريا"، وتوجّه مباشرةً صوب جزر "البليار" الإسبانية. وأنزل جنوده إلى جزيرة "ميورقة"، حيث استولوا على الأماكن الهامة بالجزيرة ونهبوها. وانتقلت القوات العثمانية بعدها إلى جزيرة "منورقة"، وبسطت هيمنتها على مدينة "سيتاديلا". ومكث الأسطول العثماني فترة من الوقت في المياه الإسبانية ثم عاد بعدها إلى إسطنبول بعد أن ألقى الرعب في قلوبهم. وفي تلك الأثناء مُنح "بياله بَاشَا" رتبة حاكم الجزائر.

وخرج "بياله بَاشَا" إلى البحر مجددًا عام ١٥٥٩م، ذلك لأن تلك الفترة شهدت واقعة الأمير "بايزيد". فقد أبحر على رأس أسطول مكون من ٦٠ سفينة لإحكام السيطرة على مياه البحرين المتوسط و"إِيجَه" بهدف الحيلولة دون هروب الأمير "بايزيد" عن طريق البحر. وبعد أن لجأ "بايزيد" إلى إيران، انطلق "بياله بَاشَا" إلى البحر الأدرياتيكي، واستولى على سفينة تجارية

مالطيـة بينمـا كان قريبًا من جزيرة "مـودون". وزوّد طاقمُ السـفينة المالطية قائدَ الأسطول العثماني ببعض المعلومات حول عقْد اتفاق سلام بين فرنسا وإسبانيا، وأن أسـطولًا إسبانيًا قوامه ٨٢ سفينة تجمّـع عند مضيق "مسينا"، وأن الفرنسيين هم أيضًا سيرسـلون ٤٠ سـفينة للاشـتراك مـع الأسـطول الإسـباني في الهجوم على طرابلس الغرب. فبادر "بياله بَاشَـا" إلى إرسـال بعض السـفن الاستطلاعية إلى السـواحل الإيطالية للتأكّد من صحة هذه الأنباء، كما أبلـغ القصر السلطاني في إسـطنبول بهذه التطورات، وطلب الاسـتعانة بسـفن إضافية. ثم صال "بياله بَاشَـا" وجال بعد ذلك لفترة من الوقت بالقرب من سـواحل "فلورة". وفي تلك الأثنـاء وصلتـه أخبـار من الرئيسـيْن "يونس" و"علـي" اللذين كان قد أرسـلهما لاسـتطلاع آخر التطورات على الجبهة الفرنسـية - الإسـبانية تفيد بأن الجانبين دخلا في اشتباكات فيما بينهما إثر نشوب خلافات بين طرفيهما، وأن أسطوليهما قد تفرّقا، فآثر "بياله بَاشَـا" الرجوع إلى إسـطنبول مـع اقتراب فصل الشتاء وعدم إكماله لإعداد أسطوله للتصدّي لقوات التحالف.

وصول "سيدي علي الرئيس" وتأسيس ولاية الحبشة

بعد أن تلقّى السـلطان سـليمان خبر فتح مدينة "وهران" في شمال إفريقيا، اسـتقبل "سـيدي علي الرئيس" هذه المرة في ولاية "أَدِرْنَه" التي كان يقضي كثيرًا من أوقاته بها. وشرح له هذا الأخير ما حدث معه في مياه الهند، وأطلعه على بعض المعلومات حول أوضاع أسـطوله. و"سـيدي علي الرئيس" هو ابن عائلة تعمل في مجال البحرية وتقطن إسطنبول. وقد عمل والده وجدّه في ترسانات صناعة السـفن. ولهذا السـبب احتكّ "سـيدي علي" بشؤون السـفن والبحار منذ نعومة أظفاره. واشـتهر بلقـب "جالطالي (*Galatalı*)" لولادتـه وترعرعه بحيّ "جالطا" في إسـطنبول. وشـارك للمرة الأولـى في حياته في غزوة إلـى جزيرة "رودس"، ثم انضم إلى العديد من الغزوات البحرية بعد ذلك. وقد ذاع صيته بعدما شارك مـع بَرْبَـرُوسْ فـي رحلاته إلـى "بروزة". كما شـارك في حصـار مدينة طرابلس الغـرب التي سـقطت فـي أيـدي العثمانيين بفضل مسـاعي "تورجـوت رئيس"

في عهد قائد الأسطول "سنان بَاشَا". أعقب ذلك عودته إلى إسطنبول وانضمامه للعمل في ترسانة صناعة السفن. وكان "الرئيس سيدي علي" ينتسب إلى زمرة غلمان الفرسان حين عُيّن قبطانًا لأسطول الهند. وكان آنذاك متواجدًا في حلب، فتحرّك على الفور متوجّهًا إلى البصرة. وارتفع راتبه الشهري ليصل إلى ٨٠ قطعة فضية. ووصل إلى البصرة في شباط/فبراير عام ١٥٥٤م، وزار في اليوم الثاني لوصوله حاكم الولاية، وعرض عليه الفرمان الصادر بشأن تعيينه قائدًا لأسطول الهند. فسلّمه حاكم ولاية البصرة حينها "مصطفى بَاشَا" أسطولَ السويس الذي كان مؤلفًا من ١٥ سفينة. وبدأ بعدها "سيدي علي" في الاهتمام بشؤون إعداد الأسطول وتلبية احتياجاته، ومكث في البصرة لمدة خمسة أشهر. وعندما اقترب وقت الخروج في الغزوات البحرية، أرسل بعضًا من رجاله إلى مياه مضيق هرمز على وجه الخصوص للتأكّد من عدم وجود السفن البرتغالية. فقضت هذه القافلة الاستطلاعية شهرًا كاملًا تبحر في مياه الخليج العربي، ثم عادت إلى البصرة كي تخبر "سيدي علي" أنها لم تجد في مياه تلك المنطقة سوى أربع سفن برتغالية. وعليه، أصدر "سيدي علي" أمرًا إلى سفن أسطوله بالتحرّك إلى السويس. فانطلق الأسطول من البصرة بتاريخ ٢ تموز/يوليو ١٥٥٤م، ثم أبحر في مياه الخليج العربي متتبعًا السواحل الإيرانية حتى وصل إلى مدينة "القطيف" شرق الجزيرة العربية. وبعد أن تزوّد أسطول السويس ببعض المعلومات بشأن الأسطول البرتغالي، توجّه صوب جزر البحرين، ثم وصل إلى مضيق هرمز. وفي اليوم الأربعين من تحرّك الأسطول عَبَرَ مضيق هرمز حتى اقترب من مدينة "خورفكان (*Horfekan*)" على الساحل العماني يوم ١٠ آب/أغسطس ١٥٥٤م، وفجأةً وجد أمامه أسطولًا برتغاليًا مكونًا من ٢٥ سفينة بقيادة "فيرناندو" ابن الوالي العام للهند "ألفونسو دي نورونها (*Alfonso de Noronha*)". فاندلعت معركة عنيفة بالمدافع والبنادق بين الجانبين، وقد أُصيبت إحدى سفن الأسطول البرتغالي بقذيفة مدفعية جعلتها تخرج عن السيطرة وتصطدم بالساحل لتغرق بعد ذلك. ثم انسحب الأسطول البرتغالي ناحية مضيق هرمز، وكان النصر حليف "سيدي

علـي" فـي المعركـة الأولـى مـع البرتغاليين. إلا أنـه وبعد وقوع هـذه المعركة بقليـل هبّـت عاصفـة شـديدة، لكن "سـيدي علي" اسـتطاع الوصول بأسـطوله إلـى "خورفـكان"، وهناك زوّد سـفنه بما ينقصها من مسـتلزمات ومؤن، وانطلق لاستكمال الرحلة إلى السويس.

ولقـد وصل أسـطول السـويس في البدايـة إلى مدينة "صحـار" في عمان، ثم أكمل رحلته في البحر لمدة ١٧ يومًا حتى قدِم إلى مدينتيْ "مسقط" و"قلهات". وصادف في طريقه أسطولًا برتغاليًا مؤلفًا من ٣٤ سفينة بقيادة "فيرناندو"، فاتخذ "سيدي علي" قرارات صائبة في مواجهة الأسطول البرتغالي الذي هاجمه بشكل مباغت وسـريع، وشـكّل حاجزًا بين أسـطول العدو وسـاحل البحر الذي تمتد على طوله الصخور المنزلقة إلى الأسـفل. وبهذه الطريقة كانت تُسـتهدف إعاقة حركة أسـطول العدو بفضل انقطاع هبوب الرياح بالقرب من ضفاف السـاحل. وعمد الطرفان إلى تبادل إطلاق قذائف المدفعية، واشـتدّت المعركة مـع مرور الوقت. وبدأت سـفن الجانبين في مواجهة بعضها البعض وجهًا لوجه، ووقعت اشـتباكات فيمـا بينهمـا وجهًـا لوجـه. واحتـرق قـادسٌ عثماني بقذيفـة مدفعية أصابتـه، وانتقلت النيران إلى سـفينة برتغالية التصقت بـه، وبدأت في الاحتراق هـي الأخـرى. وغرقـت كلتـا السـفينتين بعـد احتراقهما لمـدة وجيـزة. كما أن ٥ سـفن عثمانيـة و٥ أخـرى برتغاليـة اصطدمت بالسـاحل بينما كانـت ملتصقة ببعضهـا البعـض، وغرقت هي الأخرى بعدما دُمّرت بالكامل. ولقد أنهكت هذه المعركـة قوى كلا الطرفين. وخارت قوى مجدّفي الأسـطولين، ولـم يسـتطيعوا متابعـة التجديـف. وبـادر الجانبان إلى جمـع رجالهما الذين نزلـوا إلى البحر، واسـتطاع "سـيدي علي" إنقاذ ٢٠٠ من رجاله من الغرق في مياه البحر. وعندما حلّت ظلمة الليل، اضطر الطرفان لمغادرة المنطقة.

غـادر الأسـطول العثمانـي سـاحل المدينـة بعدمـا هبّـت ريـاح شـديدة، وواصـل تراجعـه حتـى وصل إلى سـواحل مدينـة "كرمـان" الإيرانيـة. وحينما لـم يجـد الأسـطول ميناءً كي يرسـو فيـه، واصل طريقـه حتى وصل إلـى ميناء

"شـهبار (*Şehbar*)". ثـم بعد ذلك توجّـه نحو ميناء "جـوادر (*Gevadir*)" حيث رسـا بـه. وقام "سـيدي علي" بإصلاح سـفنه المتضررة في هـذا الميناء، وانطلق إلى المحيط الهندي صوب اليمن بعدما حصل على معلومات كافية حول إرشادات الطريق. وتقدّم الأسـطول حتى ميناء "شهر" الواقـع جنوب شبه الجزيرة العربية، وحينها هبّت رياح موسـمية يُطلق عليها اسـم "طوفان الفيل". وتسـببت الأمطار الغزيرة والأمواج الهائجة المصاحبة لهذه الرياح في إعاقة حركة الأسطول، حتى إن البحّـارة لـم يكن بإمكانهـم التفريق بين النهار والليل مـن اضطراب الأجواء حولهـم. وأدّت الأمـواج الهائجـة إلى امتلاء السـفن بالمياه، مما دفـع بحّارتها إلـى تخفيـف الأحمال عنها عن طريق إلقاء بعض حمولتهـا في البحر. إلا أنهم استسلموا في النهاية أمام الرياح العاتية. وبعد مقاومة للرياح استمرت على مدار عشرة أيام، انجرفت سفن الأسطول بعدها إلى خليج "جيكيد" أو "كوتش" التابـع لولاية "جوجارات" الهندية. واسـتطاع بحّارة الأسطول العثماني النجاة بأنفسهم من السقوط في دوّامات الخليج بصعوبة بالغة. ولقد توقفت الرياح عن الحركة بطلـوع الشـمس، فأبحرت السـفن حتى وصلت إلى مدينة "سـومنات". وشـعر الأسطول بالقلق بينما كان يعبر من أمام قلعة "ديو"، ولذلك آثر المرور من تلك المنطقـة فـي عرض البحر. إلا أن الرياح بدأت في الهبـوب مرةً أخرى، وبدأت الأمـواج الهائجـة في ضرب السـفن من كل اتجاه. ولم يكن الجنود يسـتطيعون الانتقـال حتـى مـن مقدمـة السـفينة إلـى مؤخرتها لشـدة ارتطـام الأمـواج بها، إذ كان كل عجلـة مـن عجـلات قيـادة السـفن لا يسـتطيع السـيطرة عليهـا إلا أربعة من الرجال الأشدّاء بصعوبة كبيرة. وفي نهاية المطاف، اقترب الأسطول من الوصول إلى سواحل سلطنة "جوجارات" الهندية. ومـع اعتدال المناخ رست سـفن الأسـطول أمام قلعة "دمن". إلا أن ثلاثة من سـفن الأسـطول اصطدمت بالسـاحل لرسوها بالقرب من الشـاطئ. وحاول بحّارة بقية السفن إنقاذها، لكن محاولاتهم باءت بالفشـل. واسـتخرج القائمون على هذه السـفن المدافـع وكل مـا كان علـى متنهـا من أشـياء، وتُركت هـذه الأشـياء كأمانة لـدى حاكم ولاية

دمن "مليك أسـد" الذي يعتبر واحدًا من أمراء حاكم ولاية جوجارات "السلطان أحمـد". وقـد عرضـت سـفن حاكم ولايـة "كلكتـا" التي تبحـر في هـذه المياه في هذا الموسم من كل عام التبعيةَ للسلطان العثماني. وكان هذا الحاكم في حالة حرب مع البرتغاليين، ووعده "سيدي علي" بإرسال أسطول من مصر لمساعدته في أقرب وقت ممكن.

وفي هذه الأثناء أخبر حاكم ولاية "دمن" الأسطول العثماني باقتراب سفن الأسـطول البرتغالي، وأوصاه بالإبحار صوب مدينة "سـورات". وبعد أن وصل هـذا الخبر إلى مسـامع الأسـطول، فضّل طاقم بعض السـفن البقـاء في "دمن" والدخول في خدمة "أسـد خان". ثم أبحر "سـيدي علي" على رأس سـتة سـفن عيّن في كل واحدة منها مرشدًا للسير، ووصل في النهاية إلى "سورات (*Surat*)" (ذو القعـدة ٩٦١هـ - أيلول/سـبتمبر ١٥٥٤م). وفـي تلـك الحقبـة كانـت الاضطرابات الداخلية تسيطر على الأجواء العامة في ولاية "جوجارات". فطلب حاكم هذه الولاية "أحمد خان" من قائد الأسـطول التركي "سـيدي علي" إمداده بمائتي رجل من رجاله المسـلحين. وفي اليوم الثالث من وصول "سـيدي علي" إلى "سورات"، شاهد مجيء أسطول برتغالي مكون من ٨٠ سفينة متنوعة الحجم تابعة لقواعد البحرية في ولايات "جوا" و"ديو" و"شاول". فاحتمى "سيدي علي" والبحّـارة الذيـن كانوا معه -بمن في ذلك جنـود حاكم ولاية "جوجارات"- في مكان سرّي على الساحل، وبدأ في تجهيز أسطوله بالأسلحة والمعدّات اللازمة للحـرب على مدار شـهرين من العمـل المتواصل ليل نهـار. وكان حاكم ولاية "جوجارات (*Gücerat*)" قد بسـط نفوذه في تلك الأثناء على "سـورات"، ومنح قيادتها إلى "خُدَاوَنْد".

لم تعد هناك إمكانية لإصلاح سفن الأسطول العثماني لخلوّها من الآلات والمعـدّات، وبهـذه الطريقـة لم يعد محتمـلًا أن يبحر الأسـطول ويكمل طريق العودة إلى مصر. أضف إلى ذلك أن معظم الرجال الذين كانوا يخضعون لقيادة " الرئيس سيدي علي " دخلوا في خدمة حاكم ولاية "جوجارات"، وهو ما جعل

السـفن تخلو من طواقمها. فاتفق "سيدي علي" مـع "خُدَاوَنْد خان" على تسليمه سـفن أسـطوله لبيعها وإرسـال أثمانها إلى إسـطنبول. وتحرّك يوم ٢٠ تشـرين الثاني/نوفمبـر ١٥٥٤م متوجّهًـا إلى "أحمد آباد" يرافقه ٥٠ من رجاله اسـتعدادًا للعـودة إلـى إسـطنبول برًا. ورفـض "خُدَاوَنْـد خان" تنفيـذ طلبـات البرتغاليين بتسـليم "سـيدي علي" إلى أيديهم. كما رفض هذا الأخير عرضًا من "السـلطان أحمـد" بتولـي إدارة ولاية "بروج" والدخول فـي خدمته، وأخبره أنه يريد العودة إلى وطنه في أسـرع وقت ممكن. وانطلق مجددًا برًا في شـهر كانون الثاني/يناير عام ١٥٥٥م ووصل إلى السـند. وهناك انضم إلى معارك اشـتبك خلالها الشـاه "حسـين أرجون (*Argun*)" مـع شـخص يُدعى "عيسـى" أحد القادة الطرخانيين. ووصل بعد ذلك إلى مدينة "ملتان (*Multan*)". وكان "سيدي علي" يتلقّى عروضًا من حكام الولايات التي يمرّ عبر أراضيها بالدخول في خدمتهم باسـتمرار نظرًا لكونه رجلًا ملمًّا بشؤون الإدارة والحرب واصطحابه لعدد من الجنود القادرين على اسـتخدام المدافع والأسـلحة المتعددة. وعندما وصل إلى مدينة "لاهور" لم يسمح له حاكمها "مِيرْزَا شاه" بالعبور من أراضيها، فاضطر للتوجّه إلى مدينة "دلهي" حيث استقبله "همايون شاه" بمراسم استقبال فخمة. ورفض أيضًا عرضه للدخـول فـي خدمته بلطـف وأدب، ومكث لفترة في المدينة شـهد خلالها وفاة هـذا الحاكـم وتنصيب "أكبر شـاه" مكانـه (٢٨ كانون الثاني/ينايـر ١٥٥٦م). ثم تحـرّك إلى "لاهور" بتاريخ ١٣ شـباط/فبراير ١٥٥٣م، ومنها ذهب إلى "كابُل". والتقى في "سمرقند" حاكمها "براق خان". عقب ذلك توجّه صوب "بخارى" يوم ١٣ تموز/يوليـو، ومـن ثم سـار حتى وصل إلى "مشـهد" في إقليم "خراسـان"، فأرسـله الصفويون إلى الشـاه "طهماسـب". ووصل في نهاية المطاف إلى بغداد فـي الأول من شـباط/فبراير عـام ١٥٥٧م، وانتقل بعدها إلى إسـطنبول ودخلها في شـهر أيار/مايو من العام نفسـه. وبعدهـا انتقل إلى "أَدِرْنَه" لمقابلة السـلطان سـليمان الـذي كان يقيـم بهـا آنـذاك، وقـدّم إليه ١٨ رسـالة من الحـكّام الذين التقـى بهـم على مدار رحلته الطويلة، وروى له الأحداث التي عاشـها في طريق

عودته إلى إسطنبول. واستمع السلطان سليمان والصدر الأعظم "رستم بَاشَا" لرواياته حول ما مرّ به طيلة الرحلة باهتمام بالغ، وأثنوا عليه وعلى شجاعته التي أظهرها. وكان "سيدي علي" قد عاصر العديد من الوقائع والأحداث طوال رحلته الطويلة والشاقة لدرجة أنه شاع مثل شعبي بين الناس يقول "أصابته أحداث سيدي علي" إذا ما أردلوا وصف أحداث عظيمة حلّت بأحدهم. وقد جمع "سيدي علي" كل تجاربه ووقائعه التي شهدها في كتاب ألّفه وأطلق عليه اسم "مرآة الممالك".

وفي الوقت الذي واصل فيه "الرئيس سيدي علي "مساعيه لإرجاع أسطوله مرة أخرى، كان العثمانيون ينفذون بعض المخططات الهامة للسيطرة على جنوب البحر الأحمر في المنطقة الواقعة بالقرب من جنوب مصر وغرب اليمن. وكان السلطان سليمان يولي اهتمامًا خاصًا باستتباب الأمن في هذه المنطقة، إذ كان من المهم للغاية إحياء طريق التجارة القادمة من الهند كما كانت في الماضي. ولقد بذل حاكم اليمن "أوزدمير بَاشَا" جهودًا حثيثة في هذا الصدد، مما أسرّ السلطان وأسعده كثيرًا. وكان "أوزدمير بَاشَا" قد مُنح لقب البَاشَاوية قبل ذلك كما أسلفنا، ويُذكر في إحدى الوثائق التاريخية التي تحمل تاريخ ٧ كانون الثاني/يناير ١٥٥٠م بلقب حاكم اليمن(٩١). ويمكننا التخمين بأن تعيينه واليًا على اليمن حدث في عام ١٥٤٨م خلفًا لـ"فرهاد بَاشَا". ونجح "أوزدمير بَاشَا" في ضبط الشؤون الأمنية في اليمن بفضل المعارك التي خاضها ضد "الإمام المطهر". حتى إنه حصل على ترقية عرفانًا بمجهوداته في هذا الصدد عبارة عن مائة ألف قطعة فضية. وبينما كان متواجدًا في اليمن عام ١٥٥٣م، عُزل من منصبه في العام التالي، وانتقل بعدها إلى مصر، ومن ثم عاد إلى إسطنبول بعد ذلك. وهناك التقى السلطان سليمان وزوّده بمعلومات ثمينة حول أوضاع مصر واليمن. ثم أُرسل بعدها إلى الحبشة.

(٩١) بي. ايه. كبيجي. دفتر موظفي الدولة، رقم: ٢٠٩، صفحة: ١٣٥.

وحينما وصل "أوزدمير بَاشَا" إلى مصر نجح في جمع عدد من الجنود، رغم أنه عانى كثيرًا لتحقيق هذه الغاية. ووجد أنه من المناسب قيادة هذه الحملة العسكرية برًّا وبحرًا عبر مياه نهر النيل. وفي نهاية المطاف، استطاع التحرك من مصر على رأس قواته عام ١٥٥٥م، وبدأ جنوده في التقدّم نحو الجنوب برًا وبحرًا عبر مياه النيل. لكن هذه القافلة العسكرية واجهت صعوبات جمة في طريقها نحو الحبشة نظرا لبعدها مسافة كبيرة عن مصر، فقد عانوا معاناة كبيرة بسبب التضاريس الأرضية غير الملائمة لرحلة طويلة كهذه. وفي النهاية استطاعوا الوصول بشق الأنفس إلى مكان يُسمى "شلال" في ولاية "سعيد". وقد اندلعت في هذه الأثناء بعض الخلافات والمناوشات بين الجنود، اتخذ "أوزدمير بَاشَا" على إثرها قرارًا بالعودة من حيث جاءوا. وأبلغ الحكومة المركزية هذا القرار من خلال تقرير أرسله عن الرحلة. وقد تسببت صعوبة هذا الأمر في تجربة طريق آخر. وأدرك وقتها أن الخروج في هذه الحملة العسكرية بحرًا عبر مياه البحر الأحمر ستسهل مهمتهم للوصول إلى مبتغاهم. ولهذا السبب أولى العثمانيون اهتمامًا بميناء "سواكن" السوداني الواقع على سواحل البحر الأحمر. وقررت الإدارة العثمانية ربط هذا الميناء بولاية مصر ليكون مركز إمارة في عام ١٥٥٤م.

وانتقل "أوزدمير بَاشَا" بعد ذلك من مصر إلى إسطنبول، وحاول إقناع الحكومة المركزية بتأسيس ولاية في الحبشة تابعة للدولة العثمانية. وعليه تأسست ولاية الحبشة بتاريخ ٥ تموز/يوليو ١٥٥٥م، وأُسندت إدارتها إلى "أوزدمير بَاشَا". ثم انطلق بعدها إلى "سواكن" وهو يقود القوات التي جمعها من مصر، وبعدها خرج من هناك في غزوة للاستيلاء على مدينة "مصوّع" والأراضي التابعة لها شرق إفريقيا. وبالفعل بسط نفوذه على "مصوّع" عام ١٥٥٧م، ثم استولى على ميناء "حرقيقو" الذي يعتبر من أهم موانئ مملكة الحبشة. وبعد أن قطع العثمانيون الطرق الموصلة بين الحبشة والبحر الأحمر، بادروا إلى التوغّل داخل تلك المناطق. وشرعت القوات العثمانية في الزحف

إلـى "تجـراي" كثاني خطـوة من خطوات هذه الحملة العسـكرية. ولم تسـتطع قـوات مملكـة الحبشـة الصمـود كثيـرًا أمام قـوات "أوزدميـر بَـكْ"، إذ بالرغم مـن تفـوق هذه القـوات من حيث العـدد على القـوات العثمانيـة إلا أنها كانت مجهزة بأسلحة بدائية، بيد أن القوات التركية كانت أكثر تنظيمًا وانضباطًا وتحمل أسـلحة ناريـة أكثر تطورًا. وقد دامت هذه الغـزوة على مدار عام كامل، وانتهت بسقوط "تيجراي" في أيدي العثمانيين عام ١٥٥٨م. ثم انتقلت القوات العثمانية إلـى داخـل أراضي الحبشـة، وعمدت إلـى تدمير مدينـة "دبرا دامـو" التي يقـع بها أكبر الأديرة قدسـية في الحبشـة. وعندما وصلت إلى مدينة تسـمى "دبراوا"، جعلهـا "أوزدميـر بَاشَـا" قاعـدة له في تلـك المنطقـة وحصّنها جيـدًا. كما عقد تحالفات مـع عدد كبير من السكان المحليين.

ثـم انطلق في غزوة شـنّها علـى المنطقة التي تقيم بها قبائل "بوجا" شـمال شـرق السـودان. إلا أن بعضًـا من جنـوده أُصيبوا بضربة شـمس لارتفاع حرارة الجـو فـي ذلك الوقت مـن العام. حتـى إن القـوات العثمانية اضطـرت للعودة بعدما شعر "أوزدمير بَاشَا" نفسه بالإعياء. وبعدها توفي في "دبراوا" عام ١٥٦٠م وبهـذه الطريقـة تكون المنطقة الواقعة شـمال غرب الحدود بيـن إرتريا وإثيوبيا اليـوم قد خضعت للسـيطرة العثمانية. إلا أن القـوات العثمانية المقيمة في تلك المنطقة كانت دائمًا تعانى بسبب قلة عددها، والظروف المناخية الصعبة، واتساع رقعـة الأرض وصلابـة تربتهـا. لكن "أوزدمير بَاشَـا" اسـتطاع بالرغـم من كافة هـذه الصعـاب التي واجهته أن يمتلك نفوذًا أسـطوريًا في هـذه المنطقة، ونجح في الاستفادة من الصراعات الداخلية التي كانت تعيشها الحبشة في توسيـع رقعة ولايته. ولقد ألقت وفاته الرعب في قلوب القوات العثمانية المرابطة في شـرق إفريقيـا، إلا أنـه وبالرغـم من ذلك نجحـت في الإبقاء علـى هيمنتها في مدينتي "مصوّع" و"حرقيقو" وسائر المناطق التي تشملها حدود دولة إريتريا حاليًا.

لقد مارسـت القـوات العثمانية فعاليات متعددة فـي منطقة محور الجنوب المرتبط بصلة وثيقة بالعلاقات مـع الهند تنفيذًا للسياسات التي وضعها السلطان

سليمان، إذ أفضت هذه الفعاليات إلى نتائج مهمة للغاية بالنسبة لتاريخ البحر المتوسط. فعلى الرغم من فقدان الدولة العثمانية العديد من سفنها في هذه البحار البعيدة عن مركزها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، إلا أنها لم تتراجع عن مزاولة أنشطتها في هذه المنطقة. ذلك لأن تجارة الحرير شهدت طفرة ملحوظة في أعقاب معاهدة السلام التي وقعتها الدولة العثمانية مع نظيرتها الصفوية عام ١٥٥٥م، كما سادت حالة من الانتعاش الكبير تجارة البهارات كنتيجة لأنشطة العثمانيين في هذه المنطقة. وقد بدأت هذه الانتعاشة في الظهور منذ أربعينيات القرن السادس عشر خلال فترة كانت فيها الدولة العثمانية تسير بخطى حثيثة لبسط هيمنتها في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي. ويشير أرشيف جمارك مدينة "مرسيليا" الفرنسية إلى أن البهارات القادمة من البحر الأحمر والخليج العربي بدأت تنافس البهارات القادمة إلى "لشبونة". ويذكر المؤرخ الفرنسي "بروديل" أن حركة التجارة في البحر المتوسط بدأت في الانتعاش مع القوافل غير المحدودة القادمة من الخليج العربي والبحر الأحمر، موضحًا أن موانئ مدن كحلب وطرابلس الشام والقاهرة والإسكندرية شهدت تطورا مطردا مع مرور الوقت بصفتها بوابة طريق بهارات الشرق المفتوحة على أوروبا. وبطبيعة الحال لم يكن البرتغاليون سعداء بذلك. ويرى الوالي العام البرتغالي في الهند "نورانهو" أن ممثلي دولة البرتغال القدامى في الهند هم من يتحملون مسؤولية الركود الذي سيطر على حركة تجارة الفلفل الأسود، ويشتكي من امتناع ملك البرتغال عن إرسال الأموال الكافية لتطوير تجارة البهارات في الهند.

وكانت موارد خزينة الدولة العثمانية تزداد مع مرور الزمن في ذلك التوقيت. فعلى سبيل المثال، ارتفعت عائدات الجمارك في اليمن من ٢,٥ مليون قطعة نقود عام ١٥٦٠م إلى ٤,٥ مليون قطعة في العام التالي. وكانت سلطنة "آتشيه (*Açe*)" في جزيرة "سومطرة (*Sumatra*)" على وجه الخصوص ترسل الكثير من البهارات سنويًّا إلى البحر الأحمر. وحاول البرتغاليون

في عامي ١٥٥٤م و١٥٥٩م اعتراض طريق القوافل التجارية العثمانية في البحر الأحمر، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. وبدأت قوافل بهارات الشرق الأقصى والخـزف الصينـي تتوافـد على ميـاه البحر الأحمـر. وبخلاف قوافـل البهارات المتوجهـة إلـى مركز الدولـة العثمانية وسـائر المناطق الأخـرى، كانت الإدارة العثمانية تكسب من الموارد المالية القادمة إليها من البضائـع المبيعة إلى التجار الأوربييـن في الموانئ المصرية والسـورية. وكانت حمـولات البهارات القادمة إلـى البحـر الأحمر فـي العقد الواقـع بيـن عامـي ١٥٥٤ - ١٥٦٤م تتراوح بين ٢٠ إلى ٤٠ ألف قنطار.

ويذكـر السـفير البرتغالـي لـدى الفاتيـكان "بيريس" فـي تقرير لـه أن ميناء الإسكندرية كان يستقبل ٤٠ ألف قنطار من البهارات في ستينيات القرن السادس عشر، موضحًا بقوله:

> "كانـت هنـاك كميـات كبيـرة مـن البهـارات تأتـي الأتـراك سـنويا مـن الشـرق، ومن ثم فلا عجـب أنه كانت تصل لشـبونة كميات ضئيلة جدا منها."

ويعـزو "بيريـس" هذا إلـى إدارة البرتغاليين الفاشـلة في المحيـط الهندي، بـل ويربـط بينهـا وبين إرسـال الـولاة البرتغاليين أنفسـهم البهـاراتِ إلى البحر الأحمـر. وبهـذه الطريقة وجّهت الأنشـطة التجاريـة للدولة العثمانيـة في البحر الأحمـر والخليـج العربي ضربة قاصمة لتجـارة البرتغال، وأسـهمت في إحياء طريق البهارات القديم. ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية تسـعى لترسيخ دعائم سيطرتها على أراضي الحبشة لإحباط أي محاولة لتدمير فعالياتها التجارية فـي المحيـط الهنـدي من جهـة، والحيلولـة دون تأثير المعـادن الثمينـة القادمة من أمريكا إلى أوروبا سـلبًا على اقتصادها النامي من جهة أخرى. وللسبب ذاته كانوا يعتبرون هيمنتهم على أراضي الحبشة صمام أمان لمواصلة نجاحاتهم على المسـتويين الاقتصـادي والتجاري. وفي الواقـع كان ١٦ ألـف طن من المعادن الثمينـة قـد نُقلت من أمريكا إلى أوروبا خلال الفتـرة الواقعة بين النصف الأول

من القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر، حيث أثّرت هذه التدفقات بالسلب كثيرًا على الدولة العثمانية. وشهد منتصف القرن السادس عشر اضطرابات في أسعار السلع، كما ظهرت أزمة نقص معدن الذهب.

وقد عزمت الدولة العثمانية على بسط سيطرتها على أراضي الحبشة والسودان لهذه الأسباب التي ذكرناها أعلاه. وكان الذهب والمنتجات الزراعية الواردة من هذه الأراضي تشكل المورد الأساسي لولاية الحبشة، كما استفادت خزينة الدولة العثمانية أيضًا من هذه الموارد. وكان أسطول الدولة العثمانية في تلك الحقبة مبنيا في الأساس وفق ظروف البحر الأبيض وليس المحيط الهندي، وهو ما أحبط كافة محاولاتها للإقدام على شن حملات عسكرية شاملة في مياه المحيط الهندي. وبالرغم من ذلك فإن أسطولها استطاع السيطرة على البحر الأحمر بعد فتح مصر، والاستيلاء على الأماكن الهامة جنوب شبه الجزيرة العربية والبصرة والحبشة. ولقد لعبت حركة الانتعاش التي حققتها الدولة العثمانية فيما يتعلق بقوافل التجارة المارة من البحر الأحمر دورًا رئيسيًّا في تكبيد البرتغاليين خسائر فادحة على الصعيدين السياسي والتجاري. واضطر البرتغاليون أن يفقدوا أملهم في الهيمنة على البحر الأحمر، كما انتزع الإسبان المحيط الهندي منهم بعد فترة من الزمن وأحكموا سيطرتهم عليه.

الاشتباكات الحدودية الجديدة مع آل "هابسبورج"

في الوقت الذي كان السلطان سليمان فيه يتابع مستجدات الأوضاع في الممالك البعيدة الخاضعة لهيمنة إمبراطوريته، أسرع من وتيرة المباحثات الدبلوماسية الناتجة عن المفاوضات التي أُجريت مع سفراء آل "هابسبورج" في ولاية "أَمَاسْيَا". لكنه كان يتوخّى الحذر بسبب الأحداث التي شهدتها حدود المَجَر في وقت سابق. وكانت بعض المناوشات والاشتباكات الفردية والجماعية تنشب بين القائد الكرواتي "بارون أونجاند" من جانب آل "هابسبورج" ووالي بودا "تويجون بَاشَا" و"علي بَاشَا الخادم" وسائر أمراء الولايات الحدودية الأخرى من الجانب العثماني بين الفينة والأخرى. كما نشبت خلافات بين

الطرفين حول بعض القلاع في المَجَر. وفي إطار هذا الجو المتلبّد، أقدم حاكم ولاية بودا "علي بَاشَا الخادم" على غزو مدينة "سيكتوار" للمرة الثانية في شهر شباط/فبراير عام ١٥٥٦م. وتحرّك من "بودا" ترافقه بعض القوات العسكرية بتاريخ ٢١ أيار/مايو ١٥٥٦م، ثم عسكر بجنوده بعدها بثلاثة أيام أمام قلعة "سانت لورينت" الواقعة على بعد ميل واحد من مدينة "سيكتوار". وبعدها وصل إلى مشارف "سيكتوار" -الواقعة جنوب "كابوسوار" وغرب "بيتش" والمحصَّنة بشكل جيد- وحاصرها. واستمرت عملية ملء الخنادق حول قلعة المدينة وسائر ترتيبات الحصار الأخرى لفترة طويلة. والواقع أنه شُنّ أول هجوم على القلعة بعد مرور شهر كامل من حصارها. إلا أن هذا الهجوم باء بالفشل، وسقط ٣٠٠ شهيد من القوات العثمانية.

وبينما كان "علي بَاشَا الخادم" منشغلًا بحصار "سيكتوار (*Sigetvar*)"، حاصر القائد المَجَري "ناداسدي تاماس (*Nadasdy Tamas*)" قلعة "بابوفتشا" بصحبة قوة عسكرية نمساوية. وأدّى هذا الحصار إلى دفع "علي بَاشَا الخادم" للسير ببعض قواته للدفاع عن القلعة، إلا أنه لم يتمكن من إنقاذ القلعة من أيدي القوات الغازية. حتى إن قواته تعرضت للهزيمة في المعركة التي دارت رحاها على إحدى ضفاف نهر "رينيا" بتاريخ ٢٥ تموز/يوليو ١٥٥٦م. فاضطر للانسحاب ومتابعة حصار "سيكتوار"، إلا أن قلة عدد جنوده حالت دون تكليل هذه المهمة بالنجاح، ما دفعه في نهاية الأمر إلى رفع الحصار عن المدينة بنهاية شهر تموز/يوليو. وفي تلك الأثناء نجحت قوة عسكرية نمساوية بقيادة "بالافنشي" في الاستيلاء على مدينة "كوروتنا". وبهذه الطريقة فشل "علي بَاشَا الخادم" في غزوته على مدينة "سيكتوار". إلا أن هذا الإخفاق سيُعوّض في عام ١٥٥٨م. فقد هاجمت قوة عسكرية عثمانية قوامها ١٥ ألف جندي مدينة "موتلينج" التابعة لإقليم "كارنيوله (*Carnyole*)"، وعادت بعد أن حصلت على الكثير من الغنائم والأسرى. وفي شهر أيار/مايو من العام ذاته سار حاكم إمارة سيكشفهيرفار "حمزة بَكْ" على رأس قوة عسكرية حتى وصل إلى مشارف قلعة "تاتا"، وعمد إلى نصب سلالمه على أسوار حصن القلعة ليلًا في وقت

لم يكن قائدها متواجدًا بها لبعض الشؤون الخاصة، ومن ثم تخلص من الجنود الذين كانوا يتولون حراسة القلعة في ذلك الوقت، وبعدها استطاع السيطرة على المدينة بأكملها. كما استولى "حمزة بَكْ" بعدها على بعض الحصون الأخرى المجاورة لبحيرة "بالاتون (*Balaton*)". هذا إضافة إلى شنّ حاكم إمارة البُوسْنَة "مالكوتش أوغلو علي بَكْ" هجمات على مدينة "كروبا (*Krupa*)" والقلاع المجاورة لها، واستطاع بسط نفوذها على الأراضي الواقعة بين نهريْ "أونا" و"كولبا" وقلعة "كوستانيتشا (*Kostaniça*)".

ويُشار إلى أن السلطان سليمان لم يولِ اهتمامًا زائدًا بهذه الوقائع، إذ نرى أنه لم يتحدث عن هذه الفتوحات في ثلاث رسائل بعثها إلى النمسا في ذلك التوقيت. وبالرغم من ذلك فإن "فرديناند" لم يفتأ عن إيفاد الرسل إلى عاصمة الدولة العثمانية من أجل حل هذه النزاعات وطلب التنازل عن إقليم "أَرْدَلْ" لدولته. وأما السلطان سليمان فقد أوفد رسولًا حاملًا "رسالة سلطانية" عقب عودة السفير "بوسبك" إلى النمسا في عام ١٥٥٨م، وطلب في هذه الرسالة النمساويين بالتخلّي على مدينة "سيكتوار". كما عاد المبعوثان النمساويان "ورانسزي" و"زاي" إلى بلديهما بمذكرة من السلطان العثماني تتضمن المطلب نفسه. وقد أعرب السلطان سليمان عن رغبته تلك كذلك في رسالة بعثها إلى النمسا في شهر نيسان/أبريل عام ١٥٥٧م.

وفي تلك الأثناء، وجّه مجلس إقليم "أَرْدَلْ" دعوةً إلى الملكة "إيزابيلا" وابنها -اللذين هربا إلى بولندا في وقت سابق- عام ١٥٥٦م من أجل استلام السلطة في الإقليم بهدف القضاء على النزاعات والاضطرابات التي كانت سائدة في المنطقة. ذلك لأنه وبينما كان سفراء آل "هابسبورج" يعقدون مفاوضات مع الحكومة العثمانية، كان وفد من إقليم "أَرْدَلْ" يمثّل الملكة "إيزابيلا" و"بيتروفيتش" قد ذهب لزيارة رجال الدولة العثمانية. وقد طلب هذا الوفد دخول الملك "يانوش سيجسموند" تحت حماية السلطان سليمان، وإلحاق بعض المناطق مثل "ليبوفا (*Lipova*)" و"سوليموس (*Solimos*)" و"كاناد

(*Canad*)" بإقليم "أَرْدَلْ" الخاضع لحماية الدولة العثمانية. كما حاول هذا الوفد إفشال مفاوضات المبعوثين النمساويين مع مسؤولي الدولة العثمانية، وعمدوا إلى تحريض حكومة إسطنبول على الخروج في غزوة جديدة إلى النمسا. وقد اقتنعت الإدارة العثمانية بهذا العرض، وأُرسل بالفعل رسول يُدعى "أُورُوجْ جَاوُوشْ" إلى إقليم "أَرْدَلْ" يرافقه مترجما الديوان السلطاني "محمود" ذو الأصول الألمانية و"فرهاد" ذو الأصول المَجَرية. وبدأ هذا الوفد العثماني في الانشغال بتسكين الملكة "إيزابيلا" وابنها في الإقليم.

وفي نهاية المطاف بادر حاكما ولايتيْ "أفلاك" و"بوغدان" -تنفيذًا لأوامر السلطان سليمان- إلى اصطحاب "إيزابيلا" وابنها من بولندا بعدما أعلنا ولاءها للسلطان. وكانت إدارة إقليم "أَرْدَلْ" قد أُسندت إلى "يانوش سيجسموند (*Janos Sigismund*)" الذي يبلغ من العمر ١٨ ربيعًا. ووفقا لإحدى الرسائل الواردة في "منشآت" "فريدون بَكْ" فإن ملك فرنسا نفسه تقّدم بطلب إلى السلطان سليمان بخصوص هذا الأمر. وهكذا قد اسندت إدارة الإقليم إلى الشاب اليافع "سيجسموند" عام ١٥٥٨م ليحكمه بالتبعية للدولة العثمانية حتى وفاته عام ١٥٧١م.

وقد مكث السفير "بوسبك (*Busbecq*)" في إسطنبول بعدما نقل رسالة السلطان سليمان في وقت سابق إلى النمسا، بعد أن عاد رفاقه إلى فيينا في ذلك الوقت، وأبلغ السلطان -بتعليمات تلقّاها من فيينا- أن الإمبراطور "فرديناند" لن يتنازل عن مدينة "سيكتوار". إلا أنه استطاع التوصل إلى اتفاق مع المسؤولين العثمانيين في "أَدِرْنَه" على التوقيع على هدنة جديدة لمدة سبعة أشهر (١٥٥٨م). وقد انقطعت المفاوضات بين الجانبين بانتهاء هذه الهدنة في العام التالي. والسبب في ذلك أن جميع الآمال المعقودة على الاتفاق بين الجانبين قد ذهبت أدراج الرياح بعدما رفض السلطان سليمان واحدة من أربع مسودات لمعاهدات مختلفة أرسلها "فرديناند" إلى السفير "بوسبك" من مدينة "آوجسبورج"، وكان ترتيب هذه المسودة هو الرابع، إذ كان يراها "بوسبك"

هي الأنسب للموافقة عليها من الجانب العثماني. ولم يحصل السفير "بوسبك" علـى إذن مـن السـلطان بالرحيل. واسـتقبله السـلطان بعد فترة مـرة أخرى يوم ٨ يونيـو / حزيـرن. وطلب السـفير النمسـاوي خلال هـذا اللقـاء الموافقة على اتفـاق السـلام فقط، وأخبـر السـلطان أن "فرديناند" توصل لاتفـاق مـع الملكة "إيزابيلا" حول المناطق المتنازع عليها في إقليم "أَرْدَلْ"، مشيرًا إلى أنهم تراجعوا عن كافة مطالبهم في الوقت الراهن. لكن السلطان سليمان كان مُصرًّا على طلبه بتخليهـم عـن مدينة "سـيكتوار"، وهو ما أفشـل آخر محاولة حاولها "بوسـبك" لإقناع السلطان. حتى إن "بوسبك" وُضـع تحت المراقبة فترة ما في دار السفراء الواقعـة بمنطقـة "جمبرليطـاش (*Çemberlitaş*)" فـي إسـطنبول. وكان سـفراء من البندقية وفرنسـا وإسـبانيا يترددون على السلطان في تلك الأثناء، كما أرسل السلطان سليمان خطابًا إلى حاكم روسيا.

وقـد ذكـر السـلطان سـليمان حاكم روسـيا في بدايـة هذه الخطـاب بلقب "القيصـر"، وأشـار إلـى العلاقـات الطيبة التي تجمـع الدولة العثمانية بروسـيا، وطلـب منه تقديم التسـهيلات الكافيـة للتجار الأتراك المتوجهين إلى موسـكو لشـراء الفراء. إلا أن الروس اسـتولوا على مدينة "أسـتراخان (*Astarhan*)" عام ١٥٥٦م، وقطعوا الطرق الموصلة بين شـمال البحر الأسـود وآسـيا الوسـطى. ولقد أدرك العثمانيون خطورة هذه الخطوة على الفور، إلا أن تحركهم لحل هذه الأزمة استغرق وقتًا طويلًا.

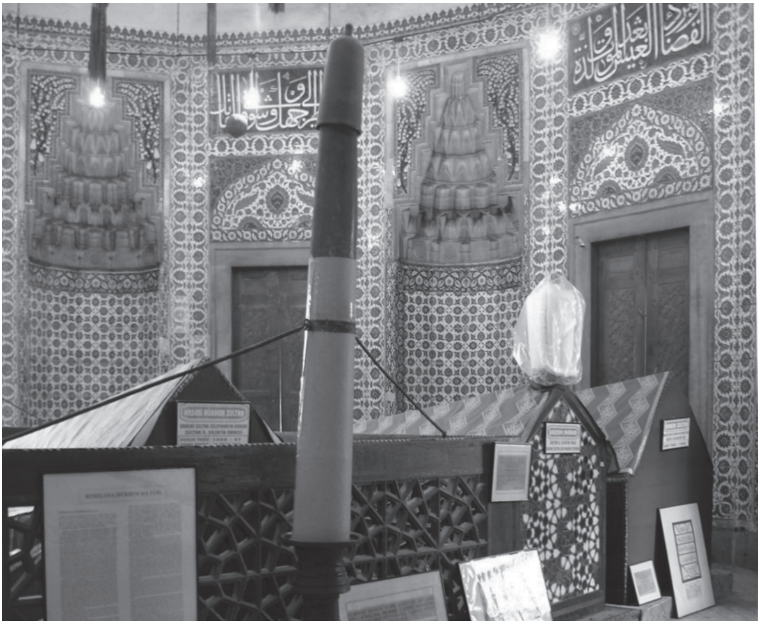
وفاة "خُرّم سلطان" وواقعة الأمير "بايزيد"

شعر السلطان سليمان بسعادة غامرة عندما شاهد الجامع الذي أمر بإنشائه ليحمـل اسـمه -جامع السـليمانية- وقد اكتمل بنـاؤه بتاريـخ ٧ حزيران/يونيو ١٥٥٧م. وأمـر بتنظيـم مراسـم احتفالية ضخمة ليفتتح بعدهـا الجامع مع أول صلاة جمعة فيه. وجاءه في تلك الأثناء رسول من الشاه "طهماسب"، وقدّم إليه الهدايا بمناسـبة افتتاح الجامع. وعاد السـلطان في شهر آب/أغسطس من العام نفسه إلى "أَدِرْنَه".



منظر لمسجد سليمان الواقع على قمة تلّة تُشرِف على مشهد شبه الجزيرة التاريخية بإسطنبول

ويذكر سفير آل هابسبورج "بوسبك" أن غرض السلطان من هذه العودة هو غزو المَجَر والاستيلاء عليها. ويروي أن السلطان سليمان كان يفضل التوجه إلى "أَدِرْنَه" بين الحين والآخر لاعتقاده أن مناخها يفيد تماثله للشفاء من مرضه، مشيرًا إلى أنه بدأ في قضاء وقته في الخروج إلى جولات الصيد هناك، حتى إن الذهاب إلى "أَدِرْنَه" كل عام صار عادةً لدى السلطان. إلا أن السلطان سليمان شعر بالضيق والضجر لتدهور الحالة الصحية لزوجته "خُرّم". ويصوّر مبعوث شريف مكة "قطب الدين المكي" -الذي كان متواجدًا في إسطنبول وقتها- جيدًا القلق الذي انتاب السلطان بسبب مرض زوجته، والاضطراب الذي كان يعتري "رستم بَاشَا". وقد عاد السلطان إلى إسطنبول مطلع شباط/فبراير عام ١٥٥٨م بعدما ساءت حالة زوجته الصحية، وشهد وفاتها أواسط شهر نيسان/أبريل من العام نفسه. ولقد دفع الحزن الذي شعر به السلطان سليمان إلى التوجّه إلى "أَدِرْنَه" مرة أخرى للإعداد لغزو المَجَر، إلا أنه اضطر في النهاية لإرجاء هذه الغزوة لبعض الوقت في أعقاب نشوب توتر شديد بين ابنيه الأميرين "سليم" و"بايزيد".



مقبرة "خُرّم سلطان" في فناء جامع السليمانية

وكانت وفاة "خُرّم سلطان" تعني فقدان الأمير "بايزيد" أكبر رعاته وداعميه إذا جاز التعبير. وكانت بعض أقاليم الدولة العثمانية تشهد اضطرابات في تلك الأثناء وبالتحديد اعتبارًا منذ مطلع خمسينيات القرن السادس عشر. ولقد ساعد على حركة طلاب المدارس في غرب الأناضول الزيادة في أعداد الشباب والرجال العاطلين عن العمل، إذ إنها نتجت في الأساس عن الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في تلك الحقبة. وفي الواقع كانت هذه الأحداث بمثابة إرهاصات لأزمة اجتماعية ستظهر في الأفق على المدى الطويل. كما لعب تولّي السلطان سليمان حكم الدولة العثمانية لفترة طويلة دورًا مباشرًا في حدوث حالة من الملل والإحباط بين أركان الدولة وعامة الشعب جرّاء الرتابة في نظام الحكم، إذ أخذت هذه الحالة في الالتهاب شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت. ولقد أظهرت واقعة الأمير مصطفى المزيف عقب إعدام الأمير الحقيقي أن الرأي العام تسيطر عليه حالة من الترقّب لبداية حقبة

جديدة من تاريخ الدولة. ومن ناحية أخرى نرى أنه من المثير للاهتمام في هذا الصدد تنامي معارضة الأوساط الصوفية للحكومة المركزية لأسباب اقتصادية. وتجذب إحدى الرسائل الدينية المؤلفة في هذه الحقبة الانتباه إلى البنية الخربة للمجتمع، والظلم، وانتشار الرشوة وضعف المعتقدات الدينية بين الناس.



حمام "خَسَكي" وقد استنشأته "خُرم سلطان" التى اضطلعت بكثير من أوجه الخير

ولقد كانت آراء الإمام "برجيوي" ذات تأثير كبير لدرجة أنها بدأت في التأثير على حاشية السلطان ومن في القصر كما أسلفنا. هذا بالإضافة إلى أن السلطان سليمان -الذي كان يعتبر زعيم العالم السُنّي- أولى اهتمامًا ملحوظًا بالفعّاليات الدينية في هذه السنوات المضطربة من حكمه.

إن وفاة "خُرّم سلطان" كانت مؤثرة للغاية لدرجة أنها كانت كفيلة بقلب كل شيء في القصر رأسًا على عقب. فالسلطان سليمان بدأ في الخضوع لتأثير ابنته "مهرماه" زوجة "رستم بَاشَا" بشكل أكبر. وكانت "مهرماه" تسعى لسد الفراغ الذي خلّفته وفاة والدتها إذا جاز التعبير. لكن الأزمة التي كانت خفية داخل أسرة السلطان انفجرت بشكل مفاجئ. وسنرى أن هذه التطورات ستحدث

بين الأخوين "سليم" و"بايزيد" ابنيْ "خُرّم سلطان" اللذين كان كل واحد منهما يرى نفسه المرشح الأقوى لخلافة والده على عرش السلطنة، إذ كانت فكرة خلافة السلطان سليمان في الحكم نابعة من خارج القصر وليس من داخله.



كان السلطان سليمان هو من أجرى أوسع عملية إصلاحات في الحرمين الشريفين
وتشير الصورة إلى المسجد الحرام في تسعينيات القرن التاسع عشر

ولقد شهد القرن السادس عشر اعتبارًا من منتصفه أزمات اقتصادية خطيرة تمخّضت عنها ظروف اقتصادية جديدة، إذ جعلت هذه الأوضاع إحدى طبقات الفرسان يشعرون بعدم الرضا والسخط، ودفعتهم للدخول في خلافات مع القرويين وبعض طبقات الجنود. ولعب رجال الدولة الذين كانوا يراعون مصالحهم الشخصية أكثر من مصالح الإمبراطورية دورًا كبيرًا في إذكاء نيران هذه الخلافات والنزاعات. وكما ذكرنا لاحقًا ظهرت محاولات لدى بعض الطبقات في الدولة تنادي بضرورة عزل السلطان سليمان من منصبه بعدما تقدمت به السن وتنصيب ابنه الأكبر الأمير مصطفى مكانه. حتى إن هؤلاء

سعوا لإقناع الأمير مصطفى وتحريضه على قيادة حركة لعزل والده عن العرش. إلا أنـه يجب كذلك وضـع دور الدعوات المناهضة لهذه الفكرة بعين الاعتبار، إذ إنـه وبعـد واقعة إعدام الأميـر مصطفى -بغض النظر عن أسـبابها ودوافعها- احتشـد عدد كبير من المنتسـبين إلى طبقة الفرسـان حول الأمير "بايزيد" لدعمه مـن أجـل الوصول إلى عرش السـلطنة، واتخـذوا ذلك كحركة مضـادة للتعبير عـن غضبهـم على الأوضاع الرغـدة والامتيازات الكبيرة التـي تتمتـع بها بعض الطبقات العسكرية وحاشية القصر.

لقـد انخفـض عدد الأمراء المتنافسـين على عرش السـلطنة إلى اثنين بعد مقتـل الأمير مصطفى ووفاة شـقيقه الأصغر الأمير "جهانكيـر". وهذان الأميران هما "سـليم" و"بايزيد" ابنا "خُرّم"زوجة السلطان. وكان "سليم" أكبر من "بايزيد" سـنًّا. وكانـت والدتهما تميـل أكثر إلى "بايزيد"، لكنها في الوقت نفسـه لم تقدم على أي حركة ضد ابنها الآخر "سـليم". وبالرغم من انضمام "سـليم" إلى جيش والده السلطان في غزوة "ناخيتشيفان" وتأثيره عليه -أي على السلطان سليمان- إيجابيًّـا بطباعـه المنقـادة، فقـد وضعـت "خُـرّم" ابنهـا "بايزيد" تحـت جناحها، وتمكنـت مـن إزالـة ما يحوم حوله من سـوء ظن وشـائعات، ونقلتـه من ولاية "قونيا" إلى ولاية "كُوتَاهْيَا" التي تعتبر أفضل مكانة من الأولي (١٥٥٨م).

وقد كان الأمير "بايزيد" حاضرًا خلال استقبال السفير "قطب الدين المكي" المرسل من قِبل شريف مكة، إذ تحدث "بايزيد" عن بعض الأعمال التي يرغب فـي تحقيقهـا إذا مـا ارتقى إلى عرش السـلطنة بشـأن "الصـرّة السـلطانية" التي تُرسـل سـنويًّا إلى الكعبة. وتعتبر هذه الحادثة واحدة من أبرز الأمثلة الدالة على أن الأمير بدأ في أن يري نفسه مرشحًا لخلافة والده في الحكم.

وفـي الواقـع كان هنـاك الكثيرون الذيـن ينظرون للأميـر "بايزيد" على أنه سيخلف والده في العرش من حيث طريقة حياته وشخصيته وثقافته. وفي الوقت الذي كان "سـليم" يقضي جل أوقاته في اللهو والترفيه في "مَانِيسَـا"، كان شقيقه "بايزيـد" قـد حوّل ولايتـه "كُوتَاهْيَا" إلـى مركز للعلم والمعرفـة. إلا أن "بايزيد"

فقـد أكبـر داعميه بوفـاة والدته "خُـرّم". إذ أدت وفاتها إلى احتـدام الصراع بين الأخوين على السلطة واشتداده. وبحسب ما يرويه المؤرخ "عالي" -أحد الذين كانوا في خدمة القائد العسـكري العثماني الشـهير "لالا مصطفى بَاشَا"- أن أحد الأسـباب التـي أدّت إلى زيـادة الخلافات بين الشـقيقين وإيقاعهما في بعضهما البعـض هـو "لالا مصطفى بَاشَـا" نفسـه. حيث نجـح هذا الأخير فـي الدخول إلـى خدمـة كلا الأميرين، واسـتطاع بسـهولة الإيقـاع بينهما بفضـل المؤامرات والتدابير التي كان يتخذها في هذا الصدد.

ويُروى أن "لالا مصطفى بَاشَـا" كان يقف في صف الأمير "سـليم"، إلا أنه كان يرسـل خطابات إلى أخيه "بايزيد" ويخدعه بإيهامه بأنه يدعمه ضد شـقيقه، مـا دفـع هـذا الأخير إلـى تصديق هـذه الألاعيب وإرسـال خطابـات بكلمات سـيئة إلـى أخيه يدعوه فيهـا إلى النزال. كما يُقال إنه أرسـل إلى "سـليم" بعض الملابس وأدوات الزينة النسائية للسخرية منه، وفي مقابل ذلك أرسل سليم هذه الخطابات إلى والده السلطان بتحريض من "لالا مصطفى بَاشَا".

وكان السـلطان سـليمان يتابـع هذه الخلافات الناشـبة بين ابنيه بقلق بالـغ، إذ زاد هذا القلق بسبب الشكاوى التي كان يرسلها "سليم" باستمرار حول علاقاته بأخيه. وعندما رأى السـلطان أن التحذيرات والنصائح التي أرسلها إلى "بايزيد" لـم تُجد نفعًا، فكر في تغيير الإمارتين اللتين يحكمهما الشـقيقان للحيلولة دون نشوب معركة بينهما. وعليه، فقد نقل "سليم" من "مَانِيسَا" إلى "قونيا"، و"بايزيد" من "كُوتَاهْيَا" إلى "أَمَاسْـيَا"، ومنح كل واحد منهما زيادة مالية قيمتها ٣٠٠ ألف قطعة فضية (٦ أيلول/سبتمبر ١٥٥٨م). كما أرسل مراد بن سليم إلى "آقشهير"، و"أورخـان بـن بايزيـد" إلى "جـوروم". إلا أن الأميـر "بايزيد" لم يكن مسـرورًا لهـذه التنقـلات. ذلـك لأن إرسـاله إلى إمارة بعيـدة عن العاصمـة أصابه بحالة مـن الاضطـراب، واعتبـر أن تعيينـه حاكمًا على تلـك الولاية من قبيـل الإهانة لشـخصه. كمـا يشـير "بايزيـد" في خطاب أرسـله إلى والده السـلطان سـليمان أن أخيه "سليم" له دور في إرساله إلى "أَمَاسْيَا"، موضحًا أن هذا يعني أنه يفضل "سليم" عليه. وتابع خطابه بقوله "أفضل الموت على هذه الإهانة!".

ولـم يرغـب "بايزيد" في مغادرة "كُوتَاهْيَا"، وسـاق بعض الحجج كي ينقذ نفسه من هذه الورطة، إلا أن والده السلطان لم يُسرّ لذلك. حتى إنه أخبر والده أنـه أنفـق أموالًا طائلة في إعمـار إمارة "كُوتَاهْيَا"، ولذلـك فإنه يحتاج مزيدا من المـال كـي ينتقل إلى مزاولة مهمته الجديدة في "أَمَاسْـيَا". فأجابه السـلطان بأنه سيرسـل إليه ما يريد من مال فورًا ما إن يخبره بتحركه من "كُوتَاهْيَا". وفي نهاية الأمـر اضطر الأمير "بايزيد" لمغادرة "كُوتَاهْيَا" بتاريخ ٢٨ تشـرين الأول/أكتوبر ١٥٥٨م بعدما رفض والده جميع حججه الواهية، وأرسـل إليه رسـالة تحذيرية قال فيها:

"إما أن تخرج إلى إمارتك الجديدة، وإما أن تستعد لما سيحدث لك!".

ولمـا خـرج "بايزيـد" مـن المدينة سـار ببطء شـديد، وأخذ ينزل فـي أماكن الاسـتراحة فـي الطريـق ويقيـم بها أكثـر من الـلازم منتظـرًا تنفيذ والـده الوعود التـي وعـده بها. وفـي تلك الأثناء علم "سـليم" أن أخاه قد غـادر "كُوتَاهْيَا"، فهمّ هـو الآخـر لتنفيـذ أوامر والـده، وتحـرّك من "مَانِيسَـا" إلـى إمارته الجديـدة يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر. وكان "سليم" قد حصل على إذن من السلطان بأن يذهب إلـى "قونيا" عـن طريق ولاية "بورصـا" كإجراء احترازي ضـد أي حركة مخادعة يقوم بها شـقيقه. حتى إنه فضل الإقامة لفترة في "بورصا" لما جاءته أنباء تتحدث عن رفض "بايزيد" التحرك من ولاية "إسكيشهير". وكانت رغبة "بايزيد" في الإقامة لمدة طويلة في أماكن الاستراحة بينما كان في طريقه إلى "أَمَاسْيَا" نابعة في الوقت نفسـه من أسـباب أخـرى. وهي كلما وصل إلـى مدينة ينزل بها للاسـتراحة كان يأتيه العديد من الأشـخاص لتقديم فروض الطاعة والولاء له، الأمر الذى زاد من عدد الأشـخاص المحيطين به. ولقد دفـع هذا الوضـع السـلطان سليمان للشعور بالقلق والحيرة، وأدرك أنه حان الوقت لإرسال أحد الأشخاص إلى الأمير "بايزيد" ليقنعـه بتنفيـذ أوامر أبيه وحثّه على الذهاب إلى "أَمَاسْـيَا" في أقرب وقت ممكن. كما قرر أن يرسل شخصًا آخر إلى الأمير "سليم" ليكون بذلك قد تصرّف بحيادية تجاه الشـقيقين. إلا أن ابنه الأمير "سـليم" كان ينفذ أوامره كما رغب، ولهذا عمل الشخص المرسل إليه كمستشار له وليس كناصح.

وعليه، فقد أرسـل السـلطان سليمان الوزير الرابـع "برتف بَاشَا" إلى الأمير "بايزيـد"، والوزيـر الثالـث "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" إلى الأمير "سـليم". ووصل "برتف بَاشَـا" إلى منقطة قريبة من أنقرة حيث التقى "بايزيد" بينما كان يسـتريح مـن عنـاء الطريـق، وأبلغـه أن والده السـلطان يحبه كما يحب شـقيقه "سـليم"، وأنـه أقـدم على اتخاذ قرار بشـأن هذه التنقـلات لمنـع نشـوب نزاعات جديدة بينهمـا. ونجح هـذا المبعوث في أن يهدئ من اضطراب الأميـر "بايزيد" كثيرًا. كمـا تعهّد "بترف بَاشَـا" بأن السـلطان سـليمان سـينفذ كافة الوعـود التي قطعها على نفسه لإقناع "بايزيد" بالانتقال إلى "أَمَاسْيَا". إلا أنه وبالرغم من هذا لم ينته الخـلاف بيـن "بايزيد" ووالده السـلطان ولـم تنطفئ نار العـداوة التي كان يكنها لشـقيقه. وفي الوقت الذي كان فيه السلطان سـليمان يتعمّد اتباع طريقة مراوغة لمواجهـة طلبـات ابنـه "بايزيد"، كان هـذا الأخير يزيد من طلباتـه ويرفـع صوته علـى أبيـه لدرجة وصلت لحد الاتهام. وكان يرسـل خطابـات إلى والده يعرب فيها عن استيائه الشديد من معاملته له، جاء في أحدها ما يلي

"والدي السـلطان! أنت لم تعُد تحبنا أو ترعانا أو ترغب بنا، فأنت ترانا كأننـا أعـداؤك. يا حسـرتاه! العلاقات بيننا وصلت إلى مسـتوى يعجب منـه جميـع النـاس. آه! صرنا يتامى والحمد لله! كل إنسـان يأمل في أن يحصـل علـى الرحمة من أجداده، وأنت ليس لديك رحمة! لقد تعرضنا لمصيبة كبيرة!"

وصل "بايزيد" إلى "أَمَاسْيَا" في نهاية المطاف يوم ٢١ كانون الأول/ديسمبر، وحينما رأى أن والده لم يفِ بوعوده، بدأ في اتهامه بالكذب والغش، وكتب إليه خطابـات يتهمه فيها هذه الاتهامات. ويضم أرشـيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي" في إسطنبول اليوم بعض هذه الخطابات التي جاء في أحدها:

"لديك حيلة للتنصّل من وعودك على الفور. وتقول إنه ليس لك غرض من هذا. فالرجل الشجاع لا يكذب أبدًا. وحاشا أن يكذب حضرة السلطان. وإن أقدمـت علـى منحي ما أريد ناقصًا، فلا تسـتطيع أن ترضيني بهذا.

فلا أستطيع البقاء في أَمَاسْيَا، ومن ثم لن أكون أنا المذنب حينها. إنك تتحدث كثيرا ولكن تتغاضي عن فعل شيء".

ويقول في خطاب آخر ما يلي:

"لقد وثقت في كلام السلطان، وجئت من أنجورو. ولم أكن أعلم أنك ستنقض عهدك الذي عاهدتني عليه. وإن كذبت يا أيها السلطان، فكيف لنا أن نصدق كلامك بعد ذلك؟"

وقد دفعت هذه الخطابات السلطان سليمان إلى أن يرسل من جانبه ردودًا مراوغة إلى ابنه الغاضب، ما حوّل طلبات "بايزيد" من طور الطلب والرجاء إلى حالة من التهديد. وطلب هذا الأخير في خطاباته أن يعود إلى "كُوتَاهْيَا"، وهدّد بأنه إن لم يُستجب لهذا الطلب قائلا:

"إنني أعرف هدفي، وسأجد من أستعين به على ذلك!".

حتى إنه اتهم والده بالعجز قائلًا:

"لقد خدعوك! وإذا كان هذا هو الذي تعرفه عن أوضاع بلاد الإسلام، فهذا يعني أننا هلكنا، والعياذ بالله."

ولم يتردد "بايزيد" في كتابة رسائل إلى الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" للوساطة بينه وبين السلطان. ولم يتمكن الأمير من ضبط نفسه وإلجامها عن الشكوى من السلطان في الرسائل التي أرسلها إلى الصدر الأعظم. ويقول في إحدى تلك الرسائل:

"... أنا أعلم أن المراد من الإضرار بي هو أن يحدث مني خطأ ردا على ذلك فيتخذ حجة ضدي يتم التخلص بسببها مني، وبذلك يخلو المكان لأخي سليم. وأنني لأفضل هذا حتى تستريحون مني، ولكن هذا الأمر ليس بيد الإنسان، ولكنه بيد الله ﷻ."

ويقول في خطاب آخر:

"... أفضل الموت ونيل الشهادة بغضب السلطان بدلًا من أن أموت وأنا مغتم حزين."

معلنًا عن دخوله في تحدٍ من أجل تحقيق هدفه. إلا أن انفعالاته تلك لم تصب في مصلحته، بل على العكس تمامًا فقد انقلبت عليه، إذ أفضت إلى تفضيل السلطان شقيقه "سليم" عليه ووقوفه في صفه. ومن ناحية أخرى أفضت تحريضات "لالا مصطفى بَاشَا" للأمير "سليم" ضد شقيقه "بايزيد" إلى زيادة وجهات نظره المعادية له ولتصرفاته. وكان السلطان سليمان يتلقّى رسائل تبلغه أن ابنه "بايزيد" قد جمع حوله الكثير من اللصوص والمَجَرمين، وأنه بدأ في تسجيل هؤلاء المتشردين كجنود لديه، ما جعله يمتلك قوة عسكرية قوامها ٢٠ ألف جندي. وقد زرعت مثل هذه الأخبار بذور الشك في قلب السلطان تجاه ابنه الأمير "بايزيد". وبهذه الطريقة بدأ الطرفان في الإعداد لحرب أهلية بشكل تدريجي.

الحرب بين الشقيقين: معركة "قونيا"

شرع الأمير "بايزيد" في حشد الكثير من الجنود حوله بُغية الوصول إلى عرش السلطنة من جهة، والدفاع عن نفسه من جهة أخرى. وفي مقابل ذلك، بادر شقيقه "سليم" هو الآخر إلى الإسراع في استعداداته العسكرية تحسبًا لأي صراع مسلح ينشأ مع أخيه. إلا أنه وفي الوقت الذي كان فيه "بايزيد" يعدّ العدة بمفرده، كان "سليم" على الطرف المعاكس يتحرك بناءً على الأوامر التي كان يتلقاها من والده السلطان. ولما وصل الأمر إلى حد الصراع المسلح بين الشقيقين، أدرك السلطان سليمان أن ابنه "سليم" لن يستطيع مواجهة شقيقه الأمير "بايزيد" بمفرده، فأمر بتزويده بعدد كبير من الأشخاص القادرين على امتطاء الجياد واستخدام الأسلحة والمعدات وخوض الحرب، وليس جنودا مرتزقة كمن كانوا تحت قيادة "بايزيد". كما أصدر أمرًا بمنحه مبلغ ٦٠٠ ألف قطعة فضية لاستخدامها في تلبية تكاليف هذه الإعدادات. إلا أنه وبالرغم من ذلك فقد عانى "سليم" كثيرًا في حشد الجنود في "قونيا"، وعليه أصدر السلطان أوامره إلى حكام الولايات القريبة من "قونيا" بالدخول في خدمة ابنه الأمير ومساندته. وبناءً عليه فإن أمير أمراء الأناضول "جنابي أحمد" توجّه برفقة جنود ولايته إلى مدينة

"أفيون"، فيما سينتقل أمير أمراء دُو الْقَادِرلي "علي بَاشَا" إلى "قَيْصَرِي". كما تحرك كلٌّ من أمير أمراء كرامان فرهاد بَاشَا وحاكم آضَنَه "رمضان أوغلو بِيرِي بَاشَا" إلى "قونيا" للدخول في خدمة الأمير "سليم". ولقد أُرسلت أوامر إلى بعض الأمراء وحكام ولايات الأناضول الآخرين بمساندة الأمير "سليم"، مما جعل "بايزيد" محاطًا بالقوى المعادية له من كل جانب. وقد دفعت كل هذه التطورات "بايزيد" إلى التحرك على الفور للحيلولة دون اكتمال حلقة حصاره (١٤ أبريل/ نيسان ١٥٥٩م). فتقدم صوب "أنقرة" على رأس قوة عسكرية قوامها ١٥ ألف جندي، وأرسل خطابًا إلى والده السلطان استخدم فيه كلمات رقيقة وملاطفة، إذ أخبره في هذا الخطاب أنه جاء إلى أنقرة "من أجل أن يقضي شهرًا في اللهو والتسلية"، وأنه لا يحمل في قلبه "نية سيئة تجاه أخيه".

وما إن وصل هذا الخطاب إلى السلطان سليمان، أرسل على الفور "سُوكُولّو محمد بَاشَا" وأمير أمراء الرُّومَلِي "مصطفى بَاشَا" يرافقهما ألفان من جنود الإنْكِشَارِيّة وجنود ولاية الرُّومَلِي وعدد من الجنود الآخرين إلى "قونيا". كما بعث رسالة إلى ابنه "سليم" يأمره فيها بالإعداد الجيد للحرب بالقرب من "قونيا". كما استصدر السلطان فتوى من شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي" "بأن من يخرج عن طوع أبيه السلطان العادل، ويستولي على بعض القلاع، ويحشد عددًا من الجنود حوله، ولا يتورّع عن سلب أموال الناس بالقوة فإنه يجوز قتاله حتى تتفرق جموعه." وفيما يلي نورد نص الفتوى:

> "**نص السؤال**: هل يجوز الخروج لقتال أحد أبناء سلطان عادل خرج عن طاعة والده وسعى في الأرض فسادًا بالاستيلاء على بعض القلاع وسلب أموال الناس بالباطل بعدما جمع حوله بعض الجنود لمساعدته في تنفيذ هذه الجرائم؟
>
> **الإجابة**: نعم هذا حلال وجائز شرعًا، إذ ثبت جواز ذلك بنص القرآن الكريم. كما تبرهن الأحكام الشرعية وإجماع الصحابة الكرام على جواز ذلك. فالقادرون على القتال ملزمون بالخروج لقتال هذا الابن العاق،

وأمـا غير القادرين عليه فهم مأمورون بالسـعي لدرء الفتنة ومنعها بقول الحق وخير الدعاء."

وبعد ذلك انتقل السـلطان سـليمان إلى منطقة "أُوسْكُودَارْ" ونصب خيمته بهـا. وفـي تلك الأثناء علم الأمير "بايزيـد" أن والده أعلنه كابن عاصٍ، وأنه قرر قتاله للتخلص منه، فعمد إلى مهاجمة "قونيا"، بحيث وصل إلى مشارفها بتاريخ ٢١ شـعبان ٩٦٦هـ (٢٩ أيار/مايو ١٥٥٩م). وقد اشـتبكت قوات كلا الشـقيقين فـي اليـوم التالـي فـي أولـى المعـارك التـي دارت بيـن الطرفيـن. ولـم يتمكن أي الجانبيـن من التفوق على الجانـب الآخر اليوم الأول. إلا أن قوات "بايزيد" تعرضت للهزيمة في اليوم الثاني بتدبير من "لالا مصطفى بَاشَا" الذي كان يقف في صف "سليم".

وبعـد هـذه الهزيمـة، اصطحب "بايزيـد" بعضًا من قواته وانسـحب صوب "أَمَاسْيَا". وأما "سليم" فبشّر والده السلطان بهذا النصر. وقد شعر "بايزيد" بالندم جـراء ما فعله بعد انسـحابه، وبعث رسـالة إلى السـلطان يرجـو عفوه مـع مفتي "أَمَاسْـيَا" الذي أوفده إلى إسـطنبول. إلا أن والده لـم يسـامحه على فعلته تلك. وكان السـلطان سـليمان يقول إنه يرغب في تنفيذ الفتوى التي حصل عليها لقتل ابنـه "بايزيـد"، وأن هـذا الأخير ليس جديرًا بالعفو والسـماح وفق القوانين. ولـم يكتـف السـلطان بهـذه الرغبة، بل طلـب من ابنه "سـليم" القبض على شـقيقه، ومنحه سلطات وصلاحيات واسعة كي يتمكن من تنفيذ هذه المهمة.

مقتل الأمير "بايزيد" بعد لجوئه إلى إيران

أكمل الأمير "سـليم" اسـتعداداته لتعقب شقيقه "بايزيد" للقبض عليه تنفيذًا لأوامر والده السلطان، إذ كان يساعده في هذه التجهيزات "سُوكُولّو محمد بَاشَا" وأمير أمراء الرُّومَلِي "مصطفى بَاشَا". ولقد أرسل السلطان سليمان أوامر كذلك إلـى حـكام الولايـات الحدوديـة يطلب منهم إحبـاط أي محاولـة للهرب يقدم عليهـا "بايزيـد" من "أَمَاسْـيَا" إلى خارج حدود الدولة. ومن جهته شـعر "بايزيد"

بأنـه قليـل الحيلـة بعدما رفض والـده طلبه بالصفح عنه، فتحـرك صوب حدود إيـران بصحبة أبنائه الأربعة (أورخان، عثمان، محمود، عبد الله) بتاريـخ ٧ تموز/ يوليـو ١٥٥٩م. وبينمـا توجّه "بايزيد" نحو إيران ترافقه قوة عسـكرية كبيرة، كان رجال أخيه "سـليم" يتعقبونه من الخلف. ولما وصل إلى قلعة "حسـن" اسـتقبله حاكـم "أَرْضُرُومْ" أَيَاسْ بَاشَـا اسـتقبالًا حافلًا بالرغم من صـدور أوامر واضحة من السـلطان بخلاف ذلك. حتى إنه يُقال إن"أَيَاسْ بَاشَـا" قدّم بعض الحدوات والأدوات الأخرى لجياد "بايزيد"، وأقدم على بعض المحاولات لإقناع السلطان بالعفو عنه ومسامحته. إلا أن تصرف "أَيَاسْ بَاشَا" بهذه الطريقة لم ينفـع "بايزيد" بشـيء وأدّى إلـى إعدامـه فـي نهاية المطاف. ولـم يمكث "بايزيـد" -الذي كان يتعقبه رجال شقيقه بشكل متواصل- كثيرًا في "أَرْضُرُومْ"، وأكمل طريقه صوب إيران. واستطاعت بعض قوات "سليم" التي كان تسير خلفه من إدراك قواته عند موقـع "سعد شوكورو"، لكنه استطاع إلحاق هزيمة بهذه القوات. وشعر "بايزيد" بعد هذه المعركة أن آماله في الحصول على عفو من والده السلطان قد تبخرت تمامًـا، وحينهـا لم يجـد أمامه حيلة أخرى غير اللجوء إلى إيران. واسـتطاع بعد رحلة طويلة عبور الحدود بين الدولتين ودخول الأراضي الإيرانية.

وقد استُقبل "بايزيد" لدى وصوله إيران استقبالًا فخمًا من قبل حاكم ولاية روان "نظام الدين شاهقولي". وأخبر هذا الرجل الشاه "طهماسب" بهذه الأنباء، إذ سُـرّ الشـاه كثيرًا بلجوء الأمير "بايزيد" إلى بلاده. حتى إنه أعرب عن سـعادته بهذه المناسبة بقوله:

> "إن لجـوء الأميـر بايزيـد إلـى دولتنا يعتبـر عطية عظيمة مـن الله البارئ كتعويض لأخي القاص الذي لجأ قبل ذلك إلى الدولة العثمانية."

وقـد توجّـه "بايزيد" بعد ذلك إلى منطقة "قزوين" التي يقيم بها الشـاه حيث اسـتُقبل هناك بمراسـم مهيبة يوم ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٥٥٩م. ويروي المـؤرخ العثمانـي "عالي" أن الفرسـان العثمانيين الذين كانـوا يرافقون "بايزيد" فـي هـذه الرحلـة قدّمـوا عروضًا أمام الشـاه تظهـر مهاراتهم في امتطـاء الجياد

واسـتخدام الأسـلحة مما أصاب الصفويين بالدهشـة والإعجاب. حتى إنه يُقال إن رجلًا من رجال "بايزيد" يُدعى "قودوز فرهاد" طلب تصريحًا من الأمير خلال هذا العرض العسكري جاء به:

"علينا ألا نفوت هذه الفرصة السانحة من أجل الحصول على الشهرة إلى يوم القيامة، اسمح لنا من فضلك أن نُعمل السيف في رقاب القزلباش."

إلا أن "بايزيد" كان يدرك جيدًا أن الإقدام على خطوة مجنونة كهذه ينطوي على مخاطر جمّة، فردّ عليه قائلًا:

"إيـاك أن تتلفـظ بهذا الكلام مرة أخرى، وإلا فإنني سـأقتل أي شـخص يردد هذا الكلام بيدي!"

وإن كانت هذه الواقعة محل شك لدى البعض، فإن العبارات التي استخدمها فـي هـذا الحديث تحمل أهمية كبيرة من أجل فهـم كيف أراد المؤرخون إظهار شخصيته وتصويرها بهذا الشكل.

لقد أدى لجوء الأمير "بايزيد" إلى إيران إلى تبادل المراسلات والخطابات بين الدولتين، وعقْد المفاوضات الثنائية بشـأن هذا الصدد. ولـم يتردد السـلطان سـليمان فـي خطاب أرسـله إلى الشـاه "طهماسـب" عـن الحديث عـن خروج "بايزيـد" عـن طاعته والمعركة التـي وقعت بين قوات أخيه "سـليم" في "قونيا". كمـا أخبـره بضرورة إعادته إلـى الدولة العثمانية بناءً علـى الصداقة التي تجمع بين الدولتين، وإلا فإنه سيرسل قواته إلى الأراضي الإيرانية للقبض عليه. ونفهم من ذلك أن السـلطان سـليمان كان يخشـى من تقديم شـاه إيران الدعم الفعلي لابنه "بايزيد". وعلى أية حال فقد أمر السلطان بتكليف جيش من قواته بالتمركز على الحدود الشرقية مع إيران في مواجهة أي احتمال ممكن.

ومن ناحية أخرى كان الأمير "سـليم" هو الآخر يرسـل خطابات إلى الشـاه "طهماسـب" للغـرض ذاتـه تتضمـن عبـارات متنوعة ما بيـن الرجـاء والتهديد. وعلى الرغم من ذلك كان الشاه "طهماسب" يطلب من السلطان سليمان أن يعفو عـن الأميـر "بايزيد". وقد لعب طلب الشـاه هذا بالعفو عـن الأمير دورًا واضحًا

في تحريك مشاعر الأبوة لدى السلطان سليمان وإحساسه بالعطف والشفقة تجاه ابنه في البداية، إلا أن بعض الأحداث التي وقعت فيما بعد حولّت هذه الطلبات إلى مساومة على حياة الأمير نفسه. ذلك لأن إقدام الحاشية التي كانت ترافق "بايزيد" على ارتكاب بعض الأفعال غير الحميدة في إيران جعلت الشاه "طهماسب" تساوره الشكوك حول الأمير. ثم عمد الشاه إلى تغيير تكتيكه الذي كان يتبعه للتعاطي مع هذه التطورات، وسعى للاستفادة من هذه الأحداث قدر المستطاع. وقد أخبر الشاه السلطان سليمان بأنه بإمكانه تسليم الأمير "بايزيد" إلى رجال "سليم" مقابل مبلغ من المال. وقد قبل السلطان هذا العرض، وأبلغه بأنه سيمنحه ٩٠٠ ألف قطعة ذهبية في مقابل تسليم "بايزيد" وأبنائه الأربعة، مشيرًا إلى أن ابنه "سليم" سيدفع إليه هو الآخر ٣٠٠ ألف قطعة ذهبية. وأضاف أنه في حالة الموافقة على تسليم "بايزيد" في "أَرْضُرُومْ" فإن المبلغ المتفق عليه سيُدفع إليه هناك. وأوضح أنه مستعد كذلك لمنحه قلعة ولاية "وَانْ" التي كان يرغب بها.

وكما رأينا فإن هذه الوعود التي وعدها السلطان سليمان شاه إيران لا تتوافق بالمرة مع عظمة الدولة العثمانية وكبريائها. إلا أن العثمانيين لم يوفوا بوعدهم بتسليم قلعة "وَانْ" إلى الشاه، واكتفوا بإرسال الأموال وبعض الهدايا الأخرى. وبعد أن اتفق الطرفان بشأن المال والتوقيع على معاهدة سلام وصداقة فيما بينهما، أعطى الشاه "طهماسب" الإذن لوفد عثماني بدخول الأراضي الإيرانية لتسلّم الأمير "بايزيد" وأبنائه. وفي النهاية تم تسليم الأمير "بايزيد" إلى الوفد العثماني بعد أن سُجن لمدة أكثر من عامين وقد حُلقت لحيته وارتدى ثيابًا قديمة على ظهره وعمامة ممزقة على رأسه وتعتريه حالة من البأس والحزن. وقد خُنق هذا الأمير سيىء الحظ في المكان الذي سُلّم به هو وأبناؤه على يد شخص يُدعى "علي أغا" وهو أحد رجال الأمير "سليم" الذين يثق بهم (١٥ المحرم ٩٦٩هـ - ٢٥ تموز/يوليو ١٥٦٢م). وقد جرى تحنيط جثمانه هو وأبناؤه، ودُفنوا جميعًا في ولاية "سِيوَاسْ" إلا أصغر أبنائه قد دُفن في "بورصا".

وقد ذكر الشاه "طهماسب" في إحدى مذكراته التي كتبها بشأن هذه الواقعة

أن السلطان سليمان كان محقًا فيما فعل مع ابنه "بايزيد". وأعرب عن استغرابه الشديد من تصارع ابنيْ السلطان على عرش السلطنة بينما والدهما لا يزال حيًّا ويزاول مهامه بشكل طبيعي، ثم انتقل بعدها إلى لجوء "بايزيد" إلى إيران. ويروي أن هذا الأخير طلب منه سُلفة من المال بقيمة ١٥٠٠ قطعة ذهبية، مؤكدًا أنه سيرد هذا المبلغ إليه عشرة أضعاف عندما يتولّى عرش السلطنة خلفًا لأبيه. إلا أن "طهماسب" لم يقبل هذا العرض، كما لم يرغب في الإضرار باتفاقيات السلام مع السلطان سليمان بسبب هذا الموقف. إلا أنه اضطر للموافقة على هذا العرض بعد ذلك بعدما هرب "بايزيد" ووصل إلى منطقة قريبة من العاصمة "تبريز". ويشير "طهماسب" إلى وجهة نظره بشأن هذه القضية بقوله:

> "يجب علينا ألا نسمح للأمير بايزيد بالذهاب إلى أي مكان آخر بعدما لجأ إلى بلادنا. لأن والده السلطان سينظر إليها غدًا بعين الغضب والاحتقار."

وقد أفاد بأنه أقسم أمام الأمير "بايزيد" بأنه لن يسلّمه هو وأبناؤه إلى السلطان سليمان. ولما وصل "بايزيد" إلى "تبريز" بعث رسالة إلى الشاه يطلب منه التحرك مع قواته للقضاء على شقيقه "سليم"، مشيرًا إلى أن معظم جنود الجيش العثماني يؤيدونه وسيقفون في صفه، وأضاف أنه ينتظره كي ينجزوا هذه المهمة معًا. وذكر "طهماسب" أن الأمير "بايزيد" دبّر مؤامرة لدسّ السم له، ومن ثم فإن محاولته القبض عليه وتسليمه لوالده السلطان ترجع إلى هذا السبب. وقد كتب أنه أرسل إلى السلطان سليمان رسالة يعتذر فيها عن اضطراره لحماية الأمير "بايزيد"، وذلك على الرغم من معاهدة السلام المبرمة بينهما. وجاء بتلك الرسالة ما يلي:

> "لقد استطعت القبض على الأمير بايزيد وأبنائه الأربعة من أجل إرضاء السلطان سليمان والأمير سليم. وكانت رغبتي في عدم تسليمه إلى السلطان بخصوص التالي:
>
> عندما جاءتني رسالة السلطان قررت تسليم بايزيد وأبنائه إلى الوفد الذي سيرسله الأمير سليم حتى لا أكون قد تصرفت بشكل مخالف للاتفاق

المبـرم بيننـا. ولما أتى الوفد الذي أرسـله السـلطان رحبت بهـم كثيرًا، وقلت لهم إني على استعداد تام لتنفيذ كافة أوامر السلطان وإطاعته فيما يريـد، لكنـي أبلغتهم بأنني أريد في مقابل هذه الخدمة الجليلة الحصول علـى المكافآت والهدايا من السـلطان سـليمان والأمير سـليم بما يليق بهم. وألمحت إلى رغبتي في عدم إيذاء الأمير بايزيد وأبنائه كطلبٍ من السلطان في إطار الصداقة التي تجمعنا."

وقـد اختتـم "طهماسـب" مذكراتـه حـول هـذه الواقعـة بهـذه العبـارات، ولـم يسـرد أية معلومـات إضافية حـول نهايتهـا. إلا أنه من الواضح مما سـبق أنـه كان يتصـرّف بحيطة كي لا تتضرر علاقتـه بالدولة العثمانية، ولـم يأخذ بعين الاعتبار الصراع الناشب بين ابنيْ السلطان سليمان.

وبعـد واقعـة إعـدام الأميـر "بايزيـد" وأبنائه الأربعـة، اسـتمرت النزاعات والصراعات في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، واضطرت إدارة الدولة لمكافحة حملات التمرد التي قادها أنصار "بايزيد". كما اتخذت حكومة إسـطنبول بعض التدابيـر الاحتياطية بعدما تعرض النظام العـام في الأناضول للتزعزع. وأجريت حملـة "يـوم التفتيـش العام" في كافـة أرجاء الأناضـول. هذا إضافـة إلى إجراء بعض التغييرات الإدارية التي اقتضتها الحاجة. وانتشر جنود الإنْكِشَارِيّة في كافة ولايات الأناضول لحفظ الأمن والاسـتقرار بها. وبهذه الطريقة بدأ النظام العام لهـذه الفئـة من الجنود فـي التغير ومواصفات مهامهم المكلفيـن بها في التبدل. وإلـى جانـب ذلـك أُدخلت بعض التعديـلات على طريقة تعييـن الأمراء لإدارة الولايات للحيلولة دون طمعهم في السـلطة والإعلان عن أنفسـهم كمرشـحين أقوياء لعرش السلطان.

لقد بادر كلٌ من السـلطان سـليمان وابنه الأمير "بايزيد" في نظم الأشـعار لوصف هذه الأحداث الدرامية التي عاشـاها معًا. وكان "بايزيد" شـاعرًا مفوّهًا، واسـتخدم "شـاهي" اسـمًا مسـتعارًا بدلا من بايزيد. ونظم الشـعر الموجَّه لأبيه كـي يعفو عنه. وقد خاطب والده السـلطان في إحدى خطاباته بمنظومة شـعرية قال فيها:

"يا والدي السلطان سليمان! يا سلطان العالم بأسره!
أنت روحي التي في جسدي وأحب الناس إلى قلبي،
فهل تطاوعك نفسك لإيذاء ابنك الحبيب بايزيد؟
فأنا برىء والله يعلم يا سلطاني العزيز!

من يعرض عليك حالي يا سلطان يا كريم!
فارقتُ أمي وإخوتي وأصبحتُ يتيمًا،
لم أعصك طرفة عين والله يعلم،
فأنا برىء والله يعلم يا سلطاني العزيز!

الله تعالى جعلك سلطانًا على العالم،
لا تقتلني وتشمت بنا الأعداء يا سلطاني!
لا تحرمني من أبنائي نور عيني،
فأنا برىء والله يعلم يا سلطاني العزيز!

وكان السلطان سليمان شاعرًا متميزًا، فأجاب على أشعار ابنه الأمير بقوله:

"يا بني يا مظهر الطغيان والإحسان!
يا من لا يستمع لفرماناتي أبدًا!
هل كان لي أن أقسو عليك يا بني؟
لا تقل أنا بريء وتُب واندم على ما فعلت!

النشأة حق والأبوة تستحق الطاعة،
ومن ينكر قوله تعالى "لا تقل لهما أف" يصير وحيدًا يتيمًا،
فالله عالم بمن يطيع ومن يعصى،
لا تقل أنا بريء وتُب واندم على ما فعلت!

لقد حفظني الحق سبحانه وتعالى للرعايا المطيعين،

وأنا أستطيع أن أغلب أعدائي،

لكن حاشا لله أن أقتلك دون ذنب على حين غفلة!

لا تقل أنا بريء وتُب واندم على ما فعلت!

ولا شك أن السلطان سليمان كان مستعدًا دائمًا للتضحية بأي شيء من أجل دولته كما رأينا في واقعة إعدام ابنه الأمير مصطفى. فبعد أن فقد زوجته التي كان يعشقها وهو في سنٍ متقدمة، الآن يصدر بيديه فرمان إعدام ابنه الغالي منها. ولم يعد له في الحياة إلا اثنان يعتمد عليهما، وهما ابنته "مهرماه"، وابنه "سليم". ولقد أصبح هذا الأخير هو الوريث الوحيد لعرش السلطنة، إذ ستنتقل هذه الوراثة من بعده إلى أبنائه.

مستجدات في البحر المتوسط: فتح جزيرة "جربة" التونسية

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تشهد أحداث واقعة إعدام الأمير "بايزيد"، كان البحر الأبيض المتوسط يعيش حالة جديدة من الصراع. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت قد نجحت في إحكام سيطرتها على مياه البحر المتوسط والهيمنة على المناطق الهامة في شمال إفريقيا ما أقلق الدول الأوروبية المطلة على سواحل البحر المتوسط على وجه الخصوص. وكان الجناح الإسباني من إمبراطورية آل "هابسبورج" هو أكثر الأطراف المتضررة من هذه الأوضاع كما أسلفنا، أي "كَارْل الخامس" أولا ثم ابنه "فيليب الثاني" من بعده. وكانت هناك دولة جزيرة صغيرة في البحر المتوسط ترى أن استقرارها يتزعزع بسبب الأوضاع الراهنة، وبالأخص مسألة اتخاذ "تورجوت رئيس" مدينة طرابلس الغرب ملجأ له ولأسطوله. وهذه الدولة هي دولة فرسان "سانت جيان (*St. Jean*)" الذين اعترف بهم العثمانيون في وقت سابق وطُردوا من جزيرة "رودس". ولم يستسغ هؤلاء الفرسان الذين أُسكنوا جزيرة مالطا واقعة استيلاء "تورجوت رئيس" على طرابلس الغرب مطلقًا. ذلك لأن هذه المدينة كانت

تمثل بالنسبة لهم قاعدة معتمدة على سواحل شمال إفريقيا، وكذلك مصدر رزق يعود عليهم بالعديد من الامتيازات المادية. كما بدأ الخوف يساورهم من أن يحين الدور على مالطا وتغزوها القوات العثمانية. ولهذا السبب سعى هؤلاء الفرسان لعقد حلف يتصدى لهجمات العثمانيين.

وكان ملك إسبانيا "فيليب الثاني" يرغب في القضاء على النفوذ العثماني في البحر المتوسط، ولذلك لم يتردد في دعم محاولات فرسان مالطا الرامية للوقوف في وجه الأسطول العثماني. ولقد وافق "فيليب" على عرض تلقّاه من كبير فرسان مالطا ذي الأصول الفرنسية "جيان باريسو دي لا فاليت (*Jean Parisot de la Valette*)" لمنحه ٦ قوادس للخروج في حملة صليبية جديدة. كما أرسل "فيليب" أوامر إلى وَالِي جزيرة صقلية قال فيها "يجب السيطرة على طرابلس الغرب من أجل توفير الأمن والاستقرار لولاياتنا المطلة على سواحل البحر المتوسط. ولهذا فعلينا العمل بجد واجتهاد للاستيلاء على هذه المدينة مهما كان الثمن." وفي نهاية المطاف أُسس حلف الدول النصرانية المطلة على البحر المتوسط بفضل جهود البابا "بيوس الرابع". وشمل هذا الحلف كلًّا من إسبانيا، والفاتيكان، وجنوة، وفلورنسا، وصقلية، ومالطا، ونابولي، وموناكو. وبالرغم من أن ذلك الحلف لم يضم فرنسا -التي كانت تلجأ إلى الدولة العثمانية كلما تقع في مأزق- والبندقية - التي أبرمت معاهدة سلام مع العثمانيين- إلا أن هاتين الدولتين لم تتورّعا عن دعم أعضاء الحلف سرًّا. وقد أوصل "بياله بَاشَا" نبأ تأسيس "فيليب الثاني" لهذا الحلف إلى السلطان سليمان. وقد استُدعي "بياله بَاشَا" إلى إسطنبول على الفور لتلبية ما يحتاجه الأسطول العثماني بعدما أخبر إدارة إسطنبول أنه سينهي استعداداته في "فلورة". ولما وصل الأسطول إلى إسطنبول، بدأت جهود كثيفة لزيادة عدد سفنه وإعدادها بما تحتاجه من عدة وعتاد.

لقد أثارت عودة الأسطول العثماني إلى إسطنبول الحلفاء كثيرًا، وشجعتهم على الإسراع من تحركاتهم العسكرية في أقرب وقت ممكن. ونجحوا

في تجميع أسطول ضخم مؤلف من ٩٠ سفينة عبارة عن ٤٧ قادسًا، و٤ قراقير، و٣ غلاايين، و٥٤ سفينة، و٣٦ سفينة نقل. كما حشدوا قوة عسكرية تناهز ١٢ ألف جندي من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا. وأُسندت إدارة الأسطول إلى "جيان أندريا دوريا (*Gian Andrea Doria*)" أحد أبناء أشقاء "أندريا دوريا". وكان أسطول الحلف يضم في الوقت نفسه قادة عسكريين مثل وَالِي صقلية ودوق مدينة سالم "جيوفاني بيللاربابا (*Giovanni Bellarbarba*)"، و"دون ألفريز (*Don Alverez*)"، و"أندريا جونزاجا (*Andrea Gonzaga*)". واحتشد أعضاء الحلف في آخر تجمع لهم بجزيرة مالطا، وبدؤوا في الإعداد للتحرك مع مجيء بقية السفن الأخرى. وبهذه الطريقة استطاع الحلف تجميع عدد كبير من السفن والقوة العسكرية. وقد شهدت هذه الأثناء اضطرابات في حالة الجو ما دفع الحلفاء للانتظار في مالطا لعدم وصول سفن النقل، وهو ما كبّدهم خسائر بالجملة. ذلك لأنه خلال الفترة الواقعة حتى تحركهم، وهي خمسة أشهر، مات نحو ألفا جندي بسبب الأمراض التي أصابتهم. هذا إضافة إلى نشوب خلافات بين قادة الحلف. وكان الهدف الذي يسعون لتحقيقه هو فتح طرابلس الغرب. إلا أن بعض القادة كانوا يطمحون إلى غزو جزيرة "جربة" الواقعة على الساحل الجنوبي لخليج "سيرت" الصغير بدلًا من طرابلس، والسبب في ذلك هو تردّي الحالة الصحية للقوات العسكرية المشاركة في الغزوة وبُعد المسافة بين القواعد التي تحركوا منها وبين مالطا. وكان هؤلاء القادة يدافعون باستماتة عن فكرتهم تلك في ترجيح جزيرة "جربة" على طرابلس لكونها أكثر أهمية وأيسر في بسط السيطرة عليها آخذين بعين الاعتبار احتمالية تواجد "تورجوت رئيس" في طرابلس. وأما وَالِي صقلية فكان يقول لهم إنه يجب غزو طرابلس، مشيرًا إلى أنه قدّم وعد شرف لملك إسبانيا لتحقيق هذه الغاية. وبينما كان أسطول التحالف يسير صوب طرابلس، دفعتهم الظروف المناخية غير المواتية لتحويل وجهتهم من طرابلس إلى جزيرة "جربة (*Cerbe*)" بعدما اقتنع وَالِي صقلية بضرورة هذا الأمر.

وصـل أسـطول التحالـف إلـى مشـارف جزيـرة "جربـة" ورسـت سـفنه علـي مشـارف "فالجوتيرانـا (*Valgutenara*)" بتاريـخ ٢ آذار/مـارس ١٥٦٠م. ثم أنزل جنوده إلى السـاحل. ولقد عقد شـيخ العرب الذي كان يحكم الجزيرة بالتبعيـة لـ"تورجـوت رئيـس" اتفاقًا مـع قائد أسـطول التحالف سـلّمه الجزيرة بموجبه. ونصّ الاتفاق المبرم بين الطرفين على أن يدفع الشـيخ ضريبة سـنوية عبـارة عـن ٦ آلاف مـن النقـود، و٤ نعامـات، و٤ غزلان، و٤أحصنـة، وجمل. كما أُنزلت راية "تورجوت رئيس" من على الجزيرة، ورُفـع مكانها العلم الإسباني. وبالرغـم من ذلك لم يكتفِ الحلفاء بالتعهدات التي قطعها شـيخ العرب حاكم "جربة" على نفسـه، وعمدوا إلى تحصين قلعة الجزيرة بشـكل كامل، ووسّـعوا آبـار الميـاه بالجزيرة، وجمّعـوا مؤنا وذخيرة تكفي لسـنتيْن. ولـم يكن الحلفاء يريدون أن تضيـع هذه الجزيرة من أيديهم في أي هجوم محتمل تقوم به القوات العثمانيـة. وقـد سـعى قـادة التحالف لتحصين قلعـة الجزيرة خـلال أقصر فترة ممكنة لاتخاذها كقاعدة لهم في هذه المنطقة. وكان "تورجوت رئيس" قد أخبر الإدارة في إسـطنبول باحتشـاد قوات التحالف في مالطا، فصدرت أوامر لحكام جزر "وابية" و"مدللي" و"رودس" بالانضمام إلى الأسطول العثماني. كما تحرك "بيالـه بَاشَـا" على رأس أسـطول مكون من ١٢٠ سـفينة يوم ٢٤ نيسـان/أبريل. وعندما وصل إلى "مورا" أرسـل " الرئيس أُولُوجْ عَلي " للاسـتطلاع برفقة أربـع سـفن. وقد سـار هذا الأخير بسـفنه التـي ظلت تجدف حتـى الصباح، وصادف في طريقه سفينة على متنها ٤٣ مدفعًا ونجح في الاستيلاء عليها على الفور.

ولما وصلت أنباء سقوط "جربة" في أيدي الأعداء إلى "بياله بَاشَا"، انطلق على الفور إلى مدينة "ميثوني". وبعد أن أكمل اسـتعدادات أسطوله هناك، توجّه صـوب مالطـا. وقد أنـزل جنوده إلى سـاحل جزيرة "جوزو" القريبـة من مالطا، وطاف رجاله فيها. وأخبره بعض الأسرى الذين سقطوا في يديه في هذه الجزيرة أن قوات التحالف لا تزال في "جربة". وفي تلك الأثناء أرسل "تورجوت رئيس" إحدى سـفن أسـطوله السـريعة إلى "بياله بَاشَـا" لتبلغه بأن قوات العدو تعسـكر

فـي جزيـرة "جربة"، وأنها سـتغادر الجزيـرة متوجّهة إلى طرابلـس الغرب. وما إن وصلـت هـذه الأنباء إلى "بياله بَاشَـا"، حتى تحرك فورًا إلـى جزيرة "جربة". ووصل الأسـطول العثماني إلى مشـارف الجزيرة ورسا بها بتاريخ ١٣ أيار/مايو ١٥٦٠م. وعلـم قـادة جيـوش التحالف بتحركات الأسـطول العثمانـي متأخرًا، فدبـت حالـة مـن التخبط بين صفوفـه. ولم تكن قـوات التحالـف تتوقـع قدوم الأسـطول العثمانـي فـي هذا التوقيت، إذ لم يكن موسـم الغـزوات قد بدأ بعد. وانتقلـت حالـة التخبـط هذه إلـى قادة قـوات التحالف بعد ذلـك، ودخلوا فيما بينهم في مناقشـات حادة بشـأن التدابير التى يلزم اتخاذها في هذا الصدد. حتى إن بعضهـم اقتـرح الهرب ليلًا للاسـتفادة من الظلمة الحالكـة. وفي نهاية الأمر اتخذوا قرارًا بمواجهة الأسطول العثماني. وما إن وصل الأسطول العثماني إلى منطقـة قريبة من السـاحل يوم ١٤ أيار/مايو، حتـى بدأت مدافـع قوات التحالف في قصف السفن العثمانية بقذائفها. وعندما رأت قوات التحالف صوارِي السفن العثمانية تلوح في الأفق في ساعات الصباح الأولى والمدافـع العثمانية تقصف الجزيرة على الفور، انتابتها حالة من الخوف والهلـع، وبينما كانت على وشـك الهزيمة من الأسـطول العثماني، سـارع "جيان أندريا دوريا" إلى إصدار الأوامر لسـفنه بالتحرك ومغادرة الجزيرة. وانسحبت قوة عسكرية أخرى بقيادة "ألفريز" و"جونزاجا" للاحتماء داخل القلعة.

وقـد انطلـق "بيالـه بَاشَـا" يطارد قـوات التحالـف وهي تهرب فـي البحر، وأطلـق عليهـا قذائف مدافعه. كما أرسـل أحد قادته العسـكريين ويُدعى "قُورْدْ أُوغْلُو أحمد بَكْ" لمهاجمة بقية قواتهم التي احتمت بحصون القلعة. واسـتطاع "بياله بَاشَا" تلقين سفن التحالف الهاربة درسًا قاسيًا، وتمكن من إغراق بعضها. وقد انجرفت سـفينة قائد الأسـطول "دوريا" الشاب إلى السـاحل. لكنه استطاع برفقـة وَالِـي صقليـة النجاة بنفسـيهما من هـذه المعركة، وهربا صـوب صقلية. وأما المجموعة التي احتمت بأسـوار القلعة فقد اسـتطاعت إنزال الجنود الذين كانوا على متن السـفن إلى الشـاطئ، وأغلق بعضهم أبواب القلعة على أنفسـهم للاحتماء من هجمات العثمانيين.

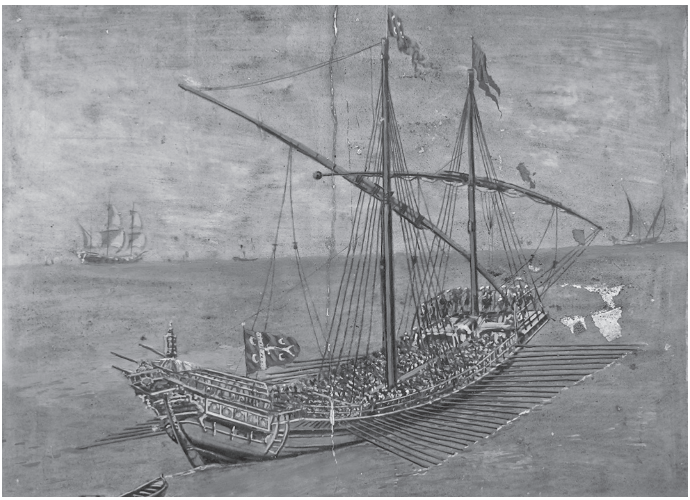
وفـي نهايـة أول يـوم من هـذه المعركة كانت قـوات التحالف قـد تكبّدت خسـائر عبارة عن ٢٠ قادسًـا و٢٦ سفينة بضائـع. كما استولت القوات العثمانية علـى ١١ سـفينة أخـرى أثناء المعركـة البرية التي نشـبت بيـن الجانبين، بحيث وصلت خسـائر التحالف إلى ٦٠ سـفينة. ونجحت ١٧ سـفينة فقط في الهرب وهي سليمة نوعًا ما.

ولقد لقيت هذه الهزيمة المدوية لقوات التحالف أصداءً واسـعة في إسبانيا وإيطاليـا، حتـى إن "أندريـا دوريـا" كان أكثر الذيـن تأثروا بهـذه الكارثة. إلا أنه شـعر بالقليل من الراحة والسـرور عندما علم أن ابن شـقيقه نجا بنفسـه سالماً. ومات "دوريا" بعدها عن عمر ناهز التسـعين عامًا يوم ٢٥ تشـرين الثاني/نوفمبر من العام ذاته.

أقدمت القوات العثمانية على حصار قلعة "جربة" بعد النصر البحري الذي حققته على أسـطول التحالف، إلا أن اسـتعادة الجزيرة من أيدي العدو لم تكن بالمهمـة السـهلة على الإطلاق، ذلـك لأن قلعتها وحصونها قد شُـيّدت بطريقة يصعب التغلب عليها بسـهولة. واستطاعت القلعة الصمود أمام القصف العنيف من القوات العثمانية لثمانين يومًا بالرغم من تعرّض كلا الجانبين لخسائر فادحة.

وقـد وصـل "تورجـوت رئيس" هـو الآخر إلـى "جربة" وانضـم إلى قوات الحصـار. وأحبـط الجيش العثماني بعض محاولات العـدو للخروج من القلعة والإغـارة علـى قواتـه. وكان قـوام القوات العثمانيـة التي تحاصـر قلعة "جربة" يتـراوح بيـن ٧-٨ آلاف جندي. وقد بادر القائد "دون ألفاريز" إلى تجريب حظه للمرة الأخيرة بالخروج من القلعة ومهاجمة القوات العثمانية. ولما فشلت هذه الهجمـة، أدركـت الحاميـة المدافعـة عن القلعـة أنها لن تسـتطيع الصمود أكثر مـن ذلـك. وفـي الواقـع كان "ألفاريـز" قد قفز إلى البحر برفقـة من كان معه من الجنود بعدما فشـل هجومه، واسـتطاع السـباحة حتى وصل إلى سفن التحالف التي كانت راسية في الميناء والتي لم يستول عليها العثمانيون بعد. واستسلمت القلعة يوم ٨ ذي القعدة ٩٦٧هـ (٣١ تموز/يوليو ١٥٦٠م). كما استولت القوات

العثمانية على السفن التي كانت راسية في الميناء، ووقع القائد "ألفاريز" في أيدي العثمانيين. ولقد تكبّدت قوات التحالف خسائر ضخمة للغاية في جزيرة "جربة". وبعد هذا النصر عمد "بياله بَاشَا" إلى تحميل سفنه بالمدافع ومستلزمات الجيش على مدار أربعة أيام، وأسند مهمة الدفاع عن الجزيرة إلى "تورجوت رئيس"، وتحرك نحو طرابلس الغرب يوم ٥ تموز/يوليو. ثم بعد ذلك أبحر صوب إسطنبول يوم ١١ آب/أغسطس. ومرّ "بياله بَاشَا" بميناء "بريفيزا (*Preveze*)"، ثم وصل إسطنبول يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر وسط استقبال حافل بمناسبة النصر الذي حققه. وكان يرافقه أربعة آلاف أسير و١٩ "قادسًا" و"غليون" واحد استولى عليها من جيش التحالف.



(غليون) سفينة شراعية تركية (متحف الحربي التركي) رقم: ٨٤٠

ولقد كان السلطان سليمان على رأس الحاضرين لمشاهدة مراسم وصول سفن الأسطول، إذ شعر بالفخر والاعتزاز بهذا النصر المؤزر. وكان من بين الأسرى أشخاص رفيعو المستوى، فكان من بينهم القائد "ألفاريز (*Alvarez*)"، و"دون جيان دي كاردونا (*Don Juan de Cardona*)" أحد قادة نابولي وصقلية، والقبطان الجنوي "فيسكونتي دي سيكالا (*Visconti di Cicala*)" وابنه اليافع "سكيبنوي (*Scipione*)" الذي يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، والجنرال "سانسيو

دي ليفيا (*Sansio de Levia*)"، والجنرال "دون بارانجي (*Don Baranje*)"، وابن دوق مدينة "سالم" "جاستون (*Gaston*)". حتى إن "سكيبنوي" ابن القبطان الجنوي "سيكالا" لفت انتباه السلطان سليمان، وامتدحه كثيرًا، وأمر بتسجيله لدى مدرسة تدريب موظفي الدولة. وقد مُنح هذا الشاب اسم "يوسف سنان"، ومن المؤكد أنه هو نفسه "جيجالا زاده سنان بَاشَا" الذي سيكون له شأن كبير في المستقبل. وأُطلق سراح معظم هؤلاء الأسرى في مقابل دفعهم الفدية عن أنفسهم بوساطة من السفير النمساوي "بوسبك". وأُعجب السلطان سليمان بإنجازات "بياله بَاشَا" كثيرًا، ومنحه لقب أمير الأمراء، إلا أنه لم يحصل على رتبة الوزارة لعدم تمتعه بالأقدمية بين موظفي الدولة حينها.

وقد تُوفي في تلك الأثناء الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" الذي كانت له تأثيرات إيجابية وسلبية عميقة على نفسه بسبب إجراءاته (١٢ تموز/يوليو ١٥٦١م). وبعد وفاة "رستم بَاشَا" الذي كان بمثابة المكمل للأعمال التي قام بها إبراهيم بَاشَا، أُسند منصب الصدر الأعظم إلى "سميز علي بَاشَا" الذي كان يتمتع بشخصية مغايرة تمامًا لسلفه لكونه طيب القلب، سخيًا، ومحبوبا بين الناس، والأهم من ذلك أن شخصيته كانت تميل إلى السلام والمودة. وبعد واقعة هروب الأمير "بايزيد" إلى إيران والقبض عليه وإعدامه واصل السلطان سليمان اهتماماته بشؤون دولته، وأدار وجهه مجددًا نحو متابعة شؤون أوروبا. ولقد لعبت الطريقة الجيّدة التي عامل بها "سميز علي بَاشَا" سفراء النمسا دورًا هامًّا في إعادة طرح مفاوضات السلام من جديد بين الجانبين. وأخيرًا عُرض نص اتفاقية هدنة لمدة ثماني سنوات أعدّها السفير النمساوي "بوسبك" و"علي بَاشَا" على "فرديناند" للموافقة عليها، إذ صادق هذا الأخير على الاتفاقية بتاريخ ١ حزيران/يونيو ١٥٦٢م لتدخل بعدها مباشرةً حيز التنفيذ رسميًا. وقد نصّت هذه الاتفاقية على أن يتراجع "فرديناند" عن ادّعاءاته بأحقية دولته في إقليم "أَرْدَلْ"، وأن يتعهّد بدفع ضريبة سنوية إلى الدولة العثمانية بقيمة ٣٠ ألف قطعة ذهبية كما كان في السابق. وتشمل الاتفاقية بنودًا تلزم حُكّام الولايات الحدودية وقادتها على كلا الجانبين بمراعاة ميثاق السلام المبرم بين

الدولتين، على أن يتم معاقبة من يخلّ بذلك على الفور. كما سيحتفظ العثمانيون بقلعة "تاتا"، وسيكون بإمكان كلا الطرفين بناء الحصون في المناطق الحدودية فيما بينهما. وسيواصل من كان يدفع الضرائب إلى الطرفين على الحدود دفع هذه الضرائب، على ألا يزيد أي طرف من الطرفين مقدار هذه الضرائب. وتنص كذلك على معاقبة اللصوص وقاطعي الطريق الذين يرتكبون جرائمهم على الحدود بين الدولتين. ويسمح السلطان لـ"فرديناند" بتعيين سفير وقائم بالأعمال ومترجم في إسطنبول.

ونقل السفير "بوسبك" متن هذه الاتفاقية إلى "فرديناند" بصحبة المترجم "إبراهيم بَكْ" ذي الأصول البولندية واسمه الحقيقي "ستروزيني" والذي كان قد انتسب إلى طبقة "الدفشيرمة" التي كانت تضم مجندين من أصول نصرانية في الجيش العثماني. ووصل وفد السفراء العثماني إلى مدينة "فرانكفورت (*Frankfurt*)" لتواجد "فرديناند" بها لحضور مراسم تنصيب ولده "ماكسيمليان الثاني" ملكًا على ألمانيا، إذ استُقبل الوفد بمراسم فخمة للغاية يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر. وقدّم الوفد المكون من ٢٣ شخصًا خطاب السلطان وبعض الهدايا إلى "فرديناند". وكان من بين الهدايا وعاء من الكريستال، وجواد تركي أصيل مزيّن بمجموعة من الأحجار الكريمة، وأربعة جمال. وقد خاطب المترجم "إبراهيم بَكْ" ملك ألمانيا باللغة البولندية في كلمة ألقاها خلال مراسم الاستقبال، ومكث في "فرانكفورت" لمدة ١٣ يومًا. إلا أن المعاهدة التي اتفق الطرفان بشأنها لن تستمر طويلًا كما سنرى لاحقا!

غزوة "مالطا" والهزيمة

تبنّى السلطان سليمان فلسفة حياتية أكثر هدوءًا وسكونًا اعتبارًا من عام ١٥٦٠م بعدما تقدّم به السن وبتأثير من المرض الذي كان قد ألمّ به. وكان يأمل في أن يهنأ بحياة هادئة وسعيدة بعد إعدام ابنه الأمير "بايزيد"، وبدأ في قضاء معظم أوقاته في إسطنبول. كما كان يخرج بين الحين والآخر في جولات الصيد إلى المناطق القريبة من العاصمة. وذات يوم خرج إلى جولة صيد في

منطقة "هالقالي (*Halkalı*)" (١ المحرم ٩٧١هـ - ٢١ آب/أغسطس ١٥٦٣م)، فهطلت أمطار غزيرة جعلته يلجأ إلى حديقة "إِسْكَنْدَرْ شلبي" المجاورة لـ"يشيل كوي (*Yeşilköy*)"، فجرفته مياه السيول إلا أنه نجا-بعون الله- من الغرق. حتى إن وثيقة في إحدى المحاكم تشير إلى تلك الواقعة كالتالي:

"هطلت أمطار غزيرة نتج عنها حدوث فيضانات ضربت الحديقة التي كان يحتمي بها السلطان، وتسببت في مقتل مائتين من رجاله غرقًا".

واستطاع أحد خادمي السلطان سليمان الأشدّاء إنقاذه من مياه الفيضان بحمله على ظهره. وبعد أن عاد إلى إسطنبول، أمر على الفور بصيانة قنوات المياه بالمدينة. وكانت أيامه الروتينية التي كان يقضيها في عاصمة دولته يتغير نمطها أحيانًا بسبب تركيزه على غزوات أسطوله في البحر، والأحداث التي كانت تشهدها حدود دولته الغربية مع المَجَر. كما كان يتابع بنفسه أنشطة ترسانة بناء السفن عن كثب للوقوف على مستجدات الأوضاع بها. ولا ريب أن النجاح الذي حققه أسطوله في غزوة جزيرة "جربة" التونسية أدخل السرور والفرح إلى قلبه، إلا أنه كان يتوجّب عليه في الوقت نفسه الردّ بقوة على ردود أفعال الدول الغربية في البحر المتوسط بعد هذا النصر.

وبدأ "تورجوت رئيس" في مزاولة فعّالياته البحرية في مياه المتوسط بشكل أكثر أريحية خصوصًا بعد فتح جزيرة "جربة"، وكان يشنّ حربًا نفسية ضارية على الإسبان. وقد عمد ملك إسبانيا "فيليب الثاني" إلى البحث عن طريقة مناسبة لإيجاد أرضية مواتية لإبرام اتفاق سلام مع الدولة العثمانية بدلًا من أن يثأر لهزيمة جيوشه في "جربة". حتى إنه بعد ضياع الجزيرة من يديه، بادر إلى تبادل السفراء والمراسلات بين "مدريد" وإسطنبول. وعلى ما يبدو فإن الطرفين قد قبلا بهدنة مؤقتة بعد أحداث "جربة"، لكن بعد حدوث واقعة مالطا بعد ذلك بخمسة أعوام سيظهر لنا أن هذه الهدنة لن تستمر طويلًا.



حصار "مالطة"

وكان رجال الدولة العثمانية قد وضعوا جزيرة مالطا نصب أعينهم للاستيلاء عليها، ذلك لأن فرسانها كانوا لا يتوقفون عن ممارسة الأنشطة العسكرية المناهضة للمصالح العثمانية في البحر المتوسط. وكانوا قد انضموا إلى التحالفات السياسية والعسكرية في مياه المتوسط، كما قادوا الحركات المناوئة للدولة العثمانية. وكان هؤلاء الفرسان يعيشون حياتهم بالعمل بالتجارة والقرصنة، وكانوا لا يترددون عن الإغارة على السفن التجارية العثمانية كلما سنحت الفرصة لذلك. حتى إن إحدى السفن التي كانت تحمل بعض البضائع، والأغراض التجارية المنقولة لقصر السلطان في إسطنبول حُوصرت من قبل سبع سفن مالطية بين جزيرتي "زينتا" و"كيفالونيا" شرق البحر الأيوني، ونُهبت حمولتها من البضائع. كما تعرضت لهذه الهجمات كذلك السفن التجارية التي كانت تنقل البضائع بين مصر والأناضول. حتى إن الإدارة العثمانية أرسلت خطابًا بتاريخ ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٦٤م إلى وَالِي مصر لإعلامه بالقواعد التي يتمركز فيها فرسان مالطا للإغارة على السفن القادمة إلى مصر(٩٢). وقد وصل عدد السفن العثمانية التي تعرضت لهجمات فرسان مالطا منذ غزو جزيرة "جربة" إلى ٥٠ سفينة.

(٩٢) دفتر القضايا الهامة، المجلد السادس، ٤٣٣.

وبالرغم من ذلك كان العثمانيون يولون اهتمامًا كبيرًا منذ وقت طويل بجزيرة مالطا مع اتساع رقعة هيمنتهم من شمال إفريقيا إلى غرب البحر المتوسط. وكانت الدولة العثمانية قد اقتنعت تمامًا -منذ عهد قائد الأسطول "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا"- بضرورة الاستيلاء على مالطا بُغية القضاء على هجمات فرسانها على السفن العثمانية، وبالتالي إمكانية وضع سواحل أوروبا المطلة على البحر المتوسط تحت التهديد بشكل أكثر فعّالية. إلا أن الدولة العثمانية لم تستطع أن تولي الاهتمام اللازم لجزيرة مالطا -التي تتمتع بموقع متميز من الناحية الإستراتيجية- بسبب القضايا التي كانت تشغلها في أوروبا وآسيا وإفريقيا. وقد أكسب النصر الذي حققته القوات العثمانية في "جربة" دفعة كبيرة لإدارة إسطنبول للتخلّص من هجمات فرسان مالطا، و"الاستيلاء على قلعة مالطا والقضاء على من بداخلها لحماية أهل الإسلام من شرورهم بعد أن بغوا عليهم في العديد من المناسبات." (٩٣)

وكانت الأوضاع السائدة في أوروبا وآسيا في ذلك الحين تسمح للعثمانيين بالخروج إلى غزوة بحرية في مياه المتوسط. وقد وقّع العثمانيون اتفاقية هدنة مع آل "هابسبورج" لمدة ثماني سنوات في عام ١٥٦٢م. كما هدأت الأوضاع في عدن بعد أن أرسل البرتغاليون سفيرًا لهم إلى إسطنبول. وتوقّع القادة العثمانيون أن تقف فرنسا على الحياد أمام هذه الغزوة المرتقبة على مالطا. ولم يكن حكام البندقية، الذين بدؤوا في انتهاج سياسة مسالمة مع العثمانيين، في وضعية تسمح لهم بالاعتراض على هذه الغزوة في البحر المتوسط. بل على العكس تمامًا فهم كانوا لا يعجبون بفرسان مالطا بسبب أنشطة القرصنة التي كانوا يمارسونها. حتى أن العثمانيين استأجروا سفينة من البندقية لنقل احتياجات الجيش أثناء حصار مالطا. وقد طلب السلطان سليمان من الدوق "جيرولامو بريولي (*Girolamo Priuli*)" إعلامه بالأنباء الواردة من تلك المنطقة من البحر المتوسط.

(٩٣) دفتر القضايا الهامة، المجلد السادس، ٤٢٤.

وما إن صدر قرار غزو مالطا، بدأ الأسطول العثماني استعداداته على الفور في الموانئ المختلفة حتى يكون باستطاعته التحرّك من إسطنبول قبل أيام النَّوْرُوزْ (عيد الربيع). وبينما كانت الأعمال تجري على قدم وساق في ترسانات "الخليج" و" غَالِيبُولِي" و"سينوب" لبناء السفن الجديدة وصيانة القديم منها، كان يجري على الجانب الآخر بناء سفينة من نوع القرقور(٩٤) في جزيرة "رودس" بسعة ١٨ مقعدًا تمهيدًا لنقل القادة البحريين المتطوعين على متنها. كما صدرت تعليمات في شهر كانون الأول/ديسمبر من عام ١٥٦٤م إلى كلّ من حاكم "مدللي" محمد بَكْ، وحاكم رودس والإسكندرية "أولوج علي بَكْ" بتجهيز السفن "الخاصة" الموجودة تحت إدارتهم استعدادًا لغزو مالطا. كما أُرسلت أوامر إلى أمير أمراء الجزائر "حسن بَاشَا" -ابن "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين" بالتبنّي- وأمير أمراء طرابلس الغرب "تورجوت رئيس" للانضمام بسفنهم إلى الأسطول المشارك في تلك الغزوة. إضافةً إلى ذلك وجهت تعليمات بحشد القوات العسكرية البرية إلى حكام إمارات "مورا"، و"قارلي إيلي (*Karlıili*)"، و"إيناباهتي (*İnebahtı*)"، و"آغري بوز (*Ağrıboz*)"، و"جيرمن (*Çirmen*)"، و"فلورة"، و"إلباسان (*İlbasan*)"، و"سالانيك (*Selânik*)" في الرُّومَلِي، وإمارات "منتشه (*Menteşe*)"، و"خُدَاوَنْدجار (*Hüdâvendigâr*)"، و"تكه (*Teke*)"، و"قاراسي (*Karasi*)"، و"آيدن"، و"بيجا (*Biga*)"، و"قيرشهير (*Kırşehir*)"، و"آقصراي (*Aksaray*)"، و"نيغده (*Niğde*)"، و"حميد (*Hamid*)"، و"بُولُو (*Bolu*)"، و"قاسطامونو (*Kastamonu*)"، و"سُلْطَانْ أُونُو (*Sultanönü*)" في الأناضول. وأُسندت مهمة إدارة أسطول فتح مالطا إلى أمير أمراء الجزائر القبطان "بياله بَاشَا". وعُيّن الوزير الخامس "قزل أحمدو مصطفى بَاشَا" قائدًا عامًا للأسطول. كما طلب السلطان سليمان من "تورجوت رئيس" مساعدة هذين الاثنين في قيادة الأسطول. وبحسب فرمانين أُرسلا إلى "تورجوت رئيس" والمحفوظين في دفتر القضايا الهامة بأرشيف رئاسة الوزراء في إسطنبول فقد أُسندت إليه مهام عدة مثل العمل على توفير الأمن للأسطول العثماني، وحصار

(٩٤) سفينة تسير بالمجاديف. (المترجم)

جزيرة مالطا للحيلولة دون وصول المساعدات إليها[٩٥]. وأما الصلاحية الكاملة لتنفيذ مهام الغزوة فقد أسندت إلى "مصطفى بَاشَا"، حيث كان هو القائد العام الذي يخضع لإدارته كافة الجنود والضباط بمن في ذلك "بياله بَاشَا" نفسه، إذ يرد هذا الشأن بشكل واضح للغاية في وثيقة القيادة الخاصة بـ"مصطفى بَاشَا"[٩٦].

ونسرد فيما يلي النص الكامل للحكم الصادر إلى "تورجوت رئيس" من أجل الانضمام إلى أسطول غزوة مالطا:

"الحمد لله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... أما بعد، لقد تم تعيين الوزير مصطفى بَاشَا على قيادة الأسطول. وأما تورجوت رئيس فقد أُسندت إليه مهمة إعانة الأسطول ومساندته في غزوته لفتح جزيرة مالطا تكريمًا له لما أظهره من شجاعة وشهامة في الغزوات الماضية، والعمل على توفير السفن والمستلزمات الضرورية لإنجاح هذه الغزوة، ومن ثم إخباري بنتائجها عندما تنتهي".

في ٢٥ ربيع الأول ٩٧٢هـ (٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٦٤م)[٩٧]

هذا؛ وتشير بعض المصادر التاريخية العثمانية إلى أن "تورجوت رئيس" أُسندت إليه مهمة استشارية تقتضي توجيه تعليمات إلى قبطان الأسطول وقائده العام، وأن السلطان سليمان أمر "بياله بَاشَا" ومصطفى بَاشَا بعدم الخروج إلى غزوة مالطا وحصارها من دون انضمام "تورجوت رئيس" إليهما، وهو ما يستدعي الشك في هذه المعلومات غير المتناسقة.

وقد ذكر المؤرخ "مصطفى السلانيكي" -الذي بدأ في تأليف كتابه الشهير الذي حمل اسمه بتدوين أحداث تلك الحقبة- أن الصدر الأعظم "سميز علي بَاشَا" أكّد أن هذه الغزوة لن تكون سهلة بالمرة، مشيرًا إلى أن قادة الأسطول

(٩٥) دفتر القضايا الهامة، المجلد السادس، ٤٢٩، ٥٦٢.

(٩٦) دفتر مهام القادة، المجلد السادس، ٤٢٤.

(٩٧) دفتر القضايا الهامة، المجلد السادس، ٤٢٩.

العثمانـي ينظـرون إلى قلعة مالطا على أنها تشـبه قطعة الحلـوى التي بإمكانهم أكلهـا بسـهولة، وأوضـح أنه غيـر راضٍ بالمرة عـن تصرفاتهم في هذا الشـأن، وأنه أدرك أنهم لن يسـتمعوا إلى نصائحه، مضيفًا أنه يشـعر بأن نهاية هذه الغزوة لن تكون سعيدة بسبب هذه التصرفات غير المسؤولة.

ونجـد تعارضًـا واضحًا فـي المعلومات التي تسـردها المصـادر التاريخية العثمانية والغربية حول عدد سـفن الأسطول العثماني الذي انطلق من إسطنبول بتاريـخ ٢٦ شـعبان ٩٧٢هـ (٢٩ آذار/مـارس ١٥٦٥م) بقيـادة كلٍّ مـن القائـد "مصطفى بَاشَا" والقبطان "بياله بَاشَا". ونستطيـع التخمين أن الأسطول كان مكونًا في هذه الغزوة من ٢٤٠ سفينة منها ١٦٨ قادسًا، و٤٠ قرقورًا، والباقي من سائر أنـواع السـفن الأخرى. كما أننـا لا نجد اتفاقًا في الآراء فـي المصادر التاريخية بشـأن تعـداد القوة العسـكرية التـي كانت على متن سـفن هذا الأسـطول، لكن بعض المعلومات تشـير إلى أن عدد جنود الجيش العثماني في هذه الغزوة كان ٣٠ ألـف جنـدي منهـم ٤٥٠٠ من طبقة الإنْكِشَـارِيّة. وكان الأسـطول العثماني يضم بخلاف ذلك ٧٠ مدفعًا بأحجام متعددة لاستخدامها في حصار قلعة مالطا: ٣ منهـا مـن النـوع بعيد المـدى، وواحد من الفئـة التي تزن ١٠٠ كجـم، واثنان آخـران بمقدورهما قصف قذائف تزن نصـف كجم. حتى إنه يُروى أن أصوات هذه المدافع كانت تُسمع أثناء حصار مالطا في سواحل صقلية ومضيق "مسينا".

وصـل الأسـطول العثمانـي بتاريـخ ١٩ أيار/مايـو ١٥٦٥م إلـى مدينـة "مارساكسـلوك" الواقعة جنوب شـرق جزيـرة مالطا، وبدأ علـى الفور في إنزال الجنود إلى الشـاطئ. وبعد أن أنزل "مصطفى بَاشَـا" ٢٠ ألف جندي و٥ مدافـع إلى الساحل، أرسل خطابًا إلى قائد فرسان مالطا "باريسوت دي لا فاليتا" يطالبه بتسـليم المدينـة، إلا أن هـذا الأخير رفض هـذا الطلب، وأبلـغ القائد العثماني أنهم لا يعرفون طريقًا إلا "طريق الموت". وبعد تلقّي هذه الإجابة، عقد مجلس الحـرب العثمانـي اجتماعًا بطلب من "مصطفى بَاشَـا"، وصدر قرار بالاسـتيلاء على حصن أو قلعة "سانت إيلمو" الواقعة بين مدينتي "مارسا موسكيتو" و"جران

بورتـو". وبـدأ حصـار القلعـة فعليًّـا يـوم ٢٥ أيار/مايـو بحفر الخنـادق حولها. وفي الواقـع كان حصار هذه القلعة خطأ في حد ذاته، إذ لم تكن السيطرة على هذه القلعة لتسـهم بأي شـكل من الأشكال في الاستيلاء على الجزيرة. وعلى الرغم مـن تنويه "تورجوت رئيس" بعدم صواب هـذا الأمر، واصلت القوات العثمانية حصـار القلعـة، وكثّفت مـن قصفها المدفعي في محاولة لإسـقاطها. وتعرضت القلعـة لقصـف عنيـف بالمدافـع مـن البر والبحـر، وبـدأت القـوات العثمانية في الهجوم عليها تدريجيًّا بفضل التدابير التي اتخذها "تورجوت رئيس" في هذا الصدد. وبينما تتواصل الهجمات على القلعة، إذ قُصفت قذيفة مدفعية من قلعة "سانت أنجيلو" لتصطدم بصخرة كانت بجوار "تورجوت رئيس"، فأصيب بقطعة حجر من شدة انفجار الصخرة في رأسه بإصابة بالغة الخطورة. وبالرغم من كافة المحاولات لإنقاذه، إلا أن هذا البحّار العظيم استشـهد بعد خمسـة أيام من هذه الواقعة. وقد اسـتطاعت القوات العثمانية الاسـتيلاء على القلعة التي قُذفت منها قذيفة المدفعية التي تسببت في استشهاد "تورجوت رئيس" (٢٣ حزيران/يونيو).

وبعد سـقوط هذه القلعة في أيدي القوات العثمانية، قدّم "مصطفى بَاشَـا" عرض الاستسـلام مرة أخرى على قائد فرسـان مالطا، إلا أن هذا الأخير رفضه مجـددًا. فأمـر "مصطفى بَاشَـا" قواته على الفور بالهجوم للاسـتيلاء على قلعتي "سـانت أنجلو" و"سانت ميشيل". إلا أن هذه الهجمات لم تفض إلى أي نتيجة. حتى إنه وبعد طول أمد الحصار مع مرور الوقت، شعر "مصطفى بَاشَا" بضرورة إرسـال عريضة إلى إسـطنبول لإيضاح الأمر بالإضافة إلى إطلاع السـلطان على خطط حصار قلاع مالطا.

وقد شـهدت تلـك الأثناء مجيء أمير أمـراء الجزائر "بَرْبَرُوسْ زاده حسـن بَاشَـا" إلـى مالطـا بجيش قوامه ٢٧ سـفينة و٢٢٠٠ جندي. ومـع انضمام قواته إلـى القـوات المحاصرة للقلعة، سـقطت قلعة أو حصن "بورجـو / بيرجو" يوم ٢١ آب/أغسـطس. إلا أن القـوات العثمانيـة كانـت قـد تكبّدت خسـائر فادحة خلال الحصار. ثم انتقل الجيش بعد ذلك لحصار قلعة "سـانت ميشـيل"، إلا أن

جميــع محاولاته للهجوم على القلعة باءت بالفشــل. وفي نهاية المطاف فطنت قيــادة الجيــش إلــى أن حصار هــذه القلعة والهجــوم عليها لم يعد يجــدي نفعًا، فأصدرت قرارًا برفع الحصار عن القلعة بعدما وصل الوالي العام لجزيرة صقلية "دون جارسيا" إلى مالطا وأنزل جنوده إلى الساحل لدعم القوات المدافعة عنها في مواجهة القوات العثمانية.

ويمكننــا فيمــا يلــي ســرد أســباب فشــل الجيــش والأســطول العثمانييــن فــي حصــار جزيــرة مالطا بالرغــم من كافــة التجهيــزات الضخمة التــي قاما بها في هذا الصدد:

أولا: فــي البداية نشــير إلى أن الفرســان الذين وفدوا مــن رودس إلى مالطا حصّنــوا قلاعهــا تحصينًا منيعًــا. ولم يكن الجزء المطل مــن الجزيرة على مدينة طرابلس الغرب يتمتع بأي ميناء بحري. وعلى الرغم من وجود ميناءين يحملان اسميْ "مارسا سكالا (*Marsa Scala*)" و"مارسا سكيروكو (*Marsa Scirocco*)" شــرق الجزيــرة، إلا أنهمــا كانا معرضين للرياح مما يعني عدم الســماح للســفن بالرســو بهمــا بســلام وأمان. وفــي مقابل ذلك، كانــت الجزيرة تمتلــك ميناءين آخرين شــماليين يحملان اسميْ "مارسا موسكتو (*Marsa Muscetto*)" و"جران بورتــو (*Gran Porto*)"، وكان هــذان المينــاءان يســمحان بشــكل أكبــر لحركــة الســفن. وكان فرســان مالطــا يزاولــون أنشــطتهم البحرية في جزء مــن الجزيرة بعدما اســتقروا به، كما شــيدوا حصون "سانت إلمو (*Saint Elmo*)" في الشمال، و"جران بورجو (*Gran Borgo*)" في الجنوب، و"سانت أنجلو (*Saint Angelo*)" في طرف الجزيرة. هذا إضافة إلى إنشائهم حصن "سانت ميشيل (*St. Michele*)" في عمق الجزيرة بعيدًا عن الســاحل. ولهذه الأسباب التي ذكرناها كانت جزيرة مالطــا محصّنــة بالقلاع والحصون المنيعة مــن كل جانب. وعندما علمت حامية الجزيرة نبأ خروج الأسطول العثماني في غزوة قاصدًا مالطا، عمدت إلى تخزين الأسلحة والذخيرة والمؤن قبل شهور من وصول القوات العثمانية إلى الجزيرة. ومــن ناحية أخرى، مــا إن وصلت أنباء قرب وصول القــوات العثمانية إلى قائد

فرسـان مالطا "باريسوت دي لا فاليتا"، بادر إلى تقوية جبهتي "بورجو" و"سانت أنجلـو" -اللتيـن كانتـا تعتبـران أضعف نقـاط الدفاع عن الجزيـرة- حتى وصل إلـى موقـع يُسـمى "ديرمنلـر". كمـا رفـع أعـداد قواتـه المدافعة عـن الجزيرة مـن ألـف إلـى سـبعة آلاف جندي. ولـم يكتـفِ بهذه الإجـراءات، بل أرسـل في الوقت نفسـه خطابات إلى بابا الفاتيكان وملك إسبانيا "فيليب الثاني" يطلب منهمـا مـد يد العون له. وقد لعب إنزال قوات حُشـدت من أماكن مختلفة تابعة لإسـبانيا من أجل دعم فرسـان مالطا دورًا رئيسـيًّا في انسحاب القوات العثمانية وتراجعها عن حصار الجزيرة.

ثانيـا: أخطـأ القـادة العثمانيـون فـي وضـع خطط حصـار قـلاع الجزيرة، ذلك لأنهم لم يضعوا مخططًا مناسـبًا لبسـط نفوذهم على مالطا. حتى إن إدارة إسـطنبول أرسـلت أمرًا إلى "تورجـوت رئيس" تطلب منه الحصـول على مزيد مـن المعلومـات حول قلاع مالطا. وأُرسـل الجواسـيس إلى الجزيـرة للوقوف علـى مدى تحصيـن قلاعها وحصونها. إلا أن محاولة القوات العثمانية إسـقاط أبـراج القلعـة واحدًا تلو الآخر بدلا من شـن هجوم جماعـي وموحد على هذه الحصـون تُبيّن لنـا أن قيادة الجيش العثماني لم تكن قد أقرّت خطة تمكّنهم من الحصـول على نتيجة إيجابية في هذا الشـأن. حتى إن قـادة الجيش العثماني لم يستفيدوا بالقدر الكافي من سفن الأسطول. ولقد أظهرت الدراسات الحديثة أن فشـل الجيش العثماني في غزو مالطا لم يكن السـبب فيه فقط الخلافات الناشبة بيـن "مصطفـى بَاشَـا" و"بياله بَاشَـا" كما يذكـر المؤرخون العثمانيـون القدامى، ذلـك لأن "تورجوت رئيس" اسـتطاع الوصـول إلى الجزيرة بعـد نزول القوات العثمانيـة إليهـا وفرض حصـار على قلعة "سـانت إيلمو (*St. Elmo*)" بأسـبوع. وفي الواقـع، لا توجد أية دلائل واضحة تفسّر سبب تأخره عن اللحاق بالجيش، هـل لعـدم إكمالـه للاسـتعدادات اللازمة لهـذه الغـزوة، أم لإصابتـه بالإحباط نظـرا لتقديـم غيره عليه؟ لكن السـلطان سـليمان قد طلب منه في فرمان أرسـله إليـه الدفـاع عن طريـق البحر الموصل إلـى الجزيرة، إلا أنه لم يسـتطع الإيفاء بهـذه المهمة لسـقوطه شـهيدًا يـوم ٢٣ حزيران/يونيو كما أسـلفنا. وربما يكون

لاضطراره إلى التحرك بأمر من القائد "مصطفى بَاشَا" دورٌ في عدم تنفيذه هذه المهمة. ولقد أدّى هذا الإهمال الجسيم الذي ارتكبته قيادة الجيش العثماني في حصار مالطا إلى عدم قطع فرسان الجزيرة اتصالاتهم بصقلية، وبالتالي إرسالهم قوات لدعم حامية مالطا في مقاومة القوات العثمانية. حتى إنه في اليوم التالي من وصول "تورجوت رئيس" إلى الجزيرة استقبل أحد موانئ الجزيرة قادسًا أرسله الوالي العام لصقلية من مدينة "سرقوسة" وعلى متنه ٤٠٠ جندي و٧ مدافع وبعض المعدات العسكرية الأخرى. وبعد استشهاد "الرئيس تورجوت"، وقد بعث السلطان سليمان أمرًا إلى "بياله بَاشَا" يطلب منه إحاطة الجزيرة بمخافر لاستتباب الأمن بها. لكن اختلاف قادة الجيش العثماني في وجهات النظر، وشحّ المؤن والمستلزمات العسكرية أدى في نهاية المطاف إلى فشل هذا الحصار.

ثالثًا: كانت عملية توفير الذخيرة والمؤن هي أكبر مشكلة واجهت العثمانيين أثناء حصار مالطا. ففي بداية الغزوة صدرت الأوامر لتوفير المؤن اللازمة، ونُقلت تلك المؤن والذخيرة إلى سفن الأسطول، إلا أنها لم تكن بالكميات التي تكفي لنحو ٣٠-٤٠ ألف جندي لفترة طويلة. ومع طول الحصار زادت الحاجة إلى الأكل والشرب والذخيرة. لكن توفير هذه الزيادة شكّل صعوبة بالغة بالنسبة للجيش العثماني. والسبب في ذلك أن بُعد مالطا عن مركز الدولة العثمانية كان يؤدي إلى تأخر الأخبار المُرسلة لطلب المساعدة في كل مرة. حتى إن نبأ الاستيلاء على قلعة "سانت إلمو" وصل إسطنبول بعد شهر من سقوطها. ولهذا وصلت أنباء معاناة الجيش إلى إسطنبول نهاية شهر تموز/يوليو. ولأن القوات العثمانية لم تبنِ مخازن للمؤن والذخيرة قبل ذلك في طرابلس الغرب والجزائر القريبتين من مالطا، كان عليها انتظار المساعدات القادمة من الأناضول و"مورا". وقد أرسل "مصطفى بَاشَا" طلبًا لإمداده بالمؤن وما يحتاجه الجيش، فخرجت أربع سفن محملة بالغذاء وما إلى ذلك بقيادة القباطين "حسن" و"عبدي" و"سنان" و"بروانه" بتاريخ ٢٧ حزيران/يونيو، وبعدها بدأ تحميل أربع سفن أخرى بمزيد من المؤن لإرسالها إلى مالطا. كما تم إعداد

كمية كبيرة من الخبز في جزيرتي "وابية" و"إينباهتي"، وحُمّلت على بعض السفن التـي كانت قد اسـتُؤجرت مـن البندقيـة. وحُمّلت على هذه السـفن التي كانت تجلب المؤن من إسطنبول، ومرت في طريقها بهاتين الجزيرتين. إلا أنه وبالرغم مـن كافة هذه المسـاعدات التي أُرسـلت إلـى مالطا، فلم تكن قـدرة العثمانيين على التغلب على بعد المسـافة ناجحًة بالقدر الكافي. أضف إلى ذلك المشـاكل التـي واجههـا العثمانيـون أثنـاء توفير السـفن اللازمـة لنقل هذه المـؤن. وحتى إن توفرت السـفن وتم تحميلها بالمسـتلزمات الضروريـة للجيش، فإن معظمها كان يتعـرض لهجمـات الأعـداء جراء فرض الأسـطول العثماني حصـارًا على جزيـرة مالطـا. وبهذه الطريقة، أفضت المشـاكل التي واجهتهـا الإدارة العثمانية لتوفيـر الطعام والشـراب والمؤن للقوات المشـاركة في حصـار مالطا إلى رفع الحصار بعدما طال أمد الاشتباكات بين الطرفين.

رابعًـا: ظهور المشـاكل الصحية والمرضية بين أفـراد الجيش التركي جراء تأخـر وصـول الطعـام والـدواء. ولم تسـتطع ثلاثة مستشـفيات متنقلـة أُقيمت فـي مقـر قيادة الجيش فـي مالطا تلبيـة احتياجات الجنود المصابين مـع انتشـار المـرض بينهـم بمـرور الوقت. ولهذا السـبب ارتفعت أعداد الموتـى من الذين لم يجدوا العلاج الكافي لحالاتهم المرضية.

خامسًـا: كانـت جزيـرة مالطا تتلقّى الدعـم القادم إليها مـن الخارج بعدما فشـلت القـوات العثمانيـة فـي حصارهـا بشـكل كامـل كمـا ذكرنا فيما سـبق. ذلـك لأن الطريق الوحيد للحيلولة دون وصول المسـاعدات القادمة إليها قطع الطـرق الموصلـة بينهـا وبيـن صقليـة وإيطاليا. ولكـن عندما بـاءت محاولات العثمانيين من أجل إنجاز هذه المهمة بالفشـل، استطاعت سفن صقلية الوصول إلـى الجزيـرة وتزويدهـا بقـوات عسـكرية إضافية ومـؤن من الطعام والشـراب ومـا إلى ذلك. وبينما كان حصار قلعة "سـانت إيلمو" مسـتمرًا، وصل قادسـان أرسـلهما "دون جارسـيا" إلـى مالطـا يـوم ٣ حزيران/يونيـو وعلـى متنهمـا ٨٠٠ جندي و٧ مدافع. هذا إلى جانب أن البابا "بيوس الرابع" كان يبذل جهودًا

من جانبه من أجل تقديم الدعم لفرسان مالطا. وبدأ حشد ٦٠٠ جندي في روما وآلاف الجنود المتطوعين القادمين من مختلف أقاليم إيطاليا بتشجيع من البابا، ونُقلت هذه القوات العسكرية إلى جانب قوادس "جيان أندريا دوريا" ودوق "سافوي" من نابولي إلى مسينا. إلا أن هذه القوات كانت تخشى السفن الحربية العثمانية الراسية في ميناء "مارسا موسكيتو" بجزيرة مالطا، لكنها تحركت نحو الجزيرة بعد حالة من التردد، ووصلت إلى سواحل مالطا وبدأت في إنزال الجنود والذخيرة والمؤن. وكانت هذه القوات الإضافية تتوافد على مالطا في مجموعات صغيرة بما لم يلبِّ تطلعات فرسان الجزيرة للحصول على الدعم الكافي لمقاومة القوات العثمانية. وفي الواقع كان قائد الفرسان ينتظر أن يرسل إليه "دون جارسيا" أسطولًا ضخمًا. وفي نهاية الأمر، وبعد فشل هجوم الجيش العثماني على قلعة "سانت ميشيل" يوم ٣٠ آب/أغسطس، أخبر رسولٌ قادم من صقلية القائدَ العثماني "مصطفى بَاشَا" أن قوات "دون جارسيا" ستصل الجزيرة في غضون أيام. وكان "جارسيا" يخشى الدخول في حرب ضد الأسطول العثماني، لكنه قرر التحرك من مدينة "سرقوسة (*Siracusa*)" على رأس جيش مكون من ٢٧ قادسًا و١٠ آلاف جندي يوم ٢٠ آب/أغسطس لنجدة فرسان مالطا. وما إن وصلت أنباء إنزال القوات الإيطالية إلى سواحل الجزيرة، حتى تراجع "مصطفى بَاشَا" عن آخر هجوم كان يخطط له، ونقل الجنود ومستلزمات الحرب إلى سفن أسطوله، وأبحر بفضل هبوب رياح مناسبة للإبحار يوم ١١ أيلول/سبتمبر.

لقد كبّد حصار جزيرة مالطا الذي دام لأربعة أشهر خزينة الدولة العثمانية خسائر فادحة، وتسبب أيضًا في فقدان نحو ٢٠ ألف جندي من خير الجنود العثمانيين. وبعد عودة الأسطول إلى إسطنبول، حُمّلت تهمة فشل هذه الغزوة إلى "مصطفى بَاشَا" الذي عُزل من منصبه بعدها. ولم يكن السلطان سليمان ليقبل هذا الفشل بسهولة، إذ أمر بإعداد أسطول جديد للانتقام لهذه الهزيمة. حتى إنه أرسل خطابات لتهنئة البكوات المشاركين في حصار مالطا، وكذلك أمير أمراء الجزائر "حسن بَاشَا" لرفع روح معنوياتهم قدر الإمكان. والأهم من ذلك

أنه أصدر تعليمات بتأسيس ترسانة جديدة لصنع السفن بسعة ١٨ عينًا في شبه جزيرة "غَالِيبُولِي"، بحيث بدأت عمليات إنشائها فور صدور تعليماته. وشمل مخطط تأسيس هذه الترسانة السماح بإنشاء السفن صيفًا وشتاءً من دون توقف.

شهدت إسطنبول ردود فعل غاضبة للغاية بسبب فشل الأسطول في حصار مالطا، وشعر السلطان سليمان بحزن شديد بعدما فشلت هذه المحاولة للاستيلاء عليها. إلا أنه بإمكاننا التخمين أنه أحسّ أنه يستطيع تعويض هذا الإخفاق بطريقة أو بأخرى. ذلك لأنه كان يتوجب عليه الرد على هذه الهزيمة، وكانت جزيرة "خيوس" الواقعة في بحر "إِيجَه" -والتي لم تكن تخضع للسيطرة العثمانية في ذلك التوقيت- هي المكان الذي اختاره السلطان كميدان نزال للانتقام لهزيمة أسطوله. وبدأت إعدادات الجيش العثماني استعدادًا للأخذ بالثأر، إلا أن هذه التجهيزات أُرجئت قليلًا بعدما قرر السلطان سليمان الخروج في غزوة برية إلى المَجَر. وفي تلك الأثناء لم يحبّذ السلطان عزل قائد الأسطول القبطان "بياله بَاشَا"، ووجد أنه من المناسب أن يبقى في منصبه. وقبل أن يخرج في غزوته البرية إلى مدينة "سيكتوار" المَجَرية، منح "بياله بَاشَا" فرمانًا بتعيينه قائدًا عامًا للجيش بتاريخ ٢٤ آذار/مارس ١٥٦٦م، إذ كلّفه بحماية الأراضي العثمانية ضد أي عدوان محتمل، وتعقّب تحركات الأسطول النصراني في البحر عن كثب، والتحرك عند اللزوم لردعه، والوصول حتى سواحل مسينا ومالطا وكالابريا(٩٨). وكان السلطان سليمان يرغب من وراء هذه الأوامر التي أصدرها إلى "بياله بَاشَا" أن يبرهن على سيادة الأسطول العثماني في منطقة وسط البحر المتوسط. وكان عليه إيجاد حل لقضية جزيرة "خيوس" قبل التقدم أكثر في مياه المتوسط.

وكانت جزيرة "خيوس" تخضع لإدارة جنوة، وبالرغم من اعترافها بالهيمنة العثمانية عن طريق دفع الضرائب السنوية منذ عهد السلطان محمد الفاتح، فإن أهلها كانوا لا يتورّعون عن الإضرار بالمصالح العثمانية كلما

(٩٨) دفتر القضايا الهامة، المجلد الخامس، ١٣١٠.

سنحت الفرصة لهم، كما كانوا يزوّدون أعداء العثمانيين بمعلومات حول أنشطة الأسطول العثماني وتعداد قواته وتحركاته. وكان وقوع جزيرة كهذه في بحر "إِيجَه" الذي هيمن عليه العثمانيون بشكل كبير يصب في مصلحتهم. وفي نهاية الأمر، اتخذت الإدارة العثمانية امتناع أهالي الجزيرة عن سداد ١٠ آلاف قطعة ذهبية لثلاث سنوات متتالية كحجة لغزو الجزيرة. وبالإضافة إلى ذلك فإن أهل خيوس قدموا الدعم اللازم لفرسان "سانت جيان" خلال الغزوة التي خرجت فيها القوات العثمانية لفتح مالطا عام ١٥٦٥م، حتى إن بعض أهالي الجزيرة حاربوا إلى جانب أهل مالطا ضد القوات العثمانية. كما كان بعض الأسرى النصارى الفارّين من إسطنبول يلجأون إلى هذه الجزيرة للاحتماء بها. وبسبب كافة الوقائع التي ذكرناها سالفًا، فقد تزعزعت الثقة التي كانت تكنّها الإدارة العثمانية لحكومة جزيرة خيوس التي كان يُطلق عليها اسم "ماونا". وقد أرسل العثمانيون أمرًا إلى أهل الجزيرة مطلع شهر أبريل/ نيسان عام ١٥٦٥م يطالبونهم بسداد كافة ديونهم من الضرائب التي امتنعوا عن دفعها منذ ثلاثة أعوام. وعليه، أرسلت حكومة "خيوس" رسولًا إلى إسطنبول لدفع ١٥٦ ألفًا و٣٥٦ قطعة فضية إلى الإدارة العثمانية، كما طلبت مهلة لمدة ٤٠ يومًا لسداد المبلغ المتبقي وهو ٤١٣ ألفًا و٦٤٤ قطعة فضية. فوافق العثمانيون على منح حكومة "خيوس" هذه المهلة، إلا أن هذه الأخيرة لم تفِ بوعدها على الرغم من مرور عدة شهور على ذلك التاريخ. فقررت الحكومة العثمانية إيفاد أحد موظفي باب السلطان ويُدعى "حسن شاويش" إلى جزيرة "خيوس" للمطالبة ببقية الديون المستحقة. إلا أن حكومة الجزيرة أعربت عن حاجتها إلى المزيد من الوقت لجمع المبلغ المذكور، ولم تعطِ وقتًا محددًا لسداد هذه الأموال. وانتقل المبعوث العثماني بعدها إلى جزيرة "ساموس" وأبلغ حكومة إسطنبول بهذا الأمر، موضحًا أنه لن يستطاع جمع الضرائب المستحقة من أهل "خيوس" بهذه الطريقة[٩٩]. فأرسل السلطان أمرًا إلى قائد الأسطول "بياله بَاشَا" بتكليفه بجمع هذه الضرائب بأي طريقة كانت.

(٩٩) دفتر القضايا الهامة، المجلد الخامس، ١٣٩٠.

وانطلق هذا الأخير من إسطنبول على رأس أسطول مكون من ٧٠ قادسًا يوم ٢٦ مارس/ آذار ١٥٦٦م.

تحرك أسطول عثماني قوامه ٨٠ سفينة بعد انضمام السفن القادمة من "جاليبولي"، وأبحر حتى وصل إلى ميناء "باساجيو (*Passaggio*)" الواقع شرق جزيرة "خيوس" يوم ٢٤ رمضان ٩٧٣هـ (١٤ نيسان/أبريل ١٥٦٦م). وبالرغم من ورود أنباء وصول الأسطول العثماني إلى حكومة الجزيرة، لم يحضر رئيس الحكومة "فيسنو جيوستينياني (*Vincenzo Giustiniani*)" لاستقبال "بياله بَاشَا" متحججًا بحلول عيد الفصح. وقد أبلغ القبطانَ "بياله بَاشَا" بهذا الشأن بواسطة رجلين أرسلهما إليه، وطلب منه دخول سفن الأسطول العثماني إلى ميناء "خيوس". فأجابه "بياله بَاشَا" بأنه متوجهٌ إلى نابولي، مطالبًا إياه بالمجيء لمقابلته بصحبة الاثني عشر شخصا من إداريي الجزيرة. وعليه، فقد اضطر حكام جزيرة "خيوس" للذهاب لمقابلة "بياله بَاشَا" عن عدم رضا إثر عجزهم عن سداد ديونهم. وما إن وصلوا إلى مقر إقامة "بياله بَاشَا"، حتى أمر هذا الأخير بالقبض عليهم وسجنهم لعلمه أنهم سيبلغونه بأنهم لن يستطيعوا دفع ديونهم لفترة أخرى. وفي تلك الأثناء تحركت قوات الإنْكِشَارِيّة العثمانية، واستطاعت السيطرة على المدينة وقلعتها من دون مقاومة تذكر. وبعد أن استطاع "بياله بَاشَا" الاستيلاء على الجزيرة دون قتال، دخل عاصمتها وأمر بتحويل كنيسة كبيرة بها إلى مسجد.

وقد استطاع العثمانيون بهذه الطريقة السيطرة على آخر مستعمرة تتبع جنوة في بحر "إِيجَه" بعدما كانت آخر من يمد يد العون لفرسان جزيرة مالطا. وبعد سقوط جزيرة "خيوس" في أيدي العثمانيين، بدأ "بياله بَاشَا" في استجواب من كان يقدم الدعم لفرسان مالطا من أهلها. كما بعث رسالة إلى إسطنبول لإخبار السلطان بالاستيلاء على "خيوس".

وقد وصل هذا النبأ إلى السلطان سليمان قبل خروجه إلى آخر غزوة في حياته إلى "سيكتوار" بيوم أو يومين، إذ أعرب عن سعادته الغامرة بفتح الجزيرة بقوله "لقد تحقق النصر" ثم أرسل فرمانًا إلى "بياله بَاشَا" بناءً على هذا

النبأ الذي تلقّاه منه، إذ نص هذا الفرمان على تحويل جزيرة "خيوس" إلى إمارة وضمها إلى الولاية التي يحكمها "بياله بَاشَا". ثم أُسندت إدارة هذه الإمارة إلى حاكم قيرشهير "غضنفر بَكْ"، كما تم منحه مبلغ ٥٠ ألف قطعة فضية كمكافأة. كما عُيّن بالجزيرة قاض، وإمام، وخطيب، ومؤذن، إضافةً إلى فرقة من جنود الإنْكِشَارِيّة لحفظ الأمن بها.

وتضمن هذا الفرمان الذي أرسله السلطان إلى "بياله بَاشَا" بتاريخ ٣٠ نيسان/أبريل ١٥٦٦م بعض الأمور الأخرى التي نوجزها فيما يلي:

- تدوين عدد قرى الجزيرة والمنازل الموجودة داخل المدينة والدخل السنوي وعائدات الجمارك بالجزيرة وإنتاج القرويين المقيمين بها،
- وتحصيل المبلغ المتبقي من ضرائب الجزيرة والبالغ ٣٠ ألف قطعة ذهبية من ممتلكات وأموال حكام الجزيرة ونبلائها،
- وإيفاد حكام الجزيرة ونبلائها ونسائهم وأبنائهم إلى إسطنبول على متن سفينتين يقودهما قبطان مدينة "كافالا" حسين،
- والقبض على الأشخاص الذين مدوا يد المساعدة لفرسان مالطا ومعاقبتهم(١٠٠).

وقد أرسل "بياله بَاشَا" أعضاء حكومة الجزيرة ورئيسها "جيوستينياني" إلى إسطنبول تنفيذًا لهذا الفرمان. كما أُرسل الأطفال الذين يبلغون من العمر ١٢ عامًا إلى عاصمة الدولة العثمانية للالتحاق بجناح الحَرَم بالقصر، وتولّى إبراهيم بَاشَا تدريب بعض منهم داخل القصر. وأما الحكام القادمين من جزيرة "خيوس" فقد تم نقلهم إلى شبه جزيرة القِرْم شمال البحر الأسود بعد ذلك. إلا أن السفير الفرنسي توسط لدى الإدارة العثمانية بعد فترة قصيرة حتى سُمح لبعض من هؤلاء بالرجوع إلى إسطنبول والإقامة بمنطقة "جالاطا"، وأما البعض الآخر فصدر إذن لهم بالعودة إما إلى "خيوس" أو جنوة. ولقد شكّل فتح جزيرة

(١٠٠) دفتر القضايا الهامة، المجلد الخامس، ١٤٩٠.

"خيـوس" الحلقة الأخيرة في سلسـلة الفتوحات التي حققها السـلطان سـليمان فـي حياته الطويلة التـي قضاها على عرش الدولة العثمانية. ذلك لأن السـلطان العجوز سـتوافيه المنية بعدها بقليل قبل أن يشـهد فتح "سيكتوار" المَجَرية، كما أنـه لـن يرى إبحـار "بياله بَاشَـا" صوب مالطا ومهاجمته سـواحل إقليـم" بوليا" جنوب إيطاليا.

وبينمـا كان الأسـطول العثمانـي يقـوم بهـذه الغـزوات البحريـة، وصلت بعض الأنباء عن المسـلمين من سـكان جزر ماليزيا. وكان البرتغاليون يسـعون للسـيطرة علـى الطـرق البحرية فـي المحيط الهنـدي، بحيث اسـتطاعوا إلحاق هزائـم بالحكومـات الصغيـرة التي كانت تحكـم في جزر ماليزيـا وهيمنوا على تلك المنطقة. وكانت حكومة "آتشيه" تحكم جزيرتي "ملاكا" و"سومطرة". وبعد أن تعرض أحد أعضاء حكومة آتشيه ويُدعى "علاء الدين" لهجمات البرتغاليين، أوفد رسـولًا عام ١٥٦٥م إلى إسـطنبول لطلب المسـاعدة مـن العثمانيين. وقد عرض هذا الرسـول ويُدعى "حسـين" على السلطان سليمان تزويدهم بالمدافع والبنـادق والجنـود. كمـا أخبـر السـلطان باسـتعداد حكومتـي كلكتـا وسـيلان للمشـاركة في هذه المعركة ضد البرتغاليين. وقد تُوفي السـلطان سليمان خلال غـزوة "سـيكتوار"، على أن ابنه "سـليم الثانـي" الذي تولّى العـرش خلفًا له قَبل عرض حكومة "آتشيه" الماليزية بتقديم المساعدات لها في مواجهة البرتغاليين.

الغـزوة الأخيـرة: "سـيـكـتـوار"

اتخذ السـلطان سـليمان قرارًا أذهل الجميع بالخروج في غزوة إلى مدينة "سـيكتوار" المَجَريـة بعـد الهزيمـة التـي مُني بها الأسـطول العثمانـي في مالطا عام ١٥٦٥م. وتشـير المصادر التاريخية إلى أن ابنة السـلطان "مهرماه" والصدر الأعظـم "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" - الـذي عُين خلفًا لـ"سـميز علي بَاشَـا" الذي تُوفـي بتاريـخ ٢٩ ذي القعدة ٩٧٢هـ - ٢٨ حزيران/يونيو ١٥٦٥م) قد لعبا دورًا ملحوظًا في إصدار السـلطان سـليمان هذا القرار. وفي الواقـع فإن الهزيمة التي لحقـت بالعثمانييـن في مالطا هزّت اعتبارهم في أوروبا. وكان السـلطان يرغب

في التخلص من الآثار السلبية لهذه الهزيمة، وفي الوقت نفسه يثبت لرعاياه أنه لا يزال يسيطر على الوضع في دولته، وبإمكانه إدارتها كما كان في السابق. والسبب في ذلك أنه انتشرت بعض الشائعات بين رعايا الدولة العثمانية تشير إلى أن الصراعات بين أبناء السلطان، وهزيمة الأسطول في مالطا دفعت السلطان للخضوع لتأثيرات الأوساط الصوفية، وأفضت هذه الشائعات في النهاية لهزّ صورة السلطان بين أتباع دولته. وكانت هذه الأحداث من الممكن أن تكتسب بُعدًا يؤثر على الأسرة الحاكمة بأكملها وليس شخص السلطان سليمان وحده. وكانت تعهدات الاتفاقية التي أُبرمت مع آل "هابسبورج" عام ١٥٦٢م قد تجددت بموافقة الطرفين، إلا أن ذلك لم يوجد حلًا جذريًّا للقلاقل التي كانت تشهدها المناطق الحدودية بين الدولتين. هذا إضافة إلى تأخر آل "هابسبورج" عن دفع الضرائب السنوية التي كانوا يطلقون عليها اسم "الهدية الشرفية"، في الوقت الذي كان يسميها العثمانيون بـ"الخراج".

وعندما تُوفي الإمبراطور "فرديناند" وخلفه "ماكسيمليان الثاني" تفاقمت الأزمات في إقليم "أَرْدَلْ"، وازدادت الصراعات على قلعتي "تُوكَايْ" و"بانكوتا". وتبع هذه الأحداث بعض المستجدات العسكرية والسياسية التي حتّمت على العثمانيين الخروج في غزوة جديدة لردع آل "هابسبورج". وقام السلطان سليمان بالتخطيط لهذه الغزوة بمساعدة من وزيره الأعظم "سُوكُولّو محمد بَاشَا". وكان الهدف من وراء هذه الغزوة الاستيلاء على قلعتي "سيكتوار" و"إيري"، إلى جانب توجيه رسالة تحذيرية إلى إمبراطور النمسا. وفيما يلي نسرد الوقائع والأحداث التي أدت إلى نشوب حرب جديدة بين الدولة العثمانية وآل "هابسبورج":

كانت الحدود الفاصلة بين الدولتين في الواقع تشهد بين الحين والآخر اشتباكات طفيفة، إذ وقعت بعض الأحداث على الحدود النمساوية في الجزء الممتد إلى إقليم "أَرْدَلْ" في عام ١٥٦٢م عقب التوقيع على اتفاقية السلام بين الطرفين مباشرةً. وقد تعرضت مدينتا "زاتمار" و"نيميتي" الواقعتان على ضفاف نهر "ساموش" لهجوم من حاكمي إمارتي "بودا" و"تيميشوارا" حيث

إنهما أضرما النيران في الأحياء الحدودية لهاتين المدينتين. كما أغار شقيق أحد القادة النمساويين من هذه المدينة على مدينة "سيجين" على رأس قوة عسكرية قوامها ٤ آلاف جندي من المشاة وألف آخرون من الفرسان. وكان قائد القلعة "محمود" قد غادر المدينة في وقت سابق للانضمام إلى القوة المحاصرة لمدينة "ساتو ماري" وكلّف شخصًا يُدعى "شهسوفار بَكْ" بالدفاع عن المدينة. وما إن وقع الهجوم على المدينة، أرسل هذا الأخير مبعوثًا إلى حاكم مدينة "فولك" يطلب منه المساعدة. فهرع قائد قلعة فولك "حسن" برفقة ٨١٠ فارسًا لنجدة مدينة "سيجين"، إذ نجح في تفريق القوات النمساوية المحاصرة للمدينة، وأسْر قادتها (١٤ تموز/يوليو ١٥٦٢م). وقد شهدت تلك الأثناء شن قوة عسكرية نمساوية مدعومة بجنود من المَجَر هجومًا على قلعة صغيرة واقعة في منطقة بحيرة "بالاتون"، وأسرت ٨٠ جنديًّا من حامية هذه القلعة التي هدموها بعد ذلك. كما وقعت في العام نفسه بعض أحداث العنف في منطقة "درافا"، إذ تعرّض أحد الحكام العثمانيين ويُدعى "يحيى بَاشَا زاده أرسلان بَكْ" إلى هجوم من قوات القائد النمساوي "نيكولاس زريني" بينما كان في طريقه لتفقّد موقع بناء أحد الحصون. إلا أن "أرسلان بَكْ" رأى أنه من غير المناسب الدخول في معركة مع القوات النمساوية، وآثر مغادرة ميدان المعركة على الفور. وقد عُيّن "أرسلان بَكْ" حاكمًا على إمارة "بودا" عقب وفاة حاكمها بمرض الطاعون. كما تمكن حاكم فولك "حسن" من القبض على بعض القادة النمساويين عن طريق بعض الحيل والخدع، ومن ثم أرسلهم إلى إسطنبول.

ولم تتوقف الأحداث في العام التالي، إذ أقدم هذه المرة أحد قادة "هابسبورج" ويُدعى "هربرت" على عبور الحدود والتقدم حتى مدينة "كوستانوفيتش"، ومن ثم العودة بعد حصد بعض الغنائم. لكنه تعرّض وهو في طريق العودة لهجوم من القوات العثمانية التي أسقطت عددًا من قواته بين قتيل وجريح. وبعدما وقعت هذه الأحداث، بادر "فرديناند" إلى تعيين كاتب السفارة "ألبرت فون فيس" موظفًا مكلّفًا بالشؤون الدبلوماسية لدى الحكومة

العثمانية بعدما عاد سفيره "بوسبك" من إسطنبول. وقد أبلغ أركانُ الدولة العثمانية هذا السفير المعيّن حديثًا بأن "فرديناند" لم يسدد بعد ما عليه من الضرائب المستحقة، وتشاوروا معه بشأن دور هذا الأخير في الوقائع الاستفزازية التي تشهدها الحدود الفاصلة بين الدولتين. وفي نهاية المطاف، أرسل "فرديناند" الضرائب السنوية المستحقة مع السفير البابوي "بول بالينا" إلى إسطنبول بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٦٣م. وبينما كان هذا المبعوث عائدًا إلى النمسا، تم تعيين "فون فيس" سفيرًا لآل "هابسبورج" لدى الدولة العثمانية، وسلّمه السفير البابوي وثيقة تتضمن التعليمات التي يجب عليه القيام بهذا في إطار مهامه الجديدة. وكانت هذه الوثيقة تتضمن بعض التعليمات مثل عقد معاهدة لمدة ثماني سنوات مع العثمانيين نيابة عن ملك إسبانيا "فيليب الثاني"، وإطلاق سراح القادة النمساويين الأسرى في إسطنبول. وقد أخبر الصدرُ الأعظم في ذلك الوقت "سميز علي بَاشَا" السفيرَ النمساوي بإمكانية عقد اتفاق سلام مع "فيليب الثاني" شريطة سداد الجزء المتبقي من الضرائب السنوية المستحقة، إذ كان "علي بَاشَا" يميل إلى حل القضايا مع الأعداء عبر الطرق السلمية.

وعقب وفاة الإمبراطور "فرديناند" بتاريخ ٢٥ تموز/يوليو ١٥٦٤م، استدعى الصدر الأعظم السفير النمساوي في إسطنبول "فون فيس" وطالبه بسداد المبلغ المتبقي من الضرائب المستحقة، كما طلب تجديد مدة المعاهدة المبرمة بين الطرفين، والتي بقي منها ست سنوات. وأما الإمبراطور الجديد "ماكسيمليان الثاني" فقد رأى أنه من المناسب إرجاء إرسال أموال الضرائب إلى إسطنبول، وتجديد المعاهدة مع الحكومة العثمانية. وعندما أرسل السلطان سليمان مبعوثًا يُدعى "بَالِي شاويش" إلى فيينا لتهنئة الإمبراطور الجديد بمناسبة صعوده إلى العرش، طلب هذا المبعوث من الإمبراطور معرفة ما إذا كان يرغب في تجديد المعاهدة الموقعة مع حكومة إسطنبول. وفي هذه الأثناء عمد "يانوش سيجسموند بن زابوليا" ملك إقليم "أَرْدَلْ" إلى التدخل العسكري في منطقة "زاتمار" المتنازع عليها مع آل "هابسبورج"، ذلك لأن حكام إقليم

"أَرْدَلْ" كانوا يدّعون بأن آل "هابسبورج" يحتلون تلك المنطقة دون داع. وقد أُرسل مترجم البندقية السابق "ميشيل زيرنويس" إلى إسطنبول لإيجاد حل لهذه المنازعات بين الطرفين.

ولما وصل هذا المترجم إلى مدينة "كوماروم" أوقفه حاكم بودا "يحيى بَاشَا زاده أرسلان بَاشَا" وأبلغه بأن حاكم إمارة "استرجوم" لن يسمح له بالتقدم أكثر ما لم يتم سداد المبالغ المستحقة من الضرائب للدولة العثمانية. ثم بُعث أحد موظفي المالية العثمانية ويُدعى "هدايت جَاوُوشْ" إلى الإمبراطور "ماكسميليان الثاني" لإخباره أنه لن يُسمح بالعبور لأي سفير من طرفه لا يحمل ٦٠ ألف قطعة ذهبية -قيمة الضرائب المستحقة لعامين متتاليين- والهدايا التي تعهد بمنحها إلى وزراء البلاط العثماني. وقد غادر المبعوثان العثمانيان "هدايت" و"بالي" فيينا بتاريخ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٦٤م بعدما حصلا على وعد من الإمبراطور بسداد قيمة الضرائب خلال فترة وجيزة، وكان يرافقهما في طريق عودتهما إلى إسطنبول المترجم "ميشيل زيرنويس" وسائر سفراء الإمبراطورية، إضافةً إلى خطاب من حكومة فيينا حول مطالبها بشأن منطقة "زاتمار". ووصل هذا الوفد إلى إسطنبول بتاريخ ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٥٦٤م. وقبل أن يستقبل السلطان سليمان الوفد النمساوي، قدّم سفراء فيينا أموال ضرائب عامين أي ٦٠ ألف قطعة ذهبية، إلى جانب هدايا إلى وزراء الديوان العثماني بقيمة ٣٠ ألف قطعة ذهبية (٤ شباط/فبراير ١٥٦٥م). وتقدّم الوفد النمساوي خلال المفاوضات مع مسؤولي حكومة إسطنبول بشكوى حول إقليم "أَرْدَلْ"، والسبب في ذلك أن حاكم الإقليم استولى على عدد من القلاع بمساعدة من حاكم إحدى الإمارات في المنطقة، كما أنه تلقّى دعمًا من حاكم ولاية "بوغدان". وأما الصدر الأعظم فأخبر الوفد أنهم على استعداد لتجديد معاهدة السلام المبرمة بين الدولتين لثماني سنوات، موضحًا أن الدولة العثمانية لن تتخلّى عن الأراضي الواقعة تحت سيطرتها خلف نهر "تيزا". وأضاف أنه يُستثنى من ذلك إقليم "بانيا" التي تعتبر إحدى مناطق هيمنة الملكة "إيزابيلا".

ثم تحرك "زيرنويس" بصحبة المبعوث العثماني "هدايت جَاوُوشْ" إلى فيينا. إلا أنه وفي تلك الأثناء وصلت رسالة من حاكم بودا "أرسلان بَاشَا" تفيد بأن الإمبراطور "ماكسيمليان الثاني" حشد قواته العسكرية واستولى على مدينة "تُوكَايْ". وعليه، فقد استدعت حكومة إسطنبول على الفور السفير النمساوي الذي كان قد وصل حديثًا إلى مدينة "تشورلو" الواقعة غرب إسطنبول. وشعر السلطان سليمان آنذاك بغضب وضيق شديدين بسبب هذه الواقعة. وبعد أن شُرحت ملابسات هذه الواقعة لسفير النمسا، سُمح له بالمغادرة مرة أخرى برفقة "هدايت شاويش". وقد وجه لهذا الأخير تعليمات بالاحتجاج لدى الإمبراطور علي الهجوم على مدينة "تُوكَايْ" والاستيلاء عليها دون انتظار رد الإدارة العثمانية على طلبه بخصوص منطقة "زاتمار". وقد أخبر المبعوث العثماني الإمبراطور "ماكسيمليان الثاني" لدى استقباله أنه إن لم يتراجع عن استيلائه على مدينة "تُوكَايْ"، فإنه سيجري تطبيق الأمر الذي أُرسل إلى حاكمي إمارتي بودا وتيميشوارا وأمراء سبع إمارات أخرى بتقديم الدعم العسكري لحاكم إقليم أَرْدَلْ "يانوش سيجسموند" على الفور. وكانت هذه التعليمات قد وصلت إلى حاكم بودا "أرسلان بَاشَا"، فأرسل قوة قوامها ٦ آلاف جندي من أجل تقديم المساندة العسكرية لإقليم "أَرْدَلْ". كما بسط حاكم تيميشوارا "حسن بَاشَا" سيطرته على قلعة "بانكوتا". وما إن وصلت هذه الأنباء إلى الإمبراطور "ماكسميليان الثاني"، أرسل موفده "زيرنويس" مجددًا إلى إسطنبول للتفاوض بشأن استعادة قلعة "بانكوتا" وتحذير حاكم إقليم "أَرْدَلْ" بشأن منطقة "زاتمار"، ووضع المبعوث العثماني "هدايت جَاوُوشْ" تحت الإقامة الجبرية كرهينة حتى عودة سفيره من إسطنبول.

وما أن وصل السفير النمساوي إلى إسطنبول حتي وجد أن تغييرًا قد طرأ على الحكومة العثمانية، إذ عُيّن "سُوكُولّو محمد بَاشَا" في منصب الصدر الأعظم بعد وفاة "سميز علي بَاشَا" (٢٨ حزيران/يونيو ١٥٦٥م). فموقف الصدر الأعظم الجديد بشأن القضايا المتنازع عليها مع آل "هابسبورج" يختلف تمام الاختلاف مع موقف سلفه. ذلك لأنه لم يكن يميل إلى السلام مع الأعداء

كمـا كان مَنْ قبله. وحينما اسـتقبل "سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" السـفيرَ النمسـاوي فـي إسـطنبول، أبلغـه أنه يلـزم على الإمبراطـور "ماكسـيمليان الثانـي" أن يُعيد مدينتي "تُوكَايْ" و"زيرينس"، وأنه لا يمكن تنفيذ شـروط معاهدة "زاتمار" لأنها وُقعـت دون الحصـول على موافقة السـلطان سـليمان. بـدوره، أوضح الصدر الأعظم -بشـكل صارم- أنه قرر وقف جميع المفاوضات الجارية مع الجانب النمسـاوي حتى تدفع حكومة فيينا ما عليها من ضرائب، مشـيرًا إلى أن تجديد معاهدة السلام مرتبط بتنفيذ هذه المطالب. وقد أخبر مبعوثا النمسا في إسطنبول "فـون فيـس" و"زيرنويـس" الصـدرَ الأعظـم أنهمـا ليسـا مخوّليْـن بقبـول هذه المقترحـات. وفـي وقـت اسـتعد فيـه "زيرنويـس" للعـودة إلـى النمسـا لإبلاغ الإمبراطـور بـردّ حكومـة إسـطنبول، جـاءت رسـائل مـن إقليـم "أَرْدَلْ" تشـير إلـى اسـتمرار الاعتـداءات النمسـاوية علـى الإقليم، فُمنع السـفير مـن العودة إلى فيينا واحتُجز في إسطنبول. وبعدما وصل نبأ استيلاء حاكم تيميشوارا "حسن بَاشَـا" على قلعة "إيردود" يوم ١٤ تموز/يوليو إلى "سُـوكُولّو محمد بَاشَا"، أبلـغ السـفيرَ النمساوي بأن السلطان سـليمان لا يعترف بمعاهدة "زاتمار"، وسمح له بالمغادرة على أن يخبر الإمبراطور بطلب تسـليم قلعتي "ناجي بانيا" و"تُوكَايْ" إلـى حاكـم إقليـم "أَرْدَلْ"، وكذلك ضـرورة إطلاق سـراح المبعـوث العثماني "هدايت شـاويش" المحتجز كرهينة في فيينا. وانطلق "زيرنويس" من إسـطنبول عائدًا إلى النمسا يوم ٨ آب/أغسطس ١٥٦٥م.

وقد سيطرت على أذهان أركان الدولة العثمانية في تلك الفترة فكرة إعلان حـرب جديدة على النمسـا. وبينمـا الأمر هكذا أقدم حاكم البُوسْـنَة "سُـوكُولّو مصطفـى بَاشَـا" - ابن عـم الصدر الأعظم "سـولوكو محمد بَاشَـا"- على قيادة حملة عسـكرية من جبهة كرواتيا ضد النمسـا من أجل حل قضية إقليم "أَرْدَلْ". وقـد حاصر "مصطفى بَاشَـا" فـي البداية قلعـة "كروبا" التابعة للقائد العسـكري "زيرنـي ميكـولاس"، إذ رفـض قائـد القلعـة "ماتيـاس باكيس" عـرض القوات العثمانيـة بتسـليم القلعة، وطلب المسـاعدة من القلاع المحيطـة به لصد هجوم العثمانييـن. فبـادر "مصطفى بَاشَـا" بحصار القلعة حصارًا خانقًـا لمدة ١٦ يومًا،

وقصفها بقذائف المدافع العنيفة، إلا أن ذلك لم يغير من الوضع شيئًا. وقد نفدت ذخيرة الجنود ومستلزماتهم العسكرية، ما دفعه لطلب المزيد من الأسلحة والذخيرة من ولايته. ومن جهة أخري حاولت قوة نمساوية قوامها ٧ آلاف جندي إفشال هجوم العثمانيين، إلا أنها لم تستطع الاقتراب أكثر من مواقع تمركز القوات التركية. ولم تستطع فعل أي شيء يُذكر بينما كان "مصطفى بَاشَا" يستولي على المدينة. وبعد أن استولى "مصطفى بَاشَا" على قلعة "كروبا"، أخضع قلعة "نوفي" المجاورة لسيطرته، ومن ثم تقدم حتى وصل إلى منطقة "أوبريسلو" التي حط المقام بها، ثم أوقف عملياته العسكرية عند هذه المنطقة.

ومع تفاقم الأوضاع مع مرور الوقت، شعر الإمبراطور بالقلق الشديد، وسعى لاستخدام آخر ورقة دبلوماسية لديه عام ١٥٦٦م لحماية معاهدة السلام المبرمة مع الدولة العثمانية. وقد أوفد مبعوثًا ذي أصول مجرية يُدعى "هوسزوتهوتي" مطلع عام ١٥٦٦م إلى إسطنبول ومعه العديد من الهدايا، ونحو ٢٠ ألف أسير بعد إطلاق سراحهم (٣١ كانون الثاني/يناير ١٥٦٦م). حتى إنه كان من بين الأسرى أحد رجال ابنة السلطان "مهرماه" وهو رجل عجوز يُدعى "قاسم شاويش" كان قد أسره النمساويون في وقت سابق. وعليه، فقد كان الإمبراطور "ماكسيمليان الثاني" يعتقد أن بإمكانه حماية معاهدة السلام الموقعة مع العثمانيين بهذه الطريقة، لكن سفيره طالب حكومة إسطنبول بإعادة قلعة "كروبا"، ولم يجلب معه الضرائب المستحقة إلى البلاط العثماني، ولم يعطِ مسؤولو القصر جوابًا شافيًا بشأن إعادة قلعة "تُوكَايْ". ولهذه الأسباب التي ذكرناها أعلاه وُضع ذلك السفير تحت الإقامة الجبرية على الفور، وأُعلنت الحرب على النمسا.

الهجوم على قلعة "سيكتوار" ومحاصرتها

بإمكاننا القول إن الصدر الأعظم "سُوكُولّو محمد بَاشَا" كان له الدور الأبرز في إعلان الحرب على النمسا. وقد عرض على السلطان سليمان -الذي كان قد بلغ من العمر عتيًّا في ذلك الوقت- المشاركة في هذه الغزوة

والخروج على رأس الجيش. وفي الوقت الذي قرر فيه السلطان الانضمام بنفسه إلى هذه الغزوة، رغب في الاستيلاء على قلعتي "سيكتوار" و"إيري" اللتين تعتبران من أكثر قلاع النمسا تحصينًا بعدما فشلت جميع محاولات قواته في محاصرتهما والهيمنة عليهما، وكان يهدف من وراء ذلك تدمير مراكز المقاومة النمساوية الهامة في المَجَر. كما كان السلطان سليمان يطمح في نهاية حياته لبسط نفوذه على مدينتي "جيور" و"كوماروم" لينهي بذلك سلسلة غزواته وفتوحاته في المَجَر بعظمة وشرف كبيرين. وجاءت على رأس الأسباب التي دفعت السلطان للخروج في هذه الغزوة رغبته في إسكات الأصوات المنتقدة لعدم خروجه في غزوة منذ عشر سنوات ومحو آثار الهزيمة التي تلقّاها الأسطول العثماني في المَجَر. وكان هناك شيخ يُدعى "نور الدين" يقول إن ما من سلطان أو حاكم لا يخرج للجهاد في سبيل الله إلا ويكون عرضة للانتقاد والمؤاخذة، وهو ما لعب دورًا كذلك في تشجيع السلطان على الخروج في تلك الغزوة. وكانت ابنة السلطان "مهرماه" تشجع والدها أيضًا على ذلك، كما أجبرت العرائض والخطابات التي كان يرسلها حكام الولايات الحدودية وملك إقليم "أَرْدَلْ" السلطانَ في نهاية الأمر على اتخاذ قرار كهذا.

وفي نهاية المطاف، عيّن السلطان الوزير الثاني "بيرتف بَاشَا" قائدًا على الجيش قبيل بداية الغزوة بيومين، ثم أرسله إلى إقليم "أَرْدَلْ"، وكلّفه بمهمة الاستيلاء على قلعة "جوله" الواقعة على حدود مدينة "تيميشوارا". وإلى جانب ذلك، أقرّ السلطان سليمان خطة الحرب على النمسا. وشملت هذه الخطة بسط السيطرة على جميع أنحاء منطقة نهر "الطُونَة" عبر شن هجوم من جهة كرواتيا وإقليم "أَرْدَلْ"، وإجبار القوات النمساوية على الانسحاب إلى فيينا من خلال الإغارة على مدينة "كاماروم". وبهذه الطريقة يكون "بيرتف بَاشَا" قد بدأ الغزوة فعليًّا. وتحرك هذا الأخير نحو الأراضي النمساوية في أواسط شهر آذار/مارس على رأس قوة عسكرية مكونة من ٣ آلاف من جنود الإنْكِشَارِيّة، ووحدة من خيرة الجنود قوامها ٦٠٠ فرد من السرايا الوسطى للجيش وحامية أسلحة أركان الدولة "سلاحدار"، و٦٣ رقيبًا، و١٥٠٠ من الفرسان أبناء

المنتسبين لطبقة الإنْكِشَارِيّة. وكان من المقرر أن يلتقى "بيرتف بَاشَا" دعمًا كذلك من حاكمي ولايتي تيميشوارا وبَلْغِرَاد.

وقبل أن يغادر السلطان سليمان إسطنبول التي لن يراها بعد ذلك ثانية، توجّه صوب مقام الصحابي "أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري (ت: ٤٩هـ/٦٦٩م)" رضي الله عنه وأخذ يدعو الله ببعض الأدعية. ولما شعر بأن حالته الصحية على ما يرام، امتطى جواده وغادر عاصمته في مراسم مهيبة يوم ١١ شوال ٩٧٣هـ (١ أيار/مايو ١٥٦٦م). وكانت إدارة تلك الغزوة قد أُسندت للصدر الأعظم.

وأما السلطان سليمان فقد شارك في الغزوة داخل عربة تجرها الخيول حتى لا يصيبه الإعياء من المجهود الزائد خلال الرحلة. وكان السلطان يمتطي الجواد أثناء عبوره من المدن نحو النمسا، ولم يكن يخرج من العربة المخصصة له بخلاف ذلك. وكان من بين المنضمين لهذه الغزوة كلٌّ من الوزير الثالث فرهاد بَاشَا، والوزير الرابع أحمد بَاشَا، والوزير الخامس "قيزل أحمدلو مصطفى بَاشَا"، والقاضي العسكري في الرُّومَلِي "حميد أفندي"، والقاضي العسكري في الأناضول "برويز أفندي"، وقائد الإنْكِشَارِيّة "علي أغا" (مؤذن زاده علي بَاشَا)، ورئيس شؤون المالية "مراد شلبي"، وحامل ختم السلطان "محمد شلبي". وعندما صدر قرار الخروج إلى غزو النمسا، بادر حاكم ولاية بودا "أرسلان بَاشَا" إلى شن هجوم على الأعداء بغرض تحقيق نصر حقيقي قبل وصول السلطان إلى المَجَر لعلمه بأن الحرب يجب أن تبدأ على الفور في المناطق الحدودية أولًا. وتحرك "أرسلان بَاشَا" من دون أن يصدر إليه أمر من أي مسؤول بالدولة، وحاصر قلعة "بالوتا"، وشن عليها هجمات مكثفة على مدار عشرة أيام، لكن بعد أن وصلته أنباء عن اقتراب قوة عسكرية نمساوية، تراجع عن مهاجمة القلعة ورفع الحصار عنها. وفي ظل هذه التطورات، أسرعت القوات النمساوية للإغارة على قلعتي "تاتا" و"فيزبريم"، واستطاعت الاستيلاء عليهما، وارتكبت مجازر بشعة في هاتين المدينتين. وسنرى لاحقًا أن "أرسلان بَاشَا" سيُعاقب عقابًا عسيرًا بسبب هذا الخطأ الجسيم الذي ارتكبه، وهو ما سيؤدي إلى إعدامه.

وقـد ودّع شـيخ الإسـلام "أبو السـعود أفنـدي" وقاضي إسـطنبول "أحمد أفندي" الجيش العثماني بقيادة السـلطان سـليمان. ومن ثم انطلق الجيش بقيادة السـلطان من إسـطنبول إلى أَدِرْنَه عبر طريق "جَاتَالْجَه - "سيليفري (*Silivri*)""، ووصل بعدها إلى مدينة "تاتار بازارجيغي"، وحينئذ بلغت السلطان أنباء تتحدث عـن أن "مراد" -حاكم إمارة "صَارُوخَانْ"- بن الأمير "سـليم" رُزق بمولود ذكر، فسُرّ كثيرًا وأطلق اسم "محمد" على ابن حفيده قائلًا:

"... كان اسـم جـدي الأعظـم محمد بن مراد، فليكن اسـم ابن حفيدي كذلك محمد..."

ووصـل الجيـش العثمانـي إلى بَلْغِـرَاد يـوم ١٩ حزيران/يونيـو، وقد عانى كثيـرًا للوصول إلى مدينة "شـاباتس" بسـبب هياج نهر "الطُونَـة". وبَنت القوات العثمانية جسـرًا فوق مياه "الطُونَة"، واسـتطاعت العبور بهذه الطريقة إلى سـهل "سِـيرَمْ". ويشـير المؤرخ العثماني "مصطفى السـلانيكي" -الذي شـارك بنفسـه فـي تلـك الغزوة- إلى أنه أُقيمت مراسـم فخمـة للغاية لعبـور الجيش العثماني مـن تلـك المنطقـة. ثـم وصل الجيـش إلى مدينـة "زيمـون" بحلـول وقفة عيد الأضحـى، وصـدر قرار بالاحتفـال بالعيد في تلـك المدينة. وقـد التحق حاكم إقليـم "أَرْدَلْ" "يانوش سيجسـموند" بالجيش العثماني بمدينـة "زيمون" بمرافقة حشد كبير بعدما وُجّهت إليه دعوة للمشاركة في هذه الغزوة.

ولمـا وصل "سيجسـموند" إلى مقر قيـادة الجيش العثمانـي، حُيي بإطلاق بعض قذائف المدفعية في الهواء وأُقيمت مراسم استقبال على شرفه. وخُصصت له خيمة حمراء بجوار خيمة رئيس رقباء الديوان السلطاني. ثم استقبله السلطان في خيمته عقب انتهاء مراسم الاحتفال بعيد الأضحى. وكان يسير أمامه وخلفه ٥٠ رقيبا في كل جهة مرتدين ملابس المراسم، وكان بالقرب منه ٤ وزراء وقائد جنود الإنْكِشَارِيّة. وعندما وصل "يانوش" إلى الخيمة، قدّم إلى السلطان سليمان الهدايا التي كان يحملها جنود الإنْكِشَارِيّة. ثم أُدخل إلى خيمة السلطان، وتقدم حتى وصل إلى مجلس السلطان. وكان يحيط مجلس السلطان ٤ وزراء. وركـع

حاكم إقليم "أَرْدَلْ" على ركبتيه ثلاث مرات أمام السلطان، وأمره السلطان سليمان في كل مرة بالوقوف على قدميه. ثم بعد ذلك قبّل يد السلطان، وبعدها أُجلس على كرسي مزيّن. وقال "يانوش سيجسموند" في حضرة السلطان:

"أنا عبدك ابن عبدك، والأمر والفرمان بيديكم حضرة السلطان."

فأجابه السلطان بقوله:

"طبتَ وطاب ممشاك".

وبعد أن خرج "يانوش" من خيمة السلطان التفت إلى المترجم "إبراهيم" وعبّر عن مشاعره تجاه مقابلة السلطان بقوله:

"... لقد أسعدتني عظمة السلطان كثيرًا لدرجة أنني لم أستطع أن أتفوه ببنت شفة في حضرته."

وفي اليوم التالي حصل "يانوش (*Janos*)" على هدايا في مقابل الهدايا التي قدمها للسلطان. ويُروى أن السلطان سليمان همّ أن يأمر بإعداد مائدة طعام على شرف أمير "أَرْدَلْ"، إلا أن الصدر الأعظم "سُوكُولّو محمد باشا" حذره من أن جسد الأمير الهزيل ربما يتضرر من الأطعمة التركية التي لم يعتد عليها، مشيرًا إلى أن المجريين قد يفسروا هذه الحالة على أنها محاولة لدس السم للأمير؛ ما دفع السلطان للتخلى عن هذه الفكرة. وقد قدم "يانوش" عريضة إلى السلطان يطلب فيها استرداد الأراضي الواقعة بين نهر "تيزا (*Tisza*)" وحدود إقليم "أَرْدَل"، كما طالب بضم مدن "تيميشوارا (*Tamşvar*)"، و"ليبوفا (*Lipova*)"، و"دبرتسن (*Debrecen*)"، و"سولنوك (*Solnok*)" إلى حدود ولايته.

وفي اليوم التالي لاستقبال السلطان سليمان أمير إقليم "أَرْدَلْ"؛ جاء وفدٌ من سفراء فرنسا لمقابلة السلطان. وكان على رأس هذا الوفد هو "م. دي جرانتري دي جراندشامب (*M. de Grantree de Grandchamps*)" الذي أرسلته نائبة رئيس الحكومة الفرنسية "كاترين دي ميديسي (*Catherine de Medicis*)" إلى السلطان لتلطيف العلاقات التي قُطعت بين الدولتين منذ فترة

طويلـة. وكانـت أولى التعليمات التي تلقاها هذا السـفير هي أن يسـعى لتبييض صـورة "ماكسـيمليان الثانـي" لدى السـلطان. وكان هذا الأخير يسـعى من جهة لحشـد جنوده بعدما سـمـع بتحرك الجيش العثماني صوب النمسا، كما حاول، مـن جهـة أخرى، طلب المسـاعدة من جميع ملوك أوروبا وعلى رأسـهم ملك إسـبانيا وبابا الفاتيكان. إلا أن مسـاعيه لجمع الدعم اللازم باءت بالفشـل جراء الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها أوروبا في ذلك التوقيت. حتـى إن ملك إسـبانيا "فيليب الثاني" لم يسـتطـع تقديم الدعـم كما يجب لابن عمه "ماكسيمليان"؛ بسبب انشغاله بغزواته البحرية في مياه المتوسط. وأما فرنسا فكانـت تربطهـا صداقة سياسـية بالدولة العثمانيـة، كما أنها كانـت تعاني آنذاك من صراعات دينية ومذهبية، وبالرغم من ذلك كله حاولت مسـاعدة الإمبراطور ببعض المحاولات الدبلوماسية؛ بحيث كانت تفكر في مساعدته– بالطبـع– بعد تحقيـق مصالحهـا ومآربها التي ترنو إليها أولًا. وفي الواقـع لم يسـتطـع السـفير الفرنسـي أن يثنـي السـلطان عـن مواصلة هذه الغـزوة؛ على الرغـم من نجاحه في تلطيف العلاقات مـع العثمانيين. ونفهم من ذلك أن فرنسا لـم تقدم على هذه المحاولة إلا على سبيل التظاهر وعدم الجدية. حتى إنه يُقال إن السفير الفرنسي لـم يتـردد في تهنئـة "يانوش (*Janos*)" الـذي ترك المذهـب الكاثوليكي واعتنق المذهب اللوثري (البروتستانتي).

وبينما كان الجيش العثماني في مدينة "زيمن"، أرسـل السـلطان حاكم ولاية كارامان "سـليمان باشا الشركسي" إلى مدينة "بودا" لقيادة الحامية المدافعة عنها. وبينماكان السلطان نفسه في طريقه صوب مدينة "إيري". إلا أن خطة السير تغيرت بعدمـا تحـرك الجيـش من ذلك الموضـع؛ إذ وصلت في تلك الأثنـاء أنباء تفيد بـأن قائد قلعة سـيكتوار "زيرني ميكلوس" أغار علـى حاكم ولاية تيرهالا محمد بينمـا كان فـي طريقه لعبور نهر "درافا" بالقرب من قلعة "أوسـيك"، وعمد برفقة ابنـه إلى ذلك الأخير وسـرقة حاجياته. وكان حكام الولايات الحدودية يسـعون لإلقاء القبض على "زيرني" في أسرع وقت ممكن. ولهذا السبب توجهت القوات العثمانية صوب قلعة "سـيكتوار"، وعبر الجيش نهر "الدانوب" بواسطة جسر بُني

فوق مياهه عن موقع يُسمى "فوكوفار". إلا أن هذا العبور لم يكن سهلًا؛ ذلك لأن الجسر تهدم عندما عَلا مستوى المياه. وعليه، أمر السلطان ببناء جسر آخر فوق نهر "درافا (*Drava*)" بالقرب من قلعة "أوسيك". وقد أُنشأ هذا الجسر خلال ١٧ يومًا عن طريق وضع ١١٨ سفينة جنبًا إلى جنب. حتى إن السلطان سليمان ذهب بنفسه لتفقد هذا الجسر بعد بنائه. وفي نهاية الأمر، استطاع الجيش العثماني بالكامل عبور الجسر يوم ١٩ تموز/يوليو.

أقام الجيش العثماني في موقع يُسمى "هارساني (*Harsany*)" يقع بين مدينتي "بيتش (*Peçuy*)" و"سيكلوس (*Siklos*)". وقد أُعدم حاكم ولاية بودا "أرسلان باشا" في هذا المكان بعدما أخفق إخفاقات عسكرية من دون الحصول على تعليمات من رؤسائه. ويُروى أن الصدر الأعظم "سُوكُولّو محمد باشا" لعب دورًا بارزًا في تنفيذ هذه العقوبة؛ إذ تؤيد هذه الرواية مخطابته "أرسلان باشا" بشكل صارم. وفي الواقع، حال الصدر الأعظم دون تقديم "أرسلان باشا" عريضة يدافع فيها عن نفسه إلى السلطان، وسعى إلى التقليل من شأنه وذمه لدى السلطان بأن قال له: "ما الذي جاء بك؟ إلى من وهبت الجيش؟! لقد أحسن إليك السلطان بمنحك لقب أمير الأمراء، فلم تراع ذلك الإحسان. وكلّفك بمهام سياسية، فلم تتأدب وجرّأت الكفار على الهجوم على قلاع أهل الإسلام يا أيها الملعون." ثم أصدر أمرًا إلى كبير الرقباء للقبض عليه، ومن ثم استدعى الجلاد "قاسم" لينفذ حكم الإعدام فيه. ووصل الجيش العثماني بعد هذه الواقعة إلى مدينة "بيتشو"، وهنا قام السلطان سليمان بتفقد جميع فرق الجيش. وبعدها عسكر جنود الروملي في منطقة غابات قريبة من قلعة "سيكتوار" يوم ٤ آب/أغسطس. وبعد عقْد أمير أمراء الروملي بعض المفاوضات، تقرر نصب خيمة السلطان فوق تلٍّ يُسمى "سيميليوف (*Semilihov*)" ليكون بمنأى عن قذائف مدافع العدو.

وعندما وصل الجيش العثماني مشارف مدينة "سيكتوار" كان الوزير الثالث "فرهاد باشا" وأمير أمراء الأناضول "زال محمود باشا" في الميمنة، والوزير

الخامس "قِيزِيلْ أَحْمَدْلُو (*Kızıl Ahmedlü*) مصطفى باشا" وشقيقه أمير أمراء الروملي "شمسي أحمد باشا" في الميسرة، وقائد جنود الإنكشارية "علي أغا" في المركز، وقائد الأسطول "علي بورطوق" في مياه نهر "الدانوب". وكانت قلعة المدينة يحيطها نهر "ألماس" من كل جانب، وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام على رأسها المدينة الجديدة والمدينة القديمة. وكانت قلعة المدينة تمتاز بالتحصين الكامل، وقائدها هو القائد العسكري الشهير "زيرني ميكلوس". وتشير المصادر التاريخية الغربية إلى أن ذلك القائد كانت تحت إمرته قوة عسكرية قوامها ٣٥٠٠ جندي و٦٠ مدفعًا. لكن يمكننا التخمين أن حامية القلعة كانت أكبر من ذلك العدد، ذلك لأن قوة صغيرة كهذه ما كان لها أن تصمد في مواجهة القوات العثمانية على مدار شهر كامل من الحصار المتواصل. وقد بدأ حصار القلعة بقصفها بالمدافع، وفي تلك الأثناء حققت القوات العثمانية نجاحين متتاليين في القسم القديم من "سيكتوار"؛ إذ استطاع الجيش الاستيلاء على القلعة بسهولة بعد فترة من الهجوم المباغت. في حين عمدت القوات المحاصرة لقلعة التي يحميها "ميكلوس" إلى تثبيت مدافعها في الأماكن المرتفعة من المدينة، ومن ثم بادرت إلى قصف أسوار القلعة. وبعد فترة استطاعت القوات العثمانية السيطرة كذلك على القسم الجديد من المدينة. وأما القائد "ميكلوس" فقد انسحب بقواته إلى داخل القلعة وبدأ في الدفاع عنها. وفي مقابل ذلك أقدمت القوات العثمانية على تجريب بعض الحيل من أجل تثبيط معنويات القوات المدافعة عن القلعة. وقد أسر العثمانيون حامل راية الابن الأكبر للقائد "ميكلوس" وبعض الأشخاص الآخرين، وبادروا إلى عرضهم أمام القلعة، كما أرسلوا رسائل باللغات الكرواتية والمجرية والألمانية إلى من كان داخل القلعة، إلا أن كافة هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح، إذ واصل "ميكلوس" الدفاع عن القلعة باستماتة.

بذل الصدر الأعظم "سُوكُولّو محمد باشا" جهدًا جبارًا للاستيلاء على قلعة "سيكتوار"، حتى إنه لم يكن يتورّع عن تفقّد خنادق الجنود وتشجيعهم قبل الخروج إلى المعارك. وكاد هذا الأمر يكلفه حياته في مرة من المرات؛

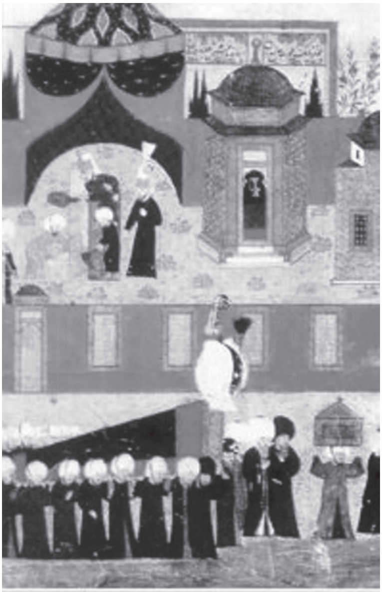
إذ إنه ما إن تراجع عن إحدى نقاط الجبهة بعد أن صاح عليه كاتب السر، حتى سقطت قذيفة مدفعية على النقطة ذاتها؛ مما أسفر عن استشهاد بعض الجنود الذين كانوا متواجدين في ذلك المكان. وعلى الرغم من هذه العزيمة التي كان يتمتع بها "سُوكُولّو محمد باشا"، إلا أن حامية القلعة لم تتوانَ هي الأخرى عن الدفاع عنها بكل ما أوتيت من قوة. حتى إن القوات العثمانية فشلت في اختراق أسوار القلعة في ثلاث هجمات شنّتها بشكل متتالٍ، كما تكبّدت خسائر كبيرة. وكان السلطان العجوز يشعر بالحزن جراء هذه الأوضاع غير السارّة، وقد أعرب عن حزنه ذلك في رسالة بعث بها إلى الصدر الأعظم قال فيها:

> "لستُ راضيًا بالتقدم حتى خنادق الجنود. فالجنود والقادة المسلمون عندي أهم وأكبر من أي شيء. عليك بتوفير الأسلحة ومعدات الحرب واستخدامها بحسن التفكير والتدبير للاستيلاء على هذه القلعة التي أحرقت قلبي. وأدعو الله ﷻ أن يعيننا على إنجاز هذا الأمر بسلام".

وكان الجيش العثماني في ذلك التوقيت يسعى لتجهيز نفسه من جديد للاستيلاء على القلعة، بحيث طلب أمير أمراء الروملي من جنوده تجميع الأخشاب حول القلعة؛ فهمّ الجنود إلى قطع أخشاب الأشجار الموجودة في الغابات المحيطة بالمكان ونقْلها إلى الخنادق. وبعدها بادرت القوات العثمانية إلى الهجوم متسلقة هذه الأخشاب، إلا أن هذا الهجوم باء بالفشل إثر تكثيف العدو قصفه المدفعي. وعقب ذلك مباشرة فجّرت القوات العثمانية الألغام التي زرعتها بجوار أسوار القلعة، كما أضرمت النار في بعض المتفجرات الأخرى التي أُلصقت بجسم القلعة، ما أحدث في النهاية فتحات كبيرة في أسوار القلعة. وقد استطاعت القوات العثمانية دخول القلعة من خلال هذه الفتحات والاستيلاء عليها بنجاح. ثم انتقل الجيش العثماني إلى مرحلة الضغط على القلعة الداخلية لإسقاطها هى الأخرى، فأُحيطت بالمواد القابلة للاشتعال كأغصان الأشجار وأخشابها، ومن ثم أضرمت النار بها، فأحاطت النيران "ميكلوس" وحامية القلعة من كل اتجاه. فاضطر هذا الأخير أن يحاول الخروج

مـن القلعة برفقة ٦٠٠ مـن رجاله للإغارة على القوات العثمانية، لكنه لم ينجح في شـق صف القوات العثمانية، وأُصيب وسـقط أسيرًا في أيديها. وبعدها بفترة قصيرة أُعدم بقطع رأسه فوق ماسورة أحد المدافع (٧ أيلول/سبتمبر ١٥٦٧م). وفي ذلك التوقيت كان الصدر الأعظم يُخفي نبأ وفاة السلطان سليمان؛ إذ اتخذ حزمة من التدابير لئلا ينتشر هذا الخبر بين الجنود فتهبط عزيمتهم.

كان السـلطان سـليمان في الأساس تسـيطر عليه حالة من المرض والإعياء قبـل الخـروج إلى تلك الغـزوة، وقد لعب طـول طريق الرحلـة والحصار دورًا بـارزًا فـي إرهاقـه بشـكل غيـر عـادي. أضف إلـى ذلك الحـزن الذي شـعر به لفشـل قواتـه في الاسـتيلاء على قلعة "سـيكتوار"، مما تسـبب في تـردّي حالته الصحيـة وخضوعـه للعـلاج في السـرير. وتختلف وجهات النظر بشـأن مرض السلطان سليمان؛ إذ تشير بعضها إلى أنه كان مصابًا بأمراض: النقرس، والزحار (التدفـق الدمـوي)، والشـلل، بـل والسـرطان. وكان مرض السـلطان قـد ازداد فـي الأيـام الأخير من حصـار القلعة. وفي نهايـة الأمر وافته المنيـة بينما كانت قـوات جيشـه تعد العدة للهجوم علـى القلعة الداخلية في ليلة ٧ أيلول/سـبتمبر (٢١ صفر ٩٧٤هـ). وقد أُخبر الصدر الأعظم "سُـوكُولّو محمد باشـا" بهذا النبأ على الفور. وما إن وصله الخبر حاول التصرف بعقلانية ورباطة جأش على الرغم مـن شـعوره بحزن كبير لوفاة السـلطان؛ فبـادر الصدر الأعظـم أولا إلى تحذير جميع من علم بوفاة السـلطان؛ فأمر بإخفاء هذا الخبر وعدم إشـاعته والتصرف بطريقة طبيعية وكأن السلطان على قيد الحياة بُغية إنجاز مهمة الجيش في إسقاط القلعـة وعـدم السـماح لأن تحدث أية حالة مـن الاضطراب في السـيطرة على الجنـود. ثـم بعد ذلك بعث رسـالة سـرية إلى "جعفـر أغا" أحـد أركان القصر، وطلـب منه اسـتدعاء كبيـر الحرّاس إلـى الخيمة. ونقـل "جعفر أغـا" تعليمات الصـدر الأعظـم إلـى كبيـر الحرّاس بقولـه: "الحمـد لله تعالى فصحة السـلطان فـي تحسـن مسـتمر، إلا أنـه متوتر قليلًا بسـبب فشـل القـوات في فتـح القلعة علـى الرغـم مـن تكبّـد الكثير من المشـقة والخسـائر لأجـل الاسـتيلاء عليها.



جثمـان السـلطان سـليمان ينقـل إلـى فناء جامع السـليمانية الذي سيقام فيه ضريحه لاحقا كي يدفن فيه

وقـد أمـر سـعادته بفتـح القلعـة اليـوم علـى الفـور." وبهـذه الطريقـة اسـتطاع الصـدر الأعظـم إخفـاء نبـأ وفاة السـلطان بذكاء شـديد عبر نشـر بعـض الأخبـار المحفـزة للجنـود من أجل إسـقاط القلعـة، حتى إن نبأ الوفاة هذا لم يصل إلى وزراء الديوان. وفـي نهايـة المطـاف نجـح الجيـش فـي دخـول القلعة فـي اليـوم التالي، إلا أن السـلطان سـليمان لم يُكتب له رؤية هذا النصر الكبير.

وقـد كلّـف الصـدر الأعظـم كاتـب السـر "فريـدون أحمـد بـك" بكتابة رسـالة يشـرح فيها هـذا الأمر، ومن ثم أرسـلها إلى الأمير "سـليم". ولم يكن الرسـول "حسـين شاويش" ناقل هـذه الرسـالة علـى علـم بمحتواهـا، وكان يظـن أنه ذاهـبٌ يزفُّ البشـرى إلى أميـر أمـراء حلـب، إذ كان مـن المفتـرض أن يلتقـي الأميـرَ "سـليم" المتواجد فـي إحـدى المراعي بمنطقـة "شـيجانلي" القريبة مـن مدينة "كوتاهيا" لتسـليمه الرسـالة، ومـن ثم يكمـل طريقه. وكلّف الصـدر الأعظم هذا الرسـول بالمرور بمدينة "كوتاهيا"، وتسـليم الرسـالة إلى الأمير "سـليم"، وإبلاغه بنبأ فتح القلعة، وأن السـلطان سـليمان لـن يغادر المدينة قبـل أن يقوم الجيـش بتحصين القلعة بشـكل محكم. وبهذه الطريقة نجح "سُـوكُولّو محمد باشـا" في إخفاء سر وفاة السـلطان عـن الجميـع بعدما كلّف كاتب السـر "جعفر أغـا" – الذي كان خطه فـي الكتابـة يشـبه إلـى حد بعيـد خط السـلطان – بكتابة بعض الرسـائل بشـأن عـدد مـن القضايا. ومن ناحية أخرى غُسّـل جثمان السـلطان فـي خيمته وكُفِّن،

كما استُخرجت أعضائه الداخلية ودُفنت. وقد صلّى عليه صلاة الجنازة ١٢ شخصًا كان من بينهم الطبيب "قيسوني زادة بدر الدين محمد شلبي"، وإمام السلطان الدرويش "ركابدار مصطفى". وبعد ذلك طُهّر جسد السلطان ولُفّ في قطعة من المشمع بعد تطييبه برائحتي المسك والعنبر، ثم دُفن بشكل مؤقت أسفل عرشه الذي كان داخل خيمته.

لقد بذل الصدر الأعظم "سُوكُولّو محمد باشا" ما بوسعه من جهود كي يخفي سر وفاة السلطان سليمان. وفي تلك الأثناء بعث رسائل النصر إلى جميع الولايات للإعلان عن فتح مدينة "سيكتوار". وأُمر بتحويل كنسية المدينة إلى جامع، وأُعلن أن السلطان سيخرج بنفسه إلى صلاة الجمعة في ذلك الجامع. ولما اقترب يوم الجمعة أُشيع أن السلطان يعاني من بعض الأوجاع بسبب مرض النقرس، وأنه لن يستطيع الذهاب إلى صلاة الجمعة هذا الأسبوع. لكن هذه الواقعة أشاعت الشك في قلوب الجميع، وبدأت بعض الشائعات تسري بين أفراد الجيش حول وفاة السلطان. وعليه، أعلن الصدر الأعظم أن السلطان يعتزم تأسيس ديوان بالمدينة ليشعر الجنود بأنه لا يزال على قيد الحياة. والسبب في ذلك خشيته أن يقوم جنود الإنكشارية بثورة ضده كما فعلوا إبان وفاة السلطان "محمد الفاتح". وفي اليوم التالي اجتمع أركان الدولة في خيمة ضخمة للغاية لمناقشة أمور الديوان. ودخل قائد فرقة الإنكشارية "علي أغا" إلى الخيمة، ثم خرج بعدها مباشرةً، وخاطب جنود الإنكشارية الذين كانوا يتناولون الطعام في تلك الأثناء قائلًا:

> "يا أيها الرفقاء! لقد أمر السلطان سليمان بإكمال تحصين القلعة. كما أصدر فرمانًا بمكافأتكم على شجاعتكم وثباتكم في المعركة، وهو يحييكم على صمودكم وجلدكم."

وكلفهم بتجهيز جيادهم. فأجابه الجنود قائلين:

> "ستكون مكافآتنا كثيرة."

ورد عليهم قائدهم قائلًا:

"أنا ضامن للجميع. هيا لننفذ أوامر السلطان، ونلحق بالقلعة لتحصينها."

ومن ثم امتطى جواده، وسار نحو القلعة، وتبعه الجنود من خلفه دون اعتراض. وبهذه الطريقة بدأ الجنود في ترميم القلعة، وتحصينها وهم لا يشكون في أي شيء بفضل الإجراءات التي اتخذها الصدر الأعظم في هذا الصدد. وقد كُلِّف أمير أمراء الروملي "شمسي أحمد باشا" برفقة جنوده بفتح قلعة "بابوكسا"، فاستطاع الاستيلاء عليها في زمن قصير. وقبل ذلك بقليل تلقّي الجيش العثماني بشرى فتح الوزير الثاني "بيرتف (*Pertev*) باشا" قلعة "جوله (*Göle*)" (١ أيلول/سبتمبر) بالقرب من إقليم "أَرْدَلْ"، والتي كان قد صدر إليه تعليمات بالاستيلاء عليها. كما استطاع في الوقت نفسه بسط هيمنته على قلعة "يانوفا" وبعض القلاع الأخرى.

وفي الوقت الذي استطاع فيه "سُوكُولّو محمد باشا" شغل جنود الإنكشارية بشؤون قلعة "سيكتوار"، انتشر خبر بين صفوف الجيش يتحدث عن أن الأمير "سليم" وصل إسطنبول، ونُصّب سلطانًا على رأس الدولة. وفي الواقع كان "سليم" قد غادر "كوتاهيا" إلى إسطنبول، ومنها توجه صوب بلجراد. وتثبت عريضة أُرسلت إلى الأمير صدق هذه الواقعة. وتضمنت هذه العريضة بعض الموضوعات كالإشارة إلى المجهود الكبير المبذول لأجل إخفاء نبأ وفاة السلطان سليمان، وبالرغم من ذلك فإن الوفد القادم من إسطنبول أشاع بين جنود الجيش خبر صعود الأمير "سليم" إلى عرش السلطنة خلفًا لأبيه، وأن أمر وفاة السلطان أُخفي من أجل الإبقاء على معنويات الجنود مرتفعة وعدم شعورهم بوهن أو ضعف أمام الأعداء، إضافة إلى التنويه بأنه من غير المناسب تحرك الجنود أولًا قبل وصول الأمير "سليم" إلى الجيش في "سيكتوار". وقد غادر "سليم" بلجراد مسرعًا صوب "سيكتوار"، إلا أنه عاد أدراجه إلى بلجراد وبدأ ينتظر بعدما تدخل "سُوكُولّو محمد باشا" من أجل عودته. وأرسل إليه هذا الأخير رسالة قال فيها:

"سـيدي السـلطان! إن طائفة جنود الإنكشارية ترغب- إذا سمحتم- في مكافأة جلوسـكم علـى العرش كما هو المعتاد منذ زمـان أجدادنا. ولم نُمنـح مبلـغ من المال يغطي مكافآتهم. ولا أعتقد أن قدومكم سـيكون مناسـبًا لاسـيما مع احتمال رجوع أعـداء الدين مجـددًا. كما أن تأخير رحلتكم لما بعد انقضاء الموسـم وحلول الشـتاء سيكون متعسرًا. ولقد فُتحت مدينة بلجراد في أوائل حكم السلطان سليمان رحمه الله. والجنود مشغولون في الوقت الحالي بنشر الأمن بالمدينة وترميم قلعتها. ومن ثم سيمنح الجنود الإنكشارية رواتبهم مع مطلع شهر ربيع الآخر. وبعدها بثلاثة أيام ستُعلن خطة الرحيل، ثم نصل إليكم بعدها بعدة أيام."

إذ رأى أنه من المناسب أن ينتظر السلطان الجديد قليلًا في بلجراد.

لقد واصل "سُـوكُولّو محمد باشـا" تكتمه على نبأ وفاة السـلطان حتى أثناء تحـرك الجيـش نحو بلجـراد. وكان قد فات ٤٤ يومًا على وفاة السـلطان عندما غادر الجيش مدينة "سيكتوار (*Zigetvar*)". واتخذ الصدر الأعظم بعض التدابير فـي الطريق للتظاهر بأن السـلطان داخل العربة المخصصة له. فأجلس شـخصًا يُدعـى "حسـن أغا البوسـني" – وهو أحد أفراد الغرفـة الخاصة بالقصر – داخل عربة السلطان، إذ كان يشبه السلطان كثيرًا. وكان هذا الشخص ذي بشرة بيضاء، وأنفه يشـبه أنف الصقر، وقليل اللحيـة، وذي مزاج مريض، ويربط رقبته بلفافة، وكان يتصـرف كالسـلطان تمامًـا بالنظر مـن داخل العربة يمنةً ويسـرةً والتلويح بيده لتحية من حوله. وكان "سُـوكُولّو محمد باشـا" هو الآخر يقترب من العربة بيـن الفينـة والأخرى، ويتصـرف وكأنه يتلقـى الأوامر من السـلطان. ولما رأى الجنـود هـذا الوضـع زالـت كافة شـكوكهم حول وفاة السـلطان. ولمـا اقترب الجيـش مـن بلجراد قال الصدر الأعظم في نفسـه إنهم قـد وصلوا إلى ديارهم، وبالتالي قرر الإعلان عن نبأ وفاة السلطان سليمان. وانفصلت العربة التي كانت تحمل جثمان السلطان عن موكب الجيش، ثم انتقل بعض حفاظ القرآن الكريم إلـى جوارهـا بأمر من الصـدر الأعظم، وبدؤوا في قراءة بعض السـور مثل يس

والكهف وغيرهما. وبهذه الطريقة أدرك الجميع أن السلطان سليمان قد وافته المنية. وكان المؤرخ "مصطفى السلانيكي" من بين الحفاظ الستة الذين قرؤوا القرآن الكريم على روح السلطان. ويروي هذا المؤرخ أن جميع أفراد الجيش بلا استثناء بدأ في البكاء بحرقة لوفاة السلطان. ويستطرد السلانيكي في الحديث حول هذا الشأن بقوله:

" ... بدأ الناس في البكاء بحرقة شديدة على وفاة السلطان سليمان، ووصل بهم الأمر لدرجة أنهم توقفوا عن السير وأخذوا يصيحون قائلين: "يا سلطان سليمان!" وقال الوزراء إنه من الأولى متابعة السير، فالثلوج على وشك الهطول. ثم جاء الصدر الأعظم محمد باشا وقال لهم "أيها الأصدقاء! لماذا توقفتم عن السير، فلنمض في طريقنا، فهذا هو السلطان سليمان سلطان الإسلام الذي حكم لسنوات، لنعظّمه بالقرآن الكريم. فهو قد خرج في العديد من الغزوات، وفتح مدينة أونجوروس وضمها إلى حظيرة بلاد الإسلام، وأحسن إلينا جميعًا بفضله وعطاياه التي لا تحصى. فهل ما تفعلونه هو المقابل لكل ما فعله؟ لا يجب علينا أن نترك جسده المبارك هكذا. فها هو ابنه السلطان سليم ينتظركم منذ ١٧ يومًا في بلجراد. وكان السلطان سليمان رحمه الله قد أمر بمنحكم العطايا والمكافآت. فليقرأ الحفاظ القرآن الكريم ليكون لنا دواءً، ولنستكمل طريقنا. فالقرآن الكريم هو دوائنا، ولنسِرْ مع القرآن والدين والإيمان.

وقد قال الصدر الأعظم مقولته تلك وكان الفجر على وشك البزوغ، ووصلوا بعدها إلى مشارف وادي سيرم..."

وقد وصل الجيش العثماني إلى بلجراد، وصلّى صلاة الجنازة على السلطان أمام خيمة الأمير "سليم". وبعدها أُرسل النعش إلى إسطنبول، ولما وصل إلى هناك صلّى عليه للمرة الثالثة جمعٌ كبير من الناس (١٥ جمادى الأول ٩٧٤هـ – ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٦٦م). ولقد أظهر الشعب الحب والاحترام الذي كان يكنه للسلطان سليمان أثناء صلاة الجنازة عليه في إسطنبول؛ إذ تجمع حشد كبير من الناس منها ومن المدن المجاورة لها للوفاء بآخر واجباتهم تجاه

السلطان. ولم تهتز صورته أمام شعبه حتى في آخر أيام حياته بسبب وقائع إعدام ابنيه الأميرين "مصطفى" و"بايزيد" والصدرين الأعظمين "إبراهيم باشا" و"أحمد باشا" بتأثير من نساء جناح الحريم بالقصر، بحيث كانت هذه الأحداث قد هزّت كيان عامة الناس في وقت من الأوقات. حتى إن أحد المؤرخين العثمانيين يروي الصعاب التي عانى منها الشعب بسبب جو الفوضى الذي كانت تعيشه الدولة في القرن السابع عشر الميلادي، ويشير إلى أن الفقراء من الناس في ذلك الوقت كانوا يشتكون قلة حيلتهم فيستنجدون بالسلطان سليمان على الرغم من مرور نحو قرن على وفاته بقولهم:

"كان الفقراء والمساكين يدعون بقولهم يا سليمان الغازي! ارفع رأسك المبارك وانظر إلى حال الفقراء الذين كنت تحميهم إبان حياتك."

الخاتمة

شخصية السلطان سليمان القانوني وخصائص عهده

لقد قضى السلطان سليمان تقريبًا جميع مراحل عمره في الخروج إلى الغزوات والفتوحات إذا ما استثنينا فترة شيخوخته. وقد وافته المنية وهو في غزوة فتح "سيكتوار" بشكل يليق بعظمته. واستطاع أن يحجز لنفسه مكانة مرموقة بين سلاطين آل عثمان بفضل ثلاثة عشر غزوة كبرى خرج فيها على مدار حياته. وخلال فترة توليه الطويلة لعرش الدولة صال الجيش العثماني وجال في البر والبحر في غزوات على مستوى قارات العالم القديم الثلاث. وأسهمت هذه الفتوحات في توسعة حدود الدولة بشكل كبير، وبلغت الدولة العثمانية في تلك الحقبة مرحلة من النضج من ناحية المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية. ودُعّمت الانتصارات السياسية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وبرزت مبادئ العدل والقانون في المقام الأول، وصارت الدولة العثمانية أكبر الدول وأقواها على مستوى العالم في القرن السادس عشر بفضل مؤسساتها العريقة وانضباط جيشها والتقنيات التي تفنن أركان الدولة في الاستفادة منها لتقوية دعائم الدولة. وكان السلطان سليمان هو أبرز المساهمين في تطوير موارد الدولة وإعلاء شأنها على كافة المستويات والأصعدة، وقد لقبه الأوروبيون باسم "*Magnificent*" أي "السلطان العظيم" و"*Grand Turc*" بمعنى "كبير الأتراك".

اعتلى السلطان سليمان عرش الدولة العثمانية ٤٦ عامًا ميلاديًّا ما جعله صاحب أطول فترة حكم بين السلاطين العثمانيين. ولم ينس من جاء بعده الفتوحات التي حققها السلطان سليمان وواقعة وفاته في أحد ميادين القتال أثناء غزوة "سيكتوار"، وانتشر في عهد حفيده اقتناع بين الناس بأن الدولة العثمانية عاشت أزهى عصورها في عهده، بحيث كان يُذكر عهد السلطان سليمان دائمًا

بأنه كان عهدًا نموذجيًا في كافة نواحي الحياة. ولقد اكتسبت هذه الفكرة شكلًا أكثر وضوحًا في الفترات اللاحقة التي كانت تعاني منها الدولة من أزمات عدة، وبدأ مصطلح "العصر الذهبي" يُطلق تدريجيًّا على فترة حكم السلطان سليمان كوصف للإنجازات التي حققها على جميع المستويات. ولقد تعلّم المؤرخون العثمانيون التوجهات التي تنزع إلى إضفاء المثالية على بعض فترات التاريخ في القرن التاسع عشر من نظرائهم الأوربيين، فرأوا عصر السلطان سليمان وكأنه "عصر سعادة" جديد متأثرين في ذلك بمؤلفي رسائل الإصلاح في عصور الأزمات. وإن ظهور الأسطورة التي نُسجت في إطار وصف السلطان بـ"القانوني" ألقت بظلالها على الأطروحات الهادئة التي سيطرت على عصر السلطان. وفي الواقع، فإن عهد السلطان سليمان ترك بصمة مؤثرة على القرن السادس عشر، وأسهم بشكل كبير في إنجاز المهام الدينية والسياسية في تلك الحقبة. وقد استطاع العثمانيون أن يؤسسوا لدولة عالمية على الطراز الذي كان يطمح الأوروبيون لإنجازه بفضل الفعاليات الكثيفة التي خاضها السلطان سليمان على المستويين العسكري والسياسي. وشهدت هذه الفترة وضع أساس البنية التحتية الأيديولوجية للدولة العثمانية، إذ شعر العثمانيون بعدها بالشوق والحنين إلى ذلك "العصر الذهبي" الذي لعب تأثيرًا كبيرًا على الجغرافية السياسية للقارة الأوروبية في القرون الوسطى. وتولّت الدولة العثمانية دورًا متميزًا في الموازنة بين البلدان الأوروبية، كما كان له إسهام أيضًا في تشكيل أوروبا الحديثة.



لوحة بالألوان الزيتية تصور السلطان سليمان القانوني ممتطيا الحصان (مجموعة خاصة *"Harbrough"*)

ولم تكن الغزوات العسكرية التي خاضها السلطان سليمان ضد خصومه ومنافسيه في الشرق والغرب على مدار فترة حكمه فقط هي التي صنعت منه سلطانًا لا يُنسى، بل في الوقت نفسه كان للسياسات التي انتهجها على حدود دولته وفي محور الشرق والغرب دورٌ بارز في وصفه كأحد أهم وأشهر سلاطين الدولة العثمانية. ولقد طرحت هذه السياسة التي اتبعها السلطان سليمان فكرة التدخل لحل المسائل والقضايا السياسية العالمية في تلك الحقبة، حيث امتدت حتى أبعد حدود دولته. وبدأ تأثير العثمانيين يظهر جليًّا على الحدود البعيدة المنسية، والصحاري المقفرة، والبحار البعيدة نوعًا ما عن حدود الدولة. وامتد هذا التأثير من شمال إفريقيا وحتى الحبشة واليمن جنوبًا، وسهوب روسيا شمالًا، والهند شرقًا، وبولندا وأوساط أوروبا غربًا. ويجب علينا إضافة اهتمام الدولة العثمانية بالعالم الإسلامي السُنّي في مواجهة الدولة الصفوية الشيعية أيضًا. ونرى إمبراطورية مغول الهند وخانات آسيا الوسطى وسلاطين الهند المسلمين وقد حوّلوا أنظارهم إلى السلطان سليمان القانوني الذي كان يمثل بيرق الغزوات في الغرب. ومن الغريب أنه حتى الشاه "طهماسب" -الذي كان يعتبر من ألد أعداء السلطان سليمان- كان لا يذكر السلطان إلا بقوله "حضرة السلطان"، وقد أُعجب كثيرًا بغزواته الناجحة. وأشار الشاه إلى أنه لم يقدم على أي عمل عدائي ضد الدولة العثمانية خلال الغزوات التي كان السلطان سليمان يقوم بها ضد الدول النصرانية في الغرب، وذلك من قبيل الواجب الديني الذي كان يحتم عليه هذا التصرف.

لقد تبنّى السلطان سليمان مفهوم الدولة العالمية الشمولية، وسعى في تطبيقه على أرض الواقع بطريقة فعلية. ويمكننا القول إن السلطان سليمان تمتع بمكانة عظيمة بين حُكّام عصره مثل الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وأرشيدوق النمسا، والإمبراطور "فرديناند الأول"، وملكي فرنسا "فرانسوا الأول" و"هنري الثاني"، وملك إنجلترا "هنري الثامن"، وقيصر روسيا "إيفان الرهيب" في الغرب، والشاه "طهماسب"، و"همايون البابُري"، و"أكبر شاه" في الشرق لدرجة لا يمكن مقارنته وإنجازاته. ولقد شكلت الإصلاحات

الداخليـة وتبنيـه النمـوذج الكلاسـيكي للبيروقراطيـة وتعميـم أحـكام القانـون المصادرَ الرئيسية التي تغذّت عليها المبادرة الجديدة الخاصة بالسياسة الداخلية للدولة. وبدأ نظام مؤسسي جديد يطرأ على بيروقراطية الديوان والنظام العسكري للجيـش، وأُدخلت إجـراءات جديدة على نظام التيمـار (الإقطاعات) الذي كان يعتبر الوحدة الرئيسـية للبنية الكلاسـيكية للدولة العثمانيـة، وعُمّم نظام التحرير (التسـجيل)، كما أُخذت الإجراءات البيروقراطية ذات الصلة بهذا النظام شكلها النهائـي كذلـك في تلك الحقبة. وقد أسـهمت كافة هذه الإنجازات في تسـمية القرن السادس عشر بعصر السلطان سليمان القانوني إذا جاز التعبير.

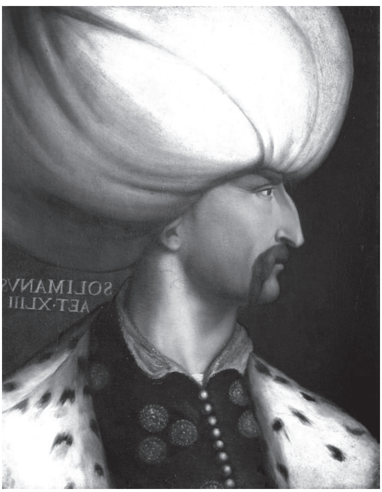
ولا يخفـى علينـا أن الحياة الاجتماعية شـهدت بعض التوترات بين الحين والآخـر التي لطالما وضعت من في السـلطة في مواقـف صعبة طيلة فترة حكم السلطان سليمان التي استمرت لنحو نصف قرن، وأن آثار هذه التوترات شكّلت المصـدر الأساسـي لكافة المشـاكل والسـلبيات التي عاشـتها الدولـة العثمانية فـي مراحلهـا التاليـة. ولقـد غابـت هـذه الحقائـق واختفـت فـي ظـل الـرؤى والتفسـيرات الرومانسـية التـي تنـاول بهـا المؤرخـون اللاحقـون هـذه الحقبة من تاريخ الإمبراطورية، إلا أنها في الوقت ذاته أعلنت عن نفسـها بشـكل جليّ لدرجـة جعلتهـا تتسـبب في نشـوب حالة مـن رد الفعـل المجتمعـي الغاضب والخفـي بسـبب الضغـوط الماديـة التـي تمخّضت عـن الغـزوات الطويلة التي قـام بهـا السـلطان، والتصلّـب الديني الناتـج عن الوقائـع السياسـية المتعددة، وتصرفـات الزمرة الإدارية بالدولة، هذا إلى جانب انعكاس آثار المشـاكل ذات الصلة بعلاقة السلطان بأبنائه والروابط الأسرية داخل القصر على عامة الشعب. وتلفت المشاكل التي تذكرها إحدى الرسائل التاريخية مجهولة المؤلف - والتي اعتُقـد أنها دُونت في القرن السـابع عشـر بالرغم من كونها تبـدو وكأنها كُتبت في أواسـط القرن السـادس عشـر إبان حكم السـلطان سـليمان - الانتباه كونها تتشـابه مـن حيـث المحتـوى مـع الرسـائل التي انتشـرت بشـكل كبيـر اعتبارًا مـن أواخر القرن السـادس عشـر وتناولت مشـاعر الشـوق والحنيـن إلى عصر السلطان سليمان بطريقة ساخرة.

ويمكن لما شرحه الصدر الأعظم "لطفي بَاشَـا" في كتابه "آصافنامه" أن يعطينـا نبذة حول أبعاد الفسـاد الذي سيطر على مفاصل الدولة، بالرغم من الوقائـع المبالغـة التـي ذكرها بصفته رجـل دولة عُزل مـن منصبه ما أصابه بمشاعر الانكسار والذل. وباختصار، يتعيّـن علينـا تثمين هـذه الحقبة التي طغـت عليهـا الانتصارات العسـكرية العظيمة بشـكل ملحـوظ بطريقة أكثر هدوءًا واتزانًا وموضوعية.



السلطان سليمان القانوني

وتصـف المصـادر التاريخيـة العثمانية والغربية في القرن السـادس عشـر السـلطان سـليمان بعبـارات تتشـابه مـع بعضهـا إلـى حـد مـا. فبنيـة السـلطان الفيزيائيـة معروفـة للجميـع بسـبب متابعـة المراقبيـن المحليين والأجانب لجميـع أنشـطته وفعالياتـه التـي مارسـها منـذ اعتلائه عرش السـلطنة. ونـرى تشـابهًا كبيرًا فـي الرسـومات التـي تصـور البنيـة الجسمانية للسلطان سليمان سواء في المنمنمات التي تؤرخ لجميع مراحل حياتـه، أو المنحوتـات التـي رسـمها الفنانـون الغربيـون الذين رأوه شـخصيًا. فلم يكن السـلطان يطلق لحيته في أيام شبابه كما كان يفعل والده، إلا أنه كان يطلق شاربه، ثم بعد ذلك أطلق لحيته.


لوحة للسلطان سليمان القانوني
(Dell'Altissimo)

ويصفه سفير البندقية عندما ارتقى إلى عرش الدولة العثمانية عام ١٥٢٠م بأنه شاب طويل القامة، ونحيف، إلا أنه قوي البنية، وذو وجه دقيق ونحيف، ولحية وشارب خفيفين، وودود، وحسن المحيّا، ناعتًا إياه بـ"اسم على مسمى".

ويصوره أحد الفرنسيين الذين رأوه في عام ١٥٤٢م بأنه طويل القامة، ونحيل الجسد، ونحيف، وأسمر البشرة، وعريض الجبهة، وعيناه كبيرتان وسوداوان، وذو أنف طويل ومقوس بعض الشيء، وذو شارب كثّ لونه مائل إلى الحمرة، وخفيف اللحية.



السلطان سليمان القانوني

ويروي سفير آخر من البندقية يصف السلطان سليمان في عام ١٥٥٣م بأنه اشتهر بالعدل وعدم الظلم لرعيته، مؤكدًا على أنه متمسكٌ بدينه أكثر من أجداده. وينقل مبعوث شريف مكة إلى إسطنبول "قطب الدين المكي" وصف السلطان سليمان الذي التقى به في الفترة ذاتها بأنه نحيف البنية، وذو وجه نوراني، وكبير في السن.

وتصف المصادر التاريخية العثمانية السلطان بأنه ذو وجه عريض وممتلئ، ومقرون الحاجب، وأشهل العينين، ومقوس الأنف، وأفلج الأسنان، وطويل القامة، وكان خفيف اللحية وكثّ الشارب في أول أيام حكمه. ويعرض لنا كتابا "سليمان نامه" للمؤلف "عارفي فتح الله شلبي" و"هنرنامه" للكاتب "سيد لقمان" صورًا عديدة تصور البنية الجسمانية للسلطان سليمان وأنشطته التي كان يقوم بها إبان حياته.

ويشير كتاب "سليمان نامه" إلى أن السلطان سليمان كان ماهرًا للغاية في استخدام السيف والقوس، ويذكر أنه كان بإمكانه اصطياد الحيوانات المتوحشة مثل الدببة، والجاموس المائي، والخنزير البري، وحتى النمور. ولقد استمر هوس السلطان بجولات الصيد حتى تردّت حالته الصحية وصار لا يقدر على امتطاء الجياد في آخر أيام حياته. وكما هو الحال بالنسبة لسلاطين عصره وحكامه، فقد أظهر السلطان سليمان عظمته وفخامته أمام شعبه بواسطة جولات الصيد التي جعلها وسيلة للتعبير عن شرعيته. وتعرّف السلطان على العديد من المناطق والأقاليم المختلفة من دولته بفضل خروجه في جولات الصيد والغزوات الطويلة، وشاهد الكثير من الأماكن في الشرق والغرب، وطاف بالمدن والقرى المختلفة. ويعتبر السلطان سليمان هو السلطان الأخير في سلسلة سلاطين الدولة العثمانية الذي اطلع بنفسه على كافة الخصائص الجغرافية لدولته التي صال وجال بها من أقصى حدودها الشرقية إلى أقصى حدودها الغربية.

إن كتابي "سليمان نامه" و"شاهنامه" اللذين أُلفا حول السلطان سليمان يبرزان شخصيته القيادية العسكرية. ومُدح السلطان بصفته السلطان الغازي، والحاكم العادل، والمدافع عن الإسلام وراعيه، وحامي الأدب والفن. ويشير الكتابان إلى أن السلطان سليمان في الوقت نفسه عُرف بأنه كان كريمًا للغاية، وأنيقًا، ومتواضعًا، ولديه نزعة درويشية، وأنه كان يضع عقيدته الدينية الخالصة في المقام الأول، وأنه كان يسير في الطريق الذي كان يؤمن به دون رياء، وأنه حتى بلغ مرتبة الأولياء عندما اقترب عمره من السبعين عامًا. وبإمكاننا نعت هذه الحالة التي عاشها السلطان سليمان بأنها انعكاس لحالته الصوفية في خضم البيئة النفسية التي خيّمت على تلك الحقبة مع انتشار شائعات تشير باقتراب يوم القيامة مع حلول العام ١٠٠٠هـ، إذ كان السلطان قد بلغ في تلك الأثناء من العمر عتيًّا.

وتظهـر اللوحـات التي رُسـمت فـي المؤلفات التـي ذكرناها آنفـا أن نمط السلطان النموذجي تجسَّد في شخص السلطان سليمان إن جاز التعبير.

ويعرّف مؤرخ القرن السـادس عشـر "جلال زاده مصطفى شـلبي" السلطان سـليمان بأنه "زُبدة آل عثمان"، ويشـدّد على ثلاث خصائص اشتهر بها السلطان على وجه التحديد:

أولها العدل.

وثانيا حماية الشعب والسعي على مصالحه.

وثالثها صفة الفاتح العالمي.

ومن المعروف أن السـلطان سـليمان كانت تراوده أحلام أن يصبح سلطانا عالميـا يخضـع لحكمـه مشـارق الأرض ومغاربها. وقد كلّـف الصدر الأعظم إبراهيـم بَاشَـا بالذهاب إلى البندقيـة لتجهيز تاج له على هيئة خـوذة ذات أربعة طوابـق تصـوره بصفتـه فاتحا عالميا عظيما. وارتدى السـلطان هـذا التاج الذي وصـل أَدِرْنَه في عام ١٥٣٢م وسـط حشـد من سـفراء الـدول الأجنبية، وحاول أن يظهر أمامهم أن هذا التاج يتفوق على تيجان البابا والإمبراطور.

وتنتشر قناعة بين مؤرخي تلك الحقبة أن السلطان سليمان كان ذا شخصية رصينة للغاية، ولم يكن يتخذ قراراته إلا بعد تفكير عميق ومشورة وزرائه وحتى عقْد مجالس استشـارية واسعة النطاق تضم الحكماء ورجال الدولة المحنكين. كما تشـير المصادر التاريخية إلى أنه كان يضـع مصالـح الدولة فوق كل اعتبار، وأنـه لـم يكن ليتراجـع عـن التضحية حتى بعائلته في سـبيل تحقيق تلك الغاية. وتطفو واقعتا إعدام ابنيه الأميرين مصطفى و"بايزيد" على السطح كأبرز الأمثلة علـى هـذه الصفة التي اتصف بها السـلطان. وكان مصطلحا "الصحة" و"الدولة" يشـكلان المبادئ الأساسـية لأسـلوبه في الحياة كما يخبر بذلك في بيت شـعر اشتهر عنه نورده فيما يلي:

"لا يوجد في العالم أي شيء معتبر كالدولة

ولا شيء يساوي حياة صحية"

ويُروى أن السلطان سليمان تلقّى تعليمًا جيدًا في سنين شبابه، كما أنه أتقن اللغتين العربية والفارسية، إضافة إلى قدرته على التحدث باللهجة التركية التتارية بسبب توليه شؤون إدارة إمارة "كَفَه". وتشير بعض المصادر التاريخية البندقية إلى أن السلطان كان على دراية حتى باللغات السلافية، إلا أن هذه الفرضية غير صحيحة. ويُذكر أنه بينما كان أميرًا على "مَانِيسَا" تأثر بالطريقة الهلفتية (السنبلية) بواسطة "مركز أفندي"، وأنه كان يحضر جلسات الذكر لشخصيات مثل "نور الدين زاده" و"أفتادة أفندي".

ويُعرف السلطان سليمان كذلك بشغفه بالشعر، إذ كان شاعرًا ماهرًا ومفوّهًا. وكان يستعير اسم "محبي (*Muhibbî*)" بدلا من اسمه في أشعاره، كما أن لديه ديوان شعر. ويشير هذا اللقب إلى أنه مرتبط بالله سبحانه وتعالى بصدق كالدرويش.

وأنه يعامل شعبه بطريقة ناعمة مليئة بالحب والشفقة. وقد ظهرت بعض الروايات تدعم الحب الذي كان يكنه السلطان تجاه رعيته. فتروي إحداها أنه كان جالسًا مع بعض رجاله المقربين ووجه إليهم سؤالًا قال فيه:

"من هو ولي نعمة العالم؟"

فأجابوه على الفور:

"بالطبع حضرة السلطان."

فبادرهم بقوله:

"لا، فولي نعمة العالم هو الفلاح، فهو يزرع ويحصد ما يزرعه ليزودنا بما نأكله ويشبع بطوننا".



منمنمة تصوّر السلطان سليمان القانوني مع مساعديْه

ومن الممكن أن تكون مثل هذه الحكايات قد اختلقت من أجل إسماعها إلى من جاءوا بعده من السلاطين لإظهار كيف كان عادلًا ومحبًا لشعبه، إلا أنها تحدد لنا ماهية "الأسطورة" التي انتشرت حول شخصيته.

لم يبخل السلطان سليمان قيد أنملة بشأن تكريم شعراء عصره ومكافأتهم بما يليق بصفته كحامٍ للأدب والمثقفين. وقد حاولت بعض المصادر أن تضفي صبغة صوفية على شخصية السلطان سليمان إلى جانب وصفه بأنه حامي الشعراء. وما ذكره هؤلاء من أن ترتيبه يعتبر العاشر بين سلاطين آل عثمان، وأنه عاش في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وأنه رُزق بعشرة أبناء (منهم طفلة لا يُعرف اسمها)، إضافة إلى تعيينه عشرة "صدر أعظم" أي: (رؤساء وزراء) في عهده؛ بما في ذلك تولّي "رستم بَاشَا" المنصب على فترتين منفصلتين، وتواجد عشرة من مسؤولي المالية والنشانجية (المسؤولون عن أختام السلطان وما إلى ذلك) البارزين في ديوانه، هذا إلى جانب عشرة علماء ومثلهم من الشعراء العظماء... كل هذا يعد قرائن واهية على انتمائة للصوفية الباطنية.

ولقد عاش في عصر السلطان سليمان العديد من العلماء والفقهاء الكبار أمثال "كمال بَاشَا زاده"، و"أبو السعود أفندي"، و"جلال زاده مصطفى شلبي"، و"صالح شلبي"، و"طاشكبري زاده أحمد أفندي"، و"قينالي زاده علي أفندي"، و"إبراهيم الحلبي" مؤلف كتاب "ملتقى الأبحر"، و"محيي الدين محمد قره باغي"،

و"عبد الله بن الشيخ إبراهيم الشبستري"، و"بيرجيفي". هذا إلى جانب عدد آخر من أبرز شعراء وأدباء الأدب العثماني مثل "باقي"، و"فضولي"، و"ذاتي"، و"خيالي بَكْ"، و"طاشليجالي يحيى"، و"لمعي شلبي"، إذ أولى السلطان اهتمامًا بالغًا بدعم هؤلاء العلماء والشعراء والأدباء ماديًّا ومعنويًّا.

ومن المعلوم أن السلطان سليمان كان شغوفًا أيضًا بعقْد المناقشات العلمية في القصر في العديد من المناسبات، إذ كان يمنح من يشارك في هذه المناقشات مكافآت مادية كبيرة. كما أن تأليف وترجمة العديد من المؤلفات باسمه توضح لنا إلى أي مدى اهتم السلطان بعالم الثقافة والمطالعة. وتشكّل سلسلة كتب التاريخ التي كُتبت حول حياته وإنجازاته سلسلةً خاصة حملت اسم "سليمان نامه".

لقد شكّلت العلاقات الداخلية للأسرة الحاكمة في عصر السلطان سليمان القانوني النماذج الأولى للمظهر الكلاسيكي لأسرة السلطان العثماني في المراحل التالية. فأبناؤه من زوجتيه "مَاهِي دَوْرَانْ" و"خُرّم سلطان". وعندما اعتلى عرش السلطنة كان ثلاثة من أبنائه المعروفين على قيد الحياة، وعلى الأرجح أنهم كانوا من زوجته "مَاهِي دَوْرَانْ". واثنان من هؤلاء هما "مراد" و"محمود"، وكلاهما وافته المنية في عام ١٥٢١م، وبقي ابنه الآخر مصطفى الذي كان يبلغ من العمر ست سنوات حينها. وفي العام التالي أنجبت زوجته "خُرّم سلطان" أول أبنائه منها. وكان للسلطان سليمان ما بين عامي ١٥٢٢ -١٥٣١م خمسة أبناء ذكور وبنت. وهؤلاء هم محمد، و"مهرماه"، و"عبد الله" الذي مات في سن صغيرة، و"سليم"، و"بايزيد"، و"جهانكير". وبهذه الطريقة بدأ ارتباط السلطان سليمان بزوجته "خُرّم" يزداد يومًا بعد يوم اعتبارًا من عام ١٥٢٢م، وهو ما دفعه لعقْد زواج رسمي عليها وهو ما كان مخالفًا للعادات العثمانية آنذاك. وتذكر بعض المصادر التاريخية البندقية أن السلطان أعلن عن عقْده نكاحًا رسميًّا على زوجته "خُرّم" على الشعب، إلا أن الناس لم يستسيغوا الأمر، مؤكّدًا أن هذا الوضع كان هو السبب الرئيسي في مشاعر

الكره التي كان يكنها عامة الشعب إلى "خُرّم". وكان عقد الزواج هذا هو الأول مـن نوعه أن يتزوج سـلطان عثماني من جارية بشـكل رسـمي. وكمـا رأينا فإن الصـراع الخفي داخـل القصر قد لعب دورًا محوريًّا في تكوين أطراف سياسـية متنازعة مع مرور الوقت. ولقد شـكّل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَـا -الذي كان زوجًـا لابنة السـلطان- وزوجة السـلطان "مَاهِي دَوْرَانْ" وابنهـا الأمير مصطفى حزبين رئيسـيين داخل القصر في السـنوات الأولى من تولّي السـلطان سـليمان الحكـم. لكـن هنـاك ادّعـاءات تؤكّـد أن هذين الحزبيـن اتحـدا لمواجهة خطر "خُرّم سـلطان" مع بزوغ نجمها، وأن ذلك أفضى إلى نشـوب حالة من الصراع المتواصل داخل القصر مما أزعج السـلطان كثيرًا. ويمكن الربط بين واقعة قتل إبراهيم بَاشَـا وبين هذا الصراع. وتعتبر الرسـائل التي بعثتها "خُرّم" إلى السلطان سليمان بينما كان في غزوة العراقيْن إشارة صريحة بشأن تحول الحب الذي كان يجمعهما إلى نتائج سياسية.

وفي شـهر تشـرين الأول/أكتوبـر عام ١٥٣٣م خرج الأميـر مصطفى لتولّي شـؤون إحـدى الإمـارات، وكانـت العـادات المتبعـة وقتهـا أن ترافقـه والدتـه في هذه الرحلة، وهو ما جعل من "خُرّم" هي القوة الوحيدة المسيطرة في القصر. ولعل تواجد والدة السلطان "حفصة سلطان" في القصر وازن بين قوى الأطراف المتنازعـة بعـض الشـيء، إلا أنه بعـد وفاتها عـام ١٥٣٤م وإعدام إبراهيم بَاشَـا فـي وقـت لاحق على ذلـك التاريخ، أصبحت "خُرّم" هي الطـرف الفائز في هذا الصـراع. وعلـى عكـس المتبـع، لم تذهـب "خُـرّم" بصحبة ابنهـا الأمير محمد إلى إمارته التي تولّى شؤونها، بل مكثت في القصر إلى جانب زوجها السلطان.

ثم بعد ذلك صارت هي وابنتها "مهرماه" وزوجها "رستم بَاشَا" حزبًا سياسيًّا ذا تأثيـر كبير على السـلطان، بحيث تولّـت "مهرماه" دور والدتها بعد وفاتها عام ١٥٥٨م. ويؤكّـد معظـم مؤرخـي التاريخ العثمانـي أن هذا الحـزب لعب دورًا هامًـا فـي واقعـة إعدام الأميـر مصطفى. كما وُجّهـت أصابع الاتهام للسـلطان سليمان بالخضوع لتأثير هذا الحزب. إلا أن السلطان قد اتخذ لنفسه مبدأ بتقوية

"الأسـرة الحاكمة" على عكس أجداده. ذلك لأنه هو مَنْ جعل من تعيين أزواج بنـات السـلطان في منصب الصدارة العظمى جزءًا لا يتجـزّأ من عادات القصر. فقد تزوج كلٌّ من "لطفي بَاشَـا" و"قارا أحمد بَاشَـا" من شـقيقتيه (شـاه سـلطان، فاطمة)، و"رسـتم بَاشَـا" بابنتـه "مهرماه"، وآخِـر اثنين تولّيـا المنصب في عهده "سـميز علي بَاشَـا" و"سُـوكُولّو محمد بَاشَـا" بحفيدتيه (هماشـاه (*Hümâşah*)، إسـميحان (*İsmihan*)). كما رجّح السلطان توطيد السلطة في عهده عبر تزويج أربــع من بنات ابنه "سـليم" وإحدى بنات ابنه محمد بـوزراء ديوانه. ولقد انتقد "كوتشـي بَـكْ" هذه القـرارات التـي اتخذهـا السـلطان بتزويج بناته وشـقيقاته وحفيداتـه بوزرائـه. وبإمكاننا أن نقول إن هذه القـرارات مهّدت الطريق لتكوين موازين سياسية جماعية داخل القصر مثل الوزراء الأصهار، ووالدات السلاطين وزوجاتهم.

لقـد اتخـذ السـلطان سـليمان مبـدأ توسـيع القوانيـن القائمـة وتعميمهـا من أجل إمكانية إدارة شـؤون الدولة في إطار نظام عادل. ونرى أن المسـودات القانونيـة العامة التي حملت اسـمه سـينُظر إليها في العهـود التالية وكأنها دُونت فـي عصـره. وظهر لقب "القانوني" الذي أُطلق على السـلطان سـليمان في تلك الحقبـة كصفـة متلازمة لهـذه الإصلاحات التي أقـدم على تنفيذهـا إبان حياته. وبإمكاننـا أن نشـاهد المجلـدات القانونيـة التـي نشـرها "محمـد عـارف بَـكْ" والتي يوجد العديد من نسـخها في المكتبات، إذ يرى "عارف بَكْ" أن من حرّر هذه المجلدات هو النشـانجي الأول في عصر السـلطان "سيدي بَكْ". وبإمكاننا أن نصـادف فـي معظم مجلدات القوانين المؤلفة في ذلك العصر أسـماء شـيخ الإسـلام "كمـال بَاشَـا زاده" و"أبـو السـعود أفنـدي" والنشـانجي "جـلال زاده مصطفـى شـلبي". وبالإضافـة إلى هذه المجلـدات، يمكن الإطـلاع على كيفية تطبيـق القوانيـن علـى كافة الولايـات من الأحـكام المدرجة في دفاتـر التحرير التي تتضمن تعداد السـكان والموارد الاقتصادية المسـجلة من أجل قيد بيانات الأراضـي. وفـي الواقـع، كان الولاة العثمانيون في عهد السـلطان سـليمان عند

فتح الممالك يضعون عادات شعوب تلك الممالك وتقاليدهم في المقام الأول عند سن القوانين المنظمة لشؤون حياتهم. كما أنهم كانوا يسمحون للعمل بالأنظمة والقوانين القديمة لهذه البلاد ولو لفترة من الوقت. وبإمكاننا مصادفة عدد من العبارات التي تدل على ذلك في القوانين العثمانية المطبقة في المَجَر على سبيل المثال، ومنها "... العادات المتبعة منذ عهد الملوك" أو "... نرجو رعاية جملة الأحوال الخاصة بقانون الملوك المعمول به في الممالك المفتوحة بناءً على طلب سكان تلك الولايات". إلا أن رعاية الدولة العثمانية لعادات البلاد المفتوحة وتقاليدها وأشكال جباية الضرائب التي اعتادت عليها شعوب تلك البلاد كانت تحمل أهمية أكبر بالنسبة لهم من فكرة تعديل الأحكام القديمة لهذه البلاد وإصلاحها تدريجيا عند الضرورة من أجل توحيد نظام عام في جميع ولايات الدولة في نهاية فترة طويلة من المسايرة. ويتضمن سجل قوانين السلطان سليمان الذي شرحنا ماهيته أعلاه ثلاثة أقسام رئيسية وأقساما إضافية وهي قوانين الضرائب والغرامات، والأحكام القانونية ذات الصلة بالرعيّة وطبقة الجنود. ولقد اكتسبت القوانين المتعلقة بالموضوعات المالية والقضائية على وجه الخصوص صفة أكثر وضوحًا في هذا العصر.

وتشمل هذه القوانين السجلات القانونية والمالية لأصحاب الإقطاعيات والأطيان وعامة الشعب. وينقسم هذا السجل القانوني إلى أربعة فصول، إذ خُصص الفصل الأول لجرائم الزنا، والمشاجرات، وحوادث القتل، وشرب الخمر، والغصب والسرقة وما إلى ذلك. وأما الفصلان الثاني والثالث فيشملان الموضوعات المالية، وهما أكبر فصلين في هذا السجل القانوني. ويتضمن هذا الفصلان عددًا من الأحكام القانونية ذات الصلة بتعريف أصحاب الإقطاعيات، والمسؤوليات العسكرية والمالية، والفرسان، والمزارعين من طبقة المشاة، والبدو والرحل، والرسوم والضرائب المحصلة من أراضي الولايات ومحاصيلها، ورسوم الجمارك، وضرائب المراعي والمروج والحيوانات، والأحكام المخصصة لبعض الولايات المتميزة.

اشـتهر السـلطان سـليمان علـى مدار سـنوات حكمه الطويلـة بحبه للخير واهتمامـه بالأعمـال الخيرية والوقفية حتى شـهد عهده إنشـاء العديد من الآثار التاريخية الخالدة. وتأتي الجوامع والكليات التي كلّف المعمار الشـهير "سـنان بَاشَـا" بإنشـائها فـي مقدمة هذه الأعمـال التاريخية الرائعة. ولم يهمل السـلطان سـليمان إبـراز عظمـة دولتـه بواسـطة الأبنيـة التاريخيـة التـي كلّـف ببنائها في إسطنبول. ويعتبر جامع "السليمانية" وكليته من أبرز الأمثلة على تلك المنشآت الفخمة. وقد أُلحقت مدرسـة بهذا الجامع لتكون أساسًـا لنظام تعليمي عثماني جديد. كما أن السـلطان سـليمان أمر بإكمال بناء جامع السـلطان "سليم" الذي كان والـده قد كلّـف ببنائه قبل وفاته. ويمكننا ذكر الجوامع والمنشـآت الوقفية التي أمر بإنشـائها السـلطان سليمان باسـم ابنيْه محمد و"جهانكير" على أنها من أهم الأمثلة على هذه الحركة المعمارية التي قادها. كما نسـتطيع إضافة المزيد من الآثار التاريخية التي أمر السلطان سليمان بإنشائها لتحمل أسماء أفراد عائلته مثـل جامعيْ "أَدِرْنَه قابي" و"أُوسْـكُودَارْ" باسـم ابنته "مهرماه سـلطان"، وجامـع "هاسـكي" وكليته باسـم زوجته "خُرّم سـلطان". وتعدّ قنوات مياه "قيرق جشمه (*Kırkçeşme*)" الموجـودة فـي إسـطنبول من بين المنشـآت التـي بُنيت في عهد السـلطان سـليمان. كما يعتبر جسـر "بُويُوكْ جَكْمَجَه (*Büyükçekmece*)" الذي كلّف المعمار "سـنان بَاشَـا" بإنشـائه من الآثار المعمارية الخالدة. وإلى جانب تلك الأعمال، تلفت انتباهنا حركة الإعمار والبناء التي اكتسبت سرعة كبيرة في عدد من الولايات العثمانية في عهد السـلطان. وعلى سـبيل المثال نذكر ضريح الإمـام الأعظـم والجامع الذي أُنشـئ بجـواره في بغداد، وضريـح "عبد القادر الجيلانـي" وجامعـه كذلك، وجامــع ذي مئذنتين بجوار ضريـح "مولانا جلال الدين الرومي" في قونيا، وقسم خاص لراقصي الرقصات الصوفية من الدراويش ومبنى وقفي، إلى جانب تكية كبيرة وجامع في إمارة "سيد غازي"، وجامع كبير ووقـف في دمشـق. كما تم تحويل عدد كبير من الكنائـس الموجودة في المدن المفتوحة إلى جوامع تحمل اسمه. ومن المعروف عن السلطان سليمان أنه أمر بترميم المسجد الأقصى وجامع قبة الصخرة في القدس، والحرم المكي، إضافة إلى خدمات الإعمار والتطوير في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

المراجع

ماطراقجي ناصوح، سليمان نامه، مكتبة آثار إسطنبول، رقم: ٣٧٩.

Matrakçı Nasu, Süleymannâme, İstanbul Arkeoloji Ktp., nr. 379;

حياة ماطراقجي ناصوح وكتابه "سليمان نامه": ١٥٢٠-١٥٣٧م (إعداد: داود أركان، رسالة ماجستير، ٢٠٠٥م)، معهد الدراسات التركية بجامعة مرمرة.

Matrâkçı Nasûh'un Süleyman-namesi: 1520-1537 (haz. Davut Erkan, yüksek lisans tezi, 2005), MÜ Türkiyat Araştırmaları Enstitüsü;

ابن كمال، تواريخ آل عثمان، الدفتر العاشر، نشر: شفاء الدين سيفيرجان، أنقرة ١٩٩٦م.

İbn Kemal, Tevârîh-i Âl-i Osmân, X. Defter, nşr. Ş. Severcan, Ankara 1996;

ب. كوريبسشيتز، يوميات رحلة: ١٥٣٠ (ترجمة: أوزدمير نوطقو)، أنقرة ١٩٧٧، صفحة: ٤٤-٤٨.

B. Curipeschitz, Yolculuk Günlüğü: 1530 (trc. Özdemir Nutku), Ankara 1977, s. 44-48;

"سياحتنامه غازي ومكي من الرحالة العرب الذي طافوا الأناضول في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي"، (ترجمة: أكرم كامل)، مجلة ندوة التاريخ، I/٢، إسطنبول ١٩٣٢م، صفحة: ٥٥، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٨.

" Hicrî Onuncu-Miladî On Altıncı Asırda Yurdumuzu Dolaşan Arap Seyyahlarından Gazî ve Mekkî Seyahatnamesi," (trc. Ekrem Kamil), Tarih Semineri Dergisi, I/2, İstanbul 1932, s. 55, 71, 72, 76, 78;

الأيوبي، مناقب السلطان سليمان: رسالة السلطان (إعداد: محمد آقوش)، أنقرة ١٩٩١م.

Eyyûbî, Menâkıb-ı Sultan Süleyman: Risâle-i Pâdişâhnâme (haz. Mehmet Akkuş), Ankara 1991;

أسير مُوهَاجْ: بارثولوميوس جيورجيفتش (١٥٠٥ - ١٥٦٦م) وكتاباته عن الأتراك (إعداد: ن. ملك آقصولو)، أنقرة ١٩٩٨م، صفحة: ٥٦، وانظر النوع - المكان.

Mohaç Esiri: Bartholomaeus Georgievic (1505-1566) ve Türklerle İlgili Yazıları (haz. N. Melek Aksulu), Ankara 1998, s. 56, ayrıca bk. tür.yer.;

عارفـي فتح الله شـلبي، سـليمان نامه، مكتبة متحف قصر "طُـوبْ قَابي"، الخزينة، رقم: ١٥١٧.

Ârifî Fethullah Çelebi, Süleymannâme, TSMK, Hazine, nr. 1517;

جـلال زاده، طبقـات الممالك ودرجات المسـالك، نشـر: ب. كابرت، فيسـبادن، ١٩٨١م.

Celâlzâde, Tabakatül-memâlik ve derecâtü'l-mesâlik, nşr. P. Kappert, Wiesbaden 1981;

بوسـطان شـلبي، سليمان نامه، مكتبة متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، قصر روان، رقم: ١٢٨٦؛ مكتبة السليمانية، آيا صُوفْيَا، رقم: ٣٣١٧.

Bostan Çelebi, Süleymannâme, TSMK, Revan Köşkü, nr. 1286; Süleymaniye Ktp. Ayasofya, nr. 3317.

رمضـان زاده محمـد شـلبي، تاريـخ النشـانجي، إسـطنبول ١٢٧٩هـ، صفحـة: ٢٠٥-٢٨٦.

Ramazanzâde Mehmed Çelebi, Târîh-i Nişancı, İstanbul 1279, s. 205-286;

تواريـخ آل عثمـان (مجهول المؤلف) (نشـر: ف. جيسـه، إعداد: نهـاد أزامات)، إسطنبول ١٩٩٢م، صفحة: ١٤٠ - ١٥٣.

Anonim Tevârîh-i Âl-i Osmân (nşr. F. Giese, haz. Nihat Azamat), İstanbul 1992, s. 140-153;

لطفي بَاشَا، التاريخ، إسطنبول ١٣٤١هـ، صفحة: ٢٩٣ - ٤٥٥.

Lutfi Paşa, Târih, İstanbul 1341, s. 293-455;

ــــــــــ، آصافنامـه، (نشـر: مباهـات س. كوتوك أوغلو، هدية إلى بروفيسـور. دكتور: بكير كوتوك أوغلو)، إسطنبول ١٩٩١م، صفحة: ٥٨ - ٩٩.

a.mlf., Âsafnâme (nşr. Mübahat S. Kütükoğlu, Prof. Dr. Bekir Kütükoğlu'na Armağan içinde), İstanbul 1991, s. 58-99;

سـيد مـرادي، البحـر المتوسـط كان ملكنا: غزوات خيـر الدين بَاشَـا، وثيقة إدارة واحدة. اي. دوزداغ، إسطنبول ١٩٩٠م، صفحة: ٣٤٤ - ٢٤٩.

Seyyid Muradi, Akdeniz Bizimdi: Gazavat-ı Hayreddin Paşa, sad. E.Düzdağ, İstanbul 1990, s. 344-249.

فريدون بَكْ، نزهة الأسرار والأخبار في غزوة سيكتوار، مكتبة متحف قصر "طُوبْ قَابِي"، الخزينة، رقم: ١٣٣٩، نسخة: *9b - 45b*

Feridun Bey, Nüzhetü'l-esrâri'l-ahbâr der Sefer-i Sigetvar, TSMK, Hazine, nr. 1339, vr. 9b-45b;

"يوميات غزوة بَلْغِرَاد" (فريدون بَكْ، منشــأة السلاطين، إسطنبول ١٢٧٤هـ، الجزء الأول)، صفحــة: ٥٠٠ - ٥٠٧؛ "يوميــات غــزوة رودس" (المرجــع ســالف الذكــر)، صفحــة: ٥٢٩ - ٥٤٠؛ "يوميــات غــزوة مُوهَــاجْ" (المرجــع ســالف الذكــر)، صفحة: ٥٥٤ - ٥٦٦؛ "يوميات غزوة ألامان" (المرجع ســالف الذكر)، صفحة: ٥٧٧ - ٥٨٤؛ "يوميات غزوة العراقيْن" (المرجع سالف الذكر)، صفحة: ٥٨٤ - ٥٩٨؛ "يوميات غزوة بوليــا" (المرجع ســالف الذكر)، صفحــة: ٥٩٩ - ٦٠٠؛ "يوميات غزوة مولدوفا البرية" (المرجع سالف الذكر)، صفحة: ٦٠٢ - ٦٠٣.

"Belgrad Seferi Rûznâmesi"(Feridun Bey, Münşeâtü's-Selâtîn, İstanbul 1274, I içinde), s. 500-507; "Rodos Seferi Rûznâmesi"(a.e. içinde), s. 529-540; "Mohaç Seferi Rûznâmesi" (a.e. içinde), s. 554-566; "Alaman Seferi Rûznâmesi" (a.e. içinde), s. 577-584; "Irakeyn Seferi Rûznâmesi"(a.e. içinde), s. 584-598; "Pulya Seferi Rûznâmesi" (a.e. içinde), s. 599-600; "Kara Boğdan Rûznâmesi" (a.e. içinde), s. 602-603;

طهماســب، تذكِــرة، (ترجمة: حجابــي قيرلانجيتش)، إســطنبول ٢٠٠١م، النوع - المكان.

Tahmasb, Tezkire (trc. Hicabi Kırlangıç), İstanbul 2001, tür.yer.;

مجدي، ترجمة الشقائق، الأول، ٤٣٩.

Mecdî, Şekaik Tercümesi, I, 439;

و. ج. دي بوســبك، الخطابات التركية (ترجمة: حســين جاهد يالجين)، إسطنبول ١٩٣٩م، النوع - المكان.

O. G. de Busbecq, Türk Mektupları (trc. H. Cahit Yalçın), İstanbul 1939, tür.yer.;

الســلطان ســليمان القانوني وإبراهيم بَاشَا الفرنجي بحســب تقارير سفير البندقية، (ترجمة: ب. جوكبار - ي. إيركوليني، إسطنبول ٢٠١٢م.

Venedik Elçi Raporlarına Göre Kanuni ve Pargalı İbrahim Paşa, trc.P. Gökpar-E. Ercolini, İstanbul 2012,

السلطان سليمان القانوني والأمير مصطفى بحسب تقارير سفير البندقية، (ترجمة: ب. جوكبار - ي. إيركوليني، إسطنبول ٢٠١٢م.

Venedik Elçi Raporlarına Göre Kanuni ve Şehzade Mustafa, trc.P. Gökpar-E. Ercolini, İstanbul 2012,

مصطفى السلانيكي، تاريخ السلانيكي (إيبشيرلي)، الأول، ١ – ٥٤.

Selânikî, Târih (İpşirli), I, 1-54;

لقمـان ب. حسـين، هنرنامـه، مكتبـة متحـف قصـر "طُـوبْ قَابِـي"، الخزينـة، رقم: ١٥٢٤، الثاني، نسخة: *1a - 154b*

Lokman b. Hüseyin, Hünernâme, TSMK, Hazine, nr. 1524, II, vr. 1a-154b;

ــــــــــ، زبـدة التواريـخ، مكتبـة متحـف الآثـار التركيـة والإسـلامية، رقم: ١٩٧٣م، نسخة: *46b – 73b*.

________, Zübdetü't-tevârîh, TİEM Ktp., nr. 1973, vr. 64b-73b;

ــــــــــ، كيافـة الإنسـانية فـي شـمائل العثمانيـة، إسـطنبول ١٩٨٧م (الطبعة ذاتها) نسخة:*48b. 50a-b*

________, Kıyâfetü'l-insaniyye fî şemâili'l-Osmâniyye, İstanbul 1987 (tıpkı basım), vr. 48b, 50a-b;

كتـاب مصالح المسـلمين ومنافع المؤمنين (إعداد: ياشـار يوجَل، المصادر ذات الصلة بنظام الدولة العثمانية)، أنقرة ١٩٨٨م، صفحة: ٩٣ – ١٤١.

Kitâbü Mesâlihi'l-müslimîn ve menâfii'l-mü'minîn (haz. Yaşar Yücel, Osmanlı Devlet Teşkilâtına Dair Kaynaklar içinde), Ankara 1988, s. 93-141;

بَجُويْلُو إبراهيم (البيتشي)، تاريخ، الأول، ٢ – ٤٣٧.

;Peçuylu İbrâhim, Târih, I, 2-437

ي. ألبيـري، تقاريـر سـفراء البندقية إلى مجلس الشـيوخ، السلسـلة ٣، فلورنسـا، ١٨٤٠ – ١٨٥٥، الثالث / ١، صفحة: ٧٠ – ٧٥؛ الثالث / ٣، صفحة: ١٦٠ – ١٦٥.

E. Albèri, Relazioni degli ambasciatori veneziani al Senato, seri 3, ;Frienze 1840-55, III/1, s. 70-75; III/3, s. 160-165

تقاريـر سـفراء البندقية إلـى مجلس الشـيوخ، المجلد ١٤، علاقات القسـطنطينية الجديـدة، ١٥١٢ – ١٧٨٩ (إعـداد: م. ب. بيدانـي)، بادوفـا ١٩٩٦م، صفحـة: ٣٢ – ١٣١.

Relazioni di ambasciatori veneti al Senato, vol. XIV, Constantinopoli relazioni inedite, 1512-1789 (ed. M. P. Pedani), Podava 1996, s. 32-131;

ج. تشيسـنياو، رحلة السـيد أرامون (نشـر: تشي. سـكيفر)، باريس ١٨٨٧م، النوع – المكان.

J. Chesneau, Le voyage de monsieur d'Aramon (nşr. Ch. Schefer), Paris 1887, tür.yer.;

أربـع سـنوات من تاريـخ تركيـا ١٥٥٢ - ١٥٥٦م (ترجمة: أ. قوروتلـو أوغلو)، إسطنبول، تصنيف، النوع - المكان.

Türkiye'nin Dört Yılı 1552-1556 (trc. A. Kurutluoğlu), İstanbul, ts., tür.yer.;

زينكيزين، التاريخ، الثاني، ٦١١ - ٩٣٦؛ الثالث، ١ - ١٣٠.

Zinkeisen, Geschichte, II, 611-936; III, 1-130;

هامر (عطا بَكْ)، الخامس، وكذلك انظر: النوع - المكان، السادس: ١ - ١٨١

Hammer (Atâ Bey), V, ayrıca bk. tür.yer.; VI, 1-181;

ن. جورجـا، تاريـخ الإمبراطوريـة العثمانيـة، ترجمـة: ن. ايتبشـلي، تحريـر: ك. بيديللي، إسطنبول ٢٠٠٥، الثاني، ٢٨٩ - ٣٧٦؛ الثالث، ١٩ - ١٢٢.

N.Jorga, Osmanlı İmparatorluğu Tarihi, trc. N.Epçeli, ed.K. Beydilli, İstanbul 2005, II, 289-376; III, 19-122.

دانشمند، التسلسل الزمني، الثاني، ٥٩ - ٣٦٠.

Danişmend, Kronoloji, II, 59-360;

أوزون تشارشيلي، التاريخ العثماني، الثاني، ٣٠٧ - ٤٢٠.

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II, 307-420.

م. تشـاغطاي أولوشـاي، رسـائل الحب إلى سـلاطين الدولة العثمانية، إسطنبول ١٩٥٠م، صفحة: ٥ - ٤٧.

M. Çağatay Uluçay, Osmanlı Sultanlarına Aşk Mektupları, İstanbul 1950, ;s. 5-47

ـــــــــــ، "بعـض الملاحظـات والوثائـق المتعلقة بالسـلطان سـليمان القانوني وعائلته"، هدية القانوني، أنقرة ١٩٧٠م، صفحة: ٢٢٧ - ٢٥٨.

________, "Kanuni Sultan Süleyman ve Ailesi ile İlgili Bazı Notlar ve Vesikalar,"Kanuni Armağanı, Ankara 1970, s. 227-258,

ـــــــــــ، زوجات السلاطين وبناتهم، أنقرة ١٩٨٠م، صفحة: ٣٤ - ٣٩.

________, Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara 1980, s. 34-39;

هـ. لامب، سليمان العظيم: سلطان الشرق، نيويورك ١٩٥١م.

H. Lamb, Suleiman the Magnificent: Sultan of the East, New York 1951;

ن. أحمد أسـرار، السياسـة الدينية والعالم الإسـلامي في عهد السـلطان سـليمان القانوني، إسطنبول ١٩٦٠م.

N. Ahmet Asrar, Kanunî Sultan Süleyman Devrinde Osmanlı Devletinin Dinî Siyaseti ve İslâm Âlemi, İstanbul 1960;

ي. موغول، عصر سليمان القانوني، أنقرة ١٩٨٧م، صفحة: ١٨٠ - ٢٠٠.

Y. Mughul, Kanuni Devri, Ankara 1987, s. 198-200.

حسين غازي يوردايدن، صعود القانوني إلى العرش وأولى غزواته، أنقرة ١٩٦١م.

Hüseyin Gazi Yurdaydın, Kanuni'nin Cülusu ve İlk Seferleri, Ankara 1961;

رينزو سـيرتولي سـاليس، سـليمان العظيـم (ترجمة: شـرف الدين تـوران)، أنقرة ١٩٦٣م.

Renzo Sèrtoli Salis, Muhteşem Süleyman (trc. Şerafettin Turan), Ankara 1963;

سـماوي أيسـه، "السلطان سـليمان القانوني بعين رسّـام أوروبي"، هدية القانوني، صفحة: ١٢٩ - ١٧٠.

Semavi Eyice, "Avrupalı Bir Ressamın Gözü ile Kanuni Sultan Süleyman," Kanunî Armağanı, s. 129-170;

م. أرطغرول دوزداغ، حياة الأتراك في القرن السـادس عشـر في ضوء فتاوى شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، إسطنبول ١٩٧٢م.

M. Ertuğrul Düzdağ, Şeyhülislâm Ebussuud Efendi Fetvaları Işığında 16. Asır Türk Hayatı, İstanbul 1972;

أ. س. شـاندلينجر، المراسـلات بين السلطان سـليمان القانوني والإمبراطور كَارْل الخامس وفرديناند الأول وماكسيمليان الثاني، فيينا ١٩٨٣م، الأول - الثاني.

A. C. Schaendlinger, Die Schreiben Süleymåns des Prächtigen and Karl V., Ferdinand I. und Maximilian II, Wien 1983, I-II;

ج. بروشـازكا - ايسـل - س. روميـر "*Osmanische Beamtenzchreiben und Privatbriefe der Zeit Süleymans des Prachtigen aus dem Haus*" المحاكـم وأرشيف الدولة في فيينا، فيينا ٢٠٠٧م.

أ. كلوت، سليمان العظيم، باريس ١٩٨٣م.

A. Clot, Soliman le magnifique, Paris 1983;

أسـين أتيل، عصر السـلطان سـليمان القانوني، نيويورك ١٩٨٧م؛ الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني (تحرير: تولاي دوران)، إسطنبول ١٩٨٨م، الأول - الثاني..
Esin Atıl, The Age of Sultan Süleyman the Magnificent, New York 1987; The Ottoman Empire in the Reign of Süleyman the Magnificent (ed. Tülay Duran), İstanbul 1988, I-II;

عهد السلطان سليمان القانوني (تحرير: ج. فينستين)، باريس ١٩٩٢م.
Soliman le magnifique et son temps (ed. G. Veinstein), Paris 1992;

السـلطان سـليمان الثانـي وعصـره، (تحريـر: خليـل إيناجليـق - جمال قفـادار)، إسطنبول ١٩٩٣م.
Süleymân the Second and his Time (ed. Halil İnalcık-Cemal Kafadar), İstanbul 1993;

السـلطان سـليمان القانوني وعصره: العالم العثماني في العصر الحديث (تحرير: متين كونت - س. وودهيد، ترجمة: سرمات يالجين)، إسطنبول ٢٠٠٢م.
Kanuni ve Çağı: Yeniçağda Osmanlı Dünyası (ed. Metin Kunt-C. Woodhead, trc. Sermet Yalçın), İstanbul 2002;

سليمان العظيم (تحرير: أوزلم كومرولار)، إسطنبول ٢٠٠٧م.
Muhteşem Süleyman (ed. Özlem Kumrular), İstanbul 2007;

شـرف الديـن تـوران، واقعـة الأميـر "بايزيـد" ابـن السـلطان سـليمان، أنقرة ١٩٦١م.
Şerafettin Turan, Kanunî'nin Oğlu Şehzâde Bayezid Vak'ası, Ankara 1961;

ـــــــــ، "مـن فتـح رودس إلـى حصـار مالطا"، هديـة القانوني، أنقـرة ١٩٧٠م، صفحة: ٧٩ - ١٠٩.

________, "Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına,"Kanuni Armağanı, Ankara 1970, s. 79-109

ك. سيتون، البابوية وبلاد الشام، فيلادلفيا ١٩٨٤م، الثالث، ٣١٢ - ٣٤٥.
K.Setton, The Papacy and The Levant, Philadelphia 1984, III, 312-345

العلاقات المَجَرية - العثمانية العسـكرية والدبلوماسـية في عهد السلطان سليمان القانوني (تحرير: ج. ديفيد - ب. فودور)، بودابست ١٩٩٤م.
Hungarian-Ottoman Military and Diplomatic Relations in the Age of Süleyman the Magnificent (ed. G. David-P. Fodor), Budapest 1994;

ل. ب. بيرس، الحرم السلطاني: الحكم والنساء في الدولة العثمانية (ترجمة: عائشة بيركطاي)، إسطنبول ١٩٩٦م، صفحة: ٨٧ - ٩١، ٩٦ - ١٢٠.

L. P. Peirce, Harem-i Hümayun: Osmanlı İmparatorluğu'nda Hükümranlık ve Kadınlar (trc. Ayşe Berktay), İstanbul 1996, s. 87-91, 96-120;

زيتب تاريم - إيرطوغ، مراسم اعتلاء العرش والجنازة في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، أنقرة ١٩٩٩م، صفحة: ٤٧ - ٥٦، ١٠٠ - ١٣٠.

Zeynep Tarım-Ertuğ, Onaltıncı Yüzyıl Osmanlı Devleti'nde Cülûs ve Cenaze Törenleri, Ankara 1999, s. 47-56, 100-130,

فَرِيدُون أَمَجان، "عصر السلطان سليمان القانوني"، تاريخ الإسلام الكبير من المهد إلى اليوم، إسطنبول ١٩٨٩م، العاشر، *313 - 382*

Feridun M. Emecen, "Kanuni Sultan Süleyman Devri,"Doğuştan Günümüze Büyük İslâm Tarihi, İstanbul 1989, X, 313-382;

ـــــــــ، "عصر السلطان سليمان القانوني والدولة العالمية"، الأتراك (نشر: حسن جلال جوزل وآخرين)، أنقرة ٢٠٠٢م، التاسع، ٥٠١ - ٥٢٠.

________, "Sultan Süleyman Çağı ve Cihan Devleti," Türkler (nşr. Hasan Celal Güzel v.dğr.), Ankara 2002, IX, 501-520;

ـــــــــ، قوانين السلطان سليمان وميلاد أسطورة: البنية القانونية في الدولة العالمية"، التاريخ والحضارة، الرابع عشر (١٩٩٥م)، صفحة: ٤٢ - ٤٥.

________, "Kanunî'nin Kanunnâmeleri ve Bir Mitin Doğuşu: Cihan Devletinde Hukukî Yapı,"Tarih ve Medeniyet, XIV (1995), s. 42-45;

ـــــــــ، إبراهيم بَاشَا، موسوعة وزارة الشئون الدينية الإسلامية، الحادي والعشرون، ٣٣٣ - ٣٣٥.

________, "İbrahim Paşa,"DİA, XXI, 333-335;

ـــــــــ، مُوهَاجْ ١٥٢٦: الحرب التي فتحت أبواب وسط أوروبا على مصراعيها أمام العثمانيين"، الحرب في العصر العثماني الكلاسيكي، إسطنبول ٢٠١٠م، صفحة: ١٥٩ - ٢١٦.

________, "Mohaç 1526: Osmanlılara Orta Avrupa'nın Kapılarını Açan Savaş,"Osmanlı Klasik Çağında Savaş, İstanbul 2010, s. 159-216.

فَرِيدُون أَمَجان، "غزوة العراقيْن"، موسوعة وزارة الشئون الدينية الإسلامية، التاسع عشر، ١١٦ - ١١٧.

F.Emecen, "Irakeyn Seferi,"DİA, XIX, 116-117;

أ. شـاهين – فَرِيـدُون أَمَجـان، "معاهدة أَمَاسْـيَا"، موسـوعة وزارة الشـئون الدينية الإسلامية، الثالث، ٤ – ٥.

İ.Şahin-F.Emecen, "Amasya Anlaşması," DİA, III, 4-5

ت. جوكبيلجين، الاحتياطات والفتوحات الأولى لإبراهيم بَاشَا في غزوة العراقيْن بحسب ما جاء بالعرائض والتقارير"، بيليتن، الحادي والعشرون / ٨٣ (١٩٥٧)، ٤٤٩ – ٤٨٢.

T. Gökbilgin, " Arz ve Raporlarına Göre İbrahim Paşa'nın Irakeyn Seferindeki İlk Tedbirleri ve Fütuhatı," Belleten, XXI/83 (1957), 449-482.

آيدوغان دمير، "فرمان السلطان سليمان القانوني بشأن تاركي الصلاة"، *TİD*، الثاني (١٩٨٤)، صفحة: ٤٦ – ٥٣.

Aydoğan Demir, "Kanunî Sultan Süleyman'ın Terki Salât Edenlerle İlgili Fermanı," TİD, II (1984), s. 46-53;

ب. فودور، "السياسة العثمانية في المَجَر"، ترجمة: أ. كولتشاك، مجلة التاريخ، عدد: ٤٠ (إسطنبول ٢٠٠٤)، صفحة: ١١ – ٨٦.

P.Fodor, "Macaristan'a Yönelik Osmanlı Siyaseti," trc. Ö. Kolçak, Tarih Dergisi, sy. 40 (İstanbul 2004), s. 11-86.

ك. شوارز، "برلين، براندنبورج والأتراك"، التاريخ والمجتمع، التاسع / ٥٠ (شباط/ فبراير ١٩٨٨)، صفحة: ٢٣٢ – ٢٣٨.

K. Schwarz, "Berlin, Brandenburg ve Türkler," Tarih ve Toplum, IX/50 .(Şubat 1988), s. 232-238

هـ. لوري، "من "طِرَابْزُونْ" إلى إسطنبول: العلاقة بين السلطان سليمان القانوني وشقيقه من الرضاعة يحيى أفندي"، دراسة عثمانية، عدد: ١٠ (١٩٩٠م)، صفحة: ٣٩ – ٤٨.

H. Lowry, "From Trabzon to Istanbul: The Relationship between Suleyman the Lawgiver and his Foster Brother (Süt Karındaşı) Yahya Efendi," Osm.Ar., sy. 10 (1990), s. 39-48;

إسماعيل إ. إيرونسال، المساهمة العثمانية في تاريخ الزندقة والإلحاد في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، المرجع سالف الذكر، عدد: ٢٤ (٢٠٠٤م)، صفحة: ١٢٧ – ١٥٧.

İsmail E. Erünsal, "XV-XVI. Asır Osmanlı Zendeka ve İlhad Tarihine Katkı," ;a.e., sy. 24 (2004), s. 127-157

أ. برزير، "خطاب السـلطان سـليمان القانوني إلى الملك فرانسوا الأول"، التاريخ الاجتماعي، عدد: ١٧ (أيار/مايو ١٩٩٥م)، صفحة: ٤٣ - ٤٥.

A. Berthier, " Kanuni Sultan Süleyman'ın I. François'ya Mektubu," Toplumsal Tarih, sy. 17 (Mayıs 1995), s. 43-45.

م. جَـاوُوشْ أوغلـو، "مرثيات الأمير مصطفى"، مجلة معهد التاريخ، الثاني عشـر (إسطنبول ١٩٨٢م)، صفحة: ٦٤١ - ٦٨٦.

M. Çavuşoğlu, "Şehzade Mustafa Mersiyeleri," Tarih Enstitüsü Dergisi, XII (İstanbul 1982), s. 641-686

ج. ل. باسكي جرامون، "تقرير غير منشور حول ثورة الأناضول في عام ١٥٢٧"، بيليتن، *LI*/١٩٩ (١٩٨٧م)، صفحة: ١٠٩ - ١١٧.

J. L. Bacque Grammont, "1527 Anadolu İsyanı Hakkında Yayımlanmamış Bir Rapor,"Belleten, LI/199 (1987), s. 109-117

م. جـوب أوغلو، "غزوة السـلطان سـليمان القانوني إلى مولدوفـا وانتصاره بها"، بيلتين،*L/198* (١٩٨٧م)، صفحة: ٧٢٧ - ٨٠٥.

M. Guboğlu, " Kanuni Sultan Süleyman'ın Boğdan Seferi ve Zaferi," .Belleten, L/198 (1987), 727-805

أ. بويـوك طغـرول، "وثائق حـول معركة بـروزة"، بيلتيـن،*XLII/168* ، (١٩٧٨م)، صفحة: ٦٢٩ - ٦٦٥.

A.Büyüktuğrul, "Preveze Muharebesine İlişkin Belgeler,"Belleten, XLII/168, (1978), s. 629-665.

إ. بوسـطان، "معركة بروزة البحرية"، موسـوعة وزارة الشـئون الدينية الإسـلامية، الرابـع والثلاثون، صفحة: ٣٤٣ - ٣٤٥.

İ.Bostan, "Preveze Deniz Muharebesi,"DİA, XXXIV, 343-345.

إ. أوزوم، "مُـلّا قابـض"، موسـوعة وزارة الشـئون الدينيـة الإسـلامية، الثلاثـون، ٢٥٤ - ٢٥٥.

İ.Üzüm, "Molla Kabız,"DİA, XXX, 254-255

طيـب جوكبيلجيـن، "سـليمان الأول"، موسـوعة الإسـلامية، الحـادي عشـر، ٩٩ - ١٥٥.

Tayyip Gökbilgin, "Süleyman I,"İA, XI, 99-155;

ج. فينستين، سليمان، *E12* (باللغة الإنجليزية)، الحادي عشر، ٨٣٢ - ٨٤٢.

G. Veinstein, "Suleyman,"EI2 (İng.), IX, 832-842.